تأسيسُ عِلْمِ الجَهْلِ لتحْريرِ العقْلُ

إبـراهيم البليهي

عبقريّة الاهتمام التلقائيّ

(التعلُّمُ اضطراراً مضادٌّ لطبيعةِ الإنسانِ التِّلقائيَّةِ)

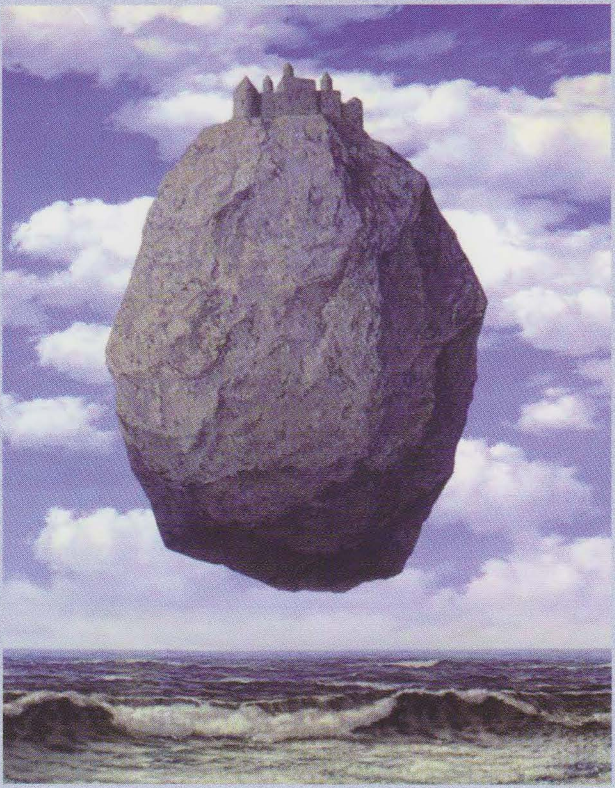

مكتبة
مؤمن قريش

التنوير

إبراهيم البليهي

عبقريّةُ الاهتمامِ التِّلقائيِّ

الكتاب: عبقريّةُ الاهتمامِ التّلقائيِّ

تأليف: إبراهيم البليهي

عدد الصفحات: 392 صفحة

الطبعة الأولى: 2017

الترقيم الدولي: 2-97-6483-977-978

رقم الإيداع: 2016/25859

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة-جاردن سيتي 2 - شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) -الدور الأرضي- شقة رقم 2.

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

مكتبة مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

تأسيسُ عِلْمِ الجَهْلِ لتحْريرِ العَقْلِ

إبراهيم البليهي

عبقريّةُ الاهتمامِ التِّلقائيّ

(التعلُّمُ اضطرارًا مضادٌّ لطبيعةِ الإنسانِ التِّلقائيَّةِ)

إهـداء

الاهتمامُ القويُّ التلقائيُّ هو مفتاحُ الطّاقةِ الإنسانيّة. إنّ هذه نظريّة تأسيسيّة تنهض على شواهدَ ووقائعَ لا حصر لها، وهي شواهد تؤكّد خصوبة التعلُّم اندفاعًا وعُقْم التعلُّم اضطرارًا. إلّا أنني وجدتُ أيضًا بقربي شاهدًا رائعًا، فما إنْ أحسَّتْ زوجتي نورة عبدالله البكري بأنّي محتاجٌ إلى من يُنجز طباعة ما أكتب حتى بادرتْ لتعلُّم الطباعة على الكمبيوتر وتمكَّنَتْ من ذلك بسرعةٍ قياسيّةٍ وبإتقانٍ فائقٍ...

لم تتعاملْ من قبل إطلاقًا مع الكمبيوتر ولا مع الطباعة، لكنها بسببِ اهتمامِها القويِّ التلقائيّ استطاعتْ خلال أُسبوعينِ فقطْ أن تتعلَّمَ العملَ على الكمبيوتر، وأن تتقنَ الطباعةَ باللّمسِ بمهارةٍ وسرعةٍ فائقتَيْنِ، فكانت هي ذاتُها برهانًا جديدًا على صدقِ نظريّة (عبقريّةُ الاهتمامِ التلقائيّ)، إذ إنّ رغْبَتَها الجارفةَ في مساعدتي مكَّنتْها من التعلُّمِ السريعِ والإتقانِ الباهرِ...

وهذه التجربةُ لا بدَّ أنها تتكرّر مع كثيرين أمثالها، تنقض النظريّة، أو القاعدة التي وضعها أندرس إريكسون من أن اكتساب مهارةٍ جديدةٍ يتطلّبُ عملًا متواصلًا يستغرق عشرة آلاف ساعة، أي إنه يحتاج عشر سنوات متّصلة. وقد أثبت جوش كاوفمان بأنَّ الشغفَ هو المفتاحُ، فقد يظلُّ المهنيُّ سنواتٍ طويلةٍ وهو ركيكُ الأداءِ، بينما يمتلكُها المندفعُ في أيامٍ. وهو ما حقّقته زوجتي في اكتساب مهارة الطباعة بسرعةٍ فائقةٍ، وبدِقّةٍ شديدةٍ...

لذلك أهدي لها هذا الكتاب اعترافًا بالفضل، وتأكيدًا للامتنان والإعجاب والحبِّ والاحترام...

إبراهيم البليـهـي

تقديم

رغم أن التقدّم الحضاريَّ في كل مجالاته هو نتاجُ ومضاتٍ فرديةٍ خارقةٍ، إلا أنني هنا لا أكتب عن أشخاصٍ، بل أستشهد بالأشخاص كأمثلة ونماذج لإثبات الفكرة، أو الأفكار التي أقدّمها. فالأشخاص هنا هم شهود القضيّة، سواء في كونهم من الروّاد القلّة الذين يتحرّكون عكس اتجاه التيّارات السائدة، أو كونهم ذائبين في التيّارات العامّة، كما هي حال الأكثريّة من المتعلّمين مهما حملوا من شهادات. فالاندماج في القطيع هو الأصل، أما الانفكاك من ذلك فهو العمل الريادي الاستثنائي...

إن هذا الكتاب هو الكتاب الأوّل من كُتُب أخرى عن (عبقرية الاهتمام التلقائيّ)، وهي كلّها تأتي لتأكيد أن (الإنسان كائنٌ تلقائيٌّ)، وأن التعليمَ القسريَّ المتَّبَع في كل العالم مضادٌّ لطبيعة الإنسان التلقائيّة، وأن قابليّات الإنسان لا تنفتح إلا بدوافع من داخل ذاته. فالكتابُ يقدّمُ شواهد من كل المجالات على خصوبة التعلُّم، رغبةً واندفاعًا، وعُقم التعلُّم كُرْهًا واضطرارًا. إنه احتجاجٌ ضد تضييع الأعمار والأموال والزمن في تعليمٍ قسريٍّ يضطرّ إليه الدارسون، لكي يفتحوا لأنفسهم أبواب العمل، ولكي يعترف بهم المجتمع الذي فرض التعلُّم كُرْهًا واضطرارًا بأسلوب إكراهيٍّ منفِّرٍ وعقيم. هذا الكتاب مرافعة فكريّة، ضدَّ التعليمِ المتَّبَعِ في كلّ العالم، بمضمونه وأسلوبه ومدّته ومراحله ومعاييره، وكل ما ينتج عنه من تعويد على الامتثال وطمس للنزعة الفردية، ومن خلط بين المعلومات والمعرفة، فالمعلومات موادّ لبناء المعرفة وليست معرفةً. المعرفة الحقيقيّة هي التي يجري تمثُّلها بواسطة الاندفاع التلقائيّ بالشغف العميق، والممارسة الحيّة، والمعايشة الحميمة، فتمتزج في الذات وتصير جزءًا من عتادها الذاتي التلقائيّ،

فتكون دائمة الجاهزيّة وتلقائيّة الاستجابة. كما أن التعليم بوضعه الحالي يوهم بأن المعرفة النظريّة هي تأهيلٌ للأداء العملي وللمهارة المهنيّة، مع أن بينهما اختلافًا نوعيًّا، وليست هذه سوى بعض نتائجه الضارَّة لكل الأجيال في كلّ الأمم...

يتكوّن الكتابُ من ثمانية أقسام وهي كما يلي:

- القسم الأول: مدخلٌ عامٌّ استعرضتُ فيه أسماء أطباء تخلّوا عن مهنة الطب، وأخذتهم اهتماماتهم التلقائيّة إلى مجالات شديدة التنوّع والاختلاف، فلم يُعرَفوا في العالم إلا بما تفرَّغوا له واشتُهروا به...

- القسم الثاني: يتضمّن مقارنةً بين الطبيب وليم جيمس، الذي هجر الطب، فاشتهر بريادته الخارقة في علم النفس، ثم اشتهر كفيلسوف من أشهر فلاسفة العصر، وأوسعهم تأثيرًا، مقابل الطبيب الأحمق غولدشتاين الذي بقي غارقًا في البرمجة الصهيونيّة، رغم دراسته لعلوم العصر وتخرُّجه طبيبًا...

- القسم الثالث: يتضمَّنُ مقارنةً بين الطبيب الفرنسي جورج كليمنصو، الذي اشتهر صحافيًّا لامعًا، ومثقَّفًا حرًّا، وسياسيًّا جريئًا؛ ثم تَوَّجَ ذلك كلّه بقيادة فرنسا إلى النصر في الحرب العالميّة الأولى، فأصبح زعيمًا خالدًا تفخر به فرنسا، ويُبرزه التاريخ كأحد صنّاعه، وهو بذلك نتاج ذخيرة زاخرة من الفكر الحرّ بعمقه التاريخي والاجتماعي، مقابل الطبيب العربي الذي دفعه حبُّ السلطة إلى المقاومة العنيفة ضد من يعارضه. ولكنه بهذا السلوك العنيف لا يمثّل نفسه، وإنما هو نتاجُ ثقافة تقوم على مبدأ: «لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ»، ومعيارها: «إنما العاجز من لا يستبدّ». فكل منهما يمثّل ثقافة مغايرة للأخرى مغايرة نوعية فاصلة وحاسمة، فالمقارنة هنا هي مقارنة بين ثقافتين...

- أما القسم الرابع: فيتضمّن مقارنةً بين الطبيب الشاعر جون كيتس الذي كان يحترق إشفاقًا على الجنس البشري مما يعانيه، فيندفع للإسهام في الارتقاء به بواسطة الفن والأدب. أما النقيض له فهو الطبيب الثائر تشي غيفارا الذي كان يتوهَّم أنه يستطيع إصلاح العالم بإشعال الثورات وحرب العصابات، ولكن التاريخ أثبت أن الخير لا يُجلَب بالشرّ، فالعنف يفاقم العنف، والأوضاع المُراد

تحطيمها تكون راسخة وقوية، فهي تقاوم بشراسة، ومن ثم فإن الضرر يكون أضعاف النفع، فتكون نتائج العنف مأساوية، بل كارثيّة، كما حصل في أفغانستان والعراق والصومال وليبيا وسوريا وغيرها. فالتغيير الحقيقي يجب أن يتّجه أوّلًا إلى التحجّر الثقافي، فيحاول إحداث ثقوبٍ وانكساراتٍ في البنية الثقافيّة الصّلبة المتحجّرة، كما حصل في أوروبا منذ كولومبس وكوبرنيكوس ومارتن لوثر وغاليليو وبيكون ومونتانيه وديكارت... أما من دون خلخلة البنية الذهنيّة المتحجّرة لأي مجتمع متخلّف، ومن دون تغيير طريقة التفكير، وإعادة ترتيب منظومة القيم، فإن كل جهود التغيير ستبقى عقيمة، فالتعليم في مجتمعً متخلّفٍ يرسّخ التخلّف...

- أما القسمُ الخامسُ: فيتضمّن مقارنةً بين طبيبين: أحدهما أبدع في مجال الفكر، والثاني أبدع في مجال الفعل. فالطبيب غوستاف لوبون أبدع في مجال التنظير والفكر والعلم، وكانت رؤاه مصدر إلهام لرجال العلم والسّياسة والفكر، وما زال تأثيره قويًّا، مقارنةً بالطبيب القائد الذي أبدع في مجال الفعل مهاتير محمد. فقد انتزع الأخير ماليزيا من قاع التخلّف، وقفز بها إلى ذروة التقدّم الاقتصادي والصناعي والاجتماعي، وواجه بمقدرة استثنائيّة أوضاعًا حرجة، واستطاع أن ينقذ ماليزيا من مآزق خانقة؛ فكان نموذجًا للقائد القدير الأمين. ولكن هذا لا يعني أنه من دون أخطاء، فلست أتّفق معه في هجومه المتكرّر على الغرب، فهو يثني على التجربة اليابانيّة، ويتجاهل أن اليابان لم تتقدّم إلا بمقدار ما أخذته من الغرب...

- أما القسمُ السادسُ: فيتضمّن مقارنةً بين الطبيب الأديب المبدع يوسف إدريس في جهده التنويري، مقابل جموع من الأطباء وقفوا ضد التنوير. وبعضهم قادوا منظّمات معادية للحضارة، ومضادّة لأي اتجاه يتبنّى التنوير. وهؤلاء لم يتأثّروا بما درَسوه من علوم، وإنما بقوا ذائبين في تيار الموروث، وربما تمسّكوا بأسوأ ما في الموروث وتركوا الجوانب المضيئة منه. وشهروا السلاح لإجبار غيرهم على اعتناق أفكارهم، التي تتعارض مع العلم ومع مهنة الطبِّ، كما تتعارض مع المبادئ العظيمة التي جاء بها الإسلام...

- القسم السابع: يتضمّن مقارنةً بين الطبيب الفيلسوف كارل ياسبرز، بفلسفته الإنسانيّة العالية، ورؤاه الفكريّة العميقة، وإنتاجه الفلسفي الغزير، ومكانته الفلسفيّة الرفيعة، مقارنةً بالطبيب العنصري الإرهابي رادوفان كاراديتش، الذي قاد عمليّات الإبادة الجماعيّة ضد المسلمين في صربيا، وحوكم كمجرم حرب في محكمة العدل الدولية...
- القسم الثامن: وهو خاتمة الكتاب، وفيه دعوةٌ للتضامن العالمي من أجل تحرير العقل البشريّ من أوهامه العميقة المزمنة، وهويّاته العدوانيّة المغلقة، وثقافاته المتباينة المتنافرة...

وأود هنا أن أُذَكِّر بأن هذا الكتاب يأتي ضمن مشروع فكري واسع، يحمل عنوان (تأسيس علم الجهل لتحرير العقل)، لأنني أعتقد بأن البشريّة تقدّمت تقدّمًا هائلًا في مجالات الوسائل والقدرات العمليّة، لكنّها ما زالت شديدة التخلّف في المجالات الفكريّة والأخلاقيّة، حتى لتبدو المنجزات الباهرة في مجالات الوسائل وكأنها من إنجاز نوع آخر مختلف عن الناس، الذين يستخدمون هذه المنجزات ويتقاتلون بها...

إبراهيم البليهي

القسم الأوّل

مدخلٌ عامٌّ

استعراض سريع للتّذكير بأسماء أطباء هجروا مهنة الطبِّ، حيث أخذتهم اهتماماتهم التلقائيّة إلى مجالات شديدة التنوّع والاختلاف، فعرفهم العالم عن طريق مجالات الاهتمام، وغابت مجالات التخصّص. والهدف من هذا الاستعراض المختصر هو التذكير وليس الاستقصاء. فهم غالبًا مشهورون وجاء التّذكير بهم هنا كأمثلة ونماذج...

أطباء تخلَّوا عن الطبِّ لاهتماماتهم التلقائيّة

تُخَرِّجُ الجامعاتُ والمعاهد والكليّات في كل العالم كلَّ عامٍ ملايين المتخصّصين في مجالات شديدة التنوّع، في اللغة والأدب والمحاسبة والطبِّ والهندسة والقانون والاقتصاد والاجتماع والسياسة والفنون بمختلف المجالات، وتتنوّع التخصّصات بحسب متطلّبات الأعمال المختلفة التي أوجَدَتْها التطوّراتُ الحضاريّة الحديثة الطارئة. ويبقى هَمُّ كلّ متخرّج أن يجد عملًا يناسبه، وأن ينجح في المهنة التي تخصّص بها، ويظلّ هذا هو أقصى ما يطمح إليه المتخرّجون، لأنهم بعد كلّ المراحل الدراسية المتعاقبة، والسنوات الطويلة المملّة التي أمضوها مضطرّين محشورين في الصفوف التعليميّة، يأتي أكثرهم إلى مواقع العمل من دون مهاراتٍ عمليّة...

إن اكتساب المهارات المهنيّة لا يتم أثناء التعليم، باستثناء الطب الذي يمثّل الجانب العملي والتدريبي فيه أهميّة استثنائيّة، أما بقية المجالات فيتم اكتساب المهارة المهنيّة من الممارسة بعد الالتحاق بالعمل. أما المعلومات التي اضطرّوا لحفظها خلال السنوات الدراسية الطويلة، فلا يكادون يتذكّرون منها شيئًا، وحتى لو تذكّروا شيئاً منها فإنه يوجد فرقٌ نوعيٌّ بين المعارف النظريّة والممارسات العمليّة. ومع وضوح هذه النتائج، فإن العالم ما زال يواصل التعليم بالطريقة العقيمة نفسها، التي تقتطع من أعمار المتعلّمين كل هذه السنوات الطويلة، ومع ذلك لا تهيّئ الخريجين حتى للعمل المهني الذي واصلوا الدراسة من أجله...

أما أن يصير الخرّيجون من روّاد العلم، مثل غاليليو أو نيوتن، أو من قادة الفكر مثل سقراط وديكارت، أو من أهل الاكتشافات الفارقة مثل فاراداي وكولومبس، أو من روّاد المشاريع الكبرى مثل إديسون وفورد.. فهذا لا يكون ضمن آمالهم. وأقصى ما يحلمون به هو الاستقرار الوظيفي باستثناء أفراد قلائلَ تُمَكِّنهم، بل تدفعهم اهتماماتهم

التلقائيّة القويّة المستغرقة، ومواهبهم الاستثنائيّة الفارقة، أن يصيروا روّادًا أو مبدعين أو متميّزين في مجالات تستحوذ على اهتمامهم وتستغرق تفكيرهم وتشغل أذهانهم، حيث يتدفّق النشاط تلقائيًّا، وهؤلاء هم القلة المبدعة. فالمتخصّصون يسيرون في طريق ممهَّد ومطروق، بينما الإبداع له «طريقان في غابة، وأنا.. أنا مَن سَلَك غير المطروق منهما، وقد كان ذلك هو الاختلاف بأسره»، كما قال روبرت فروست. فالمبدع يشقّ طريقه بنفسه،فيضيف مسالك جديدة للفكر والفعل. أما المتخصّصون فالمطلوب منهم والمنتَظَر هو تنفيذ ما هو مقرّر، والالتزام بالسير مع الطريق المطروق...

إنّ التخصّص الحقيقيَّ للإنسان هو مجال شغفه، وموضع اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق، وليس المجال الذي اضطرَّ اضطرارًا لدراسته. فالعقل قدرةٌ حياديّة يحرّكها الاهتمام النابع من أعماق الذات. إن إلحاح الأفكار الإبداعيّة عند القلّة المبدعة يكون ضاغطًا بقوة، فلا فكاك منه إلا بالاستجابة لإلحاحه والاستغراق فيه. وتكون مجالات التميّز في الغالب مغايرة للمجالات التي تخصّصوا فيها، فالرّيادة والقيادة والكشف الخارق والإبداع المؤثِّر والحكمة العميقة الفريدة كلّها لا يمكن نوالها بالتخصّص، وإنما هي إنجازات فرديّةٌ غير مخطَّطٍ لها، بل لا يمكن التخطيط لها. إنها إشراقاتٌ فرديةٌ استثنائيةٌ خارقةٌ، فكل إبداع هو انبثاقٌ من أعماق الذات، أما مقوّمات ذلك فأهمّها الشغف وما ينتج عنه من اهتمامٍ تلقائيّ قويٍّ مستغرق...

يقول الطبيب مجدي سعيد (وهو أستاذ جامعي مصري): «أدركتُ مبكرًا أن الشغف لا يمكن أن يكون جبريًّا، لا يستطيع أحدٌ أن يجبرك على الشغف بالعلم، حتى لو قضيت عمرك كلّه مضطرًا لدراسة العلوم، بل حتى لو عملت وتخصّصت في مجالات علميّة ما دامتْ سهام الشغف لم تُصِب قلبك. وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع كاملًا». ويضيف: «بدأتْ علاقتي بالعلوم كعلاقة إجباريّة بدأتْ باختيار شقيقتي الكبرى لاثنين من كتب تبسيط العلوم، وهي الكتب التي ظلّت من دون قراءة، إذ إن مكتبتي كانت تنمو في مساحات أخرى غير علميّة، ثم بإصرارِ أهلي على دخولي كليّة الطب، على الرغم من أن شغفي كان بالكتب والكتابة في مجالات ثقافيّة عدّة، ليس من بينها العلوم ولا الطب. وعندما انتهيت من الدراسة وبدأت العمل طبيبًا، ظلّت محاولاتي مستمرّة للخروج عن المسار». ويستطرد: «كان جيلي قد عرف أسلوبًا في التعليم لا

يستكشف في التلاميذ شغفهم، ونشأ في رعاية أُسرٍ لم تولِ كبير اهتمام بأن يتبع الأبناء ما يشغفون به». وهو يرى بأن توجيه الإنسان لدراسة ما لا يهواه هو ضياعٌ للأعمار، وتبديدٌ للطاقات، وتجاهُلٌ لطبيعة الإنسان. فقابليّات الإنسان لا يمكن أن تستجيب إلا لما يرغب فيه الفرد، أما النجاح في الدراسة فلا يحمل دلالة إيجابيّة. فهذا الطبيب أرغمه أهله على دراسة الطبّ، فواصل الدراسة كارهًا مضطرًّا، لكنه كان ينجح كغيره، وربما ينجح بتفوّق، وحصَل على شهادة الطب رغم كرهه للمجال، ثم مارَس المهنة. وهو نموذجٌ لكل الذين ينتظمون في التعليم اضطرارًا. لقد لازمتْه الرغبةُ في الخروج من المجال الذي انتظم فيه كُرْهًا واضطرارًا فهَجَر الطبَّ واستغرق في المجال الذي يهواه، فيحتشد له كلُّ كيانه...

ونستعرض هنا نماذج من الأطبّاء الذين تركوا مهنة الطب، وانغمسوا في مجالات متنوّعة مغايرة، لأن اهتماماتهم التلقائيّة كانت آسرة ومهيمنة. كما أن طموحاتهم وقدراتهم كانت أعلى وأكبر من أن يستغرقها عملٌ مهنيٌّ بنطاقه المحدود الضيّق. وقد استغرقتهم خارج مجال الطبّ مجالاتٌ شديدةُ التنوّع في العلم والسياسة والفكر والأدب والشعر والفن الروائي، وغيرها من مجالات العمل، أو الإبداع. ولست أريد بهذه الإشارات السّريعة التعريف بهم، فأكثرهم صاروا من كبار المبدعين، فصدرت عنهم دراساتٌ متنوّعة وكُتُبٌ ضخمة. ومن ناحيتي، كَتَبْتُ عن بعضهم في مكان آخر مقالاتٍ مفصَّلة. لكني أذْكُرهم هنا كشهود وأمثلة ونماذج على عُقْم التعلُّم اضطرارًا، وخصوبة التعلّم اندفاعًا، وتأكيد أن العقل البشري ما زال محكومًا بالثّقافات التي تكَوَّنت تلقائيًّا، وأن تأثير العلوم الممحّصة على مختلف الثقافات وعلى العقل البشري، أُممًا وأفرادًا، هو تأثير ضئيلٌ غاية الضآلة. وفي بعض المجتمعات ذات الأيديولوجيات المنغلقة تكُونُ أضرار التعليم عميقةً وحاسمةً، حيث يتم شحن الدارسين ضدَّ كل ما هو مغاير. وهي أضرارٌ يصعب تداركها، فالتعليم الجامعي في أحسن حالاته، حتى نهاياته العليا، لا يغيِّر العقليّات نحو الأفضل، وإنما قد يكرّس الانغلاق ويُلهب الاختلافات. وهو بالتأكيد لا يُنتج المبدعين وإنما يحاول جَعْل الدارسين متهيّئين للبدء في الأعمال المهنيّة، حتى وإن كانوا يبدأون من دون مهارات عمليّة، بل يكونون فقط قابلين لاكتساب المهارات المهنيّة مع بقاء هذا الاكتساب مرهونًا بمستوى رغبتهم واندفاعهم للمجال. أما الإبداع

فهو نادرٌ ندرةً شديدةً، وهو لا يأتي إلا بكسر القيود الذهنيّة والنفسيّة والوجدانية، وهَزّ وتحريك وإشعال المواهب الكامنة، وتوافُر الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرِق...

ولئلا يُظَنّ بأن هَجْر التخصُّص ثم الإبداع في مجالات مغايرة خاصّ بالأطبّاء، نستهل النماذج بمثالٍ من الهندسة. فالمخرج الروسي الشهير سيرغي إيزنشتاين كان قد تخصَّص دراسيًّا في الهندسة المدنيّة، ولكنه بمحض اهتمامه الذاتي، وشغفه الأصيل، واندفاعه التلقائيّ صار مبدعًا في مجال الإخراج المسرحي والإخراج السينمائي. ونقتطف توضيحًا عن ذلك من مذكّراته (مذكّرات مخرج سينمائي)، حيث يقول: «أذْكُر بوضوح كيف بدأتْ حياتي الفنيّة: حدَث انطباعان متلاحقان كصاعقتَيْن، هما اللذان قرّرا مصيري. كان الأول، مشاهدتي لمسرحيّة (توراندوت)، إذْ أصبح المسرح منذ تلك اللحظة موضع اهتمامي الشديد، وحماستي التي لا حدَّ لها». ورغم هذا الولع الآسر إلا أنه كان يريد الاستمرار في مهنة الهندسة المدنيّة لأنه رتَّب حياته في هذا المجال، وأيضًا كان يريد الالتزام بمسار أبيه الذي كان يعمل مهندسًا مدنيًّا، لكنْ حصَلَتْ حالةٌ أخرى جارفة أخذته بقوّة إلى فن المسرح. ويستطرد: «جاءت اللَّطمة الثانية، وكانت الحاسمة القاطعة، من مشاهدة مسرحيّة (ماسكاريد).. تركْتُ معهد الهندسة وأحرقْتُ كلَّ الجسور من ورائي.. اندمجْتُ بسرعةٍ في عالم المسرح؛ فعملتُ أوَّلًا مصمّمًا للمناظر، ثم ترقّيت مخرجًا مسرحيًّا، ثم أصبحت مخرجًا سينمائيًّا». ويضيف: «كان الشيء المهمّ أن عَطَشي لذلك الشيء الغامض الذي يسمونه الفن لم يكن يعرف الارتواء، أو الشبع، وأن أي تضحية مهما جلَّت كانت هَيِّنةً في هذا السبيل». ويوضح في موضع آخر: «الفن كان يحيطني ويسترقّني بسحره اللانهائي»، هكذا تتجلّى طبيعة الإنسان التلقائيّة. فالدراسة التي استهلكت سنوات طويلة من حياته، واستنزفت طاقته في أهم سنوات عمره، تَخَلَّى عن مجالها بمنتهى اليُسر بعد أن تأهّل لها مهنيًّا، فالاندفاع التلقائيّ قاهرٌ وآسرٌ. واستطاع باهتمامه الذاتي وبشغفه المتوقّد، واندفاعه التلقائيّ، أن يعلِّم نفسه بعمق وسرعة، وأن يكون باهرًا في المجال الجديد الذي استحوذ على ذاته، واستغرق اهتمامه، وملأ نفسه بالبهجة والإحساس بالذّات. كما استطاع أن يكتسب العديد من المهارات الصعبة، وأن يصبح من أبرز المبدعين في مجال الإخراج المسرحي والإخراج السينمائي. وهذا النموذج وأمثاله يؤكّد أن إعداد الأجيال للأعمال المهنية لا

يحتاج كل هذه السنوات الطويلة من الدراسة والكَدّ والمعاناة، بل السبيل إلى ذلك هو خلق الشغف وتكوين الاهتمام التلقائيّ، وبذلك يتم استنفار الطاقات تلقائيًّا، أما التعلُّم اضطرارًا فهو إهدارٌ متكرّر مع كلّ الأجيال للطاقات الإنسانيّة...

ولكي لا يقال بأن سيرغي إيزنشتاين يمثّل حالة شاذّة لا يقاس عليها، لا نكتفي بالتذكير بأن الإبداع نادر، وبأنه يأتي مغايرًا للتيّارات السائدة، بل نُذَكِّر ببعض الأسماء الإبداعيّة اللّامعة من الذين هجروا الهندسة واستغرقتهم اهتماماتهم التلقائيّة. ويأتي في المقدّمة المبدع الروسي العالمي دوستويفسكي، وفيلسوف العلم هنري بوانكاريه، والفيلسوف الشهير فيتغنشتاين، والمبدع البريطاني توماس هاردي، وعالم الاجتماع الشهير ولفريدو باريتو، ومثله جورج سوريل، والمفكّر الجزائري مالك بن نبي، والمفكّر الفرنسي سرفان شرايبر، والمبدع الأميركي نورمان ميلر، والمؤلف القدير نبيل علي، والشاعر علي محمود طه، والروائي علي الشّوك، والصحافي علي أمين، فكل هؤلاء وغيرهم هجروا مهنة الهندسة وأبدعوا في مجالات مختلفة. وحين ننظر إلى الجانب السياسي نتذكّر الآتين من تخصّص الهندسة وهم كُثُرٌ، ومنهم: الرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف، والرئيس أندريه غروميكو، والرئيس الصيني جين بينغ، وكذلك الرئيس السابق جيانغ زمين، والرئيس الإندونيسي أحمد سوكارنو، والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات، والأمين العام للأمم المتحدة أنتونيو غوتيريس، والزعيم الألماني ألبير شبير أشهر زعماء النازية بعد هتلر، والرئيس التركي سليمان ديميريل، وكذلك تورغوت أوزال ونجم الدين أوربكان، ورئيس الوزراء اليوناني أليكسيس تسيبراس، والرئيس الارجنتيني ماوريسيو ماكر، ورئيس وزراء العراق حيدر العبادي، وغيرهم...

أما الذين نجوا من التأطير التعليمي واعتمدوا على أنفسهم مبكّرين، فحفظوا وقتهم وطاقتهم وقابليّاتهم، فهم الأكثريّة من الرواد والمخترعين والمبدعين في مجالات شديدة التنوّع. وهؤلاء كانوا قادة التطوّر ورواد التغيير، كما كانوا الأكثر إبداعًا في كلّ المجالات. إنها حقيقة ساطعة تستوجب التأمّل العميق. فهؤلاء كلّهم نماذج لقادة ومبدعين لم ينالوا تعليمًا جامعيًا، وبعضهم لا يحمل حتى شهادة المرحلة الابتدائيّة! إنهم قادة التطوّر الحضاري مثل: شكسبير وسرفانتس ودانيال ديفو وجيمس وات وريتشار آركرايت وبنز وإيستمان وكلاشنيكوف وفولتا وفاراداي ودالتون وجول ومندل

وليفنهوك وروسو وأوغوست كونت وسان سيمون وفورييه وإنجلز وبرودون وباكونين وإديسون وفورد وتايلور وديل كارنيجي ووالت ديزني وبنيامين فرانكلين وبيل غايتس وستيف جوبز وليون تولستوي وشارلي شابلن وأندريه جيد وفلوبير وهوغو وكوكتو وجان جينيه وغوركي وكروتشه وتوماس مان وبرنارد شو وأناتول فرانس وبيكاسو وتشايكوفسكي وفاغنر وغرامشي وكولن ولسون وهمنغواي وديكنز وجورج أورويل وريلكه وجورج إليوت وبرونتي ومارك توين وفاغنر ويوجين أونيل ومورافيا ولوركا وملفيل وآلان بو ووايتمان وريتشارد رايت وشتاينبك وإدوارد آلبي وبول بولز وماركيز ونيرودا وفرناندو بيسوا ومانغويل وغاليانو وبردياييف وجورج صاند وفيرجينيا وولف وساراماغو وأورهان وغونتر غراس وطاغور وستاندال وإميل زولا وآرثر كوستلر وييتس وأوكتافيو باث والعقاد وعلي أدهم ومي زيادة وجبران وفدوى طوقان ومحمد دكروب وإميل حبيبي وسميح القاسم وغسان كنفاني وناجي العلي وناظم حكمت وجورجي زيدان وإبراهيم العريض والرصافي والجواهري والرافعي ومحمود درويش والفيتوري وأحمد مطر وبلند الحيدري والزفزاف وابراهيم العريس وغسان الإمام وزكريا تامر وحنان الشيخ وعصام محفوظ ومحمد شكري وكاتب ياسين والطاهر وطار والماغوط والأبنودي ودنقل ومارون عبود وسلامة موسى وعبدالله النديم ومحمود شاكر وأمين الريحاني وحازم صاغيّة وعزيز ضياء ومحمد حسن عوّاد وحمد الجاسر وعبدالله باجبير وعبدالله جفري ومحمد حسنين هيكل ولاري كنغ وجوليان أسانج وحنا مينه وقاسم حداد وإبراهيم أصلان وهنري ميلر وإبسن وبونين وشولوخوف، ومعظم الذين نالوا جائزة نوبل في الأدب. ومن قادة العصر الذين لم يتلقّوا تعليمًا جامعيًّا: ماوتسي تونغ وستالين وتيتو ومانديلا وتروتسكي وفيلي برانت وجاك ديلورز وجان مونيه وجون ميجور واكسياو بنغ وهتلر وتشرشل وفاليشا ولولا دا سيلفا وأحمد بن بيلا وعبدالعزيز بوتفليقة وغيرهم من المشاهير والقادة، وبعضهم كَتبتُ عنهم فصولًا، وآخرون منهم سأعود إليهم. أما النتيجة، فهي تأكيد أن التأطير التعليمي يُنتِج الامتثاليين وليس القادة والمبدعين...

ولأني مؤمن أعمق الإيمان بأن التطوّرات الحضاريّة هي نتاج الومضات الفكريّة والإبداعيّة للقلّة من الرواد والمبدعين، وأن الكثرة المنقادة في كلّ العالم وفي جميع

الأزمنة، لا يتجاوز دورها التقليد والتكرار والتنفيذ مهما نالت من تعليم. لذلك كنت وما زلت مهتمًّا بالتعريف بأكبر عدد ممكن من المبدعين في مختلف المجالات، كما أنني مهتم بتعرية عُقم التعلُّم اضطرارًا، وبيان إهداراته وأضراره، وهي إهداراتٌ وأضرارٌ متنوّعة وكثيرة وعميقة. إنها تستهلك الزمن وتستنزف الطّاقات وتبدّد الأموال، والأسوأ من ذلك أنها تعطّل نمو النزعة الفردية، وترسّخ الإمَّعية، وتُعَوِّد على الامتثال الأعمى، وتعوق الاستقلال المعرفي والنمو الأخلاقي والتقارب الإنساني. ومن هنا فإن هذا الكتاب سوف تتلوه كتُبٌ أخرى أحَدُها عن مؤسّسي العلوم الذين علَّموا أنفسهم، أو تخلّوا عن مجالاتهم وأسهموا في تأسيس وإنشاء علوم جديدة، من أمثال غاليليو ونيوتن وآدم سميث ومكيافيلّي ولافوازييه وداروين وليفنهوك وفاراداي ومندل وغيرهم. فمن البداهة أن تأسيس العلوم سابقٌ للتخصّصات...

وعلى سبيل المثال، فإن أشهر علماء النفس المؤسّسين قد جاؤوا من مجالات أخرى، فبياجيه متخصّص في علم الحيوان، لكنه تحوّل بمحض اهتمامه إلى مجال علم النفس، فصار من أوسع علماء النفس شهرةً، ومن أرفعهم مكانة وموثوقيّة. ومثله واطسون ولورنز وفالون وفرويد وفونت الذي تحقّق بجهده استقلال علم النفس عن الفلسفة. كما أن بافلوف جاء من علم الفيزيولوجيا، وبينيه متخصّص في العلوم، لكن شهرته في علم النفس وعلم التربية. ومثل ذلك يقال عن كلّ العلوم، فهي تأسّست ونشأت بواسطة الروّاد العصاميين، بل إن روسّو لم يتلقَ تعليمًا لكنه علَّم نفسه، أو على الأصح نجا من التأطير التعليمي المعيق، فأسس العلوم الاجتماعيّة بمحض اهتمامه التلقائيّ وجهده وعبقريّته. كما أن مؤسّس علم الاجتماع أوغست كونت لم ينتظم في الجامعة سوى ثلاثة أشهر، فاعتمد بعدها على نفسه وعمل سكرتيرًا للمفكّر سان سيمون، الذي هو الآخر قد نجا من التأطير التعليميّ، فكان في عهده من أوسع المفكّرين تأثيرًا. وكذلك هربرت سبنسر. وليس هؤلاء سوى نماذج على الرّيادات الفرديّة الإبداعيّة الخارقة...

إن إبداع الّذين علَّموا أنفسهم، أو الّذين تحوّلوا عن تخصّصاتهم ثم أبدعوا في مجالات مختلفة، هو الأصل في كل الإبداعات. وضمن عنوان (عبقريّة الاهتمام التلقائيّ)، سوف أصدر كتابًا عن قادة، أو مبدعين هجروا مجال تخصّصهم في القانون

إلى مجالات شديدة التّنوّع، بحسب تنوّع الاهتمامات، مثل بروست ونهرو وكافكا وميشيما ولي كوان يو وغاندي وفيدل كاسترو وفاليري وسان جون بيرس وتوفيق الحكيم ويحيى حقّي وفؤاد التكرلي وأحمد شوقي ونزار قباني ولوكاتش وفريديريك هايك وماكس فيبر وبيتر داراكر وباولو فيريري وإدوارد الخراط وأحمد حسين وفتحي رضوان وكلينتون، فهؤلاء وغيرهم تخصّصوا دراسيًّا في القانون (الحقوق)، ولكن اهتماماتهم التلقائيّة وزَّعتهم على مجالات لا رابط بينها. وليس هؤلاء سوى أمثلة...

وبعد ذلك تأتي كُتُبٌ أخرى عن مبدعين من مجالات مختلفة من أجل وضع التعلُّم اضطرارًا في مكانه الحقيقي من دون هالات، وبيان أن الإنسان كائنُ تلقائيٌّ يتحرّك بدوافع وبواعث وأشواق ورغبات واحتياجات من داخله. فهذه الظاهرة ليست خاصّة في الطب، وإنما هي عامّة لكلّ المجالات. لقد قمت بتجميع وقائع كثيرة متنوّعة كانت مبعثرة، من أجل تأكيد رؤيتي عن عُقم التعلُّم اضطرارًا، وخصوبة التعلّم اندفاعًا. أما الهدف، فهو الدّعوة إلى حوادث تغييرات جذريّة في أساليب التعليم ومراحله ومدّته ومضمونه، على نحو يضمن جعل المعرفة الممحَّصة مطلبًا ذاتيًّا متجدِّدًا لكلّ الدارسين، وشوقًا عميقًا من أشواقهم. وبهذا يتحقّق التعلُّم برغبة واندفاع وليس بكره واضطرار، بحيث يحترم طبيعة الإنسان التلقائيّة، ويحترم فرديته وخياراته، ويحفظ سنوات عمره من هذا الضياع. وبهذا الجهد التركيبي المكثَّف أحاول بيان أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، وأن قابليّاته لا تتفتّح، وطاقاته لا تتدفّق إلا باهتمام تلقائيّ قويٍّ مستغرق، وليس بالقسر أو الاضطرار. ومع استقطاع أهم سنوات أعمار الأجيال في المراحل الدراسيّة، ومع كلّ العقم والضرر الناتج عن تَعَوُّد الدارسين على الإمَّعية، والتفكير الجمعي، والامتثال الأعمى، وانطماس الفردية، فإن العالم ما زال يواصل السير في هذا الاتجاه الخاطئ الذي يستهلك الأعمار والأموال والطاقات. فلا ينجو من هذا الضرر المدمِّر للفرديّة سوى بعض الأفراد الذين ينفَكُّون من هذا التدجين الجماعي...

من البداهات المنطقيّة التي تؤكّدها حقائق التاريخ، أنه لولا الأفراد الروّاد الذين ساروا خلال مراحل التّاريخ الممتدّة ضد التيارات السائدة في مختلف الأمم لما حصل أي تقدّم. فالامتثاليون لا يضيفون جديدًا بل يكرّرون السائد ويقومون بأداء ما هو مقرَّر، أما الرائد فيشق طريقه بنفسه مخالفًا ما هو مستقر، سواء نجا من التأطير بالعزوف عن

التعليم، أو واصل التعليم مسايرةً للظروف الضاغطة، لكنه بقي مستقلّ التفكير. وهكذا يكون هَجْر بعض الأطباء لمهنة الطب استجابةً لاهتماماتهم التلقائيّة متّسقًا مع كلّ التخصّصات وليس فريدًا في هذه الظاهرة. فالطبيب الفيلسوف ألبير شفايتزر شخصيّة فلسفيّة عظيمة، وله مكانة عالميّة. وهو يرى أن التخصّصات المهنيّة تقزّم الإنسان معرفيًّا وإنسانيًّا. وهي كما يقول: «موجَّهة إلى بعض ملَكات الفرد فقط، ولهذا أثره في طبيعته الكلّيّة، فالملَكات التي تكوِّن الشخصيّة وتستلزمها الواجبات المختلفة الشاملة تنبذها الواجبات الأقلّ شمولًا. وتبعًا لهذا فإن تفكيره وخياله ومهاراته لا تستدعيها الصعوبات المتعدّدة في العمل، فقواه المبدعة قد انبترت، وبدلًا من الشعور الطبيعي بالذات الذي يتزايد بفضل العمل الذي يصنع كل قوّة تفكيره وكل شخصيّته، ينشأ نوعٌ من القناعة يرضى بمهارة جزئيّة. وفي كل المهن يمكن أن نتعرّف الخطر العقلي الناجم عن التخصّص مما يهدد ليس فقط الأفراد، بل أيضًا الحياة العقليّة للجماعة». فالقناعة بهذا السجن الذهني تُجمِّد طاقاتٍ إنسانيّة عظيمةً كامنةً. وكما قال المبدع آبدايك: «الإنسان القانع بهيمة ترتدي ملابس». ويقول الطبيب جورج شيهان: «القناعة هي الخطر». هكذا تكون التخصّصات سجنًا للعقول وغَلْقًا للقابليّات البشريّة، لذلك فإن شفايتزر يرى أن الفرد لا يتحمّل مزيدًا من الحصر، لأنه قد تبرمج تلقائيًّا بحصر ثقافي مغلَق منذ طفولته؛ فيوضح: «إن حياتنا العقليّة كلّها تجري مجراها في داخل المنظمات. فمن الطفولة فصاعدًا يمتلئ عقل الإنسان بفكرة النظام، إلى حدٍّ أنْ يفقد الإحساس بفردانيّته، ولا يفكّر إلا بروح الجماعة التي ينتسب إليها». إن التبرمُج التلقائيّ في الطفولة يصاحبه التطويع الأُسَري، ثم يأتي التعليم عمومًا، والتخصّص بوجه خاصّ فيزيده انغلاقًا وحصرًا. إن شفايتزر في كتابه (فلسفة الحضارة) يدعو إلى احترام الإنسان بكلّ أبعاده الفكريّة والوجدانيّة وإطلاق طاقاته المتنوّعة، بدلًا من حصره في مجال تخصّصي ضيّق يجمِّد الكثير من قابليّاته...

لذلك نجد بعض المبدعين اللامعين قد تداركوا أنفسهم من بداية الطريق، فتخلَّوا مبكرين عن دراسة الطبّ بعد أن بدأوها، وتفرّغوا لاهتماماتهم التلقائيّة القويّة الجارفة. هكذا فعل المسرحي الألماني بريخت، والشاعر الأديب الفرنسي لويس أراغون، والفيلسوف الفرنسي أندريه بروتون، والكاتبة الروائيّة الأميركيّة جيروترود شتاين،

والروائي الألماني يوهانس ينسن الحائز نوبل في الأدب، والصحافي المصري صلاح حافظ، والأديب الياباني آبي كوبو، والأديب الصيني الشهير لوشون، وغيرهم...

الطبيب كارل غوستاف يونغ من أشهر رجال العصر. فحين تقرأ في الأدب، أو في علم النفس، أو في التّحليل النفسي، أو في العلوم الاجتماعيّة، أو تقرأ عن العقل الجمعي، أو في علم الأساطير، أو ما شئت من مجالات الفكر أو الأدب، فسوف تجده أمامك بإسهاماته المتنوّعة. فهو كاتبٌ غزيرٌ ملهِمٌ، إنه من أشهر قادة التحليل النفسي ومن علماء النفس البارزين. وهو في الأصل طبيب، لكن اهتماماته التلقائيّة العميقة المتنوّعة جعلته عميق الفكر، غزير الإنتاج، واسع التأثير، لا يكاد يغيب عن أي مجال. وحين تُعَرِّف به الموسوعات لا تقول عنه بأنه طبيب، بل: عالم نفس، وفيلسوف، ومؤسّس علم النفس التحليلي، إلخ». ومن الواضح أنه قد أدرك أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، فهو ينسب كلّ فاعليّاته إلى دوافع داخليّة ذات استجابة آليّة. وعلى سبيل المثال، هو يَعتبِر أن الآلام هي التي توقظ الوعي، وأن يقظة الوعي ليست تلقائيّة، وإنما تأتي اليقظة من العوائق والمطبّات والصدمات والآلام، فيقول: «ليس هناك تقدّم نحو الوعي من دون ألم. والناس سيفعلون أي شيء، مهما كان سخيفًا لتجنُّب مواجهة روحهم. المرء لا يصبح مستنيرًا عبْر تخيُّل أشكال الضوء، بل عبر جَعْل الظلمة وعيًا». إن هروب الناس من مواجهة ما تبرمجوا به تلقائيًّا وإبقائه محجوبًا بالغبطة التلقائيّة، وحرصهم على الانتظام في القطيع، هو المعضلة الإنسانيّة الكبرى التي تحفظ استمرار الأوهام. وكما يؤكّد يونغ، فهم يتجنّبون مواجهة محتويات ذواتهم، لذلك ينبّه إلى أن: «كلَّ شيء يثير غضبنا حيال الآخرين يمكنه أن يقودنا إلى فهمٍ أفضل لأنفسنا». ومن أقواله: «حرّية الإرادة هي القدرة على أن أفعل بفرح ما عليَّ أن أفعله»، و«مهمّة الإنسان هي أن يصبح واعيًا للمحتويات التي تضغط تصاعديًّا من اللاوعي»، و«الفن دافعٌ داخليٌّ يقبض على ناصية الإنسان ويجعل منه آلته»، و«من ينبوع الفطرة المفعم بالحياة ينبع كلّ ما هو إبداعي». إن نصوصه وأفكاره ورؤيته للطبيعة البشريّة، وتعويله الشديد على الوجدان والطاقات ذات الاستجابة التلقائيّة، كلّها تشير بوضوح إلى أنه يعتبر أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ...

يأتي اسم الطبيب المبدع، الفيلسوف الألماني فريديريك شيلر، ليس ضمن تاريخ الطبّ الذي تخصّص فيه دراسيًّا، وإنما يأتي اسمه في تاريخ الأدب والفكر مقرونًا باسم

غوته وغيره من عمالقة الفكر والإبداع. وحين زار الفيلسوف الأميركي وليم جيمس أوروبا، اعتبَر أن من أهم مكاسبه أنه قرأ شيلر وغوته، فيقول: «لقد تمكّنت من قراءة شيلر وغوته، إنّ امتلاك شعب من الشعوب لحياة مثل ذينك الرجلين ومؤلفاتهما يعطيه ميزة على الأمم». هكذا يُعَدُّ شيلر مفخرة لألمانيا بكل ما تملكه من تفوّق، ليس بدراسته للطبّ بل بتخلّيه عن هذه المهنة، والهروب من الرتابة المهنية إلى جيَشان الإبداع في مجالات إبداعيّة متنوّعة. إن شيلر يرى أن التعليم المقنَّن: «لم يكوِّن بعد رجلًا عظيمًا، بينما الحريّة كوَّنت عمالقة وكائنات خارقة»، ويضيف: «الحرّيّة هي جوهر الإنسانيّة في الإنسان». كما يرى أن تغيير الأوضاع البشريّة مرهون بتغيير طباع البشر، فعنده: «دولة العقل لا تغدو ممكنة إلا عندما يتمّ تغيير طباع البشر». إن التعليم الجمعي يعمّق الذوبان في التيّار السائد، وهو بالتأكيد ليس لتخريج المبدعين، بل لتخريج المهنيين الامتثاليين من الممرّض إلى الأستاذ الجامعي...

إن سيغموند فرويد تخرَّج طبيبًا، ولكنّ اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق صرَفه عن عمل مهني تنفيذي رتيب، إلى مجالات نظريّة عميقة تستهدف فهم طبيعة الإنسان، وتشخيص الأسباب الداخليّة لأمراضه النفسيّة وإعاقاته الحضارية، بخلاف غيره من الذين تخرّجوا معه وقبله وبعده. فمن البديهي أن زملاءه قد تفرّقوا بعد تخرّجهم، وابتلعهم العمل المهني، وطواهم الزمن بممارسة مهنة تنفيذيّة رتيبة من دون أن يؤَثِّروا في المسيرة الحضارية. أما هو، فامتد تأثيره إلى كلّ مجالات الفكر والأدب والعلم والعمل والسياسة والثقافة والحضارة، وقد أحدث انقلابًا في رؤية الإنسان لنفسه. إن شدَّة وعمق واتساع تأثير فرويد تجعله غنيًّا عن أي تعريف، فأيّ حديث عنه هو نوعٌ من الإعادة لما هو معروفٌ عنه عالميًّا. وكما شرح عن نفسه: «تُشَكِّل اكتشافاتي أساسًا لفلسفة جديدة تمامًا، لكنّ القليلين فهموا هذا، كما أن القليلين قادرون على فهم هذا». إن روّاد الفكر يدركون الفارق الهائل بينهم وبين عموم الدّارسين. وكان هيغل يؤكّد أن قلة من المهتمّين سوف يفهمونه، وكذلك كان شأن فرويد الذي يرى أن قليلين سيفهمونه. لذلك فإن الدكتور مايكل هارت في كتابه (المائة الأوائل) قد جعل فرويد في المرتبة (32) من بين المائة الأوائل الذين كان لهم التأثير الأكبر في التاريخ البشري...

يتكرّر اسم الطبيب فرانز فانون تكرارًا لا ينقطع، ليس لإنتاجٍ في مجال الطب، ولكن لأنّه صاحب فكر وصاحب موقف ورجل نضال. ففي الستينات من القرن العشرين تخلّى عن الجنسيّة الفرنسيّة وهَجَر مهنة الطبّ وانخرط في الكفاح مع جبهة التحرير الجزائرية، وألّف العديد من الكتب، يأتي في مقدّمتها كتابه (معذبو الأرض)، وقد صارت كتبه مرجعًا للثوار، وما زالت مرجعًا للدارسين والباحثين. لكنني هنا أكتفي بما كتبه الناقد الدكتور فيصل درّاج في تقديمه لكتاب مارشال بيرمن: «كل ما هو صلب يتحوّل إلى أثير»، فيعلق درَّاج: «لقد هَجَس فرانز فانون بحداثةٍ أخرى، أي بمشروع ثقافي تحرُّري مختلف، لأنه وعى تباين الأزمنة التاريخيّة، وأدرك أن نعمة المركز لا تَحمل إلى سهول الأطراف إلا مطرًا مسمومًا». ويضيف درّاج: «يَهجس فانون بحداثةٍ أخرى تحتفظ بالإيجابي الأوروبي وهو كثير، وتضيف إليه منظورًا أخلاقيًّا وقيَميًّا وجماليًّا يحفظ للإنسان وحدته، ويرى في تاريخ الإبداع التحرّري تاريخًا موحَّدًا». لقد اندفع فانون في تعبئة الشعب الجزائري وغيره ضد الغرب من أجل استنهاض العزائم وتأجيج الطاقات لإنجاز التحرر من الاستعمار. ومع أن موقف فانون كان مناسبًا في وقته، حين كانت الجزائر وغيرها تكافح للتحرر، لكن رؤيته قد أسيء تفسيرها، فاستمر الرفض للغرب ولحضارته اعتمادًا على أفكار فانون وأمثاله، بخلاف يقظة ورؤية اليابان وغيرها، وعكس الموقف الحكيم الذي وقفه نهرو الذي اعترف بأهميّة الاستفادة من أفكار الغرب في كلّ المجالات. فالتحرّر من الاستعمار لا يعني البقاء في مهاد التخلف، وقد رأينا بلدانًا كثيرة تحرّرت من الاستعمار بعقليته المنفتحة، ووقعت في قبضة حكّام محليين مستبدين فظيعين. ولا فرق بين أن يأتي الخنق من أجنبي أو من طاغية محلّي، لذلك فإن التعبئة ضد الغرب قد جاءت بأفظع النتائج. فحضارة العصر هي حضارة الغرب، إنه مبدعُ التغيّرات النّوعية في الحضارة الإنسانيّة. لذلك فإن كان مطلوبًا رفْض هيمنته، إلا أنه مطلوب الأخذ إلى الحدِّ الأقصى بالمقوّمات التي مكّنته من هذه الهيمنة...

المبدع الرّوسي أنطون تشيخوف لم يعرفه العالم في مجال الطبّ، ولكن الناس عرفوه وقرأوه في مختلف اللّغات، واستمتعوا بإبداعاته في فنِّ القصّة القصيرة، فهو رائدها وأميرها في العالم. إنه لم يكن مبدعًا فقط، ولكنه اتخذ من الإبداع وسيلة

للتنوير: «أكتب لأبيّن للناس كم هي سيّئة ومملّة حياتهم.. وعندما يدركون ذلك سوف يسعون حتمًا لتغييرها، ولكنْ لن أكون شاهدًا على ذلك التغيير». إن هذا الرائد المبدع يكشف للناس نقائصهم، ويدعوهم إلى التحرّر منها، لكنه يعرف أن البشريّة تتمسّك بما جُبِلت عليه من إعاقات فكريّة وأخلاقيّة، ولا تتخلّى عنها إلا بتغيير طبيعتها، وهو التغيير الذي تحُول دونه آلاف العوائق النفسيّة والماديّة والثقافيّة والسياسيّة. إن تشيخوف كان يدرك عظمة القابليّات الإنسانيّة، وقد جاهد من أجل أن يرتفع بالإنسان في كلّ مكان إلى المستوى العظيم الذي تؤهّله له قابليّاته، فيقول: «إن أقدس القدّيسين بالنّسبة إليّ هو الكائن البشري: الصحة، الذكاء، الموهبة، الحرية المطلقة، تحرير الإنسان بأيّة طريقة من كلّ قوّة وحشيّة ومن كلّ كذبة.. حريّة تعبِّر عن نفسها: هكذا برنامجي». هكذا هُم المبدعون، يحلِّقون في الآفاق، فلا تحدُّهم مهنةٌ، ولا يحتبسون في تخصّص، وإنما تشغلهم اهتماماتٌ عالميّة عالية ومتنوّعة وعميقة، وذات أبعاد إنسانيّة واسعة. إنّ اهتماماتهم انشغالٌ بقضايا الإنسان الوجوديّة الكبرى...

وتتنوّع مجالات التميّز، فرغم أن الولايات المتّحدة الأميركيّة، ربما هي أكثر البلدان وفرةً في المؤهلين للأعمال الاقتصاديّة والماليّة والتجاريّة والإداريّة، إلا أنها اختارت لرئاسة البنك الدولي الطبيب جيم كيم لقناعتها بأهليّته لقيادة هذه المؤسسة الماليّة العالميّة، ووافق العالم على هذا الاختيار. فاهتمامات الفرد العميقة هي تخصّصه الحقيقي وليس شهادته الأكاديميّة في مجالٍ قد يكون اتجه إليه من دون ميلٍ حقيقي. فالإنسان لا يبدع إلا في المجال الذي يهواه، بل يستحوذ على اهتمامه فتستجيبُ له كلّ طاقاته...

الطبيب فيكتور فرانكل غرق في محيط الإرهاب النازي ضد اليهود، وماتت أمه وأبوه وأخوه في معسكرات الاعتقال، وعاش وهو ينتظر الموت في أيّ لحظة. لكنه خرج من كلّ هذا البلاء سليم النفس والعقل والوجدان، فأصدر كتابه (الإنسان والبحث عن المعنى). لقد انتهى من هذه المحنة الفظيعة، ومن معايشة المعتقلين الذين ينتظرون الموت في أيّ لحظة، إلا أن الفرد هو الذي يقرّر معنى حياته، فقد يشعر بقيمته العالية وهو في معتقَل يُراد به إذلاله وسحقه، ويَنظر لآسريه باحتقار أو إشفاق، بينما يكون آخر يعيش في أمان ورخاء لكن ذاته عنده ضئيلة. إن هذه الرؤية العظيمة التي انتهى إليها فرانكل قد ألهمت الملايين، فصارت إسهاماته في علم النفس والتحليل النفسي من

أروع الإسهامات العلميّة، وامتد تأثيره إلى مجالات معرفية كثيرة، وبات معدودًا من علماء النفس ومن الحكماء الإنسانيين بأصالة وعمق...

يعرف المهتمون في الأدب بأن الطبيب الفرنسي سان بيف قد هَجَرَ مهنة الطبِّ التي تخصّص فيها، وركّز طاقته في مجال شغفه ومحور اهتمامه وهو مجال الأدب، فصار من أشهر النقّاد؛ وعمل أستاذًا جامعيًّا للأدب وليس للطب، وهو مشهور إلى درجة أنّ أيّ تفصيلٍ عنه يكون من المعلومات المعادة المبتَذَلة. فحين يجري الحديث عن أبرز النقّاد على امتداد التاريخ يأتي اسم سان بيف من بين البارزين من روّاد النقد. يكتب عنه آلبرت تيبوديه في كتابه (النقد الكلاسيكي): «إن نفسيّة النقد الحقيقيّة الحيَّة الوحيدة هي سيرة نفسية رجل عاش مأساة وملهاة مهنة النقد في مفترقات طرُقها الفريدة، إنه سان بيف». ويتناول إسهامَه الناقدُ المعروف جورج لوكاش في كتابه (الرّواية التاريخيّة) ويصفه بأنه ناقدُ العصر الشهير، وأنه كاتبٌ عميقٌ ذو شأنٍ مهمٍّ...

الطّبيب النمساوي ولهلم رايش لم يمارس مهنة طب الأبدان، ولكنه كان مندفعًا تلقائيًّا أقصى اندفاع لمعالجة (مشكلات العُسْر الإنساني)، فهو يَعتبر أن القمع الاجتماعيّ، والاستبداد السياسيّ، والانغلاق الثقافيّ قد شوّهت طبيعة الإنسان، وجعلته غريبًا عن ذاته، وأنه لا خلاص له من كلّ ما كُبِّل به إلا بتمكينه من الاستجابة لطبيعته. كان راديكاليًّا في أفكاره، موسوعيًّا في معارفه، إنسانيًّا في اهتماماته، يَعتبره الكثيرون سابقًا لعصره. وقد قال عنه البروفيسور برند سينف: «يجب إلقاء جميع الموادّ في سلة المهملات والبدء بتدريس علم رايش إن كنّا نريد ولادةَ الإنسان الحقيقي لأول مرة في التاريخ». إن أفكاره وآراءه واكتشافاته ليست ضمن تخصّصه في الطبّ، ولكنّها ضمن مجالات علم النفس، والتّحليل النفسي، وعلم الاجتماع، وعلم السّياسة. وهو يعارض فرويد في تصوّرات كثيرة، منها ما يسمّيه فرويد غريزة الموت التي هي عنده من المفاهيم الأساسية، أما رايش فلا يؤمن بوجود هذه الغريزة المزعومة. وللدكتور قيس جواد العزّاوي عنه بالعربيّة كتابٌ حافلٌ بعنوان (رايش والتّحليل النفسيّ)، يتضمّن عرضًا لنظرياته وأفكاره ومراحل حياته، والمخانق التي واجهها بسبب سَبْقه لعصره...

ومن الأطباء الذين أبدعوا في مجالات أدبيّة عدّة ومتنوّعة الطبيب الأديب وليم

سومرست موم. فهو قاصّ، وروائي، وناقد، وكاتب مقالات، وكاتب مسرحي يصفه جعفر صادق الخليلي بأنه: «الكاتب العالمي الذي أُلِّفَتْ عنه الكتب المطوَّلة والمقالات العديدة، وأُلقيتْ عنه المحاضرات في أنحاء العالم، وتُرجم أكثر إنتاجه إلى لغات شتّى، ومُثِّلَت مسرحياته في عدد من أقطار أوروبا، حتى إنه هو وبرنارد شو ظلّا مسيطرَين على لندن زمنًا طويلًا؛ فلا تُمثَّل مسرحيّة لغيرهما على مسارحها. وحتى إن مجلة (بنغ) الشهيرة رسمت في أحد أعدادها صورةً كاريكاتوريةً تمثِّل شكسبير يعض أصبعه حَسَدًا وهو يتأمّل إعلانًا عن أربع مسرحيات لسومرست موم تُمَثَّل في أربعة مسارح في لندن في وقت واحد». هكذا الإنسان يبدع في مجالات عدّة ومتنوّعة ما دامت كلّها تأتي ضمن اهتمامه التلقائيّ، وتستحوذ على وجدانه، فيأتي الأداء تدفُّقًا تلقائيًا، فتدفُّق الطاقة الإنتاجيّة والإبداعيّة مفتاحه قوة وانتظام الاهتمام التلقائيّ...

الطبيب الألماني آدولف باسْتيان سافر بوصفه طبيبًا في البحريّة الألمانية، ولكن هذه الرِّحلة الأولى الطويلة غيَّرت مسار حياته، فهَجَر الطب إلى الإنثروبولوجيا، ليس كمتخصّص فقط بل كمنظِّر، فأصبح من أصحاب النظريّات في مجال علم الإنسان، وأصدر كتابه (الإنسان في التاريخ) الذي يقع في ثلاثة مجلدات. ويقول مؤلِّفَا كتاب (تاريخ الإنثروبولوجيا) إريكسن ونيلسن: «باستيان كان طبيبًا ليصبح عالم إنثروبولوجيا». ويذكر (معجم الإثنولوجيا والإنثروبولوجيا)، بأن بيبليوغرافيا باستيان تحتوي على أكثر من مائة كتاب ومئات المقالات. وقد أمضى حياته في الأسفار والرحلات: «قضى عشرين عامًا خارج ألمانيا». فزار أستراليا والمكسيك والولايات المتحدة الأميركيّة، والعديد من بلدان آسيا وأفريقيا. لقد كانت حياته سلسلةً من الرِحلات، وفتنه البحث والمقارنة بين ثقافات وأحوال الشعوب، فانغمس فيه انغماسًا كليًّا مكَّنه من الإبداع فيه، وأسّس (المتحف العام لعلم الشعوب)؛ وانتهى إلى «أن كلَّ الثقافات ذات أصل واحد تفرَّعت منه في اتجاهات متباينة». ففي نظره أن التشابه الموجود بين ثقافات وتقاليد الأمم ليس عن طريق الانتشار، وإنما يعود إلى الوحدة النفسيّة. لكنّي لا أتفق معه في ذلك، فالثقافات لا تتشابه في القضايا المحوريّة، وإنما تتبادل الأدوات والوسائل والمسائل السطحيّة. أما من الناحية الجوهريّة، فإن الثقافات كيانات مغلقة متمايزة تمايزًا حادًّا وقاطعًا. فمع أنه من السهل أن تشترك في الأدوات

والوسائل، فإنّ بينها اختلافات نوعيّة لا يمكن تخطّيها، فهي تختلف جذريًّا في طرائق التّفكير ومنظومات القيم وأنواع الاهتمامات واتجاهات الحركة. ولكلٍّ ثقافة كيانها المنفصل بشكلٍ حادٍّ وقاطع عن الثقافات الأخرى، فتبادُل التصوّرات والأفكار لا يكون إلا على مستوى النخب الفكريّة فقط. ومعلوم أن النخب لا تمثّل الثقافات السائدة، بل هم قلّة من الأفراد يكونون دائمًا خارج النسق السائد. ويدلّ تاريخ الحضارة على أن النخب التنويريّة ليست أكثر من فلتات فرديّة، تكون في الغالب في تفكيرها ومعارفها ورؤيتها واهتماماتها خارج الأنساق السائدة. أما الكيانات الثقافيّة، فهي غير قادرة على التزاوج، بل هي تتبادل الرّفض تلقائيًّا. إن غياب الإدراك الكافي لهذه المعضلة الأساسية المزمنة قد أبقاها من دون علاج...

الطبيب الألماني كارل غوستاف كاروس وصَفَه رينيه ويليك في الجزء الثالث من كتابه الضخم (تاريخ النقد الأدبي الحديث)، بأنه فيلسوف، ورسّام، وعالم نفس؛ وله دراسات أدبيّة، منها دراساته عن غوته، فهو معروفٌ بما هو بعيدٌ عن الطب. فالإنسان تحرّكه اهتماماته التلقائيّة، ويمكن أن يبدع في أي مجال يستغرق اهتمامه، وهو أحد الذين اكتشفوا فكرة اللاشعور قبل فرويد، لكنه مرَّ عليها مرورًا عابرًا من دون تأصيل، بخلاف فرويد الذي سخَّر حياته وطاقته لهذا الاكتشاف...

صن يات صن، طبيبٌ صيني نشأ في أسرة فقيرة، لكنّه كان يتمزّق ألَمًا من بقاء الصين ذليلة وعاجزة عن أن تدافع عن نفسها بكلّ ثقلها السكاني الكثيف الفريد، وتاريخها الحضاري المجيد المديد، لذلك سعى إلى تحريرها من نفسها أوَّلًا، فالعائق الثقافي ونتاجه السياسي هو أفظع العوائق وأقواها، فكان همّه تحريرها من هذا العائق الثقيل لتنطلق كغيرها من الأمم، وقد نجح في مسعاه بعد كفاح طويل ومرير. لذلك لم يكن غريبًا أن يؤكّد الفيلسوف الكبير برتراند راسل أن الطبيب الصيني صن يات صن هو وأديسون ولينين قد حددوا طابع الثلث الأول من القرن العشرين. فانتشال الصين من أعماق التاريخ، وإزاحة العوائق النفسيّة والثقافيّة والسياسيّة، التي كانت تحجب عنها أضواء الحضارة الحديثة البازغة، أدّت إلى نتائج عظيمة. لقد أمَضَّه إذلال الصين، فراح يستنهضها لتخرج من أوهام الكمال والاكتفاء، وتتحرّك خارج النطاق الذي حبست نفسها فيه، وهكذا حصل التغيّر الكبير. إنها قصةٌ طويلةٌ لكفاحٍ فرديٍّ عظيم. لكنَّ هذا

له حديث آخر. فشهرته وإنجازاته ليست في مجال الطب، وإنّما في المجال السياسيّ والاجتماعيّ والثقافيّ، وليس على مستوى الصين فقط، وإنما التأثير صار عالميًّا، فالصين ليست بلدًا عاديًا...

الطبيب الألماني يوليوس روبرت فون ماير لا يكاد يجهله أي مهتم بتاريخ علم الفيزياء، فقد اكتشف مبدأ حفظ الطاقة، وهو من أهم مبادئ علم الفيزياء، وتوصَّل حَدْسًا إلى هذا المبدأ المهم من ملاحظاته على بعض المرضى، وهكذا يؤكّد تاريخ العلم أنه: «لم يكتفِ بالملاحظات التي جعلت الحرارة والحركة شيئًا واحدًا، بل كتب مذكرة للأكاديمية يشرح فيها نظريته كاملةً، بأن الطاقة لا تزول بل تتحوّل من شكل إلى آخر.. ولقد أثبتت الأيام صحة هذا الإلهام الفَذّ». ثم جاء العالم البريطاني جول وأثبت مبدأ حفظ الطاقة، وهو من الذين نجوا من التأطير التّعليمي، فبقي حُرّ الفكر لا تشلّ تفكيره عادة الامتثال...

لا يعرف الباحثون الطبيبة الإيطالية ماريا منتسوري في مجال الطب الذي درسته، وإنما ستبقى من أعلام المنظِّرين في مجال التربية، فاسمها وآراؤها ونشاطاتها، وطريقتها المبتكرة في التربية، تتكرّر في المجال التربوي وليس في المجال الطبّيّ. فهي مبتكرةُ طريقةٍ مهمّة في التربية تعتمد على خلق الاهتمام التلقائيّ واستثمار الاستجابة العفويّة. وكما يقول عالم التربية الفرنسي رينيه أوبير في كتابه (التربية العامّة): «المبادئ التي ترتكز عليها هذه الطريقة، هي أولًا: احترام حرّية الطفل مفهوم بالمعنى البيولوجي للكلمة، لا بالمعنى الاجتماعي. ثانيًا، الفعالية بمعنيَيْن: بمعنى العمل الوظيفي القائم على الاهتمام العفوي، وبمعنى التدريب الحسّي». ويشرح عنها سامي خشبة في كتابه (مفكرون من عصرنا)، إنها: «عالمة علم التعليم المشهورة، وصاحبة إحدى أبرز نظريّات التّعليم العامّ، وتعليم الأطفال بوجهٍ خاصٍ، أثّرت في الفكر التعليمي الأوروبي والأميركي». وهكذا لا يبدع الفرد إلا حيث يتركّز اهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق...

لا يتمّ الحديث عن الطبيب البريطاني توماس يونغ في مجال الطبِّ، وإنما شهرته جاءت في مجالين آخرين مختلفين ومتباعدَيْن، هما: علم الفيزياء وعلم الآثار. كتبت عنه إحدى الموسوعات العلميّة: «جعلتْه إسهاماتُه في علم البصريات معروفًا بالقدر

نفسه، كما في مجالات أخرى كالطب والفيزياء، وهكذا كانت درجة خبرته وقدراته في كلّ شيء، إلى درجة أنه كان يستطيع أن يرقص في ثوب ضيّق». ويقول تشارلز سايف في كتابه (فك شفرة الكون): «يعود الخلاف العميق حول الضوء لعدّة قرون، حتّى استنبط توماس يونغ الطبيب وعالم الفيزياء البريطاني تجربةً أجابت من كلّ مظاهرها عن السؤال، وأنهت الجدل مرة واحدة وإلى الأبد»، ويتكرّر تأكيد هذا في مراجع كثيرة...

يعلن أندرو روبنسون في كتابه (العبقرية): «توماس يونغ مثقّف موسوعيّ متعدّد التخصّصات. كان فيزيائيًّا، وطبيبًا، وعالم مصريات (آثار)، من بين أشياء أخرى كثيرة». ويضيف روبنسون: «وقد ظلّ توماس يونغ يعمل على دراسة براهين كتابه (أساسيّات قاموس اللغة المصرية) بينما كان يحتضر». هكذا تبلغ بالإنسان درجةُ الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق، حيث يستمرّ التوقّد حتى تنقطع الأنفاس وتتوقّف الحياة...

أما الدكتور أحمد بلال فيكتب عنه في كتابه (أعلام ومفاهيم): «توماس يونغ: طبيبٌ، وأديبٌ، وعالمٌ، إنه من دون شك أحد العِلميين الخارقين، والبارعين، والفريدين. فقد لامس الكثير من المجالات ونجح فيها كلِّها، وكان يتكلّم عشر لغات، وكان مؤلِّفًا أديبًا، وكان موسيقيًّا». ومع كلّ هذه الانشغالات المتباينة، فقد استغرق علم الآثار سنوات من عمره، حتى توصّل إلى حل رموز الهيروغليفية المصريّة، وهو اهتمامٌ شديدُ البُعد عن مجال الطبّ، وحتّى عن مجال الفيزياء...

إن حالة توماس يونغ تكشف سخف الذين يروّجون لتماثُل الناس، ويقفون ضد القول بالتميّز الفردي الخارق الذي هو مفتاح التطوّرات الحضاريّة، وهو السّبب في التقدّم في كلِّ المجالات. فالمساواة تقتضي تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون، لكنها لا تعني التماثل، حتّى لو تماثلت الشّهادات الدراسيّة. يكتب جون غريبين في كتابه (تاريخ العلم): «توماس يونغ تميّز بطفولة عبقرية، حيث قرأ الإنجليزيّة وهو في الثانية من العمر، واللاتينيّة بعدما ناهز السادسة، ثم سرعان ما انتقل إلى اليونانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والعبريّة والكلدانيّة والسريانيّة والسومريّة والعربيّة والفارسيّة والتركيّة والإثيوبيّة، وكلّ ذلك وهو في الثالثة عشرة من عمره». ولم يكتفِ باللغات المفهومة، بل فكَّ رموز اللغة الهيروغليفيّة وهو إنجازٌ خارق»...

لقد اعتمد توماس يونغ على نفسه، ولم يكن يحتاج إلى من يعلِّمه، أو إلى من يدفعه إلى التعلّم، فهو مدفوع باهتمام ذاتيّ تلقائيّ. ولذلك كان يرى أن الذين يحرصون على نيل الشهادات الدراسيّة والأكاديميّة إنما يفعلون ذلك للتعويض عن غياب الاهتمام التلقائيّ، ونقص الشغف الذاتيّ بالتعلّم والمعرفة، فمن يفتقر إلى الدوافع التلقائيّة لا أمل فيه إلا بدفْعٍ من خارجه، ومع ضآلة نتائج الدفع من خارج الذات إلا أنه الحلّ المعتاد عليه...

الطبيب السوري سامي الجندي مناضلٌ، وسياسيٌّ، ومفكّرٌ، وأديبٌ، وشاعرٌ ومترجمٌ، أمضى حياته متوقِّد النشاط في مجالات متنوّعة عالية القيمة بمستوى مدهش، شارك في تأسيس الحركة الوحدويّة والجبهة العربيّة المتّحدة، وشَغَل منصب وزير الثقافة في سوريا، ومنصب وزير الإعلام، وأُسند إليه تشكيل الوزارة كرئيس للوزراء. ولكن الأهمَّ من كل ذلك، أنك ما تكاد تدخل مكتبةً حتى ترى أمامك مجموعةً من عناوين الكتب المهمّة، التي قام بترجمتها أو تأليفها، وليس منها كتابٌ في الطب، وإنما كلّها في الأدب غالبًا، أو في السياسة والثقافة. لقد ترجَم بعض إبداعات ماركيز وأندريه جيد وأراغون وكافكا ومالرو وكامو وآستورياس وإيزابيل ألليندي.. وبحِسِّه القومي الملتهب تَرجَم كتاب (خطابٌ إلى الأمة الألمانيّة) للفيلسوف الألماني فيخته، ويقول في تقديمه للترجمة: «ونحن إذْ ننشر خطاباته بلغتنا فإنما بأمل أن تستفيد أمّتنا المجزّأة وأجيالنا الطالعة من فكره القومي، وأن تتخذ إيمانه الراسخ بقوميته مثالًا يُحتذى». كان معجَبًا بالأديب الفرنسي الشاعر لويس أراغون، وألَّف عنه كتابًا حافلًا تشعر وأنت تقرأه بأنه من خلال أراغون يعبِّر عن نفسه هو ويعرض رؤيته للعالم، كما أن الكتاب يزخر بتفاصيل حياة هذا الشاعر الاستثنائي. ومن شدّة إعجابه بأراغون لم يكتفِ بتأليف كتاب كامل عنه وإنما تَرجَم رائعته (مجنون إلسا). وله عددٌ من الإبداعات: روايات ومسرحيات وكتابات سياسيّة وديوان شعر...

الطبيب الفرنسي جورج كانغلام لا يأتي الحديث عنه مع الأطباء، ولم يعمل أستاذًا للطب، وإنما عمل أستاذًا لتاريخ وفلسفة العلوم بجامعة باريس، ومؤلّفاته كلّها في هذا المجال. ولا يأتي ذكره كطبيب بل يجري الحديث عنه ضمن فلاسفة العلم مع باشلار وبوبر وكون وبوانكاريه وأمثالهم. ومن أبرز تلامذته ميشيل فوكو، وهذا له دلالة كبيرة.

فهو كما قيل فيلسوف متمرّد، وهي صفة أساسيّة للإبداع والتميّز الفكري. إنه يرى الارتباط العضوي بين تاريخ العلم وفلسفة العلم، ويقول: «فكما أن أيّ نظريّة للمعرفة لا ترتبط بالإبيستمولوجيا تصبح عبارة عن تأمّلات في فراغ، فإن أيّ محاولة في الإبيستمولوجيا لا تريد أن تربط نفسها بتاريخ العلم تصبح عبارة عن ظلٍّ من دون معنى للعلم الذي تزعم الحديث عنه». لذلك جاءت كلّ مؤلّفاته في فلسفة العلوم، وحين يجري التعريف به لا يقال عنه بأنه طبيب بل فيلسوف. ومع أنه قد اتّخذ من تاريخ العلوم عمومًا، وتاريخ علم الحياة وتاريخ الطبّ خصوصًا، منطلقًا لفلسفته، فإن هذا لا يغيّر النتيجة، فهو قد أبدع في مجال اهتمامه التلقائيّ وليس في مجال تخصّصه التعليمي. فهو كما يقول العارفون: «يُعدُّ من أهم مؤسّسي الإبيستمولوجيا الفرنسيّة المعاصرة». ومن مؤلّفاته المترجَمة إلى اللغة العربيّة كتابه (دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها)، ويقع في سبعمائة صفحة. كما أن للدكتور محمد هشام عنه كتابًا حافلًا يقع في 469 صفحة، وفيه يكتب: «يحتلّ كانغلام وممارسته المتميّزة لتاريخ العلوم مكانًا مركزيًّا في كلّ مناظرات ومجادلات، لا الفكر الفرنسي وبحسب، بل ربما أيضًا الفكر الغربي المعاصر. وبطبيعة الحال فإن هذا الحضور المحوري الوازن يطرح مسألة الأسباب التاريخية التي جعلته فاعلًا ومؤثّرًا إلى هذا الحدّ في الحاضر الراهن»، ويضيف: «ينتمي كانغلام إلى تيارٍ فكريٍّ كانت الفلسفة تنصرف فيه أساسًا إلى التفكير في المعرفة والعقلانيّة والمفهوم، وذلك بالتعارض مع تيار آخر كان الاهتمام الفلسفي فيه ينصبُّ على التجربة والمعنى والذات». إن فلسفة كانغلام كانت موضوعًا لأطروحات أكاديميّة، منها رسالة الدكتوراه التي قدَّمها عنه رشيد دحدوح، وصدرت في كتاب يقع في 622 صفحة، وهو يوضح أن كانغلام: «ينطلق في تحليل الإشكالات المعرفيّة من البحث في أساسها المعرفي عن طريق وضعها في مسارها التاريخي الخاص – التاريخ الداخلي للعلم»، كما يؤكّد أنه سعى إلى: «تحطيم العديد من الدوغمائيات والأفكار المسبقة»، وأنه صاحب رسالة وقضيّة، أما الرسالة فهي الحرّيّة، وأما القضيّة فهي العدالة...

وحين يُذكر كانغلام يأتي اسم تلميذه وصديقه الطبيب الفيلسوف فرانسوا داجونيه. ففي كتابٍ جماعي يحمل عنوان (البيوتيقا والمهمة الفلسفيّة)، تحرير الدكتور علي عبود المحمداوي، اشتمل الكتاب على بحثين عن داجونيه، أحدهما للدكتور محمد

بن سباع، والثاني للدكتور عامر عبد زيد؛ فيقول عنه بن سباع: «فرانسوا داغونيه طبيب وإبيستمولوجي وحقوقي فرنسي». أما د. عامر، فيشيد بمكانته الفلسفيّة وتنوّع اهتماماته. ثم ينقل عن فرانسوا داجونيه: «فما يهمني أنا هو القضايا الراهنة. فالثورات التي تطال علم الحياة والقانون والفن والإنتاج هي من الأهميّة بحيث يجب على الفيلسوف أن يستكشفها وأن يفكّر فيها». هكذا لا يتحدّث كطبيب وإنما يتحدّث كفيلسوف صاحب رؤية شاملة، فهو ينظر إلى الوجود ككلّ أنه في العمق من المسؤوليّة الفلسفيّة. وهنا يجب التذكير بأنه كَوْنَ المتعلم حاصلًا على الدكتوراه في الفلسفة، أو أنه يشغل وظيفة أستاذ فلسفة، لا يعني أنه فيلسوف. فهو كمعلّم ينقل للطلاب معارف فلسفيّة، إنه مجرّد ناقل وليس مبدعًا، بينما نجد طبيبًا يصبح مبدعًا في الفلسفة، كما هي حال وليم جيمس وياسبرز وشيلر، أو من تخصّصات أخرى غير الطبّ، كما هي حال فيتغنشتاين ووايتهيد وغوته وهوسرل وموران وغيرهم...

اختار الطبيب، الأديب، الناقد السويسري جان ستاروبنسكي أن يملك خيارَيْن بل ثلاثة خيارات، أو أكثر: فهو مؤهّل ليكون أستاذًا في الطبّ، أو أستاذًا في الأدب، فهو يحمل دكتوراه في كلٍّ منهما، كما أنه معترَفٌ به كمفكرٍ وكاتبٍ وناقدٍ ومهتمٍّ في الفلسفة وتاريخها وحياة روّادها، لذلك عمل أستاذًا لتاريخ الأفكار. إن ميوله الأقوى للفكر والأدب، ويظهر في كتبه مثل (إبداع الحرية)، (جان جاك روسو: الشفافية والعائق)، و(مونتسكيو)، و(الشعر والحرب)، و(مونتانييه في حركة)، و(ديدرو في فضاء الرسّامين)، و(مقاربات في النقد). إنه مولع بالرواد الفرنسيين، لذلك جاء الكثير من كتبه عن المبدعين الفرنسيين. كما أن رسالته للدكتوراه كانت عن روسّو، وله عنه أكثر من دراسة، كما اهتم ببودلير. إنه عقلٌ جَيّاش بالفكر والمعرفة، وقد أطلقوا عليه لقب: طبيب المعرفة...

الأصل في الأطبّاء أنهم يمارسون مهنةً عمليّة تطبيقيّةً، لكنَّ أفرادًا نادرين لا يكتفون بتطبيق ما تعلّموه، بل يستكشفون وينتقلون من التطبيق إلى التنظير، ومنهم الطبيب الأميركي باول ريتا الذي قال عنه أستاذ طب الأعصاب الدكتور نورمان دويج في كتابه (الدماغ وكيف يطوّر بنيته): «خلافًا لمعظم العلماء الذين يلتزمون حقلًا واحدًا، أصبح باخ واي ريتا خبيرًا في حقول عدة: الطب، وعلم العقاقير النفسي، والفيسيولوجيا

العصبيّة العينيّة، والفيسيولوجيا العصبيّة البصريّة، والهندسة الطبيّة الحيويّة.. وهو يتبع الأفكار أينما أخذَتْه.. تخلّى عن الطبّ وتحوّل إلى البحث الأساسي، إلخ». كما اخترع آلة معقّدة حين وجَد أن التحقّق من بعض الفرضيّات يستوجب إيجادها لإجراء اختبارات كان يرى ضرورة إجرائها. وأهم ما اشتهر به هو اكتشافاته عن لدونة الدماغ، وقابليته لإعادة بناء ذاته وتحوير أدائه، وتوصّل إلى نتائج عظيمة باهرة سيكون لها آثار ثقافيّة عميقة قد تؤدّي إلى تغيّرات إيجابيّة عالميّة...

في مختلف اللغات عَرَف الناسُ الطبيبَ إدوارد دي بونو ليس بوصفه طبيبًا يحاول عمليًّا تطبيق ما تعلّمه على المرضى كحالات فرديّة، أو بنقْل ما تعلّمه إلى غيره كمدّرس أو أستاذ، فهذا أداءٌ مهنيٌّ، ومجرّد تطبيق أو نقلٌ لمعارف جاهزة. لكن دي بونو اهتم بإيقاظ الناس ليفكّروا بانتباه وبطريقة نقديّة، ويحاولوا شقَّ مسارات فرعيّة، والسير باتجاه مغاير للسائد كلّما واجهتهم مشكلة. لقد انشغل بقضايا نظريّة وفكريّة وإنسانيّة أساسيّة ذات تأثير شديد على حياة الجميع تنظيرًا وتدريبًا، بعد أن لاحَظَ أنّ كلّ الناس يفكّرون تلقائيًّا؛ لكنَّ القليلين منهم يجيدون التفكير. والأقل منهم هم الذين يعلمون أن الأصلّ في التفكير أنه انسيابٌ تلقائيّ تكراريّ، وأن جودته تتوقّف على الفاعليّة النقديّة والارتقاء به من حركته الانسيابيّة الخطّيّة التلقائيّة إلى التوقّف وإمعان النظر والبحث عن البدائل والمسارات غير المطروقة. كما أكّد على أن التفكير مهارة قابلة للتطوير إلى ما لانهاية، وقد عالج ذلك في مجموعة من الكتب، منها كتابه (تعليم التفكير)، فالتفكير بمهارة ليس تلقائيًّا، بل لا بد من تعلُّمه. وله كتاب عن (الصّراعات وكيفيّة حلّها)، وكتاب (قبّعات التفكير الست)، وكتاب (التفكير العملي)، وكتاب (أنماط النجاح في التّجارة والإدارة)، وكتاب (ما فوق المنافسة)، وكتاب (التفكير الجانبي)، وهو نوعٌ من أنواع التفكير النقدي الذي هو أهم وأندر القدرات الفكريّة، لكنّه بأسلوبه المميَّز يستهدف تقريبه لعموم القرّاء، ولذلك لقيتْ كتبه الكثيرة إقبالًا شديدًا في كل العالم، وأقيمت مؤسّسات لشرح وتبسيط ونشر وتعميم أفكاره. ومن البديهي أن هذا الطبيب يمثل حالةً غير عاديّة بين ملايين الأطباء الذين لم يتجاوزوا مجالهم المهني الرتيب، سواء في العمل العلاجي أو الأداء التعليمي، كما هو شأن أساتذة الطب، فهم ينقلون معارف جاهزة ومستقرّة...

الطبيب الفرنسي كلود برنار يتم التعريف به بأنه عالم وفيلسوف، أما مهنة الطب فلم يمارسها. فهو ليس شخصًا مهنيًّا وإنما هو فردٌ مبدع. كانت ميوله في شبابه ادبيّة، ولكنه درَس الطب، ثم اشتهر في فلسفة العلوم، وقد وُصِف بأنه ذو أصالة ثوريّة ككلّ الرواد الباهرين. لقد كان يفكّر خارج دائرة السائد، وبعصاميته اكتشف الخواء، فأراد الإسهام في توصيف مسار التفكير العلمي؛ وألَّف كتابه (مدخلِ إلى دراسة الطبِّ التجريبي)، وعنوان الكتاب يبخس هذا الإنجاز التأسيسي المهم حقَّه، فهو مدخلٌ للمنهج العلمي ككلٍّ وليس فقط للطب التجريبي. لقد كان إسهامًا عظيمًا فقبْله كان الوهم مسيطرًا بأن المنهج يخلق الفكرة وقد صَدَحَ بالحقيقة لتبديد هذا الوهم المعيق. وأوضح أن الفكرة الخارقة تأتي حَدْسًا وليس بتخطيط، فالفكرة هي بداية العمل المثمر. الفرض هو البداية ثم يجري التحقّق مما فاض حَدْسًا، وكما يقول برنار: «المنهج التجريبي لا يأتي بأفكار جديدة لمن خَلَت أذهانهم من هذه الأفكار، وهو لا يفيد إلا في توجيه أفكار موجودة». وقد لقيتْ أفكاره إشادةً من علماء معاصرين مثل العالم بيتر مدوَّر الحاصل على نوبل. فهو يؤكّد: «أن أفضل ما قيل في المنهج العلمي إنما كان من كلود برنار»، وقد كان رائدًا حقًّا. فحين ابتدأ التدريس في الجامعة فاجأ طلابه بتأكيد: «إن الطب العلمي الذي كُلِّف بتعليمه لا وجود له». وكانت له أفكار خارقة، من ذلك تأكيده: «إن ما نعرفه هو الذي يعوقنا وليس ما نجهله»، فالمعلومة الخاطئة تصل إلى الأذهان، ثم تتحكّم بها وتجعلها ترفض المعلومات الصحيحة، وهذه من الأفكار الأساسيّة التي لا ينتبه لها الناس. إن هذه مجرّد إشارة إلى رائد تَخرَّج طبيبًا ولكنه أسهم إسهامات مهمّة في فلسفة العلم، وفي تصحيح مفاهيم منهجيّة خاطئة كانت معيقة...

إن الفَرْدَ المبدع يصنع نفسه بمحض اهتمامه وجهده، أمَّا مَن لا يملك الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق الذي يصنع به ذاته فلن يفيده أيُّ تعليم إلا على مستوًى مهنيٍّ يبقيه ضمن القطيع. فالطبيب ألفريد آدلر تخرَّج طبيبًا، وكان تدريبه بعد تخرُّجه في تخصُّص طب العيون، لكنه لم يكن قانعًا بذلك، فغيَّر تخصّصه بمحض اهتمامه التلقائيّ وجهده الذاتي، حيث انهمك في البحث والقرّاءة والتأمّل واهتم بعلم النفس وانضم إلى فرويد، ثم انفصل عنه وأسّس علم النّفس الفرديّ. فهو أحد الرواد البارزين في علم النفس، وبينما يَعتبِر فرويد أنّ الغريزةَ الجنسيّة غريزة مهيمنة، عارَضَه آدلر حيث

يرى أن طموح الفرد إلى تجاوز قصوره وضعفه ونقائصه ورغبته الملحَّة في إثبات ذاته، ومحاولة حمْل الآخرين على الاعتراف بأهميّته هي المحرّك الأهمّ للسلوك البشري. وكما يقول كارل غوستاف يونغ: «فرويد يجعل العقل الباطن مجرد مستقَرّ للذكريات المكبوتة والمنسيّة، ويرى أن مسألة الجنس هي صانعة المتاعب. فمذهبه في علم النّفس يقوم على الغريزة الجنسيّة، في حين أن مذهب آدلر يستند إلى حافز طلب القوة.. ورأيي أن هناك أشياء كثيرة تجعل حياة الإنسان شقيّة يائسة، ومن وراء هذه الأشياء تلعب دوافع الإنسان الخالقة دورًا خطير الشأن في حوادث الأمراض العصبيّة والعلل العقلية». ويكتب آدلر نفسه في كتابه (معنى الحياة): «نجد أن العامل المشترك بين جميع حالات الفشل التي يعاني منها الأفراد هو ضعف القدرة على التعاون، وهذا يسمح لنا بتقديم تعريف جديد لعلم النفس؛ فعلم النفس هو: محاولة فهم القصور في التعاون». وتقول باربرا آنغلر في كتابها (مدخل إلى نظريات الشخصية): «كان آدلر رائدًا في علم النفس الفردي، وهو يركز على أهميّة المجتمع البشري لتطوير الشخصيّة الفرديّة.. ولتوجيه كل سلوك وانفعال في حياتنا، فالكائنات البشريّة مدفوعة بغرائز وحاجات فطرية محدَّدة»، فآدلر درَس الطب لكنه تَخَلَّى عن هذه المهنة العمليّة، وشقَّ مسارًا نظريًّا مهمًّا في علم النفس كان هو رائده وواضع أسسه...

عددٌ من الأطباء اليابانيين مارسوا دورًا تنويريًّا عظيمًا بواسطة الأدب، فأسهمت جهودهم في سرعة دخول اليابان حضارة العصر، دخول المقلّد المتلهّف للاستيعاب والطامح إلى التجاوز، ثم دخول المشارك، ثم المنافس، ثم المتفوّق في بعض المجالات. لقد أدرك الرّائد القائد الإمبراطور ميجي بأن الحضارة الغربية قد حقّقت تغيرات نوعية هائلة غير معروفة في أيّة حضارة سابقة، فلم يلجأ إلى المكابرة وادّعاء الكمال وتَوَهُّم الاكتفاء، وإنما بادر لاتخاذ إجراءات سريعة وعمليّة للأخذ بكل ما يمكن أخذه وتوطينه من هذه الطفرة الحضاريّة. وأسهم التنويريّون في مؤازرة هذا التوجّه وراحوا يستنهضون الأمة، وأدرك بعضُ الأطباء المستنيرين أن مهمّة التنوير أَهَمُّ من الاستغراق في مهنة الطبّ، فهجروا المهنة الرتيبة المقيِّدة واندفعوا للإبداع الحرّ الطليق. ومن البديهي أن الانصراف للأدب والاستغراق في العمل الإبداعي والفكري ليسا مجرد إرادة وقرار، وإنما هما اهتمامٌ تلقائيّ قويّ مستغرق، ثم هما موهبة سخيّة وقابليّة متهيّئة. فما أكثر

الأطباء اليابانيّين في تلك الفترة الذين كانوا مهتمّين بتحقيق التحوّل، ويودّون الإسهام في تسريعه؛ لكن القدرات الإبداعيّة نادرة في كل المجتمعات...

وبهذه الريادة من قمّة الهرم السّياسي، حيث كان الإمبراطور ميجي نفسه هو قائد التحديث والرائد الأوّل، ثم بمؤازرة التنويريّين، ثم باستجابة الشعب، صارت اليابان أول مجتمع خارج الغرب يحقّق التقدّم في مختلف المجالات، ثم يصبح منافسًا حقيقيًّا للغرب. ثم في ما بعد استيقظت الصين والهند وبلدانٌ أخرى، فأصبح التنافس عالميًّا ولم يعد محصورًا في الغرب الحرِّ...

من الأطباء اليابانيّين الذين هجروا مهنة الطبّ وانغمسوا في الإبداع الأدبي موري أوكاي، الذي وصفه أحد النقاد بأنه (مدينة ذات المائة باب)، وقال عنه معجم الأدب الياباني: «إنه واحدٌ من صروح الأدب الياباني المعاصر أضحى رائدًا.. فَتَحَ طرقًا جديدة للغة وللرواية وللشعر وللمسرح؛ إنه رُبَّان سفينة الثقافة الغربية ومترجمٌ موهوبٌ وناقدٌ حريصٌ؛ إنه مفكّر تقاسمَتْه خدمةُ الدولة ودواعي فكرٍ حرٍّ؛ إنه مؤرِّخٌ، حاول إعادة عقد خيوط ذاكرة مزّقها انفتاحُ بلد». هذا الطبيب الذي هجر الطب واستخدم الأدب لإيقاظ اليابانيّين وتنويرهم، وأسهم إسهامًا فاعلًا في تقديم الفكر الأوروبي والإبداع الأوروبي في اللغة اليابانية، لم يخدع أمّته فيكرس فيها الانغلاق التلقائيّ، ولم يدغدغ مشاعرها الساذجة بأنها صاحبة الأمجاد الحضاريّة الفريدة والسبق المطلق، وأنها تملك من مقوّمات الحضارة ما هو فوق الكفاية، وإنما كان واقعيًّا وصريحًا، فجهَر بالحقيقة المضيئة التي أسهمت في استجابة الشعب بعد تلكؤ. ولم يُصدر مجلّةً طبّيّةً، وإنما أصدر مجلّة ادبيّة تنويرية ناقدة سماها (مدوَّنات ضد التيار)، تنقد المتردّدين وتقدّم الضياء والنماذج المضيئة للمسيرة الجديدة، وتضع المعالم على الطريق للسائرين في درب التجديد والانفتاح والتقدّم...

ومن الأطباء اليابانيين الذين ذاعت شهرتهم في مجال الأدب، الأديب كينوسيتا موكوتارو، وقد قال عنه معجم الأدب الياباني إنه: «لفَتَ الأنظار.. ودافَعَ عن تصوّر جمالي للأدب يعارض في آن واحد تيّار المذهب الطبيعي، الذي كان وقتها في أوج ازدهاره. ونشر مؤلّفاته الأولى (قصائد ومسرحيّات وقصص) في المجلّات الادبيّة..

وأضحى في اليابان واحدًا من الأوائل الذين نادوا بدراسة العلاقات بين أدب اليابان وآداب الغرب بشكل أكثر تعمُّقًا، وفي المحاولات التي كرّسها للمسائل الادبيّة ينكشف تفكير دقيق ولغة برّاقة».

ومن الأطباء اليابانيين الذين تخلَّوا عن مهنة الطب واندفعوا في مجال الفكر والنقد التنويري والأدب كاتو شوئيتشي، الذي يوصف بأنه (ناقد، ومؤرّخ للحضارة)؛ ومن مؤلّفاته: (مقدّمة في تاريخ الأدب اليابانيّ)، و(ثقافة اليابان المعاصرة والمجتمع)، و(مجموعة كتابات كاتو)، و(مجموعة حوارات كاتو)، و(خواطر مرسلة في الغرب). وفي كتابٍ موثّق أصدرته الحكومة اليابانيّة بعنوان (قوى بشريّة قادت التغيير)، يتحدّث الكتاب عن كاتو ويصفه بأنه (الناقد ذو المعرفة العميقة بكل من الثقافتين اليابانيّة والغربيّة). ويتحدّث عن أحد كتبه ويوضح أنه قد تناول فيه: (طريقة تحديد موقع اليابان الحديثة من تاريخ الحضارة، ويحلل كيف أن اليابان بعد إصلاح ميجي أدخلت الحضارة الغربية وتعاملت معها). هكذا كان مثقفو اليابان واقعيين في تعاملهم مع حقائق الحاضر، وأمناء مع أمّتهم، فلم يخدعوها، ولم يزعموا أنها قفزت للنمو بالعودة إلى الماضي واستجداء التاريخ، وإنما أدركوا التغيّرات التي طرأت على الحضارة الإنسانيّة، وعرفوا منبع هذه التغيّرات، فراحوا يحثّون أمّتهم بأن تستقي من المنبع ذاته من غير ادعاء ولا مكابرة، ولا انغلاق، ولا تأخير. ففازت بالسَبَق على كل عوالم الشرق التي راحت دُوَله بعد تلكؤ طويل تستيقظ وتلحّ في الأخذ، وتتدارك ما فات. أما المجتمعات التي ما زالت ترفض الاعتراف بالتغيرات النوعيّة التي طرأت على الحضارة الإنسانيّة، وتصرّ على المكابرة وادّعاء الكمال، وتتوهّم الاكتفاء، فسوف تبقى خارج المنظومة الحضاريّة المعاصرة، تعتمد على المزدهرين في الغذاء والدواء والكساء، وفي كل متطلّبات الحياة. وحتى حين تتحارب دولها، أو جماعاتها المتناحرة، تفعل ذلك بالأسلحة التي صنعها المزدهرون...

ومن الأطباء الأدباء اليابانيين الأديب كيتا موريو، الذي قال عنه معجم الأدب الياباني: «هو كاتبٌ يابانيٌّ معاصرٌ، أتى إلى الأدب بعد أن مارس مهنة طبيب نفسي ونال جائزة آكوتاغاوا.. كان متأثرًا بتوماس مان، وهو فضلًا عن ذلك مؤلّف حوليات أسفار».

يتحدّث معجم الأدب الياباني عن الطبيب الأديب موتوري نوريناغا، فيقول: «إن حياة هذا الكاتب أثَّرت حتمًا في نواحٍ عدّة على الأجيال اللاحقة.. إن إنتاج موتوري ككاتب ومفكّر لا يظهر إلا أكثر لفتًا للنظر».

الشهرة حظٌّ فقد ينالها من لا يستحقّها وقد يُحرم منها من يكون الأحقّ بها، فبعض الأفراد يكون له إنتاجٌ عميقٌ وغزيرٌ ومتنوّع، لكنه لا ينال الشهرة التي تليق به. فالطبيب عبدالهادي عبدالرحمن مؤلّف غزير ومترجم قدير، وله أعمال مسرحيّة وروائيّة، وقصص قصيرة، وكاتب مقالات؛ ومن مؤلّفاته: (سلطة النص)، و(عرش المقدس)، و(التاريخ والأسطورة)، و(لعبة الترميز)، و(الفوضى والتاريخ)؛ وغيرها، كما تَرجم كتب: (سحر الزمن) و(تاريخ الجماعات السرية) و(مملكة الفوضى) و(السحر في مصر القديمة) و(العنف والإنسان)؛ وغيرها، إنه طبيبٌ مهتمٌّ بالتنوير ومقاوم للتعصّب، وله جهود متنوّعة، لكنه لم ينل انتشارًا يُناسب ما يتناوله من قضايا كبرى...

الطبيب السوري خليل النعيمي لم يُعرف عن طريق مهنة الطبّ التي تخصص فيها مهنيًّا، ولكنّه سيبقى اسمه ضمن حقل الإبداع الروائي والأدب عمومًا، وفي دائرة الهَمّ الإنسانيّ بشكل مفتوح. فقد حُظي إبداعه باهتمام نقّاد بارزين من أمثال المفكّر النّاقد فيصل دراج والنّاقد المبدع محمد برادة والنّاقد المفكّر محمود أمين العالم؛ وغيرهم. وبحسبه دليلًا على مكانته الإبداعيّة هذا الاهتمام من كبار النقاد المميَّزين، فهو روائي، وكاتب مقالات، ومؤلّف كُتُب، خصوصًا في مجال الرحلات...

يتكرّر اسم الطبيب شبلي شميِّل ليس في مجال الطب، بل في مجال جهود التنوير في مصر والعالم العربي، فلقد كان هذا الطبيب في طليعة التنويريّين العرب الذين كانوا يحلمون بأن ينعتق العرب من أغلال التاريخ، وأن يَخرجوا من خنادق التخلّف، لكن جهده وجهود غيره ابتلعها الرفض التلقائيّ العنيف لكل ما هو مغاير للسائد...

الطبيب اللبناني نقولا فياض لا يأتي ذكره مع الأطباء، بل يتكرّر اسمه مع أدباء التنوير، فهو يوصف بأنه أديب وشاعر وخطيب ومترجم، وعضو مجمع اللغة العربيّة في دمشق. وصَفهه الأديب العراقي نجدة فتحي صفوة: «من أشهر خطباء عصره، ومن الشخصيات الادبيّة المعروفة، تابَع التيّارات الفكريّة والثقافيّة والسياسيّة، وكان من

الشّخصيّات التي فرضت نفسها في عالم الفكر والثّقافة لمدة طويلة». كما خصَّه عيسى فتّوح بفصل من كتابه (أدباء معاصرون)، وكذلك فعَل أنيس المقدسي في كتابه (الفنون الادبيّة وأعلامها)، فهو عنده: (الأديب الذي أحرز مكانة مرموقة بين أدباء زمانه). ويتكرّر مثل ذلك في مصادر كثيرة...

الطبيب الفرنسي لويس فرديناند سيلين لم يعرفه العالم بمهنة الطب، وإنما عرفوه بوصفه من كبار الأدباء المبدعين الفرنسيّين، وقد كان تأثيره قويًا حتى على الذين خاصموه بسبب الاختلاف الأيديولوجي، فتأثّروا بأسلوبه تأثُرا شديدًا، ويأتي في طليعتهم سارتر بحسب اعتراف سيمون دي بوفوار التي كتبت: «أما الكتاب الفرنسي الذي كان ذا القيمة الأكبر بالنسبة إلينا فكان (سَفَرٌ إلى آخر الليل) لسيلين، حيث كنا نحفظ بعض مقاطع الكتاب غيبًا.. كان يهاجم الحرب والكولونيالية والتفاهة والأفكار السائدة.. كان يهاجم المجتمع بأسلوب وبنغمة يفتناننا. كان سيلين صاغ أداةً جديدة: كتابة لها حيوية الكلام العادي.. وهذه الكتابة هي التي جعلت سارتر يتخلّى نهائيًا عن اللّغة المفخَّمة التي كان يستخدمها من قبل». هكذا كبار الكتّاب يتأثّرون به أشدَّ التأثّر، ثم يهاجمونه بمنتهى الشراسة لاختلافهم معه أيديولوجيا لأنه كان ضد اليهود...

الطبيب الانكليزي وليم مكدوغال، بعد تخرّجه شارك في بعثة علميّة غيَّرت مسار حياته، وبدَّلت اتجاهه العلمي، فصار أحد منظّري علم النفس والإنثروبولوجيا وعلم نفس المجتمع، وكلّها تأتي ضمن العلوم الإنسانيّة، ويتمّ تدريسها في كليَّات الآداب وليس في كلّيّات الطبّ، ولا كلّيات العلوم. وقد اشتهر بنظريّته في الغرائز التي يفسّر بها السّلوك البشري. ومن كتبه: (مقدمة في علم النّفس الاجتماعي)، و(علم النفس الفيسيولوجي)، و(عقل الجماعة)، و(الموجز في علم النفس)، و(الموجز في علم نفس الشواذ). ويحصل مثل هذا التحوّل كثيرًا فالأصل في المتعلّمين أنهم لا يتجاوزون المسار المهنيّ الرّتيب، أما القلّة الذين تحرّكهم اهتماماتٌ تلقائيّة فتتوزَّعهم المسارات...

الطبيب السوداني أمير تاج السر لم تُنشر صوره وحواراته في الصّحف والمجلّات عن الطب، وإنما يتهافت عليه الباحثون عن سرّ الإبداع. يقول فاروق يوسف: «هذا الروائي

يخبّئ في أعماقه روح شاعر متمرّد بقصائده النافرة، وهو يلتقط سحر هذا الشعر بأناة من تفاصيل حياةٍ غالبًا ما تكون غير مرئيّة. هذه الحياة الخفيّة التي هي أشبه بالأسطورة إنما هي مصدر الإثارة التي يطلقها السَّردُ الروائي من قمقمها». ولهذا المبدع قولٌ مهمٌّ يؤكّد فيه ما أسعى إلى تأكيده، وهو أن الإنسان لا تحرّكه معلوماتٌ اضطرّ إلى حفظها كوسيلة لهدف آخر مختلف، وإنما يحرّكه اهتمامه التلقائيّ فيقول: «أعتقد بأن الكاتب، أو المبدع، مثله مثل أي كائن بشري يحب أن يرى بصماته مرسومةً أمامه، وأنْ يرى صورته التي ترمز إلى إبداعه، لا وجْهَهُ فقط، مطبوعةً على أوراق العملة، ولو أمكن على دفاتر الكتابة التي يستخدمها التلاميذ، وبلا شك يحب أن يمر بشارع يحمل اسمه، ويجلس في مقهى ربما يُشَيِّده أحدهم في ذلك الشارع». هكذا هو الإنسان لا تحرّكه المعلومات بل تحرّكه القيَم التي تبرمَجَ بها تلقائيًّا، كما تحرّكه الرغبة الملحّة بإثبات الأهميّة والحصول على المَكانة التي يطمح إليها، وهذا يكشف أسباب فشل التعليم في المجتمعات المتخلّفة. فالناس تُلهبهم القيَم التي تبرمجوا بها تلقائيًّا مهما كان نوع ومستوى هذه القيَم، باستثناء القلّة المبدعة التي تُلهبها قيمٌ إنسانيّة ومعرفيّة وجمالية وإبداعيّة خاصّة...

الطبيب الانكليزي السير آرثر كونان دويل مُنِحَ لقب فارس (سير)، ليس لإنجازٍ في مجال الطب بل لإبداعاته في مجال الأدب، وقد بلغتْ شهرته حدًّا يجعل أي كلام يقال عنه هو من التكرار الذي لا يضيف جديدًا. لكني هنا أستعرض أسماء الأطبّاء الذين أبدعوا في غير الطبّ مجرد استعراض، ليس بهدف التعريف بل للتذكير فقط. وحين تكون أمامي فكرة عميقة، أو ومضة فكريّة مهمّة لأحدهم فلن أفلتها وقد أطيل بعض الإطالة. أما دويل فإن اسم بطل رواياته شرلوك هولمز قد صار أشهر من أسماء أبطال التاريخ وساسة العصر، فأقاموا للبطل في لندن تمثالًا ضخمًا من البرونز، كما أقيمت له تماثيل في مدن بريطانية أخرى، وكذلك في اليابان وسويسرا وغيرهما...

في تاريخ تأسيس علم الاقتصاد يأتي اسم آدم سميث وكتابه (ثروة الأمم)، كما يأتي اسم الطبيب الفرنسي فرانسوا كيناي، وهو يأتي على رأس من كانوا يسمَّون الفيزيوقراطيون، فهو صاحب المؤلف المشهور (الجدول الاقتصادي). فبقاء اسمه يتردّد ليس لإنجازه في مجال الطبّ، بل يعود إلى رؤاه حول الاقتصاد وإصداره الجدول الاقتصادي الذي وضعه. وبغَضِّ النظر عن القيمة العلميّة لهذا الجدول أو

غيره من إسهاماته فإن المهمّ هو أن نتاج اهتمامه التلقائيّ خارج تخصص الطب هو الذي بقي له وحَفِظَ اسمه...

يعرف المهتمّون في الأدب الألماني بأن الطبيب غوتفريد بن ليس معروفًا بمهنة الطبّ، وإنما هو معروفٌ بوصفه قمّةً من القمم الادبيّة، وقد جاءت إبداعاته شعرًا ونثرًا ضَمَّنها أفكارَه، فهو شاعرٌ وقاصٌ ومفكّرٌ مهتَمٌّ بالإنسان الفرد. لقد كتب عنه المفكّر أحمد الشيباني بوصفه قمّةً من (قمم الشعر الألماني)». ورغم أن الشيباني كان يهدف في الكتاب كلّه إلى نقد الحضارة الغربيّة من خلال نقد ممثّليها ومنهم غوتفريد بن، إلا أنني على العكس منه أرى أنه شاعرٌ احتجاجيٌّ بامتياز ضدّ طمْس فرديّة الإنسان، وضد التدخّل السلطوي في خصوصيّات الأفراد، فشِعْرُه وكتاباته هي إدانةٌ صريحة وساخرة للحضارة الغربية، وللتِّيه البشري ككلٍّ، وللسلطة والتسلّط. إنه يائسٌ من قدرة البشريّة على تصحيح مساراتها المتضادة. وبلَغَتْ شكواه من الأوضاع أنه كتب: «لقد سئمت من الحياة»، يقول ذلك بعد أن مُنع من نشر أشعاره وأفكاره في العهد النازي، ويضيف: «إننا نعيش عيشًا يختلف عما نحن فيه، ونكتب أشياء تختلف عما نفكّر فيه، ونفكّر بأشياء تختلف عما نترقّبه. أما ما يبقى بعد ذلك، فإنه يختلف كلّيًا عما أردناه أو اعتزمناه». ويستطرد: «ليس ثمة رابطٌ يربط بين إنسان وآخر»، و«إننا نعيش فقط عندما ننسى»، و«أنْ تُخطئ، وأن تكون مع ذلك مرغَمًا على تجديد قناعتك بدوافعك الباطنيّة فهذا هو الإنسان». إنه يحسّ بضآلة دور الفرد المستنير أمام طوفان التيّار العامّ الجارف، وبسبب ذلك يرى أن الفنّ غير قادر على التأثير في مسيرة التاريخ. فغطرسة القوة، وصلابة الجهل المركَّب، ومهزلة العقل البشري بقطعياته المنغلقة المتناقضة والمتحاربة، هي عوامل مهيمنة هيمنةً تبعث الغثيان واليأس. ولذلك يكفي في نظره أن يكون الفن وسيلةً للمبدع ذاته لكي يشعر ببهجة التجاوزيّة المبدعة، أما تغيير الوضع البشري البائس فهو مهمة مستحيلة. لذلك كان اختلافه مع بريخت حادًّا ومناقضًا، لأن بريخت يرى أن الفن وسيلة أساسيّة من وسائل التغيير...

إنه كأكثر المبدعين بحساسيتهم المفْرطة يتأرجح بين الأمل واليأس؛ فيقول: «إن الإنسان الخلّاق المبدع، حتى وإن سيطرت عليه مشاعر التشاؤم، وسط هاوية الجمود، إلا أنه يستطيع أن يصحو من كبوته، وينبعث مجددًا من خلال العمل الخلّاق. إن

العمل بحدّ ذاته ينطوي على رفضٍ صريح لفكرة السّقوط والانهيار». وهو يرى أنه لا يمكن التأثير على الناس وإقناعهم بالعلم والبصيرة والمنطق، فالتاريخ البشري هو تاريخ الإخضاع وليس تاريخ الإقناع؛ فيعلن: «إن التاريخ لا ينتهج الديمقراطيّة أسلوبًا للتطوّر، وإنما بالعنف. لكننا نقف هنا من جديد أمام مشكلات غير قابلة للحلّ»، ويتساءل: «ماذا يعني العنف؟ أين يبدأ، وما الذي يقرّر شكله؟ ذلك أن الولادة عنفٌ، والعصر الجليدي البائد عنف، وكلُّ شرطي مرور عنف، وكل نظام عنف.. هذا مأزق التاريخ». ويضيف: «إن التاريخ ليس عملًا عقلانيًّا كما يراه هيغل، بل فيه الكثير من الجيولوجيا والجغرافيا... والصراع من أجل البقاء، كل هذا يقف وراء التاريخ. إن الغرب لا يستطيع بسهولة أن يتخلّص من نتائج أفكاره»، و«الحياة بالنسبة إلينا، هي كفاحٌ ضد العجز والجوع. نحن جميعًا نسكن الغرفة ذاتها، سواء كنا في هولندا، أو في المكسيك، أو في برلين». فأوضاع الأفراد بائسة في كل مكان مهما بدت مختلفة، فالجميع مغتربون ويكابدون.. إنه يرى أن بشاعات الواقع تجعل من يملك وعيًا خارج أوهام القطيع يلجأ إلى كل وسيلة ممكنة للابتعاد عن الصّراع الذي لا يمكن احتماله...

ويتوقّف أمام سعي المفكّرين، منذ أقدم العصور، نحو تحقيق العدالة، ومحاولة نشر مفاهيمها وتأكيدها كمطلب بشري عام، وكثقافة عامة. ولكن هذه الآمال العظيمة ظلّت تبتعد كلّما امتدّ الزمن فيقول: «والتاريخ بإحساسه الرائع بالعدالة، الذي دفع شيشرون إلى كشف المؤامرة، وأبعده بعد ذلك مائة ميل عن روما، هذا التاريخ هو الذي ينهكنا، وينهبنا جميعًا ويسلخ جلودنا ويحرقها، ويترك ختْمه عليها بارزًا. هكذا، فمصيرنا أصبح ثانية، هو ذاته، سواء أكان هذا المصير أمام البحار أو خلفها. إذًا أقترح أن نترك السياسة ونتّجه معًا إلى الأشياء الإبداعيّة». وكأنه بذلك يعتبر السياسة هي مصدر كل الشرور التي تعاني منها البشريّة، كأفراد ومجتمعات، وأن إسهام المفكّرين والمبدعين في إصلاحها، أو تغييرها غير ممكنٍ، ولكنّي أرى أن تاريخ الحضارة يؤكّد غير ذلك...

في كتابه (أقلامٌ وأنغام) كتب عنه صفوان حيدر: «الشعر الألماني بُعَيد الحرب العالمية الثانية انضوى تحت تيارين: تيار سار على خطى برتولت بريخت؛ وآخر سار على خطى غوتفريد بن». ونحن نعرف المكانة العالمية لبريخت، وهي تعني أن (بن) كان الطرف المعادل...

ويشير صفوان إلى أن رؤية (بن) تطوّرت فتخلّى عن أسلوب الهروب اليائس؛ و: «تحوَّل إلى الصّفوة النقيّة.. كان يرى أن الفن قد بدأ يحتل المكانَة الأولى. ويتفق بن مع نيتشه في القول بأن الرغبة في الإبداع، هي الوسيلة الوحيدة للسمو والارتقاء وسط هذا التيار الصاخب الذي يجتاح أوروبا، والقائم على مبدأ الرفض ونفي المسلَّمات المتوارثة». إنه يرى بحق استحالة أن يلتقي تفكير المبدع مع ما هو سائدٌ، وهذا في رأيه يقتضي أن ينفصل المبدع وينأى بنفسه عن التيار العام، ويبتعد عن صخب الحياة، ويركّز على إبداعه والعناية بالشكل الإبداعي فيعلن: «إن هذه الرغبة في العودة إلى الشكل، وهذا الشعور المتجدّد بأهميّة الشكل، لا ينبعان من تصوّرات جمالية أو عقلانية، بل من إيمان عميق. فإمّا أن تكون هناك صورة روحيّة للكون، وتكون عندئذ أسمى من الطبيعة، ومن حركة التاريخ، وإما لا تكون». إن يأسه من التأثير على تلقائيّة الاندفاع التاريخي يصيبه باليأس ويربك تفكيره، ويجعله يؤثر العزلة ويلجأ للانفصال ويقطع الأمل، وهي نهاية مأساوية لمبدع بمكانته. فالعالم حقّق عن طريق التلاحم بين الفكر الناقد والفعل المؤازر، منذ ثورة مارتن لوثر قفزات عظيمة هائلة لا يصحّ أبدًا التقليل من نتائجها العظيمة، لكن علينا أنْ نتذكّر أنَّ الإنتاج الأدبي لهذا المبدع كان بعد فظائع الحرب العالمية الثانية التي أصابت المبدعين بيأس قاتل وفجيعة محبطة...

وفي الأدب الألماني نفسه يأتي اسم الطبيب الأديب ألفريد دوبلن، وهو مبدع روائي شهير، يقول عنه الناقد ابراهيم العريس: «صار اسم دوبلن على كل شفه ولسان في عالَمَي الأدب والسينما والثقافة عمومًا.. إنه واحد من كبار كتَّاب القرن العشرين». ويتحدّث العريس عن إحدى رواياته؛ ثم يضيف: «أعلن فيها ضمنيًا أنه إذا كان للبشريّة من خلاص فإن هذا الخلاص آتٍ بلا ريبٍ من طريق الفن»، وينقل عنه: «في الإبداع الإنساني الكبير وحده تتجلّى روعة الخلق وروعة الخالق معًا». ويقول العريس: «خلال سنوات السبعين من القرن العشرين تُكتشف معظم أعمال دوبلن، وراح القرّاء يندفعون لقراءة هذه الرواية، وأضحى دوبلن نجمًا ساطعًا إلى درجة أن غونتر غراس أسّس جائزة باسم دوبلن، وكتب عنه دراسات عدّة اعتبره فيها معلّمه الأول والأخير». هكذا لا يبدع الإنسان حين يضطرّ لفعل شيء وإنما يبدع حين يغلي كيانه ويتدفق عطاؤه من أعماقه...

الطبيب الأديب الفرنسي الشهير جورج دوهاميل كان اهتمامه منذ الصغر بالأدب،

لكنه اضطر لدراسة الطب لتأمين دخْل تقتضيه الحياة، فهو يرى أن على الفرد أن يؤمِّن حياته بمهنة يعترف بها المجتمع، ويُدرك احتياجه إليها، لأن الأدب مغامرة فرديّة تَعْرِض ما لا يتقبّله الناس، ربما إلا بعد إعراض طويل وانتظار ممضّ، وفي الغالب فإن العائد المادي للأدب لا يكون دخلًا مجزيًا ولا منتظمًا. فالفكر والفن ليس تسويقهما مضمونًا، ولا يمكن اعتمادهما مصدرًا للرزق. ولكن اشتغال دوهاميل المبكر بالأدب، وموهبته السخيّة، وكونه يعيش في مجتمع قارئ فيه للأدب والفكر رواجٌ واسع. إن هذه الأسباب جعلته رائجًا قبل أن يتخرّج من كلية الطب. فاستمرّ في اندفاعه في مجال الأدب، ولم يكن محتاجًا لأن يعمل في مجال الطبّ، لكن حين اندلعت الحرب العالمية الأولى دفعه الحسُّ الوطني للمبادرة فتطوَّع طبيبًا...

إن تجربة دوهاميل في الحرب وتعامُله مع الجرحى والمحتضرين والجثث، ومعايشة الآلام والبؤس معايشةً مباشرة كانت شديدة الإيلام لحسّه الإنساني المرهف، فأغنت فكره ورفعت رصيده من تجارب الحياة، واكتسب رؤية عميقة، وتَجَذَّر في أعماقه الحسّ الإنساني بشكل أقوى وأعمق وأشد فاعليّة، كان من نتيجته إنجاز وإصدار ثلاثة كتب يصف فيها الفظائع التي رآها وعايشها، وكان يستهدف الارتقاء بالمستوى الإنساني فكرًا وأخلاقا، مع التنفير من الحرب والدعوة إلى التآخي الأوروبي، ثم التآخي البشري. لقد كان الكتاب الأول بعنوان (حياة الشهداء)، والثاني بعنوان (حضارة)، والثالث بعنوان (أحاديث وسط المعمعة)، وكلّها من الإنجازات الادبيّة القيّمة التي تجمع بين الفن والفكر والتاريخ...

حين قام الناقد الكبير الدكتور محمد مندور بترجمة كتاب دوهاميل (دفاع عن الأدب)، كتَبَ له مقدمةً طويلة استغرقت 32 صفحة، وقد أوضح أن مؤلفات دوهاميل بلغت خمسين مجلدًا، مؤكّدًا أن مكانته الرفيعة ليست فقط في فرنسا، بل في كل العالم. ولدوهاميل آراء كثيرة متميّزة حول الإنسان والحضارة والحياة والوجود والصراع والحرب والسلم والحب والصداقة والأخلاق والأدب والإبداع والنقد. وقد كان مبدعًا وغزير الإنتاج وجم النشاط. فامتد تأثيره على مستوى النخبة وكذلك على المستوى العام، فللأدب تأثيرٌ واسع وعميق في المجتمعات المتحضّرة، إلى درجة أن الشخصية الروائية (سلفان) التي اخترعها دوهاميل صارت أكثر شهرة من الأبطال التاريخيين..

ليس الهدف من هذه الأسطر التعريف بدوهاميل، فهو أعظم من أن يُعَرَّف به بمثل هذا الحيّز الضيّق الذي لا يستهدف سوى التذكير بأن مبدعًا هَجَر مهنة الطبّ فأبدع في الأدب، وصار من كبار الأدباء في فرنسا وفي العالم، وعضوًا في الأكاديمية الفرنسية...

الطبيب يحيى الفخراني استهواه التمثيل فهجر مجال الطبّ مبكرًا، وكما جاء في الجزء الرابع من (قاموس المسرح): «تخرَّج في كلية الطب بجامعة عين شمس.. لكن استهوته لعبة التمثيل، واشترك في مسرحية «لكلٍّ حقيقته» لبيرانديلو.. فاتجه نحو المسرح ليتفرّغ للفن. ثم اجتذبته السينما حتى صار واحدًا من نجومها الكبار، كما حقق نجاحًا موازيًا في المسرح والتلفزيون». من البديهي أن النجاح في التعليم لا يحمل أيّة دلالة إبداعيّة، فالانطلاق في أي مجال إبداعي يتّفق مع طبيعة الإنسان التلقائيّة، لكنه مضادٌّ للتعليم الجمعي...

الطبيب التركي فخر الدين كريم جوكاي كان مثقفًا وسياسيًّا تنويريًّا، ينتمي حزبيًّا إلى حزب الشعب الجمهوري، وقد شغل فترة طويلة منصب محافظ اسطنبول، فلم تكن شهرته في الطبّ بل في المجالين الثّقافي التنويري والسّياسي...

إنه الإبداع لا يتحقّق إلا بكسر الأطواق والانفتاح على الآفاق، واستعادة الشّعور الحقيقي بالفرديّة. فالروائي الجزائري مولود معمري لن يتذكّره الناس بأنه درَس الطبّ، وإنما سوف يكونون مع إبداعه الروائي الذي لا يخضع للتنميط وإنما يجيده المبدعون فقط...

لا تقاس الأعمار بالسنوات التي يعيشها الفرد، فقد يعيش المرء قرنًا كاملًا ويطويه الزمن من غير أن يترك في الأرض أثرًا باقيًا، وقد يخطفه الموت سريعًا ولكنه يترك إبداعًا لا يمحوه الزمن مهما طال. فالطبيب الألماني جورج بوخنر كان من ذوي العمر القصير والإبداع الخالد، يقول عنه أحمد سخسوخ: «غادر العبقري جورج بوخنر عالمنا قبل أن يُكمل الرابعةَ والعشرين من عمره، وعلى الرغم من حياته القصيرة فقد ترك لنا كنوزًا أدبيّة ودرامية وعلميّة عظيمة الأثر». وقد ترجَم الدكتور عبدالغفار مكاوي أعماله المسرحية إلى العربيّة؛ وكتَبَ: «جورج بوخنر كاتبٌ وثائرٌ وطبيبٌ، عبَّر عن صرخة الخليقة المعذَّبة من عبث الوجود وفنائه، هذه الصرخة التي لا نزال نسمع صداها في

الأدب العالمي حتى اليوم». أما الدكتور علي حسن فإنه في كتابه (ثلاثون عملًا من الأدب الألـماني)، يوضح أن بوخنر تخرَّج طبيبًا، وأنه أسّس جمعية حقوق الإنسان التي أعلن أن هدفها تغيير الأوضاع السياسيّة، ثم يتحدّث عن: «اهتمام متزايد بجورج بوخنر الذي تفخر مدينة دارمشتات بانتسابه إليها، فتمنح كل عام أديبًا تختاره جائزةَ بوخنر، التي تُعَدُّ أهم جائزة ادبيّة في ألمانيا على الإطلاق. وهكذا أصبح اليوم اسم بوخنر، هذا الشاب الذي بدأ يفكّر ويكتب ويكافح صغيرًا ثم مات فجأة، وسامًا يفخر به العمالقة». إن مئات الـملايين من البشر بمن فيهم ذوو التخصّصات المهنيّة الجامعيّة، أو ما فوق الجامعية، يقضون في الحياة أعمارًا طويلة ولكنهم يذهبون كملايين قبلهم وملايين سيأتون بعدهم من غير أن يتركوا أثرًا يُعرَفون به، بل يقضون أعمارهم في أعمال تنفيذيّة ضروريّة لكنها ليست إبداعيّة. أما المبدعون فهم الاستثناء، إنهم قلَّة من البشر، لكنهم رغم قلَّة عددهم فإنهم كانوا خلف كل ما تزخر به الدنيا من إبداع وتطوّر وإنجاز. فليست الحضارة الباذخة سوى نتاج الأفكار الخارقة التي تُقابَل بالرفض العنيف، ثم تجد طريقها بالتدريج إلى بعض العقول، ثم تصير بمرور الوقت جزءًا من حياة الناس من دون أن يدركوا كيف حصل ذلك...

الطبيب البرتغالي ميغيل تورغا كان مرشَّحًا لجائزة نوبل في الآداب، حيث أبدع باندفاعٍ تلقائيّ، وليس في الطبّ الذي يحمل شهادته. كتَبَتْ عنه صحيفةُ لوموند الفرنسية مقالة، ترجمها جوزيف حرب، جاء فيها: «هذا الكاتب الشهير كان يعمل طبيبًا، ولكن ذلك لم يمنعه من تقديم إنتاجٍ أدبيٍّ غزيرٍ، دمَج فيه بين التفكير الجمالي والأقصوصة والرّواية والشعر.. بقي طوال حياته ثائرًا ذا نزعة فردية، طُرِح اسمه مرات عدّة لنيل جائزة نوبل، غير أن الأكاديميّة السويديّة استمرّت في تجاهُل الأدب المكتوب باللغة البرتغالية، أما في بلاده فقد شهد تورغا تكريمًا شديدًا، واعتُبر سلطة معنويّة.. كان معارضًا شديدًا لنظام حُكْم سالازار، أما صحيفته فسوف تبقى من أهم الشواهد الادبيّة لهذا القرن». ومن البديهي أنه لم يكتسب هذه القيمة المعنويّة المؤثِّرة من الطب، وإنما اكتسبها من الأدب ومن نضاله الفكري. إن الجريدة الفرنسية تَعتبِر تورغا واحدًا من الأبطال الذين تفخر بهم أممهم فتشرح: «إن لكل أمَّة أبطالها، وهي تَظهر في وجوهٍ تُجسِّدُها، ومع موت ميغيل تورغا تخسر البرتغال أكثر الكتاب الذين اندمجت هويتهم

بها»، وتؤكد الجريدة: «أن المكانة الادبيّة التي احتلّها ميغيل تورغا طوال هذا القرن (العشرين)، كانت تجسيدًا للضمير الأخلاقي المرتكز على الإخلاص، وهو وإن كان قد اختلط اسمه باسم بلاده، فذلك لأنه حمل جراحها وكان مُنشِدَها، ولكن ليس على نهج الشعراء الوطنيين الذين ينفخون نفير الحروب».

ظروف ومتطلبات الحياة لا ترحم، فالطبيب المبدع قد يضطر لمواصلة العمل المهني من أجل أن يعيش ويُعيل أسرته، وليس من طبيعة الناس أن يعترفوا بتميّز أي شخص إلا بعد فترة قد تطول كثيرًا، حين يفرض الإبداع وجوده فرضًا لا مجال لدفعه أو إنكاره. وخلال فترة عدم الاعتراف بالعمل الإبداعي يضطر المبدع لاعتصار نفسه لينهض بمهمة مزدوجة، فيعيش العسر والمشقّة، لكن اهتمامه التلقائيّ لا يفتُر ومتطلّبات الحياة تتزايد، وقد لا يتحقّق الاعتراف إلا بعد موت المبدع حيث يعاني مرارة التجاهُل ومكابدة العمل المزدوج الشاق...

الطبيب المبدع المصري محمد المخزنجي يتلقّف المهتمون بلهفة وشغف إبداعاته في القصة والرواية وكُتُب الرِّحلات، وكل ما يكتبه بأسلوبه العذب ويقرأونها بمتعة آسرة، وهكذا جاء إبداعُه في الأدب وليس في الطبّ. كنتُ أقرأ استطلاعاته المتميّزة التي كان ينشرها في مجلة العربي الكويتية، ثم عرفت أنه طبيبٌ مبدع، وأن بدايته الإبداعيّة كانت في مجال القصّة القصيرة، وأن الأديب الكبير يوسف إدريس كان مبهورًا بموهبته الإبداعيّة، مع أن القليلين ينالون اعتراف هذا المبدع الكبير، فضلًا عن الإعجاب. إن المكانة الإبداعيّة للمخزنجي قد باتت عالية وراسخة، وشهرته صارت واسعة، وأصبحت إبداعاته موضوعًا لدراسات نقديّة أكاديميّة عميقة، ونال جوائز ادبيّة...

الطبيب الأميركي جوناس سولك أبدع أوَّلًا في اكتشاف مصل شلل الأطفال، وهي قفزة إبداعيّة تتجاوز الأداء المهني المعتاد. ثم تحَوَّل إلى القضايا الاجتماعيّة والإنسانيّة، فأصبح يعامَل كمفكرٍ وفيلسوفٍ وصاحب رؤى شاملة. كتَب عنه بيتر ستولر: «جوناس سولك هو الشّخصيّة الرّائدة في مجال الطب. تحَوَّل بفكره إلى مجالات الأخلاق والإبداع، وتحديد النسل، وتأثير العلم في الشؤون الإنسانيّة... ولو أن سولك لم يكن

قد أنجز شيئًا آخر سوى اكتشافه لمصل شلل الأطفال لكان ذلك وحده كافيًا لدعم مكانته في معارج الأبطال في المجالين الطبّي والعلميّ. بيد أن عمله منذ ذلك التاريخ قد أظهر أن سولك واهتماماته قد ضربت في الآفاق وصارت له صفة الشمول... إن سولك قدَّم مثالًا يجب أن يُحتذى لتوفير فرص الإبداع، بينما تُرسِّخ كتُبه قدمَه كمفكّرٍ وفيلسوفٍ متمتعٍ بكلٍّ من الأصالة والبصيرة». وبهذه الصفة الاستثنائيّة الشموليّة اختاره الطبيب الفرنسي ميشيل سالمون بوصفه واحدًا من الشخصيات العالمية العشرين، لحواراته العميقة حول حاضر ومستقبل الإنسانيّة. وقد صدرت الحوارات في كتاب يحمل عنوان (المستقبل) مع مقدّمة عميقة للفيلسوف الفرنسي إدغار موران...

الطّبيب السوري عبدالسلام العجيلي، رغم أنه عمل في المجال السياسي نائبًا ثم وزيرًا للثقافة، ثم وزيرًا للخارجية، إلا أن إبداعه الروائي والقصصي، ومشاركاته المعرفيّة، هي التي ضمنت له الانتشار، وستضمن له الخلود. ففي المهرجان الرابع الذي يقام باسمه يكتب الناقد العراقي عبدالستار ناصر: «تذهب الوزارات والكراسي ويبقى الإبداع. يبقى عبدالسلام العجيلي المبدع، كاتب الرواية والقصّة القصيرة. أخذتْ السياسةُ حصةً كبيرة من حياة العجيلي، لكنه تمكّن أن يعطينا اثنين وأربعين كتابًا في الرواية والقصة القصيرة والمقالات والأسفار، وديوان شعر». وتوضح فوزية جمعة المرعي في البحث الذي قدّمته بعنوان (مستويات المعرفة عند العجيلي): «لا بد من الإقرار بأن العجيلي كاتبٌ مبدعٌ موسوعيّ المعرفة، واسع الاطلاع، كثير الأسفار، متعدّد الثقافات، متمرّس التجارب.. غزالي الشكِّ، ديكارتيّ اليقين، باسكالي الرؤية، رُشْدي التفكير، جاحظيّ الأسلوب.. إن استعراض صفات العجيلي هذه ليست من قبيل التبجيل، إنما هي حقيقة ثابتة يعرفها ويدرك فحواها متابعوه، وتشهد عليها وتؤكّدها نصوصه التي أبدع من خلالها مستويات التفكير البشري». لقد درَس العجيلي الطبّ كوسيلة للعيش، ولكن اهتماماته التلقائيّة كانت أعلى من أن تختصره معرفةٌ مهنيّةٌ، فأبدع في أكثر من مجال، وكلها مجالات لا علاقة لها بالطب. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ تحرّكه دوافعه التلقائيّة...

الطبيب الأميركي بنيامين راش لم تُخَلِّد اسمه دراسته للطب، وإنما بقي اسمه محفوظًا في التاريخ لأنه كان مصلحًا دعا إلى إلغاء الرق، وإلغاء عقوبة الإعدام، وإلى

الاهتمام بتعليم المرأة، كما أنه أحد الموقّعين على إعلان الاستقلال عن بريطانيا، واشتهر بعنايته بالمجانين والدعوة لمعاملتهم معاملة إنسانيّة حين كانوا يعامَلون بقسوة. إن هذا المصلح العظيم وأمثاله من رواد التقدّم بإشراقاتهم الفكريّة، ونقائهم الأخلاقي، ومواقفهم الإنسانيّة، وكفاحهم النبيل كان خلف التغيُّرات العظيمة التي طرأت على الحضارة الإنسانيّة، فبَيع البشر كبيع البهائم كان سلوكًا عامًّا لا يلفت النظر، لكن الناس الآن يكادون لا يصدِّقون بأن البشر كانوا يباعون كالبهائم. لقد صار الرقّ بفضل الرواد مستبشَعًا كأفظع بشاعات الماضي، وكذلك كان إهمال المجانين أو معاملتهم بوحشيّة فظيعة. إنهما من أمثلة التطوّرات الحضاريّة التي تحقّقت بفضل الرواد، ثم صارت من بداهات الحياة...

الطبيب الأميركي مايكل كريشتون عُرف بالأدب وليس في الطب. كما عَرَفَتْ أميركا رجلين بارزين يحملان الاسم نفسه (أوليفر ويندل هولمز)، أحدهما طبيب وأديب، والثاني قاضي المحكمة العليا، وهو أيضًا مفكرٌ وأديبٌ وحكيمٌ، ويتكرّر اقتباس أقواله. لكن الذي يعنينا هنا الطبيب الذي اشتهر في مجال الأدب، فمن حكمه الملهمة: «الأشياء التي تحكم العالم لا وزن لها: الحرارة والكهرباء والحب». وهو مبدع سلسلة (مائدة الإفطار)، ومنها رواية (المستبدّ على مائدة الإفطار)، وغيرها، فرغم أنه احتلَّ مناصب رفيعة إلا أن شهرته تقوم على إنتاجه الأدبي، ففي كتاب سول يادوفر الذي يحمل عنوان (عباقرة خالدون) يشرح يادوفر: «أما هولمز الأب فشخصيّة مشهورة بعقلها وروح الدعابة فيها. كان طبيبًا من حيث المهنة، أما حرفته الحقيقيّة فهي الكتابة وحْدها، وقد كان أستاذًا في هارفرد وعميدًا لكلية الطب، إلا أنه ألَّف قصائد مشهورة وروايات نفسية وكتبًا مسلية (ساخرة)، أفضلها سلسلة (مائدة الإفطار)، فهذا الأستاذ الذكي لم تسلم منه (أي سخريته) حتى مهنة الطب». وكُتب عنه في (مختارات من الفكر الأميركي) بقلم دايان رافيتش: «نال شهرته العظيمة من كتاباته». ويؤكّد فابريكانت، محرّر كتاب (لماذا صرت طبيبًا؟): «إن دارسي الأدب الأميركي سيذكرون على الدوام باعتزاز وفخر الكاتب الرقيق الذي ألّف رواية (المستبد على مائدة الإفطار)». وهو يَعتبِر أن عصاميّة الفرد ليست في نيل الشهادات التي تدلّ على التقيُّد والامتثال، وإنما تكمن في قدرته على التغيُّر، فيقول: «كل إنسان يحبّ ويحترم العصامي، فالأفضل أن ينشأ

الإنسان عصاميًّا من أن يبقى على ما هو عليه لا يتغيّر»، فالقدرة على التغيُّر على مستوى الأمم هي معيار التحضُّر، أما على مستوى الأفراد فهي معيار العصاميّة، وليست الأصالة والعصاميّة في الامتثال والتقليد والترديد والافتخار بالألقاب المؤطِّرة، بل في الأصالة وفي كسر الإطار والتفرد برؤية أو إبداع خارج القطيع في أي مجال من مجالات الفكر أو الفعل. فلولا هؤلاء لما حصل أيَّ تقدّم...

الطبيب الروسي المبدع ميخائيل بولغاكوف لم تعرفه الدنيا في مجال الطب، وإنما عرفته في مجال الأدب المبدع. كَتَبَ عنه البرفيسور بيوتر نيكولايف: «مصير التراث الأدبي لميخائيل بولغاكوف موضوعٌ تاريخي لفاجعة نادرة المثال. إنه المصير المحزن لفنٍّ رفيعٍ. رواية (المعلم ومارغريت)، إحدى الروائع الأدبيّة للقرن العشرين». ويوضح البروفيسور أن الرواية كُتِبَتْ في عهد ستالين، وأن المبدع «كتب روايته مع ثقته باستحالة نشرها في حياته. والآن بعد أن شهدتْ الروايةُ النورَ عِقِب أكثر من ربع قرن على كتابتها أصبحت معروفةً لدى القرّاء في كل العالم. وتَعتبرها العقول المبدعة البارزة إحدى ذرى ظواهر الأدب الروائي في القرن العشرين». ولأهمّيّته وقوّة تأثيره ولأنه حرّ الفكر وضد القمع السلطوي فقد هاجمه مؤلفو (موجز تاريخ الفلسفة)، الذي صدر في العهد السوفياتي. ومن أعماله الادبيّة: (مذكرات طبيب شاب)، و(المغامرات العجيبة لدكتور)، ثم رواية (الحرس الأبيض)، و(نشيد الشيطان)، و(البيوض القاتلة)، و(وقلب كلب). أما أهم رواياته فهي (المعلم ومارغريت). ويوضح البروفيسور أن بولغاكوف بدأ ككاتب مسرحي وقُدِّمت مسرحياته على خشبة المسرح. ونقتطف من الجزء الثالث من كتاب (تاريخ الآداب الأوروبية) قولَ المؤلِفين: «هناك اثنان بولغاكوف وبلاتونوف قد جلبا سرًّا إلى النثر في الثلاثينات الإسهام الأغزر ثراءً، وألّف بولغاكوف عدّة مسرحيّات وروايات أوقفها على القدَر المأساوي لأديب مبتكر، وكَتَب في الحين نفسه طوال عقد الثلاثينات روايته (المعلم ومارغريت)، حيث يتلاقى الهجاء الاجتماعي والوهم العجيب على منوال هوفمان، وأسطورة الشاعر الرومانسية والاستجواب عن الفن والسلطة». إنه الهَمُّ الأبدي للإنسانيين الأحرار والرواد من المفكّرين والمبدعين، الذين يسعون لإنسانيّة حرّة نقيّة راقية في العلم والفكر والأخلاق، يتوفّر فيها العدل والكرامة الإنسانيّة للجميع من دون تعصّب ولا تحيّز، ولا تجاهُل، ولا انتقاص، ولا

تهميش. لكن الطوفان البشري الخانع مندفعٌ تلقائيًا تتحكم به الأوهام كما كانت تتحكّم بأسلافه خلال مراحل التاريخ. فالإنسان هو الإنسان تصوغه البيئة تلقائيًّا ويتحكّم به المستبدون، فالجموع تشبه القطيع يتلاعب بها قادة الثقافة والسياسة، وتتحكّم بها أوهامها ويكون التعليم من أهم وسائل التطويع والتذويب والدمج، وليس طوفان النازيّة سوى نموذج لهذا التسيير والاستجابة العارمة...

طبيب الأسنان المصري علاء الأسواني لم يعرفه الناس بواسطة تخصّصه، ولا عن طريق عمله المهني، لكنه برز مبدعًا روائيًّا وناقدًا حادًّا وكاتبًا متمكّنًا، إنه مبدعٌ واقعيٌّ يستهدف تعرية الأوضاع ونقد الممارسات الخفيّة المحجوبة، فيقول: «إن الأدب فنُّ الحياة، والرواية حياةٌ على الورق تشبه حياتنا اليوميّة لكنّها أكثر عمقًا ودلالة وجمالًا». وقد حُظي إبداعه الروائي باهتمام واسع. فحين صدرت روايته (عمارة يعقوبيان) أحدثت ضجةً مدوّية، وكما يقول عنها الدكتور جوزيف مسعد: «روايةٌ أحدثتْ انفجارًا مدويًّا في المشهد المصري، وحازت اعترافًا نقديًّا واسعًا، وتُرجمت إلى الانجليزية». ويستطرد: «كانت روايةُ علاء الأسواني عمارة يعقوبيان تهدف لإظهار الانحطاط والانحلال والبؤس الذي غرق فيه المجتمع المصري بسبب دولة ما بعد الاستعمار». وقد قام جيل غوتييه بترجمتها إلى الفرنسية، وكتبتْ جريدة لوموند الفرنسية: «علاء الأسواني يُعتبر من بين الكتاب المصريين الأكثر شهرةً، خاصة بروايته عمارة يعقوبيان. لا يتوقّف عن توجيه رؤية ساخرة وانتقادية للأوضاع التي يعيشها بلده». ويكتب الروائي بهاء طاهر: «اهتم علاء الأسواني في روايته الجميلة والبارعة بتأثير البيئة الخارجية على سكان عمارته، ولم يركّز اهتمامه على العالم الداخلي للمكان إلا بالقدر الذي يفيده التغيّرات الناتجة عن هذا الاقتحام الخارجي للمكان». ويتعمّق الاهتمام بالرواية ويتّسع فتُناقَش في مؤتمرات وندوات وتُخَصّ بدراسات مفصّلة، فأمامي كتابٌ ضخم للدكتورة وافية بن مسعود بعنوان (دراسة في السرديّات المقارنة لرواية عمارة يعقوبيان والفيلم)، وهذه الدراسة الضخمة ليست سوى مثالٍ على الاهتمام الذي قوبلت به إبداعاته. ومن رواياته الأخرى رواية (نادي السيارات)، ورواية (نيران صديقة)، ورواية (شيكاغو)، وقد حوِّلت (شيكاغو) و(عمارة يعقوبيان) إلى السينما، وكتبت مجلّة العربي الكويتيّة الرصينة: «ربما لم يحظَ أديبٌ عربيٌّ بما حظي به صاحب عمارة

يعقوبيان من شهرة وانتشار، فمنذ طبعتها الأولى حقّقت الرواية صيتًا واسعًا، وأثارت جدلًا نقديًّا استمر سنوات لا يزال بعضه عالقًا في الأفق». كلُّ هذا جاء بعيدًا عن مجال التخصّص الذي استهلك الكثير من وقته وطاقته وحياته، وهو ليس سوى نموذجٍ على المبدعين الاستثنائيين الذين يضطرون للدراسة والارتباط بالتخصّص، لأن ظروف الحياة ومتطلّبات المجتمع تقتضي ذلك! إنه هدرٌ ماحق وضياعٌ ممتد...

الطبيب الألماني هاينار كيبهارت نال الدكتوراه في الطبّ، لكنّه لم يمارس مهنة الطب بل انخرط في العمل المسرحي تأليفًا وإخراجًا، فقد كان مدفوعًا باهتمامٍ تلقائيّ عميق نحو تأكيد الآمال الإنسانيّة بالعدالة والنقاء الأخلاقي. فأثناء إقامته في ألمانيا الشرقيّة لم يمالئ الحزب، وإنما كانت مسرحيّاته تسخر من تعاليم الحزب. اختار الدكتور علي حسن لهذا الكاتب في كتابه (ثلاثون عملًا من الأدب الألماني) مسرحيته التي بعنوان (موضوع روبرت أوبنهايمر)، وقد حلّلَها وناقش ما قيل حولها إيجابًا أو سلبًا وكتب: «مؤلّف المسرحية ألماني وهو يريد تقييم أوبنهايمر، ليس انطلاقًا من خيانته لألمانيا أو إخلاصه لأميركا، وإنما انطلاقًا من موقفه كعالم يعي أو لا يعي مدى مسؤوليّته تجاه البشريّة.. يحرص أو لا يحرص على أن يكون قدوة مصلحة لغيره من العلماء». وبعد أن يستعرض د. علي حسن مختلف الاتجاهات والآراء يكتب: «أنْ يعالج الأدبُ الألماني هذه الأمور بكل هذه الجدّيّة وبكل هذه الحدّة انطلاقًا من موقف مثالي ومن دون أدنى تنازلات، هو أمرٌ يقال له ولا يقال عليه. فلن تتمكّن البشريّة من البقاء من خلال المساومة على ما وضعته لنفسها من معايير خلقيّة، وإنما من خلال الالتزام بهذه المعايير». إن المهمّة الأولى للمثقّف والمبدع أن يكون من أنصار الارتقاء والنقاء ومحاربة التعصب، ونشر أخلاق التآخي، ونبذ الحقد، وإشاعة النفور من كل أسباب الكراهيّة...

الطبيبة السورية هيفاء بيطار لم تُعرف عن طريق الطبّ، وإنما هي مبدعة روائيّة رائعة دَرَسَت الطبَّ، ثم تخصّصت في طب العيون، ولكن لم يكن اتجاهها لدراسة الطب بدافع الاهتمام التلقائيّ الذاتي، وإنما اتّجهت إليه كغيرها بحثًا عن الأمان المعيشي، لأن مجال الطبّ هو الأضمن لتوفير الوظيفة أو العمل. غير أن في أعماقها اهتمامًا أقوى، وقد انحسر هذا الاهتمام القويّ المستغرق عن موهبة إبداعيّة سخيّة. كانت هذه

الموهبة كامنة ومتحفّزة بقوة، تنتظر أن يُلتفت إليها لتتدفّق نتاجًا إبداعيًّا مدهشًا، إن حالتها نموذجيّة لتأكيد ضآلة تأثير التخصّص في شخصية الإنسان، فهي طبيبة وتزوّجت بطبيب، لكنها لم تصبح على وفاق معه، فأبقاها سبع سنوات معلّقة، انتهت بالطلاق عن طريق المحاكم، وكانت هذه المأساة كافية لتحريك موهبتها الكامنة، وإطلاق الطاقة الإبداعيّة المحبوسة في أعماقها. فهي تتحدّث عن زوجها قائلةً: «لم يكن يعلم أنه بسلوكه الأرعن هذا قد فجّر موهبةً غافية في أعماقي هي موهبة الكتابة». واللافت أن زوجها كان أيضًا طبيبًا لكنه يختلف عنها كلّيًّا، فاهتماماته مناقضة لاهتماماتها، ورؤيته للعالم وللحياة مغايرة لرؤيتها، لذلك كان الافتراق بينهما حتميًّا. وهي تصف الفراق بينهما: «كنا مختلفَين متنافرَيْن.. كانت شخصيتي بعيدة كل البعد عن شخصيته وتطلّعاته، ففي حين كنت أعشق كل ما هو روحي ويمتُّ لعالم الفكر والإحساس من أدب وفن وعلاقات اجتماعيّة راقية يحكم فيها الوجدان والقيم.. كان هو يَعتبِر كل البشر مسخَّرة لمتعته. يستمدّ من حبنا له واهتمامنا به زادًا ليتعملّق وليتضخّم عنده جنون العَظَمة. كان عاشقًا لذاته ويعتبر نفسه فوق مستوى البشر، يعشق حركاته وشكله وثيابه وأحذيته». وبسبب هذا التباين في القيم وفي طريقة التفكير وفي الإحساس بالذات وبالآخرين افترقا سريعًا، وهذا يؤكّد أن التماثل في التخصّص الدراسي، سواء كان في مجال الطب أو في غيره، لا يُقَرِّب بين المتباعدين، فهو لا يغيِّر الطباع، ولا يعدِّل طريقة التفكير، ولا يعيد ترتيب منظومة القيَم، بل هو عتادٌ مهنيٌّ فقط، ولا يتجاوز هذا النطاق الضيِّق. لكن هذه الحقيقة رغم أهميّتها البالغة ما زالت غير واضحة للكثيرين، فما أكثر الأضرار التي نجمت عن غياب هذا الوضوح...

الطبيب البرازيلي دي خوسيه كاسترو لا يُعْرف في العالم في مجال الطب بل يُعَرَّف كما في موسوعة السياسة بأنه: «مفكّرٌ سياسيٌّ، وواحدٌ من المناضلين العالميين ضد ظاهرة المجاعات في العالم». فهو برازيلي، لكنّ اهتماماته ذات امتدادٍ عالميٍّ، وهو على المستوى العلمي متنوّع القدرات، ومارس التدريس في تخصّصات مختلفة، فشغل منصب مدير معهد التغذية التابع لجامعة البرازيل وفي الوقت نفسه نائب مدير كلية الفلسفة، كما عمل أستاذًا لعلم الإنثروبولوجيا والجغرافيا البشريّة، وشغل مناصب رفيعة متنوّعة في البرازيل وفي منظمة الأمم المتحدة، ومنها منصب رئيس الرابطة

العالمية لمكافحة الجوع. ولم يكن يؤلّف ويكتب في مجال الطب بل في المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ ومن أهم مؤلّفاته كتابه (جغرافية الجوع)، ومع كل هذه المكانة العالمية جرى اضطهاده في العهد العسكري في البرازيل، وهذا أحد المؤشرات على فظائع الاستبداد السّياسي حيث يجري خنق الاتّجاهات الإنسانيّة...

الطبيب الانكليزي الروائي جوزيف كرونين يقول عن نفسه بأنه منذ أن كان فتًى صغيرًا كان يشعر بدافع غريب لأن يصبح كاتبًا، لكن كان مجرّد التصريح لأهله عن هذه الرغبة عُدَّ جنونًا في نظرهم، لأن الكتابة مجازفة في المجهول لا تضمن دخْلًا، فاضطرّ لدراسة الطب، ولكن اهتمامه التلقائيّ ظلّ ملازمًا له، بل بقي نارًا تتأجَّج في داخله. وكما يقول: «كنا ننتزع الدقائق والساعات انتزاعًا.. والآن فإني أستطيع أن أحصل على ستة شهور، أو حتى سنة إجازة، تتاح لي فيها فرصةٌ للكتابة، وأتخلّص من الأفكار التي تنخر في عظامي». أي أن الاهتمام التلقائيّ في الكتابة بقي مسيطرًا يُلهب ذاته وينخر عظامه، فكانت الأفكار التي يودّ الكتابة عنها تتأجّج في داخله فتدفعه إلى تفريغها ليتحرّر من نخرها، فكان يستغلّ أي فراغ للكتابة. وقد أبدع في الفن الروائي؛ ومن رواياته: (القلعة)، و(ومفاتيح المملكة)، و(السنوات الخضر). وهكذا هو الإنسان لا يبدع إلا حيث يدفعه اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق...

الطبيب الأديب والشاعر المصري إبراهيم ناجي لم تخلّده مهنة الطب، إنما هو بإبداعه الشعري سيبقى مع الشعراء الخالدين. يقول عن نفسه: «القدر شاء أن أكون طبيبًا وليس بالطبّ من حرج، إنما الحرج أن يكون الخيال مركّبًا في طبيعة إنسانٍ، فإذا القدر يواجهه بالواقع ويصدمه. وإنما الحرج أن يكون الشعر مركّبًا في طبيعة إنسان، فإذا بالقدر يضعه فوق أسنّة المادّة ويزجّه في الدائرة التي لا شعر فيها ولا خيال». هكذا تصارَع في ذات إبراهيم ناجي تخصُّص الطبّ مقابل الاهتمام التلقائيّ المتأجّج في الأعماق، فانتصر الطبيعي التلقائيّ على المصطَنَع الملصَق، وسوف ينسى الناس أنه درس الطبّ، بينما سيبقى شعره خالدًا. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ لا يستطيع حتى هو أن يطفئ أو يتجاهل رغباته واندفاعاته التلقائيّة...

يقرأ الناس للمفكّر خالص جلبي في شرق العالم العربي وغربه، وربما أن أكثرهم

لا يعلمون بأنه طبيبٌ، فالطبُّ مهنةٌ لكنها لا تعبِّر عن مفكّرٍ عظيمٍ أمضى عمره مضطرم العقل، متأجّج الوجدان، لا يتوقّف عن محاورة الواقع البائس والبحث عن حلول لمشاكله ومعضلاته. إنه لا يعيش همومه الفرديّة وهموم أسرته، وإنما يعيش الهمَّ العامَّ الذي لا يتوقّف عند حدٍّ، ويتطلّع لأن يسود العلمُ والسِّلمُ، وأن يتحقّق التآخي الإنساني ويتلاشى العنف ويعم الرخاء، وأن تنتهي أو تَخِفَّ الأحقاد، وأن تنعتق البشريّة من أغلال التاريخ وأوهام الثقافات.. إنّه متفائل أكثر بكثير مما تسمح به الطبيعة البشريّة أو تتيحه الثقافات المتحجِّرة. وقد صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ويقول: «الإنسان لا يحتاج أكثر من ساعات لاختراق حدود الجغرافيا، ولكن كسر حاجز اللغة يتطلّب أعوامًا، أما اختراق فضاء الثقافة وهضمها، والتحوّل منها وإليها فيتطلّب عقودًا، ولكن القفز فوق حاجز العنف لدخول عالم السلام تحُدُّه عقباتٌ يُشَكِّلُ كلٌّ منها سدًّا منيعًا وخنادق سيكولوجية تُطْبِق على العقل بمسلَّمات يصعب الفكاك من قبضتها». إنه مفكّر استثنائي يعشق المعرفة عشقًا لا مثيل له، فهي متعته وهي أنيسه وهي مجمل وتفاصيل حياته، أما تخصّص الطب فهو ضمانٌ مهنيٌّ اقتضته متطلّبات الحياة...

الطبيب الألمانيّ نوربير إيلياس لم يُنتج في مجال الطبِّ وإنما كان نشاطه الفكري في مجال علم الاجتماع، وعومل في الجامعات على هذا الأساس، فعمِل في تدريس علم الاجتماع في جامعة كامبريج وليستر، ومؤلّفاته في علم الاجتماع وليس في الطب، وأهمها كتابه (سيرورة الحضارة) في ثلاثة مجلدات يتناول فيها التقاليد والتغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة...

الطبيبة المصرية نوال السعداوي لم تعرفها مصر، ثم العالم العربي ثم العالم كلّه، عن طريق الطب، وإنما هي معروفة على المستوى العالمي بإبداعاتها الادبيّة، وبالحدّة التي تميّزت بها في نضالها لتحرير المرأة. يقول عنها الناقد إبراهيم العريس في كتابه (حوارات النهضة الثانية): «هي بالتأكيد واحدةٌ من أكثر المفكّرين العرب مشاكسةً وعنادًا وتمسّكًا بالمواقف. منذ عقود ونوال السعداوي اسمٌ حاضرٌ في الفكر العربي، مؤلِّفة في القضايا الاجتماعيّة والجنسيّة وطبيبة ومناضلة، وروائيّة تستخدم الأدب لعرض أفكارها. شُهرتُها تجاوزت مصر إلى العالم العربي باكرًا لتصل إلى العالم كله، حيث تُقدَّم وتترجم كتبها... نوال السعداوي تفضِّل أن يقال عنها إنها مدافعة عن قضية

المجتمع في شكلٍ عامٍّ، معتبرةً أن قضيّة المرأة هي قضيّة المجتمع بامتياز، وأن حلَّ العقبات التي توضع في وجه المرأة وضد حقوق المرأة، كفيلٌ بأن يوصل الكثير من قضايا المجتمع نفسه إلى حلول معقولة». وتكتب عنها أمل التميمي في كتابها (السيرة الذاتية النسائية): «يلقّبونها سيمون دو بوفوار العرب، لأنها ناضلت من أجل المرأة ونُصْرة قضاياها، فكتبت عن المجتمع والتراث والسّياسة والحريّة». المهمّ أن الطبيبة نوال السعداوي لم تُعرَف بالطب وإنما عُرِفَت كاتبة مقالة ومبدعة روائيّة، وكاتبة قصة قصيرة، وقد نالت عددًا من الجوائز الادبيّة...

الطبيب المصري محمد المنسي قنديل استحوذتْ عليه اهتماماته التلقائيّة المتعلّقة بحاضر الأمّة وماضيها، فاعتزل مهنة الطب وتفرغ للإبداع الروائي، لقد أوجعته أوضاع العرب البائسة، فراح يستنطق التاريخ ليعرف جذور ما نحن فيه من تخلّف وهَوان وبؤس. لذلك تجد رواياته نبشًا للتاريخ وتعمُّقًا في التراث، وبحثًا عن أسباب الإعاقة الحضارية، فهو روائي وليس مؤرّخًا، إنه يبحث عن المعنى العميق، أو المحجوب الذي تنطوي عليه الأحداث والأفعال وترتبط بالأسماء. وكما قال ميلان كونديرا: «الروائي ليس خادمًا للمؤرخين. لأنه لا يرغب في رواية التاريخ أو التعليق عليه، بل أن يكتشف السِّمات المجهولة للوجود البشري». وقد حصل على عدد من الجوائز الادبيّة...

الطبيب المصري مصطفى محمود اشتهر روائيًّا وكاتبًا إنسانيًّا، ثم تحوَّل إلى الاتجاه الإسلامي بدايةً بكتابه (نحو تفسير عصري)، ثم كتابه (من الشك إلى اليقين)، ثم توالت كتبه الإسلامية مع مواصلة نشر رواياته القديمة. ومن أقواله العميقة: «إذا أردت أن تَفَهم إنسانًا فانظر فِعْلَه في لحظة اختبار وحينئذ سوف تفاجأ تمامًا، فقد ترى القديس يزني، وقد ترى العاهر تصلّي، وقد ترى الطبيب يشرب السم (يدخن)، وقد تفاجأ بصديقك يطعنك وبعدوك ينقذك، وقد ترى الخادم سيدًا والسيد أحقر من أحقر خادم في أفعاله. وقد ترى ملوكًا يرتشون وصعاليكَ يتصدَّقون». إن نقائص وسلبيّات البشر هي الأصل التلقائيّ، أما التحرّر من بعض هذه النقائص فيتطلّب جهودًا منتظمة لبناء عادات فكريّة ومعرفيّة وأخلاقيّة راسخة، ذات انسياب تلقائيّ مع اليقظة الدائمة لأصالة وتلقائيّة وأولويّة النقائص من أجل تجنّبها...

تتنوع الاهتمامات التلقائيّة التي قد تدفع إلى إنجازات تتقدّم بها المعارف البشريّة. يَذْكُر بيل برايسون في كتابه (موجز تاريخ كل شيء تقريبًا) أنَّ تصنيف النباتات كان فوضويًّا، وكان ذلك يمثّل مشكلة معرفيّة، ثم يوضح: «كان العالَم متلهّفًا لوضع منهج تصنيفٍ قابلٍ للعمل. ولحسن الحظ كان هناك رجل في السويد مستعد لتقديمه، كان اسمه بالصيغة اللاتينية كارولس لينييوس، دَرَس الطب في السويد وهولندا، وبدأ بإنتاج كتب شارحة عن نباتات العالم والأنواع الحيوانيّة، مستخدمًا منهجًا من استنباطه هو، فنمت شهرته في العالم. منهجه في التصنيف كان لا يقاوَم، كان عالَم النبات يتّسم بالفوضى والتناقض في الأسماء، وحلَّ لينييوس اللغز عبر تسميتها. كان الأمر يقتضي أكثر من كون المرء مصمِّمًا، كان الأمر يحتاج إلى غريزة، إلى عبقرية، لتحديد الصفات البارزة لنوعٍ». لم يُنتج لينييوس في مجال الطب، وإنما أنجز عملًا علميًّا ضخمًا بمحض اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق، وقد اقتضى منه هذا العمل سنوات طويلة من الكدح والمراجعات المستمرة أسفرت عن كتاب يقع في ثلاثة مجلدات تستغرق 2300 صفحة في تصنيف النبات والحيوان. ورغم أنه سويدي فقد تم تأسيس جمعية في بريطانيا تحمل اسمه. وهكذا لا يبدع الفرد إلا في المجال الذي يهتم به اهتمامًا تلقائيًّا قويًّا مستغرقًا...

الطبيب المصري محمد كامل حسين فيلسوف وعالم وأديب، كان عضوًا في مجمع اللغة العربيّة بمصر، وكان مرشَّحًا لجائزة نوبل في الأدب وليس في الطب لروايته (قرية ظالمة). قال عنه الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي: «أعطى كامل حسين بُعدًا إنسانيًّا حقيقيًّا كان يستحق أن يحصل على هذه الجائزة. إنها رواية تمتلئ بمضامين عالميّة شاملة عن العدل والمحبّة. وفي اعتقادي أنه أحسن ما كُتِب باللّغة العربيّة في هذا القرن». إنه مثقّفٌ موسوعيٌّ، شديد الدقّة في آرائه وفي أسلوبه، وفي اختيار المفردات، ويرى ضرورة تصحيح منهج التفكير. فالعلم ليس ركامًا من المعلومات، بل هو أوّلًا منهج تفكير ورؤية نقديّة فاحصة. وقد كتبتُ عنه فصلًا كاملًا في كتاب آخر لكنّي ذكرته هنا كشاهدٍ في هذه الإشارات السريعة...

الطبيب الاسكتلندي جون كارليل شقيق الأديب العظيم توماس كارليل صاحب كتاب الأبطال، تخصَّص في الطب لكنه هَجَر مهنة الطبّ وتفرغ للأدب والترجمة، وقد ترجم (جحيم دانتي)، ولم يترجم كتابًا في الطبّ، فالاهتمام التلقائيّ هو المحرّك...

طبيبٌ اسكتلندي آخر هو روبرت براون تخرَّج طبيبًا، ومارس تخصّص الجراحة، لكنّه كان شغوفًا بالمعرفة لذاتها وليس كوسيلة للعيش، لذلك تنوّعت معارفه بتنوع اهتماماته. له حضور بارز في تاريخ علم الفيزياء، واهتم بالنبات اهتمامًا دفعه إلى ركوب البحر وقطع آلاف الأميال إلى استراليا، وانتهى بإنجازات مهمّة في معرفة بذور النباتات وتصنيفها. هكذا يفعل الاهتمام التلقائيّ، إنه يحرّك ويُلهب وقد يدفع إلى مغامرات شاقّة وخطيرة...

الطبيب النفسي البريطاني رونالد ديفيد لانغ يوضح في كتابه (الحكمة والجنون والحماقة)،كيف يكون التعلُّم عميق التأثير حين يأتي اندفاعًا وليس اضطرارًا. لقد دخل كليّة الطب ثم تخرّج فيها، لكنّ المهمّ كما يقول هو الاندفاع التلقائيّ من أجل الفهم، وليس من أجل غاية مغايرة: «كنت مهووسًا تمامًا بالكتب. قرأت وتعرَّفت على فرويد وكيركغارد وماركس ونيتشه، وتركَّز اهتمامي في أن أصبح كاتبًا... كنت أريد الكشف عن بعض الحقائق في ما كان يحدث في دنيا البشر، ولم أكن أعرف هذه الحقائق إلى أن انكشفت لي: لماذا يعاني البشر من كل هذه التعاسة؟! ما هي المعاناة؟ لماذا نعاني بهذه الطريقة؟ لماذا الناس بهذه الوحشيّة؟ وكانت كليّة الطبّ تتفق مع هذه الرغبة فلعلني أعثر بين التواءات الدماغ على سبب التواءات العقل». هكذا تكون فاعليّة التخصّص حين يكون اختياره بدافع تلقائيّ من أجل الفهم. فهذا الطبيب قد اتّجه إلى دراسة الطبّ، ثم الطبّ النفسي بدافع ذاتي تلقائيّ، فهو مدفوعٌ برغبة قويّة لكي يعرف أسباب تعقيدات الحياة البشريّة، وما يتجلّى فيها من تناقضات وحماقات وعدوان ووحشية وأحقاد وعداوات، وعجز عن التفاهم، وكلال في الإدراك، وتكلُّس في الاهتمامات، واستمرارٌ للأوهام المتوارثة من عصور لم تكن تعرف التحقّق المعرفي. لكن حالة هذا الطبيب هي حالة نادرة، أما غالب الدارسين والمتخرّجين فيكون همّهم الحصول على شهادة تؤهّل للدخول المهني والأمان المعيشي والمكانة الاجتماعيّة...

الطبيب المصري يحيى الرخاوي نشأ متعلّقًا بالأدب. ورغم استمراره في مهنة الطب النفسي فإن شهرته جاءت من الأدب إبداعًا ونقدًا. وهو يعلّق بأنه: «يتعلّم من أدب نجيب محفوظ أكثر مما يتعلّم من كتب علم النفس»، ولا غرابة في مثل هذا القول. فقد قال علماء غربيون بأنهم تعلّموا مثلًا من دستويفسكي أكثر مما تعلموا من كتب التخصّص...

لو أدرك الناس أن المهمّ في حياتهم هو اهتماماتهم التلقائيّة لكانوا أقدر على استثمار طاقاتهم، فحين أراجع مؤلَّفات ومترجَمات الطبيب النفسي عادل مصطفى، وأقارن إنتاجه بأطباء نفسيّين آخرين أجد السرّ في فارق الاهتمامات التلقائيّة. فمن مؤلفاته: (صوت الأعماق)، و(دلالة الشكل)، و(المغالطات المنطقية)، ومن مترجَماته التي تدل على نوع اهتماماته كتاب: (الفن) تأليف كلايف بل، وكتاب (مدخل إلى الفلسفة) لوليم جيمس ايرل، وكتاب (إبكتيتوس: المختصر)، وكتاب (نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير) لمجموعة فلاسفة معاصرين، وكتاب (علم النّفس الثقافيّ) لمايكل كول، وكتاب (النفس ودماغها) لكارل بوبر، وكتاب (العلاج المعرفي) لآرون بيك، وكتاب (مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي). من الواضح أن الكتابين الأخيرين لهما علاقة بتخصّصه، فالكتب الأخرى هي كتب فلسفيّة بعمق. فكم طبيب نفسي يكون له مثل هذا الإنتاج الرفيع تأليفًا وترجمة...

طبيب الأسنان السعودي عبدالله منّاع لم يشتهر في مجال تخصّصه، وإنما كان في السعودية ملء السمع والبصر في مجال الكتابة كرئيس تحرير ومؤلف وكاتب مقالة وناقد، وكذلك في المجال الصحافي والإعلامي ونقْد الفن وفي مجال الأدب، وقد كتبتُ عنه فصلًا في مكان آخر. وهنا نذكر الطبيب القاصّ عصام خوقير، والطبيب الروائي إبراهيم الخضير، والطبيب الروائي بدر الإبراهيم، والطبيب الكاتب محمد القويز، والطبيب الكاتب جاسر الحربش، والطبيبة الروائيّة هناء حجازي، والطبيبة الروائيّة رجاء الصانع...

تستطيع الجامعات تخريج الملايين من المتهيئين لدخول مختلف الأعمال المهنية، فيكتسبون مهارات الأداء من الممارسة، لكنها لا تستطيع تكوين مبدعين في أي مجال، فالإبداع أساسًا نادرٌ ندرةً شديدة، وهو بزوغٌ فردي لذلك يظهر المبدعون فجأة في مختلف المجالات من دون أن يُخطط أحدٌ لظهورهم. وعلى سبيل المثال نجد الطبيب المصري باسم يوسف يظهر كإعلامي وفنان ساخر باهر فيشد الملايين في مختلف الأقطار. إن مثل هذه الموهبة لا يمكن تعليمها وإنما هي انبثاقٌ من طبيعة إبداعيّة متهيئة...

الطبيب الأديب المصري أحمد زكي أبو شادي تُعَدُّ عنه دراسات وأطروحات أكاديمية وبحوث، ليس بوصفه طبيبًا بل بوصفه أديبًا وشاعرًا، فشهرته في الشعر والأدب واسعة ومكانته الادبيّة راسخة إلى درجة أنه يكفي مجرد التذكير باسمه...

يحتلّ الطبيب الأديب المصري حسين فوزي مكانةً عالية في عالم الأدب. إنه يقف بلهفة ينادي العرب: تحرّكوا بسرعة ووعي وإلحاح للحّاق بركب الحضارة، فالعالم في سباق ساخن. إن حسن فوزي في طليعة الأدباء التنويريين، بل إنه يتحسّر على أننا نحن العرب مازلنا نناوئ الحضارة المعاصرة، إنه يؤمن بكل ثقة بضرورة الأخذ حتى الارتواء من حضارة الغرب ويقول: «درجتُ على حب الغرب، والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمري في أوروبا، فتمكّنتْ أواصر حبِّي وتقوَّتْ دعائم إعجابي. فلما ذهبتُ إلى الشرق: عدتُ إلى بلادي وقد استحال الحب والإعجاب إيمانًا بكل ما هو غربي». هذا ما قاله هو عن نفسه، ويقول عنه الدكتور صلاح فضل: «أصبح حسين فوزي، بين أبناء جيله من رواد النهضة الثقافيّة، نموذجًا للمفكّر المصري المولع بحضارة الغرب، يتغنّى بعلومها وآدابها وفنونها على السواء، وينقل رحيق إيمانه لقرّاء مقالاته وكتبه ومستمعي برامجه الإذاعية في التحليل المدهش لروائع فنون الموسيقى الغربيّة». لكنْ، قارن بين ما كان يدعو إليه حسين فوزي وما يجري من اقتتال فظيع على السلطة في ليبيا وسوريا والعراق وغيرها لتدرك فظاعة وصلابة وعنف العائق الثقافي الذي يطوِّقنا ويهيمن على عقولنا، ويحرك عواطفنا، ويوجّه سلوكنا ويعمينا عن كل ما في الوجود من فُرص للتآخي والنماء والارتقاء والنقاء...

الطبيب عبدالرحمن الشهبندر الزعيم السوري.. وُلد في أسرة متواضعة ونشأ يتيمًا، لكنّه كان عصاميًّا، فصنع ذاته ليصبح زعيمًا تحدَّى السلطة التركية حين كانت سوريا مشمولة بالحكم التركي، وحُكم عليه بالإعدام أكثر من مرة، ثم تحدَّى السلطة الاستعمارية الفرنسية في فترة الانتداب وقاد ضدها كفاحًا مسلَّحًا رغم أنه كمبدأ لا يؤمن بالعنف، فهو ليبرالي الفكر، وقد كان متفتِّحًا ومستنيرًا ويملك قدرات استثنائية متنوّعة، فكان ضد الانغلاق الثقافي وضدّ التعصّب، ومع منطق الإقناع ضد منطق الإخضاع، وكان حريصًا على أن تنعتق الأمة من أغلال التاريخ وأوهام الخصوصيّة، وأن تدخل الحضارة المعاصرة بفاعليّة إيجابيّة كمشارِكة في إنتاجها وليس كمحاربة

لها، فلم يكن أمام قادة التعصّب سوى اغتياله غدرًا عام 1940. وحول هذا يسأل الكاتب المعروف غسان الإمام: «هل كان من الجائز دينيًّا وأخلاقيًّا أن تتورّط المؤسّسة الدينيّة التقليديّة في العنف السياسي، كالتخطيط والتحريض على اغتيال زعيم وطني كبير كالشهبندر لحساب السلطة (الاستعمارية) المنتدبة؟!». ثم يضيف: «الحديث عن الشهبندر شائقٌ ومهمٌّ، فقد أدّى تغييبه إلى تغيير المشهد السياسي في سوريا وإلى التراخي في الانتباه إلى المشكل الطائفي». وهكذا شأن كل المتميّزين، إنهم يظهرون من حيث لا يتوقَّع أحدٌ ظهورهم. فالتميّز نادر في كل الأمم، فلا يمكن إنجابه قصدًا، ولا التخطيط لظهوره لأنه بزوغٌ فرديٌّ استثنائيٌّ.. يتحدّث غسان الإمام عن خيبة الأمل في السياسيين السوريين الذين آلت إليهم السلطة بعد استقلال سوريا عن فرنسا: «غير أن الدكتور الشهبندر الذي فقدته سوريا وهي على عتبة الاستقلال، كان على الأرجح أكثر قابليّة لإرساء مؤسّسة حُكم من الذين جرَّبتهم سوريا بعد الاستقلال»، ويضيف: «كان الشهبندر أكثر زعماء الطبقة السياسيّة البورجوازيّة شعبية ومهابة، وفي الوقت ذاته أشدّهم إثارة للجدل، وكان رائدًا في العمل القومي، وشكَّل همزة الوصل بين الشريف حسين ونجله الأمير فيصل في أيام الكفاح ضد الاستعمار العثماني، ونجا مرارًا من مشانق جمال باشا خلال الحرب العالمية الأولى، ثم كان أول وزير للخارجية في سوريا المستقلة»، ويقول عنه: «مواهب الشهبندر الشعبية والقيادية تتفتّح في مرحلة الانتداب الفرنسي، وتحدَّى سلطة الانتداب... وبالقطع فالرجل اعتمد على نفسه في تحصيل ثقافته السياسيّة والفكريّة الواسعة التي لم تُتَح لسياسيٍّ محترفٍ من جيله... والباحث المنقّب في سيرة الشهبندر يُذهل أمام الثراء والتنوّع في حياته السياسيّة والفكريّة والعلميّة. أنَّى لرجل متعدّد النشاطات أن تتوافر له هذه الموهبة والطاقة. فهو الطبيب الذي سيفتح عيادته مجانًا للفقراء، وهو السياسيّ الذي يقود الكفاح الوطني في الشارع والصالون، وهو الثائر الذي يقود ببندقيته الثورة السوريّة الكبرى، فيستعصي على فرنسا أكبر قوة برية في العالم آنذاك القضاء عليها إلا بعد جهدٍ جهيدٍ، وهو المفكّر السياسي الذي يحاضر في علم السياسة والمذاهب السياسيّة والأيديولوجية». وينقل غسان عن السّياسي المصري المثقف فتحي رضوان قوله: «إنه استمع مرارًا إلى خُطب ومحاضرات الدكتور الشهبندر خلال نفيه إلى مصر، فكان أبلغ وأخطب وأعمق فكرًا

من خطيب مصر المفوَّه سعد زغلول». إن هذه الأسطر ليست للتعريف بزعيم عظيم بمكانة الشهبندر، لكنّها مجرّد إشارة لمثال تؤكّد مسيرته أن الإنسان تحرّكه اهتماماته التلقائيّة. أما التعليم الجامعي فينتج الامتثاليين، والنتيجة تأكيد ضآلة دور التخصّص التعليمي بالنسبة للرّواد والمبدعين وقادة الفكر والعمل...

ويعود الأستاذ غسان الإمام في حلقة أخرى من سلسلة تأمّلاته في الحياة السياسيّة السورية فيقول: «لست أكرّر نفسي عندما أعود المرة تلو المرة إلى الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، فمَقْتَل هذا الرجل الكبير عام 1940 كان بمثابة مفترق طرق في تاريخ سوريا الحديثة. وما لبث السوريون أن انطلقوا منه إلى شعاب سياسيّة وأيديولوجية متباعدة. ربما لو ظلّ الشهبندر حيًّا لجنّبهم مزالق الضياع والتشرّد فيها، ولقدَّم لهم زعامةً قويّة في شخصيتها ومتقدّمة في وعيها ونضجها». طبيبٌ يؤسِّس حزبًا سياسيًّا، ويقود كفاح شعب، وحين يحاضر أو يخطب فيُلهب المشاعر، لا يتكلّم في الطب بل في الهمِّ الوطني والمستقبل العربي، وحين يُترجِم لا يُترجم كتابًا في الطب بل في السياسة من أجل خلق وعي جديد في أمة غارقة في الهوان، ومكبَّلة بأوهام تشلُّها عن الحركة الإيجابيّة...

الزعيم الشهبندر تؤلَّف عنه الكتب، وهذه الأسطر فقط للتذكير بأن الإبداع نادرٌ ندرة شديدة بين الناس، وبأنه لا يحصل حين يحصل إلا باهتمام تلقائيّ قويّ مستغرق...

ومن الأطباء الذين اشتهروا في المجال السّياسي الطبيب جمال الدين الأتاسي، وقد كتب عنه رزوق الغاوي يقول: «إن المفكّر والسّياسي جمال الدين الأتاسي يمثّل عبر تاريخه النضالي الطويل والمتعدّد المراحل تجربةً وطنيةً قوميةً فريدة تستحقّ البحث والدراسة». كما كتب الدكتور مبدر ألويس يصف الأتاسي بأنه: «المناضل الوحدوي، الناصري الذي يُعتبَر بحق أحد أبرز المناضلين الوحدويين في الوطن العربي... وسيبقى الدكتور الأتاسي رمزًا يُحتذى به بالنسبة للسائرين على طريق العمل القومي الوحدوي». إنني حين أذكر الأتاسي وأمثاله من الأطباء الذين هجروا مهنة الطب، واستغرقوا في العمل السياسي لست أعتبرهم جميعًا من أهل الإبداع، بل للدلالة على أن الاهتمامات التلقائيّة هي التي تتحكّم بالسلوك وتُوجّه حياة الفرد والمجتمع. أقول ذلك لأن السَّاسة في العالم العربي قد أخفقوا بشكل مروِّع، وقد يكون بعضهم معذورًا، فالعائق الثقافي في المجتمعات العربيّة يخنق أي جهد مهما بلغ من الصّدق والإخلاص والكفاءة...

الطبيب جورج حبش لم تعرفه الدنيا عن طريق الطب، ولكنه برز مناضلًا ومؤسِّسًا لحركة القوميين العرب، ثم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ففي كتاب (قادة تاريخيون كبار) لكريم مروة جاءت الترجمة له مع كاسترو وبورقيبة وفانون ومارتن لوثر كنج ومانديلا وأمثالهم. يقول مروة: «لمَعَ اسمُ جورج حبش منذ أواسط خمسينات القرن الماضي كمؤسِّس لحركة القوميين العرب. وكان الأكثر بروزًا بين رفاقه في تأسيس تلك الحركة». وحين لازمه الصحافي الفرنسي جورج مالبرونو في تلك الحوارات الطويلة التي صدرت بعنوان (الثوريون لا يموتون أبدًا)، لم يكن يحاوره في الطبّ ولكنه كان يحاوره في النضال وفي أوضاع الفلسطينيين وأوضاع العالم. إنها سيرة حياة ومسيرة نضال وقصّة لمأساةِ وطنٍ وكارثةِ شعب مع تواطؤ عالمي على الظلم وانتهاك الحقوق. يقول مالبرونو: «من المستحيل فهم جورج حبش من دون العودة إلى عام 1948، عندما أُجبروا على هجْر مدينتهم.. هذه الحوادث التراجيدية ولَّدَت في داخله التزامًا كبيرًا لأن يكون ثوريًّا رفيعًا». وكتَبَ عنه الشاعر الكبير محمود درويش: «للحكيم جورج حبش في المخيّلة الفلسطينية مكانةُ الأيقونة. كانت بنيته الفكريّة والأخلاقيّة الواضحة شديدة الإحكام والتماسك والعناد. تمتّع بكاريزما قياديّة نادرة تستعصي على التفكيك». وأصدر عنه فؤاد مطر كتابًا بعنوان (حكيم الثورة: سيرة جورج حبش ونضاله). هكذا هي النفوس الأبيّة لا ترضى الذلّ ولا تستسلم للنعيم. كان بإمكانه أن يعيش هانئًا آمنًا كطبيب، ولكن إذا كانت النفوس كبارًا تعبَتْ في مرادها الأجسامُ...

الطبيب منيف الرزّاز كلّ مؤلفاته وكتاباته ونشاطه في المجال السياسي وليس في مجال الطب، فلا يتذكّره أحدٌ كطبيب، بل يتمّ التعريف به كما جاء في كتاب الدكتور شاكر النابلسي (الفكر العربي في القرن العشرين) بأنه: «مفكِّرٌ قومي وناشطٌ سياسي وزعيمٌ من زعماء حزب البعث العربي، انتُخب أمينًا عامًّا مساعدًا لحزب البعث. ويُعتبَر الرزّاز من أبرز مفكّري حزب البعث العربي ومنَظِّريه حيث كتب عدة كتب تُعتبَر من المرجعيّات الأساسيّة في الفكر القومي والسياسي العربي المعاصر الملتزم». أما الدكتور خليل أحمد خليل فقد كتب عنه في موسوعته عن المبدعين العرب في القرن العشرين: «ذاق هذا العربي طعم فقدان الجنسيّة القُطْرية من دون أو قبل تحقّق الهوية القوميّة العربيّة، وربما استوحى الفنان دريد لحام من مأساته فكرة (الحدودية)

أو العربي بلا هويّة، المطرود، صعلوكًا ضائعًا على حدود دولتين»، تعرَّض للاعتقال والسجن مرارًا..كما تعرّض للمطاردة.. جرى تعيينه محل المؤسّس الأمين العام للحزب ميشيل عفلق، فكان الرزّاز ثاني أمينٍ عامٍّ للحزب.. لم يهدأ الرزاز ولم يتراجع عن التزامه الفكري». ويوضح الدكتور خليل أحمد خليل أهميّة فكره وكيف أن كتابه (معالم الحياة العربيّة الجديدة) قد حظي باهتمام ثقافي عام وبتقدير عربي لم يتكرّر لغيره من الحزبيين، إذ نال جائزة جامعة الدول العربيّة على فكره التنويري، النهضوي، التجديدي للأمة كافة». وله كتبٌ أخرى منها: (تطوّر معنى الديمقراطيّة)، و(الحرية ومشكلتها في البلدان المتخلّفة)، و(التّجربة المُرَّة)، و(فلسفة الحركة القوميّة العربيّة)؛ وغيرها. وهكذا لا تأتي فاعليّات الإنسان وتتفجّر طاقاته إلا باهتمامٍ تلقائيّ لا يتأتى طريق الرتابة والاضطرار والعمل المهني التكراري...

الطبيب الفلسطيني وديع حداد معروف على المستوى العالمي بأنه من أبرز المناضلين، يأتي التعريف به في موسوعة السّياسة بأنه: «مناضل عربي من قادة حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقد ظلّت فكرة إنشاء حركة كفاح مسلّح مسيطرة على ذهنه وتفكيره. عمل على تدريب أعضاء الحركة وكوادرها عسكريًّا، واستطاع خلال سنوات من العمل المتواصل أن يخلق حقائق سياسيّة جديدة، وأن يبثّ في صفوف الجماهير الفلسطينية والعربيّة روحًا من النضال وإقدامًا على التصدّي للعدو وحلفائه». هكذا يَهَب الإنسان نفسه لاهتمامه التلقائيّ القوّي المستغرق، بل إن الاهتمام يستحوذ عليه رغمًا عنه، فهو مقودٌ باهتمامه...

الطبيب اللبناني سمير جعجع لم يُعرف بمهنة الطبِّ، وإنما عُرِف عن طريق السياسة، فهو سياسي وعسكري ورئيس حزب القوات اللبنانية، وقد أُرِّخِتْ حياته باهتمام فصُوَرُه وأخباره تملأ الصحف. ومن بين الكتب التي صدرت عنه كتابٌ للكاتبة ندى عيد بعنوان (سمير جعجع: حياة وتحدّيات). ولست هنا أمدح ولا أقدح بل أستشهد بحالة تؤكّد ضآلة دور التعليم قياسًا بالاهتمام التلقائيّ والبرمجة التلقائيّة، فالناس نتاجُ ما يتبرمجون به تلقائيًّا في طفولتهم...

الطبيبة النرويجية غروهارلم برندلاند زعيمة حزب العمال في النرويج، وقد فاز الحزب

في فترة ماضية في الانتخابات، فأصبحت هي رئيسة للحكومة النرويجية، ثم كانت مرَشَّحة لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، وكل هذا لا علاقة له بتخصّصها في الطب...

الطبيب اللبناني رئيف أبو اللمع تحَوَّل بمحض اهتمامه التلقائيّ من مهنة الطبّ إلى العمل الصحافي، ثم شغَل منصب وزير التربية في لبنان، ثم اختير لمنصب الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربيّة...

الطبيب الأردني عبدالسلام المجالي (تخصُّص أنف وأذن وحنجرة)، عرفه العالم عن طريق العمل السّياسي، وقد وصل إلى منصب رئيس الوزراء في الأردن. ومثله الطبيب البيطري فوزي الملقى الذي يقول عنه الصحافي المشهور ناصر الدين النشاشيبي: «جاءت أول حكومة في عهد الملك الحسين بن طلال برئاسة الدكتور فوزي الملقى، وكانت أول حكومة في تاريخ الأردن تُضَمِّن بيانها الوزاري عبارات جديدة مثل: وطنية - دستوريّة - وحكم الشعب - ورغبات الشعب - وحاجات الشعب -. وبادَر الملقى، وهو الطبيب البيطري الذي لا يفتقر إلى الثّقافة العامّة والذكاء بالإفراج عن الفلسطينيين، وطرْد الموظفين المشبوهين. وانقلبت الأوضاع من حكم عسكري ظالم كان يقوده توفيق أبو الهدى إلى حكمٍ ديمقراطيٍّ يرأسه الدكتور فوزي الملقى». هكذا طبيب بيطري يتغيّر به اتجاه الحكم من الظلم إلى العدالة، ومن الاستبداد إلى الديمقراطيّة بالقدر الذي يسمح به النّظام ككلّ. فرئيس الوزراء في دولة كالأردن يبقى محكومًا وليس حاكمًا، لكن مجرّد إشاعة مثل هذه المفاهيم قد يساهم في خلق ثقافة اجتماعيّة وبيئة سياسيّة قد تُهيئ للأفضل، بينما نجد على سبيل المثال ثلاثة من الحكام المستبدّين تخرّجوا في كليات الحقوق. فهم بحكم التخصّص من رجال القانون وحماة العدل ولكنهم جسَّدوا الظلم بأفظع صوره؛ وهم (أنور خوجة) في ألبانيا، و(فيدل كاسترو) في كوبا، و(صدّام حسين) في العراق. فليس المهم الاضطرار لحفظ معلومات عن القانون، بل المهم الباعث الأخلاقي الذي لا يوجِده تخصُّص تعليميٌّ وإنما هو جَيَشان ذاتي داخليّ...

قبل أن يعمل هتلر على دمج النمسا في الدولة الألمانيّة الموحَّدة قسرًا في الحرب العالميّة الثانية كان الطبيب فيكتور آدلر يحاول من خلال حزبه تحقيق هذه الوحدة

طَوْعًا، وقد شغَل منصب وزير الخارجيّة في الحكومة الموقتة التي أعقبت سقوط الحكم القيصري وإعلان الجمهورية النمساوية...

الطبيب التونسي المنصف المرزوقي عَرَفَه العالم مثقّفًا ومناضلًا ومؤلِّفًا وكاتبًا ومحاضرًا يدافع عن الإنسان ويؤكّد حقوق الفرد ويناضل ضد الاستبداد والظلم والتعسّف، وقد بقي ربع قرن وهو يكتب ويؤلّف ويحاضر ويكافح بصدق، وتم سجنه مرارًا، لكنه بقي صامدًا. وأخيرًا سقط زين العابدين بن علي وتم انتخاب المنصف المرزوقي ليكون أول رئيس ديمقراطي لتونس. وكان قبوله لهذا المنصب في وقت الاضطراب الثوروي تضحيةً منه أو سذاجة سياسيّة. فالأوضاع لم تكن مهيأة لنجاحِ أي رئيس في مثل هذه الظروف المضّطربة، خصوصًا في البيئة العربيّة التي لم تعرف ثقافة الإقناع ولا تقاسُم السلطة، وإنما توارثت ثقافة الإخضاع والاستبداد المطلق. لكنه أقدم على هذه المهمّة فلم ينل الرضا فسقط في الانتخابات الثانية، لكن كفاحه ومواقفه ومؤلّفاته تستحق التناول بشكل مفصَّل خارج هذا الحيّز الذي يقتصر على إشارات تذكيرية خاطفة فقط...

الطبيب السوري هيثم منّاع قام بأدوار تشبه الأدوار التي قام بها المنصف المرزوقي، فقد كان خلال سنوات طويلة يكتب ويؤلف ويتحدّث عن معضلة السوريين مع السلطة الاستبدادية. فبالإضافة إلى الكتابة والتأليف تركَّز اهتمامه على محاولة نشر وتوثيق ثقافة حقوق الإنسان، فَجَمَع وثائق الحقوق في مجلّدات ليسهل تداولها، وحين حانت الثورة كان من أبرز قادتها. ويمكن أن يقال الكلام نفسه عن طبيب الأسنان السوري رضوان زياد...

الطبيب القطري جاسم محمد سلطان لم ينشغل في مهنة الطب، وإنما كرَّس طاقته تأسيسًا وكتابةً وتأليفًا للاهتمام التلقائيّ الذي يستحوذ على ذهنه ووجدانه، وما يسمّيه (مشروع النهضة). وقد أصدر عددًا من الكتب؛ منها كتاب (الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ: فلسفة التاريخ)، وكتاب (القواعد الاستراتيجية في الصّراع الحضاري: قوانين النهضة)، وكتاب (التفكير الاستراتيجي والخروج من المأزق الراهن)، وكتاب (استراتيجية الإدراك للحراك: من الصحوة لليقظة)، وكتاب (نحو وعيٍ استراتيجيٍّ

بالتاريخ: الذّاكرة التاريخيّة)، عناوين ضخمة وطموحات هائلة لكنّي لا أملك معلومات عما تحقّق فعلًا. لكن المهم أن هذا الطبيب لم يبقَ سجين المهنة وإنما حرّكه اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق للاضطلاع بمشرع يَعتقد هو أنه سيضع العرب في المسار الصحيح، أما النتائج فمرهونة بمقدار استيعابه للتغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانيّة حيث الحضارة الحالية ليست امتدادًا للحضارات السابقة، باستثناء الحضارة الإغريقية، فهي ذات مقوّمات مغايرة تمامًا. أما من يريد الاعتماد على التاريخ العربي فسوف يكرّر الأخطاء ويكرّس التخلّف، ثم إن نجاح أي مشروع نهضوي مرتهنٌ بعوامل محلّيّة وعالميّة كثيرة،وتعقيدات لا نهاية لها وأشَدُّها استعصاءً العائق الثقافي ومعه العائق السّياسي...

الطبيب البحريني علي فخرو عرفته الأوساط العربيّة كسياسي ومثقف، وتتعامل معه المؤسسات ووسائل الإعلام بهذه الصفة وليس بوصفه طبيبًا، فهو وزير وكاتب وناشط فكري. يقول في إحدى مقالاته: «مطلوبٌ من التيار السلفي المعتدل أن يرفض بصوتٍ ناقدٍ عالٍ لا غمغمة فيه ولا غموض الفكر المتخلّف المتوحّش اللاإنساني الذي تتبنّاه الجماعات التكفيريّة»، ويقول: «إن حلم الوحدة العربيّة لن يتحقّق إلا إذا ترسّخت الديمقراطيّة السياسيّة والاقتصاديّة - الاجتماعيّة، وثبّتت مفاهيم المواطَنة في أقطارنا».

الطبيب الروسي إيليا متشنيكوف لم يحصر نفسه في مهنة الطب، وإنما امتدّت اهتماماته كباحث علمي، ثم كمكتشف ومنَظِّر في علم الأحياء، وقد نال جائزة نوبل في الفيسيولوجيا. ولكن الأهم من ذلك أنه يعامَل في العالم كفيلسوف. فكتابه (طبيعة الإنسان) يُعَدُّ من الإنجازات المهمّة في فهْم طبيعة الإنسان، ومعرفة أسباب سلوكه، وفهْم العوامل التي تتحكّم بحركة التاريخ. وقد تناول آلبان ويدغري في كتابه (التاريخ وكيف يفسّرونه) رؤيةَ متشنيكوف في فلسفة التاريخ، وهو ينطلق في فلسفته من حقيقة يؤكّدها الواقع ويشهد لها العلم، وهي أن النقائص والسلبيات هي الأصل في تفكير الإنسان وسلوكه. ولكنه مع ذلك، أو بسبب ذلك، يدعو للتفاؤل، ويرى أنه بواسطة العلم يمكن تغيير التفكير الإنساني، وبذلك يتحقّق تغيير الواقع البشري والتفاؤل بمستقبله، لأن قابليّات الإنسان تسمح بذلك...

الطبيب الإيطالي جيلو دورفيلز لم يحصر نفسه في تخصُّصٍ مهنيٍّ، وإنما بمحض اهتمامه التلقائيّ صار أستاذًا جامعيًّا في عدد من الجامعات الإيطاليّة، ليس للطب وإنما لفلسفة الجمال، فهو فيلسوف الجمال وناقدٌ فنّيٌّ ورسّامٌ، وقد نال في وطنه تقديرًا عاليًا ومُنح العديد من الجوائز والأوسمة ليس في الطب وإنما في إبداعاته في مجالات الفكر والأدب والنقد والفن. وهو يرى أن الشغف والحماسة هما سبيل المعرفة والإبداع، فيقول: «يلزم أن يكون لدينا حُبٌّ للمعرفة وكثيرٌ من الحماسة»، لكنه يتألّم أن أكثر الناس لا يعيشون شغف المعرفة. إن هذا الطبيب الأديب، الفيلسوف، الناقد، الرسام، قد عاش القرن العشرين كلَّه وما زال حيًّا، وقد نشرت مجلةُ إبداع المصريّة ترجمةً لحوار أُجري معه في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين...

الطبيب المصري سعيد عبده اشتهر كاتبًا وصحافيًّا وقاصًّا وناقدًا مسرحيًّا ومترجمًا وشاعرًا يقول الشعر العمودي الفصيح، لكنه اشتهر بأشعار الزجل. وقد اهتم في قصصه في تنوير الناس عن الخرافات الشائعة في مصر، فاعتبره الناقد الدكتور علي الراعي أنه: «قصّاصٌ مرهفُ الحسِّ، ومجموعةُ القصص تصوّره فنانًا حسّاسًا، تغلب عليه النزعة إلى السخرية، واستخدام المفارقات لإظهار ما في حياة الرّيف المصري من نواقص كثيرة في البشر والمكان معًا». كما أشار الراعي إلى إسهامات سعيد عبده في فن الزجل والنقد المسرحي، ووصفه بصاحب القلب الثائر...

الناس مهما جمَعَهم تماثُل التخصّصات الدراسيّة والمهنيّة فإن الاهتمامات التلقائيّة العميقة هي التي تحرّكهم وترسم مسار حياتهم. وهنا نتذكّر من الأطباء الذين أخذتهم عن الطب اهتماماتهم السياسيّة الرئيس التشيلي طبيب الأسنان سلفادور أللندي الذي قُتل في الانقلاب العسكري الذي قاده بينوشيه، ثم بعد سنوات من الحكم العسكري عادت التشيلي إلى النظام الديمقراطي، وفازت في انتخابات عام 2006 الطبيبة ميشال باشليه، وكانت أول امرأة تتولّى رئاسة البلاد...

الطبيب الأميركي وليم كارلوس وليامز الفائز بجائزة البوليتزر الأميركيّة، ألَّف عنه نيل بالدوين كتابًا اعتبره فيه، وفي كتابه الآخر (القيم الأميركيّة)، من الشخصيات المركَّبة المرموقة التي ساهمت في الحياة الأميركيّة المعاصرة. إنه يقرنه بإديسون وفورد ومان راي وأمثالهم من الشخصيات الفاعلة والمؤثّرة، ولا يتعامل معه كرجل مهني وإنما

كشخصيّة ثقافيّة مؤثّرة. وقد قال عنه الدكتور نبيل علي في كتابه (موسوعة أدباء أميركا) إنه: «أديب أميركي مارس كتابة الشعر والمسرحية والرواية والترجمة.. وكان هدف وليامز أن يجعل من شعره تجسيدًا لروح القومية الأميركيّة ومرآة لها». وكتب الناقد ابرهيم العريس عن روايته (النجاح) أنها: «تُعتبر رواية مناخ وملحمة عائليّة قويّة». كما أكد أن أشعاره حقّقت نجاحًا كبيرًا، وعمومًا فإنك لن تجد مرجعًا عن الأدب الأميركي في القرن العشرين عن مختلف فنون الأدب إلا ويكون هذا الأديب حاضرًا فيه. وكتبت الناقدة الدكتورة لنا عبدالرحمن في مجلة (إبداع) دراسة وقارنت بينه وبين عدد من أبرز الشعراء العرب، مثل أدونيس والسيّاب والفيتوري...

في أميركا، كان الطبيب بن كارسون ينافس دونالد ترامب على ترشيح الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية، لكن ربما أن قدرة ترامب على تمويل حملته كانت من الأسباب التي مكّنته من الفوز بالترشيح. ولم يكن هو الطبيب الوحيد المنافس، وإنما كان هناك الطبيب راند بول، وهو رجل سياسة، حتى وإن لم يحصل على الترشيح لأنه سناتور عن ولاية كانتاكي، وكان أبوه رون بول أيضًا نائبًا جمهوريًّا من تكساس ونافَسَ على الترشيح للرئاسة. ويأتي في السياق نفسه طبيب الأطفال الشهير بنيامين سبوك الذي ترك مهنته وتفرَّغ لتنظيم المعارضة لحرب فيتنام. وتقول موسوعة السّياسة: «في العام 1972 خاض الانتخابات الرئاسية الأميركيّة كمرشح عن حزب الشعب. وأصبح موضوع تركيز شديد من قبل وسائل الإعلام، بين اشتداد معارضته لحرب فيتنام وترشُّحه للرئاسة الأميركيّة». وهكذا دائمًا نجد أن الاهتمام التلقائيّ أهَمُّ من التخصّص الدراسي لأنه ينبع من أعماق الذات، ويُعبِّر عن حقيقتها وليس مفروضًا عليها...

الطبيب النفسي البريطاني ديفيد أوين أسهم في تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي في بريطانيا، وشَغَل منصب وزير الخارجية، وهو من أهم المناصب السياسيّة. وحصل على لقب (لورد)، ثم اتجه لاستثمار خبراته السياسيّة مع معارفه الطبّيّة في دراسة الشخصيّات السياسيّة. وقد كتبتْ عنه الصحافية البريطانية جيليان تيت: «فرَّغ ديفيد أوين بعضًا من طاقته الهائلة لتحليل الحالة العقليّة لكبار السياسيّين. فقد لاحَظ على سبيل المثال متلازمة الغطرسة». هكذا تشغل القضايا السياسيّة ذهنَ طبيبٍ ذي اهتمامات إنسانيّة واجتماعيّة، فيساهم في تأسيس حزب سياسي، ويشغل

منصبًا سياسيًّا مهمًّا، وبعد أن يترك الوزارة يهتمّ بتشخيص السِّمات الشّخصيّة للساسة، فهو مدفوعٌ باهتماماتٍ ذاتيةٍ تلقائيّةٍ بسبب حسّه الإنساني الرفيع. وهنا قد يكون مناسبًا أن أشير إلى توفُّر مرجع علمي جماعي ضخم يقع في مجلدَين كبيرَين بعنوان (مرجع أكسفورد في علم النفس السّياسّي)، الذي صدر بإشراف الجمعيّة الدوليّة لعلم النفس السّياسي، وقد ترجمه عددٌ من المترجمين برعاية المشروع القومي للترجمة بمصر بمقدمة مهمة للدكتور قدري حفني...

الطبيب القبرصي إيوانيس كاسوليدس تخرج في الطب من فرنسا، وأنهى التخصّص في بريطانيا، لكن عرفته الدنيا بنشاطه السياسي. فمنذ شبابه كان ناشطًا شبابيًّا، وشغل مناصب حزبيّة وسياسيّة حتى صار وزيرًا للخارجيّة القبرصيّة. فالهَمُّ السياسيُّ هو الهَمُّ الذي استغرق اهتمامه منذ البدايات...

حين انهارت النظم الشيوعية بعد أن عانت ألبانيا من أبشع النظم وأشدها انغلاقًا وقمعًا وهمجيةً واستبدادًا، بادر الطبيب مصلحة باريشا لتأسيس الحزب الديمقراطي، وفاز بأول انتخابات لرئاسة الجمهوريّة الألبانيّة، ولكن سوف يبقى باريشا وجهًا سياسيًّا في ألبانيا وليس صاحب عيادة طبية...

حين استقلّت الجزائر عن الاستعمار الفرنسي تم اختيار الطبيب محمد خميستي، لا كوزير للصحة، بل وزير للخارجية. وكان له دور فاعل في السياسة الخارجيّة للجزائر، وفي حركة عدم الانحياز، وفي تأسيس منظّمة الوحدة الأفريقية. وحين اشتدَّ الصراع على السلطة بين بن بيلّا وخصومه وقف هو مع بن بيلا، ولذلك تم اغتياله. فلم يجد بن بيلا بديلًا يملأ المكان، فتولى هو مسؤولية وزارة الخارجيّة بنفسه بالإضافة إلى رئاسته للجمهوريّة الجزائريّة.

وفي عهد هواري بومدين اختير الطبيب أحمد طالب الإبراهيمي وزيرًا للخارجيّة، وبقي في هذه الوزارة طيلة عهد بومدين وعهد الشاذلي بن جديد. وبعد تقاعده أصدر كتابًا ضخمًا من مجلدين بعنوان (مذكرات جزائري)، وهو لم يتأهَّل لهذا المنصب المهمّ بدراسته المهنيّة في الطب، وإنما تأهَّل بمقوّمات شخصيّة واهتمامات تلقائيّة وثقافة واسعة وخبرة عميقة، فالمؤرخون يتعاملون معه كمفكّرٍ ومثقفٍ أوّلًا، ثم كسياسي ثانيًا...

ولم يكن أيضًا غريبًا أن يتم اختيارُ طبيبٍ آخر في الجزائر، هو الطبيب محيي الدين عميموري، لا ليكون وزيرًا للصحّة وإنما وزير للثقافة، وقد ظل عميموري واحدًا من أبرز الكتاب الجزائريين. وتتعامل معه المؤسّسات الثقافيّة ووسائل الإعلام ليس بوصفه طبيبًا بل بوصفه مثقفًا، فالشّأن الثقافي هو الاهتمام التلقائيّ الذي يستغرق وقته وطاقته...

الطبيب المصري مراد غالب نال إعجاب جمال عبدالناصر، ليس في تخصّص الطب وإنما في ذكائه وديناميكيّته، فغيَّر اتجاه حياته من العمل الطبي إلى العمل الدبلوماسي والسياسي. وبعد هذا التحوّل في الاهتمام وفي الممارسة صار يتم التعامل معه في ما بعد كمثقّف وسياسيٍّ وخبيرٍ في القضايا العالميّة وقضايا أفريقيا وحركة عدم الانحياز. تكتب عنه موسوعة السياسة: «مراد غالب دبلوماسي ورجل دولة مصري، ومن أبرز زعماء التيّار الناصري في الوطن العربي». شَغَل عددًا من المناصب الدبلوماسيّة، ثم اختير نائبًا لوزير الخارجية، ثم صار سفيرًا لمصر في موسكو، ثم أصبح وزيرًا للخارجيّة». كما شغل منصب رئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية، واختلف مع السادات واستقال احتجاجًا على زيارة السّادات لإسرائيل...

الطبيب فؤاد محيي الدين، وتنشر عنه موسوعة السّياسة: «رجل دولة مصري، بدأ حياته السياسيّة حين انتخب عضوًا في أول برلمان عرفَتْه مصر بعد ثورة يوليو، ثم أعيد انتخابه.. ودخل الوزارة حين عُيِّن وزيرًا للدولة لأمانة الحكم المحلّي والتنظيمات الشعبيّة، ثم وزيرًا لشؤون مجلس الشعب، وفي العام 1980 عُيِّن نائبًا لرئيس مجلس الوزراء بالإضافة إلى إشرافه على وزارة الإعلام، وفي العام 1982 اختاره الرئيس مبارك رئيسًا للوزراء». ولست هنا أتحدّث عن أعمال إبداعيّة بل أُوضح أن الاهتمامات التلقائيّة هي التي تقود حياة الإنسان...

ويأتي ضمن السّياق نفسه اختيار الطبيب خالد خوجه رئيسًا للائتلاف السوري، وقبله كان رئيسُ الائتلاف طبيبَ الأسنان أحمد طعمة، وهو عملٌ سياسي معقَّد خاضه كلٌّ منهما في ظروف شديدة التعقيد والصعوبة. وهنا يُذكر الطبيب صلاح الدين القاسمي، وهو كاتب سياسي واجتماعي سوري، وأحد الذين شكّلوا جمعية النهضة العربيّة.

الطبيب العراقي إياد علاوي عرفه الناس معارضًا لنظام صدام حسين، فقد عاش في المنفى في بريطانيا. ولأهميّة دوره في المعارضة فقد حرص صدام حسين على اغتياله وكلّف

من يقومون بالمهمة الدنيئة الصعبة، فاقتحموا بيته وهو نائم ولم يتركوه حتى اعتقدوا أنه قد فارق الحياة، لكنه نجا بأعجوبة. أما بعد سقوط نظام صدام حسين فقد شغل منصب رئيس الوزراء، ثم صار نائبًا لرئيس الجمهورية. ويأتي في السياق نفسه الطبيب إبراهيم الجعفري، الذي شغل منصب رئيس الوزراء، ثم صار وزيرًا للخارجية. كتب عنهما المثقف العراقي الدكتور رشيد الخيون مقالًا بعنوان (التثالب بين وزارتي علاوي والجعفري) جاء فيه: «ما يجمع بين رئيسي وزراء العراق بعد سقوط دولة البعث إياد علاوي وإبراهيم الجعفري: المذهب والقوميّة والمهنة والموقف المشترك السابق في المعارضة، فهما شيعيان وطبيبان يضاف إلى ذلك زمالتهما في مجلس الحكم»، ثم يضيف: «للوزارتين عيوبهما ببلاد لا يُحسَد رئيسٌ ووزيرٌ على منصبه، إلا أن التثالب بهذه الطريقة خيَّب آمال الرأي العالمي قبل الرأي العراقي فيهما». إن تجربةَ الصّراعات السياسيّة الفظيعة الغبيّة، اللامسؤولة في العراق وليبيا وسوريا، قد أثبتت أن المعضلة الحقيقيّة للعرب هي معضلة ثقافيّة؛ أما المشاكل السّياسة فهي نتاجٌ للثقافة الاستبداديّة العمياء المنغلقة...

ويأتي في السياق نفسه اسم الطبيب العراقي الكردي نجم الدين كريم، الذي يشغل منصب محافظ كركوك، وفي الوقت نفسه هو قياديّ في حزب الاتّحاد الوطني الكردستاني. وكان قد رشَّح نفسه لمنصب رئيس الجمهورية العراقية منافسًا لأستاذ الفلسفة فؤاد معصوم الذي فاز بالمنصب...

وهكذا، فإن الإنسان تستغرقه اهتماماته التلقائيّة العميقة مهما تعلَّم، لكنّ الفرد يظلّ محكومًا بمتطلّبات الحياة وشروط المجتمع، فيضطرّ أن ينصاع لمجالاتٍ لا يهواها، بل يدفع نفسه إليها دفعًا، ثم يهرب نحو اهتماماته التلقائيّة متى وجد الفرصة. قد تكون الاهتمامات التلقائيّة رياديّة، أو إبداعيّة، أو مجرد مشاركة سياسيّة أو اجتماعيّة لا توصف بأنها رياديّة أو إبداعيّة، وإنما هي ذات دلالة عميقة على أن الإنسان تحرّكه قيمه واهتماماته التلقائيّة، وليست معلوماته ولا تخصّصه الدّراسي أو الأكاديمي، فالمعرفة هي مجرد وسيلة من الوسائل التي تساعد في بلوغ الأهداف، وتحقيق القيم، وتفعيل الاهتمامات. لذلك لم يكن غريبًا أن يتخلّى الطبيب الأميركي جورج شيهان عن مهنة الطب فيصير عَدَّاءً، ولكنه عدَّاءٌ مختلف. فحين تقرأ كتابه (الرياضة والحياة)، تجد أنك أمام مثقّفٍ يملك رؤية عميقة عن طبيعة الإنسان ومكمن طاقاته التلقائيّة ومفاتيح

قابليّاته، وهو في كل ذلك يعتمد على خبرته ويستشهد بوليم جيمس وأفلاطون ونيتشه وبليك وييتس وكيتس وثورو وسانتيانا وأورتيغا وإمرسون ويونغ وغيرهم من قادة الفكر. ولأهميّة أفكاره سوف أخصّه بفصل في الكتاب الثاني من مجموعة (عبقرية الاهتمام التلقائيّ)، فكتابه مليء بأفكارٍ تتّسق مع نظرية التلقائيّة الإنسانيّة...

وإذا كان التخلّي عن التخصّص يحصل غالبًا بسبب اهتمامات تلقائيّة أعظم وأصعب وأنفع كما في الكثير من النماذج التي سبق ذكرها، فإنه في أحيانٍ نادرة يأتي الهروب من التخصّص اندفاعًا في مجال يهواه الطبيب، ويجد نفسه فيه وليس في مهنة الطب. فرغم أن المجتمعات تنظر باحترام لمهنة الطب، كما أن دخلها جيد، إلا أن بعض الأطباء يترك مهنة الطب ليكون معلِّقًا رياضيًّا، أو عَدَّاءً، أو مغنِّيًا، أو مذيعًا. فالطبيب المصري علاء صادق ترك مهنة الطب وتفرّغ للتعليق على المباريات الرياضية، وهو معروف ومشهور كمعلّق رياضي. أما الطبيبة الإنكليزية ستيفاني كوك، فتركت مهنة الطب لتستغرق في رياضة وسباقات الركض، فنالت في هذه الرياضة عدَدًا من الجوائز. بينما الطبيب رونان تاينان تحوّل من الطب إلى الغناء، وكذلك فعَل الطبيب السعودي هيثم الشاولي الذي تخلّى عن مهنة الطب لاحتراف العزف والغناء. وكذلك فعل الطبيب السعودي حسام إبراهيم، والطبيبة اليمنية نشوى التي تحوّلت إلى مطربة محترفة. وأحيانًا يضطر المتخصّص لمواصلة المهنة كمطلب معيشي، ويحاول إشباع اهتمامه التلقائيّ في أوقات فراغه كما يفعل طبيب الأسنان المصري طارق محمد مندور، حيث اتّجه إلى التمثيل وتأليف الأغاني. وكذلك طبيبة الأسنان البحرينية سهير آل صقر، فهي لم تهجر المهنة لكنها تُمضي الكثير من وقتها في الفن التشكيلي، مثلما فعل الطبيب العراقي علاء بشير الذي أقام معرضًا لإبداعه في الفن التشكيلي. أما الفنان التشكيلي المصري عادل السيوي، فقد تخلّى عن مهنة الطب وتفرغ لهذا الفن. في كتاب (تأملات) يكتب الناقد المعروف جبرا إبراهيم جبرا عن الطبيب الرسام خالد القصّاب. أما الطبيبة التونسية فوزيّة بنت الحبيب الشطي فقد هَجَرت مهنة الطب وتفرغت لتصميم الأزياء. وطبيبة الأسنان العراقية سهير القيسي استهواها الإعلام الذي أجادت العمل فيه فعملت مذيعة بل ومراسلة حرب وتركت الطب. فالاهتمام التلقائيّ يتغلّب على الاهتمام الاضطراري...

الطبيب العراقي رافع العيساوي شغل منصب وزير المالية، وهو قياديٌّ بارزٌ في القائمة

العراقيّة، كتب عنه حمزة مصطفى صفحةً كاملةً في جريدة الشرق الأوسط، ويقول عنه: «هو أحد الأرقام الصعبة في المعادلة السياسيّة العراقيّة الحاليّة. وسطوعُ نجمه ونجاحاته السياسيّة تجعله محط أنظار، قد تؤهّله لأعلى المناصب السياسيّة مستقبلًا».

الطبيب العراقي عبدالله الدملوجي، شغَل مناصب سياسيّة عدّة في العراق وفي المملكة العربيّة السعودية، ففي أول نشأة المملكة استعانت به لإدارة الشؤون الخارجية، ثم عاد إلى العراق، وشغَل مناصب سياسيّة مختلفة، آخرها كان وزيرًا للخارجية في حكومة نوري السعيد، وتوفي العام 1971. ولعلها مناسبة للتّذكير بالطبيبة العراقيّة نزيهة الديلمي، التي كانت أول امرأة تشغل منصبًا وزاريًا، وكان ذلك في عهد عبدالكريم قاسم، ولم يتم اختيارها لوزارة الصحة بل شَغَلَت منصب وزير البلديات...

أطباء آخرون ليسوا أقل من بعض من سبق ذكرهم، مثل الطبيب الأردني الأديب صبحي أبو غنيمة، والطبيب العراقي السّياسي كريم الشيخلي، والطبيب علي الناصر، والطبيب عبدالرزاق النايف، والطبيب السّياسي الأفغاني عبدالله عبدالله، والطبيب رئيس ساحل العاج فيلكس هوفويت بانييه، والطبيب التّشيلي المعارض خوان غاندولفو، والطبيب الأديب ألفريد دوبلين، والطبيب الكاتب أنيس فهمي، والطبيب إيمان يحيى، والطبيب الأديب أكسل منته، والطبيب وجيه البارودي، والطبيب الأديب جان أبستين، والطبيب وهيب الغانم، والطبيب بوريس كيرسونسكي، والطبيب بشير العظمة، والطبيب تشالز جيمس ليفر، والطبيب لايثان كانين، والطبيب مصطفى الديواني، والطبيب الزعيم جبريل إبراهيم، والطبيب السياسي علي أكبر ولايتي، والطبيب السياسي محمد رضا خاتمي، والطبيب الزعيم مهدي خان، والطبيب السياسي نور الدين طرّاف، والطبيب الزعيم هاستنغر باندا وغيرهم. فالإنسان تحرّكه اهتماماته التلقائيّة، أما المعلومات فمجرّد وسيلة للوصول للأهداف العميقة، فمتى اشتد الاهتمام فإن الحصول على المعلومات سيكون ميسورًا، فتركيز التعليم على إعطاء المعلومات هو من أغرب الأخطاء البشريّة الكبرى المزمنة...

لقد طال هذا المدخل أكثر مما كنت أريده له، ولأنني لا أهدف إلى الاستقصاء وإنما الهدف هو التمثيل وتقديم نماذج لما أردت تأكيده، لذلك أكتفي بهذه النماذج...

القسم الثاني

مقارنةً بين:

1 - الطّبيب الفيلسوف وليم جيمس

2 - والطبيب الإرهابي غولدشتاين

توجد هنا مفارقة هائلة، لقد تماثلا في التخصّص التعليمي، وافترقا افتراقًا نوعيًّا في طريقة التفكير، وفي منظومة القيم، وفي اتجاه الاهتمام. وهذا يمثّل شاهدًا صارخًا على الفرق النّوعي بين العقل الريادي الخارق (وليم جيمس)، الذي يسير معاكسًا للتيّار السائد، وبين الجموع البشريّة التي تبقى ذائبة في التيّارات السائدة، مهما نالت من تعليم ويُمَثّلها غولدشتاين. فالناس في كل العالم يظلّون محكومين بما تبرمجوا به ونشأوا عليه مهما اختلفت مجالاتهم التخصّصية والمهنية...

في هذا القسم مقارنة بين الطبيب الفيلسوف العظيم وليم جيمس بتأثيره الإيجابي العميق الواسع مقابل الطبيب الصهيوني الفج الإرهابي غولدشتاين.

تشابهاً في التخصص، تضاداً في الاتجاه

- وليم جيمس يتخرّج طبيبًا فتعتصره الشكوك في السائد وتدفعه إلى أن يهجر مهنة الطب ويستغرق في البحث عن الحقيقة، وينتهي من هذا البحث التلقائيّ الجادّ الممضّ إلى أن يصير من أبرز علماء النفس، ومن أشهر فلاسفة العصر وأهمهم. إنه مثالٌ للقِلّة المبدعة الاستثنائية ورائدٌ من أعظم رواد التقدّم الحضاري...
- أما المقابل له فهو الطبيب الصهيوني غولدشتاين وهو نموذجٌ لعموم المبرمَجين بمختلف الثقافات، فهو كغيره قد استحوذتْ على عقله ووجدانه برمجةُ الطفولة التلقائيّة وتعزيزات البيئة الصهيونيّة، فبقي كائنًا بدائيًّا مشحونًا بالحقد والثأر ورغبة الانتقام. ولم تؤثّر دراسة العلوم ولا التأهُّل في الطب على بنيته الذهنيّة والوجدانيّة. فبقي وكأنه لم يدخل أيّ جامعة ولم يصبح طبيبًا. فالعقل يصوغه ويحتلّه ويتحكّم به الأسبق إليه من العقائد والتصوّرات والولاءات...
- إن تطوّر الحضارة ينهض على جناحَين: جناح الريادة الفكريّة الفرديّة الخارقة، وجناح الاستجابة الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية. وما من شك في أن وليم جيمس يجسِّد واحدًا من أعظم النماذج للريادة الفرديّة، الفكريّة، الخارقة...
- الأصل في المجتمعات أنها تتناسل ثقافيًّا، فهي تعيد إنتاج ذاتها على نحوٍ مستمر. فتتواصل أجيالها من دون تغيير إلا إذا خرجت فيها ريادة فرديّة وفكرية خارقة تكسر السائد، واقترن ذلك باستجابة اجتماعيّة إيجابيّة كافية، كما هي حالة وليم جيمس والمجتمع الأميركي...
- إذا كان وليم جيمس يمثّل نموذج الريادة الفرديّة الخارقة التي تتحرك ضد التيار السائد، فإن غولدشتاين يمثّل النموذج العام للجماهير العمياء الذائبة في التيّار العام. فالناس يتبرمجون في الطفولة بما هو سائد في البيئة، ويستمرّون تتحكم بهم هذه البرمجة التلقائيّة مهما حملوا من شهادات...

تلقائيّة الإنسان تكشف ضآلة دور التعليم الجمعي

إن قابليّات الأطفال عند ولادتهم تكون فارغة ومفتوحة ومطواعة، تسمح بتعبئتها بأرفع الأخلاق، وأنبل المقاصد، وأنصع الاتجاهات، وأصح التصورات، وألطف العلاقات، فهي أعظم ثروات الأمم. لكن هذه القابليّات العظيمة تختطفها تلقائيًّا الثّقافاتُ المتحجّرة، التي تتوارثها الأجيال في كل الأمم تلقائيًّا. فالجنس البشري كلُّه ما زال محكومًا بالتوارث التلقائيّ للعقليّات التاريخية. إن قابليّات كل الأجيال في كل الأمم تختطفها تلقائيّةُ التشكّل بالثقافات المتوارَثة المتنافرة، أما إنقاذها من هذا الاختطاف التلقائيّ المبكّر فيتطلّب يقظةً عالميةً تسود في كل مجتمع، وفي كل مؤسسة تعليمية، وفي كل بيت في كل مكان، كما يتطلب خطةً عالميةً تقودها المؤسّسات الدوليّة، وتلتزم بها كل الدول، وتستجيب لها كل الشعوب، وهو مطلبٌ يكاد يكون محالًا.. وهذا يعني استمرار أفظع معضلة بشريّة عامّة...

إن قابليّات الأطفال في القرن الحادي والعشرين، بكل أفكاره الخلّاقة وعلومه الدقيقة ومناهجه العظيمة وإمكاناته الهائلة، ما زالت تتبرمج في كل مكان بالطريقة التلقائيّة نفسها، التي كان يتبرمج بها الأطفال في العصور الوسطى وما قبلها.. لذلك يستمرّ التناسل الثقافي بحتميّته الحاسمة وكأنه لم يحصل أي تقدّم في الأفكار والعلوم والمفاهيم والتصوّرات، وكأن البشريّة تكرّر دورة أبديّة صعودًا وهبوطًا. فمع كل مولود ومع كل جيل تتكرّر البدايات التلقائيّة؛ ولا يكاد بعض الأفراد المتميّزين يكتسبون شيئًا من الحكمة حتى تنتهي حياتهم، وحتى لو تمكّنوا من كتابة حكمتهم، فلن يستوعبها سوى القلَّة. إنه المأزق البشري الخانق الذي لم تجد البشريّة مخرجًا منه، أو على الأصح لم تَضَعْه موضع البحث بوصفه المعضلة الأزلية الكبرى...

يقول المبدع الأميركي هنري ميلر: «إننا نحيا كليًّا في الماضي، نتغذّى بأفكار ميتة ومعتقدات ميتة وعلوم ميتة.. إن الماضي هو الذي يستحوذ علينا وليس الحاضر أو

المستقبل». إنه يقول ذلك عن الشعب الأميركي وهو أشد المجتمعات انفتاحًا وتحررًا وازدهارًا..

أما المفكر الفرنسي غوستاف لوبون فيقول: «إن الشعب كائنٌ عضويٌّ مخلوقٌ من قبل الماضي»، فهو استمرار تلقائيّ لذلك الماضي السّحيق.. أما المفكّر الفرنسي الآخر فوجيه فيقول في كتابه (الموتى يتكلمون): «إذا شئت أن تفهم السرّ في المشاحنات السياسيّة ضَعْ في ذهنك هذه البديهيّة: إنه ليس هناك إلا مسألة واحدة هي المسألة الدينيّة. إنها تتوارى خلف أسماء أخرى لكنها، على الدوام، هي أساس كل خصوماتنا. فنحن نعتقد بأن الموتى قد ماتوا ولكنّهم في الحقيقة لم يموتوا، إنهم من حولنا يستبدّون بنا ويكتمون أنفاسنا بعبئهم الباهظ، إنهم في عظامنا ودمائنا وفي المادة التي يتكوَّن منها مخُّنا، فاستمعْ جيدًا إلى الأصوات التي تتكلّم.. إنهم الموتى يتكلّمون». إنه بهذا الكلام لا يكتب عن إيران وولاية الفقيه، ولا هو يكتب عن داعش وفظاعاتها المرعبة، ولا هو يكتب عن الهند وتقديس البقر، ولا هو يكتب عن التاميل ومعضلتهم الدامية المزمنة، ولكنه يكتب عن فرنسا الثورة.. فرنسا فولتير وديدرو ومونتسكيو، إنه يكتب عن أوروبا رغم كل ما حققته من انفتاح وتحرّر وانطلاق، وهذا يؤكّد عمق وضخامة وتعقيدات المعضلة...

إن الإنسانيّة التي تجاوز عدد أفرادها سبعة مليارات إنسان تملك قابليّات هائلة لقفزة نوعيّة عظيمة تتجاوز بها كل ما عرفته البشريّة من قبل. فلقد توفّرت إمكاناتٌ فكريّة وعلميّة وتقنيّة مذهلة لتحقيق هذه الوثبة النّوعيّة المشرقة والفاصلة. إن ارتهان الإنسانيّة لأسْر التاريخ وأثقاله وهويّاته ورواسبه وحتمياته هو الذي أبقى البشريّة متخلفة فكّريًا وأخلاقيًّا، وهو العائق الأساسي الأكبر الذي يشدّ الإنسانيّة إلى الأسفل، بل يبقيها في هذا الحضيض من الصّراع والتقاتل والعجز عن تبادل الفهم. إن هذا الارتهان الأيديولوجي، بكل ما يشتمل عليه من أوهام وجهالات وحواجز نفسيّة وتدابُر عاطفي وانغلاق ذهني، يمنع حصول الوثبة العظيمة التي ستكون مضيئة وحاسمة وفاصلة لو أنها تحقّقت. لكن تَحُول دونها عقباتٌ من البنيات الذهنية والوجدانية المتوارثة هي أشد رسوخًا من الجبال، إلى درجة أن كلَّ فتوحات العلم لم تستطع أن تنفذ إليها، فضلاً عن أن تهزّها أو تؤثّر فيها. ليس ذلك فقط في المجتمعات المتخلّفة، وإنما حتى في أشد

المجتمعات انفتاحًا وتحرُّرًا وازدهارًا. ويعود ذلك إلى تلقائيّة التوارث لكل ما حمله التاريخ من أوهام وأساطير ولَوثات...

في هذا الفصل كغيره من الفصول تظهر ضآلة دور التعليم النظامي، فالرواد يتجاوزونه تجاوزًا نوعيًّا باتجاهات مضادَّة للسائد، ويندفعون مع اهتماماتهم التلقائيّة، وهم قلّة من الأفراد في جميع العصور وفي كل المجتمعات. أما الطوفان البشري العام فيبقى مأسورًا ببرمجة الطفولة، فلا يتأثر بالتعليم الجمعي، رغم طول مدته، إلا كمدخل مهني اضطر إليه اضطرارًا، بل أسوأ من ذلك أن التعليم الجمعي يرسِّخ أوهام المجتمعات ويؤجّج مشاعر التفرّد المتوَهَّمة ويعمق أسباب التنافر بين الأمم...

إن القابليّات الإنسانيّة العظيمة الهائلة ما زالت معاقة بما تتوارثه الأمم تلقائيًّا من ثقافات متمايزة ومتدابرة وغير قادرة على التزاوج ولا الالتقاء المثمر، ولا على الإفاقة من غيبوبتها العميقة المزمنة. فما زال العلم غير قادرٍ على أن يؤثِّر على البنيات الثقافيّة المستحكمة. وإن الأمم، رغم تعميم التعليم وتَخَرُّج ملايين من أفرادها من مختلف الجامعات في مختلف التخصّصات، وحصول الكثيرين منهم على أعلى الشهادات، ما زالت محكومة بتاريخها وهُوياتها وأوهامها وتُرَّهاتها ومفاخرها الموهومة، ومعاقة بما ينشأ عن كل ذلك من انحياز مطلق، ومن انغلاق ثقافي مستحكم، ومن أحقاد وعداوات وثارات وحروب ومنازعات وفظاعات، مع ما يترتّب على ذلك من إهدار للطاقات والأعمار والأموال والجهود. فلو تحرّرت الإنسانيّة من الأسر التاريخي والارتهان الأيديولوجي، لكانت مهيأة للوئام والتآخي والتكامل والرخاء والعدل والمساواة والإيثار، ولَتَجَاوَزَتْ حالات البؤس والفقر والتهميش والهوان المذلِّ...

إن القابليّات الإنسانيّة في مختلف الأمم ما زال يحتلّها الإرث التاريخي الأسبق، وما زالت بنياتها الذهنيّة والوجدانيّة مغلقة ومحكومة بأيديولوجيات متضادّة وموصدة عن حقائق العلوم. فالعلم بالنسبة للأيديولوجيات المتنافرة ما زال كالجزيرة المعزولة وسط المحيطات الثقافيّة المستحكمة، فلن يكون غريبًا أن تجد عالمًا كبيرًا في الفيزياء أو الكيمياء أو غيرهما، يقف خاشعًا أمام الصليب، أو تجد عالمًا شهيرًا آخر يقف بخشوع أمام تمثال بوذا، ولكن أكثر الناس في كل العالم ما زالوا يتوهّمون أن التعليم

يقضي على الوعي الزائف، ويصنع الوعي الفاحص، ويصوغ العقل المتحرّر. ولم ينتبهوا بأن واقع الشعوب يؤكّد بأن التعليم لا يحقّق في أحسن حالاته وأرفع مستوياته سوى التأهيل المهني فقط، ولا يؤثّر على البُنيات الذهنيّة والوجدانيّة المتكوِّنة قبله. أما حين يؤثِّر فإن تأثيره يكون في الغالب تأثيرًا سلبيًّا، حيث يؤدّي إلى حشد وتعميق وشحن هذه البُنيات بالتفجُّر العاطفي والالتحام المتوقّد مع التاريخ. وقد أدَّى غياب هذا الإدراك إلى أن الناس يستغربون حصول الحماقات من المتعلّمين، ولم يدركوا أن نتائج التعليم سطحيّة تمامًا، وأن تفكير أكثر المتعلّمين وسلوكهم محكومٌ بالبرمجة التلقائيّة وبالثقافة الموروثة وبالعادات الذهنيّة والسلوكيّة التي ينساب منها التفكير والسلوك انسيابًا تلقائيًّا...

من المهم جدًّا أن ندرك الفرق النّوعي بين ما يتعلّمه الإنسان كُرْهًا واضطرارًا بقصد التأهيل المهني.. وما يتبرمج به تبرمُجًا تلقائيًّا يتكوَّن به وعيه وبنيته الذهنيّة والوجدانيّة. إن ما يتلقّاه الإنسان من معارف مهنيّة عن طريق الدراسة والبحث والجهود القصديّة يبقى محكومًا نسبيًّا بالوعي وبإطار المهنة وتقاليدها، فيظل هذا الإطار المهني مفتوحًا نسبيًّا للمراجعة والتصحيح. فالطبيب مثلًا يتقبَّل الكشوف الجديدة التي تتعارض مع معلوماته السابقة في الطب، وقد يتلكّأ في القبول، لكنْ يوصِد باب ذهنه تمامًا أمام الجديد المتعارض مع القديم في التخصّص نفسه. أما ما تبرمج به تلقائيًّا في طفولته فتشكَّل به عقله، وتحدَّد به وجدانه، وارتسم به اتجاهه فصار لا يرى العالم إلا من خلاله، فإنه يكون محميًّا عن فطنة العقل الناقد. إنه لا يتأثّر بحقائق العلم، ولا يكون مُعَرَّضًا للتحليل والفحص أو الشكّ، بل تبقى بنيته الذهنيّة والوجدانيّة ورؤيته للعالم مغلقة ومحميّة بآليّات ذاتيّة الحركة، فهي تلقائيّة التحصين والديمومة. إن البنية المتشكّلة تلقائيًّا تملك جهازًا مناعيًّا قويًّا يقاوم بحركة تلقائيّة وجاهزيّة متوقّدة أيَّ فكرٍ مغاير، فهو متأهِّبٌ دومًا بشكل تلقائيّ للمقاومة والرفض والإغلاق. إنه لا يترك أيّ فرصة لأي احتمال مناقض لأنه ينظر إلى كل شيء بالمعايير التي تبرمَج بها تلقائيًّا، فلا يرى إشراقات المغاير، ولا يبصر الخلل في معاييره.. لذلك بقي التطوّر الحضاري مرهونًا بانكسار تلقائيّة الانغلاق عند بعض الأفراد الرواد الاستثنائيين، أما الأصل عند عموم البشر، حتى عند مَنْ حصلوا على أعلى الألقاب التعليميّة، فهو الانغلاق. وبهذا

الانغلاق التلقائيّ فإن خرافات الشعوب التاريخيّة قد بقيت في أقصى فاعليّاتها رغم كل ضياء الأفكار وحقائق العلوم، وبهذه الفاعليّة التلقائيّة للبرمجة التلقائيّة انحصر تأثير العلوم في الجوانب المهنيّة والعمليّة. فتطوّرت الوسائل تطوّرا هائلًا. أما أنماط التفكير والتصوّرات والمواقف والحكمة ومستوى النضج والقيم والولاءات والاهتمامات التلقائيّة والأخلاق، فبقيتْ كما كانت قبل ظهور العلوم الحديثة...

إن غياب الإدراك لطبيعة الإنسان التلقائيّة قد أهدر قابليّاته العظيمة الواعدة، وصَرَفَ الجهود في اتجاهات تتعارض مع طبيعته. فأعمار الأجيال ما زالت تضيع في تعليمٍ قسريٍّ وتعلُّمٍ اضطراريٍّ لا يَنتج عنه سوى الإمحال والهدر والخواء، باستثناء الجوانب المهنية.. والأسوأ من ذلك أن الإنسانيّة ما زالت خاضعة لأسر التاريخ ومقيَّدة بأثقاله الباهظة وهوياته المتنافرة ورواسبه وحتميّاته، فكل المجتمعات تواصل تأكيد وترسيخ هذه الحتميّات وتغرس في نفوس أبنائها، عن طريق التعليم والإعلام وكل وسائل التأثير، ما يعوق الانفتاح الذهني على نتائج العلوم وما تقتضيه من تغيير في الرؤى والمواقف والقيّم والتطلعات والأحلام. فقابليّات الإنسان يصوغها ويحتلّها ويتحكّم بها الأسبق، فيكتسب هذا الأسبق مناعةً قويّة طاردة لأية حقائق لا تتّفق معه. كل الأمم ما زالت محكومة بتلقائيّة التناسل الثقافي، فبقي تأثير العلوم محصورًا بمجالات العمل والمهن، ولم تتغيَّر بها الولاءات ولا الغايات ولا الأخلاق ولا الاتجاهات ولا التصورات ولا القيم ولا الاهتمامات، ولم تتبدّل الأشواق والعواطف، فاستمرت الأحقاد والصراعات والعداوات والتنافر والانسداد المتبادل والأوهام التاريخية العميقة والمعيقة...

إن الذين ينتظمون في الدّراسة كل هذه السنين، من كلِّ الأمم، لم يلتحقوا بالتعليم بعقول فارغة أو عواطف مفتوحة، وإنما التحقوا وهم مشَكّلون ومبرمَجون ذهنيًّا ووجدانيًّا بما هو متوارث تلقائيًّا، ويعيشون في بيئات تُرسِّخ برمجةَ الطفولة، وتكرِّس الموروث، وتعمِّق عوامل استمرار التناسل الثقافي التلقائيّ الذي يتجسَّد فيه الجهل المركَّب، حيث يتبرمجون بأوهام لا تمتُّ إلى الحقائق بصلة، ومع ذلك يظلّون يعتقدون بأنها الحقّ المطلق والصّواب التّام، وأن كل ما عداها هو الضلال المبين والخطأ المحض. إن كل الشعوب تغتبط بالثقافة التي تبرمجتْ بها وتتوارثها أجيالها في تناسلٍ ثقافيٍّ حتميٍّ، أما العلوم فانحصر دورها في المجالات المهنيّة والعمليّة، وفي تطوير

الوسائل. أما الغايات والأخلاق والعادات الذهنيّة والقيم والولاءات والاهتمامات التلقائيّة فإنها لم تتأثر بالعلوم الحديثة...

إن الإنسان في كل زمان ومكان.. في الشرق والغرب.. في الشمال والجنوب.. في المدن والقرى.. في الصحارى وفي الغابات.. يتشكّل عقله وعواطفه وسلوكه ورؤيته للعالم بما تتلقّاه قابليّاته تلقائيًّا من البيئة.. ورغم الاختلافات الهائلة بين معتقدات وولاءات وتصوّرات وقيم واهتمامات من هم في الشرق عن الذين هم في الغرب، أو في الشمال والجنوب، فإن كل إنسان ينشأ مقتنعًا اقتناعًا تامًّا بأن ما تبرمَج به هو الصواب والحقّ والنقاء والمجد، وبأن ما يغايره هو الخطأ والوهْم والقذارة والانحطاط.. وبهذا فإن البشريّة رغم توفُّر العلوم الممحّصة والأفكار المضيئة تعيش مغمورة بغبطة الجهل المركَّب.. إن هذا الواقع الفظيع هو الذي نحَّى تأثير العلوم الممحّصة والفلسفات الخارقة وحَصَرَها في مجالات العمل والمهن والأداء، وبقي العقل البشري في عمومه محكومًا بثقافات ما قبل العلوم الممحّصة...

إن قابليّات الإنسان لا تَستقبل المعرفة الممحّصة استقبالًا ذاتيًّا حقيقيًّا إلا إذا كانت مفتوحة لها، وهذا لا يكون إلا بالاحتياج التلقائيّ إليها، أو بالشغف بها، أو بالإثارة الدافعة إليها، أو بالشك الموقظ لها. أما حشر مئات الملايين في المدارس والجامعات في كل العالم من دون إحساسهم التلقائيّ باحتياجهم إلى معرفة ممحَّصة تجيب على تساؤلات ذاتيّة تلقائيّة مقلقة، ومن غير إثارة شغفهم أو شكوكهم أو اهتمامهم التلقائيّ، فإنهم بذلك يضطرّون اضطرارًا للحفظ الموقَّت الذي يؤدّون به الامتحانات، ثم ينسلخ هذا المحفوظ من ذاكرتهم بعد انتهاء الغرض منه. وكما يُقال فإن الإنسان يستطيع أن يقود الحصان إلى الماء لكنه لا يستطيع إرغامه على أن يشرب...

ومع أن المفكّرين المهتمّين في كل العالم صاروا يدركون الإهدار الهائل في الأعمار والطاقات والأموال، ويدركون ضآلة الناتج بعد كل ذلك، فإن الاعتياد على هذا النمط التعليمي ما زال مستمرًّا ربما لعدم معرفة بديل ممكن، ولكنني أتوقّع حدوث تغييرات ثورويّة جذريّة وشيكة في العمليّة التعليميّة في كل العالم، لأن الاستمرار على النمط التعليمي السائد المضاد لطبيعة الإنسان التلقائيّة هو إهدارٌ فظيعٌ لا بد من وقفه وتغيير

اتجاهه وأسلوبه...

إن الناس لا يحرّكهم بفاعليّة وانتظام سوى اهتماماتهم التلقائيّة، فإذا توفّر الاهتمام التلقائيّ القويّ فإن الإنسان قادر على تحصيل المعلومات من شتى المصادر، فليس التجرُّع القسريّ للمعلومات هو الذي يبني المعرفة، أو يصنع القدرة، وإنما الشرط الأساسي لمطلب المعرفة وبناء القدرة هو الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق الذي هو نتاجُ منظومة القيم التي يتشبَّع بها الأفراد من بيئاتهم تلقائيًا. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ تحرّكه البرمجة والتعبئة التلقائيّة التي تشبَّعَتْ بها قابليّاته فصارت تتحكّم في ذهنه وعواطفه، وتنساب منها كل فاعليّاته، فليس المهم أن تقرأ أو تحفظ، بل الأهميّة كلها في ما تتأثر به وتنفعل له وتتحمس من أجله تلقائيًا، وقد تفديه بنفسك فتضحّي بروحك دفاعًا عنه، حتى لو كنتَ مدفوعًا بأوهام موغلة في الشطط والهذيان. إن فاعليّة الإنسان هي نتاج اهتمامه التلقائيّ وليست نتاج اهتمامه القسريّ، أو الاضطراري، أما شواهد ذلك فهي ماثلة في شكل صاخب في كل الدنيا فتعالوا نستعرض بعض الشواهد...

فمن أميركا حيث هي في الصدارة من قيادة الحضارة المعاصرة، نبدأ بفيلسوف البراغماتيّة الأشهر وليم جيمس الذي دَرَسَ الطب، ولكنّ مؤرّخي الفلسفة ومؤرّخي علم النفس والمؤرّخين للفكر الأميركي وللثقافة الأميركيّة، والباحثين عمومًا والدارسين والأكاديميين والجامعات والعالم أجمع عَرَفَه بوصفه من أبرز مؤسّسي علم النفس، ثم عَرَفَه الجميع أيضًا بأنه من أعظم فلاسفة العصر، وأبرز مبدعي الفلسفة البراغماتيّة مع أن تخصّصه الدراسي في الطب. إنه من أكبر القيادات الفكرية في العالم وقد كتب عنه الفيلسوف الكبير برتراند راسل: «بين الفلاسفة البارزين كان أكثر تأثيرًا عليَّ وليم جيمس، إنه رجل عظيم تبعث مزاياه الشخصيّة على الاحترام». إنه يمثّل قمة القيادة الفكريّة لأميركا الشماليّة ويمتد تأثيره إلى كلّ العالم، وهو الفيلسوف الأشهر للفلسفة البراغماتيّة، وهو شقيق الروائي الأميركي الشهير هنري جيمس الذي هو الآخر أحد شواهد نظرية (عبقرية الاهتمام التلقائيّ)، لأنه من أبرز القيادات الإبداعيّة مع أنه قد اكتفى من الدراسة النظاميّة بالمرحلة الثانويّة، ولكن هذا له حديث آخر...

لعلّه من الملائم تقديم وصف عام لمسيرة وليم جيمس كما تقدّمه المعاجم

المختصرة: «سعى إلى إلحاق علم النفس بالعلوم الطبيعيّة والوضعيّة، كما سعى إلى إبراز أن الفكر لا يستقلّ عن الممارسة. فهو يقول بأن التحقّق بواسطة التجربة الموجَّهة إلى الفعل الإنساني والاعتقاد لتلبية الحاجات الأساسيّة للكائن البشري هي مميّزات نفعيّة»، وهو بذلك يتّفق مع نيتشه الذي يؤكّد أن «الحقائق تثبت ذاتها بما تنتجه من آثار وليس بفضل الأدلة المنطقية». إن وليم جيمس يؤمن بأن الأفكار والتصوّرات والرؤى مرهونة بنتائجها، فاختبارات الواقع هي المعيار وهي المحكّ. كما أنه يؤمن بأن الإنسان كائنٌ بيولوجي، وأن تكوينه الذهني والوجداني هو نتاجُ التطبُّع بالبيئة، وأن معارفه مرهونة باهتماماته التلقائيّة، وأن الاهتمامات تتنوّع بتنوّع البيئات، وأن المعرفة المعتبرة هي التي تكون نتاج التجربة الشخصية المدفوعة بالاحتياجات والتطلّعات. وهذا يعني أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، فإذا عومل بضد طبيعته التلقائيّة فإن ذلك يعني الانسداد والتلبّك وضياع الطاقة وتبديد الجهد وإهدار الزمن...

يؤكّد وليم جيمس أن «البراغماتيّة هي الفلسفة الوحيدة التي تضع نفسها في متناول الإنسان، ذلك أن سيرنا على درب المعرفة هو الذي يوجّه القدْر الغالب من تفاصيل حياتنا اليوميّة ومصلحتنا وحاجاتنا». كما يؤكّد بأن: «حقيقةَ فكرةٍ ما ليست خاصّة من خصائص تلك الفكرة تكون منذ البداية موجودة في جذورها، وإنما هي حقيقة تكتسبها الفكرة لاحقًا. فالفكرة تصبح حقيقة لأنها تكتسب حقيقتها من تضافر الوقائع». إن أبسط شرح عن البراغماتيّة جاء في كتاب (حياة الفكر في العالم الجديد) للمفكّر العربي الكبير زكي نجيب محمود، وفيه يقول: «وجاءت البراغماتيّة لتغيّر وجهة النظر من أساسها. فبدل الالتفات إلى ما كان، نلتفت إلى ما سيكون»، ويقول: «وليم جيمس ينظر إليه العالَم على أنه نموذج الفيلسوف الأميركي وعنوان الفلسفة الأميركيّة، وقد تُرجمتْ كتبه إلى كل لغات العالم المتحضّر. وعُرف أول ما عُرف باشتغاله بعلم النفس. وقد أخرج فيه كتابه العظيم (أصول علم النفس)، فكان نقطة تحوّل وانتقال في هذا العالم من عصر إلى عصر، فقد بدأ علم النفس عهدًا جديدًا لأنه جعل العقل أداة فعّالة نشيطة». هكذا يكون الرواد خارقين يضيفون ما لم يكن معروفًا ويفتحون للإنسانيّة آفاقًا كانت محجوبة، فبهم ينتقل الفكر البشري من اتجاه إلى غيره، ويرتقي من مستوى أدنى إلى مستوى أرفع. ومع ذلك لا يجدون الاستجابة الإيجابيّة غالبًا إلا بعد

أن يطويهم الموت، فكل الروّاد عانوا من الرفض أو التجاهل ما يجعل البشريّة تخسر مزيدًا من الزمن الضائع حيث لا تأتي الاستجابة الإيجابيّة إلا بعد تأخير قد يطول...

لذلك، فإن البراغماتيّة فلسفة تؤمن بالإنسان الفرد وتمقت تذويبه في أي تنظيم. يعلن جيمس: «إنني مع القوى الأخلاقيّة اللطيفة، تلك الفاعلة بين الفرد والفرد»، ويؤكّد كرهه للاندفاعات الجماعية العمياء، فهو ضد القومية وضد كل التنظيمات الكبيرة وضد الجمود الثقافي: إنني في صف القوى الخالدة للصدق التي تشق طريقها خلال الفرد». وهو يلفت النظر إلى أن الرّواد الخارقين هم قادة الحضارة لكنهم لا يجدون استجابة إيجابيّة فيموتون كمَدًا: «حتى يأتي التاريخ بعد مماتهم بوقت طويل فيضعهم فوق القمّة). ويضيف: «إن الكفاية العقليّة الكليّة لأي فرد هي حاصل تفاعل وعمل كل قدراته ومواهبه مجتمعة، فالفرد كائن بلغ من التعقيد درجة يصعب معها على أية موهبة مفردة أو قدرة واحدة فيه أن تكون صاحبة الرميّة الأخيرة وأن تتحكم في مصيره، وإذا قُدّر لها أن تكون كذلك فمن الأرجح أن ذلك راجعٌ إلى قوة رغبة الفرد وانفعاله الشديد وشهوته، مضافًا إلى ذلك قوة الاهتمام، أو الشغف بما يُقبل على عمله وأدائه». لقد كان وليم جيمس أول من شَخَّص سيلان الوعي وانتقاله التلقائيّ من موضوع إلى آخر دون ضابط». فالأفكار والمشاعر والرغبات والإدراك تجيء وتذهب، فنهر الوعي يتغيّر باستمرار مثلما يتغيّر العالم من حولنا»، وهو ما أطلق عليه وليم جيمس (نهر الوعي)، أو تيار الوعي. إن طاقة الوعي تتطلّب الضبط والتركيز لكي تكون ذات فاعليّة فلا بد أن نعتاد ضبط وتركيز هذا التيّار من أجل أن يكون ناجعًا في حركته ونافذًا في إدراكه. وقد التقط الفكرة الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل، وانتهى إلى أن فاعليّة الوعي تتطلّب التحكّم في حركة الوعي ووضع العالم بين قوسين من أجل تركيز الوعي وضبط اندفاعه التلقائيّ وفحص محتواه وتركيز طاقاته على ذاته وعلى الموضوع المراد التحقّق منه...

يرى وليم جيمس أن ظاهرة الوعي هي القضيّة الأولى في علم النفس ويقول: «اكتشاف أن الذكريات والأفكار والمشاعر توجد خارج الوعي الأساسي هو الخطوة الأهم إلى الأمام التي حدثت في علم النفس». لم يكن وليم جيمس مجرّد دارس ومردِّد لما اكتشفه وأنجزه الرواد الآخرون، وإنما كان هو في طليعة الرواد المكتشفين الذين وضعوا للدارسين معالم الطريق وزوّدوهم بذخيرة من المفاهيم التي تيسّر الفهم وترشد

العمل...

إن تَخَلِّي وليم جيمس عن مهنة الطب، واستغراقه في البحث حول الحقيقة وإمكانات التحقّق وحول الإنسان الفرد: وجودًا وقيمةً ومصيرًا، لم يكن اختيارًا محضًا وبقصد إراديّ وإنما كان مدفوعًا إلى ذلك باهتمام تلقائيّ قويّ مستغرق. لقد حاصرته التساؤلات الحادَّة وأرَّقته الحيرة الممضّة وتأجَّجتْ فيه الشكوك المثيرة الحافزة فاندفع بمحرك ذاتيٍّ عميقٍ. لقد أمضَّت القلق بحثًا عن الاطمئنان، فانطلق بقوة متأجِّجة من أعماقه يبحث ويتأمّل ويدقّق ويقارن من أجل أن يتحقّق، فلا معرفة تستحق الاعتبار من دون تحقّق. إن التحقّق هو معيار المعرفة، فالمعرفة التي لا تقوم على التحقّق ليست معرفة علميّة وبالتالي فهي غير معتبَرة. وبديهي أن التحقّق لا يمكن أن يحصل تلقائيًّا وإنما مصدره الاهتمام القويّ المستغرق، المدفوع بشكوك حادّة بمحتوى التبرمج التلقائيّ وعدم الاقتناع بما هو سائد. إن التحقّق هو ثمرة الشكّ العميق والقلق الحاد والاندفاع التلقائيّ في البحث، وبذلك تتبدَّد الأوهام وتنكشف تعقيدات الحقيقة. فهذه التعقيدات ليست شيئًا يرثه الناس تلقائيًّا، ولا هي كيانٌ يجدونه شاخصًا كاملًا، وإنما هي مجموعة علاقات متشعِّبة وملتبسة تكتنفها الحواجز وتغمرها الادعاءات المتضادّة وتحجبها تلقائيّة التبرمج بالأوهام وتصدُّ عنها قلاعُ الهويات وحصونُ الخصوصيات وأوهامُ الامتياز. إن طبيعة الإنسان التلقائيّة، وكونه كائنًا ثقافيًّا وكائنًا اجتماعيًّا، تجعله قطرة ذائبة في بحر المجتمع. أما الذين يتحرّرون من هذا الذوبان فهم قلة من الأفراد في كل العصور وعند جميع الأمم، إنهم روادٌ استثنائيون، إنهم قادة الحضارة، ومنهم وليم جيمس. وبذلك تظهر خطورة التأكيدات المستمرة على أصالة الهويّات المتضادة، فهذا التمجيد الدائم للهويّات المتنافرة هو الذي أبقى الإنسانيّة في هذا المستوى البدائيّ في الجوانب الفكريّة والأخلاقيّة، وهو الذي ضمن استمرار الإمَّعية داخل كل هويّة...

من تجربته الذاتيّة القلقة، اكتشف وليم جيمس أن الاندفاع التلقائيّ للعلم والعمل هو مفتاح طاقات الإنسان وميزته الأساسية، فالحيوان يمكن عَسْفه وتطويعه وتدجينه إلى حد أن طفلًا يستطيع أن يتحكَّم بقطيع من الإبل المعسوفة، أما الإنسان فلا يُفَجِّر طاقته سوى اهتمامه التلقائيّ المتأجِّج في أعماقه. لذلك يوضح جيمس: «إن الأشياء التي تهمّنا هي التي تلتصق في وعينا، أما الأشياء الأخرى فنتخلّص منها بأسرع ما يمكن...

والفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطريّة في العقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجّهون إليها اهتمامهم، وإلى درجة التركيز التي يستطيعون أن يبلغوها... والفرق الجوهري بين الإنسان والبهيمة يكمن في نزوعه المندفع.. جَرِّدْه من شططه تجده متكسّرًا». فالإنسان كائنٌ مهتمٌّ كما قال هيغل، والاهتمام المنتج والمبدع هو الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق، أما الاهتمام الإكراهي الاضطراري، كما هي حال التعليم الجمعي، فهو يتعارض مع طبيعة الإنسان التلقائيّة، وبسبب ذلك فإنه اهتمامٌ عقيمٌ ومُنَفِّرٌ. إن الدراسة كُرْهًا تغرس النفور من التعلُّم ومن كل ما يرمز إليه، وهو تدميرٌ للقابليّات الإنسانيّة العظيمة...

إن نظريّة التلقائيّة، ونظريّة عبقريّة الاهتمام التلقائيّ، ونظريّة العقل يحتلّه الأسبق إليه، كلّها تجد تأكيدات لها عند وليم جيمس الذي يقول: «الملايين من المثيرات التي تحمل أوامر خارجيّة تَسقط على حواسّي، فلا تدخل غالبًا ضمن خبرتي لماذا؟ لأنها ليست مهمّة بالنسبة لي، فخبرتي هي ما تتكوّن مما أَنتبه له. فقط بعض المتغيّرات التي ألاحظها هي التي تُشَكِّل عقلي». إن ما لا يهُمُّك بشكلٍ تلقائيّ لن تنتبه إليه، وإذا أُرغمتَ على الانتباه له كما في حالة التعلُّم اضطرارًا فلن يثبت في ذهنك، وهذا يؤكّد عُقْم التعلُّم اضطرارًا وخصوبة التعلّم اندفاعًا...

إن الناس، كما يرى وليم جيمس، تتحكَّم بانتباههم الاهتمامات التلقائيّة التي تبرمجوا بها من البيئة، فالقابليّات مرتهنة بما تطبّعت به من اهتمامات. وفي مقالةٍ له وردتْ ضمن كتاب (روائع المقال) ينبِّه إلى: «أن الناس لا يستعملون إلا جزءًا من القدرات التي يمتلكونها فعلًا». إنه يرى أن البيئة والظروف غير المواتية تعطِّل طاقات الإنسان، وأنه بتغيُّر الظروف وبالإثارة والحفز يستطيعون استثمار المجمَّد من قدراتهم. إن طاقة الإنسان نتاجُ اهتمامه، فبشحن اهتمامه تتفجّر طاقاته العضلية والعاطفية والأخلاقيّة والروحية، وهذا يعني أن التعويل يجب أن يكون على الجَيَشان الداخلي للإنسان، لأنه يتحرك بدوافع داخلية عميقة ذات فاعليّة تلقائيّة...

إن المعوَّل عليه في الإنسان هو حياته الداخلية: قابليّاته، ومشاعره، وولاءاته، ومحور اهتمامه، وطريقة تفكيره، ومنظومة قيمه، ومنابع انفعالاته واحتياجاته ورغباته،

واتجاه طموحه، ودوافعه التلقائيّة. أما قَسْره على تَجَرُّع معلومات لم يكن يبحث عنها كاحتياج نفسي ذاتي، فإن قابليّاته تَمُجُّها ثم تلفظها... فالتعليم الجمعي بأساليبه السائدة هو الغلطة البشريّة الكبرى...

إن الاهتمام التلقائيّ هو منبع الطاقة الإنسانيّة، وليست تحوّلات الطبيب العالم الفيلسوف وليم جيمس العلميّة والفكرية سوى استجابات تلقائيّة لتحوّلات اهتمامه التلقائيّ. فإذا أريد تطوير أي مجتمع فلن يكون ذلك إلا بتغيير اتجاهه وولاءاته وموضوعات اهتماماته، وتبديل طريقة تفكيره، وإعادة ترتيب منظومة قيمه، وخلق عادات فكرية وسلوكيّة يتحقّق بها التحوّل ويتحدّد بها الاتجاه الجديد...

إن وليم جيمس دَرَسَ الطب، لكنه وجَدَ نفسه غير قادر على الاطمئنان إلى ما تبرمج به، ولا تقبُّل قيَم وعقائد وتصوّرات وأفكار واهتمامات تبرمَج بها تلقائيًا، فاندفع باحثًا عن الحقيقة يتعمق ويقارن ويدقّق ويفحص ويحلّل. لقد وجَّه اهتمامه للتعرف على الطبيعة الإنسانيّة، فاهتمَّ في بداية تحوُّله بعلم وظائف الأعضاء (الفيسيولوجيا)، ثم وجد أنه بحاجة إلى تعميق معارفه عن الإنسان في كل أبعاده الجسدية والنفسية والذهنية، فتحوَّل بمحض اهتمامه إلى علم النفس ليقدّم لنا من هذه الرحلة الطويلة والعسيرة كتابه (أصول علم النفس) بجزأيه. وصار بهذا الكتاب من أبرز المؤسّسين الأساسيّين لهذا العلم...

لقد استغرق منه إنجاز كتاب (أصول علم النفس) أحَدَ عشر عامًا من البحث الجاد والتأمّل العميق والعمل المرهق. إنه كتابٌ تأسيسي دَفَعَتْه إليه الرغبة العارمة في الفهم وفي التحقّق، ثم في الإبلاغ والإفصاح.. ولذلك كان عملاً مرهقًا. وقد كتب واصفًا إحساسه أثناء العمل على هذا الكتاب: «لا شيء يُتعب المرء وكأنه دومًا يحمل جبلًا كالعمل الذي يبقى معلَّقًا من دون إنجاز، وهو يعلم أنه لا بد له أن ينجزه». وكان يعتقد بأنه سوف يرتاح بعد صدور الكتاب، ولكنه اكتشف أن حياة الفرد الطليعي وفاعليّاته كلها نتاجُ سلسلة من الانفعالات، فما يكاد يفرغ من مجال اهتمام قوّي مستغرق حتى يدخل تلقائيًا في مجال جديد مدفوعًا بانفعال متدفّق...

إن الانفعالات التلقائيّة الحادّة هي التي تدفع للإنجاز، تعقبها انفعالاتُ الفرح برؤية

المولود الفكري ماثلًا أمامه وأمام المتابعين الذين كانوا ينتظرون صدوره، فالإنسان سلسلة من الانفعالات وهو يبكي من شدّة الترح كما يبكي من شدّة الفرح؛ وقد شاهدنا الدموع تنهمر من عيون الذين يجري تكريمهم في احتفالات عامة. إنها دموع انفعالات الفرح، فالنوم يهرب من عيون الناس في حالة فورة السرور، مثلما يهرب في حالات الكدر، أو الخوف، أو الغضب، أو القلق، أو الفزع، أو الألم. فالانفعال فورانٌ داخليّ يفور تلقائيًّا حتى لو كان الإنسان لا يرغب فيه ويود أن يرتاح منه...

إن المبدع يبقى يؤرقه الاهتمام التلقائيّ القوي أثناء المخاض بأي مشروع فكري أو إبداعي، فإذا أنجزه غمرته انفعالاتُ الفرح، ثم يبقى مسكونًا بالاهتمام التلقائيّ. فهو يهتم بردود الفعل حوله ومدى الاستجابة له، ولن يرتاح حتى يبدأ بعمل جديد، هو أيضًا ثمرة اهتمام تلقائيّ قوي مستغرق، وسوف يستمر معه إلحاح الرغبة في الإنجاز أثناء مخاضات العمل وتفاعلات الفكر والفعل. ولولا هذه الطبيعة الإبداعيّة المتوترة إيجابيًّا لما تقدّمت الحضارة، فالإنسان الذي لا تشغله اهتماماتٌ تستغرقه سوف يحاصره الملل الثقيل، ويعصره الشعور بالتفاهة واللاجدوى...

ما إنْ صَدَرَ كتابه (أصول علم النفس) بجزأيه حتى «أطبقَتْ» شهرته الآفاق وجَعَلَ من وليم جيمس عالمًا ذائعَ الصيت»، كما يقول البروفيسور بول ودرنغ. ولم يقتصر الإعجاب به على المؤيدين له، بل نال إعجاب المخالفين. وقد وصَفَه أحد معارضيه: «إن هذا العمل لروعة تعبيره الأدبي سيبقى رائعًا بارعًا أبد الدهر، في الوقت الذي تُلقى فيه معظم الكتب في زوايا النسيان وقد علاها التراب». هكذا هو وليم جيمس، رائدٌ في توقّده التلقائيّ، ورائدٌ في علمه، ورائدٌ في فلسفته، ومبدعٌ في أسلوبه الأدبي الباهر. وقد استطاع بأسلوبه المتميّز أن يصل إلى عقول الجميع، وأن يبسِّط أصعب المفاهيم، وأن يُقَرِّب أعقد القضايا...

إن وليم جيمس في كتابه الآخر (أحاديث للمعلّمين والمتعلمين)، يتناول قضايا بالغة الأهميّة لما نحن بصدده. ومن هذه القضايا المحوريّة تأكيده المتكرّر على الفرق النوعي بين المعلومات وفنون الأداء، أي الفرق النوعي بين المعرفة النظريّة والممارسة العمليّة. إن مهارة الأداء تختلف نوعيًّا عن المعلومات مثلما أن الأسلوب يختلف عن

حفظ الكلمات، لذلك حرص وليم جيمس على أن يكرّر التأكيد بأن حفظ المعلومات، أو استيعاب معارف نظرية، يختلف عن قدرة الأداء. فكلّ ممارسة هي فنٌّ فرديٌّ؛ فيقول: «العلوم لا تولّد فنونًا، إذْ لا بد من توافر وسيط خلّاق قوامه عقل خلّاق ليقوم بعمليّة التطبيق عن طريق ابتكاره هو». فلا يتشابه الناس في أدائهم حتى وإن تماثلت تخصّصاتهم، مثلما أن المنتمين للغة نفسها يحفظون المفردات نفسها، لكن تختلف طرائقهم في الحديث وأساليبهم في الكتابة، إنهم يستخدمون اللغة نفسها والألفاظ نفسها، لكن الأساليب تختلف اختلافًا شديدًا. ويلاحَظ أحيانًا أن الصحف والمجلات في مناسبات مختلفة تستكتب عددًا من المتخصّصين والمهتمّين حول قضيّة واحدة، ولكن كتاباتهم تأتي مختلفة أسلوبًا ومضمونًا...

والأهم من ذلك، أن مواقف الناس تختلف باختلاف الاهتمامات والدوافع والبواعث مهما اتفقت المعلومات المتوافرة لديهم. لذلك يؤكّد وليم جيمس على أن مصدر الفاعليّة هو الاهتمام التلقائيّ، فالمعلومات ذاتها لا تدفع إلى فعل، فيعلن: «إن علم الأخلاق لم يجعل الإنسان يسلك سلوكًا مستقيمًا.. وعلم المنطق لم يجعل الإنسان يفكّر تفكيرًا صحيحًا..». فعلم المنطق يعطيك قواعد التفكير الصحيح، لكن حفظ القواعد لا يعني شيئًا ما لم يصحَبه إحساسٌ ذاتيٌّ بأهميّة التفكير الصحيح، وإدراكٌ عميق بأن تلقائيّة التفكير من دون اكتساب مهارة التفكير السليم لا تؤدي إلا إلى الخطأ والوَهْم. فارتكاب الخطأ تلقائيّ، أما تجنُّبه فيتطلّب وعيًا به وحَذَرًا منه واحتياطًا له، وكذلك التلبُّس بالأوهام تلقائيّ. إن اكتساب التفكير السليم لا يتحقّق بحفظ قواعد المنطق، فلا بد من إدراك أولويّة وتلقائيّة الخطأ والوهم، وتلقائيّة كل النقائص والسلبيات مع شعور يقظ بالحاجة الشديدة إلى اكتساب المنطق السليم، ترافقه رغبةٌ ذاتية وممارسة مندفعة ومنتظمة تؤدي إلى تكوين عادة راسخة لينساب التفكير السليم منها انسيابًا تلقائيًّا. وكذلك الأخلاق، ليس المهم أن تحفظ أو تقرأ المعايير الأخلاقيّة أو تستمع إلى كثير من المواعظ، بل المهم هو الممارسة بانتظام ورغبة، فمع تكرار الفعل الأخلاقي النبيل يتحوّل الخُلُق إلى عادة راسخة ينساب منها السلوك تلقائيًّا.. لذلك يؤكّد وليم جيمس على ثلاثة محاور: المحور الأول هو الاهتمام الذاتي التلقائيّ، أما المحور الثاني فهو الانتباه والتركيز، وأما المحور الثالث فهو الممارسة وتكرار الفعل.

أما النتيجة فهي تكوين عادة راسخة ينساب منها الفعل، أو السلوك، أو التفكير تلقائيًّا. فليست الحياة سوى سلسلة من العادات الذهنية والسلوكيّة...

إن تكرار الفعل برغبة واستمتاع يؤدي إلى تَبَرْمُج القابليّات، إذ بتكرار الفعل تتكوّن في الدماغ مسارات وروابط تتعمق وتتضخّم بمقدار التكرار الشغوف فتنبني قابليّات الشخص إلى درجة التشبُّع، وبذلك تتكوَّن عادةٌ راسخة. فالعادة هي تعبيرٌ عن امتلاء القابليّات، فينساب منها التفكير والأداء والسلوك انسيابًا تلقائيًّا، أما المعلومات التي لم يستخدمها الإنسان عمليًّا ممارسة منتظمة كافية لتكوين عادة راسخة، ولم يتشبَّع بها كممارسة يومية، أو مارسها مضطرًّا بنفور وعدم رغبة، فإنها تبقى خارج بنيته الذهنية، فلا تصير من عتاده الذاتي التلقائيّ. لذلك فإن وليم جيمس قد كرّر التأكيد على أن فاعليّة الإنسان هي نتاج اهتمامه التلقائيّ الفطري أو اهتمامه التلقائيّ المكتسب...

إن الإنسان نتاجُ عاداته الذهنيّة والسلوكيّة، فالذي لم تتعوّد عليه لا يسعفك تلقائيًّا بل لا بد أن تبحث عنه حين تحتاجه، لأنه ليس عتادًا جاهزًا، فقابليّة التعود هي أهم القابليّات الإنسانيّة لذلك يؤكّد وليم جيمس ويشدِّد على الدور الحيوي المحوري لتكوين العادات الجيدة، فليس تفكير الإنسان وسلوكه ومهاراته وأسلوب حياته سوى سلسلة من العادات الضارّة أو النافعة، لذلك لا يتردد عن التأكيد بأنه: «كلما أسلمنا تفاصيل حياتنا الروتينيّة إلى زمام الآليّة التي لا تمتُّ إلى الجهد بسبب ولا تتطلّب تفكيرًا ولا مجهودًا، استطعنا أن نحرّر قوى العقل العليا لتؤدّي وظائفها اللائقة بها والمتخصّصة لها». إن مهمة العقل الفاحص الناقد هي الاكتشاف والتنقيب والمقارنة والتحقّق والإضافة والتصحيح والحذف، ومحاولة السيطرة على تلقائيّة الوعي، والتعود على تركيزه والبحث عن الجديد، وتكوين العادات تكوينًا عميقًا، إذ على الإنسان أن يكتسب عادات جيدة ونافعة: فكريّة وعمليّة راسخة تنساب منها المهارة والمعرفة والأخلاق والسلوك والأداء انسيابًا تلقائيًّا لتتفرّغ القدرات العقليّة العليا للمهمات الطارئة والمراجعة الفاحصة. إن مهمة الوعي هي القيادة وتحديد الاتجاه والغايات، وليس الانشغال بالتفاصيل التي يجب أن تفيض تلقائيًّا من العادات العميقة التي لا تتحقّق إلا بتكرار الفعل تكرارًا كافيًا ومستمتعًا...

لذلك يؤكّد وليم جيمس: «أننا خاضعون لقانون العادة، وأن: «مرونة المادة الحيّة

لجهازنا العصبي هي بالاختصار السبب في أن ما نأتيه بصعوبة في أول الأمر لا نلبث أن نؤدّيه بسهولة، وأخيرًا نتقنه إلى درجة أننا نأتيه بطريقة شبه آليّة، أو ربما بدون وعي مطلقًا». إن وليم جيمس شديد الإلحاح على دور العادات في حياة الإنسان، إنه يؤكّد أننا «مخلوقات تحكمها العادات». هذه الفاعليّة القصوى للعادات تستمد فاعليّاتها من مسارات مادية تتكوّن في الدماغ: «فالبشر يكوِّنون العادات الجديدة بصورة واعية مقصودة إذا أرادوا تحقيق نتائج معيّنة». وأوضح النماذج على تكوين العادات المقصودة اكتساب المهارات الرياضيّة، فهي بكل روعتها ليست سوى تدريب ومران متّصل تتكوّن به عادة راسخة، أي مهارة متدفّقة. لكن الناس عمومًا ما زالوا غافلين عن الدور الحيوي للتبرمُج أي الدور العظيم الذي ينهض به التعوّد على الأفكار والأفعال وانتظام الحياة وفاعليّات الإنسان، فبالتعوّد يأتي الأداء تدفُّقًا أو انسيابًا من غير جهد. إن الكثيرين من الناس يغفلون عن أنه لولا التعوّد وتلقائيّة الأداء في أكثر أمور الحياة لكانت الحياة الإنسانيّة غاية في المشَقّة، بل لكانت غير ممكنة، ولصار الاستغراق في الأعمال اليوميّة البسيطة صارفًا عن أي جهد إضافي تتقدم به الحضارة. فقابليّة التعود هي أعظم القابليّات الإنسانيّة إذا أُجيد استثمارها وهي أخطر القابليّات وأشدها ضررًا وأدْوَمُها بقاءً إذا تُركت للتبرمج التلقائيّ...

إن وليم جيمس في تأكيده الحاسم على دور العادة في حياة الإنسان: تفكيرًا وأداءً وسلوكًا، يتّفق مع كثير من الفلاسفة والعلماء وأهل الفكر مثل جون ديوي، ومثل رالف إيمرسون الذي يؤكّد بوضوح أن الإنسان لا يصبح مثقفًا بقراءة الكتب، بل بالعمل.. وهو يعني بذلك الاندفاع للعمل وتكرار الجهد وانتظام الممارسة. بذلك يعتاد الانسان على العمل بيُسر وانسياب ومهارة وإتقان حيث تصير المهارة متحفّزة تلقائيًا في كيانه، فتنساب منه انسيابًا، أو تتدفَّق تدفُّقًا بحسب درجة التوتر والامتلاء، ويتّضح ذلك تجسيدًا في أداء اللاعبين الماهرين حيث ينطلقون بتلقائيّة عجيبة مدهشة، وليس ذلك سوى ثمرة المران والتدريب والتشبُّع واكتظاظ القابليّات ورسوخ التعوّد والتبرمُج...

إن التفهّم العميق لدور التعوّد والتبرمُج لهو من أوجب الواجبات، ولكن هذا التفهّم ما زال غائبًا عن اهتمام مؤسّسات التربية والتعليم، وكما يؤكّد جيمس: «إن فضائلنا هي عادات مثلما تكون رذائلنا عادات، بل إن حياتنا برمّتها لا تزيد على كونها منظومة من

العادات العمليّة والانفعالية والفكرية، التي انتظمت في نمطٍ خاصٍّ لخيرنا وسعادتنا، أو لشقائنا وضررنا، وهي التي تحملنا إلى مصيرنا المحتوم... والعادات هي المادة التي يتشكَّل منها السلوك وهي لحمة التربية وسداها»، ولكن لا بد من التذكير بأنه يوجد عند الناس خَلْطٌ بين العادات والتقاليد، وهنا يجب التفريق التام بين التقاليد التي هي معايير اجتماعيّة، وبين العادات التي هي تبرمُج فردي يتحقّق بتكرار الفعل. فالعادات تتدفّق، أو تنساب تلقائيًا بحسب درجة الامتلاء والتشبّع والرسوخ، أما التقاليد فهي مثل المعلومات لا يتبرمج بها الإنسان إلا إذا كرّر ممارستها تكرارًا كافيًا لبناء عادة راسخة ليفيض منها السلوك تلقائيًّا...

إن ما يميّز الفلسفة البراغماتيّة هو تأكيدها الحاسم على الدور الحيوي للعادة، وكما يقول هنري أيكن في كتابه (عصر الأيديولوجيا): «شبَّت أميركا فلسفيًّا في أشخاص مثل بيرس ووليم جيمس وديوي، فأكد دعاة فلسفة البراغماتيّة هؤلاء باقتناع وتأكيد متزايدين، أن وظيفة الفكر بأسرها إنما هي إيجاد عادات سلوكيّة. ورأى بيرس أن معنى أية فكرة لا يمكن تحديده إلا بملاحظة العادات السلوكيّة التي تؤدي إليها، وأوجز رأيه في قوله: إن معنى الشيء ليس إلا ما ينطوي عليه من العادات». فالإنسان في تفكيره وسلوكه ومهاراته وتنوّع صنوف تعامله ومستويات أدائه ما هو إلا نتاج ما تعوَّد عليه واكتنز به، وكل فرد هو مجموع عاداته الذهنية والسّلوكيّة. أما الذين يتجاهلون هذه الطبيعة البشريّة الأساسية فسوف يحرمون أنفسهم من فهم ذواتهم ويخسرون العامل الأهم في تكوين كفاياتهم. إن من يتفهَّم البراغماتيّة يتضح له أن معظم الذين ينقدونها من خارجها لم يحاولوا فهمها، وإنما نقدوها بدوافع أيديولوجية محضة...

ومثل غيره من الفلاسفة وعلماء النفس، يؤكّد وليم جيمس أن الإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ، وأن اهتمامه برأي الناس فيه يؤثّر تأثيرًا شديدًا على سلوكه. فالفرد لا يشعر بذاته إلا بمقدار اعتراف الآخرين به وتقديرهم له: «وعندما يتم الاعتراف بتلك الذات فإن ما يشعر به من رضا يتجاوز كل الحدود». ولا يتوقّف ذلك على مَكانة الفرد ولا على أهميّة الآخرين، بل لو كان المرء يحتل أعلى المراتب الاجتماعيّة فإنه يهتم برأي عامة الناس به. وكما يوضح جيمس: يهمّنا إثارة اهتمام الناس كلهم، حتى غير المهمّين، فالتنافس على المنزلة والأهميّة من أقوى عوامل السلوك...

إن إسهامات وليم جيمس عظيمة ومتنوّعة وتأتي في الصميم، وعلى سبيل المثال هو كان الأسبق إلى اكتشاف وتأكيد فكرة التفكير الافتراقي، وهي فكرة ذات قيمة إبداعيّة عظيمة، لأنها فتحت آفاقًا كانت مغلقة ومجهولة، واشتهر بالترويج لها المفكر إدوارد دوبونو حتى كادت تستغرق جهده العظيم. ومع عدم التقليل من أهميّة الدور العظيم الذي نهض به دوبونو، لكن لا بد من التأكيد أن جيمس قد سبقه إلى ذلك. وقد كتَب: «بدلًا من التفكير في الأشياء العيانيّة المحسوسة بصبر ورويّة، وهي الأشياء التي تتراص جنبًا إلى جنب وكأنها في مضمار سباق ممهَّد من الافتراضات الذهنيّة المعتادة، علينا التفكير في أوجه الشبه والاختلاف التي تشيع بينها، والتفكير في التحوّلات من فكرة إلى أخرى، حيث نقف على أكثر مجموعات العناصر شبهًا واتفاقًا، بحيث نحصل منها على أفكار لم يسبقنا إليها أحد من قبل، ونصوغ ترابطات دقيقة وأصيلة من المتماثلات والمتشابهات في مفهوم أو كلمة واحدة، الأمر الذي يبدو معه أننا ندخل فجأة إلى خضمٍّ هائجٍ من الأفكار يترابط الشركاء منها معًا ويتباعد المختلف، ولا يعرف الروتين الفكري المضجر لنا طريقًا، في حين يصبح التفكير غير المتوقّع والمتجدّد الأصيل هو القانون الأوحد». إنه التفكير التباعدي، أو التفكير الافتراقي. ويعني اعتراض التفكير التلقائيّ الرتيب لحَمْله على الانتباه وتغيير المسار، للبحث عن المختلف والمغاير والجديد. فلا إبداع ولا حلول للمشكلات إلا بذلك. وقد قال آينشتاين: «لا يمكننا حل مشكلةٍ ما باستخدام العقلية نفسها التي أنشأتْها»...

وأشار إلى ذلك روبرت ألبرت ومارك رونكو في بحثٍ لهما بعنوان (تاريخ البحث الإبداعي)، وهو منشور ضمن مجلّد ضخم يضم مجموعة من البحوث تحت عنوان (المرجع في علم نفس الإبداع)، من تحرير عالم النفس روبرت ستيرنبرغ. ومما جاء فيه: «أما التفسير فيمكن أن نستقرئه من كتابات وليم جيمس، حيث سنقف على إدراكه العبقري لقيمة البحث العلمي والحقيقة التجريبية، مما يجعل فكره ملهمًا لفكر وإدراك غولتون المبكر لقيمة التجربة، كما يمكننا أن نقف على عمق فهم وليم جيمس من خلال محاضراته التي دحضت كل المزاعم الذائعة الصيت في ذلك الوقت حول القدرات الإبداعيّة. لقد وضع وليم جيمس أسس فكرة التفكير الافتراقي، حيث كان أول من فهم مدى ندرة التعقيد الفكري». كما أشار الباحثان إلى ريادة وليم جيمس في بحوث الفروق الفردية في الذكاء، وإلى أنه كان قد أنشأ أول مختبرٍ نفسي لهذا الغرض...

ومما له علاقة وثيقة بهذا دعوة وليم جيمس إلى تمرين الذات على الانتباه، وإبعاده عن التشتّت. فقد كتب: «إن القدرة على الاسترجاع الطوعي للانتباه المشتّت مرةً تلو الأخرى هو أساس القرار والشخّصيّة والإرادة.. والثقافة التي من شأنها تحسين هذه القدرة هي الثقافة الأفضل بلا منازع». إن هذه التقنيّة هدفها تكوين عادة السيطرة على الانتباه، فهذه العادة هي الطريق إلى تركيز الانتباه واستثمار الوعي وحمايته من التشتّت التلقائيّ...

إن نيك لين، في كتابه (ارتقاء الحياة)، يستدعي وليم جيمس بوصفه: «الأب العبقري المؤسّس لعلم النفس الحديث»، ويستعرض أفكاره حول مادّية المشاعر وفاعليتها وكونها ذات وظائف بيولوجيّة، بما في ذلك الوعي ذاته. كما يشير إلى أن جيمس هو: «البطل المبجَّل في نظر كثيرين من علماء الأعصاب المرموقين اليوم»، وهذا يؤكّد أنه كان سابقًا لعصره سبقًا هائلًا، لأن علماء الأعصاب قد ساروا على طريق وليم جيمس، فتوصَّلوا عند نهاية القرن العشرين وما انصرف من القرن الحادي والعشرين إلى نتائج عظيمة مغايرة لما كان متصوَّرًا بشأن طبيعة الدماغ ووظائفه وقابليّاته وإمكاناته والكيفية التي يتكوّن بها العقل والوجدان...

لقد كانت أميركا تنظر إلى وليم جيمس باعتباره الحكيم الأعمق فهمًا للطبيعة البشريّة، وما ينجم عن هذه الطبيعة من سلوك وأوضاع، لذلك طلبت منه الجمعيّة الأميركيّة للتوفيق الدولي رؤيته عن الأوضاع الإنسانيّة وكيفية معالجة التوترات. ومع أنه يؤمن بتلقائيّة الجماهير وأصالة الشر في الطبيعة البشريّة، فقد كتب: «لغريزة الصيد أصلٌ عميق في تطوّر الجنس البشري.. يجتمع الصيد وغريزة القتال في كثير من المظاهر؛ ذلك لأن الوحشيّة البشريّة جزءٌ بدائيٌّ داخلنا يصعب استئصاله»، إلا أنه يؤمن بأن حكمة العظماء قادرة على دفع الحياة البشريّة باتجاه التقدّم المستمرّ فيوضح: «إن العالم بدأ يدرك أن ثراء أيّ أمَّة هو قبل كل شيء في عدد الأفراد المتفوّقين الذين تضمّهم، فالعبقريّات خمائر، وعندما تظهر فإن الشعب كله يبدو وكأنه يتقاسم الطاقة العليا التي تنبثق من تلك العبقريّات». وكما يقول كريستوفر كوكر في كتابه (الحرب في عصر المخاطر): فإن وليم جيمس كان يؤمن بالتقدّم، ويرى أن استمراره من المسلمات: «لقد كان جيمس يؤمن بالسلم ورفْض الحرب، وتضمّنت الأفكار العظيمة أكثر فكرة إغراءً وإقناعًا من بين

الأفكار جميعًا، ألا وهي: عالَمٌ من دون حرب». ولكنه كان يؤمن بأن فاعليّات الإنسان مشروطة بالتنافس وأن: «العاطفة التنافسيّة هي قدَرنا». وكان كما يقول كوكر: «معجبًا بالصفات العسكرية مثل السلوك الجسور وازدراء النعومة وطاعة القيادة... وكان واقعيًّا وآمن بأن المنهج الواقعي للعلاقات بين الأمم هو وحده المنهج الجاد أخلاقيًّا للسّياسة... ويجدر بنا أيضًاح أن جيمس اعتقد بأن الحرب جزءٌ من مأساة الحياة، وهذا لا يعني أنها جزءٌ ثابت من الكينونة الإنسانيّة، وقد دعانا لتصوّر عالم من دون حرب. ويصرّ جيمس على أنه ينبغي تحويل الآمال، مثل السلام، إلى واقع في الخبرة البشريّة، لا أن تبقى مجرد آمال بشريّة». إن من يفهم الطبيعة البشريّة بعمق، ويتعامل مع الأوضاع البشريّة من دون أوهام، يدرك أن الإنسانيّة ما زالت تعيش في مستوى تعيس موغل في الانحطاط والعجز عن التبصّر، فالبشريّة متخلّفة غاية التخلّف من الناحية الفكريّة والأخلاقيّة مهما بلغت عظمة الإنجازات وتوافر الإمكانات وروعة الوسائل...

بعد الإسهام الكبير لوليم جيمس في علم النفس تحوَّل إلى الفلسفة، فأصدر كتابه (إرادة الاعتقاد)، ثم أعقبه بكتابه (صنوفٌ من التجربة الدينيّة)، ثم أصدر كتابه (البراغماتيّة)، وتلاه كتابه (الكون المتعدد)، ثم كتابه (معنى الصدق)، ثم (التجريبية الجذرية)، وخَتَمَ إنجازاته الفلسفيّة بكتاب (بعض مشكلات الفلسفة). ولعل القارئ يتذكَّر من يعرفهم من الأطباء ثم يقارنهم بصاحب هذه الإنجازات العظيمة المتنوّعة الزاخرة بالتفرُّد والعمق والاتساع والتنوع والابتكار والريادة. إن الناس لا ينتظرون من أي طبيب إلا أن يجيد مهنته، فإذا حقّق ذلك فقد وفّى وأنجز الوعد المهني، أما أن يكون فيلسوفًا، أو مبدعًا في مجال الأدب، أو في أي مجال من مجالات الإبداع، فهذا مستوًى استثنائيٌّ لا يحصل إلا نادرًا من أفراد خارقين من أمثال وليم جيمس...

ولأن الإنجازات العلميّة والفكرية لوليم جيمس كانت ذات تأثير واسع وعميق، سواء على المستوى الأميركي أم على المستوى العالمي، فقد وجَدَتْ هذه الأفكار من يُعجَب بها ويتعصَّب لقائلها، ومَنْ يقف ضدها وينتقدها، وفي الحالتين كانت الإثارة مصدرًا ثريًّا لخصوبة الثقافة الأميركيّة وتنامي الأفكار الخلّاقة...

لقد دخل وليم جيمس في مناقشات واسعة وعميقة مع كثيرين من أبرز رجال

الفلسفة، أمثال بيرس وبرادلي ورويس ثم جون ديوي وشيلر، ثم ظَهَرَ فلاسفة آخرون واصلوا النقد والتأصيل البراغماتي، ويأتي في مقدّمتهم ريتشارد رورتي صاحب كتاب (الفلسفة ومرآة الطبيعة)، وغيره من الأعمال الفلسفيّة المثيرة...

وعمومًا فإن المكانة الفكريّة والعلميّة والفلسفيّة، بل والادبيّة، لوليم جيمس ليست موضوعًا للجدل، فتأثيره في أميركا يفوق تأثير أي فيلسوف آخر.. ويسترشد به العلماء والمفكّرون. فالعالم الشهير برونوفسكي يقول في كتابه (العلم والقيم الإنسانيّة): «وقد استنبطتُ منهجي من تراث البراغماتيّة التي تُعَدُّ أكثر المدارس الفلسفيّة أصالة في أميركا منذ أن طوَّرها وليم جيمس». فقد جاءت ولادة هذه الفلسفة في مقالة كَتَبَها تشارلز بيرس، ولكن ثراءها الحقيقي جاء من وليم جيمس ثم جون ديوي ثم رورتي...

يقول صول بادوفر في كتابه (روح أميركا): «بلغ الفكر الأميركي مع وليم جيمس سعَةَ نظر.. وتسامحًا وسطوعًا في التعبير لا يُضاهى.. اخترق عقله أطياف التجربة الإنسانيّة.. كان عقلًا متفتّحًا.. حيًّا.. شكوكيًّا.. متجهًا إلى البحث والارتياد والتجريب بلا توقف.. إن أفكاره أثَّرَتْ تأثيرًا قويًّا على الفكر والحياة الأميركيّة: المؤسسات التعليميّة والمناهج التربوية والدراسات السيكولوجية والفلسفيّة...». لذلك فإن وليم جيمس يُعَدُّ شاهدًا قويًّا من شواهد نظرية (عبقريّة الاهتمام التلقائيّ)، بل يكاد يكون بتحوّلاته المتعدّدة وإنجازاته العظيمة المتنوّعة شاهدًا كافيًّا، لأن قوة أيّ سلسلة تقاس بأضعف حلقاتها وليس بأقواها. فهذا النموذج وأمثاله يُقَدِّم برهانًا ساطعًا على أن المعوَّل عليه في كفايات الإنسان هو اهتمامه التلقائيّ القوي، وليس الاهتمام الإكراهي الاضطراري كما هي حال أكثر الدارسين والعاملين...

لقد صدرت عن وليم جيمس وفلسفته آلاف الدراسات، لا بصفته طبيبًا بل بصفته عالم نفس منظِّراً ومؤسِّسًا، وبصفته فيلسوفًا محوريًّا في الفلسفة المعاصرة. إن أميز ما يميّز أي فيلسوف هو أن يكون له رؤية محدَّدة عن الحقيقة، وأن يكون له موقف ملتزم بهذه الرؤية. كما أن من أبرز صفات الفيلسوف تقديم الشك وجَعْله أولويّة دائمًا، والحرص على التحقّق بكل ما هو ممكن من الوسائل، وأن يستبقي الأبواب مفتوحة للمراجعة والتدارك والتصحيح. ولكن كل هذه الشروط لا تتعارض مع الحماسة

الشدّيدة والاهتمام القويّ المستغرق، فلا إنجاز من دون ذلك. إن حماسة الفيلسوف واهتمامه القوي المستغرق لا يكون إصرارًا على الإثبات ولا تمسُّكًا بالنفي، وإنما هو بحث عن الحقيقة واستغراق في البحث عنها، ويستوي عنده أن يتأكّد الإثبات أو أن يتعزّز النفي. إن القيمة المحوريّة التي تُحَرِّك نشاطه وتُلهب عقله هي قيمة الحقيقة ذاتها، فهو يكون مندفعًا للتحقّق، سواء أسفر البحث عن إثبات أم انجلى عن نفي، أم تمخَّض عن توقُّف وتأجيل الحكم إلى حين تتوافر معطيات جديدة تُرجِّح النفي أو تُرجِّح الإثبات، فالأحكام تقوم على الترجيح وليس على القطْع...

إن أهميّة أي فيلسوف أو مفكر أو باحث تتجلّى في رؤيته لمعنى الحقيقة وموقفه منها، فإذا انطلق أيُّ باحث من توهُّم أنه يملك الحقيقة المطلقة، أو أنه ضمن ثقافة تقوم على هذا الادعاء، سيصير هَمُّه إبراز وتأكيد وتبرير ما يتوهم أنه حقائق مطلقة. وبهذه الرؤية التبريريّة لا يكون باحثًا موضوعيًّا ولا عالمًا، وإنما هو داعية أو واعظ يحاول تبرير أو تأصيل بداهات تبرمَج بها تلقائيًّا، ولم يكن للعقل الفاحص الناقد أي دور في تكوينها. إن مهمّته في هذه الحالة التبريريّة تشبه دور المحامي الذي يركّز على إنجاح موكله، لذلك كان الدُّعاة المسيحيون يُسَمَّون (مبشّرين)...

لقد أدرك وليم جيمس بأن المعضلة البشريّة الكبرى هي أن المجتمعات تتوارث البداهات الخاطئة، وتظل مؤمنة بهذه البداهات إيمانًا أعمى، فيشرح: «لقد آمن الناس بأي شيء اعتقدوه، أو ظنّوه، أو فكروا فيه بقوة، أو شدّة، أو نشاط، وخلطوا أحلامهم بحقائقهم تعقيدًا وتشابكًا»، وكان يستنفر الناس بأن يحتفظوا دائمًا بالشكِّ بالبداهات...

وهو يؤكّد أن الناس عمومًا يبقون مأسورين بالبداهات التي اعتادوها وتبرمَجوا بها، أما الإفلات من هذا الاستسلام للبداهات غير الممحّصة فهو شأن القلّة فقط، فيوضح: «العقول المحبّة للاستطلاع فقط قد نبذتْ مستوى البداهة وآثرت المستوى النقدي للتفكير». إنَّ كل إنسان في مختلف المجتمعات ينظر إلى الأمور بواسطة بداهاته التي تكوَّنت فيه تلقائيًّا، فهو محكومٌ بها وليس حاكمًا لها، وتحريره من بداهاته ليس بالمهمّة السهلة، بل إن هذا التحرير من البداهات يشبه إعادة التكوين الذي لا بد أن يسبقه الهدم، فالفرد المبرمَج يقاوم بشراسة أيّ محاولة تستهدف تحريره مما تبرمَج به، لأن عقله

وعواطفه وعاداته الذهنيّة والسلوكيّة قد تشكّلت بهذا التبرمُج فهو تابع للبرمجة وليست تابعة له...

لذلك فإن التحقّق يكاد يكون محالًا، لأن البداهات السائدة تحتمي بغبطة الجهل المركّب، فلا بد من زلزال فكري يخترق البداهات المستقرّة. وكما يقول وليم جيمس: «إن العلم والفلسفة التمحيصيّة يخترقان حدود البداهة». ولولا هذه الاختراقات الفرديّة الرياديّة المتكرّرة، وعمليات الهدم المتعاقبة للمستقر من البداهات واستبدالها ببداهات جديدة لما تقدّمت العلوم والأفكار والحضارة...

لقد لاحظ وليم جيمس أن الغبطة التلقائيّة بالسائد قد عطّلت قابليّات البشريّة في كل المجتمعات، لذلك يلفت الأنظار بمرارة إلى الحقيقة التاريخيّة الصارخة حول ندرة المنفكّين من هذه الغبطة المخَدِّرة، فيوضح: «في الأصل كانت هذه الأشياء وجميع النظم الأخرى ومضاتٍ عبقريّةً في رأس فرد لا تدل البيئة الخارجية عليها بأية علامة، وإذا احتضن الجنس البشريّ هذه الأشياء والنظم غدت تراثه. وهذه الومضات حوافز لعبقريّات جديدة تنهض بابتكارات وكشوف جديدة، وهكذا يتحقّق التقدّم. ولكن أخرج العبقريّات جانبًا، أو عدِّل جبلاتهم فماذا عسى أن تزودك به البيئة من اتساقات متزايدة؟». فالانتظام على السائد هو الأصل التلقائيّ، أما الإفلات من قبضة هذا الانتظام التلقائيّ فهو حالة فرديّة استثنائيّة، ولكنه مفتاح التغيير. فهؤلاء الأفراد الاستثنائيّون هم روّاد التقدّم وحُداة الوثوب إلى مستوى أرقى...

وخلافًا للفهم الشائع عن فلسفة وليم جيمس من أنها فلسفة نفعيّة ذرائعيّة محضة ذات أهداف عمليّة فقط، فإن حقيقته هي عكس ذلك تمامًا. فكل اندفاعاته في البحث كانت نتاج الرغبة القويّة الملحَّة في التحقّق، ثم إنه بعد رحلته الشاقّة الممضّة في البحث، انتهى في كتابه (البراغماتيّة)، إلى القول: «ومن الجليّ أن الصراع الناشب بين النظم المتباينة الشديدة الاختلاف يحملنا على أن نفحص بدقةٍ وإمعانٍ: فكرةَ الحقيقة ذاتها». فالرغبة في التحقّق كانت المحرّك العميق والقوي والدائم لكل جهوده، فكل ما تمخّضت عنه تجربته من علم وفلسفة وريادة قد جاءت نتاجًا لاهتمامه القوي المستغرق بالحقيقة، فهو لم يندفع إلى البحث اختيارًا محضًا، وإنما كان مدفوعًا بتوقُّد داخلي عميق حول الحقيقة...

وبالمستوى نفسه من الاهتمام العميق بالحقيقة كان وليم جيمس أخلاقيًّا إنسانيًّا بأرفع ما تعنيه الأخلاق، وكان يشمئزّ من الذين لا تتّفق أفعالهم مع أقوالهم. وبسبب هذه الرؤيّة الأخلاقيّة الصارمة وجّه انتقادًا حادًّا للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسّو بسبب تخلّيه عن أطفاله حيث تعارض فعله مع فلسفته التربويّة، فكتب جيمس عنه: «ليس هناك صنف من البشر أدعى إلى الاحتقار من الرجل الحالم المغرق في العاطفة، الرجل الذي يقضي حياته في بحر موحل من العاطفة والانفعال من دون أن يصنع عملًا محسوسًا واحدًا يتميّز بالرجولة؛ وخير مثال لهذا الصنف من الرجال هو روسّو الذي دفع بفصاحته جميع الأمهات في فرنسا إلى اتباع الطبيعة وتربية أطفالهن بأنفسهن، في حين أرسل هو أطفاله إلى ملجأ للقطاء». لقد نقلتُ هذا النصَّ لوليم جيمس لأنه أصدق تعبير عن رؤيته الأخلاقيّة؛ نقلته، رغم إعجابي الشديد بذلك الفيلسوف المدهش روسّو، لأن هذا النصَّ وأمثاله كثير يدحض تهمة النفعيّة المحضة للبراغماتيّة...

إن وليم جيمس قد حاصره في شبابه الشك وأضنته الحيرة وأمضّه القلق، وهذه كلها ليست اختيارًا وإنما هي تَوَقُّدٌ داخلي تلقائيّ ينبجس من أعماق الذات تلقائيًّا.. لذلك يجب التأكيد الجازم أن شغف وليم جيمس بالحقيقة هو محرّك جهوده، وهذا الشغف بمعرفة الحقيقة هو الذي جعله يترك مهنة الطب وينصرف بكل طاقته للبحث والتحقّق. وكما وصَفَهُ الفيلسوف الفرنسي هنري بيرغسون: «فما من أحد أحبَّ الحقيقة حُبًّا أَحَرَّ من حبّه، وما من أحد بَحَثَ عنها بمثل هواه». إن هنري بيرغسون يقدِّم هذه الشهادة عن وليم جيمس عن معرفة مباشرة، فهو يعرفه حق المعرفة رغم أنهما مختلفان في الاتجاه الفلسفي. فوليم جيمس هو الفيلسوف الأشهر للبراغماتيّة، بينما بيرغسون معروفٌ بفلسفته الحدسيّة. فهو صاحب كتاب: (التطوّر الخلّاق)، و(الطاقة الروحية) و(منبعا الأخلاق والدّين)، وغيرها من الإنجازات الفلسفيّة ذات المنحى الفكري الحدسي المتميّز...

إن وليم جيمس الشاب، الشاكّ، الحائر، القلق، يختلف عن وليم جيمس الفيلسوف الناضج، الواثق، المستقرّ. ففلسفته المستشرفة الواثقة، المفتوحة، المرنة، المضيئة، الفاتحة هي فلسفة المغامرة التي طبعت الثقافة الأميركيّة، والحياة الأميركيّة بهذه الروح الخلّاقة، وبهذه المرونة المنتجة، وهذا الإقدام الواثق، وهذه القدرة على الانطلاق الحر الخلّاق. لقد اكتشف وليم جيمس رحابة الحقيقة، وتنوع واتساع آفاقها وتنوّع

دلالاتها، وحَرَص على أن يحرّر العقل البشري من الأحكام المسبقة، وأن يفكَّ أسره من التصورات المقرّرة المعيقة، فحَرَكَةُ الحياة هي المعيار وهي القادرة على الفرز والتحقّق. يقول إميل بوترو: «فلسفة جيمس في جوهرها مفتوحة، فهو يمضي إلى الأمام بإقدام وليس له من مرشد سوى التجربة»، وهو لا يعني التجربة الاختبارية في المختبرات، وإنما يعني التجربة بأوسع معنى يمكن أن تمتد إليه، إنها تجربة الحياة بكل أبعادها: فكرًا وعملاً وتطلعًا. فالحياة المتفاعلة، الفاحصة، المنفتحة، اليقظة هي المعلِّم وهي المدرسة وهي الجامعة وهي المعيار لصحة أو خطأ التصورات...

إن وليم جيمس، بعد تجربته الفكرية الجيّاشة العميقة، صار يكره التأطير ويحذِّر من التقييد، ويدعو للجسارة والتحرّر والإقدام والانطلاق الخلّاق، وكما قال عنه جورج سوريل: «.. وليم جيمس يقول لأبناء وطنه إن عليهم أن ينعتقوا من وصاية الجامعات الأوروبية، وقد حثّهم على التفكير بصدد الأشياء كلّها، مثلما جرت بهم العادة على التفكير بأخطر شؤون حياتهم الاجتماعيّة». إن وليم جيمس بهذه الفلسفة المفتوحة المنطلقة يريد من الناس ألا يكونوا إمَّعات، وأن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم، وأن ينطلقوا على سجيتهم جسورين، مغامرين لا تعوقهم تصوّات مسبقة، ولا مسلَّمات غير مفحوصة، ولا عادات سائدة، وأن يستجيبوا للمؤثّرات بفاعليّة وإيجابيّة وجسارة وفق ما تمليه الظروف وتدل عليه تجارب الحياة. وهنا قد نلْمح شيئًا من التأثُّر بفلسفة توماس بين صاحب فلسفة الحسّ السليم، أو الحس المشترك، أو الحس العام، أو الإدراك البديهي...

أما جون ديوي فيشيد بوليم جيمس تكرارًا، كما ينوّه بأهميّة تأكيده الاتحاد الحميم بين التجربة والمعرفة والانفعال. فيؤكّد ديوي الصّفة الريادية لوليم جيمس وعلى تأكيده: «ضرورة بناء الفلسفة الاختبارية على قاعدة أن التجربة تَتَّحد اتحادًا حميمًا بالانفعال والمعرفة، لقد كان جيمس رائدًا». إن فاعليّة الإنسان لا تتفتَّق إلا حين تلتحم العاطفة بالعقل، وتمتزج المعرفة بالواقع، وينفتح الإنسان على التجربة بكل الأبعاد والآفاق. إن فلسفة وليم جيمس تؤكّد أن الواقع دينامي ومتعدِّد الأبعاد، فلا بد من الانفتاح على كل الاحتمالات، والتطلع إلى كل الآفاق والسماح، بالتنوع والتعدد واستبعاد الحتميّات والالتزام بالمرونة، فكل شيء مرتَهنٌ بالصيرورة، وما من شيء ناجز ومغلق

بشكل نهائي. إن وليم جيمس يحارب العلمويّة والقطْعيّة ويناهض الانغلاق والتحجّر ويستهجن ادِّعاء الامتلاك المطلق للحقيقة، ويدعو الإنسان إلى التواضع والتخلّي عن اليقين الأعمى، ويحث على التجريب الجريء، فخصوبة الحياة بمقدار تَنَوُّع التجارب وتعدُّد المسارات...

إن الريادة العلميّة والفلسفيّة العالية لوليم جيمس هي ريادة معترف بها علميًّا وفلسفيًّا على المستوى العالمي، فالحديث عنه وعن فلسفته وعلمه لا يتوقّف، ويوجد أمامي كتاب ضخم عنه يقع في 665 صفحة بعنوان (أفكار وشخصية وليم جيمس)، كتبه عنه الفيلسوف الأميركي الكبير رالف بارتون بيري، وهو مثالٌ للمؤلّفات الكثيرة التي صدرت عنه، وفيه: «الفلسفة عند وليم تبدأ بالشكّ والارتياب ويتعيَّن بصفة دائمة اختبارها على هذا المحك»، إنه ليس شكًّا مطلقًا، وإنما هو الشك المنهجي الذي يعتمد على التجربة ويستهدف التحقّق.. وما يؤسَف له أن الكثيرين ما زالوا يجهلون الفاعليّة الإيجابيّة العظيمة للشك المنهجي، فلولا الشك في المألوف لما تقدمت العلوم وتطوّرت الحضارة. إن الشك هو محرك العقل وهو مُشعِل الفكر وهو صانع التقدّم في الفلسفة والعلم والأخلاق والحضارة. فلم يتفتَّح العقل اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد إلا حين تَمَّتْ إشاعة الشكّ الموقظ، وساد استهجان الوثوق البليد، وجرى إشعال الجدل الإيجابي المحرِّك والاحتفاء بالفكر الحرِّ. ولم تستيقظ أوروبا من سبات العصور المظلمة إلا حين جرى رفع راية الشكّ، ووضْع المألوف تحت مجهر التحليل وضغْط المحاكمة العقلانية، فتحركت العقول وانشغل الأفذاذ بالتحقّق، واندفعت الشعوب الأوروبية خلف روادها تقتحم المجهول وتكتشف الأعماق وتتخلّى عن المسلَّمات المتحجّرة وتنبذ الأوهام المعيقة، فيستعيد الناس فرديّاتهم المسلوبة. ولكن لا بد من تأكيد أن استجابة أوروبا لروّادها لم تأتِ تلقائيًّا ولم تتحقّق بسهولة، وإنما سالت دماءٌ غزيرة وأُزهقتْ أرواحٌ كثيرة، لكنها في النهاية تنتقل من مرحلة إلى أخرى. فليس من طبيعة الأمم أن تتخلّى عمَّ أَلِفَتْه واعتادت عليه وتبرمجتْ به، ولكن اثبتت المجتمعات الأوروبية أنها الأقل ممانعة، والأكثر قابليّة للاستجابة الإيجابيّة والتطوّر. فهناك ثقافات لا تزداد إلا انغلاقًا مهما تواتر ظهور الروّاد، ومهما ساءت الأوضاع. ففي البيئة العربيّة ظَهَرَ روادٌ عظماء من أمثال: ابن رشد وابن الهيثم وابن النفيس والفارابي

والخوارزمي وابن سينا والمعرّي والكندي، وغيرهم. لكن البيئة حاربتهم في زمانهم وما زالت ترفض أفكارهم وتحارب أي رائد يظهر بعدهم. وهنا يجب أن نكرّر بأن معيار التحضُّر هو القدرة على التغيُّر، فالثقافة العربيّة ترفض الشكَّ وتستهجن دعوات المراجعة، لذلك بقيت تزداد تخلّفًا كلما تقادم الزمن، فهي محكومة بقانون العطالة التلقائيّة وقانون الانتروبيا، بينما الثقافات الأخرى تنفتح على المغاير ولو بعد تلكؤ وممانعة، وفي النهاية تستجيب استجابةً إيجابيّة لروّادها وتستفيد من مبدعيها...

لقد كان الشكُّ المنهجي هو الشرارة التي أشعلت العقل الأوروبي، فاندفع يتحرّر من مسلَّماته المعيقة ويتخلّص من أوهامه، فصار يُنتج المعرفة بدلًا من أن يتلقّاها.. أعلن فرنسيس بيكون أن ترديد أقوال الأسلاف لا يضيف جديدًا، وإنما هو ترديدٌ ببغاويٌّ عقيم يتحجَّر به العقل وتتجمّد به الأوضاع وتبتئس به الحياة، وصاح بالناس: «إذا بدأ الإنسان باليقين فسينتهي إلى الشك، وإذا بدأ بالشكّ فسينتهي إلى اليقين»، وسفَّه تقديس الماضين مهما بلغت عظمتهم في أزمانهم، وشنَّ حملةً شديدة ضد أرسطو.. ليس نفيًا لعظَمَته، إنما لا يصح أن تبقى الإنسانيّة مرتَهنة لأقوال فرد من الناس مهما بلغ من التفرّد والعظَمة، فالحياة يجب أن تعاش كمغامرة متجدّدة وليس استسلامًا مهينًا.. والآفاق الواعدة مفتوحة للجميع، فأرسطو استثمر قابليّاته فأبدع ولكن إبداعه لا يعني نهاية الإبداع، وإنما هو أحد رواد البدايات الإيجابيّة...

ثم جاء ديكارت وأسَّس الشكّ المنهجي، وبهذا التأسيس صار ديكارت مؤسِّس العصر الحديث ومُلهمه، ففي الشك يخرج العقل من قوقعته التلقائيّة وينعتق من قصوره، ويستيقظ من سباته، ويتحرّر من قطعياته، ويستعيد فرديته، وينفتح على كل الآفاق في الكون والحياة، وبهذا يثق الإنسان بنفسه فيستثمر كنوز قابليّاته ويصير منتجًا للمعرفة النامية، وبهذا الإنتاج الممتد والمتنوّع تأسست العلوم ونمت التقنيّات وتطوّرت المعارف وتقدمت الحضارة وتحقّق للإنسانيّة ما لم يكن يتخيّله أعظم العقول خيالاً وعبقرية، وكان ذلك من ثمار إشاعة الشكّ الذي يستهدف الخروج من الغبطة العمياء، واعتماد التحقّق وتمجيده وتأكيد أهميته. وقد كان مونتانيه وبيكون وديكارت وبايل ولابروير وسبينوزا ولوك وهيوم وكانط وفولتير ومونتسكيو وديدرو وروسو.. من أبرز الرواد الأفذاذ الذين تقدّموا المسيرة الظافرة...

وفي أميركا صاح بالناس الفيلسوف الأميركي إمرسون: «لا تذهب إلى حيث يقودك الطريق، بل اذهب إلى أرض لم يطأها أحدٌ قبلك واترْك أثرك». هكذا انطلق وليم جيمس فكَسَر أطواق المألوف وحَلَّق في آفاق المجهول وأنجز أعمالاً ريادية علميّة وفكرية خارقة، فترك في الناس آثارًا لا يمحوها الزمن مهما امتد...

إن الفلسفة عند وليم جيمس ليست انشغالًا بالعاجل ولا استغراقًا بالعابر، كما حاول البعض أن يفهمها، ولكنها بحثٌ صادقٌ ممضّ عن الحقيقة الحيّة القادرة على الإقناع العقلاني. فقد أرعبته في شبابه الاختلافات الحادة بين الاتجاهات المتناحرة، حيث رغم التناقضات الصارخة بين المختلفين، فإن كل طرف يدّعي أنه هو وحْده الذي يملك الحقيقة المطلقة، وأن كل المغايرين على الضلال المبين، فأرهقه البحث الممضّ عن الحقيقة. ولذا يقول عنه الفيلسوف رالف بارتون بيري: «كانت الفلسفة عنده سعيًا في طلب الحق». إن سيرة وليم جيمس تكشف عن شخصية حسَّاسة وشفافة وصادقة وفذَّة، فقد كانت الحقيقة المطلقة هي غايته. ولكنه بعد البحث العميق الشاقّ والاستغراق الطويل المرهق، اكتشف أن الحقيقة شديدة التمنُّع، وأنها محجوبة بألف حجاب، وأنها تتلوَّن بألف لون. فارتاحت نفسه بهذا الكشف وبارَحَه التوتّر والوجل، وقنع بأن يتقبَّل الحقيقة كما تظهر له بعيدًا كل البُعْد عن أوهام الامتلاك المطلق، مع اقتناع تام بأن ما توصَّل إليه يجب أن يعيه الجميع ليكفُّوا عن الاقتتال بسبب أوهام اعتقدوا أنها حقائق مطلقة، في حين أن ما ندركه ليس أكثر من ملامح باهتة لما نسعى إليه من التحقّق. وحسبنا ذلك، فالحقيقة المطلقة ستبقى من المحالات، وبمقدار توهُّم امتلاكها يكون البُعْد عنها، فهي لا تنجلي بعض الانجلاء إلا للذين يدركون خفاءها ويكافحون من أجل مقاربتها لا امتلاكها. أما الذين يتوهّمون أنهم يمتلكونها فإنهم لا يسعون إليها ولا يبذلون الجهد للتحقّق منها، فمن يتوهّم امتلاك شيء لا يسعى لامتلاكه. إذ كيف يسعى لشيء يعتقد أنه في حوزته؟!!...

كان وليم جيمس يؤمن بأن هذا الفهم للحقيقة يمثل منعطفًا حاسمًا ينبغي أن يعيه الناس، فلو أدرك ذلك قادة الفكر وتبرمَج عامّة الناس بهذه النتيجة الباهرة لتغيّرت الحياة الإنسانيّة، فيخف التعصب، ويتحرّر الناس من ركام الأحقاد، ويتقلّص التناحر العقائدي. لذلك فإن وليم جيمس كما يوضح بيري: «كان يجيش بحماسة المؤمن،

ويصدُر في كل ما يقول ويفعل عن هذا الحافز، فقوته في الفلسفة وعلى الفلسفة، وكان مرجعها إلى تعاليمه بأن المرء يجب أن يُسهم نظريًّا وعمليًا، وأن يؤدي دوره ويُوْفي بقسطه مؤمنًا بشيء ومجاهدًا من أجل ما يؤمن به». إن التوقّد صفة ملازمة لوليم جيمس. لقد كان متوقد الشغف بالحقيقة المطلقة، وحين اكتشف أن هذا مطلبٌ محال استمر في توقُّده لكنه بات توقُّدًا باتجاه مختلف. فقد صار شديد التطلع إلى أن يدرك الناس استحالة امتلاك الحقيقة المطلقةن لأنهم بهذا الإدراك سوف يتغيرون تغيرًا جذريًّا في نظرتهم إلى أنفسهم وفي تقييمهم للمختلفين عنهم، فيصيرون أكثر استعدادًا للتعايش المفتوح مع المغايرين لهم...

إن وليم جيمس بعد أن انْجلَتْ له استحالة امتلاك الحقيقة المطلقة، وبعد أنْ تبين له أنَّ «الحقيقة تحدث لفكرة.. وأن الشيء يصبح حقيقيًّا، أي أنه يصير حقيقيًّا بفعل الحوادث»، كما اكتشف أن التحجّر ليس محصورًا بالعامّة، بل حتى الفلاسفة بعضهم متحجر العقل، بينما الحياة تقتضي المرونة والانفتاح لأن الحقائق ليست كيانات نجدها مباينة لسواها، وإنما هي مقاربات احتماليّة نزداد عنها بُعْدًا بمقدار ما نتوهم الإمساك بها وامتلاكها وادعاء احتكارها. إنه بهذا الاكتشاف صار مثل الطبيب الذي يشاهد انتشار الأوبئة في كل العالم ولديه العلاج الناجع، لكن تأصُّل الوباء يحول دون مقاومته، فتستمر الأوبئة مشتعلة تأكل الأحياء وتجفّف منابع الحياة وهو يحترق شوقًا إلى إطفائها...

إن وليم جيمس نموذجٌ للفيلسوف المنفتح، فكلما ازدادت معارفه اتساعًا وازداد تفكيره عمقًا، ازداد تواضعه وتوقُّع الخطأ في تصوراته وأحكامه. فرغم حماسته الشديدة هو لا يكفُّ عن تأكيد تعدُّد الاحتمالات وتوقّع الأخطاء. إنه يندفع من أجل ما يؤمن به، لكنه كما يوضح بيري يبقى: «متجشمًا خطر أن يكون مخطئًا، وبكل هذه الحماسة والغيرة والوعي والسعي وقوة الاعتقاد لم تكن تشوبه شائبة من الرضا والقناعة بما هو كائن.. كان دائمًا يترك في الناس فكرة أن هناك مزيدًا وأن هذا المزيد الآتي قد يُلقي ضوءًا مختلفًا جدًّا على المسائل المطروحة على بساط البحث». إنه لا يستبعد عن نفسه الخطأ، فالوقوع في الخطأ هو الأصل، أما تجاوز الخطأ فيتطلّب جهدًا ووعيًا وانتباهًا مضاعَفًا. ورغم كل ذلك علينا ألا نتردّد أو نتعثّر، بل علينا أن نُقدِم بجسارة، فإذا حصل

الخطأ صحّحناه واعترفنا به. لذلك هو لا يريد من الناس أن يقبلوا قوله باستسلام، بل عليهم أن يفحصوه ويصحّحوه، وأن يتجاوزوا ما وصل إليه إلى آفاق أعلى وأرحب، فالحياة كفاحٌ لا يهدأ ومغامرة لا تنتهي، ولا نهاية لمشوار البحث عن الحقيقة وتطوير الحياة والارتقاء بمستوى الفهم...

ونصل من كل ذلك إلى أن وليم جيمس من أقوى شواهد (عبقرية الاهتمام التلقائيّ)، فقد استغرقته موضوعاتُ اهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق، فأبدع فيها إبداعات متنوّعة نالت اهتمامًا عالميًا وأثَّرَتْ تأثيرًا واسعًا وعميقًا. وما زالت أصداء هذا التأثير تمتد وتتعمَّق. أما الطب الذي دَرَسَه لهدفٍ مهنيٍّ فقد هَجَرَه كليًّا لأنه لا يفي بمتطلّبات ذاته المتوقدة تلقائيًّا، فهو شغوفٌ بما هو أشمل وأعمق، فانشغل بقضايا الإنسان الكبرى...

المعروف عن وليم جيمس أنه نشأ عليل الجسم، ولكنه مع اعتلال جسمه كان يملك طاقة ذهنيّة عظيمة وكانت نفسه تتّقد بالاهتمام المنتج، فلم يوهنه ضعف جسمه وإنما كان أشبه بعنصر اليورانيوم المشعّ، وهذا شاهدٌ من شواهد لا تُحصى تنقض مقولة: العقل السليم في الجسم السليم، إذ المهم كيف تستخدم قابليّاتك وماذا تضيفه إليها...

أما الملحظ الآخر فهو أنه كان يؤمن بأن عظماء الإنسانيّة أفرادٌ استثنائيون، إنهم قادة الحضارة، ولولا إشعاعهم لبقيت البشريّة تعيش أوضاعًا كليلة بائسة. فالحياة الإنسانيّة تقوم على القيادة والانقياد.. على الريادة والاستجابة.. على الإبداع والإتباع.. وما من شك بأن وليم جيمس كان من قادة الفكر الملهمين ومن رواد الحضارة البارزين...

إن هذه الأسطر العجلى لا تستهدف التعريف بعملاق من عمالقة العلم والفكر والإبداع، إنما الهدف هو الاستشهاد به كنموذج مضيء من نماذج عبقرية الاهتمام التلقائيّ. فقد تخرّج طبيبًا لكنه باهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق أبدع في مجالات متنوّعة مغايرة، فإذا أغْرَتْ القرّاء هذه الإشارة بالعودة إلى ما كَتَبَه وما كُتب عنه فإن ذلك يكون نهاية المبتغى...

إن وليم جيمس قد انكسرت عنه البرمجة التلقائيّة التي تشبَّع بها في طفولته، فصنع لنفسه باندفاعه الخارق تلقائيّة بديلة قائمة على البحث الحر والإخلاص الصادق

والتحقّق الجريء، ولم يكن انكسار التلقائيّة عنده اختيارًا وإنما بفاعليّة الشكوك الحادّة، فهو بذلك نموذجٌ للقلة الرياديّة المبدعة التي يسير أفرادها عكس التيارات السائدة، فيكونون روادًّا لقفزات حضارية. وتأتي ريادة كل واحد منهم في مجال من مجالات الريادة والإبداع. وكما يعلن جيمس نفسه: «إن العبقرية تعني القدرة على الإدراك بطريقة غير مألوفة.. إن وليم جيمس يحرِّض دائمًا على التفكير والعمل بطريقة غير مألوفة لأن هذا وحده هو طريق الإبداع، أما السير مع المسارات المطروقة فهو تكرار واجترار وتجميدٌ للطاقات الإنسانيّة الكامنة وتعطيلٌ للقابليّات المفتوحة...

يقول جيمس آلان سميث في كتابه (سماسرة الأفكار): «قدَّم المذهب التجريبي الراديكالي لوليم جيمس سنَدًا لمنهج المصلحين التقدّميين في تقصّي الحقائق، وكذلك للواقعيّة الشرعيّة لأوليفر ويندل وتلاميذه»، ويضيف: «جيمس وديوي صاغا جوهر الليبرالية».

وفي الفصل التالي نقدِّم نموذجًا مغايرًا تمامًا لنموذج وليم جيمس، إنه نموذجٌ للأسر الثقافي الذي هو الأصل في تفكير وسلوك عموم الناس في كل الثقافات، مهما نالوا من تعليم، ومهما حملوا من شهادات أكاديمية. فالأصل في الإنسان أنه يتبرمج تلقائيًّا في طفولته بتصوّرات أهله ومعتقداتهم وقيَمهم واهتماماتهم، ثم يبقى مغتبطًا بهذا التبرمُج، سواء تلقَّى تعليمًا أم بقي أميًّا. إنها المعضلة البشريّة التي تتطلّب وقفة عالميّة جادة من قادة الفكر والفعل في كل العالم...

تخرَّج طبيبًا وبقيَ محكومًا ببرمجة الطّفولة

ننتقل لنموذج مغاير كلَّ المغايرة، فالنقيض تمامًا للفيلسوف العظيم وليم جيمس هو الطبيب الإرهابي الإسرائيلي باروخ غولدشتاين. فإذا كان وليم جيمس قد هَجَرَ مهنة الطبّ بدافع البحث عن الحقيقة وسط التعارضات الحادَّة، فصار بمحض اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق من أبرز علماء النفس، ثم من أعظم فلاسفة العصر وأشدهم تأثيرًا، فإن ذلك قد تحقّق له لأنه تحت أثقال التساؤلات الوجودية الحادّة انكَسَرتَ عنه البرمجة التلقائيّة التي تنتظم الكل، ووَثَبَ وثبةً ريادية خارقة. فصار بهذه الوثبة خارج التأطير التلقائيّ السائد من جهة، وخارج أطواق التخصّص التعليمي من جهة أخرى، وبات من كبار رواد العصر. لقد انكسرت عنه قوالب البرمجة التلقائيّة بغير اختيار فهو لم يتعمَّد التعرّض للشكوك المزلزلة، ولم يقصد أن يقع تحت تأثير التساؤلات الوجودية المقلقة، وإنما هي حاصرته تلقائيًّا، فاندفع يبحث عن الأمان النفسي، وخرج من دائرة القطيع وراح يبني ذاته بفكر جديد قائم على البحث الجاد والتأمّل العميق والإخلاص الصادق للحقيقة. لقد تحرّر من البرمجة التلقائيّة وكوَّن لنفسه تلقائيّة ريادية قُدِّر لها أن تطبع الحياة الأميركيّة، فهو من أشدّ قادة الفكر تأثيرًا على مجتمعه. فكان تأثيره على الثقافة الأميركيّة قويًّا ودائمًا، ويبدو أن الزمن لن يقلل أو يمحو هذا التأثير الإيجابي الحاسم...

أما الطبيب الإرهابي الإسرائيلي باروخ غولدشتاين، فقد دَرَسَ الطب وتخرَّج طبيبًا، لكنه بقي محكومًا ببرمجة الطفولة وبالتنشئة الكثيفة على الفكر الصهيوني. لقد تشبَّع بالأفكار الصهيونية فبقيَتْ هي التي تحرّكه وتتحكّم به، وبدلاً من أن يهتمَّ هذا الطبيب بعلاج المرضى الذي يقتضيه تخصّصه الدراسي، فإن الاهتمام الذي سيطر عليه هو العداء المستحكم للفلسطينيين، فهاجم المصلّين في رمضان عام 1994 في الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل وقَتَل 29 منهم وجَرَح 150 إنسانًا، وكان المسجد مكتظًّا

بالمصلين فتكاثروا عليه وقتلوه.. هكذا يفعل الحقد العقائدي، فهو الذي يدفع إلى ارتكاب الفظائع، وهو الذي يجعل الفرد يضحي بنفسه في سبيل أساطير تَرَبَّى عليها وانعجن فيها جسمُه وتَشَكَّل بها عقلُه وتحدّدت بها عواطفُه. فهذا الطبيب، المشحون بالحقد العقائدي، حين هاجم وحْدَه ذلك الجمع الغفير من الناس كان يعلم أن الموت هو مصيره، لكنه قدَّم نفسه فداءً لمعتقداته الأسطورية. إن العقائد المستحكمة هي البراكين النفسيّة ماضيًا وحاضرًا، فالتاريخ يَذْكُر شجاعة وإقدام أتباع حسن الصباح حتى ظنّ الناس أنهم يتعاطون الحشيش، وأن هذا التعاطي هو سبب ذلك الإقدام الخارق على الموت، بينما العقائد المتحجّرة أقوى وأدْوَم من أي مُخَدِّر. فالإقدام على الموت والتضحية بالنفس ليست دليلًا على صحة المعتَقد بل العكس هو الغالب...

هكذا يتّضح بأن التبرمُج التلقائيّ في كل الثقافات هو الذي يتحكَّم بالإنسان، وأن التعليم مهما كان مجاله، ومهما طالت مدته لا يتجاوز النطاق المهني. فباروخ غولدشتاين طبيبٌ يهوديٌّ صهيونيٌّ دَرَسَ علوم العصر وتخصَّص في مجالٍ معرفيٍّ ومهنيٍّ يمتاز نظريًّا بطابعه الإنساني الرفيع، لأن مهمّته هي حمايةُ حياة الناس وليس إزهاقها. ولكن هذا الطبيب اليهودي تصرَّف بدوافع عقائدية عميقة عمياء، عكس ما جرى تأهيله له مهنيًّا تمامًا. فقد ضَحَّى بحياته ليقتُلَ جموعَ المصلّين عشوائيًّا التزامًا بعقيدة متحجِّرة توارثَها أهلُه وأسلافُه منذ آلاف السنين، وقد تَبرمَج بها هو تلقائيًّا في طفولته، فباتت تحْكمه وتتحكَّم به. ولم يكن هذا اليهودي بعقيدته العمياء المتحجّرة سوى مثال لآلاف الملايين من الناس في الغرب والشرق والشمال والجنوب، وفي كل مكان، يتبرمجون تلقائيًّا في طفولتهم بما هو سائد في بيئاتهم...

إنه نموذجٌ صارخ على الفاعليّة الحاسمة للتبرمُج التلقائيّ مقابل ضآلة تأثير التعلُّم الاضطراري، فقد تم تعليمه مهنة الطب للإسهام في حماية حياة الناس، لكنه يقرّر بكل تصميم أن يقتُل المصلين قتْلًا جماعيًّا غدرًا وهم غافلون ومستغرقون في صلاتهم. ومع الدلالة البشعة لهذا الحدث العدواني الفظيع، ومع أن الحوادث المماثلة تتوالى بشكل كثيف في كل مكان، إلا أنها تمُرُّ من دون أن توقظ البشريّة أو تحْملها على التوقّف أمام هذه الظواهر العدوانيّة البشعة لتحديد مصادر ما تعانيه الإنسانيّة في كل مكان، والبحث الجادّ عن حلول قابلة للتنفيذ العملي على المستوى الإنساني كله...

إن الهوس الأيديولوجي معضلة بشريّة فظيعة، بل هو وباء الذي لا يكفُّ عن الانتشار. فإذا كان الطبيب اليهودي الحاقد قد فتَح النار على المصلين العزَّل التزامًا بعقيدةٍ استحوذت عليه، فإن اليهودي الآخر المتعصّب إيغال عامير قد أقدم على اغتيال رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحاق رابين اعتمادًا على فتوى بعض رجال الدين اليهود (الحاخامات)، لأنهم يرون أن رابين قد خان إسرائيل بتوقيع الصلح مع مصر، وبما اتخذه من إجراءات تصالحية مع العرب، فاستحق الاغتيال في نظرهم، بينما على الطرف الآخر تم اغتيال السادات بوصفه خائنًا للقضية الفلسطينيّة. وليس ردُّ الفعل المتماثل من طرفين متناقضين على حَادث واحد سوى التعبير الأعنف عن أيديولوجيتين متناقضتين مسيطرتين. فقاتل رابين ومن كانوا خلفه يرون أن رابين أضاع حقوق اسرائيل في المَيْل إلى الصلح والانسحاب من الضفة الغربية، بينما قاتل السادات ومن كانوا خلفه يرون أن السادات أضاع حقوق الفلسطينيين وحقوق الأمة. إنهما موقفان متناقضان لحدث واحد، وهما يجسّدان الهَوَس العقائدي المسيطر على العقل البشري في مختلف الثقافات. فلو تمت مراجعة كل قضايا النزاعات في العالم، الدينيّة والمذهبية والطائفية والاثنية والعرقية وغيرها، لوجدنا التناقض نفسه والوثوق نفسه عند كل الأطراف المتنازعة. فقيمة الشاهد أنه يعبِّر عن التفكير البشري بأجمعه في الغرب والشرق والشمال والجنوب، إنه مثالٌ نموذجي على الطريقة التي تفكر بها كل الأطراف المتنازعة. فالثقافات المتناقضة تُبرمِج مليارات الناس في كل أقطار الأرض برؤى متناقضة، وكلٌّ منها تعتقد بأنها وحدها التي تجسّد الحق، وأن ما عداها باطل محض، وبسبب هذا الوثوق العميق المطلق تعتمد حسم الخلافات بالعنف. فما حصل للسادات ورابين لا يمثل حالة شاذّة، بل هو تعبير عن وضع بشري عام، وقد عبَّرتْ ليا رابين عن ذلك بوضوح حين قالت: «سيكون هناك دائمًا إيغال عامير آخر».

إن على قادة العالم مسؤوليات إنسانيّة متنوّعة ضخمة وعظيمة، فلقد نما عدد سكان الأرض نموًّا مفْرطًا وتقاربت الأمم حتى باتت الأرض وكأنها مسكنٌ واحد، فالكل يشهد ما يجري للكل، وبرز التفاوت بين الأمم بروزًا بالغ الإثارة، وتزايد عدد المأفونين الخطيرين بمقدار زيادة الكثافات السكانية المفرطة، فانتشر العنف انتشارا غير مسبوق. لقد تطوّرت وسائل التدمير بشكل مفزع يتيح لفرد واحد مأفون، أو لعدد محدود من

الأفراد، أن ينشروا الرعب من دون حدود وأن يعكّروا حياة الأمم، فتفاقمت الشرور وتضاعفت المسؤوليات الفكرية والأخلاقيّة. إن المهمة الأساسية أمام قادة الفكر والفعل في كل الدول القادرة، والمنظّمات الدوليّة المسؤولة في كل العالم، هي العمل بشكل دولي منظَّم على تحرير العقل البشري من ركام الأوهام التاريخية التي تكبِّل عقول الأفراد والجماعات والأمم وفق استراتيجية ثقافية عالمية، وهذا يتطلّب حوادث تغييرات جذرية على المستوى العالمي في الإعلام والتعليم وكل وسائل التنشئة والتثقيف. إن العالم غارقٌ في المعضلات الناجمة عن هذا الركام التاريخي المتفجّر، ولكن العالم في كل مكان ينشغل بمحاولة معالجة النتائج الفظيعة لهذا الإرث المتحجر من دون أن يحاول تشخيص مصادر الخلل المدمر، بل إنه ما زال يرعى مصادره ويُنَمِّي كلَّ ما يمكن تنميته من الروافد التي تُغذّيه، وكأن العالم مصرٌّ على تدمير نفسه...

إن الواقع البشري ينطوي على مفارقة صارخة بين ما أنجزه من تطوّرات هائلة في الكثير من جوانب الحياة، وبين عجزه الفاضح عن معالجة مشكلاته. فنحن غالبًا تخدعنا الإنجازات الحضارية الهائلة في المجالات العمليّة والمهنية، وفي مجالات الوسائل والأدوات والتنظيم والمؤسّسات والنُّظُم، فنتوَهَّم أن البشريّة أفرادًا ومجتمعاتٍ وأممًا قد قطعت مراحل متقدّمة جدًّا من سلامة التفكير وعُمْق الإدراك، وأنها قد تجاوزت التفكير البدائي التلقائيّ، وبلغت مستوى الرُّشد القائم على التحقّق الموضوعي في كل أمورها. ولكن بقراءةٍ فاحصةٍ للتاريخ الإنساني وبالتأمل العميق في ما يجري في العالم تنجلي الحقيقةُ المفزعة، وهي أن البشريّة في شكل عام ما زالت من الناحية الفكريّة والأخلاقيّة تعيش في مستوى بدائيٍّ سحيق غارق في التخلّف والبؤس...

وأمام هذه المفارقة الصارخة بين التطوّر الحضاري المذهل في وسائل وأدوات الحياة، مقابل التخلّف الشديد لعموم الناس في الجوانب الفكريّة والأخلاقيّة، نجد أن تاريخ الحضارة يجيب على هذه المفارقة بأن يؤكّد الحقائق التالية:

- إن التطوّرات الحضارية المتحقّقة في كل المجالات قد تمخَّضَتْ عنها عقولُ عدد محدود جدًّا من الروّاد الخارقين الذين تحرَّكوا عكس التيارات السائدة خلال التاريخ البشري كلّه. إنهم منذ طاليس وديمقراطيس وسقراط وأفلاطون

وأرسطو واقليدس وأرخميدس ودافنشي وكوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن ومونتانيه ومارتن لوثر وديكارت وكانط وفاراداي ودالتون وباستور وآينشتاين، وأمثالهم من الأفراد الرواد الاستثنائيين، وكلّهم لو اجتمعوا لن يتجاوز عددُهم عدَدَ ركّاب طائرة كبيرة أو عدد ركاب قطار كبير. إنهم يمثّلون نشازًا في الكثرة الهائلة من البشريّة العمياء، لكننا نغفل عن هذه الحقيقة الكبرى الصادمة ونتحدّث عن أن الإنسان بطبيعته طَلْعةٌ يقظ وأنه متشوِّفٌ تلقائيًا إلى أن يعرف، بينما التاريخ البشري والواقع كلاهما يؤكّد العكس تمامًا. فالمندفعون خلال التاريخ البشري كله للاكتشاف، والمشغوفون بالمعرفة، والمستغرقون في محاولة الفهم الموضوعي العميق، هم أفرادٌ معدودون يمكن إحصاؤهم بأسمائهم، وهم في نصاعة تفكيرهم ورفيع اهتمامهم وعُمق تركيزهم وفي النتائج التي يتوصّلون إليها يكونون مغايرين تمامًا للأنساق الثقافيّة السائدة...

- إن الأفكار الرياديّة الخارقة في كل مراحل التاريخ قد جاءت كومضات خاطفة وسط ظلمات حالكة، وكلّها من دون أي استثناء قد قوبلتْ بالرفض والمقاومة، وهو رفضٌ قد يمتدّ قرونًا كما هي حالة اكتشاف أن الأرض ليست مركز الكون، فقد بقي هذا الاكتشاف مطمورًا أكثر من ثمانية عشر قرنًا حتى أعاد الاكتشاف كوبرنيكوس. ومع أن معظم الاكتشافات لا يمتدّ رفضها كل هذا الامتداد حيث تجد من يستقبلها بالقبول بعد تلكؤ قد يطول أو يقْصُر بحسب الحالة الثقافيّة السائدة، ولكن المؤكد أن الرفض يحصل دائمًا بشكل تلقائيّ، أما القبول فلا يأتي إلا متأخرًا، وقد لا يأتي أبدًا كما في الثقافات الأشدّ انغلاقًا. وفي الكتاب الذي لم أنشره بعدُ بعنوان (الريادة والاستجابة)، قَدَّمتُ شواهد متنوّعة على ذلك من التاريخ والواقع ستكون كافية لمن يرغب في الاستبصار...

- حين تَدخُل فكرةٌ رائدةٌ، أو حقيقةٌ علميّةٌ فارقةٌ، أو تنظيمٌ اجتماعيٌّ جديدٌ متطوّرٌ إلى ثقافة أي مجتمع، فإنها لا تدخل عن طريق الفهم العام، وإنما تصير جزءًا من ثقافة المجتمع بواسطة الممارسة والمعايشة والتكيّف والتعوّد، فعموم الناس في المجتمعات المزدهرة لا يدركون سبب، أو أسباب ازدهارهم. فهم محمولون في مرْكبة الازدهار من غير أن يعرفوا كيف تكوَّنت هذه المركبة الاجتماعيّة العامّة.

وعلى سبيل المثال فإن الناس في كوريا الجنوبية يختلفون ثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا عن إخوانهم في كوريا الشمالية اختلافا عظيمًا، لكنهم قد تبرمجوا بهذا الاختلاف تبرمُجًا تلقائيًّا بواسطة التكيف والتعود وليس بواسطة التفهُّم والإدراك. فالأفراد في المجتمع كقطرات الماء في النهر الزاخر، ولولا هذه القطرات لما كان النهر، لكن لا أهميّة لأية قطرة إلا بكونها ضمن النهر...

- التعلُّم بمختلف مراحله والتخرُّج من الجامعات، أو حتى إنهاء دراسات عليا في أي مجال، هدفه تكوين المهنيين؛ من الممرّض إلى جرّاح القلب، أو أستاذ الجامعة، أو الباحث العلمي، فكل هذه المسارات لا تدل على تطوّر نوعي للوعي الفردي، فالوعي النقدي الفاحص المنفصل عن تفكير القطيع لا علاقة له بالتعليم الجمعي بمختلف تخصّصاته ومستوياته، بل التعليم المقنَّن يكرّس الوعي السائد...
- تجسيد الأفكار الريادية الخارقة يرتبط باتجاه حركة المجتمع، فإذا كانت حركة المجتمع باتجاه الازدهار فإن الأفواج الذين تخرّجهم الجامعات والمعاهد يتولّون تجسيد الرؤى والأفكار الريادية التي تقبَّلها المجتمع، حيث يعمل كلُّ فرد في مجال اختصاصه. إن إنتاجهم يمثّل قطرات الماء التي يتكوَّن منها نهر الازدهار، ولكن الأفراد نفسهم الذين أسهموا في تشييد الازدهار في مجتمع تتجه حركته في اتجاه النمو، لو عملوا في مجتمعات متخلّفة فسوف يكون عملهم محكومًا باتجاه حركة المجتمع، وبذلك فقد يكون إسهامهم في تكريس الواقع وليس تغييره، أي في تكريس التخلّف واستحكام أركانه وإغلاق منافذ الرؤية فيه...

إن استيعاب هذه الحقائق يجعلنا ندرك أن التعليم في أي مجتمع محكومٌ بالثقافة السائدة وليس حاكمًا لها، وأن أفراد كل بيئة يتبرمجون بثقافتها تلقائيًّا، فيبقون محكومين بها. وتظلّ تتحكّم بهم وتهيمن على اتجاههم وتفكيرهم ووجدانهم وتحدّد قيمهم واهتماماتهم، فهذا الطبيب الصهيوني الذي أقدم على قتل المصلين جماعيًّا وعشوائيًّا في الحرم الإبراهيمي، قد ضحى بحياته وقَدَّم روحه التزامًا بما تبرمج به تلقائيًّا. فالبرمجة

التلقائيّة هي التي تحدّد هوية الفرد بحسب البيئة التي ينشأ فيها. فالإنسان لا يولد بماهية أو هُوية محددة، وإنما يتقولب تلقائيًّا في طفولته قبل بزوغ وعيه..

إن كل إنسان يولد بقابليّات فارغة مفتوحة مطواعة فيتشكّل عقله ووجدانه بالأسبق إلى قابليّاته، ثم يظل هذا الأسبق يتحَكَّم به مهما نال من تعليم، فهذا الأسبق يصير هو الذات عينُها وهو المعيار المهيمن لتقييم كل ما هو مغايرٌ له. إن الفرد لا يفكّر إلا من خلال هذا الأسبق، فهو لا يرى أيَّ شيء إلا بواسطته. ومن المحال أن يفكّر المرء بتغيير ذاته إلا بهزة فكريّة مزلزلة توقظه من سباته، وتخرجه من غبطته الغافلة، وتفصله عن التيار السائد، وهي حالة لا تحصل إلا نادرًا. أما عموم الناس فيبقون مأسورين بما تبرمجوا به في طفولتهم فلا يرون الحياة والدنيا إلا من خلال هذا التبرمُج التلقائيّ...

أما التعليم الذي يضطرون لقضاء ربع قرن وهم يكابدونه فيبقى محصورًا في المجال المهني والعملي فقط، وكما يقول الدكتور فاخر عاقل في كتابه (سيكولوجية الإدراك): «إن المعلومات المبدئية تكون إطارًا ومفتاحًا للمعلومات التالية، وإذا كانت المعلومات التالية مخالفةً للمعلومات الأولى فإنها تُلوى لتناسب المعلومات المبدئية». إن الناس يجهلون عن أنفسهم هذه الحقيقة الأساسيّة مع أنها أهَمُّ من ركام الحقائق الجزئية التي تمتلئ بها أذهانهم ويهتم بها التعليم...

إن هذه الحقيقة المحوريّة التي أكّدها الدكتور فاخر عاقل قد باتت من الحقائق التي يكرّرها العلماء والباحثون، فهذا الطبيب المشهور العالم إدوارد دو بونو يقول بوضوح في كتابه (تعليم التفكير): «تقوم المعلومةُ الأولى بتغيير حالة العقل بشكل يجعل المعلومةَ الثانية ترتبط بها أو توافقها، وبهذه الطريقة يتم بناء الأنماط»، ولأن الدماغ البشري لا يملك آليّة للتحقّق فإنه يعتمد المعلومات الأسبق كمعيار للحكم على المعلومات التالية مهما كانت الأولى خاطئة، ولأن مسائل العلوم التي يتلقّاها الدارسون في التعليم لا تأتي، ولا يمكن أن تأتي إلا متأخرة، أي بعد أن تكون البنيات الذهنيّة والوجدانيّة قد تَشَكَّلَتْ في مرحلة الطفولة المبكرة، فإنه لا يكون لها أي تأثير إيجابي في تصحيح ما تبرمجت به القابليّات بشكل تلقائيّ من دون أي تمحيص...

يصوِّر هذه الحالة البائسة للإنسان فيتولد غومبروفيتش حيث يقول: «الإنسان يصاغ

من خارجه وهو في جوهره ذاته من دون أصالة. بما أنه ليس هو عينه أبدًا، بل هو لا شيء سوى شكل ينشأ بين الناس، إنه ممثّل أبَديٌّ لكنه ممثّل طبيعيٌّ بحالته الإنسانيّة، فالكائن الإنساني يعني كائنًا ممثّلًا».

وهذه الرؤية الواقعيّة عن الإنسان صارت مألوفة لدى علماء الأعصاب وعلماء الإنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والمهتمين المتابعين، وكما يقول عالم الاجتماع كليفورد غيرتز في كتابه (تأويل الثقافات): «الطفل يدخل العالم من دون فكرة مسبقة ومن دون ثقافة، وتتشكّل شخصيته وسلوكاته ومواقفه وقيمه ومعتقداته بالثقافة التي تحيط به من كل جانب. إن سيطرة الثقافة على المرء تبلغ من القوة حدًّا يجعله ينصاع لأوامره ونواهيه، حتى في ما يعاكس نوازعه الفطريّة، كما يمكن أن يَدفع الأثرُ الثقافيُّ المرءَ حتى إلى الانتحار وإنهاء حياته بما يناقض غريزة حب البقاء هَرَبًا من العار أو الخزي. وهكذا نجد أن الثقافة تمارس أثرًا قويًّا في حياة المرء يفوق في شدته وحِدَّته حتى النوازع الفطرية». فالإنسان كائنٌ ثقافي تلقائيّ يتبرمج تلقائيًّا بما هو سائدٌ في البيئة، ويتكرّر المشهد مع كل مولود ومع كل جيل في تناسلٍ ثقافي حتميٍّ مستمرٍّ، وكلّهم على موعد حتمي مع البرمجة التلقائيّة بالجهل المركَّب، فتتواصل الغبطة بهذا التوارث التلقائيّ المستحكم، وبسبب ذلك بقي تأثير العلوم الممحّصة محصورًا في الجوانب العمليّة والمهنية، فتطوّرت الوسائل والأدوات والقدرات العمليّة تطوّرات هائلة، لكن البشر بقوا بدائيين من الناحية الفكريّة والأخلاقيّة حتى لتبدو الحضارة الشامخة المذهلة وكأنها نتاجُ مخلوقاتٍ أخرى...

إن من يتأمل أوضاع الأمم والشعوب يجد أنها خلال القرون تتوارث ثقافاتها المتضادَّة بحتميّة هي أشد من حتميّة التناسل البيولوجي، كما يجد أن التعليم الذي طرأ على أفرادها خلال العصر الحديث لم يغيّر شيئًا من هذه الحتميّة الثقافيّة الحادّة الحاسمة. ليس هذا فقط بل إن الأقليات الثقافيّة المغمورة بثقافات مغايرة تظل تتوارث تلقائيًّا ثقافاتها ومتمسكة بتصوراتها وقيمها وكامل إرثها الثقافي، رغم كل المعاناة والتهميش والمذَلَّة وأعمال الإبادة المتكرّرة. فلقد عاش اليهود في بيئات شديدة الاختلاف، فبقوا متمسّكين بعقائدهم، مصِرِّين على انتمائهم، مؤكّدين شدّة انفصالهم عن البحار الثقافيّة المحيطة بهم، لقد عاشوا في مختلف القارّات كأقليّات مبعثرة وسط الكاثوليك ووسط

الارثوذكس والبروتستانت، ووسط بيئات سنّية وبيئات شيعيّة، وعاشوا بين مختلف الطوائف، وتعرّضوا خلال القرون للإذلال والمضايقة، ولكنهم لم يزدادوا إلا تمسّكًا بعقائدهم. وليست هذه الظاهرة خاصّة باليهود، فهناك أقليّات عانت خلال مختلف العصور من الاضطهاد والإذلال، وتكرار الإبادة الجماعية مثل طائفة الدروز، وطائفة اليزيدية، وطائفة الاسماعيلية، وطوائف تفوق العدّ. إن أية دراسة للمجتمع الهندي على سبيل المثال تكشف التنوّع الهائل في العقائد، فالأقليّات المذهبيّة والطائفيّة في كل المجتمعات توالت عليها المحن والقتل ومحاولة الإبادة، ولكنهم بقوا صامدين قرونًا أمام كلّ المحن، من دون أن يخطر على بالهم أن يتحوّلوا عن ثقافتهم مهما اشتد الخطر ومهما تفاقم البلاء، بل إن فكرة التخلّي عن الدين أو المذهب لا يمكن أن تكون واردة أو مطروحة لدى أية أقليّة مهما عانت، ومهما كانت المذاهب الأخرى تراه مذهبا ضالًا، فالتخلّي عمَّ تبرمج به الإنسان لا يمكن أن يأتي بقرار، ومحتوى الذات هو الذات عينها، فلا أحد يفكر في التخلّي عن ذاته. إن معتقدات كل فرد محمية من الفحص بالمعتقدات ذاتها، فهي لا تتأثّر بالعلوم، ولا بحقائق الواقع، ولا بصرامة المنطق، ولا بأية تصورات، أو أفكار مختلفة، ولا بأي شيء مغاير لذلك. نجد طائفة متحجّرة التفكير وتُحرِّم كل شيء رغم أنها تعيش في أكثر المجتمعات انفتاحًا، كحالة طائفة الآميش التي عاشت وما زالت تعيش في قلب أميركا من دون أن تتأثر بلواهب الأفكار والمتغيّرات المتلاحقة...

إن الاهتمام بظواهر الحتميّة الثقافيّة ما زال محصورًا بفئة قليلة من الباحثين، وحتى هذه الفئة لا تهتم بها بوصفها أعمق معضلة تعانيها البشريّة، وإنما هي بحوث وصفيّة، بل إن اليونيسكو تعمل على تشجيع استمرار الأسوار الثقافيّة، مع أن هذه الأسوار هي البلاء الدائم والوباء المتجدّد. فلو تَوَقَّفَتْ البشريّة للتفكير في هذا الارتهانات العقائديّة لكان أهَمّ قرار عالمي...

وليست الهويّة اليهوديّة سوى مثال على الهويّات المتناحرة القاتلة، فالفكر الصهيوني حركةٌ يهوديّة جماهيريّة تأسست على الوهم الراسخ والإيمان المطلق بما يعتبرونه قضيّة مقدَّسة والولاء الأعمى لهذه القضيّة، ومن هنا يأتي الإقدام الأهوج والتضحية بالنفس. وكما يقول إريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق): «إن الاستعداد للتضحية بالنفس يعتمد على مدى تجاهل المرء لحقائق الحياة.. التضحية بالنفس عملٌ

غير عقلاني ولا يجيء نتيجة بحث وتحليل، من هنا تلجأ الحركات الجماهيرية إلى وضع حجاب بين أتباعها وبين حقائق العالم، وهي تحقّق هذا الهدف بتصوير عقيدتها في صورة الكمال المطلق الذي لا يوجد أي حقيقة أو يقين سواه.. والحقائق التي يبني عليها المؤمن الصادق النتائج لا تجيء من التجربة، أو من الملاحظة ولكنها تنبع من نصٍّ مقدَّسٍ». ومعلومٌ أن لكل أمة نصوصٌ مقدّسة، فالبوذيون لهم نصوص مقدّسة، ومثلهم الهندوس، واليهود والسيخ والمجوس والدروز واليزيديون والاسماعليون وغيرهم...

إن تاريخ أوروبا يعطي شاهدًا قويًّا على فاعليّة العقائد في تحديد مصائر الناس، فالكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس كانوا يتبادلون التكفير، وكل طرف يرى وجوب محاربة الآخر، وبسبب ذلك اندلعت حرب الثلاثين عامًا، وحرب المائة عام، وحرب السنوات السبع، وحروب الإبادة التي مارسها الأقوياء على الضعفاء. إن كل طرفٍ يحكم على عقائد الطرف الآخر وفق عقيدته هو فيراها بشعة وضالّة ومشحونة بالحمق والحقارة، وكل فئة تسخر من عقائد الفئة الأخرى. ولا أحد يتعقّل فيمارس النقد داخل الثقافة المهيمنة ذاتها، لأن هذا النقد المطلوب مضادٌّ لطبيعة العقل، فلا شيء يعلو على ذاته، إذ العقول تتكوَّن بالثقافات فتكون هي معيار ذاتها، وبهذا المعيار الذاتي المتكوِّن تلقائيًّا تحْكُم على كل ما يغايرها. ويحصل التناسل الثقافيّ بحتميّة لا تقلُّ صرامة عن التناسل البيولوجي. فرغم أن المجتمعات الأوروبية فصلت الدين عن السياسة فصار التديّن شأنًا فرديًا، إلا أن حتميّة التناسل الثقافي بقيت كما كانت. فأهل الشمال الأوروبي بقيت أجيالهم تتوارث البروتستانتية، واستمر الجنوب الأوروبي كاثوليكيًّا، وداومت أجيال روسيا وشرق أوروبا تتوارث الأرثوذكسية، وهذه الظاهرة تنطبق على كل الأديان والمذاهب والطوائف والاتجاهات. إن التوارث الثقافي هو توارثٌ تلقائيّ وليس اختياريًا، فالذي يولد في أسرة كاثوليكيّة يصير كاثوليكيًّا بشكل تلقائيّ، وهكذا بقية الأديان والمذاهب. ورغم أن الجميع يرون هذه الحتميّة التلقائيّة، إلا أن كل طرف يعتقد جازمًا بأن طائفته هي وحدها التي على الحقّ، أما الطوائف الأخرى فهي طوائف ضالة وأفرادها حمقى. وتتبادل كل الطوائف هذا التسفيه، لكن أوروبا خرجت من هذا النفق الخانق بجعل السياسة شأنًا بشريًّا محضًا مُعَرَّضًا لكل

نقائص البشر، وهذا اقتضى عدم السماح للمؤسسات الدينيّة بالتدخل في السياسة إلا بمنطق ولغة السياسة ذاتها كعمل بشري مشحون باحتمالات الخطأ، وليس نيابة عن الخالق الذي لا يصحّ عليه الخطأ...

إن المعتقدات العمياء في مختلف الثقافات وعند كل الأمم تطمس وعي الإنسان وتلغي العقل وتحيل الإنسان إلى كتلة من الانصياع الأعمى لقيم قاتلة وهُويّات مغلقة واهتمامات مدمِّرة، وهي معتقدات لم يتوصَّل إليها الناس في مختلف الثقافات عن طريق البحث والتحقّق، وإنما تبرمجوا بها تبرمُجًا تلقائيًّا. إنها ما يسميه أوليفييه روَا (الجهل المقدَّس). وكما ينشر الفيلسوف الأميركي رالف بارتون بيري في كتابه (إنسانيّة الإنسان): «ما أكثر ما تصيب العقلَ الخيبةُ، فإذا أراد العقلُ أن يقوم بدور القائد في العمل الجماعي فيجب أن يتبنّى معتقدات الجماعة، غير أن العقائد الجماعية تحول بين العقل والبرهان، وتسدُّ الطريق أمام أيّة ثقافة تقدميّة. فالمعتقدات التي اعتادها الناس لا تناقَش. وكذلك فإن ما يعتقده جميع الناس يشكّل سلطة لا تقاوَم على عقل الفرد، فالعادة والإيحاء يكبحان روح البحث والاستقصاء». فهذا الطبيب قد تشرَّب الثقافة اليهوديّة والفكر الصهيوني منذ طفولته، فصارت هذه الثقافة تنمو بنموّه، فهي التي تُحرك وجدانه، وهي التي تصنع اهتماماته، وهي التي دفعته إلى أن يضحّي بنفسه. إن التبرمُج التلقائيّ في كل الثقافات وعلى امتداد التاريخ كما هو معروف، لا يخضع لأية غربلة، أو تحليل، أو فحص، بل يتكوَّن بالتشرُّب العفوي، فيخالط النفس ويجري من الإنسان جريان الدم، ويسري فيه سريان الحياة، وهذا هو مصدر الخطر. إن نتائج ذلك فظيعة ومدمِّرة على المستوى الإنساني كلّه لأنه يقضي على استقلال الفرد ويذيبه ويدمجه في رؤية جماعية عمياء صماء مغلقة، وبهذا الاندماج والذوبان التلقائيّ تندفع الأطراف المختلفة في صراع أعمى يتعارض مع أبسط قواعد التفكير السليم...

إن الإنسان المبرمَج من أيّ أُمّة لا يرى عيوب ثقافة أمته فهي محجوبة عنه كليًّا، بل تتحوّل عنده هذه العيوب إلى مزايا لأنه لا ينظر إليها ولا إلى غيرها إلا بواسطتها، فهي التي شَكّلَتْ عقله، وهي التي صاغت عواطفه، وهي التي كوَّنَتْ منظومة قيمه، فهو يراها كمالاً مطلقًا. كما أنه لا يُبصر مزايا ثقافات الآخرين، بل تنقلب عنده هذه المزايا إلى مثالب. وكما يقول إريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق): «إن قدرة المؤمن الصادق

على أن يُغمض عينيه ويسد أذنيه عن الحقائق هي التي توجد حماسته الدائمة وثباته على موقفه». إن الدمج والتذويب والبرمجة التلقائيّة تستبعد الخيارات وتغلق المجالات، فالمبرمَج لا يخطر على باله احتمال الخلل في الثقافة التي تبرمج بها. أما حين يعتريه الشكُّ، وهذا نادر جدًا، فإن هذا الشكَّ قد يقلب حياته، ويغيِّر اتجاهه، ويجعله إنسانًا آخر مختلفًا كليًّا عما كانه من قبل كما هي حال وليم جيمس بعد رحلة البحث الشّاقّة...

لذلك يندر في الناس من يكتشف تلقائيّة البرمجة فيعرف مصدر الجنون الجماعي، وقد كان أمين معلوف واحدًا من هذه القلة التي أفاقت من هذا الجنون. فقد عايش الحرب الأهلية في لبنان التي كانت تؤجّجها الاختلافات الدينيّة والمذهبية والطائفية، ورأى ببصره وأدرك ببصيرته كيف يؤدّي الاندفاع الجماعي إلى جنون مُطْبق لا يستطيع العقل الفاحص أن يجد له أي تبرير، أو شيء من المعقوليّة. لقد أمعن أمين معلوف في البحث وغرق في التأمّل في معضلة تنافر الانتماءات، وهاله تبادُل الحقد والثارات، وبحكم تجربته في الحرب الأهلية في لبنان كان إحساسه بهذه المعضلة الإنسانيّة إحساسًا مضاعفًا، وقد انتهى إلى أن الصراع بين المختلفين عقائديًّا هو صراعٌ جنونيٌّ مستحكم وفظيع النتائج...

يؤكّد العالم الفرنسي فرانسوا جاكوب، الحائز جائزة نوبل في الفيسيولوجيا، بأن توهُّم امتلاك الحقيقة المطلقة هو البلاء الأكبر ماضيًا وحاضرًا. فيقول في كتابه (لعبة الممكنات): «مسؤولية القساوسة والساسة عن كوارث التاريخ أعظم بكثير، فالمنفعة أو المصلحة وحدها ليست الباعث الوحيد على الاقتتال بين البشر، فهناك روح التحجّر والتزمّت.. وليس أخطر من الإيمان القاطع بأننا على حق، وما من سبب لكلّ هذا الدمار إلا حوز فكرة الحقيقة المطلقة، وكل جرائم التاريخ آثارٌ مترتبةٌ على أحد أشكال التحجّر الفكري، وكل المجازر ارتُكبتْ باسم الفضيلة.. باسم الدين الحق.. باسم الوطنية المشروعة.. باسم السياسة الفُضْلى.. باسم المذهب السديد.. أو باختصار باسم الحرب المعلنة على حقيقة الآخر.. أي باسم محاربة الشيطان». إن وهْم الانفراد بامتلاك الحقيقة أو بالتميّز العرقي، أو غير ذلك من أنواع الهذيان البشريّ المزمن، هو البلاء المستعصي على العلاج. فلقد بقيت العلوم غير قادرة على النفاذ إلى البُنيات الذهنية الممتلئة بالأوهام التي تتوارثها الأجيال، فصار واجب المنظّمات الدوليّة إعلان

النفير العالمي باستخدام العلوم، والتركيز على هذه البنيات الثقافيّة المتحجّرة لتحرير العقل البشري من أوهامه المزمنة المتوارَثة، أما من دون ذلك فسوف يبقى تأثير العلوم محصورًا بالجوانب العمليّة والمهنيّة، أما التصوّرات والولاءات والأوهام والعقائد الباطلة فسوف تبقى هي المهيمنة على التفكير والسلوك والعلاقات...

إن الإنسان لا يولد محدَّد الهويّة، بل يولد مفتوح القابليّات لاحتمالات مفتوحة لا نهائية، ثم تتحدّد بنيته الذهنية والوجدانية بالبيئة الثقافيّة التي ينشأ فيها تحديدًا مغلَقًا. وكما يعلن أستاذ العلوم الاجتماعيّة كليفورد غيرتز في كتابه (تأويل الثقافات): «إحدى الحقائق البارزة هي أننا نبدأ باستعدادات طبيعية جبلية لدينا بأن نعيش ألف نوع من أنواع الحياة، ولكن ينتهي بنا الأمر لأن نعيش حياة واحدة محدودة». ثم يحاول غيرتز أن يُجمل ما تَوَصَّلَتْ إليه العلوم أخيرًا، مثل علم الأعصاب، وعلم الجينات الجزيئي، وعلم الضبط والاتصال، ونظرية المعلومات، وعلم الإنثروبولوجيا في فكرتين: «الفكرة الأولى هي أن أفضل طريقة للنظر في الثقافة ليست في أن نراها مجموعة من أنماط السلوك الملموسة، وإنما بصفتها مجموعة من آليات الضبط، وهو ما يدعوه مهندسو الكمبيوتر بالبرامج الموجّهة للتحكّم بالسلوك. أما الفكرة الثانية فهي أن الإنسان هو أكثر الحيوانات اعتمادًا على آليات التحكّم هذه الآتية من خارجه وعلى برامج ثقافية كهذه لتنظيم سلوكاته». ولكن أكثر الناس يجهلون هذه الحقائق عن أنفسهم فيتوهّمون بأنهم يتصرّفون بمنتهى التعقّل والتبصّر، مع أنهم في الواقع يتحرّكون طبقًا لبرامج ثقافية تطبّعوا بها تلقائيًا، فصاروا مستعبَدين لها ومحكومين بها...

أصعب معضلة تواجه البشريّة كلّها، أفرادًا وجماعات ومجتمعات، هي أن كل ثقافة تحْكُم على الثقافات الأخرى بمعاييرها هي، وأيضًا أن كل فرد يحكم على غيره بمعاييره هو، فتأتي الأحكام جائرة حتمًا. إن اختلاف الثقافات يؤدّي تلقائيًّا إلى اختلاف الرؤى، فكل ثقافة تتكوَّن بها هويّات مختلفة عن الهويّات الأخرى، وهذا يؤدّي تلقائيًّا إلى التنافر وتبادُل الاحتقار، فتكون الأطراف متهيئة للاقتتال المدمِّر، ومع ذلك نجد أن المنظمات الدولية كاليونيسكو تكرّس الاختلافات الثقافيّة، فتعمّق التنافر. لذلك فإن المبدع أمين معلوف يجعل عنوان كتابه (الهويات القاتلة)، وفيه يكتب: «بعد كل مجزرة إثنية جديدة نتساءل منطقيًّا عن الدوافع التي تحمل البشر على اقتراف مثل

هذه الجرائم الشنيعة.. ثمة جنونٌ حين يتحوّل إنسانٌ عاقلٌ وسليم الذهن إلى مجرم، ولكن عندما يتعلّق الأمر بآلاف بل ملايين القَتَلَة، وتتكرّر الظاهرة من بلد إلى آخر في ثقافات مختلفة، فكلمة جنون لا تكفي». إن تحرير العقل البشري من الهويّات المغلقة القاتلة هو المهمّة الإنسانيّة الكبرى، لكن هذه المهمّة الأساسيّة ما زالت مؤجَّلة. بل الأكثر سوءًا أنه يجري إنكار وجود المعضلة كما اتضح ذلك من الاستنكار الواسع لنظرية هانتنغتون عن صراع الحضارات، مع أن الصراع هو أقل ما يجب أن توصف به الاختلافات الثقافيّة...

إن أكثر الناس قد توهَّموا أن التعليم يؤدي إلى تغيير العقليات، ورغم أنهم يرون أن برمجة الطفولة هي التي تتحكّم بالأفراد والشعوب والأمم، فإنهم ما زالوا غير مدركين لهذه الحقيقة الصارخة المفجعة. ويقول أمين معلوف: «منذ سنوات الطفولة الأولى يقوم ذوو الطفل بتكوينه وقولبته وتلقينه المعتقدات العائليّة والمذاهب والمواقف واللياقات، ثم المخاوف والتطلعات والأحكام المسبقة والأحقاد، فضلاً عن مشاعر انتمائيّة ولا انتمائيّة متنوّعة». إن البرمجة التلقائيّة هي مصدر الصراعات والنزاعات والاقتتال الشنيع الذي يجري بين أهل الوطن الواحد من ذوي الانتماءات المذهبية والدينيّة والطائفية المختلفة، لكن الإنسانيّة ما زالت غير قادرة على التوقّف أمام هذه المعضلة المفصليّة. وربما أن الإحساس بأنها معضلة غير قابلة للحلّ هو السبب في هذا التعامي عن أعصى معضلة تواجه السِّلم الإنساني، إنها الجرح الأعمق غورًا والأغزر نزفًا والأشد إيلامًا والأكثر حضورًا والأقوى تفريقًا بين الأمم والشعوب، إنها العامل الأدْوَم للانقسامات والنزاعات والحروب الأهلية والدمار المتكرّر...

إن الإنسان في كل مكان ينشأ مؤمنًا بما تؤمن به أسرته، ويبقى على هذا اليقين الراسخ حتى الممات، ويندر في الناس من يفيق من هذا الاختطاف المبكر. وكما يقول الفيلسوف الفرنسي الشهير هنري بيرغسون: «إن قوة الإيمان لا تتجلّى في القدرة على تحريك الجبال فقط، ولكن في القدرة على عدم رؤيتها وهي تتحرّك». إن من أصدق النصوص التي تؤكّد هذا العمى المطبق والصمم العميق ما قاله مؤسّس البروتستانتية مارتن لوثر، الذي صرَّح بحسم ووضوح بأن معتقداته لا يمكن أن تتأثّر أو تهتز مهما بلغت قوة الحقائق المضادّة، فيؤكّد أنه سيبقى رافضًا ما يعارض معتقداته، فيقول: «..

لو رأيت جميع ملائكة السماء ينزلون ويقولون لي شيئًا مختلفًا لما صدَّقْتُ حرفًا واحدًا من كلامهم، ولأغلقت دونهم عينيَّ وأذنيَّ لأنهم لا يستحقون أن يُروا أو يُسمعوا». إن مارتن لوثر بهذا التأكيد لا يُعبِّر عن حالة فردية، وإنما هذا شأن كل المؤمنين من مختلف الأديان والمذاهب والطوائف والاتجاهات العنصريّة والقوميّة...

بل إن هذا الاحتباس الصارم في المعتقد ليس محصورًا في المعتقدات الدينيّة، أو القومية، أو المذهبيّة أو الطائفية، وإنما كان الشيوعيون أشد ثباتًا وتصميمًا وانغلاقًا. وكما يقول المثقف الكبير آرثر كوستلر وهو يتحدّث عن تجربته الفاجعة مع الأحزاب الشيوعية، فلقد ترك الدراسة وانخرط في النشاط العقائدي الماركسي، ولكنه فوجئ بأن الماركسية تريد منه، وهو المثقّف المضيء، أن يُغلق عقله ويُجَمِّد عواطفه، وأن يبذل الطاعة العمياء من غير شكٍّ ولا سؤال...

ولقد اكتشف أرثر كوستلر أن الإيمان الماركسي العقائدي يقتضي من الأتْباع أن يؤمنوا بكل ثقة وبكل يقين بأن السلحفاة من أحْصِنة السِّباق. وهو يعلل ذلك بأن العقائد لا تتأسّس على البحث والتحليل والتحقّق، مما يجعلها أيضًا غير خاضعة للبحث والمراجعة والتصحيح. وإنما هي تتأسَّس دائمًا على الإيمان الأعمى ولا تتكوَّن بواسطة البحث والتحقّق، وإنما تأتي عن طريق التوارث والتبرمج التلقائيّ، فكل جيل يتشبَّع تلقائيًّا بمعتقدات الجيل السابق له، وبذلك يستمر التناسل العقائدي. وهو يكتب في كتابه (الخمور الفكرية): «إن العقيدة لا تأتي عن طريق الاستدلال أو الاستنتاج، فالإنسان لا يدخل الكنيسة نتيجة اقتناع منطقي.. إن العقيدة لا تحصَّل وتُكتَسب ولكنها تنمو كنمو الشجرة، أصلها عميق في ماضي الإنسان تغذيه عصارة من ثرى الأسلاف»، ويكرّر القول بأن الإيمان الحقيقي لا بد أن يكون مغلَقًا وصلبًا ومتطرّفًا ومندفعًا وغير متسامح. ولا يقصد بذلك الإيمان الديني فقط، بل كل أنماط الإيمان. حتى لو كان إيمانًا بحلم دنيوي كما هو شأن الماركسية: «وكل إيمان صادق لا يعرف المراوحة ولا يطيق المهادنة»، وبسبب هذا الاندفاع المجنون تقع المذابح الشنيعة المروِّعة، كما حصل في رواندا بين قبيلتين تعودان لأصل واحد...

إن الإنسان كائنٌ اجتماعي غير عقلاني، إنه قطرةٌ في تيار المجتمع، فحياته تعتمد

على التبرمُج وعلى المحاكاة والتقليد حتى في الأمور التي تبدو أقرب للتفكير العقلاني، كالأمور الاقتصاديّة والنفعية المباشرة التي يُفترَض فيها التبصّر. لكن الواقع يكشف عن حقيقة فاضحة على النحو الذي يوضحه ويؤكّده أستاذ الاقتصاد في جامعة بيركلي الأميركيّة كارلو سيبولا في كتابه الذي يحمل عنوان (القوانين الجوهرية للغباء البشري)، والعنوان وحده يكفي للدلالة على محتواه...

لقد كان الطبيب الاسرائيلي باروخ غولدشتاين مبرمَجًا منذ الطفولة بنصوص هي عنده مقدَّسة، فالتاريخ اليهودي ونصوص العهد القديم تمجِّد العنصر اليهودي وتعتبره شعب الله المختار. فكل صهيوني يعتقد بأن فلسطين لليهود منذ أقدم العصور، وأنهم قد أبعدوا عنها قسرًا خلال عصور ماضية، وأن العرب طارئون محتلون، وأنهم كفار وأنجاس، وأنه يجب تطهير الأرض منهم...

لقد نشأ هذا الطبيب متشبِّعًا بالثقافة اليهوديّة الموروثة.. فهو قد تربّى في المحاضن الصهيونية، فصاغته هذه المحاضن وتعمّقت فيه عواطف الحقد والثأر والانتقام واستحوذت عليه هذه العواطف. لقد انعجنت ذاته بتقديس العرق اليهودي ومَقْت العرب، فسيطر عليه الحقد الموروث، ونمت في نفسه فكرة الانتقام والاستعداد للموت من أجل هذه الفكرة البشعة، لقد كان محكومًا عقلًا ووجدانًا بالثقافة الصهيونية، أما دراسته للطب فكانت طلاءً سطحيًا لا تتجاوز الهدف المهني. فالأيديولوجيا الصهيونية هي التي حرّكته ليرتكب مذبحة الحرم الإبراهيمي البشعة، لقد كان مدفوعًا بعقيدة مشحونة بالأوهام والأساطير تَبَرْمَجَ بها في طفولته وظلّت تنمو وتترسّخ لتجعله مجرمًا قاتلاً على ذلك النحو البالغ الفظاعة...

إن دراسته للطب تقتضي مداواة الناس وليس قتلهم، لكنها بقيت معلومات غير ذات تأثير في تكوينه الذهني والوجداني، فوجدانه المبرمَج بالحقد أقوى من أية معلومات. لقد جاءت دراسة الطب إلى بنية ذهنية وعاطفية مُتَشَكِّلة ومغلَقة فلم تؤثر فيها، وإنما بقيتْ خارجها. وهي نتيجة تنطبق على كل الدارسين من كل الثقافات التقليدية وليست حالة استثنائية، فإذا كانت دراسته للطب تستوجب منه حماية الحياة فإن عقيدته الموروثة تدفعه لإزهاق الحياة. لقد كان مدفوعًا بعقيدته الصهيونيّة الراسخة التي تجري فيه

جريان الدم، وتسري فيه سريان الحياة، ولو كانت حالة فردية لما كانت تستحق التوقف عندها لكنها تمثّل ظاهرة بشريّة عامّة...

ولكن علينا أن ندرك أن غولدشتاين نتاجٌ ثقافي، فهو لم يولد كارهًا للعرب ومقدِّسًا لليهود، وإنما تبرمج بهذه الثقافة تبرمجًا في البيئة الإسرائيلية، فلو أنه جرى أخذه يوم ولادته وتم تسليمه لأسرة فلسطينية فنشأ فيها كواحد من أبنائها لنشأ ببنية ذهنية ووجدانيّة مضادة تمامًا، وربما صار مقاتلاً من مقاتلي حماس، أو فدائيًّا من فدائيي عز الدين القسام. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ وهو كائنٌ ثقافي واجتماعي، إنه يتبرمج تلقائيًّا بالبيئة التي ينشأ فيها. فالإنسان بما ينضاف إليه وما تتشرَّبه قابليّاته تلقائيًّا وما يتلوها من تعزيزات...

إن كلا التاريخ والواقع يؤكّدان أنه ليس أخطر على المجتمعات وعلى الحضارة وعلى السِّلم وعلى الإنسانيّة كلها من الذين يؤمنون إيمانًا أعمى بقضية يعتبرونها مقدَّسة، فيندفعون في طاعة عمياء مطلقة لقادة لا يؤمنون إلا بمنطق العنف والقوّة لفرض آرائهم والانتقام من معارضيهم. ففي هذا العصر الذي لم يَعُدْ امتلاك القوة المدمِّرة محصورًا بالدول، وإنما صارت الجماعات العنيفة والمنظمات الإرهابية تملك من القوة ما يتيح لها إرباك العالم كلّه. وكما ينشر إيريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق): «المؤمن الصادق هو الإنسان ذو الإيمان المتطرّف المستعد للتضحية بنفسه في سبيل قضيّة مقدّسة»، ويضيف: «كل الحركات الجماهيرية تؤكّد في نفوس أتباعها استعدادًا للموت وانحيازًا إلى العمل الجماعي، وجميعها، بصرف النظر عن المذهب الذي تدعو إليه، أو البرنامج الذي تعنيه.. تؤكِّد التطرف والحماسة والأمل المتَّقد والكراهية وعدم التسامح، وجميعها قادرة على تفجير طاقات قوية من الحراك، وجميعها تتطلّب من أتباعها الإيمان الأعمى والولاء المطلق».

إن حكماء العالم من كل الأمم يشعرون بالألم الشديد تجاه النزاعات المرعبة التي تندلع في أمكنة كثيرة بسبب تدابر الهويّات وانغلاقها وعجز أهلها عن الانفتاح والتفاهم، ما أدى إلى انكماش مساحات التعايش.. ومن هؤلاء الحكماء عالم الاقتصاد الشهير أمارتيا صن الحائز جائزة نوبل في الاقتصاد. فكتابه (الهوية والعنف) يجسِّد ثورة العقل ووقفة الحكمة ضد هوَس الهويّات واقتتالها المرعب...

إنه يتحدّث عن الصراعات البغيضة التي تحشدها الهويات المتنافرة: «إن العنف ينمو عندما نعمّق إحساسًا بالحتميّة حول هوية يُزعم أنها فريدة، وغالبًا مقاتلة. إن فرض هويّة فريدة زعمًا هو غالبًا أحد المكوِّنات الحاسمة من الفن القتالي لإثارة المواجهات الطائفيّة». إن هذا العالم يستحثّ العالم لهزيمة العنف وتجفيف منابعه...

ورغم أن أمارتيا صن هو عالم اقتصاد، وقد نال جائزة نوبل في هذا المجال، إلا أنه يجب أن يُنظر إليه كمفكّر إنساني عظيم تُمضُّه الصراعات الإنسانيّة، لذلك أصدر مجموعة من الكتب الفكرية المهمة، ومنها: (العقلانية والحرية)، و(التنمية حرية)، و(العقل قبل الهوية)، و(فكرة العدالة)، وغيرها. وقد قيل عنه بأنه: «أحد أشهر وأكثر المفكّرين تأثيرًا في هذا العصر»، وأعتقد بأن الأصح أن يُقال إنه أكثر المفكّرين حكمةً، أما التأثير الكاسح فهو من نصيب دعاة العنف ومروّجي الأوهام...

إن الهويّات بدلًا من أن تكون في مصلحة الإنسان باتت تحاصره، ليس فقط بالتهديد الجدِّي الذي يأتيه من أصحاب الهويّات المغايرة، بل إن بعض الهويات تكبِّل أهلها وتحدِّد خياراتهم، وتُضَيِّق مجال نشاطهم، وتحدِّد مسارات حركتهم، وتقلِّص مدى رؤيتهم، وتعوق انطلاقهم...

إن الهويّة لا يصح أن تكون قالبًا ضاغطًا، صلبًا، توقف حركة الفكر وتغتال إمكانات التطوّر، وإنما تكون مجرّد إطار لحماية الفرد وبث الأمان في نفسه، وليس تقييده وحَصْره وسجنه بالكراهية والعجز. وكما يرى المفكّر المبدع حليم بركات في كتابه (الهوية: أزمة الحداثة والوعي التقليدي) أن: الهوية في حالة دائمة من التطوّر والتكوُّن أو التحوّل.. إنها كينونة مستمرّة شكلًا ومضمونًا». هذه الرؤية هي الرؤية الحضاريّة المنفتحة، أما الهويّة في الرؤية التقليدية فهي قالبٌ صلد محكم الإغلاق ولا يسمح بأي تطوّر، إن هذه الرؤية التقليدية الضاغطة والخانقة، هي العائق الأكبر أمام انطلاق المجتمعات التقليديّة. فالأمم المزدهرة ازدهرت لأنها تملك هويتها وتعيد بناءها كلما اقتضت الأوضاع، فهي مالكة لهويّتها وليست مستعبَدة لها أو مسجونة فيها. أما المجتمعات التقليدية فهي تُصرُّ على أن تبقى حبيسة قوالب صلدة لا تسمح بنفاذ الضوء، ولا تَقبل أن يتطرّق إليها التغيير. إنه فرقٌ نوعي بين أن تكون الأمة مالكة لهويتها تتحرّك

فيها بانفتاح ومرونة وفاعليّة، وبين أن تكون مملوكة لها، فتبقى تحرسها وتستميت في الدفاع عن قوالبها الصلدة...

إن الهويّة يجب أن تصير إطارًا واسعًا ومرنًا ومتغيِّرًا، فالمجتمعات الأوروبية مرَّتْ بتطوّرات هائلة ولكنها لم تفقد هويتها. وكذلك كان شأن اليابان والصين والهند وكل الأمم الحية التي تَعتبر الهوية حافزًا للتقدّم لا عائقًا له. وكما يصرّح أمين معلوف بأن: «الهوية تُبنى وتتحوّل»، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم، أما حين تورث الهويّة وتستمرّ كما هي خلال أجيال متعاقبة، فإنها تستبقي المجتمع متحجرًا خارج حركة الحضارة، ويكون همُّه أن يوقف هذه الحركة أو يعرقلها. إن كل شيء ينمو ويتطوّر: الأفكار والعلوم والمؤسّسات والرؤى والأساليب والتقنيّات، فإذا أُجبر أي مجتمع أن يبقى مغلقًا عليه في قالب هويّة مغلقة فإنه يصبح خارج المسيرة الحضاريّة الإنسانيّة...

ونعود للموضوع الأساسي لنعيد التذكير بأن أحد الطبيبين، (وليم جيمس) قد انعتق من برمجة الطفولة وخرج من سجن التخصّص وبنى لنفسه مجدًا باذخًا بوصفه رائدًا فذًّا من رواد الفكر الخارق. فهو من القلة الاستثنائية المبدعة التي تتقدّم مسيرة الحضارة فتعمل على خلخلة العوائق وكشف الأخطاء وإرشاد السائرين وتحفيز المتردّدين، إنه بهذا الانعتاق التلقائيّ والسير عكس التيار السائد يمثّل حالة فرديّة استثنائيّة...

أما الثاني، (باروخ غولدشتاين) فلم تكن قابليّاته تؤهّله ليكون من القلة المبدعة ولم تكن دراسته للطب قادرة على اختراق بنيته الذهنية والعاطفية، فبقي غارقًا في الثقافة الموروثة. وبذلك ظلّ قابلاً للإثارة والتحريض العقائدي، فبقي عدوانيَّ الاتجاه، بدائي التفكير، كما هي حالة الأكثريّة من الناس في مختلف الثقافات مهما نالوا من شهادات دراسية. إنه بهذا الاطراد والانتظام مع السائد لا يمثل حالة فردية، وإنما هو يماثل بقيّة التيار ويمثِّله...

القسم الثالث

مقارنة بين:

1- الطّبيب الفرنسي الزعيم جورج كليمنصو

2- وطبيبٍ عربيٍّ حاكمٍ من أجل المقارنة الثقافيّة

كلاهما تخرَّج طبيبًا،لكنهما سارا في اتجاهين متضادّين: الأول اختاره شعبه لقيادة فرنسا في الحرب العالمية الأولى، فقادها إلى النصر الباهر وبقي مفخرة لفرنسا ونموذجًا للزعامة المخلصة الظافرة، بينما الثاني لا يهمه سوى البقاء في السلطة. فهما يمثلان ثقافتين مختلفتين نوعيًّا، فلو أزيل الحاكم العربي فوصل غيره إلى السلطة بشروط الحكم نفسها التي وصل بها من سبقه لما اختلف عنه. فالمعضلة ليست قضيّة أفراد بل صيغة ثقافيّة ونمط تفكير ومنظومة قيم، ذلك أن الفرق نوعيٌّ بين ثقافة تقوم فيها علاقات السلطة على الإقناع مقابل ثقافة تقوم فيها العلاقة على الإخضاع...

- الطبيب الفرنسي جورج كليمنصو استغرقت القضايا العامّة اهتمامه، فتخلّى عن مهنة الطب وانشغل بهموم فرنسا، فخلّده التاريخ صحافيًّا لامعًا ومجادلًا ظافرًا وزعيمًا باهرًا...
- عمل كليمنصو في الصحافة، فكان صوتًا مجلجلًا يُرعب المتخاذلين والمتواطئين والعاجزين والفاسدين والمتعصّبين...
- دخل البرلمان الفرنسي فكان الصوت الحرّ الذي لا تشغله مصلحة فردية أو حزبية، وإنما يهمّه مجد فرنسا وتحرير الإنسان، والإسهام في تحقيق أهداف الثورة الفرنسية...
- شَغَلَ منصب وزير الداخلية، وحين شاع التخاذل أمام هجمة ألمانيا النازية اختير رئيسًا للحكومة الفرنسية، بالاضافة إلى وزارة الدفاع، فقاد فرنسا إلى النصّر في الحرب العالمية الأولى...
- جورج كليمنصو لم تعرفه الدنيا بمهنة الطب، وإنما خلّده التاريخ كاتبًا وصحافيًّا وسياسيًّا ومناضلاً وزعيمًا وقائدًا...
- أما الطبيب العربي فيحصر اهتمامه بأن يبقى في السلطة.. ولكن هذا السلوك الاستبدادي الأرعن ليس نشازًا في التاريخ العربي ولا في الحاضر العربي، فهو نتاج ثقافة اعتادت الاستبداد السياسي، وتكيَّفَتْ مع الانغلاق الثقافي، فبقيت متخلّفة تعيد انتاج نفسها من دون أي تحسُّن أو تطوّر، فهي خارج منظومة الحضارة الإنسانيّة المتفاعلة...

هَجَرَ الطبَّ إلى الصحافة والسياسة فقاد فرنسا للنصر

الرواد والقادة في مجالات الفكر والفعل والسياسة والإدارة والعلم والفن والاختراع والاكتشاف والمغامرات الفاتحة والمهارات الفائقة لا يمكن تفريخهم قصدًا، ولا إنتاجهم عن طريق المدارس والمعاهد والجامعات. فما يجري تداوله في مؤسّسات التعليم هو من المعارف السائدة المستقرة، وهو ليس تهيئةً للريادة، بل للأعمال التنفيذية. ليس هذا فحسب، بل إن الانعتاق من امتثالات التعليم والانفكاك من قيوده هو معضلة أخرى يصعب التحرّر منها تنضاف لقيود البرمجة الاجتماعيّة والتبرمج التلقائيّ بثقافة البيئة. فكل رائد انعتق من سلسلة من دوائر التأطير ثم صار مغايرًا لمن حوله فهو يشبه ملكة النحل التي تختلف وحْدها عن كل أفراد الخلية. فالرواد يفكرون باستقلال ويسيرون عكس التيار العام، ويحاولون تغيير اتجاه القطيع. إنهم مختلفون في تفكيرهم وتصوّراتهم وقيَمهم ونماذجهم وقُدْواتهم واهتماماتهم عن الكتل البشريّة الذائبة في التيار العام. إن الرواد نباتٌ استثنائي نادر فيخرجون عن المألوف بنبوغهم وحْدَه، ويبنون أنفسهم بمحض اهتمامهم التلقائيّ القوي المستغرق ومبادراتهم الخارقة ومواهبهم الفريدة من دون أن يخطِّط أحدٌ لتكوينهم، أو خلق الفرص لهم، أو حملهم على أكتاف غيرهم. إن حوادث مثيرة مزلزلة مما يتكرّر للجميع تستقبلها قابليّات استثنائية شديدة الحساسية يَتَغيَّر بها مجرى حياة أحد الأفراد، فينفصل ذهنيًّا عن التيّار السائد ويصبح غير مندمج في القطيع. إن الرواد يظهرون من حيث لا يتوقع أحدٌ ظهورهم. فلا فرق بين أن يكونوا في مجتمع متقدّم أو في مجتمع متخلّف، ومن أُسَر غنية أو فقيرة، ومن أبوين متعلّمين أو أمِّيِّين، إنـهم نتاجُ أنفسهم وليسوا صنيعة غيرهم، ويقابَلون غالبًا بالاستخفاف أو المقاومة فلا يمكن أن يستجاب لهم إلا بعد إهمال ممضٍّ، أو رفضٍ موجعٍ...

وقد كان العرب في العصور القديمة حينما كانوا على تلقائيّتهم الفطرية يُدركون ندرة النوابغ، ويعرفون أن النابغة لم يتلق تعليمًا خاصًا ليس متاحًا لغيره من المحيطين به، وإنما لأسباب متنوّعة تنشأ لديه حساسية خاصّة وحادة، تجعله يتأثّر بالحوادث والظروف تأثُرًا مغايرًا للعامة، فيصير نابغة. لذلك فإن النبوغ يفاجئ الناس لندرته وعدم توقّعه. لكن هذه الحقيقة الكبرى قد التبستْ في أذهان الكثيرين بعد تعميم التعليم، فتوهّموا أن اجتياز مراحل التعليم بتميّز هو دلالة النبوغ، وغاب عنهم أن التميّز التعليمي قد يكون دلالة الغرق في الإمَّعية والامتثال وفي المحاكاة وتلقائيّة الانقياد، وغياب أو ضعف نزعة الاستقلال حيث يكون الدارس محصورَ الاهتمام في ما يراد منه، وليست له اهتمامات معرفيّة خاصّة مغايرة للسائد، وفي هذه الحالة لا تكون له اهتماماتٌ ذاتيّة وإنما هو ذائبٌ في التيار العام. إن النزعة الفرديّة المنفكة عن القطيع ليست تلقائيّة، لأن الأصل التلقائيّ أن الإنسان كائنٌ اجتماعي، فهو قطرة في التيار السائد. فالنزوع الفردي اكتشافٌ لا يأتي إن أتى إلا متأخرًا، كما أنه على المستوى الإنساني يعد من التغيّرات النوعيّة التي طرأت أخيرًا على الحضارة الإنسانيّة. ومع كل القوانين والإجراءات في العالم الحر التي يراد منها تأكيد الفردية، فإن أكثر الناس غير قادرين على ممارسة فردية حقيقية في التفكير والتصوّرات والبصيرة، حتى في أشد المجتمعات انفتاحًا وتحرّرًا. فالإنسان بطبيعته ليس فرديًا، وإنما هو كائن اجتماعي يذوب في التيار العام مهما تعلّم...

تنشأ التقاليد وتترسّخ الاتجاهات ثم ينسى الناس الظروف التي كانت خلف نشأتها. ففكرة تعميم التعليم ظهرتْ في الغرب ليس لإنتاج المبدعين والرواد والقادة، وإنما لتخريج العاملين المهنيين في القضاء وفي الطب والتعليم والهندسة والمحاسبة والمحاماة والجيوش والأعمال المكتبيّة البيروقراطيّة وغير ذلك من مجالات العمل المهني. وقد جاءت هذه الفكرة في الغرب بعد الثورة الصناعية، وبعد ظهور دولة الخدمات استجابةً لمتطلّبات مختلف الأعمال الطارئة، خروجًا من التعليم اللاهوتي المحدود الذي كانت تسيطر عليه الكنائس، والذي كان غير عامٍّ، وإنما كان محصورًا في فئة محدودة لتخريج رجال الدين كهدف رئيسي، ثم تخريج أفراد بأعداد محدودة في القانون والطب. ولم يكن التعليم الجامعي آنذاك في أوروبا يتجاوز هذه التخصصات الثلاثة، وكلّها كانت تأتي ضمن سلطة الكنيسة بتفكيرها اللاهوتي...

أما تعميم التعليم فقد ظَهَرَ في الغرب كتعليم دنيوي محض مقابل تعليم ديني كان سائدًا وتابعًا للكنيسة. فبالإضافة إلى هدف تخريج المهنيين فقد كان التصور في عصر التنوير أن الإنسان كائنٌ عقلاني متى تَوَفَّر له تعليمٌ عقلانيٌّ سليم وهو تصوُّرٌ أثبتت التجربة عدم صحته. ولكن مع طوفان الاهتمام بالتعليم الجمعي والإنفاق السخي عليه، والتبجيل المتكرّر وربط مصير الأجيال به، واحتفالات التخرج التي تغرس الانتفاش وتُوهم بالتميّز وتتحدث عن نتائج عظيمة لا وجود لها. إن هذه الجَلَبة ومظاهر كثيرة غيَّبَتْ حكاية نشأة التعليم الجمعي، وأخْفَتْ تلقائيًّا أن الهدف منه ليس تخريج المبدعين وإنما تخريج المهنيين استجابةً لمطالب العمل بعد الثورة الصناعية. وفي هذه الغفلة غابت البداهة التي توارثتْها الأجيال، وشهدتْ لها حوادث التاريخ، وأكّدها العلم عن ندرة المبدعين، وعن الفروق الفردية. فحصل الخلط بين من تؤهّله قابليّاته للقيادة والريادة والإبداع إذا تعرَّضتْ هذه القابليّات لما ينتشلها من الذوبان في التيار، فيهزّها ويثيرها ويكسر إطارها المغلق، ويزيل قوالبها الضاغطة. فيتكوَّن بهذه الإثارة اهتمامٌ تلقائيٌّ قويٌّ، مستغرق بفكرة خارقة مسيطرة.. وبين من لا تؤهّله هذه القابليّات إلا للانقياد والامتثال والتقليد والإتباع والذوبان في التيار العام، مهما واصل التعليم، ومهما حمل من شهادات، بل كلما أطال مدة الدراسة تأصَّل فيه الامتثال وتعمقت الإمَّعيّة...

لقد شاع الوهم بأن المتماثلين في الشهادات الدراسيّة والأكاديميّة متماثلون في القدرات الذهنية والمعرفية،ومتساوون في الكفايات وفي المهارات المهنية وقدرات الأداء وفي إمكانات القيادة في الفكر، أو الفعل. بل لقد اعتقدنا بأن من يحمل شهادة في علم الإدارة مثلًا، مهيأ تلقائيًّا لأن يكون مديراً. لقد غاب عنا الفرق الجوهري بين المعلومات التي هي مواد لبناء المعرفة وبين المعرفة ذاتها التي لا تصير معرفة حقيقية إلا بالممارسة الحيّة حين تذوب في ذات العارف فتصير تلقائيّة الجاهزية، دائمة الحضور. كما خفي عن الكثيرين الفرق النوعي بين المعرفة النظريّة والمهارة العمليّة، وهما نوعان مختلفان، كما أفلَتَتْ حقيقة الفروق الفردية التي تفصل فردًا عن آخر مهما تماثل نوع ومستوى التعليم. أما الأشد غيابًا فهو امتياز الرواد المبدعين وندرتهم التي أثبتتْها حقائق التاريخ على مر العصور وغفلنا عن أن التعليم يلتحق به الجميع، وأن

أغلبهم رغم تعليمهم لا يتجاوزون مستوى الامتثال والتقليد والترديد والانقياد ولا يملكون مؤهّلات القيّادة، ولا ينطوون على قابليّات الإبداع مهما حملوا من شهادات أكاديمية. حتى الأستاذ الجامعي مهمّته أن ينقل لطلابه معارف جاهزة أنجزها غيره، فهو مجرّد ناقل. أما إذا صار الأكاديمي مبدعًا فإن هذا يجعله خارجَ صفته الأكاديمية. إنه بهذا الإبداع يكون قد وَثَبَ خارج الإطار الرتيب كما هي حالة أُمبرتو إيكو وأمثاله، وهم ندرة...

لقد شاع الخلط بين تحصيل المعلومات في المدارس والجامعات وبين التميّز الذي هو امتيازٌ فردي يتيح للمتميّز أن يخترق الحواجز الثقافيّة ويتجاوز المألوف، ويأتي بما لا يستطيعه زملاءُ الدراسة ولا المعلمون الذين حاولوا تلقينه، وحرصوا على برمجته بما تبرمجوا به هم في طفولتهم، وما تلقّوه بامتثال وإمَّعيَّة في المدرسة أو الجامعة. لكنَّ الذي يملك قابليّات ريادية ويتعرَّض لمواقف توقظه وتهزّه ينعتق بهذه الإثارة التي هزته وأيقظته فيتكوَّن لديه اهتمامٌ تلقائيّ قوي مستغرق بقضية جادة لا فكاك له منه إلا بالاستجابة له. أما كيف يتكوَّن هذا الاهتمام التلقائيّ فإنه لا يوجد سببٌ محدَّد لانبثاقه وإنما هو يبدأ كانبثاق تلقائيّ بسبب حادث مزلزل، أو موقف مثير يصادف قابليّات مستعدّة، فيفلت من البرمجة الدامغة ويندفع لبناء نفسه بنفسه...

إن الرائد لا يخطّط لنفسه، ولا يخطّط له غيره لكي يكون رائدًا، وإنما تتكوَّن مقومات الريادة تلقائيًّا بما يتعرَّض له الفرد من أوضاع وحوادث وظروف ومصادفات وبذلك يخرج من دون تخطيط منه، أو من غيره، من دائرة القطيع إلى دائرة التفرُّد، فيندفع تلقائيًّا في الاتجاه المغاير باهتمامٍ تلقائيٍّ. وقد ينتهي به هذا الاندفاع التلقائيّ المستحوذ إلى مستوى الريادة فيجري خلف القضيّة العامّة التي تؤرقه. إنه رغم فاعليّته العظيمة ليس مُلْك نفسه، بل يكون مدفوعًا باهتمام تلقائيّ قوي مستغرق يستحوذ عليه، فهو يسعى خلف هدفٍ عامٍّ يتحكَّم به، فلا يستطيع وقْف أو دفْع هذا التوقّد المؤرق، وبذلك يخرج من قوقعة الاهتمام الاضطراري الذي يحدّده النظام التعليمي لينطلق مندفعًا في مجالات اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق، فلا يحدُّه ضيق التخصُّص ولا تغُلُّه قيود الثقافة السائدة، ولا تخدّره الأوهام التي تتحكّم بالقطيع، وإنما يُحَلِّق فوق الحواجز المانعة ويرتاد الأمكنة المجهولة ويكتشف الآفاق المحجوبة ويتوصّل إلى حقائق

كانت مغيَّبة ومطمورة، ويصنع لذاته قيماً خاصّة ويعيد بنفسه ترتيب الأولويات، وتكون له اهتمامات مغايرة للسائد، ويغرِّد خارج السرب. وهو بذلك يكون ضمن قطب رواد وقادة الفكر، أو الفعل، أو الإبداع في أي مجال من مجالات العلم أو الأداء. فيعرفه الناسُ فيلسوفًا، أو عالمًا أو شاعراً، أو روائيًّا، أو سياسيًّا، أو صحافيًّا، أو موسيقارًا، أو فنانًا تشكيليًّا، أو مطربًا، أو مكتشفًا، أو لاعبًا يذهل المشاهدين ببراعته وخفة حركاته وتميّز أدائه...

إن الأوضاع محكومة بقانون القصور الذاتي. فالأصل في كل المجتمعات هو الانتظام التلقائيّ على الموروث والرفض العنيد الصارم للأفكار الطارئة، ومحاربة الخروج عن الانتظام، ومقاومة الرواد. لكن المجتمعات المزدهرة تجاوزت مرحلة الرفض الأيديولوجي التلقائيّ. ورغم ذلك فإنها لا تستجيب لروادها إلا بعد تلكؤ قد يطول، ويكون التلكوء بمقدار ثورويّة الأفكار الجديدة وبُعْدها عن السائد. لكن المهم أن الاستجابة الإيجابيّة في النهاية تتحقّق بخلاف المجتمعات ذات الثقافات المنغلقة حيث تزداد انغلاقًا مع كل فكرة مغايرة، لأن الفكر المغاير يستفزّ جهازها المناعي فتحتشد المقاومة ويشتد الرفض. وبذلك تكون المجتمعات ذات الثقافات المغلقة محكومة بقانون القصور الذاتي وقانون الانتروبيا معًا؛ كما تكون محكومة بالتراكم التلقائيّ السلبي. فكل شيء نتاجه من جنسه، فالتخلف يُنتج المزيد من التخلف. فمع كل هزة يتم إنشاء المزيد من الحصون ويتكوَّن المزيد من الحواجز الذهنية والنفسية...

يتوقع الكثيرون بأن المبدعين في المجتمعات المتقدّمة يجدون استجابةً فورية وتلقائيّة، لكن تاريخ الأفكار الخلّاقة والعلوم والتقنيّات وكل الإبداعات يثبت أن الرواد يعانون في مرحلة من مراحل إبداعهم من الاستخفاف والإهمال حتى في المجتمعات المتقدّمة، إلى درجة أن بعض كبار المنظّرين في العلوم أمضوا حياتهم بمرارة وربما أنهوها بالانتحار؛ وفي أحيان كثيرة لا يتمّ الاعتراف بالنظريّة إلا بعد أن يكون الرائد قد مات وعانى في حياته مرارة التجاهُل. إن هذه ليست مأساة المبدعين والرواد وحدهم، ولكن هذه الطبيعة البشريّة الرافضة تلقائيًّا للمغاير كانت وما زالت هي العائق الأكبر والأكثر استعصاءً للتقدّم الإنساني. فمن المحال أن يعترف الناس بسهولة لأفراد مثلهم من لحم ودم ويعيشون بينهم بأنـهم أفرادٌ استثنائيون، وأن تغريدهم خارج السرب ليس

بدعة ضالّة، وإنما هو إبداعٌ نافع يتجاوز الجاهز والمألوف. فلو أن المجتمعات تدرك ذلك بسرعة وسهولة، فتنقاد للرواد وتستجيب لأفكارهم، وتتقبَّل أُطُروحاتـهم لجنت أروع الثمار؛ ولكن الطبيعة التلقائيّة لأي انتظام تحول دون ذلك. إن الناس يحكمون على الجديد بمنظار ومعايير التصورات السائدة فتغيب عنهم أهميّة أفكار المغرِّدين خارج أطواق المألوف. فليس من السهل إدراك خطأ الاتجاه السائد، فقبول الريادة قد يقتضي تغيير اتجاه السير. وبهذا الرفض التلقائيّ للمغاير تُحرم المجتمعات من التحوّل الواعي والانقياد الرشيد الذي يتحقّق به الازدهار...

وإذا كان المبدعون حتى في المجتمعات المتقدّمة يكابدون كل هذه المكابدة بسبب الطبيعة البشريّة التلقائيّة، فإن معضلة المبدعين في المجتمعات المتخلّفة هي معضلة أبديّة وغير قابلة للانفراج. فهي مجتمعاتٌ ترفض أن يُغرِّد أحدٌ من داخلها خارج السرب، وتفرض على الجميع الاندماج الكلّي في المجموع، وتطمس فردية الإنسان، وتوصد كل الأبواب، وتُغلق كل النوافذ عن أي ضوء قادم. إنها تتوهّم الكمال وتعتقد بالاكتفاء، فتبقى جامدة في مكانـها تدور مع المسارات التاريخيّة نفسها، أو تتقهقر وتنحدر نحو المزيد من التخلف...

إن الحياة الإنسانيّة تقوم على قُطبي القيادة والانقياد.. الإبداع والإتِّباع.. الريادة والاستجابة.. ولكنها لا تكون نامية ومتغيِّرة إلا إذا حصل التفاعل الإيجابي بين قادة الفكر وقادة الفعل، وتحقّق التكامل بين الانتظام والارتياد، وتوفَّر التناغم بين الإبداع والاتِّباع. أما إذا جرى التركيز على الانتظام وأُهمل الإرتياد فإن الحياة تبقى راكدة بفاعليّة قانون القصور الذاتي، أو تبقى متقهقرة بفاعليّة الأنتروبيا، وتبقى المجتمعات عاجزة عن التطوّر، ولا تستطيع مشاركة الأمم المزدهرة...

ونحن في هذا الفصل أمام حالة من حالات الريادة الفارقة. فلقد كان الطبيب الفرنسي جورج كليمنصو أحد القادة الذين جمعوا بين قدرة الفكر وقدرة الفعل وفصاحة اللسان وبلاغة القول وإبداع الكتابة. فلقد درس الطب لكن اهتماماته التلقائيّة القوية المستغرقة كانت أوسع وأعمق، وكانت أكبر وأرفع من أن يظل حبيس مهنة الطب بل كانت فرنسا كلها هي همُّه الأساسي والمحوري. كان يريدها حُرَّةً قويّةً. وكان يريد أن يكون كلُّ

الفرنسيين أحرارًا، وأن يعيشوا بكرامة مصونة، وأن يتنعّموا بوطن آمن، وكان حريصًا على إزالة أسباب النـزاع المتكرّر مع ألمانيا، بل كان من دعاة توحيد قارة أوروبا بأكملها، أو على الأقل الوصول بـها إلى حالة من السِّلم الدائم. ليس هذا فحسب، بل كان صاحب رؤية إنسانيّة تحلم باتّحاد البشريّة وانتهاء الحروب والصراعات...

وحين رأى الأوضاع بفرنسا في الربع الأول من القرن العشرين تتّجه نحو تضييق الحرّيات، سافر إلى الولايات المتحدة الأميركيّة وعمل في الصحافة، ثم عاد إلى وطنه وشارك في إنـهاء حالة التراجع مما يُعدُّ تأسيسًا للجمهورية الفرنسية بنموذجها الحالي. ولم يكن يهادن أحدًا إذا تعلّق الأمر بمصلحة فرنسا؛ فقاوم أي سلوك انتهازي. وكان يحرص على استقامة الأمور وتوطيد العدل. فإذا رأى حيفاً قاومه حتى لو كان يتعلّق بفرد واحد، كما فعل حين دافع بقوة عن ألفريد درايفوس الذي أُدين ظلمًا بالتجسس للألمان. ولكن، بفضل كتابات ونضال كليمنصو وآخرين، وبتأثير الاحتجاج القوي الذي نشره الكاتب الفرنسي إميل زولا تحقّقتْ تبرئته والاعتذار منه. وأدت هذه القضيّة إلى نتائج كبرى تجاوزت نطاقها الفردي إلى الواقع السياسي في فرنسا برمته...

كليمنصو لم يعرفه التاريخ طبيبًا منغمسًا في مهنة الطب الذي دَرَسَه ومشغولًا بأمراض جسم الإنسان الفرد، ولم تتحدّث الدنيا عن مهاراته الطبية في معالجة هذه الأمراض الجسدية الفرديّة، وإنما عرفه الناس، واحتفى به الكُتّاب، واهتمَّ به المؤرخون والسياسيون بوصفه الكاتب الحاد والصحافي اللامع، والبرلماني المرهوب، ووزير الدفاع الحاسم، ووزير الداخلية الصارم، ورجل الدولة العظيم الذي اهتمَّ بالمجتمع كلّه، وشَغَلَهُ الوطن برمّته، والذي ذكره تشرشل في مذكراته بالكثير من الإجلال والكثير من التبجيل.. أجل تشرشل المعروف بالشدة والصلابة والاعتداد المفْرط بذاته وبصعوبة أن ينال أحدٌ إعجابه: لا يُخفي احترامه الشديد للطبيب السياسي الذي قاد فرنسا إلى النصر في الحرب العالمية الأولى، وهو إعجابٌ وثناء لم ينلهما ديغول رغم عظمته. فلقد أشار إليه في مذكّراته إشارة باهتة وكأنه أمام جَمَل صبور وليس أمام زعيم ملهم...

لقد ظل جورج كليمنصو رمزًا للكفاح والشجاعة والإقدام والحسم والصلابة

والانتصار. فبعد اندحار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فإن قائد الانتصار الآخر شارل ديغول حين عاد إلى باريس منتصرًا وقف إجلالاً أمام تمثال نابليون وتمثال كليمنصو بوصفهما من أعظم القادة الذين تفخر بهم فرنسا. إن اقتران اسم كليمنصو باسم نابليون ذو دلالة حاسمة في أن التخصّصات الدراسية لا تحدِّد أقدار العظماء وإنما تحدِّدها اهتماماتهم التلقائيّة القوية والمستغرقة التي تصنع الفرق وترفعهم إلى مستوى الرواد والقادة والعظماء...

كليمنصو لم يدرس في الجامعة علوم الحرب أو السياسيّة، ولم يدخل كليّة عسكرية، ولم يدرس الصحافة، ولكنه وهو الطبيب ترأَّس الوزارة الفرنسية مرتين وشَغَلَ منصب وزير الدفاع بعد أن عمل في الصحافة، وشغل مناصب سياسيّة عدّة متنوّعة من بينها منصب وزير الداخلية...

والأهم من كل ذلك أنه وهو الطبيب كان يلقب بالنمر الفرنسي، ويطلق عليه وسام (صانع النصر). وكان كما جاء في موسوعة السياسة: «.. لولب الحياة السياسيّة الفرنسية طيلة نصف قرن. وكتب عدة مؤلفات عن الحرب. وهو صاحب القول المأثور: الحرب عمليّة جادة لدرجة لا تسمح بتركها للعسكريين فقط..». إنه يدرك بأن العسكريين وهم المتخصّصون بخوض الحرب وإدارة المعارك ليسوا مؤهّلين لاتخاذ قراراتها، وإنما هم مؤهَّلون فقط لتنفيذ الأوامر بعد أن يقرر السياسيون خوض الحرب. فهو صاحب مقولة: «الحرب أعظم من أن تُترك للعسكريين». لقد أراد بهذا القول أن يستفزَّ العسكريين المتخاذلين، وأن يسْخَر منهم أيضًا ويقَلِّل من شأنهم فهم يتلقّون الأوامر من الساسة ولا يُصدرون الأوامر. فالتشكيلات العسكرية هي أجهزة تنفيذية تُنَفِّذ قرارات الحرب ولا تُصدرها، وهذا هو شأن كل المتخصّصين في كل المجالات، فهم تنفيذيون وليسوا مبدعين بمحض التخصص. أما إذا أبدع أحدهم فهذا تميّز فرديٌّ وليس محسوبًا للتخصص، لذلك فإنه حين يقرر السياسيون أو القادة الإداريون إنشاء مشروع ضخم لا ينهض به فردٌ واحد بل يشترك في تصاميمه والإشراف على تنفيذه حشدٌ من ذوي التخصّصات المختلفة...

إن جورج كليمنصو يعتبر نفسه امتدادًا للثورة الفرنسية. وكان يحسّ بالمسؤولية

الفرديّة والقوميّة والإنسانيّة لمواصلة تحقيق الأهداف الإنسانيّة العظيمة لتلك الثورة المزلزلة التي أعادت ترتيب العالم وبدَّلت تصوراته وقيمه وفتحت آفاقًا جديدة للحرية والعدالة والمساواة والإخاء، ليس فقط على المستوى الفرنسي وإنما على المستوى الأوروبي والعالمي، وكان يقول: «إن هذه الثورة الرائعة والتي بها وُجِدنا لم تنتهِ». إنه يَعتبِر أن الوجود الفرنسي الحقيقي الذي يستحق التضحية ويدعو للافتخار هو الوجود الذي صنعته الثورة الفرنسية، فهي حركةٌ إنسانيّة مستمرة وليست فورة محليّة عابرة. وكما يقول فرانسوا دوس في كتابه (التاريخ المفتَّت): «فالثورة الفرنسية ذلك الرمز العالمي للتحرر ما زالت بقوّة معناها هدفًا وخَطًّ اختلاف أساسي بين أولئك الذين يريدون دفنها للدفاع عن امتيازاتهم وأولئك الذين يتمنّون أن يبنوا عالَمًا أكثر عدالة.. لا.. فمن المؤكد أن الثورة الفرنسية لم تنتهِ». فإذا كان روسو الذي لم يدخل جامعة هو منظِّر الثورة الفرنسية، فإن كليمنصو هو أحد القادة الذين عملوا على حماية ونشر وترسيخ مبادئها...

كليمنصو عاش مع هموم فرنسا باهتمام تلقائيّ قويّ مستغرق، كما كان عالميَّ الإحساس، فلسفيَّ الموقف، إنساني الرؤية؛ لذلك انغمس في البداية في العمل الصحافي لأنه النشاط الذي أتاح له التعايش اليومي مع همومه الوطنية العامة التي كانت وظلتْ تشغل ذهنه. أما انتقاله من العمل الصحافيّ إلى العمل السياسي المباشر فهو استمرارٌ على نفس الخط، فالهَمُّ هو ذاته لم يتغيَّر وإنما تغيّرت الوسيلة فقط؛ ولولا هذا الهم المؤرق بالوطن وقضاياه وبالإنسان وطموحاته لبقي طبيبًا لا يعرفه سوى حفنة من المرضى...

إن سيرة كليمنصو قد حظِيَتْ باهتمام الدارسين إلى درجة أن كتابًا واحدًا من الكتب التي صدرت عنه يقع في مجلدين، وهو من إنجاز جان مارته؛ وفي كتاب (العقائد والأفعال) للمبدع المفكر ألدوس هكسلي ينصح الناس بقراءة هذا الكتاب، ثم يسجّل عن كليمنصو: «يستحيل علينا ألا نعجب بالنمر المسنّ، كما يستحيل علينا أن نمتنع عن الإجلال اللازم لرجل فذ.. ومهما قلنا في الموضوع تظلّ القوة أكثر الأمور مدعاة للإعجاب.. القوة الفطريّة التي يتّصف بها الفرد.. الطاقة الشيطانيّة اللازمة للحياة.. بهذه القوة الفطريّة الأصيلة والطاقة الحيّة اعتُبر جورج كليمنصو موهوبًا.. ولا شك أن

الرجل العظيم يختلف عن العاديين من الناس بكونه ممسوسًا بأرواحٍ أقوى من أرواح البشر.. وما يهمني من هذه الأرواح هو أنها أكثر من أن تكون بشرية، وأن نفوذها فوق الطبيعي يخلق العظَمَة ويُلزمنا بالإعجاب». إن الأوصاف التي أطلقها هكسلي على جورج كليمنصو تؤكّد أن اندفاعه كان تلقائيًّا، وأن كيانه كلَّه كان يغلي بطاقة متفجّرة لا يستطيع كبحها،فالتوَقُّد الوطني والهَمُّ الإنساني ليسا اختيارًا، وإنما هما انفعالٌ تلقائيّ مثل الغضب والخوف والقلق والتوتّر، وهذا هو شأن كل المبدعين حيث يكونون متحمسين ومندفعين رغمًا عنهم. وهذه الظاهرة تؤكّد أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، وأن التَّفَهُّم العميق لهذه الطبيعة التلقائيّة هو الذي يجعلنا نهتم بإثارة الاهتمام وتغذيته وتنميته. فالإنسان لا يتعلّم ولا يبدع إلا إذا اندفع تلقائيًّا، أما إذا اضطر إلى التعلُّم أو العمل اضطرارًا فسوف تبقى قابليّاته مجدبة، وتظلّ مواهبه خاملة.إن هذا التوقّد التلقائيّ هو ما أراد هكسلي أن يؤكّده كأبرز خصال كليمنصو. إن الطاقة المتفجّرة في كيانه كانت محل إدراك كل الذين عرفوه. فحين ذَكَرَه مايكل ماندلبوم في كتابه (الأفكار التي غيَّرَتْ العالم)، لم يصفه بأنه بارعٌ في مهنة الطب وإنما وصَفَه بأنه من أبرز القادة الغربيين العظماء، وبأنه صاحب إرادة حديدية. فلم يكن غريبًا أن يأتي كتاب ليون دوديه بعنوان (كليمنصو وحياته العاصفة)، فقد كانت حياته عاصفة بالاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق...

جاء في كتاب (الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين) للدكتورة بشرى قبيسي وموسى مخوَّل: «كان كليمنصو مناضلًا برلمانيًّا قديمًا وعقلاً نافذًا، لا يتراجع أمام طيب الكلام أو شديده.. لذا كانت المناقشات معه تأخذ بعض الأحيان طابعًا قاسيًا.. كما كان متشائمًا يحتقر الإنسانيّة عامّة ومعظم الناس خاصة، من دون أن يستثني منه رؤساء الدول الذين كانوا على اتصال به. فقد كان رجلاً متفوق الذكاء قوي الطباع، وكان وطنيًّا متحمِّسًا، لا يكلُّ ولا يملُّ». وهو في احتقاره للدهماء يقيم رؤيته على الواقع البشري وقابليّات الناس للتبرمج بالأوهام والذوبان المطلق في ما تبرمجوا به. إنه في يأسه من الجموع الرعناء يتّفق مع الكثيرين من المفكرين والفلاسفة الذين اكتشفوا عطالة العقل الجمعي وخضوعه للتضليل والإثارة والاستهواء والرعونة والحمق. لذلك لم يكن غريبًا أن يقول: «أتعلمون ما هي الديمقراطية؟ إنها قدرة البعوض على أكل الأسد». فالبشريّة لم تجد وسيلة لمنع الاستبداد سوى تحكيم الشعب باختيار ساسته

رغم عجز الدهماء المطلق عن التميز. وأمام هذه المعضلة احتار المفكرون. فغوستاف لوبون يقول: «ليس التقدّم الديمقراطي في نزول النخبة إلى مستوى الجمهور وإنما في ارتقاء الجمهور إلى مستوى النخبة». لكن هذا الارتقاء محال، لذلك انتهى السياسي الداهية تشرشل إلى أن: «الديمقراطية هي أقلّ الأنظمة سوءًا»، أي إنها سيّئة، لكن لا مفر منها لتقليل الشرور البشريّة التلقائيّة. وهذا هو ما عناه الفيلسوف المبدع برنارد شو حيث يقول: «بدلًا من تعيين أقليّة مستهترة.. تُفَضِّل الديمقراطية الانتخابات من قِبَل جمهور قاصر وغير كفء». ويقول بسخرية ويأس واحتجاج: «إن الديمقراطية لا تصلح لمجتمع جاهل لأن غالبيةً من الحمير ستُحَدِّد مصيرك». وقد كان الفيلسوف الاسباني خوسيه أورتيغا جاسيت يسخر من الواقع البشري، ويهزأ بمهزلة العقل الجمعي، ويرى ضرورة التحرّر من الحس العام. كما كان يرى ضرورة التحرّر من تأثيره.. كما كان يرى ضرورة خلق عالم إنساني جديد مخالف لما اعتاده الناس وتآلفوا معه...

وقد كان كليمنصو يؤمن بالقلّة المبدعة، ويستخفُّ بعامة الناس مهما نالوا من تعليم جمعي، لأنهم يبقون ذائبين في التيار العام، ومن النادر أن يفيقوا من هذا الذوبان. وقد دفعه إعجابه بالخطيب اليوناني الشهير ديموستين.. إلى أن يؤلف عنه كتابًا كاملًا.. وقد ذَكَرَهُ كلود نيكوليه في كتابه (فكرة الجمهورية في فرنسا)، ووَصَفَه بأنه كتابٌ رائع. فالطبيب كليمنصو لم يؤلّف في الطب ولم يكتب عن طبيب وإنما أَلَّف عن الوضع الإنساني وكتَب عن خطيب...

ولِحِدَّة ذكاء كليمنصو ونفاذ بصيرته وثراء تجاربه ودقة ملاحظاته فقد كان يشمئز من طوفان الحماقات البشريّة، ويزدري تيارات الغباء العام. فكان حاد النقد، وكان يتهكَّم بالأفراد والجموع، فهو ذو روح ساخرة ودعابة موجعة وسرعة بديهة لافتة؛ ومع قوته فقد كان يكره العقلية العسكرية البليدة ويستخف بالعسكريين وكانت سخريته الحارقة تمتد إلى الكلّ...

إن جورج كليمنصو ينظر إلى أي شعب بوصفه كتلة عمياء. فالشعب محمولٌ بمركبة واحدة مهما تعدّدت اتجاهاته. إنه يتجمَّد بأكمله، أو يتحرّك بأجمعه، فيقول: «إن الثورة الفرنسية كتلةٌ.. لأن المجتمع مثله مثل الطبيعة لا يسلك إلا بالطفرات والقفزات». إنه

كتلة غير عقلانية تحرّكها عوامل عقائدية، أو إثارة قومية، أو نعرة وطنية، وكلّها ذات منبع عاطفي غير عقلاني. إن أي مجتمع يشبه النهر في تدفُّقه. إن الأفراد مبرمَجون بتصوّرات متماثلة تحدد اتجاههم ومنظومة قيمهم ومحور اهتمامهم فيتحرّكون تلقائيًّا في الاتجاه نفسه، إنهم حشودٌ من الإمَّعات. أما التعليم فهو لأكثر الدارسين لا يتجاوز التأهيل المهني، وربما مع انغماسٍ أكثر بتقديس الماضي إن تأثيره على العقول المتشكِّلة هو تأثيرٌ ضئيل غايةَ الضآلة.. إلا بربطهم بما تبرمجوا به قبله. لذلك يقول كارل مانهايم: «يكون وجود المجتمع ممكنًا لأن أبناءه يحملون في رؤوسهم صورةً مشتركةً عن هذا المجتمع: تاريخًا وحاضرًا ومستقبلاً. وبذا نرى العالم وأشياء بعينها في العالم بطريقة واحدة جمعية». فالتصوّر المحوري الذي تَبرمَج به الأفرادُ تلقائيًّا هو الذي يوجِّه نشاط الجميع، ويطبع طريقة تفكيرهم، ويحدّد منظومة قيمهم؛ وتتفرّع عنه مجموعة اهتماماتهم. إن العقل البشري يتحرّك تلقائيًّا وفْق نماذج عامّة مستقرّة...

ليست المعلومات هي التي تحرّك النشاط وتدفع للتعلُّم والعمل، بل إن الناس ينشطون إلى التعلُّم والعمل والإنجاز والمغامرة بتأثير نماذج تصوّرية هي التي تتكوَّن بها اهتماماتهم وتحتشد بها طاقاتهم. إن الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق بدافع الولاء والبراء، مع أو ضد، هو محرِّك النشاط، وهو محدِّد الاتجاه وهو مصدر البراعة في أي مجال من مجالات الفكر والفعل. فالهَمُّ يستنفر قدرات الإنسان ويستحثّه على مواصلة النشاط في البحث والتحقّق أو في العمل والأداء. إن الاهتمام التلقائيّ العميق هو الذي يجعله يستطيب المشقة في البحث والعمل. إن الأشياء والأفكار والمعلومات تَكْتَسِبُ بالاهتمام الشديد صفات جديدة ويصبح للحوادث وقعٌ مختلف. فمع الاهتمام التلقائيّ يعيد الإنسانُ ترتيب كل شيء، وتأخذ الأمور قيمًا جديدة تحت أضواء الاهتمام الشديد والمعرفة النامية...

ومن المعروف أنه حين هاجم الألمان فرنسا في الحرب العالمية الأولى كان (أرسطو برياند) هو رئيس الحكومة الفرنسية. وقد استقال برياند لعجزه عن مواجهة الأزمة. وتعاقبتْ بعده حكوماتٌ فرنسية ضعيفة تساقطتْ تباعًا، واحدة بعد الأخرى. وحصلتْ حركة تمرّد في فرنسا. فلما أُسندتْ رئاسة الحكومة إلى جورج كليمنصو: «أعاد إلى البلاد وحدتـها الوطنية، وأنـهى حركة التمرّد، ووقف الرأي العام الفرنسي

خلفه، واستعادتْ فرنسا معنوياتـها وقدرتـها على التضحية الكبرى من أجل النصر النهائي. ولخَّص كليمنصو سياسته في العمل على الإفادة من كافة طاقات فرنسا وشعبها، أما بشأن الحرب فقد أبدى صلابةً شديدة إزاء العدو وإصرارًا على كسب الحرب». وقد أعلن بكل صدق ووضوح وبكل صرامة وتصميم للمتخاذلين وللشعب الفرنسي بكل فئاته وللعالم أجمع: «إن سياستي الخارجيّة وسياستي الداخليّة واحدة.. سياستي الداخلية أن أحارب وسياستي الخارجية أن أحارب، وأن أحارب دومًا». فلم يكن يرى للحياة معنى إلا أن يتحقّق تحرير فرنسا من التخاذل الداخلي ومن العدوان الخارجي، مهما كانت التضحيات المطلوبة لتحقيق هذا التحرير المزدوج. وقد تحقّق له ما أراد. هكذا هي القيادات العظيمة لا تصنعها المذكرات المدرسية ولا ترمز إليها الألقاب الأكاديميّة، وإنما هي عنفوانٌ تلقائيّ متفجِّرٌ من أعماق الذات. فحين تخاذل الجنرالات والسياسيون واجه كليمنصو، وهو الطبيب، هذا التخاذل بمنتهى الصرامة والقوة والتصميم والحسم ورَبِحَ المواجَهة وانتصرت به فرنسا...

لقد شفى فرنسا من ذل الهزيمة. وبعد تحقيق النصر تَقرَّر أن يَعقد الزعماء المنتصرون مؤتمر الصلح، فاختيرت باريس مقراً لهذا المؤتمر، فتولى كليمنصو رئاسة المؤتمر، فاجتمع الزعماء الأربعة: «وكان كليمنصو يحتقر إيطاليا والدور الهزيل الذي لعبتْه في الحرب». ويصف الدكتور عبدالعزيز نوار والدكتور عبد المجيد نعنعي في كتابـهما (التاريخ المعاصر لأوروبا) بأن: «كليمنصو كان أقوى الأربعة وأشدهم ذكاء. كان يقترب من الثمانين من العمر من دون أن تَكِلَّ قواه عن المعارضة التي عاش حياته في خضمها. كان قوي الأسلوب، عميقه، لاذعُ الكلِم، شديدُ الوطأة على معارضيه، لا تفتر همته ولو كان خصمه قوي الشكيمة رائع البيان مثل ويلسون، أو كان داهيةً في السياسة الأوروبية مثل لويد جورج.. كانت تجاربه في الحياة الخاصّة والحياة العامّة والسياسة الأوروبيّة والدولية كثيرة ومتـزاحمة، بل ومتناقضة قاسية. (لقد) شهد مذَلَّة فرنسا و(عايش) الضياع الذي خيَّم على الشعب الفرنسي، و(انتشى) بروعة الصمود الفرنسي، وكان يدرك كم كان ويلسون مثاليًا لا يُقدِّر مخاوف فرنسا وآلامها حق قدرها. ويدرك أن لويد جورج يريد أن يلعب اللعبة البريطانية التقليديّة وهي أن تظلّ فرنسا خائفة من ألمانيا فتنفرد بريطانيا بالهيمنة الاستعمارية». إن فرنسا وبريطانيا متحدتان

ضد العدو المشترك لكن التنافس ظل قائمًا بينهما. فبريطانيا لا ترغب في أن تصبح فرنسا منافسًا قويًا وإنما تريدها أن تبقى مرعوبةً من ألمانيا، وأن تظل تطلب العون من بريطانيا فتبقى أبدًا غير قادرة على الاستغناء عن هذا العون وغير منافسة على مناطق النفوذ، وهذا ما كان يزعج كليمنصو ويسعى لتجاوُزه، وتحقيق الأمن الدائم لبلده لتقف ندًّا لبريطانيا وأميركا كليهما لا تستجدي منهما العون، وإنما تفرض شروط التعامل والشراكة، وتتعامل معهما تعامُل الأنداد لا تعامُل الضعيف مع القوي، وقد كان هو النموذج والملهم لديغول في ما بعد في الحرب العالمية الثانية، لذلك وقف احترامًا أمام تمثاله حين عاد إلى باريس منتصرًا في الحرب العالمية الثانية...

وقد ساعدتْ كليمنصو على هذا الموقف القوي مواهبه الشخصيّة. بالإضافة إلى أنه كما يقول المؤرخان نوار وزميله النعنعي: «كان كليمنصو ضليعًا في المشكلات الأوروبية وخفاياها، وكان يدرك بسرعة كل معاني المناورات السياسيّة التي مَهَرَ فيها سياسيو بريطانيا، وساعده على ذلك إتقانه للغة الانجليزية». لقد كان وهو الطبيب أقدر الزعماء الأربعة، لأنه كان واسع الإطلاع، غزير الثقافة، كما أن تجارب العمر الطويل والاهتمام القوي المستغرق قد أغنته بالحنكة والحكمة. فحين اجتمع الزعماء المنتصرون في مؤتمر الصلح بباريس كان كليمنصو كما يؤكّد المؤلفان: «الوحيد من بين الثلاثة الكبار الذي يتقن اللغات الثلاث: الفرنسية والانجليزية والألمانية. وكانت واقعيته تُوقع مثالية ويلسون في تخبطات مربكة قلَّلَتْ من هيبة الرئيس الأميركي وساهمتْ أن يصبح كليمنصو ولويد جورج راسمي خريطة أوروبا والشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. لهذا كان كليمنصو شديد اللهجة في مجادلاته مع ويلسون ولويد جورج، وضاعف من ذلك ثُقْل السنين عليه وخيبة أمله في الإنسانيّة، وتفوق الفكر الفرنسي فيه تفوقًا لا حدود له. وهناك ناحيةٌ شخصية أثَّرتْ في توجيه المؤتمر إلى سياسات معينة فقد كان كليمنصو يرغب في أن يختم حياته ببطولة قومية عظمى في مؤتمر الصلح، وكان يعتقد (وكان اعتقاده صحيحاً)، أن الرأي العالمي يقف إلى جانبه ضد ألمانيا، وأن الفرصة قد حانت لتصبح فرنسا صاحبةَ حدود آمنة وليس هناك من دولة أوروبيّة في داخل القارة تـهدّدها بالغزو. وكان يرى أنه قد مرَّ على فرنسا زمنٌ طويل وهي تحت خوف الغزو من أكثر من جهة، وأنه آن الوقت الذي تَضَعُ فيه فرنسا

أسس سلام دائم يُبعد عن فرنسا هذه المخاوف نـهائياً إن أمكن». لقد كان يسعى لغاية نبيلة وعظيمة، كان يريد تحقيق هدف حيوي ومصيري لفرنسا ولأوروبا وللعالم، لكن نتائج هذا المسعى النبيل لم تستمر طويلًا حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية في ما بعد. فما هو السبب وراء اندلاعها؟!...

لقد كانت الحرب العالمية الأولى كافية لتقويض أقوى مكوِّنات النظام القديم، فانـهارت الأمبراطورية الألمانية والامبراطورية النمساوية والامبراطورية الروسية. ولكن التجربة الديمقراطية في ألمانيا كانت قصيرة وقد جاءت أيضًا في أجواء الهزيمة مما جعل الألمان مهيئين بأن يستجيبوا لأي قائد ينتظرون منه أن يمحو عار الهزيمة. فالشعور بالهوان هو أشدّ العوامل المحرِّكة فاعليّة وتجييشًا...

إن الهزيمة الفظيعة المُذلَّة التي مُنِيَتْ بـها ألمانيا جعلت منها بيئة خصبة لانبعاث الحسّ القوميّ الجرماني بمنتهى القوة. وقد بلغ هذا الانبعاث العارم ذروته بوصول هتلر والحزب النازي إلى الحكم. فقد صمَّمَتْ ألمانيا ليس فقط على الثأر والانتقام من الهزيمة التي أذلّتها، وإنما دفعتها فورةُ التعصب والشعور الحاد بالهوان القومي إلى أن تستنفر كل ما يخبئه الإنسان من طاقات التشييد والهدم معًا. فَزَعَم الألمان بأنـهم عرقٌ متفوّق بيولوجيًا، وأن هذا التفوّق العرقي يبـرر لألمانيا أن تُخضع العالم، وأن تستولي على الامتدادات الكافية من أوطان الآخرين بوصفها المجال الحيوي الضروري لها. وبـهذا الهوس العرقي المتأجّج استطاعت ألمانيا أن تعيد بناء ذاتـها بسرعة عجيبة. ليس هذا فحسب بل استطاعت في بضع سنوات أن تبني قوة عسكرية هائلة كادت أن تحتل بـها العالم كله؛ فاندلعت الحرب العالمية الثانية ذلك الاندلاع الخاطف المروِّع، واتخذت ذلك الشكل العاصف والمدمِّر الذي جعلها أفظع وأشنع حرب شهِدَتْـها الأرضُ منذ وجود الإنسان. لكن ذلك لا يقلِّل من الجهد الخارق الذي اضطلع به كليمنصو وسعى إليه وحرص على دوامه. فقد وضع في أوروبا بذور السلام الدائم وجَعَلَ فكرة الاتحاد الأوروبي تدغدغ الأذهان...

إن الطبيب الزعيم كليمنصو يُعَدُّ من أبرز قادة العالم في القرن العشرين فكرًا وخبرة وشجاعة وفصاحة وعملاً، لذلك فإن الذين كتبوا عنه لم يكتبوا عن كليمنصو الطبيب

وإنما كتبوا عن كليمنصو السياسي، وعن كليمنصو المحارب، وكليمنصو (النمر)، وكليمنصو (أبي النصر الفرنسي)، وكليمنصو الراديكالي. أما دراسته في الطب فلا تُذْكَر إلا عَرَضًا، بل لا تُذكر أبدًا إلا كما يذكر تاريخ ميلاده، أو مكان هذا الميلاد، أو نحو ذلك من البيانات الرتيبة التي تُدوَّن لأقل الناس أهمّيّة وليست ذات دلالة تقييمية، وإنما مجرد معلومة ذات علاقة به. وتقال عن أي إنسان مهما كان تواضُع قدراته فالتخصّص الدراسي لكليمنصو لا يعني أحدًا، ولا أثر له في مسيرة حياته، بل قد تكون دراسته للطب قد اقتطعتْ سنوات ثمينة غير نافعة من عمره، واستنفَدَتْ قسطًا غاليًا من اهتمامه، ثم محاها من حياته، وانصرف إلى ما هو أكبر وأحق بالاهتمام وبالجهد وبالتركيـز. فهي لا تمثّل شيئًا في تكوين شخصيّته الفذة. وهكذا كل الرجال المبدعين، لا يمثّل التخصّص الدراسي سوى نقطة عابرة في توجيه قدراتـهم وتحديد مصائرهم رغم السنوات الطويلة التي ضاعت في مكابدته. فقدراتـهم أكبر من أي تخصّص وأوسع من أي تنميط...

وفرنسا لم تُطْلق اسمه على مستشفى وإنما أطلقته على حاملة الطائرات الحربية، واسمه يتكرّر في التاريخ السياسي، والتاريخ الحربي، وفي التحالفات الدولية وليس في مجال الطب. فهو رجل دولة وقائد حرب وقد عدَّه (سومرست فراي) واحداً من عظماء التاريخ الألف الذين مروا على هذه الأرض منذ أنْ وُجد الإنسان؛ ووصفه بأنه: «ذو سيرة مدهشة. بدأ مراسلًا للأخبار، ودخل السياسة الفرنسية، وانْتُخِب نائبًا، وأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ، وعُيِّن رئيسًا لوزراء فرنسا. (ورغم خشونته) فإن الناس اعجبوا بشجاعته وحنكته، فاختير مرة ثانية رئيسًا لوزراء فرنسا عندما كانت تعاني انحطاطًا تامًّا، فأعطى الناس القيادة التي يريدونـها»، وعلى يديه تحقّق النصر وزالت أسباب الانحطاط...

كل ذلك تحقّق بمحض اهتمامه القوي المستغرق، وانشغال ذهنه بقضايا أمَّته، وتوجيه نشاطه وتركيز طاقته في الاتجاه الذي تندفع إليه تلقائيًّا، وبهذا التركيز نمتْ قدراته ومواهبه وميوله...

ستراشي الذي اشتهر بسخريته من المشاهير لم يكتم إعجابه بكليمنصو، فكتب: «كان شعوره بفرنسا شبيهًا بشعور بيركليس بأثينا.. قيمة فريدة فيها.. وبعدها أي شيء

آخر لا يهم.. ولكن نظريته في السياسة كانت هي نظرية بسمارك». أما كينز فيقول: «إن كليمنصو لديه هَمٌّ واحد هو فرنسا.. وخيبةُ أمل واحدة هي كل الجنس البشري بما فيه الفرنسيون ولم يستثن زملاءه». لقد كان خارق الرؤية حادَّ البصيرة، فكان يدرك سخافات الجنس البشري وحماقاته، وقابليته بأن يتبرمج بأبعد التصوّرات عن الحكمة والعقل، وأشدّها في السخف والوهم والهمجيّة. فالناس كتلٌ عمياء تحرّكها الجهالات والأوهام والاندفاعات الغبيّة العمياء...

كان كليمنصو يشعر بالاشمئزاز من طوفان الغباء البشري فهو مثل كانط يعرف أن معضلة الإنسان الكبرى هي استمراره ذائبًا في القطيع ومغتبطًا بهذا الذوبان، ولم يكن يمنع سخريته من أن تتساقط كالصواعق على رؤوس الكبار.. كتب الدكتور ماهر شفيق فريد عن المتميّزين بقوّة السخرية من أمثال سويفت ومارك توين وماركيز وبرنارد شو وأورويل وبريخت وكليمنصو...

ويقول عن كليمنصو: «سياسي فرنسي راديكالي.. دَرَسَ الطب (ولكنه تخلّى عنه)، حيث غدا عمدة مونتمارتر.. كان عضوًا بمجلس النواب، ثم عضوًا بمجلس الشيوخ، وما لبث لسانه اللاذع الذي كان يزداد حدّة في المناظرات أنْ أكسبه من الأعداء أكثر مما أكسبه من الأصدقاء، وعُرف باسم مُسقط الوزراء، ثم بالنَّمِرِ اقترن بسيدة أميركيّة، فكان قرانًا تعيسًا انتهى بالانفصال؛ فزاد ميله إلى كراهية البشر.. عُيِّن وزيرًا للداخلية، ثم رئيسًا للوزراء. وجَّه سهام نقده إلى انعدام الكفاءة في الجيش الفرنسي وروح الانهزاميّة السارية. ومكَّنَتْ شجاعته التي لا تُقهر الفرنسيين من الصمود في وجه ضربات الألمان حتى تحقّق النصر. كان وطنيًّا محاربًا». هكذا هي الكفايات النادرة هي نتاج ذاتها، فهل نعي أن التعلُّم الاضطراري لا يَنتج عنه سوى الخواء والكلال...؟!

وكتب عنه خالد القشطيني يقول: «كليمنصو امتاز بروح نكتة نادرة.. أظهر روح السخرية مبكرًا في شبابه عندما كانت الجماهير تهتف بالامبراطورية وحياة الامبراطور، فهتف: تحيا الجمهورية»، معارضًا هتاف الجماهير رغم صغر سنِّه. فهو منذ صباه كان يدرك إمَّعية الجماهير وغفلتهم ووقوعهم دائمًا تحت التأثير الجارف للاستهواء...

أما في كتاب (رواد الاستراتيجية الحديثة)، تأليف ادوارد ميد إيرل وآخرين. ففيه

تنويهٌ بقدراته الاستراتيجيّة: «استطاع كليمنصو أن يحطّم حركات مناورات الانهزاميين في الدوائر السياسيّة، كما استطاع بتوليه وزارة الحرب إلى جانب رئاسته للحكومة ليس فقط تقوية الجبهة الداخلية في أحرج ساعات الحرب وأحلكها، بل استطاع أن يحقّق بالاتفاق مع قيادة الجيش قيام ترتيبات عمليّة لم يحاول من سبقوه تحقيقها». ويصف المؤلفون كليمنصو بأنه سياسي وخطيب وصحافيّ وفيلسوف، وقد استطاع من أجل إنقاذ فرنسا أن يحشد كل الفرقاء...

أما المؤرخ الفرنسي رينيه ريمون فإنه في الجزء الثالث من كتابه (مدخل إلى التاريخ المعاصر)، يُبرز الدور الحاسم لجورج كليمنصو في تحقيق النصر في الحرب العالميّة الأولى. فيوضح شيوع الروح الانهزاميّة عند كثير من القادة الفرنسيين، وتَجَمُّد الرؤية؛ ثم يذكر أن وصول كليمنصو إلى رئاسة الوزراء قد بدَّلتْ وضْع المهادنة الخانعة إلى حالة المواجهة الحاسمة، فيقول: «إن وصول كليمنصو إلى رئاسة الوزراء وتشكيل وزارة برنامجها القيام بالحرب حتى النهاية قطعتْ الطريق على المفاوضات، وحطَّمَتْ الانهزامية، ومَثُلَ أمام القضاء الأعلى الرجالُ السياسيون المشتبه بأنهم حلموا بسلام أبيض.. انقلبت الحالة.. وارتفعت المعنويات...». إن كليمنصو بإرادته الحديدية وتصميمه الباتر يستطيع دومًا أن يكسب الجولة، وقد قيل عنه بأنه دائمًا: «يبقى صلبًا لا يلين». هكذا هي القيادة، وهكذا هو القائد النموذجي الفذّ، وهكذا هي الحياة الإنسانيّة تنهض على قدمي القيادة والانقياد، أما التعليم، وأما الشهادات العليا فلا تقلب المهيئين للانقياد ليصيروا قادة، وإنما التعليم بكل مراحله تمرينٌ مستمر وتعويد طويل على الطاعة والامتثال والانقياد والإمَّعية...

حين احتدم الجدال عام 2006 حول عبور حاملة الطائرات الفرنسية التي تحمل اسم (كليمنصو) قناة السويس أصبح هذا الجدال فرصة لكي يتذكّر محمد حسين زيدان.. ذلك الزعيم الباهر، فكتب مقاله بعنوان (المفارقة بين يَعْلَم وبين يَفْهَم)، لكي يذكِّر بأن أمثال الطبيب كليمنصو يعلمون ويفهمون، وبأن الكثيرين من حملة الشهادات العليا قد يعلمون شيئًا ولكنهم أحيانًا لا يفهمون...

لذلك، فإنه حين تحدّث الكاتب الانجليزي آلدوس هكسلي في كتابه (العقائد

والأفعال) عن الأفكار الرئيسة التي تَـهَبُ الشجاعة، وتحوِّل الشعور وتُلهم العقل وتصنع الفعل، لم يجد مثالاً لقوة تأثير الأفكار الملهمة أفضل من كليمنصو الذي استولى عليه حُبُّ فرنسا، فتحوَّل هذا الحب إلى هَمٍّ مضطرمٍ حرَّك لديه مجموعةً كاملةً من العواطف ودفَعَه إلى العمل الجاد المثمر. وكما يقول هكسلي: «كانت الوطنية التي تجسَّدت فيه هي الفكرة التي وهَبَتْ كليمنصو المسنّ طاقته التي لا تَرحم ولا تُقهر». ويرى هكسلي أن كليمنصو كان يؤمن من خلال تجربته الشخصية بأن الأفكار تَهَبُ الشجاعة والعزم والتصميم. وكان هكسلي يرى أن كليمنصو هو ذاته نموذجٌ على الشجاعة والمثابرة والإرادة الحديدية التي تُجَسِّد هذه الحقيقة...

ولكن كليمنصو العاشق لفرنسا لم يكن مؤيدًا للاستعمار، سواء من قبل بلاده أم من قبل البلدان الأخرى، لذلك لم يكن مرتاحاً لاستمرار احتلال فرنسا للجزائر، وإن كان حرص على أن يكون لفرنسا نصيبٌ في الانتداب الاستعماري بعد نـهاية الحرب العالمية الأولى التي كان هو من أبرز الذين قادوها إلى النصر...

لقد كان كليمنصو من أبرز الزعماء الغربيين الأربعة الذين أداروا الحرب العالمية الأولى وقرَّروا أوضاع العالم ومصائر الشعوب، ورسموا حدود الدول بعد انتصارهم في الحرب، وهم: الرئيس الأميركي ويلسون، ورئيس الحكومة الفرنسيّة كليمنصو، ورئيس الحكومة البريطانية لويد جورج ورئيس الحكومة الإيطالية أورلاندو؛ ولكن كليمنصو ولويد هما اللذان قادا الحرب بشكل فعَّال وحاسم، وهما اللذان رسما خريطة ما بعد الحرب. أما أورلاندو فكان دوره هامشيًّا، وأما ويلسون فكان مشغولًا بوضع تصوُّر لتنظيم عالمي يكبح به النـزاعات، ويضمن بأن لا تتكرّر الحروب، وأن يتّفق العالم على إنشاء منظمة مدنيّة دوليّة تملك قوة عسكريّة أكبر من أية قوة منفردة، ولكن العالم خَذَلَه ولم يأبه به، كما أن الشعب الأميركي تمنَّع عنه ولـم يستجب له...

كان الرئيس الأميركي آنذاك ويلسون يحلم بسلام عالمي دائم، كما كان يحلم بأن يتوصّل العالم إلى حكومة عالميّة تنتهي بـها الحروب إلى الأبد؛ فدعا إلى تأسيس عصبة الأمم المتحدة لتكون نواة لحكومة عالميّة، أو ما يشبه الحكومة العالمية، تُحقّق الإخاء والسلام الإنسانيين الدائمين. وكان يحاول إقناع الدول الكبرى، وكذلك إقناع

الشعب الأميركي بأن تتنازل الدول عن شيء من السيادة الوطنية لمصلحة العصبة. وكان يرى أن تكون هذه القوة الجماعية: «تبلغ من القوّة حدًّا يفوق قوة أيّ أمّة، حتى إن أيّ أمّة و أي تدبير عارض للأمم لن يستطيع مجابـهتها أو الصمود أمامها». وبذلك يكون بمقدور العصبة أن تتدخّل بالقوّة لمنع نشوب الحروب وإنـهائها بعد أن تنشب، وكان يريد إقناع الجميع بأن تكون الحرب العالمية الأولى المروِّعة هي: الحرب التي تُنهي كل الحروب...

كان ويلسون مفكّرًا مثاليًّا حالمًا أكثر مما هو سياسي واقعيٌّ. بل الأصح أن نقول بأن ويلسون كان سابقًا لعصره سبْقًا مذهلًا. فقد كان يرى إمكانيّة أن يستتب السلام إذا توافرتْ له ضمانات جماعية بواسطة منظمة عالمية تملك قوّة عسكرية رادعة، وكان يعتقد بإمكانية تحقيق ذلك، ويؤمن بأن فظائع الحرب العالميّة قد هيّأت الأمم والدول والشعوب لقبول هذا الحل الجماعي، الذي يستدعي التنازل عن بعض متطلّبات السيادة الكاملة. أما كليمنصو فكان واقعيًّا داهية يعلم أن البشريّة لم تبلغ من النضج والرشد مستوى يمكِّنها من الارتقاء إلى الالتـزام بـهذه المثاليّات الرائعة؛ وكان يرى أن مطلب الأمن الوطني ما زال مسؤوليّة أساسيّة للدول ذاتـها، وهي أهم من أن تتركها الدول لمنظمة خارج سلطتها. وقد عبَّر بييـر رينوفان وزميله في كتابـهما (مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية) عن هذين الموقفين المتعارضين: «كليمنصو لا يؤمن بالضمان الجماعي وويلسون لا يؤمن إلا بالضمان الجماعي». لقد كان كليمنصو أبعد عن المثاليّات المجرّدة، وأقرب إلى الواقعيّة السياسيّة. فقد كان يرى استحالة تحقيق أحلام ويلسون المثاليّة، وكان يقول: «من الخطأ الاعتقاد بأن العالم يساس بمبادئ مجرّدة». وحين قدَّم الرئيس ويلسون نقاطه الأربع عشرة علَّق ساخرًا: «إن وصايا المسيح عشرٌ لا غير!!». فلقد كانت خبرته الطويلة في تقلُّبات الدول، ومعرفته العميقة بالطبيعة البشريّة، وعلمه بتراكمات التاريخ، وعمق الثارات، وتباعد الثقافات، وقابليّة الجماهير للاستهواء، واستغلال الساسة لأوثان القومية والوطنية والسيادة، إن هذه كلّها قد اقنعته باستحالة تحقيق ما يحلم به ويلسون. لذلك كان يركِّز على إنـهاء النـزاعات الأوروبيّة والبحث عمَّ يضمن الأمن لفرنسا، كمطلب أوَّل، والبدء باتجاه توحيد الأوروبيين لئلا تتجدَّد مثل هذه الحروب المدمِّرة. وكان يرى أن طبيعة الإنسان تجعله لا ينصاع للمثل

العليا إلا مرغمًا وأنه في أحسن حالاته لا يرتقي إلى المستوى المطْلق لهذه المثل، وإنما قد يستطيع في أفضل الظروف أن يُحقِّق لها تطبيقات نسبيّة؛ فيتحدّث في كتابه (في أمسية الفكر): «العدالة تجريدٌ للمطلق والإنسان مركَّبٌ للنسبيّات»، ويرى أن المذهبيّات والأيديولوجيّات لا تعترف بالعوائق، وأنـها تبقى غارقة في الأوهام وتدور بثبات في عوالم باطلة، ويقول: «فيا لكثرة الأخطاء الفادحة التي أوردْناها في صيغ تخيّلاتنا الواهمة». وهو يؤمن بأن الناس لا يستجيبون للحقّ والعدل طوعًا، وإنما لا بد من حمايتهما بالقوة. غير أنه يؤكّد ضرورة تقييد القوّة لئلا تغْدر بالحق أو تنتقص من العدالة...

لذلك يقارن مينارد كينـز في كتابه (نتائج السِّلم الاقتصادي) بين ويلسون، أستاذ العلوم السياسيّة وكليمنصو الطبيب، فيصف الأول بأنه «دون كيشوت أصم وأعمى»، وبأنه رجل بسيط يستطيع المحيطون به أن يخدعوه فيستجيب لهم؛ وفي المقابل يرى أن كليمنصو متناهي الحذق، وعظيم التبصُّر، وشديد الإدراك للواقع، ومستقل الفكر، وحاسم القرار مما يجعله أقدر على إدارة أمور الحرب وشؤون السِّلم، وهنا يجب التوقف. فويلسون هو الرئس الأميركي الوحيد الذي يحمل دكتوراه، وربما هو الوحيد الذي كانت دراسته في علم السياسة بينما الداهية كليمنصو طبيب...

ولكن، ينبغي ألا ننسى بأن أفكار ويلسون لم تذهب سدًى، وإنما آتت ثمارًا عظيمة بإنشاء عصبة الأمم أوَّلًا؛ ثم استبدالها بـهيئة الأمم المتّحدة ومنظّماتـها الإنسانيّة المتنوّعة؛ ثانيًا، وكلما تقدّمت الإنسانيّة وانتشرت المعارف اقترب العالم مما كان يحلم به ويلسون. وقد رأينا كيف بادر العالم تحت مظلة هذه الهيئة العالمية بحماية مسلمي البوسنة من الوحشية الصربية، وكيف أخذوا قادة العدوان إلى المحاكمة العالمية، وما زال الاتجاه الإنساني يتنامى. وأصبح للرأي العام العالمي تأثيرٌ شديدٌ على الأوضاع العالمية، وباتت الدول غير قادرة بأن تسحق شعوبـها تحت أي ستار.. وعمومًا فإن أفكار ويلسون قد بدأت تأخذ طريقها إلى عالم الواقع، لتتحوّل من مثاليّات حالمة إلى إجراءات عمليّة واقعيّة في دنيا الناس...

لقد حرص هارولد تمبرلي وزميله غرانت، وهما من أساتذة التاريخ الأوروبيين

المعدودين في الجزء الثاني من كتابـهما (أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين)، على أن يلخِّصا صفات الكبار الأربعة الذين قادوا الحرب العالمية الأولى، وذلك لضخامة دورهم واتساع تأثيرهم نقتطف منه قولهما: «كان الرجال الأربعة جديرين بالتوقّف عند شخصياتـهم. لقد كانوا يتمتّعون بالسلطان على بقاع من الأرض أكثر من أي رجل آخر على وجه البسيطة، بل إنـهم حكموا العالم بأسره منذ الهدنة، ووضعوا أنف الإمبراطورية الألمانية في الرغام في نفس المكان الذي أشرقت منه عظمتها ومجدها. أما الأربعة الكبار فهم: أورلاندو ولويد جورج وكليمنصو وولسن، وكان السلام والتسوية العالمية من صنعهم؛ وقد شكَّلَتْ شخصياتـهم وقُوَّتـهم هذه التسوية وذلك السلام. وكان وجه أورلاندو ينم عن مثاليّة أفاقت من الوهم وإعياء وطول تفكير وحزن، وكان ينوء في المؤتمر بعبء ثقيل وقد واجه في المؤتمر زملاء أقوياء، ومن ثم وجد نفسه عاجزًا عن تحقيق غاياته، فاستسلم للحوادث، وكان مصير كلّ الناس معلقًا بيد الثلاثة». ويواصل المؤرّخان: «ويلسون كان رجلًا يستطيع أن يُهَشِّم ويحطِّم، فلم يكن يضارع لويد جورج أو كليمنصو في الخطابة والمناقشة. وكان كليمنصو قصيرًا وبدينًا، يحمل بين جنبيه طبيعة ثائرة متفجرة، وكان في بعض الأحيان هجَّاءً لاذعًا في سخريته. كما كان يُظهر في أحيان أخرى فراسة فنيّة أدبيّة، كان يعرف متى يضع السيف موضع الندى أو الندى موضع السيف. وكان نبيلًا مخلصًا في إيمانه بفرنسا وكان من القوّة والتعقّل بحيث يستطيع كبح جماع المتطرّفين في فرنسا. وأكثر من هذا أنه أوتي سرعة بديهة في المناقشة مع حصافة ورقّة». هكذا جَمَعَ كليمنصو المجد من أطرافه وتكاملتْ فيه الصفات القيادية: قوّة الشخصيّة، وغزارة المعرفة، وبُعْد النظر، ونضج التجربة، ونفاذ البصيرة، وبلاغة القول، وطلاقة اللسان، وثبات الجأش، والقدرة الخطابية الآسرة، وسرعة البديهة، وقدرة الإقناع وحكمة التصرف...

ويرى (كينـز) أن كليمنصو يُشبه (بركليس) الذي قاد أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد إلى الديمقراطيّة والازدهار. فهو يرى في فرنسا ما كان يراه بركليس في أثينا بوصفها مركز الإشعاع العالمي للحريّة والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان. وهو يؤكّد بعد نـهاية الحرب بأنه ناضل من أجل أن يكون: «لكلمات الحقّ والحريّة والعدالة معناها». وقال عنه المؤرخون بأنه: سعى دائماً إلى سلْم دائم وعادل، وأنه المناضل

الراديكالي الذي كان دائمًا في شبابه أو شيخوخته يؤيد قضيّة الحقّ ضدّ النزاعات القوميّة المتطرّفة...

ومع كل ما حققه من مجد فإنه بقي متواضعًا وذا إحساس شديد بالمسؤولية. فبعد نهاية الحرب لم يتبجّح بالنصر، وإنما حذَّر من ويلات الحرب، ودعا إلى السلم الدائم؛ ولم يكتب عن عظمة النصر الذي حقَّقه فقط وإنما كتب عن بؤسه أيضًا. فجعل عنوان كتابه عن النصر: (عظمةُ نصر وبؤسه)، معترفاً بما أسفرتْ عنه الحرب من شقاء وبؤس، ومؤكدًا بأن النصر لا يأتي إلا مقرونًا بالشقاء لكل الأطراف المتحاربة، سواء منها المنتصر أم المندحر...

وليست هذه فقط هي مزاياه ومآثره، وإنما كان عالميَّ الرؤية.. إنسانيَّ التعامل.. أخلاقيَّ المواقف.. فقد كان معارضًا لاستمرار احتلال الجزائر.. وكما يقول الدكتور محمد مظفر الأدهمي في كتابه (أوروبا.. دراسة في التاريخ والفلسفة) إلى أن «السياسة الاستعمارية لقيتْ معارضة شديدة من كثير من القوى في فرنسا.. وكان جورج كليمنصو رائد هذه المدْرسة». وبعد نهاية الحرب العالميّة قرر كليمنصو مكافأة المجنَّدين الجزائريين الذين شاركوا في الحرب، فانتقده بشدة الفرنسيون المقيمون في الجزائر ولكنه مضى في قراره...

يستعرض الفيلسوف الفرنسي لوك فيري في كتابه (أجمل قصة في تاريخ الفلسفة)، مواقف بعض المثقّفين الفرنسيين الذين كانوا يبرّرون احتلال فرنسا للجزائر بدعوى الارتقاء بها حضاريًا. وهو بهذا الاستعراض يستغرب ويستنكر هذه المواقف، ثم يؤكّد وجود جبهة مضادَّة فيتساءل: «هل بالإمكان في ذلك العصر أن يكون التفكير على نحو مغاير؟». ثم يجيب: «أجل.. والدليل يحمل اسمًا هو كليمنصو»، الذي كان: «مناهضًا للاستعمار.. يبشِّر كليمنصو بظهور مذهب جمهوري آخر معادٍ للعنصرية وللاستعمار سينتهي إلى الانتصار على المذهب الجمهوري لدى جيل فيري». وهكذا ينتهي الصراع دائمًا في أوروبا لمصلحة المزيد من التقدّم والإنسانيّة «لإيجاد عالم مبني بالحريّة وللحريّة». فإنسانيّة الإنسان لا تتحقّق إلا بمقدار ما يتحقّق له من حرية، وتُنْتَقَص إنسانيّته بمقدار انتقاص حرّيته، فهو كائنٌ مكلَّف ومسؤول، ولا تنمو قدراته وأخلاقه

إلا بمقدار بزوغ فرديّته. فمواقفه الأخلاقيّة مرهونة بما يتمتّع به من حريّة وما يضطرم في داخله من حس إنساني رفيع، فيصير مسؤولًا عن تفكيره وسلوكه، ويملك إحساسًا فرديًا بهذه المسؤولية...

ولكي نحسَّ بقيمة هذا الجدل وما يتمخّض عنه من إيجابيّات لمصلحة الإنسانيّة، فإن علينا أن ندرك أن السلبيات والنقائص هي الأصل في تفكير الناس وسلوكهم، وأن الارتقاء إلى تجاوز هذه السلبيات ليس تلقائيًا لأنه مضادٌّ للطبيعة البشريّة، فهو اكتسابٌ يضاف لمكتسبات الإنسانيّة. فالتحضُّر لا يكتمل أبدًا وإنما ينمو بمقدار التحرّر من السلبيات التي هي أصيلة وطبيعيّة وتلقائيّة في الإنسان. فلا يصح أن نتذكَّر سلبيّات الغرب ونتجاهل تطوّراته الأخلاقيّة والإنسانيّة المتلاحقة، فضلاً عن تطوّراته في العلوم والفنون والنُّظم والتقنيّات، فمعيار التحضُّر هو القدرة على التغيُّر...

إن موقف كليمنصو ضد بلاده في حربها مع الجزائر وإصرارها على استمرار الاحتلال ليس موقفًا غريبًا، وإنما هو انبثاقٌ طبيعي لثقافة إنسانيّة تأسَّسَتْ على الفكر الفلسفي، واهتمت بغرس احترام الإنسان أيًّا كان وأينما وُجِد. فالثقافة الأوروبية ذات الأصل الفلسفي تقوم على حرية التفكير والتعبير وقبول النقد والاستعداد للتراجع عن الخطأ، لذلك فإن التاريخ الأوروبي لا يصحّ الحكم عليه بشكل مطلق، وإنما يُحكم على كل مرحلة بناء على المعايير التي تكون سائدة في المرحلة ذاتها. فالثقافة الأوروبيّة متغيّرة المعايير، متطوّرة القيم، فما كان مقبولاً في مرحلة تاريخيّة يصير مرفوضًا ومستهجَنًا في مرحلة لاحقة...

إن كليمنصو هو نتاج ثقافة إنسانيّة منفتحة ومتواصلة التغيُّر نحو الأفضل. فلم يكن وحيدًا بين الفرنسيين في هذا الموقف الإنساني النبيل المعارض لوطنه ضد استمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر، وإنما كانت المعارضة لاحتلال الجزائر تمثل تيارًا فاعلًا ومؤثرًا.. وكان المثقّفون هم المعبرون عن هذا الموقف. وعلى سبيل المثال فإن المبدع الشهير لويس آراغون ناضل بشدة ضد إصرار فرنسا على استمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر. أما المبدع الفرنسي فيكتور هوغو فكان يقول: «إن احتلال الجزائر وصمة عار لفرنسا». أما المبدع الفرنسي دو موباسان فيقول: «كل شيء في الجزائر جميل إلا

الوجود الفرنسي». أما الأشد نقدًا لاستمرار الاستعمار الفرنسي فهو المفكر الفرنسي المعروف جان جاك سرفان شرايبر الذي نَقَدَ وطنه نقدًا حادًّا، وفَضَح الممارسات اللاإنسانيّة ضد الجزائريين، وذلك في كتابه (ضابطٌ في الجزائر). إن الأصوات الفرنسية الحرّة المستنكِرة لاستمرار احتلال الجزائر لم تكن نشازًا أو غريبة على الثقافات الأوروبية، وإنما كانت نتاجًا لنسقٍ ثقافيٍّ عميقٍ ومتجذر. وكان هذا النسق في حالة اتساع ونمو حتى بلغ ذروته بقرار الاعتراف الرسمي بحق الجزائر في الاستقلال. ومن المثقفين الفرنسيين الذين طالبوا بإنهاء استعمار الجزائر: الصحافيّ إيرفيه بورغ وجان بول سارتر ورولان شوارتز وإدمون ميشليه وغيرهم. بينما في الثقافات الأخرى يُعَدُّ ذلك خيانةً قومية أو خيانةً وطنية...

وربما كانت الروائيّة الفرنسيّة ماري كاردينال هي الأكثر حرارة في هذا التعاطف مع الجزائريين، وقد عَبَّرَتْ عن عمق إحساسها في كتابها (الكلمات المناسبة لقول الحقيقة)، إلى درجة أنها انفجرت صارخة في إحدى المناسبات. وقد عَزَتْ انفجارها إلى شدة استنكارها لما تفعله السلطة الفرنسية بحق الجزائريين، وتصف تقزّزها واشمئزازها واحتقان نفسها، فتقول: «يبدو لي أن الشيء تجذَّر فيَّ تجذُّرًا دائمًا عندما أدركت بأننا سنغتال الجزائر.. ذلك أن هذا البلد كان بالنسبة إليَّ بمثابة الأم الحقيقية حملتُها في أحشائي كما يحمل الطفل في شرايينه دم أبائه». إنني أُقَدِّم أمثلة فقط من المواقف الإنسانيّة، لكن الناس يتذكَّرون حماقات الأوروبيين التاريخية وحروبهم، ومحاكم التفتيش العارضة في تاريخهم، ولكنهم ينسون أن الحماقات البشريّة هي الأصل الطبيعي التلقائيّ، أما الارتقاء والتحرّر من هذه الطبيعة العدوانيّة، فهو الاستثناء الذي يستحق التمجيد. فأوروبا التي تقاتلت بضراوة في الحربين العالميتين هي الآن تتحد، وأميركا التي كانت عنصرية قد اختارت الآن رئيسًا أسود، فالأمم لا تُحاسَب على ماضيها وإنما تقيَّم على إنجازات حاضرها. إن قابليّة التغيُّر هي معيار التحضُّر...

إن تعبير الأفراد الأحرار عن مواقفهم الإنسانيّة ورؤاهم الأخلاقيّة ضد أوطانهم هو شيءٌ لا يحصل إلا في المجتمعات الحرّة، وهو امتيازٌ ليس محصورًا فقط بحق إعلان المواقف والتعبير عن الرفض من دون أن يوصم أيٌّ منهم بأنه خائنٌ لوطنه، أو تُلصق به التهم البذيئة، وإنما يبقى مفخرةً لوطنه كما هي حال هوغو ودو موباسان وشرايبر

وغيرهم، ليس هذا فحسب بل يصير قائدًا وزعيمًا وخالدًا في تاريخ أمّته كما هي حال كليمنصو...

هذا هو الطبيب الفرنسي جورج كليمنصو الذي عرفه العالم مناضلًا وكاتبًا وصحافيًّا وبرلمانيًّا وخطيبًا ورجل سياسة وزعيم أمّة وقائد حرب وأحد دهاة القرن العشرين، ولم تكن دراسته للطب سوى فترة عابرة من حياته قاد فرنسا إلى النصر ولم تُسكره نشوة النصر، وإنما بقي يدرك ما تركته الحرب من جراح غائرة فراح يكتب الحكمة التي اكتسبها، وهو يعرف أن البشر لا يتّعظون وإنما يكرّرون أخطاءهم. هكذا هو كليمنصو الذي صنع نفسه، فصار هذا القائد الباهر فالتميّز لا تُكَوِّنه المذكّرات المدرسية التي يتجرَّعها الدارسون اضطرارًا، فليهنأ المأخوذون بالألقاب الأكاديمية بأوهامهم، وليتركوا الدنيا تتحرّك من حولهم من دون أن يتمكّن أكثرهم من تقديم أية مشاركة نافعة فلقد تحوّل الحصول على اللقب الأكاديمي إلى هدف في ذاته ولم تعد الدراسة مدفوعة بلهفة عميقة متجدّدة للعلم والإدراك والفهم والمعرفة والإسهام في التآخي الإنساني. فقد طغى هَمُّ الوجاهة فصارت الألقاب تستُر الجهل وتحجب الخواء وتُزَكّي الكلال!!!...

ومقابل هذا الطبيب القائد العظيم الذي اجتمعت فيه حزمةٌ من القابليّات والمواهب والمهارات والقدرات سيكون الفصل القادم عن طبيب عربي ورث السلطة وراثة عن أبيه فدَمَّر شعبه من أجل البقاء في السلطة، وهو بذلك لا يمثّل نفسه وإنما يُجَسِّد الثقافة التي تَبرمَج بها ونشأ عليها كغيره ممن تربّوا على هذه الثقافة...

معضلة ثقافيَّة تتحكَّم بالحاضرِ والمستقبلِ

ونتقل من الحديث عن الطبيب الفرنسي كليمنصو الذي اختاره الشعب الفرنسي للمسؤوليات السياسيّة بسبب قدراته الفذّة، وكفاياته الفريدة، وإخلاصه الشديد للوطن، وإيمانه العميق بالحرّية، للمقارنة مع طبيب عسكري عربي قام بانقلاب وصار حاكمًا لوطن عربي، فأصبح اهتمامه الوحيد هو البقاء في السلطة مهما كانت نتائج هذا البقاء على أوضاع الوطن، ومهما كان المجتمع ساخطًا. والذي يهمّني هو المقارنة بين طبيب حاكم فرنسي حقيقي وطبيب حاكم عربي لإبراز الفارق الثقافي النوعي، وهو فارقٌ ثقافيٌّ عميقٌ، وفارقُ تاريخ مختلف كليًّا، وفارقُ تنشئة وفُروقٌ فرديّة. إن الثقافة الأوروبية وإرث الأنوار وتراث الثورة الفرنسية والعمق الثقافي الممتد إلى الفكر اليوناني، وثراء التجربة اليونانية والتجربة السياسيّة الرومانيّة... هذه كلها كانت خلف التكوين المغاير للزعيم كليمنصو. وبالإضافة إلى ذلك فإن صِدْق وإخلاص وكفايات وكفاح الطبيب كليمنصو هي التي أهَّلَتْه للقيادة والزعامة، فاختاره وطنه لرئاسة الحكومة الفرنسية، فقاد فرنسا إلى النصر في الحرب العالمية الأولى، وأنقذ بلاده واكتسب مكانةً سياسيّة عالميّة، وتَرَك لنفسه تاريخًا ماجدًا يتميّز بالشجاعة والصدق والجرأة والقرارات الحاسمة، والجهر بما يؤمن به، والدفاع عن مواقفه بكل شجاعة، والتعبير بكل فصاحة... فأكسبه ذلك احترامًا عالميًّا، وحظي بإعجاب الشعب الفرنسي واعتزازه به والاعتراف بفضله، وتكرار التذكير بمجده وصدقه وإخلاصه...

ننتقل من الحديث عن الطبيب الزعيم الفرنسي جورج كليمنصو إلى الحديث عن طبيب حاكم عربي بهدف المقارنة بين الثقافتين. فباستعراض التاريخ العربي القديم والحديث، وبتأمّل نمط الحكم السائد في العالم العربي ماضيًا وحاضرًا، سيكون من السهل أن نفترض طبيبًا عربيًّا يحكم أحد الأوطان العربيّة. هذا الطبيب التحق بالجيش

بعد تخرّجه كطبيب عسكري، ثم ترقّى حتى تمكّن، فقاد انقلابًا وأصبح الزعيم الأوحد، وهمّه قمع المعارضين من أجل الاستمرار في السلطة. فهو ابتداءً لم يصل إلى السلطة بكفاياته أو باختيار الشعب له وإنما وصل إليها بانقلاب عسكري، وهذا ليس شذوذًا في البيئة العربيّة، فهو ليس نتاجَ نفسه ولكنه نتاجُ ثقافةٍ ممتدة في أعماق التاريخ العربي، ثقافةٌ تقيم العلاقات على منطق القوّة والقهر والإخضاع (إنما تُؤخذ الدنيا غلابا)، وليس على منطق العقل والاختيار والإقناع. فهذا المنطق هو أحد أهم التغيّرات النّوعيّة التي طرأت على الحياة الإنسانيّة، وهي تغيُّراتٌ جوهرية لم ندركها بعد ولن تصبح من مقومّات حياتنا بشكل تلقائيّ...

وقعت الشعوب العربيّة كثيرًا، وتقع دائمًا، في خديعة قاتلة ومدمّرة حين تعلّق آمالها بالانتهازيين الذين يُغدقون الوعود، ثم تكون النتائج دمارًا شاملًا، فالخلل ثقافي عميق وليس محصورًا في شخص من دون غيره. وأي حاكم عربي مستبدّ ليس مغايرًا لما ألفه الناس في الوطن العربي، ولا في التاريخ العربي، وإنما هو نتاجٌ طبيعي للثقافة العربيّة التي نشأ عليها. فالانقلابي أو من يسمّي نفسه ثائرًا، حين يكون في السلطة لا يكون أفضل من الذي قبله، ونموذجنا على ذلك سلسلة من الذين حكموا العراق وسمّوا انقلاباتهم ثورات، من عبدالكريم قاسم حتى صدام حسين، وكذلك هؤلاء المتصارعون بعنف وعنجهية على السلطة بعد سقوط صدام حسين. فالخلل ثقافي بنيوي، إذ إن من يقفز إلى السلطة من دون مؤسّسات سياسيّة ضامنة، ومن غير دستور يحدّد سلطاته ومدة رئاسته لن يختلف عن سابقيه، بل غالبًا سيكون أسوأ. وكما قال الزعيم الأميركي العظيم جيفرسون: «أما في مسائل السلطة فدعونا لا نسمع بعد الآن عن الثقة بالإنسان، ولكن امنعوه عن الأذى بتقييده بسلاسل الدستور»، هذه هي حكمة التاريخ في أوجز عبارة وأنصع رؤية...

الناس في المجتمعات الغربيّة لا يختلفون عن الناس في المجتمعات العربيّة، لكنّ الغربيين انعتقوا من أوهام الصلاح الفردي التلقائيّ فلجأوا إلى تقييد السلطة وتقسيمها وفصل بعضها عن بعض، ورغم كل التطويل والتعطيل والتلبّك الذي نشأ عن ذلك، إلا أنه لا يوجد بديل آخر ناجع، فالسلطة سُعارٌ لا بد من تقييده. وقد قال الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو: «كل سلطة بلا حدود هي سلطة غير شرعية... تدلّ التجربة على أن كلّ ذي

نفوذ من بني البشر ينزع إلى إساءة استعمال نفوذه، وهو يمضي في ذلك حتى يلقى من يوقفه.. ولذا يجب أن تُتخذ التدابير لوضع حد لامتداد السلطة حتى يعجز أي إنسان عن إساءة استعمال نفوذه». ويقول أبراهام لنكولن: «إن شئتَ اختبار شخصيّة المرء فأعطه سلطة». ويقول برتراند راسل: «ترتبط معظم مخازي التاريخ البشري بالسلطة العارية»، ويقول هوبز: «الشهوة الأساسيّة في الإنسان هي الشهوة إلى القوة.. الحياة مجال للقوة الباطشة بالنسبة إلى الأقوياء وللخداع والمكر بالنسبة إلى الضعفاء». هكذا أدرك حكماء الإنسانيّة تلقائيّة الاندفاع للسلطة وهوَس الحصول عليها، والاستماتة في التمسّك بها والدفاع عن حق الاستمرار فيها، فالكل يريدها والكل يجور إذا ملكها ما لم يتم ضبطه، والكل يتمسّك بها حتى تُنتزَع منه رغمًا عنه. لكن الجماهير العربيّة بقيت مأخوذة بوعود الانتهازيين والمخادعين، مع أن من هم خارج السلطة ليسوا أفضل من الذين يملكونها، فالتعويل على الصلاح الفردي كان وما زال من أبشع نماذج الخداع...

لو كان استبداد الطبيب العربي يمثِّل شذوذًا، أو حالةً فردية استثنائية في الوضع العربي، ماضيًا وحاضرًا، لما كان جديرًا بأن نتحدّث عنه، أو نتوقف عنده هنا، فهو بخلاف كليمنصو لم يبدع في مجال تخصّصه العلمي المهني ولا في مجال نافع مغاير له. وإنما بالعكس تمامًا فهو قد بقي مأخوذًا بما تبرمج به في طفولته ولم يتأثر إنسانيًّا بالطب الذي دَرَسَه، بل بقي محكومًا بالثقافة التي نشأ عليها وتشرَّبتْها قابليّاته تلقائيًّا. فبقي كغيره من أبناء بيئته محكومًا بمنطق ثقافة القوة: «إنما العاجز من لا يستبد». إنه يُعَبِّر عن نمط الحُكمْ السائد في ثقافتنا العربيّة، وهو ثمرةُ تاريخ عربي طويل من الصراع على السلطة والاستئثار بها وسحق كل شيء من أجلها. إنه نتاجُ ثقافةٍ استبدادية عريقة ما زالت توجِّهنا وتتحكم في سلوكنا وتصوغ ذواتنا ونتشكَّل بها عقلاً ووجدانًا، وتُقَدِّم لنا أسوأ نماذج الفكر والفعل لتصير هذه النماذج الباطشة هي المعالم التي نسترشد بها.. نتبرمج بقيمها وينساب منها أسلوب حياتنا وطريقة تفكيرنا وتُحدِّد اهتماماتنا...

إن الطبيب الحاكم العربي وغيره من المستبدّين هم التجسيد الحي لتاريخنا وثقافتنا ونظرتنا للحياة والأحياء، إنه لا يختلف عن الحَجّاج والسفاح وصدام حسين والقذافي وعبدالناصر وعبدالكريم قاسم وقادة التنظيمات الإرهابية، الذين يريدون قهر الناس وإرغامهم على نمط من الحياة لا تطيقه الحيوانات. فالمعضلة هي معضلة ثقافيّة عميقة

غاية العمق، وليست متعلّقة بفرد دون غيره، فهذا الطبيب إنما هو نتاجٌ طبيعيٌّ لبيئته، وليست الأسماء التي ذكرتُها سوى نماذج من الذين جسَّدوا القهر والعنف والتسلط والانفراد المطلق بالسلطة، الذين يحكمون المجتمعات بجيوش تُنَفِّذ أوامرهم، ومخابرات تلاحق من تشكّ في ولائه...

إن الطغاة يعتمدون على طوفان من الأعوان والحرّاس وعُتاة المخابرات في كل الأوطان، فالحاكم المستبد لا يواجه الشعب وحده، وإنما معه جيشٌ من المتصلّبين المنغلقين الذين تآلفوا مع القسوة، وامتهنوا القمع، واستمرأوا الاستبداد، وتَرَبَّوا على احتقار الناس، فالسلطة في نظرهم هي القيمة المحوريّة التي يجب الدفاع عنها حتى آخر رمق: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر». إن قصص السجناء السياسيين في سجون مصر والعراق وسوريا وليبيا والمغرب وغيرها من جمهوريات وممالك الرعب والقهر والظلام تجسِّد ثقافة الاستبداد العربي تجسيدًا لا مزيد عليه، فالاستبداد هو الأصل وهو ليس محصورًا بالحاكم نفسه، وإنما هو يعتمد على كل المستفيدين والنافذين والمنتفعين، بل إن هؤلاء قد يكونون أشدّ تصلبًا منه، إضافةً إلى الذين تَرَبَّوا على الطاعة العمياء والولاء المطلق من العسكريين وجيوش المخابرات والجواسيس وعُتاة القَتَلَة، ومن السجون وأدوات التعذيب والقمع... وبسبب هذه الأصالة والعمق والتلقائيّة للاستبداد كان ظهور عمر بن عبدالعزيز في التاريخ العربي حالةً استثنائيّة باهرة للناس ومستنكَرة من أهل السلطة، فلم يطيقوه وتخلّصوا منه...

إنني حين أقارن بين الطبيب القائد المظفَّر جورج كليمنصو والطبيب العربي الحاكم المستبد فإني لا أقارن بين شخصين، بل بين ثقافتين، فهما لا يمثّلان نفسَيْهما فقط، وإنما كلٌّ منهما يمثّل كيانًا ثقافيًا هو الذي أنتجه، وهو كيانٌ مختلفٌ تمام الاختلاف عن الكيان الثقافي المقابل. فالمهم في هذه المقارنة أن كلاًّ منهما هو نتاجُ ثقافة مغايرة تمام المغايرة للثقافة التي أنتجتْ الآخر، فالطبيب كليمنصو هو نتاج الثقافة الفرنسية بكل أبعادها المضيئة: الفكريّة والتاريخيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، إنه ثمرةٌ من ثمار التنوير ونتاجٌ من نتاجات الثورة الفرنسيّة، إنه بولائه لفرنسا وللإنسان أينما كان واحترامه للحريات وإيمانه بالديمقراطية وكفاحه من أجل توطيد التعدّدية، ومبادراته إلى فَضْح الظلم والدفاع عن المظلومين وإحساسه القوي بالمسؤولية الأخلاقيّة، وقيامه بكشف

الانتهاكات وإبراز الحقائق مهما علَتْ مكانة الفاعلين، إنه بكل ذلك تمتد جذوره الفكريّة والسياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو وبركليس وصولون، ثم ديكارت وجون لوك وإسبينوزا وفولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو.. أما الطبيب العربي فهو نتاج الثقافة العربيّة التي انتجت الحَجّاج والسفّاح وصدام والقذافي وكل المستبدين الذين يزخر بهم تاريخنا العربي في القديم والحديث. فهو ليس نشازًا ولا استثناءً وإنما امتدادٌ لماضٍ عريقٍ وحاضرٍ ممتدٍّ في الاستبداد والتسلّط وعبادة السلطة...

إن الفظائع التي ارتكبها القذافي وغيره من أجل البقاء في السلطة ليست حالة لافتة في التاريخ العربي، فما فعله صدام حسين وغيره من المستبدين لا يقلُّ فظاعةً ووحشيّةً. وكلّهم امتدادٌ لاستبدادٍ عريقٍ في تاريخنا يمتد منذ الحجاج الذي كان يقطف رؤوس الرجال قطفًا: «إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها»، إلى أحدث نماذج المستبدّين. فحين يزول أي طاغية في المجتمع العربي ماضيًا وحاضرًا لا ينعم الناس بالعدل والحريّة والأمن والرخاء والاستقرار، وإنما يدخلون في صراعات وحشيّة لا نهاية لها. فالثقافة التي انتجت القذافي، هي نفسها التي انتجت الذين قتلوه. إن تعداد الشعب الليبي كله لا يتجاوز خمسة ملايين، أي إنه أقل من تعداد سكان مدينة صغيرة واحدة في العالم، بل إنهم بأجمعهم أقل من حيٍّ من أحياء بكين، أو طوكيو أو نيويورك، أو لندن، أو باريس. ومع ذلك افترق هذا الشعب القليل إلى فِرَقٍ متقاتلة متناحرة حيَّرت العالم في همجيتها، فدمَّروا ما بقي من المنشآت، ووصل التدمير إلى المطارات والطائرات والمنشآت النفطية، وكأنهم يستهدفون تدمير ليبيا بأكملها، وهذه أبشع نتيجة يمكن أن تخطر على البال لأيّ ثورة! فرغم أن بداية الثورة الليبية كانت بواسطة الأحرار الذين يريدون تحرير الشعب الليبي، وإعادة إنسانيته إليه من طاغية أضاع على ليبيا فرص التنمية وحَرَمها من الحرية ومن الرخاء رغم مواردها البترولية الضخمة، إلا أن الثورة قد أتاحت وصول الأسلحة إلى تنظيمات إرهابيّة باطشة عمياء. فالمجتمعات العربيّة قد تشَبَّعَتْ بثقافةٍ تعتمد منطق الإخضاع، ولا تعرف أو تعترف بمنطق الإقناع. فالثورة التي نحتاجها نحن العرب هي أوَّلًا ثورة ثقافية عميقة غاية العمق لتغيير طريقة التفكير والنماذج والتصوّرات والقيم والاهتمامات، أما من دون هذه

التغييرات الثقافيّة الجذريّة فإن أيّ ثورة عربية سوف تنتهي إلى هذه النهاية المأساوية الكارثية...

ظَهَرَتْ بوادر الانحراف الخطير والمآل المظلم للثورات العربيّة باغتيال اللواء عبدالفتاح يونس.. القائد الليبي الشجاع الذي انشقَّ مبكرًا عن السلطة الباطشة وحارب القذافي، فأسهم إسهامًا كبيرًا في نجاح الثورة، وقد كان عند اندلاع الثورة يشغل منصب وزير الداخلية في السلطة القذافيّة، وكان كغيره من كبار الموظفين يكتم سخْطه. فما إن أبصر بصيصًا من الأمل لتحرير ليبيا من تسلّط القذافي ورعونته وهَوَسه حتى أعلن الانشقاق، فقاد الثورة بشجاعة وصدق وإخلاص، لكن التكفيريين الذين انضموا إلى الثورة لم يمهلوه، فاغتالوه غدرًا بصورة موغلة في اللؤم والنذالة.. وبهذه البادرة الشنيعة اتضح أن الثورات العربيّة تتّجه إلى الفوضى والعنف والتشرذم والاقتتال، وإلى ما هو أسوأ من الاستبداد والفساد. ويتأكّد أن معضلتنا ثقافيّة بشكلٍ أساسيٍّ، وأن المساوئ السياسيّة الفظيعة ما هي إلا بعض نتاج هذه الثقافة العمياء التي تحتقر الإنسان وتستبعد حقوقه وتهزأ من فرديته، وتعتبره مجرد وسيلة عابرة في مشهدٍ جنائزيٍّ مرعبٍ...

وهنا أرى ضرورة التوقّف عند ظاهرة الانشقاقات المبكرة لكبار أركان النظام في السلطة القذافيّة، من أمثال اللواء عبدالفتاح يونس، والوزير عبدالرحمن شلقم، وابراهيم الدباشي، ومصطفى عبدالجليل. فهذه الظاهرة تؤكّد حماقة القرار الأميركي بتفكيك الأجهزة الأمنية في العراق وتسريح الجيش وحل الكثير من مؤسسات الدولة بدعوى ولاء كل أفراد هذه الأجهزة لصدام حسين.. وهو تصوُّرٌ ساذجٌ، بل ممعن في السذاجة، إلا إذا كان السبب المعلن مجرد ذريعة، أما الهدف الأبعد فهو تفكيك الدولة العراقيّة وشَرْذَمة المجتمع العراقي وتدمير العراق. فحَلُّ مؤسّسات الدولة في العراق وإبقاء البلاد تحت رحمة الفوضى يمثّل أفظع جريمة ارتُكبت في حق أي مجتمع لأنه دمَّر وطنًا ونشَرَ الفوضى في بلد متهيئ لكل ما يمكن أن تسفر عنه الفوضى من كوارث، فالعراق مليء بالطوائف والمذاهب والقوميّات. فما فعلته أميركا كان جريمة حرب كبرى شنيعة ويجب محاكمة الذين أفرغوا البلاد من مؤسساتها الدفاعية والأمنية بوصفهم مجرمي حرب، ثم إن الجيش العراقي كان جيشًا وطنيًّا ضخمًا، وكان مكتمل التدريب والإعداد، وخاض حروبًا شرسة، ويضم عشرات الآلاف من الضباط ومئات

الآلاف من الجنود. ومن البديهي أن تسريح هذا العدد الضخم من المقاتلين المدرَّبين سيكون له أوخم العواقب، فهم لن يستكينوا للطرد بالإضافة إلى أنه ظلم وعدوان لمئات الآلاف من العراقيين واستعداء لأقاربهم وأسرهم وعشائرهم. إن الإجراءات الأميركيّة الرعناء أو العدوانية قد وضعت العراق في مسار أدّى تلقائيًّا إلى الفوضى العارمة والاقتتال المرعب والحرب الأهلية المدمّرة والإبادة الجماعية والتدمير الشامل، وليست داعش سوى بعض نتائج هذه الجريمة النكراء...

إن انضمام الشخصيّات الليبيّة القياديّة إلى الثورة بمجرّد قيامها يؤكّد أن الموظفين مهما بلغت مواقعهم السياسيّة قد يكونون في مناصب رفيعة في دولة تسلُّطية كليبيا في عهد القذافي، ويكونون في الوقت نفسه غير موافقين على سياسة التسلّط وينتظرون الفرصة للإسهام في تحرير الوطن من حاكمه المستبد. فأولئك الرجال لم يكونوا أفرادًا عاديين في النظام الليبي، ومع ذلك كانوا يؤمنون بفساد النظام وضرورة إسقاطه ويتحيَّنون الفرصة لذلك. فإذا كان المقرَّبون من القذافي يؤمنون بضرورة زواله فكيف ببقية الموظفين وأفراد الأمن وغيرهم من منسوبي الدولة الليبية الذين كانوا مضطرّين للعمل مع النظام ما دام قائمًا. والشيء نفسه يقال عن منسوبي الجيش العراقي وأفراد الأجهزة الأمنية والإعلامية، فهم موظَّفون لدى الجمهورية العراقية وليس لدى صدَّام حسين، وربما أن أكثرهم يكرهونه وينتظرون سقوطه لكنهم مضطرون للعمل في أي ظرف، إنهم في وطنهم وليسوا في قصور صدَّام...

ونعود إلى موضوعنا الأساسي وهو أن الخلل ليس محصورًا في الحكام المستبدّين، بل المعضلة العربيّة هي معضلة عامة لأنها معضلة ثقافية متجذّرة، وكل فواجع التخلف: السياسيّة والاقتصاديّة والتعليميّة والطائفيّة والمذهبيّة وغيرها، ناشئةٌ عن الخلل الثقافيّ العميق، وبسبب ذلك صارت الثورات العربيّة ثورات دامية ومدمِّرة، لأن هذا هو الإرث التاريخي الذي صاغ عقلية الحاضر. فالحكام تَربّوا على أن يتمسّكوا بسلطتهم، وأن يدافعوا عنها حتى آخر رمق، وأن يستبيحوا كل الموبقات في سبيل السلطة والسيطرة على الشعب، فهذا هو الأسلوب المتّبع خلال التاريخ العربي كلّه. كما أن الثوار لا يختلف تفكيرهم ومفهومهم للسلطة عن أصحاب السلطة أنفسهم، فقد اتضح أن الكثيرين منهم لم يشاركوا في الثورات من أجل تحرير الإنسان، بل من أجل الوصاية

عليه. إنهم يعتمدون منطق القوة والقتل والقهر، وبسبب هذه العقلية السائدة عند كل الأطراف فإن ثورات الربيع العربي قد انحسرت أمواجها العاتية المدمّرة عن تنظيمات إرهابية غارقة في الانغلاق والاستبداد والجهل المركّب والتوحّش والاستخفاف بالإنسان، وتَعَمَّد إذلاله والحرص على سحقه وكتم أنفاسه وحرمانه من كرامة إنسانيّته، وتحقير كل معطيات الحياة...

فهل توقظنا هذه الفظائع لندرك الخلل الجذري في ثقافتنا؟ وهل هذا الإدراك الموجع الصادم سيعيدنا إلى حقائق التاريخ، فنكتشف فداحة الأوهام التي غرقنا فيها، فأغرقنا فيها أجيالًا ممن صاروا يندفعون إلى الموت ولا يتردّدون في قتل الأبرياء جماعيًّا من دون تفريق بين المقاتلين وغيرهم من الأطفال والنساء؟ إنهم يفعلون ذلك وقد تشبَّعوا بنموذج سلطوي فظيع، هم يتوهّمون أنهم سوف يستعيدون مجدًا عظيمًا وباذخًا لا يحول بينهم وبينه في اعتقادهم سوى زوال الحكام. وقد رأينا كيف تتحوّل الأوطان إلى فوضى عارمة، وحتى أفضلهم غاب عنهم أن التاريخ السياسي العربي كان تاريخـًا مليئًا بالفظائع، وأن الأشقاء خلال التاريخ العربي والمغولي والتركي وتاريخ الأيوبيين والمماليك كانوا يتقاتلون من أجل السلطة، ويقتل الحاكم إخوته ليضمن أن تؤول السلطة إلى أبنائه. لقد ملأنا عقول أجيالنا بوعيٍ زائفٍ حين صوَّرنا لهم الماضي بأنه سلسلة من الأمجاد النقيّة الشامخة، الطاهرة، العظيمة، في حين أن حقائق التاريخ تؤكّد أن المجد الذي تَوَهَّمْناه لم يحصل أصلًا، وإنما هي مجرد نرجسيّة ثقافيّة عمياء وساذجة.. إنهم يندفعون لإحياء عظَمةٍ لم توجد في أي فترة من تاريخنا باستثناء فترة الخلافة الراشدة التي كانت سلسلة من التجارب ولم تستقر على نمط محدَّد يمكن احتذاؤه، ويكفي دلالة على الخلل الفظيع في التنازع على السلطة أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة ماتوا اغتيالاً غادرًا، فالصراع على السلطة كان وما زال حادًّا، فهي القيمة المحوريّة في منظومة القيم العربيّة، ويكتسب الناس المكانة بمقدار قربهم منها ونفوذهم فيها ومن هنا يتفاقم الخلل...

إننا، في كتبنا ومدارسنا وجامعاتنا ومنابرنا ومنتدياتنا ووسائل إعلامنا وأحاديثنا مع أولادنا في بيوتنا، نتحدث ليلاً ونهارًا عن أمجاد عظيمة غابرة تتعلّق بالخلافة والخلفاء وبالدولة الإسلاميّة المجيدة.. نشحن بهذه الأوهام وجدان الإنسان العربي من المهد

إلى اللّحد، لكن لا أحد يتوقّف ليحلّل هذه الأمجاد المزعومة ويقارنها بحضارة العصر، وإنما يجري ذلك في لغة تعميميّة شموليّة موهمة تستغرق كل إنجاز وتشمل كل عمل عظيم. إننا لم نتمرَّس بالموضوعيّة ولم نَعْتَدْ على فحص الذات ونقدها، وإنما نردّد ما قيل وكأننا حشدٌ من المنشدين المردّدين...

وينشأ الإنسان العربي وهو يؤمن أعمق الإيمان بأن الخلفاء الأمويين والعباسيين والسلاطين المغول والسلاطين الأتراك والأيوبيين والمماليك وغيرهم من الخلفاء والسلاطين الذين حكموا باسم الإسلام، في النظرة الخاطئة الواهمة للإنسان العربي، كانوا نماذج فريدة في الاستقامة والعظمة والنزاهة والعدل والضياء والشموخ، وبأن تاريخنا كان مصدر كل ما رأته الدنيا من تقدّم وازدهار. ثم يقارن هذا الوهم الباذخ بحالة الهوان المذِلّ التي يعيشها العرب في حاضرهم فيتحسَّر على ضياع ذلك المجد العظيم الذي تم إيهامه بأنه كان في منتهى الإشراق في الماضي، ويأخذه الشوق الملحّ إلى استعادة ذلك الماضي المجيد ويصير هذا الشوق هو أقصى أمانيه ونهاية طموحاته. فالإنسان بطبيعته لا يطيق الهوان فيُضَحِّي بحياته من أجل المجد الفردي، أو الجماعي، وهذه من خصائص الإنسان العجيبة. فالنفور من الهوان أقوى من حب الحياة، لذلك يموت الناس دفاعًا عن الشرف الفردي أو الأسَري أو شرف الأمة...

إن الأجيال العربيّة قد حُجبتْ عن حقائق الماضي فعاشت بوعيٍ زائفٍ، وحتى القيادات الثقافيّة هي ذاتها ضحية البرمجة الخاطئة الناتجة عن الوعي الزائف المتوارَث. إن الذين يتحدّثون عن المجد الغابر لا يتحدّثون وفي أذهانهم تطوّرات العلوم والفنون والتقنيات والنُّظم السياسيّة المدنية المنضبطة، ولا يتحدّثون وفي وعيهم أهميّة العدالة وحريّات الناس وكرامتهم وفُرص العمل المتاحة لهم ورخاء العيش وتوفُّر الأمن وسعادة الحياة، وإنما يحصرون اهتمامهم بتوفُّر القوة للأمة وفي قدرتها على استئناف الفتوحات. أما الأفراد فلا أهميّة لهم، فلا يهمهم إلا أن يكون للمسلمين دولة واحدة جامعة، قوية تقهر كل الأمم وتسود كل العالم حتى لو عاش المسلمون كأفراد في أعماق البؤس والفاقة وامتهان الكرامة الفرديّة والحروب الداميّة والصراعات التي لا تنتهي حول السلطة. إنهم مأخوذون بثقافة تمجِّد القوّة وتنتشي بالهيمنة وتعتبرها نهاية الانتصار والمجد والعزة والسيادة، فكلّ التغيّرات النوعيّة الهائلة التي طرأت على

الحياة الإنسانيّة وعلى أنظمة الحكم وتقنين السلطة لا تخطر على بال هؤلاء الذين يستنفرون الناس. إنهم يؤلفون ويكتبون ويتحدّثون ويخطبون وليس في أذهانهم سوى صورة قادة الحرب وأخبار الفتوحات. رغم أن من أبرز قادة الفتوح عبدالله بن أبي سرح الذي كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) قد أهدر دمه!! لكننا نحجب السوءات في تاريخنا ونبالغ في تضخيم الإيجابيّات إن وُجدَتْ. لقد تبرمجت الأجيال العربيّة بثقافة عمياء متحيّزة تحيُّزًا مطلقًا، إنها ثقافة لا تؤمن بالتآخي الإنساني، ولا بالتعايش مع المخالفين حتّى لو كانوا من الوطن نفسه ومن الدين نفسه ومن المذهب نفسه، وإنما يتركّز اهتمامها على الشموليّة المطلقة وحصر الجهد لامتلاك سلطة قويّة قاهرة قامعة مهيمنة على العالم!!!...

عاش العرب خلال تاريخهم القديم والحديث في حالة مواءمة دائمة بين قادة السّياسة والمرجعيّات الدينيّة. فقادة السّياسة هم غالبًا دنيويون براغماتيون، يهمهم استقرار الحكم وامتداد السلطة ورفاه الحياة وتحقيق التقدّم للبلاد بالقدر الذي لا يؤثّر على سلطتهم، وأن يبقوا نافذي الكلمة. ولولا هذه البراغماتيّة لدى السلطات السياسيّة لما تحقّق هذا النمو النسبي الذي تعيشه بعض الأقطار العربيّة والإسلامية. فمن دون ذلك كان سيسود نموذج طالبان وداعش. فالسياسيون يستخدمون الدين لإعطائهم المشروعيّة والتأكيد الدائم على هذا الارتباط العضوي مع المؤسسة الدينيّة وممثّليها، ومقابل ذلك يعطُون قادة هذه المؤسّسة المناصب والنفوذ والوجاهة والمال، فيبقى هؤلاء يرون أن مهمة السّياسة هي خدمة الدين وتطبيق تشريعاته، وقسْر الناس على هذه التشريعات، وبذلك يتوهّمون أنهم أعلى من رجال السّياسة، وأن مهمة هؤلاء الرجال تنفيذ ما يقرّرونه طبقًا للمذهب المعتمد في كل قُطْر، مع أن رجل السياسة هو الذي يعيّنهم في مناصبهم وبيده استبدالهم متى رأى ذلك. إنه وضعٌ مشحونٌ بالتداخل والالتباس يقوم على التدافع المرن والمواءمة الذكية...

ولكن الإشكالات لا تتوقّف عند هذا الحدِّ. فالمذاهب السّنّيّة ليس فيها ارتباطٌ بمرجعيّة دينيّة محدَّدة، وبسبب هذا الانفلات تتعدَّد المرجعيات بتعدُّد من يمارسون العمل الدعوي، فتكثر الفتاوى المغايرة لاتجاه المؤسّسة الدينيّة الرسمية، وربما المناهِضة للوضع السياسي السائد. ففي كل البلدان العربيّة والإسلامية اتجاهاتٌ

وتنظيماتٌ تكون في صدام مع السلطة السياسيّة وغير راضية عن المؤسسة الدينيّة الرسميّة، فتنظيم الإخوان المسلمين منذ الربع الأول من القرن العشرين وهو مناهضٌ للسلطة السياسيّة في مصر، وغير متّفق مع الأزهر وغيره من المؤسسات الدينيّة، ولأن التنظيم يعمل وفق أيديولوجيا عالميّة فإنه لا يعمل برؤية محليّة أو بمخطط محلّي وطني، لذلك امتدّت فروع التنظيم إلى كل العالم...

وقد تضافرت حوادث كبرى جعلت للاتجاهات الدينيّة المحضة كل هذا الحضور، وكل هذه السطوة المعاديّة لأي مغاير. وتأتي في مقدمة هذه الحوادث الكبرى غرس إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، ثم هزيمة عام 1967، ثم قيام الثورة الإيرانية وما أحدثته من رجَّة واسعة وتوجُّس عميق، ثم الجهاد الأفغاني الذي أفرز تنظيمات هي أشد عنفًا من تنظيم الإخوان. فهذه التنظيمات قد اعتنقت الفكر السلفي المتشدّد ومزَجَتْه بالفكر التنظيمي الإخواني، فنشأت تنظيمات هجينة سلفيّة التفكير وإخوانيّة التنظيم. فقبْل الهزيمة النكراء وقبل التعوُّد على الأجواء الجهادية في أفغانستان لم يكن العنف الصريح يجد قبولًا، وبسبب هذا الإعراض عن العنف المسلَّح بقي حزب التحرير محدود التأثير وضيِّق الانتشار، ولكن بعد الهزيمة المذلّة، وبعد التمرّس بأجواء الجهاد، وبعد التقاء وتمازج الجهاديين من كلّ مكان، في أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك، وفي كلّ المواقع المشتعلة، تأجّجت الروح الجهادية. ومع الزخم الإعلامي وتمجيد الإقدام الجهادي، بما في ذلك تمجيد الأعمال الانتحاريّة، تكَرَّست الثقافة الجنائزيّة، وصار الموت جهادًا قيمةً عليا يتسابق إليها المراهقون والشباب، فباتوا يتطلّعون إلى نَيْل هذا المجد ليكونوا أبطالًا تتحدّث عنهم وسائل الإعلام...

وما يجب تكرار التذكير به هو أن حركة التنمية في الأقطار العربيّة والإسلامية قد قوبلت منذ البداية بمعارضات شديدة متتالية لأية ظاهرة طارئة، لقد عورض اللاسلكي كما عورضت الإذاعة والتلفزيون وتعليم البنين ثم تعليم البنات، وعورض كل شيء يماثل ما هو حاصلٌ في الغرب بوصفه من التشبُّه بالكفّار. فالبراغماتيّة السياسيّة قد ضمنت للأقطار العربيّة والإسلاميّة تقبُّل الكثير من مظاهر الحياة المعاصرة، ولولا ذلك لساد نمط الحياة الذي تتبنّاه طالبان وداعش...

لقد تَبرمَج هذا الجيل عن طريق التعليم الجمعي والبرامج الدينيّة، والخطب المنبرية، والتجمّعات الصيفيّة، والمؤتمرات المتنوّعة التي تمجد الماضي وتحتقر الحاضر، واكتظت كلّ وسائل التنشئة بأوهامٍ موغلةٍ في الشطط والمبالغة والسذاجة، ومنها التَّوهُّم بأن الانتصارات العربيّة غير مسبوقة ولا ملحوقة، وأنها الاستثناء الفريد في حوادث التاريخ البشري كلّه، وأن البطولات العربيّة القديمة فريدة واستثنائيّة ومقدَّسة. وغفلوا عن أن الاكتساح العربي للامبراطوريّة الفارسيّة واقتطاع مناطق واسعة من الإمبراطورية الرومانية لم يكن حدثًا فريدًا، فقد تكرّر مثله من قبائل الهون، ومن قبائل القوط الذين اكتسحوا أوروبا وأسقطوا الإمبراطورية الرومانية، كما أحدثوا تغييرات كبرى في كل أوروبا. ونسوا أيضًا أن جنكيز خان قد استطاع كقائد لقبائل المغول أن يطيح بكل الإمبراطوريات في خلال فترة زمنيّة قصيرة جدًّا، وأن يكتسح أكثر البلدان في آسيا وأوروبا، بما فيها روسيا وأوكرانيا، وأن تمتد سلطته إلى ما لم يسبقه أو يلحقه أحد في الاتّساع. فالمغول فتحوا الصين وحكموها بعد أن اجتازوا سورها العظيم، وفتحوا الهند وحكموها واستمروا في حكمها حتى عهد الاستعمار البريطاني، واقتحموا البحر وحاولوا مرتين فتح اليابان لكنهم لم يظفروا بذلك. وهذا يؤكّد أن امتدادهم كان مذهلًا وغير مسبوق، وأنهم اكتسحوا كل العالم. ولم يتوقّفوا حتى أمام البحر واكتسحوا معظم البلاد الإسلامية ولم يوقفهم سوى المماليك في معركة عين جالوت. ثم أسلموا وكان إسلامهم سببًا في انتشار الإسلام في البلدان التي حكموها في الصين والهند والقوقاز وروسيا وبلدان كثيرة، فالكثافة الإسلامية الكبرى في بنغلاديش والهند والصين وباكستان وروسيا وتركيا.. هي نتاجُ الحكّام المغول الذين أسلموا فصاروا من حماة الإسلام. كما امتدَّ الإسلام إلى إندونيسيا وماليزيا وجزر المالديف وغيرها بواسطة أفراد من الدعاة المصلحةين بعيدًا عن الفتوحات وعن الخلافة والخلفاء...

والمهم الذي لا بد من إدراكه هو أن اكتساح العالم عن طريق الفتوحات ليس معيارًا للتحضُّر، ولا هو يستحق هذا الهوس بالماضي. فالمغول خلال سنوات معدودة اكتسحوا كل الدنيا التي كانت معروفة آنذاك باستثناء غرب أوروبا وأفريقيا. فلم يتوقّفوا شرقًا إلا عند حدود اليابان، ولا غربًا إلا عند حدود مصر، وامتدوا شمالاً حتى أقصى روسيا، ولم يكن ذلك مَجْدًا وإنما كان عدوانًا ووحشية لم يعهد التاريخ لهما مثيلًا. فقد

اعتمدوا المذابح الجماعيّة الفظيعة لإحداث الرعب وتحقيق النصر كما تفعل داعش في الوقت الحاضر، إنها استراتيجيّة تعتمد أقصى درجات التوحّش والقسوة والعنف، فلا تحترم الحياة الإنسانيّة ولا تعترف بقيمة الإنسان ولا بحقّه في الحياة، كما أنها لا تلتزم بأيّ معايير أخلاقيّة أو أعراف إنسانيّة...

إن الإيغال في تمجيد الماضي قد حَجَبَ عنا مزايا الحاضر، فأوقف نموّنا الثقافي والمعرفي والاقتصادي والسياسي والتقني، وحَصَر تطلعاتنا في نموذج متخلّف جدًّا قياسًا بإنجازات العصر. فأصبحنا نستحسن كل شيء يرمز إلى الماضي حتى في نمط اللباس وأسلوب الحياة.. لقد صار خيال الأجيال مشحونًا بإنسان ذلك الزمان، ومن هنا وجَدَتْ حركة طالبان حين ظهورها بأزيائها التقليديّة الرَّثة ترحيبًا عارمًا، فاعتبروها عودةً إلى المجد الذي فقدناه!!! هكذا تنكشف حقيقة المجد المنشود، فيكون الممثّلون له في هذا العصر هم تنظيم القاعدة وطالبان وداعش وجبهة النصرة وميليشيات ليبيا والصومال واليمن وبوكو حرام، وسلسلة التنظيمات الإرهابيّة التي تعلن أنها تريد إقامة الخلافة الإسلامية، فتنشر الفظائع وتفتخر بأنها ضد الحياة والأحياء. إنها ثقافة جنائزيّة بامتياز تُزهق الحياة وتقتل الناس وتتعامل معهم بأسلوب مشحون بالقسوة والاحتقار والحقد والعنف والصَلَف والتعالي والغطرسة من أجل ما بعد الموت، أما الحياة هنا والآن فلا يقيمون لها أي وزن أو قيمة، أو اهتمام، أو اعتبار إلا بمقدار ما تسمح لهم بالتمكين الذي يتيح لهم فرض النموذج...

لقد تمخّضت ثورات الربيع العربي عن تأكيد حقيقة مفزِعة، وهي أن المعضلة العربيّة الأساسيّة هي معضلة ثقافيّة عميقة غاية العمق، وليس الساسة المستبدون سوى نتائج لهذه الثقافة المعطوبة. لقد تبين بوضوح شديد أن الكثير من التنظيمات والمجموعات التي أسقطت القذافي، وتحاول إسقاط غيره، هي تنظيماتٌ لا يهمّها تحقيق التنمية والعدالة والتطوّر والحرية، وإنما على العكس تمامًا، هي تريد فرض سلطة قامعة تكتم الأنفاس وتقطع روافد الفرح...

إن الذين يندفعون إلى ساحات القتال من أجل إعادة الخلافة والخلفاء ونمط الحياة القديم، يجهلون بداهات التاريخ، وتغيب عنهم الاختلافات النوعيّة في الأفكار

والعلوم والوسائل، التي تحقّقت في الحضارة المعاصرة مُغَيِّرةً بذلك ما عرفه الخلفاء ومعاصروهم. وكما يقول الدكتور مصطفى محمود موجِّهًا كلامه إلى أي إنسان معاصر: «إنك تعيش حياةً أكثر بذخًا من حياة كسرى.. إنك أكثر ترفًا من إمبراطور فارس وقيصر الرومان وفرعون مصر.. إن أقصى ما استطاع فرعون مصر أن يقتنيه من وسائل النقل كان عربة كارو يجرُّها حصان.. وأنت عندك سيارة خاصّة وتستطيع أن تركب قطارًا وتحجز مقعدًا في طائرة.. وإمبراطور فارس كان يضيء قصره بالشموع وقناديل الزيت وأنت تضيء بيتك بالكهرباء.. وقيصر الرومان كان يشرب من السّقا ويُحمل إليه الماء في القِرَب، وأنت تشرب مياهًا نظيفة معقَّمة ويجري إليك الماء في أنابيب.. الإمبراطور غليوم كان عنده أراغوز وأنت عندك تليفون يسليك بمليون أراجوز.. ولويس الرابع عشر كان عنده طباخ يقدّم أصناف الطبخ الفرنسي، وأنت تحت بيتك مطعم فرنسي ومطعم صيني ومطعم ألماني ومصنع مخلّلات ومعلّبات وحلويات.. ومراوح ريش النعام التي كان يروِّح بها الخدم على وجه الخليفة في قيظ الصيف اللاهب عندك الآن مكانها مكيفات تُحَوِّل بيتك إلى جنة بلمسة سحرية بزر كهربائي.. أنت إمبراطور وكل هؤلاء الأباطرة والملوك لا يساوون في النعيم شيئًا بالنسبة لك الآن». فلَوْلا إنجازات هذا العصر لما كان في مقدور تنظيم داعش أن يُحدث كل هذا الرعب في العالم، لكن مخترعات العصر ووسائل التواصل الحديثة هي التي مكَّنَتْه من إنجاز ما أنجزه...

إننا نحن العرب في هذا العصر نستخدم منجزات المزدهرين لكننا لم نتعرَّف على عوامل ازدهارهم، ولم ندرك التغيّرات النوعيّة الهائلة التي طرأت على مقوّمات الحضارة الإنسانيّة. فما زالت القوّة في نظرنا هي معيار التفوّق الحضاري، وما زالت البطولة في عُرفنا هي بطولة القتل، بينما أن المعيار الحقيقي للتحضّر هو القدرة على التغيُّر وتأكيد قيمة الإنسان وانفتاح عقله وضمان الحريّة له، ورعاية حقوقه والاهتمام بتطوير قابليّاته، وتحقيق الأمن الفكري له وتنمية الموارد العامة وإغناء الأوطان وتكافؤ الفُرص والعدالة في توزيع الثروة وتقنين السلطة وضبط سلوك القائمين عليها وحصر صلاحياتهم وتحديد مدة ممارستهم للسلطة. لقد صار الحاكم في المجتمعات المزدهرة موظّفًا موقَّتًا عند الشعب، ويستبدله الشعب بموظف آخر إذا أخطأ أو انتهت مدة توظيفه أو ولايته، وهي في الأنظمة الديمقراطيّة تتراوح بين أربع سنوات كما في

أميركا أو خمس كما في مجتمعات أخرى، أو سبع سنوات كحدٍّ أقصى، كما في بعض البلدان الديمقراطية. بينما أن إسقاط القذافي قد أدّى إلى دمار هائل، وقتل مروِّع، وتشريد لا نهاية له، وكوارث بلا حدود. فنحن العرب تشتدّ حاجتنا إلى ثورة ثقافية عميقة. أما إسقاط السلطات السياسيّة قبل تغيير طريقة التفكير فلن يؤدي إلا إلى مزيد من التخلّف والدمار، والسير في اتجاه مضاد لحضارة العصر...

إن التخلّص من التخلّف ومن إفرازاته الفظيعة له شروطٌ أوَّلية.. أوَّلها تبديد أوهام الامتياز، وفَتْحُ الانغلاق الثقافي، وإنهاء الاستبداد السياسي واحترام الإنسان، والعناية بأن يفهم طبيعته ويتعرَّف على قابليّاته وتحريره من الوصاية، والإفساح لمختلف الأفكار والاتجاهات والآراء لتتواجَه وتتفاعل فيحصل الاقتراب النسّبي من الحقيقة الموضوعيّة بهذه المواجهة...

وثانيها تصحيح مفهوم العقل، فالعقل المتشكّل تلقائيًّا بالثقافة السائدة ليس عقلًا معرفيًّا، وإنما هو عقلٌ تلقائيّ معيشي وأيديولوجي مغلق. إن العقل لا يصبح عقلًا ينهض بالمهمات المعرفيّة حتى يصير عقلًا فاحصًا، ناقدًا، متحقّقًا. فالعقل في حقيقته هو فاعليّة نقدية، ولكنه لا يصير كذلك إلا إذا اضطر لمواجهة عقل مغاير. فالتعايش مع التعدّدية وقبول المغاير هو الذي يفتح أقفال العقل، ويوقظ قدرات الإدراك، ويملك آليات ومناهج التحقّق. إنه بهذه المواجَهة يستيقظ من سباته ويفيق من أوهامه، وينفكُّ من انغلاقه، فيصبح قادرًا على التعلُّم من كل المؤثرات والاستفادة من كل الروافد، والانفتاح على كل الآفاق. أما من دون ذلك فإنه يبقى محكومًا بقانون القصور الذاتي، فلا شيء يعلو على ذاته بل قد تتآكل هذه الذات وتتبدّد وفق قانون الإنتروبيا. إن الإنسان سواء على المستوى الفردي، أم الجماعي، أم الاجتماعي، لا يدرك قصوره ولا يعرف جهله. فالإنسان بطبيعته لا يعلم أنه لا يعلم إلا إذا اضطر للتحقّق.. لذلك لم تنشأ العلوم ولم تتقدّم الحضارة تقدّمها المتسارع إلا بعد ظهور واحتدام جدل الأفكار. إن كل التغيّرات النوعيّة التي طرأت على الحضارة المعاصرة وعلى الحياة الإنسانيّة الحديثة كانت من نتائج جَدَل الأفكار المتضادّة والتفاعل بين الفكر والفعل. فلا توالُد إلا بالتزاوج. ولا يمكن تحويل كتلة الحديد إلى جهاز ينبض بالفاعليّة إلا بتعريضها للصهر وبعمليات دقيقة ماهرة وطويلة ومعقدة. وكذلك ما تتلقّاه قابليّات الإنسان من أوهام وأخطاء تتطلّب قدرات استثنائية للتحليل والفرز والتحقّق والاستبعاد...

إن تصوّراتنا عن الإنسان والحضارة والمجتمع والحياة والتاريخ والماضي والحاضر ونماذج الاقتداء والهويّة والثقافة والمعرفة والعلم والتعلُّم والحقيقة والتحقّق والعقل والوجدان والتعليم والعدل والسلطة. إن هذه المفاهيم الأساسيّة المحوريّة وغيرها كلّها بحاجة إلى تغييرات نوعيّة. فالتفكير القائم على مفاهيم خاطئة لا بد أن يؤدّي إلى نتائج كارثية. فسلوك الناس وتصرّفاتهم وأوضاعهم وعلاقاتهم وأحكامهم ومعاييرهم واهتماماتهم هي نتاجٌ تلقائيّ لتلك المفاهيم الأساسية التي تبرمجوا بها تلقائيًّا، ولم تتعرَّض لأي تحليلٍ، أو فحصٍ، أو مناقشةٍ موضوعية. إن السلوك البدائي، أو المتحضر، هو نتاجُ التعوُّد والتبرمُج عند أكثر الناس في كل المجتمعات المتخلّفة، أو المزدهرة وليس ثمرة الوعي الفردي اليقظ والإدراك الذاتي العميق...

إننا بحاجة إلى تصحيح مفهوم العقل، فالإنسان لا يولد بعقل جوهري ناجز وإنما يولد بقابليّات ذهنية ووجدانية فارغة ومفتوحة ومرنة ومطواعة، ثم بواسطة امتصاص مؤثّرات البيئة يتشكَّل للفرد نوعٌ من أنواع العقل مطابقٌ لما هو سائد في البيئة، ويظل طيلة حياته مغتبطًا بما تبرمج به لأنه لا ينظر إلى الأمور إلا من خلاله. ومن هنا تختلف أنواع العقول وتتنوّع بتنوّع الثقافات، بل تتعدّد بتعدّد الأفراد. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ، وهو من الناحية العقلية والنفسية والوجدانية والمعرفية كائنٌ ثقافي. فكل ثقافة هي إطارٌ عازل وكيانٌ مختلف ومنفصل عن الثقافات الأخرى، إنها قوالب العقول، فتختلف عقليّات الأمم بمقدار اختلاف ثقافاتها، كما يختلف الأفراد بمقدار اختلافات قابليّاتهم واختلاف ما تلقته هذه القابليّات، فالإنسان بما يُضاف إليه وليس بما يولد به...

إن الموقف من الحقيقة عاملٌ أساسيٌّ في بقاء المجتمع منغلقًا ومتخلّفًا ومحكومًا بالاستبداد، أو منفتحًا ومتقدمًا ومحكومًا بالديمقراطية. فالمجتمع الذي يتوهّم أن أجياله تتوارث الحقيقة المطلقة لا بد أن يكون منغلقًا ومستبدًّا ومتخلفًا، لأن من يتوهّم أنه يملك الحقيقة المطلقة يغلق حتمًا كل الأبواب ويوصد كل النوافذ ويردم كل الروافد، ويظل مكتفيًا بحقائقه الموهومة، ويصبح بذلك عاجزًا عن التلاؤم مع العالم وغير قادر على التعايش مع التطوّرات المتسارعة، فهو يواجهها بالرفض العنيف والمفاصلة القاتلة...

ثار الليبيون على القذافي فحاول سحقهم، وحين أسقطوه اندلعت بينهم أشرس الحروب الأهلية، وهذا يؤكّد أن المجتمعات العربيّة تعيش خارج التاريخ. ففي العالم قد أزيحت الهالات التقديسية التي كانت تحيط بالسلطة السياسيّة، فصارت وظيفة موقته لخدمة الناس وليست امتيازًا يضع شاغلها فوق الناس، أو فوق النقد، أو فوق المحاسبة، أو فوق العزل لا رادَّ لأمره ولا نهاية لسلطته. إن الأميركيين والفرنسيين وكل الشعوب الديمقراطية تسخر من رؤسائها عَلَنًا بمختلف وسائل الإعلام وشبكات التواصل. ويتلقى السياسي من النقد والتجريح والتهكّم ما لا يتلقّاه غيره. ففي المجتمعات الديمقراطيّة كلما ارتفعت سلطة الشخص ازداد تَعَرُّضه للنقد والسخرية والتهكم، فلم يعد للسلطة تلك الهالات التقديسية التي كانت تحاط بها، بل صارت وظيفة من وظائف الخدمة العامة، بخلاف العالم العربي الذي يجري تدمير الأوطان وقتْل وتشريد وإفقار وإذلال الشعوب من أجل الاحتفاظ بالسلطة لمن يملكها، أو من أجل الوصول إليها لمن هم خارجها، إنها حالة بدائية مخزية قد تجاوزها العالم باستثنائنا نحن العرب. والأفظع من ذلك أن الثائرين لا يختلفون عن الحاكمين، بل أكثر من ذلك، تنقصهم الخبرة ويفتقرون إلى التجربة وتعوزهم الحكمة، فلو وصلوا للسلطة لكانوا مثل من كانوا قبلهم، أو أسوأ لأنهم يتصرفون بسذاجة سياسيّة وبطريقة التفكير ومنظومة القيم نفسها وأنواع الاهتمام. بل إن الثورات قد أسفرت عن عجز شنيع عن التفاهم، ويكفي أن نتوقف أمام ما يجري في البلدان التي انهارت فيها السلطة لنرى فظاعة النتائج بعد انفلات الأمن...

إن معضلات العرب يمكن إرجاعها إلى ثلاثة عوامل رئيسية، هي: الانغلاق الثقافي والخنق الاجتماعي والاستبداد السياسي والتزاوج بين هذه العوامل. وتتفرّع عن كل عامل معضلاتٌ أخرى تتعقّد بها الأوضاع، ويتعطّل العقل، ويتلوّث الوجدان، ويتحجّر الفكر، ويتهمَّش الإنسان، ويستفحل الفساد، وتتقهقر الحياة. وفي النهائية يتّضح أن المعضل الأساسي هو معضلٌ ثقافيٌّ وليس الخلل السياسي والاجتماعي سوى ناتج من نواتج الإعضال الثقافي...

في العالم المتقدّم المزدهر لم تَعُدْ السلطة عنوانًا للمجد ودلالة الشرف، وإنما باتت وظيفة ينالها موقّتًا من يختاره الناس وهم لا يختارونه اعتباطًا، وإنما يأتي اختياره وفق

ضوابط وسوابق تؤهّله للاختيار وتضعه قيد التجربة والاختبار. فحين نتابع مناظرات المرشّحين لرئاسة أميركا نرى كيف يختبر الشعبُ المرشّحين اختبارات عسيرة مضنية قبل أن ينتخب واحدًا منهم. فهو يتحقّق من ماضيهم وأمانتهم وكفاياتهم وقدراتهم وطريقة تفكيرهم وانضباطهم الأخلاقي وعمق فهمهم للقيم الأميركيّة، ويتحقّق من برنامج كل منهم لسنوات الخدمة. فالمتقدم للامتحان الشعبي العسير يلتزم ببرنامج يَعِدُ الناسَ بتحقيقه، فيظل الناس يتابعون نشاطه لحمله على تنفيذ برنامجه وتجسيد وعوده. فالسياسي في المجتمعات الديمقراطيّة هو الأكثر تعرُّضاً للمحاسبة والمتابعة واللوم.. هكذا في العالم المتحضّر لم تَعُد السلطة في ذاتها شَرَفًا أو قيمة مطلقة، بل صار المجد مرتبطًا بما يحقّقه السياسي من إنجازات وليس لمجرد أنه صاحب سلطة. وقد يكون فوزه بالوصول إلى السلطة في مجتمع ديمقراطي سببًا في كشف قصوره وتعرية عجزه وإبراز نقائصه.. وعمومًا فإن السلطة السياسيّة لم تَعُدْ مصدرًا للمجد، ولا عنوانًا على الشرف إلا بمقدار ما ينجزه السياسي لمصلحة مجتمعه، أو لمصلحة الإنسانيّة جمعاء...

كما تغيَّر مضمون البطولة.. إن البطولة في العالم المزدهر المتحضّر صارت تتجلّى في حماية الحياة وليس في إزهاقها، وفي احترام الإنسان وليس في قهره، وفي توفير الوسائل له وليس في حرمانه، وفي تعزيز كرامته وليس في الإمعان في إذلاله.. فأبطال العصر الحديث هم غاليليو وفولتير وفاراداي وأديسون وآينشتاين وفورد وستيف جوبز وبيل غيتس وجون لوك وكولمبوس ونيوتن وشكسبير وديكارت وبيكون وكانط وروسو. ولم يعد المتحضّرون يحترمون السفاحين ولا يعترفون لهم بأية بطولة بل يعلنون لهم المقت والازدراء. فمعيار القيمة هو الحسّ الإنساني الرفيع وليس التوحُّش وسفك الدماء وإزهاق الأرواح وإذلال الناس...

إن العالم المتحضِّر لم يَعُدْ يحترم الساسة المتسلّطين، بل يرى أنهم من مخلّفات عصور الظلام وبقايا التوحُّش. إنهم نماذج تقابَل بالازدراء والاحتقار والاشمئزاز حتى لو اضطرت الدول المتحضّرة في بعض الأوقات إلى التعامل معهم. إن مصلحة الأوطان قد تستوجب التغاضي عمَّ تقتضيه الرؤية الأخلاقيّة.. لذلك هبَّ العالم المتحضِّر لمساعدة ثوار ليبيا مساعدةً مباشرة من أجل إسقاط القذافي، ولم يكن أحدٌ

في العالم المتحضِّر يتوقّع أن التكفيريين سوف يختطفون الثورة ويقيمون سلطة قامعة. فتجارُب التحوّل والانتقال من الحكم الاستبدادي إلى الحكم الديمقراطي في دول شرق أوروبا كانت مغايرة تمامًا. فقد تمّ التحوّل بسلاسة. وكانت البداية الرائعة الناجحة في بولندا، أما في المجتمعات العربيّة فإن النتائج جاءت فاجعة وكارثيّة...

إننا بسبب المعضلة الثقافيّة المستحكمة المتغوّلة نختلف عن كل العالم فرغم أن دول شرق أوروبا كانت أثناء العهد الشيوعي محكومة بالحزب الواحد والفكر الأوحد وذات سلطة سياسيّة قامعة إلا أن الشعوب انتفضت. ومع سقوط الاتحاد السوفياتي استجاب الحكّام المستبدّون في أقطار شرق أوروبا لمطالب الشعوب، وتم التحوّل دون إراقة دماء باستثناء الاتحاد اليوغسلافي، أما بقية الدول فتم فيها التحوّل من الاستبداد إلى الديمقراطية بسلاسة ونجاح باهر. أما في العالم العربي فإن النتائج أسوأ من فاجعة...

يرى العالم الفيلسوف وايتهد بأن فَرْضَ إرادة واحدة لفرد، أو جماعة، أو اتجاه على الإرادات الأخرى هو التجسيد الحي للهمجيّة والبربريّة. وما يقوله وايتهد ليس رأيًا فرديًّا، وإنما هو تعبيرٌ عن ثقافة عامّة صار العالم المزدهر يعيشها واقعًا بديهيًّا فالحياة الإنسانيّة يجب أن تقوم على الإقناع وليس على الإخضاع إن هذا هو معيار التحضُّر الإنساني...

أما الحياة العربيّة فهي مبنيّة على علاقات الإخضاع.. علاقات القاهر والمقهور.. علاقات المستبدّ الذي له في الاستبداد عمقٌ تاريخي طويل وكثيف.. يقابله المجتمع الخاضع الذي لا يعرف في تاريخه نمطًا سياسيًّا آخر.. إن علاقات القوة هي الفيصل في البيئة العربيّة على امتداد التاريخ وتعدُّد الدول. فمعضلتنا نحن العرب هي معضلة ثقافيّة عميقة، لكن لا يدرك الكثيرون فظاعة التغوّل الذي تمارسه على حياتنا، وهي تقوم على تقديس السلطة واحتقار الإنسان، وإغلاق منافذ العقل والوصاية على الناس، وفرض رؤية واحدة مغلقة على الجميع.. والهوس بالسلطة. ويعود هذا الهوس في السلطة إلى أنها في الثقافة العربيّة تمثّل القيمة المحوريّة التي ترتبط بها كل القيم، وتُستمدّ منها كل المزايا. وبسبب هذا التمحور حول السلطة فإن التاريخ العربي في غالبه كان صراعًا على السّلطة...

الاستبداد في السّياسة العربيّة وفي التاريخ العربي وفي الثقافة العربيّة إنما هو امتدادٌ لتاريخ ثقافي وسياسي ممعن في القدم والرسوخ، ولا يختلف في التشبُّع بثقافة الانغلاق والاستبداد من هم في السلطة عن الذين هم خارجها. فقد أثبتت الحوادث أن الذين يسعون لإسقاط أي حاكم لن يكونوا أفضل منه. فالخلل ثقافي محض، إنه في طريقة التفكير ومنظومة القيم ونموذج النظام السياسي الذي اعتادته الذات العربيّة، وأي فرد يكون على رأس هذا النظام سيكون مماثلًا لمن يشتد النقد له والاعتراض عليه. ثم إن كل مستبد في أي مكان من العالم لا يقتل الناس بنفسه وإنما معه الملايين من المواطنين الذين يؤمنون بهذا النموذج من النظام السياسي الاستبدادي الفظيع، فيموتون دفاعًا عنه. وليست كوريا الشمالية سوى نموذج صارخ.....

وما من مستبدٍّ عربي أو غير عربي سيتخلّى عن السلطة توفيرًا لأرواح الناس. فلولا الوقفة الشجاعة الحاسمة لقائد الجيش التونسي رشيد بن عمار لما تردَّد الرئيس التونسي زين العابدين بن علي عن سحق المتظاهرين وإنهاء الاحتجاج. ولولا أن الجيش المصري رفَضَ التدخّل لقمع المتظاهرين في مصر لما تردّد حسني مبارك عن فضّ المظاهرات وحسمها بالقوة، وهذا ما لم يحصل في سوريا ما أدى إلى إغراق هذا البلد في الدماء ودمّر مقوّماتها وهجّر شعبها وفتح الباب لكل أنواع التطرّف الذي لم نشهد له مثيلًا، وألقى بسوريا كلّها لقمة تتقاذفها الصراعات الإقليميّة والدوليّة...

إن منطق القوّة هو المنطق السائد والموروث والتلقائيّ في الثقافة العربيّة.. لذلك لم تتمخّض الثورات العربيّة عن تحوّل ديمقراطي كما حصل في أوروبا الشرقية بعد انهيار المعسكر الشرقي، وإنما تمخّض عن داعش وأخواتها من التنظيمات الإرهابية المعادية للحياة والأحياء...

لقد تكيَّف العرب في حاضرهم وماضيهم مع أسوأ أنماط الاستبداد وحُكْم الفرد المطلق. لقد عايشوا الاستبداد المطلق خلال القرون واعتادوا عليه وتآلفوا معه وتكيفوا به حتى صار من بداهات الحياة. فلا الناس يستنكرونه ولا المستبد يرى أنه يرتكب خطأً، بل إنه يرى وفق الثقافة العربيّة التي تبرمج بها أن الاستجابة لمطالب أي معارضة، أو الإصغاء لأي احتجاج هو ضعفٌ وعجزٌ وخَوَرٌ وهزيمة لا تليق به. فالمسألة هنا

لا تقاس بمعايير الحق والعدل والعقل، وإنما تقاس بمعايير النصر والهزيمة والشرف هكذا هي معايير التعامل في الثقافة العربيّة: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر»، ومعيار: «إنما العاجز من لا يستبد». فالسلطة ذاتها في العُرف العربي هي المجد الشامخ الذي يجب الدفاع عنه حتى الرمق الأخير، وهي الشرف الخالد الذي لا يصح التنازل عنه حتى لو كان الثمن قَتْل الشعب وتشريد الناس وتدمير الوطن، إنها بالمعايير الإنسانيّة الحديثة أشنع فضيحة حضاريّة...

إن الاستبداد مكوِّنٌ أساسيٌّ من مكوِّنات الذهنية العربيّة والوجدانية. فالبيئة العربيّة في الماضي والحاضر لا تعرف سواه، ولكن مع توافر وسائل التواصل بين العرب والعالم أدرك بعض الشباب العربي الاختلافات النوعية الهائلة بين نمط الحياة العربيّة، المغلقة ثقافيًّا وسياسيًّا، ونمط الحياة في المجتمعات الديمقراطية المزدهرة. لقد جاء التأثير الإيجابي طارئًا من خارج الثقافة العربيّة، ومن هنا هبَّ الشباب المتفتّح إلى الاحتجاج والثورة في بعض الأقطار العربيّة، ثم اندفعت معهم الجموع من كافة الأعمار. فتوقَّع المتابعون بأن العالم العربي في طريقه إلى دخول العصر لتكون الشعوب العربيّة حُرَّة في أن تختار قادتها، وأن تشارك في إدارة أمورها، وفي تشكيل حاضرها، وفي صياغة مستقبلها كما هي حال الشعوب الديمقراطية المزدهرة. ولكن العقلية العربيّة التي تآلفت مع الاستبداد المطلق طوال تاريخها حتى صار مكوِّنًا أساسيًّا من مكوِّناتها فأنجبت الحجاج وصدام والقذافي وعبد الناصر، وسلسلة الحكام المستبدين.. إن هذه الثقافة المنغلقة التي أفرزت الاستبداد ما زالت ذات هيمنة مطلقة على العقول والعواطف.. لذلك ما كادت رؤوس الاستبداد تتساقط حتى تلقَّفَت الأوضاعَ تنظيماتٌ تراثية هي أشد انغلاقًا وأكثر إيمانًا بالوصاية على الحياة والأحياء. إن هذه التنظيمات الموغلة في الوهم تحلم بأن تقيم خلافة إسلاميّة، ويكون الخليفة من نمط طالبان، أو كأنهم لم يقرأوا التاريخ بكل بشاعاته...

إن تمخُّض الثورات العربيّة عن داعش وأخواتها يؤكّد بوضوح شديد أن المعضلة لم تكن سياسيّة. إن استبدال شخصٍ بشخصٍ بنفس طريقة التفكير ومنظومة القيم التي أنتجت الانغلاق والتحجُّر والاستبداد والتخلف لن يحسِّن الأوضاع، فضلاً عن أن يتبدّل الاتجاه من المزيد إلى التقهقر إلى اتجاه مضاد تمامًا ندخل به عصر الإنسان

الحرّ. فالمعضلة ليست سياسيّة وإنما المعضلة ثقافيّة في الدرجة الأولى. فالاستبداد السياسي هو نتاجٌ من نتاجات الانغلاق الثقافي والتحجّر الذهني والانسداد الوجداني، وتصوّراتنا الخاطئة عما يجب أن تكون عليه الأوضاع ونماذج القيادات التي نهفو إليها واعتبار الناس مجرد موضوع للسلطة وليسوا شركاء فيها ولا معنيين بها. ولم يكن أي مستبد عربي سوى نتاج طبيعي تلقائيّ من نتاجها، إنه نموذجٌ من نماذجها التي سادت في الماضي والحاضر، إنه نتاجٌ طبيعي تمامًا. فإسقاط أي حاكم عربيّ لن يختلف عن إسقاط القذافي. إن الليبيين يعيشون حاليًا بعد قتْل القذافي في أسوأ وضع يمكن تصوّره. فالتنظيمات الإرهابية التي حصلت على السلاح أثناء الثورة تريد أن تفرض نمطًا فظيعًا من أنماط الحكم، وأسلوبًا وحشيًّا من أساليب القمع والقسر وكبت الأنفاس. إن الأوضاع صارت أسوأ مما كان سائدًا قبل الثورة. فرغم سوء السياسة العربيّة وانحطاطها وفسادها وعقمها وشناعاتها، وتنوُّع شرورها، ورغم أن حكم القذافي كان التجسيد الأبشع لنمط السياسة العربيّة، إلا أنه رغم فظائعه وقذارته، إلا أنه كان أفضل من النمط الذي يحاول فرضه دعاة الخلافة التي تجسَّدَتْ في فظائع داعش. فالساسة على الأقل يلتزمون بشيء من العقلانية والبراغماتيّة وحُبُّ الحياة، أما البديل فهو بديلٌ جنائزيٌّ مرعب، إنه يبحث عن الموت فيفجّر نفسه ويزهق أرواح الأبرياء جماعيًّا، إنه هوسٌ غير مسبوق في القتل...

تتربّى الأجيال في كل أمة على منظومة من القيم أو المُثُل، فتنغرس هذه المُثُل في نفوس الناشئين وتصبح لا شعوريًّا آمالاً عامة ومطالب ملحّة ينشطون من أجلها ويحلمون دائمًا بها.. ففي المجتمعات الأوروبية ينشأ الأفراد أحرارًا، فيعتبرون الحرّيّة الفرديّة أعلى وأغلى قيمهم، فيبقون متمسكين بفرديّاتهم، فخورين باستقلالهم، ملتزمين بمسؤولياتهم عن أنفسهم، مشاركين في هموم أوطانهم، يمقتون الاستبداد، ويموتون دفاعًا عن حريّاتهم. فالحريّة في الثقافة الغربية هي القيمة المحورية، إنها أهم عندهم من الحياة ذاتها...

لقد كانت الحريّة منذ ازدهارها في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، هي القيمة المركزيّة للفرد والمجتمع.. وكافحت المجتمعاتُ الأوروبية حتى ظفرت بهذا المطلب العظيم...

الحريّة.. والفردية.. والكرامة.. والمساواة.. وسيادة القانون.. والمسؤوليّة.. وتقنين وضبط السلطة.. والديمقراطيّة.. والعدالة.. والشفافيّة.. والرخاء.. والأمن.. وشبكة الأمان الاجتماعي، عناوين رئيسيّة كان الأوروبيون يكافحون من أجلها حتى تحقّقت لهم...

أما الإنسان العربي فينشأ في بيئة ثقافيّة قامعة ومغلقة.. تحميها سلطة سياسيّة مستبدّة وسلطة اجتماعيّة خانقة، وتتشابك مصلحة السلطة السياسيّة مع مصلحة السلطة الثقافيّة فينتج عن ذلك إفساد عقل المجتمع وتضليله، وربطه بأحلام وآمال معادية للحياة، وقامعة للأحياء، وبذلك يتلاحم الانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي فيصبح الناس مشحونين بوعي زائف وقيم مقلوبة، ويصيرون مستلبين، ويتكيّفون مع هذا الوضع البائس واليائس ويعتادون عليه ويتآلفون معه، فيصير هو نمط الحياة الذي يصير في تصورهم من أرسخ البداهات حيث لا يعرفون نمطًا غيره، ولا يستطيعون أن يفهموا مقومات ما يتعارض معه...

إننا مع مرور الزمن نزداد انغلاقًا، ويشتدّ ابتعادنا عن مسارات التقدّم الحضاري لأننا نسير في الاتجاه المضاد تمامًا، وتتضاعف قيودنا، وتَستَحكم أوهامنا. وما يضاعف الخلل أن أكثر الكُتَّاب والمؤلّفين يعتقدون بأن الخلل في الحُكَّام وحدهم، ويغفلون عن أن الخلل ثقافي عميق ومزمن. فالحكام هم من نتاجات هذا الخلل البنيوي العميق، ولكن الناس وبعض المثقفين يظنّون بأن إزالة أي حاكم تؤدّي إلى الانعتاق من الأسر. فتجد كثيرين يصبُّون نقدهم وحقدهم على الأفراد الحاكمين، وفي أحيان كثيرة لا يكتفون بذلك، بل يمجّدون التاريخ والتراث تمجيدًا يعمّق الهوس بالذات الدميمة، ويضاعف الخلل العميق المزمن...

إن العالم يتقدّم بسرعة مذهلة في كل المجالات لأنه مشغول بتطوير الحاضر والاستعداد لمتطلبات المستقبل. أما نحن العرب فنخالف العالم كلَّه، فنموذجنا ليس مأمولًا في المستقبل، وإنما نموذجنا في الماضي.. إن الماضي بأوضاعه ورجاله وأفكاره ونمط الحكم فيه هو حلمنا الذي نندفع للرجوع إليه. إننا نحتقر كل ما حقّقه العالم من علوم وأفكار ومناهج وأساليب وفنون ونُظُم ومؤسسات، وهذه معضلة ثقافيّة مستعصية. وكما يقول المفكّر عبدالله العروي في كتابه (ثقافتنا في ضوء التاريخ): «إن نظرة العرب إلى التاريخ تكتسي صورة خاصة.. الحاضر انحطاطٌ بالنسبة للماضي..

والمستقبل يجب أن يكون عودةً إلى نقطة البداية، واستدراكًا لما ضاع في الفترة الفاصلة بين الماضي الحافل والحاضر البائس، وهي نظرة مناقضة للنظرة المتداولة (في العالم)، والتي ترى التاريخ تطوّرًا مستقيمًا من ماضٍ منحط إلى مستقبلٍ راقٍ». إن معضلتنا نحن العرب هي الرفض العنيد الأعمى لكل ما يقدّمه العصر من تغيُّرات نوعيّة عظيمة وهائلة في الثقافة والسياسة وأسلوب الحياة...

إن المثقّفين في العالم العربي رغم أنهم يعرفون معضلاتنا الثقافيّة المعطِّلة، إلا أنهم قد تفاءلوا حين هبَّت بعض الشعوب العربيّة ضد الاستبداد، لكن الفجيعة كانت تنتظرهم. فحتّى تونس التي مدَّنها الحبيب بورقيبة فاجأت الجميع بحشود التكفيريين الذين تكاثروا في عهد زين العابدين بن علي.. ربما بتخطيط منه ودعم وتمكين لمواجهة حزب النهضة الإخواني الذي يراه أشدّ خطورة عليه، لأنه حزبٌ منظَّم وله أهدافٌ سياسيّة معلنة. أما السلفيون فقد عُرفوا بولائهم للسلطة متى أظهرت لهم الدعم مهما كانت هي فاسدة، إضافةً إلى أن السلفيين سابقًا ليسوا منظَّمين، وإنما كانوا يعتمدون على العمل التلقائيّ والاستجابة التلقائيّة. غير أن السلفيّة أخذت الأساليب التنظيمية من الإخوان، فصارت أشد خطرًا. وقد تجسَّد هذا المزيج العقائدي والتنظيمي بالقاعدة والسرورية وطالبان، ثم في داعش وجبهة النصرة وبوكو حرام وغيرها...

إن فظاعة النتائج قد أصابت المثقّفين بمرارة اليأس، بل أصاب اليأس والمرارة ملايين العرب الذين كانوا متفائلين، ففوجئوا بجحافل التكفيريين. فهذا الدكتور محمد الحداد في كتابه (التنوير والثورة) يتحسَّر، فيقول: «كم سيكون صعبًا التخلّص من الدخلاء؟ وكم سيكون دور هؤلاء ضاغطًا في إفساد كل مشاريع البناء والاستقرار؟ لأن الوطن لا يعني لهم شيئًا، ولا النمو والازدهار والحرية.. فأيّ ديمقراطية ستُبنى مع وجود هؤلاء؟! وأي مسار ديمقراطي يمكن أن ينجح في هذه الظروف؟». إن هذه النتائج الفاجعة تستوجب إجراء مراجعة شاملة لثقافتنا لتحريرها من عناصر الإعاقة، واستبدالها بعناصر إيجابيّة تَرفع شأن الإنسان، وتُقلِّل من قيمة السلطة، وتفتح أبواب الثقافة، وتهتم بالحقيقة، وتستبعد أوهام امتلاكها، وتُبرز أهميّة الرؤية الموضوعيّة، وتجلو للناس حقيقة تاريخنا وتاريخ العالم، وتهيئ الجميع للتفاعل الإيجابي مع التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة وعلى الحياة الإنسانيّة...

القسم الرابع

مقارنة بين

1- الطبيب الأديب الشّاعر جون كيتس

2- والطبيب الثائر المحارب تشي غيفارا

عاش الاثنان بحسٍّ إنسانيٍّ استثنائي رفيع لكن الطبيب الأديب رأى أن تغيير الوضع البشري البائس يتم بواسطة الفن وترقية المشاعر. أما الطبيب الثائر فرأى أن رسوخ عوامل الظلم لا يتيح التغيير بالكلام مهما بلغ من الصدق والعمق، فلا بد من إشعال الحرائق من أجل زعزعة أركان الظلم. لكن النتائج قد أثبتت أن العنف يخلق العنف، وأن نتائج الحرائق تؤول بالبشريّة إلى الأسوأ. فتغيير الأشخاص لا يؤدّي إلى تغيير الأوضاع. فالمعضلة هي معضلة ثقافيّة، ولا بد من تغيير طريقة التفكير ومنظومة القيم، واستبدال علاقات القوّة والإخضاع بعلاقات المشاركة والاقناع...

بين الطبيب الشاعر جون كيتس والطبيب الثوري تشي غيفارا:

- الطبيب جون كيتس يهجر مهنة الطب، فيصير من أشهر شعراء وأدباء العالم، فيخلّده التاريخ في مجال اهتمامه التلقائيّ وليس في مجال تخصّصه الدراسي...
- كان إحدى المعجزات الإبداعيّة، فلقد مثّلت إبداعاته طفرةً من دون المرور بعثرات التجارب الشعرية...
- كان مهمومًا بإصلاح العالم عن طريق الشعر، وكان يملك حسًّا إنسانيًّا رفيعًا ورؤية فلسفيّة نافذة...
- مات وهو في السادسة والعشرين من عمره، ومع ذلك كان إبداعه من أشد الإبداعات نضجًا...
- وفي المقابل، فإن الطبيب تشي غيفارا يهجر مهنة الطب فيُشعل حروب العصابات، ويصبح اسمه على كل لسان، وتصير صوره تُرفع في المكاتب وغُرف النوم، ويصير ملهمًا للثائرين في كل العالم. لقد كان أسطورة في حياته وبعد مماته...
- كان يحلم بإصلاح العالم عن طريق الحرب وإسقاط الحكومات الاستبدادية، وكان يتوهّم أن العالم سوف يعيش بعد ذلك بأمن ورخاء وحريّة وعدل ومساواة...
- قُبض عليه في إغارة في بوليفيا، وأُعدم قبل أن يكمل الأربعين من عمره، لكن أفكاره وأعماله بقيت حيَّة. فقد ترك خلفه أسطورة لن يمحوها الزمن...

تخلَّى عن الطبِّ استجابةً لاهتماماته التلقائيَّة

كلُّ فرد عالَمٌ قائمٌ بذاته، مختلفٌ عن غيره في تكوينه وشخصيته واستجاباته. وبسبب ذلك فإن الأفراد الذين يَدْرسون التخصص نفسه، ويتلقّون المعلومات نفسها، يختلف استقبالهم لها وتأثيرها عليهم بمقدار الاختلافات الموجودة في خلفياتهم الثقافيّة، وفي برمجة الطفولة، وفي تكوينهم الجيني والنفسي والمعرفي. إن تعميم التعليم وتماثُل الخريجين في الشهادات قد أحدث خلطًا شديدًا، وخَلَقَ من الأوهام ما يصعب تقويضه، فغَيَّبَتْ هذه الأوهامُ الفروقَ الفرديّة التي تفصل بين كل فرد وآخر. إن المعلومات تشبه مواد البناء، لكن تحويل هذه المواد إلى مبنًى أنيقٍ هو مستوًى مختلفٌ كليًّا، وكذلك الأسلوب. فنحن جميعًا نستخدم الكلمات ذاتها، لكن أسلوب طه حسين واهتماماته والقيَم التي تُحرِّكه تختلف عن أسلوب العقّاد، وكلاهما يختلف عن توفيق الحكيم، أو يحيى حقّي، أو زكي نجيب محمود. وأسلوب أنيس منصور واهتماماته والقيم التي تحرّكه تختلف عن أسلوب واهتمامات وقيم نجيب محفوظ، وكلاهما تخصُّصُ فلسفة. إن المعلومات تصل إلى قابليّات مختلفة، فتأتي النتائج مختلفة، وحتّى لو تماثل الأفراد مهنيًّا، أو تقاربوا في المهارات المهنية، فإن الأكثر أهميّة هو نوع القيم والاهتمامات المحوريّة التي تستغرق كُلًّا منهم. فالدراسة من أجل المهنة، بل والمهنة ذاتها، هي من جملة الوسائل وليست غاية في ذاتها...

إن الإنسان تقوده تلقائيًّا قيَمه، وتحرّكه ميوله، ويتبع رغباته. إنه ينشط بتأثير دوافعه التي تتدفّق من أعماقه. أما المعلومات فهي من ضمن وسائل التمكين. وكما يقول جوزيف كامبل: «إذهبوا حيث تريد روحُكم أنْ تذهب، وعندما يقوم بنفسك مثلُ هذا الشعور فلا تترك أحدًا يصرفك عن ذلك». ويضيف: «الشعراء هم أولئك الأفراد الذين اتّخذوا من الاتصال بنعيمهم مهنةً لهم وأسلوبَ حياةٍ»، إنهم مندفعون تلقائيًّا بفيضان

أعماقهم. وكما يقول ديفد ديتش في (مناهج النقد الأدبي): «ليس الشعر قوةً خاضعة لأحكام الإرادة، ولا يستطيع الإنسان أن يقول أريد أن أنْظم شعرًا. حتى الشاعر العظيم لا يستطيع أن يقول ذلك، إذ إن العقل في عمليّة الخلق كالفحمة الخامدة التي تتألق تألُّقًا عابرًا بفعل قوة خفيّة، وهذه القوّة تنبثق من الداخل». إنها فيضانٌ تلقائيّ لذلك لم يكن غريبًا أن يهجر الطبيبُ البريطاني جون كيتس.. مهنةَ الطبّ، وأن ينطلق في آفاق الإبداع بفيض من أعماق ذاته. إن المبدع منفتحٌ تلقائيًّا على تجارب الحياة، ويتلقّى أصداء الوجود، ويستجيب لكل ذلك بحس إنسانيٍّ مرهفٍ، ورؤيةٍ إنسانيّة عميقةٍ وشاملةٍ.. هكذا انطلق كيتس متحررًا من التنميط الدراسي والقيود المهنية لأنه مدفوعٌ بقوة من داخله، كما أنه يؤمن بأن الإنسان لا يكتسب إنسانيته إلا إذا هو خرج من أطواق التنشئة واستعاد فرديته، وفَكَّر بنفسه لنفسه بدلاً من أن يظل حبيس برمجة الطفولة التلقائيّة، أو أن يبقى صدًى لما هو سائدٌ من التصورات والقيم والاهتمامات والأفكار والتقاليد. فإنسانيّة الفرد تتحقّق بمقدار استقلاله فكرًا وعاطفةً واهتمامات ليكون هو نفسه وليس نسخةً مكرّرةً مثل ملايين النسخ...

يقول كيتس: «دع الخيال المجنَّح ينطلق بعيدًا في سماء فكر أرحب.. افتح باب سجن العقل على مصراعيه». هكذا هو كيتس يكره القيود، فيترك لخياله حرية الانطلاق، ليس في تهويمات فارغة وإنما يريد لعقله أن ينفتح، ولطاقته العاطفية أن تتَّقد، ولخياله أن ينطلق، وبهذا التآزر والامتزاج بين الفكر والخيال والعاطفة تُختَرَق المسافات، وتَحْتَشد الصّور، وتتآلف الأشياء المتباعدة، ويلتئم ذلك كلّه في انبثاق إبداعي فريد...

إن كيتس يدرك امتيازه وتفرُّده، فهو يقول: «هناك شعلة كهربائية في الطبيعة البشريّة نزَّاعة للنقاء. وهكذا يوجد على الدوام بين المخلوقات البشريّة ولادةٌ لبطولة جديدة». ويخرج من التلميح إلى التصريح حين يؤكّد تَفَرُّده بوضوح: «أعتبر الجمهور على الدوام مُدينًا لي بأشعاري، ولست مدينًا له بإعجابه الذي يمكنني أن أستغني عنه».

كثيرون يتوهّمون أن العلوم والتقنيات والتطوّرات الحضارية الباهرة قد ألغت دور الشعراء في الحياة، ولا يدركون الأهميّة الكبرى للشاعر والأديب والروائي والمبدع في أي فن من الفنون الرفيعة، حيث يُسهم في إبراز قيمة الإنسان وتعميق وعيه بهذه القيمة،

بينما الأمم المزدهرة تحتفي بالشعراء أبلغ احتفاء. وعلى سبيل المثال فإن الشاعر الأميركي روبرت فروست منحته الجامعات الأميركيّة والبريطانية أكثر من أربعين شهادة دكتوراه فخرية تعبيرًا عن تقديرها للدور الثقافي والإنساني الذي يضطلع به. كما أن مجلس الشيوخ الأميركي أصدر قرارًا بتكريمه. وقد جاء في هذا القرار التأكيد: «إن الشاعر روبرت فروست قد ساهمتْ قصائدُه في إضاءة الفكر وتوجيه الأذهان إلى الحكمة والمحبة والعدل الإنساني».

يقول ستيفن زيفايغ في كتابه عن (تولستوي): «فلفظةُ الشاعر المجنَّحة تعني الامتياز والتفرد والسموّ بكل ما هو إنساني. كما تعني شيئًا ما يتصل بسببٍ خفيٍّ بعالم الأسطورة والسحر. والشعر يعني ذلك الوَجد الذي يمتلك الشاعرَ في نشوة رؤيويّة، فيجعله يعبِّر عن الحقائق اللامرئية بكلمات سحرية خارقة. كما يعني تلك الموهبة الفيّاضة بالحدوس التي تشَخِّص بفعل اللحن والنغم ما لا يوصف، وتجسِّد اللامحسوس بفضل الرمز الذي هو روح الشعر وجوهره». إن زيفايغ يقول ذلك لينفي عن تولستوي الشاعرية. فهذا المبدع ترتبط عظمته بالتعبير عن الحقائق وليس باختراع الصور التي هي من خصائص الشاعر...

في المجلّد الثالث من موسوعة البلاغة التي شارك فيها عدد من الأكاديميين والأدباء والباحثين وتحرير توماس سلوان، يقول: «لقد قال المنظّرون المهتمّون بكتابة الشعر بأن الشاعر أعظم من الكُتَّاب الآخرين والفنانين، نظرًا لقدرته على تخطّي مسألة التقليد وبلوغه مرحلةً إبداعيّة تسفر عن شيء جديد». وربما كان فيليب سيدني هو الأكثر وضوحًا في تأكيد أهميّة الشعر، حيث يقول: «إن رجل المحاماة يقول ما وضعه الرجال سلفًا؛ والمؤرّخ يحكي ما قام به آخرون؛ والنحوي يتحدّث فقط عن قواعد الكلام؛ ورجل المنطق يزوّدنا بقواعد مصطنَعة.. وحْدَه الشاعر الذي يزدري التمسّك بأي من تلك القيود، نهض بقوة إبداعه مفعَمًا بأثر طبيعة جديدة تجعله إما قادرًا على جعل الأشياء أفضل مما هي عليه في الطبيعة أو خلقَ أشياء جديدة كأنها لم تكن من قبل.. تالله ما أنجبت الطبيعة شيئًا أكثر ثراءً وتزيينًا للأرض مثل الشعراء، ولا حتى الأنهار العذبة، ولا الأشجار المثمرة، ولا الأزهار العبقة، بل ولا أي شيء آخر يجعل الأرض أكثر جمالًا».

إن الشعراء يمثّلون الطبيعة التلقائيّة للإنسان أفضل تمثيل. فالعمليّة الإبداعيّة هي فَيَضانٌ تلقائيّ من قابليّات مكتظة ومتوقّدة. فالإبداع يكون مسبوقًا باندفاع تلقائيّ وبعمليات تعبئة واعية، وشحْنٍ منظَّم. فيتدفق الإبداع في ما يشبه الولادة التي يعقبها الخمول الموقت، والفراغ العابر، والشعور بنضوب الطاقة على النحو الذي يصفه المبدع الكبير يحيى حقي حين يقول: «العمل الفني يتطلّب حَشْدَ كل القوى، فلا تتخلَّف منها ذرَّة.. وشَدّ الطاقة إلى آخرها ولو إلى حد التمزّق.. ودليلك على أنك بذلتَ غايةَ الجهد هو شعورك بعد الانتهاء منه بأنك كالخرقة المبتلة قد عُصرتْ عصرًا فلم يبق فيها أثر من ماء.. جفَّت كلَّ الجفاف.. ما أعجب هذا الإحساس.. إنه شعور بالرضا والفوز والتطهُّر، ومصافحة قُدس الأقداس مختلطًا بشعور بالإجداب والإفلاس.. لا بد أن تحسَّ بأن العمل الفني قد نَزَحَ معينك بل قد يخالطك شكٌّ في قدرتك على ولادة عملٍ بعده ولكن شرط هذا كله ألا ينعكس الجهد على العمل الفني.. لا بد له أن يبدو لمتناوله أنه تلقائيّ، وأن ولادته جاءت سهلةً.. وفَرْطُ الحدَّة قد يجفِّف العصارة الفطرية التي لا غنى عنها هي وعملها». وهنا يتجلّى الفرق النوعي بين عمل نؤدّيه اضطرارًا، ليس حُبًّا له ولكنه وسيلةٌ وواجبٌ لا بد من أدائه مقارنةً بالاندفاع التلقائيّ للعمل والانجاز. إن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، فقابليّاته لا تستجيب إلا لما يتفق مع ميوله وقيَمه واهتماماته. إن عطاءه لا يتدفّق إلا إذا كان فائرًا من داخله. فإذا ارتبكت تلقائيّته انسدّت منافذ التلقّي وانغلقت منابع العطاء...

إن الإبداعات انبثاقاتٌ، أو طفراتٌ فردية استثنائية نادرة. فالجموع البشريّة لا تبدع بل تستهلك الإبداعات، وتستخدم الإنجازات بعد أن تتحوّل إلى شأن عام مشترَك من دون أن تدرك كيف جاءت بل إنها لا تهتم بمثل هذا الإدراك وحتى المبدع نفسه ليس مبدعًا في كل أيامه، بل إنه قد يحمل الفكرة زمنًا قد يطول حتى يتشكّل في ذاته الشكلُ الإبداعي، ثم إنه أثناء المخاض الإبداعي يختلف عن الشخص نفسه في سائر أحواله كما تختلف الأجواء الصحراوية الجافة حين تغمرها الرطوبة وتتراكم فيها الغيوم، فينهمر منها المطر، وتتحوّل الأرض الحارقة إلى وديان جارفة. فالإبداع لا يتدفّق إلا في حالات الاكتظاظ والتوقد. إن المبدع في الحالة الإبداعيّة يفوق ذاته في سائر أحواله، لذلك فإن كيتس يؤكّد أنه بعد انقضاء فترة الولادة الإبداعيّة يحصل فتورٌ يعيده

لوضع عادي رتيب غير إبداعي، فيصبح غيرَ مؤهَّلٍ حتى للحكم على ما أنجزه هو نفسه، فيصاب بالتردّد في التعديل؛ وعن ذلك يقول: «إن حكمي يكون نشطًا عندما أكتب.. شأنه في ذلك شأن خيالي في نشاطه، بل إن جميع ملَكاتي تكون منتبهة جدًا وفي أوج نشاطها.. أجلس بعد ذلك عندما يتعطَّل خيالي وتضيع الحرارة التي كانت تغذوني.. أجلس ببرود وأنا لا أملك سوى ملَكة واحدة لأنقُد ما كتبته من منبع الإلهام». فيجب أن ندرك بأن الإبداعات في مجالات الفكر والعلم والأدب والاختراع والفن وغيرها ما هي إلا ومضات استثنائية خارقة، وهي نتاج الاهتمام القوي المستغرق حين يبلغ ذروته...

من المهم التأكيد أنه لا يوجد فرقٌ في عمليّة المخاض الإبداعي بين مختلف المجالات. وكما يقول العالم برونوفسكي في كتابه (العلم والقيم الإنسانيّة): «.. في عمليّة الإبداع يَضَع الإنسان جنبًا إلى جنب وجهَين من الواقع، ثم باكتشاف تشابُهٍ ما بينهما يجعلهما شيئًا واحدًا، وهذا الفعل هو نفسه عند الفنان ليوناردو والشاعر كيتس والعالم آينشتاين.. والمُشاهد الذي يعجب بنتاجٍ فنّي، أو بنظريّة علميّة إنما يعايش الاكتشاف نفسه.. وتقديره وتقييمه له إنما هو إعادة خلق لنفس النتاج أيضًا». أي أن فاعليّة الدراسة أو القرّاءة أو المشاهدة مشروطة بانفعال مماثل لانفعال المبدع نفسه، وهذا يؤكّد أن التعلُّم الاضطراري لا يُنتج سوى الخواء...

لكن الإبداع في العلوم هو إبداعُ الفكرة الخارقة وهو نادرٌ مثل فكرة نيوتن عن الجاذبية، وفكرة آينشتاين عن النسبيّة، وفكرة فرويد عن اللاوعي، وفكرة داروين عن التطوّر، وفكرة هايزنبرغ عن اللاتَعَيُّن. أما البحوث العلميّة التي تستهدف التحقّق من الفكرة بعد اكتشافها فلا إبداع فيها، وهذا هو الغالب في أعمال مراكز ومختبرات البحوث، حيث تكون مهمة الباحثين التحقّق من فكرة جاهزة طارئة مغايرة للسائد. وكما قال غاليليو: «من السهل أن تفهم حقيقةً بعد اكتشافها، لكنّ السرّ في الاكتشاف». والمعنى نفسه يعبِّر عنه البروفيسور توماس لوسون، وهو مبدعٌ وأكاديميٌّ، حيث يقول: «إن المهمة الشاقّة هي كيفيّة صياغة الأفكار ووضعها في سياق مناسب». لذلك فإن الفيلسوف الأكبر كانط في كتابه (نقد ملَكَة الحكم) يرى أن البحث العلمي يقوم على الجهد وبأنه ليس عملًا إبداعيًا؛ فيقول: «لا شأن للعبقرية في العلم، بل إن مكان فاعليتها

محصورٌ في الفن». لكن المؤكّد أن الطفرات العلميّة الكبرى، كاختراقات كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن وآينشتاين وفاراداي ودالتون وماكسويل ونيلز بور وهايزنبرغ، تُمَثِّل ذروة الانجاز الإبداعي. وهذا الفرز بين الإبداع العلمي، وهو نادر، فهو لا يضم سوى مجموعة صغيرة من أهل الاكتشافات الكبرى، يأتي في طليعتها نيوتن وآينشتاين. أما البحث العلمي فيشمل أكثر العاملين في الحقل العلمي وهو يقوم على الجهد والالتزام بقواعد ومعايير ومسارات محدّدة، وليس إبداعًا أن هذا التمييز يحسم ذلك الخلاف الذي نشب بين عالم الرياضيات السير تشارلز سنو وأدباء ونقّاد من أمثال هربرت ريد وألدوس هكسلي وغيرهما...

أما التعليم الجمعي الذي ينخرط فيه الملايين اضطرارًا فهو لا يطمح إلى تخريج المبدعين، وإنما أقصى ما يستهدفه هو تخريج المقلّدين الذين لا يُراد منهم أكثر من أداء مهنيّ رتيب. ليس هذا فقط، بل إنهم يأتون إلى مواقع العمل غيرَ مزوَّدين بمهارات عمليّة، فيكتسبون المهارات من المران والممارسة وليس في المقاعد الدراسية. لكننا هنا أمام مبدع تخرَّج طبيبًا لكن اهتمامه كان أقوى وأعمق وأوسع وأرهف وأنفذ من أن يظل محصورًا بعمل مهني. فقد كان جون كيتس يشعر شعورًا حادًّا بالمأساة الإنسانيّة. كانت ذاته زاخرة بطاقة إنسانيّة مرهَفة وشاملة، ولم يكن قادرًا على أن يبقى حبيس عمل مهني. فهو فرديُّ النزعة، إنسانيُّ الإحساس، إنه يتطلع لأوضاع أكثر إنسانيّة، وكان يتحسَّر على ملايين الناس الذين يبقون إمَّعات فلا يفيقون من هذا الاستلاب العام...

يظلّ عقل الفرد مهما بلغ ذكاؤه امتدادًا للعقل الجمعي إلى أن يفيق من هذا الاستلاب التلقائيّ العام. ولكن ما أندر الأفراد الذين يفيقون من برمجة الطفولة التلقائيّة، فيبدأ في المراجعة والتحليل والفحص.. حينئذ فقط يكون عقلًا فرديًّا يسعى إلى تكوين أفكاره واهتماماته وتصوّراته، وأسلوب حياته، وقيمه وأحلامه بفردية منفصلة عن القطيع. فيستفيد من كل ما هو متاح من المعارف والرؤى من خارج البيئة ومن داخلها. أما إذا لم تحصل هذه الإفاقة، وهو الغالب على أكثر الناس في كل الأمم، فإن الفرد مهما بلغ تأهيله التعليمي يبقى ذائبًا تلقائيًّا كقطرة في نهر المجتمع، ولكنه يظلّ يجهل ذلك عن نفسه وعن مجتمعه.. لذلك فإن الفيلسوف الألماني الأشهر كانط لا يعتبر أن الإنسان يملك عقلًا خاصًّا به حتى ينعتق من التنويم الاجتماعي، ويفكّر تفكيرًا مستقلاً، فاحصًا،

ناقدًا. إن ذَوَبان الأفراد التلقائيّ في العقل الجمعي هو معضلةُ كل الناس، ومعضلةُ كل المجتمعات، بل إنها المعضلة الإنسانيّة العامّة المستعصية. فهي السبب الرئيسي لما تعيشه الشعوب والأمم من تنافر وتخلف وحروب وكراهيات وعجز عن التوافق...

ذلك أن الأصل في قابليّات أي فرد أنها تمتص من مؤثّرات البيئة ما يتشكّل به الفردُ عقلًا ولغةً ووجدانًا، فيتحدّد اتجاهه بهذا التشكُّل ويبقى مأسورًا بهذا التكوين التلقائيّ، أما في حالات نادرة فإن الفرد يفيق فيفطن لتلقائيّة تكوينه الذهني والعاطفي، فيتدارك نفسه ويأخذ في بناء ذاته بشكلٍ مستقلّ، وبهذه التداركات الفرديّة النادرة وبالاستجابات الإيجابيّة العامّة الكافية، تتقدّم الإنسانيّة...

إن بقاء العقل في المستوى الجمعي التلقائيّ هو الأصل، أما الارتقاء إلى مستوى العقل الفردي، الناقد، الفاحص، المستقل، فهو ارتقاءٌ استثنائيٌّ نادر. إن استخدام الوظائف العليا للعقل ليست تلقائيّة وإنما هي يقظةٌ استثنائيّة وتداركٌ خارقٌ نادرٌ...

إذا بقي الفرد، أيًّا كان مستواه التعليمي، في نطاق البرمجة التلقائيّة، وهذا هو الحاصل غالبًا لكل الأفراد من كل الأمم، فإنه بذلك يكون ذائبًا في التيار من غير أن يحسَّ بهذا الذوبان، بل يتوهم أنه في قمة وعيه، وأن كل شيء عنده خاضعٌ للفحص والتحقّق. ولكن الواقع بخلاف ذلك تمامًا؛ وكما يقول كانط: «إن التنوير يعني تحرّر الإنسان من الوصاية التي كان هو نفسه السبب في فرضها عليه.. الوصاية تعني عدم استعمال العقل من دون توجيه من خارجه.. والمسؤولية تقع على الإنسان نفسه لأن السبب في فرض الوصاية لا يعود إلى عدم المقدرة في استعمال العقل، بل إلى عدم الجرأة والتصميم. لذلك تَشَجَّع أيها الإنسان واستعمل عقلك من دون وصاية من أحد.. هذا هو شعار التنوير». إن الوثبة الحضارية التي حقّقتها أوروبا تعود إلى ظهور رواد خارقين، مثل مارتن لوثر وكولومبوس ونيوتن وديكارت، استطاعوا القفز خارج القوالب السائدة وفكّروا باستقلال، وراحوا ينقدون الواقع المظلم، ويرسمون معالم الطريق نحو المستقبل المضيء. وبعد ممانعات شديدة وعنيفة ودامية استجابت المجتمعات الأوروبية لتلك الريادات الفردية الخارقة، وحققت هذا التقدّم الهائل. ثم امتدَّ هذا التقدّم لليابان ولبقية الأمم باستثناء الأمم التي بقيتْ تكابر وتدَّعي الكمال والاكتفاء...

إن جون كيتس لا يعتدُّ بالتعلُّم الاضطراري، فالتعلُّم تجربة ذاتية عميقة ناشطة. فقد كان يدرك أن المعرفة لا تَنتُج إلا بالحوار المباشر بين الذات والموضوع، ولا بد أن يحصل هذا الحوار المباشر بين الذات والموضوع عن إحساس ذاتي من الدارس، وعن رغبة ذاتية في المعرفة. ففاعليّة العقل تتكوَّن بالاحتكاك الجياش، لذلك كان يَعتبر أن تجارب الإنسان في الحياة هي التي تصوغ شخصيته. فهو يرى أن صلصلة الحياة الواقعية هي التي تصنع الرجال وليس الإصغاء لما يردّده الآخرون. لكن كيتس لم يغفل عن أن قلة من الناس هم وحدهم القادرون على رفع رؤوسهم والقفز خارج قوالب التنميط التعليمي والإفاقة من التنويم الاجتماعي.. بهذه القفزة والإفاقة يستطيع المتميّزون استخدام عقولهم استخدامًا فرديًّا فاحصًا وناقدًا، واكتشاف المسارات بأنفسهم. إن أكثر الناس لا يمشون إلا على أثر سابق حتى لو كان أثرًا لبقرة؛ حتى كتب أحدهم ساخرًا: «أُمَّةٌ تتبع بقرةً». فالطريق المتعرّج الذي يسلكه الكثيرون ما هو إلا انتظامٌ مع مسارات مطروقة...

إن الإنسان لا يتعلّم إذا اتجه للتعليم مرغَمًا أو مضطرًّا. فالعقل لا يعمل إلا بوقود العاطفة، وهو خاضعٌ تلقائيًّا لدوافع الانجذاب والنفور واللذة والألم. فالفاعليّة في أي شأن جادٍّ تحتاج دومًا ما يسميه بيرغسون (الانفعال الأصيل الفريد). فمن يمارس العمل بتثاقُل وتأفُّف لا يمكن أن يتقن عمله فالعاطفة هي الفاعل أما العقل فليس سوى تابع لهذا الفاعل. إن التعلُّم لن يكون ناجعًا إلا إذا كان تجربة زاخرة بالحيوية والاستمتاع والابتهاج وانطلاق الخيال؛ وكما يرى غوته: «النظرية غبراء، وأما شجرة الحياة فدائمًا خضراء». ويقول الشاعر ييتس: «إن التعلُّم ليس مَلء الدلو، ولكنه اشتعالُ النار». فالمعرفة ليست حفظًا يتجرَّعه الدارسون بمرارة، ولكنها شعورٌ متأجّج بالحيوية والبهجة والمعايشة، فأعظم الرجال رزانة يقفز ابتهاجًا حين يفاجئه انبثاقُ فكرة...

إن العقل لا يثمر إلا إذا مازجته حرارة العاطفة، فالخصوبة الإبداعيّة لا توجد في ذهنٍ عاطل من التوقّد الوجداني، فالعقل هو الضوء الذي يكشف المسار، أما الفاعل الحقيقي فهو مزيجٌ من العاطفة والفكر والخيال، وكما كتبتْ جورج صاند: «العقل يبحث.. والقلب هو الذي يجد»، فالعاطفة هي التي تدفع العقل إلى البحث، وهي التي تمنحه قوة المثابرة وتعطيه قدرة النفاذ، أما الخيال فهو الذي يوسع دائرة الرؤية ويَسْبُر شبكة الروابط ويضاعف محتوى الأشياء...

لذلك كان كيتس يدرك أن المبدعين لا تصنعهم المذكرات المدرسية وإنما تصنعهم مواجهة الحياة بيقظة واهتمام وتدبُّر؛ فيقول: «العالَم وادٍ لصنع الرجال.. لكن البشر ليسوا رجالاً حتى يمتلكوا هوياتهم الفرديّة الخاصّة.. حتى يصبح كل واحد شخصيًّا هو نفسه»، فلا يترك للآخرين أن يحدّدوا اتجاهه ومساره واهتماماته وقيمه وأسلوب حياته، وإنما يختارها هو بيقظة الذهن وانفتاح البصيرة وتوقُّد الاهتمام والخروج من الإمَّعية التلقائيّة...

إن جون كيتس أديبٌ وشاعرٌ معروف، له شهرة عالمية. لقد دَرَسَ الطب ولكن هذه المهنة لم تملأ تطلعات نفسه ولم تجذب اهتمامه، بل أحسَّ بنفور شديد من العمل الجراحي وشَعر بالاشمئزاز وهو يرى دماء المرضى تتدفّق أثناء العمليات الجراحية، فهجر مهنة الطب وانصرف إلى الأدب انصرافًا كليًّا، ولم يكن في الأصل مهتمًّا بالطب وإنما دُفع إليه دفعًا، فاضطر إلى التعايش الموقت مع هذا المجال. وحين تفرَّغ لاهتمامه التلقائيّ صار واحدًا من أشهر شعراء وأدباء العالم. لذلك فإن الباحثة اليابانية أيومي ميزوكوشي.. لم تحصل على الدكتوراه برسالتها عن كيتس الطبيب، وإنما حصلت عليها من جامعة أوكسفورد عن كيتس الشاعر والأديب.. فاسمه يتكرّر في الدراسات الأدبيّة وفي تاريخ الأدب وفي المختارات من الشعر العالمي، وليس في مجال الطب، ويخصّه النقاد بدراسات ضافية كما فعل الناقد الأميركي البرفيسور ليونيل ترلنغ...

إن المكانة العالمية الإبداعيّة العالية لجون كيتس تكتسب حالة من الإجماع. فما رأيت مختارات عالمية للشعر العالمي إلا ويكون كيتس في المقدمة إلى جوار غوته وشيلر ولوركا وأمثالهم من القمم الإبداعيّة. وحين قام الشاعر الناقد الأميركي آرشيبالد مكليش بدراسته العميقة للتجربة الشعرية خصَّ كيتس بدراسة معمّقة شملت معه رامبو وييتس وإميلي ديكنسون...

يقول مكليش في كتابه (الشعر والتجربة): «لم يكن ثمة مجال للشك قط في أن جون كيتس بالرغم من قصر حياته كان شاعرًا عظيمًا بأعظم ما في الإنسانيّة من معنى». وينفي بقوة حَصْرَ كيتس في الإبداع الرومانسي، ويرى: «إن إنسانيته شديدة العمق وواسعة جدًّا في الوقت نفسه، حتى إنها لا يمكن أن تقارَن إلا بإنسانيّة شكسبير.. ولقد

توجَّه في شعره، مثل شكسبير، نحو اكتشاف مصيرنا الكلّي كبشر، وهي الميزة التي تُعتبر المقياس للشاعر الشمولي». ونستطيع بكل ثقة أن نؤكّد أن وول ديورانت، وهو الأوسع والأعمق إطلاعًا على الإبداعات البشريّة في مختلف الثقافات في كل العصور، يؤكّد في كتابه (قصة الحضارة) أن كيتس من بين قلة يَعتبرهم أعظم عظماء العباقرة؛ وهم: دانتي وغوته وكيتس وبيتهوفن وباخ وموزارت ومايكل أنجلو ودافنشي ورفائيل. وهذا يؤكّد أن الغرب عمومًا يَعتبر أن الإبداع في مجالات الأدب والفن هو الأمْيَز، وهو الأقوى دلالة على العبقرية. إن الباحث العلمي يمكن أن يحلّ محلّه أي باحث آخر، فالبحث والعمل الأكاديمي عمومًا هو عمل مهني وليس عملًا إبداعيًّا...

والمعنى نفسه يؤكّده المفكر الناقد كولن ولسون في كتابه (اللامنتمي)، فيذْكر أن كيتس واحدٌ من الفنانين العظام، ويذكره مع دانتي وشكسبير. ويرى المبدع الناقد سومرست موم أن: «أشعار كيتس قد ازدادت غنًى بانفعالات جميع الذين وجدوا في روعتها السلوى والقوة».

يقول الدكتور عيسى بلاطة في كتابه عن (الرومنطيقية): «أما جون كيتس فروحٌ حسَّاسة تلاحق الجمال في كل شيء، وتشعر بأنه أزليٌّ، لكنه لا يتجلّى إلا مارًّا متنقلًا، فيجب على المرء أن يعيش في اللحظة، ويقذف بجماع كيانه فيها ليتمتع بالجمال الحسّي في كل مظهر من مظاهر الحياة.. إنه كان حريصًا على التقدّم في معرفة ذاته وفنه.. ولعله بلغ إتقانًا فنيًّا لم يبلغه إلا القلائل».

أما الناقد الأكاديمي البريطاني رونان ماكدونالد فيتحدّث عن كيتس بوصفه ناقدًا وليس فقط مبدعًا؛ فيقول في كتابه (موت الناقد): «جون كيتس انخرط في محاولة العثور على معنى للشعر في قصائده ورسائله، بحيث كان له دورٌ في تاريخ النقد.. لقد طوَّر فكرة أن الشعر ليس علمًا لكنه يشقّ طريقه إلى الحقيقة بعيدًا عن التشديد التجريبي، أو العقلاني على الوقائع، أو المنطق العقلي.. إن الشِّعر من حيث علاقته بالواقع أكثر اتصالًا بالحقيقة من أمور الحياة اليومية والتجربة التي يمكننا قياسها من خلال الملاحظة لكونه يتّصل بالخيال على نحو مكثَّف، فهو يقبض على الحقيقة من خلال الجمال الذي يعني بالنسبة لكيتس الشيء نفسه: «إن الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي

الجمال.. هذا ما تعرفه على الأرض وكل ما أنت بحاجة إلى معرفته». إن كون الشعر لا يتبع تقنيّات البحث العلمي لا ينفي عنه النفاذ الخارق إلى لب الحقيقة، وتعبيره عنها. فالشاعر من أمثال كيتس هو إنسانٌ مثقّف، وهو شديد الإحساس بتجربة الحياة، فتزخر ذاته بمعطيات الواقع. لذلك فإنه يعبِّر عن الحقيقة من واقع خبرته الجيّاشة واهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق بالوجود وتجلياته...

ويستطرد ماكدونالد: «يشدّد كيتس على قيمة الكفاءة التلقائيّة التي يُعَرِّفُها بأنها القدرة الشعرية على الدخول كليًّا في الأعماق العاطفية والثقافيّة للصورة الأدبيّة، بحيث يفقد المرء هويّته وسعيه الدؤوب إلى العثور على التناغم المنطقي العقلاني، ولتشعر حواس المرء بالراحة حين تواجه علامات اللايقين والأسرار والشكوك من دون بذل أي محاولة متعبة للوصول إلى الحقيقة والمنطق العقلي». إنها الرؤية النافذة والحدس الخارق الذي ينبثق من أعماق الذات بعد أن تتشبَّع بالمعنى وتتّقد بالاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق...

ويضيف ماكدونالد: «إن فكرة أن الفن يمكن أن يكون عنصرًا مؤسِّسًا للحقيقة، لا مجرد محاكاة لواقع موجود سلفًا، تبرهن على كونها مؤثّرة بصورة مستمرّة. وقد مارس كيتس تأثيرًا عظيمًا على أوسكار وايلد والنقاد الجماليين. علاوة على ذلك فإن فكرة أن الجمال يستطيع التغلّب على أي اعتبار، حتى على ذات الشاعر أو هويّته الشخصيّة، يتردّد صداها في تشديد إليوت في ما بعد على اللاشخصية». إن الجمال هو القيمة العليا الثالثة من القيم الأساسية، وهي قيمة الحق وطريقها العلم، وقيمة الخير وطريقها الأخلاق، وقيمة الجمال وطريقها الفن؛ ومعلومٌ أن الشعر من أرقى تجليّات الفن...

ويقول الشاعر الناقد مكليش في كتابه (الشعر والتجربة): «إن كيتس كان يملك إحساسًا عميقًا بما هو مأساوي في الحياة.. إحساسًا أصدق من إحساس أي شاعر انجليزي آخر منذ شكسبير، وكان هذا بالضبط لأنه كان يتمتّع تمتعًا أرهف منهم بجمال العالم.. فالمأساوي ككل شيء آخر في تجربة الإنسان لا يبرز إلى الحياة البروزَ كلَّه إلا في وجود نقيضِهِ. فالمرء لكي يتذوّق المأساة الإنسانيّة يجب أن يتذوّق في الوقت نفسه إمكان السعادة الإنسانيّة. فإن معرفة أي منهما لا يمكن أن تتمّ إلا إذا عُرِفَتا معًا في لحظة واحدة»، وهو الشيء الذي تحقّق في التجربة الشعريّة لكيتس...

لم يكن انصراف كيتس عن الطب إلى الأدب مفاجئًا. فقد كان متهيئًا لهذا الانصراف منذ وقت مبكر من حياته. ففي بحث كتبه عنه الدكتور نظمي لوقا أوضح فيه أنه حصل تحوُّلٌ مبكر في حياة كيتس. فقد كان في مراهقته المبكرة شغوفًا بالرياضة البدنيّة، وكان متفوقًا فيها، وكان شخصًا مرحًا وفكِهًا تملأ الدعابة الأجواء من حوله، فلم يكن يهتمّ للمقررات الدراسيّة ولا بما يقال في قاعات الدرس، ويقول عنه الدكتور نظمي لوقا: «أما الكتب فكان يألف منها ما يعمر رفوف مكتبة المدرسة أكثر مما يألف الكتب التي تشرح المقرّرات الدراسية». وهذه سمةٌ من السمات البارزة للمبدعين، فهم ينفرون مما أُكرهوا عليه من المقرّرات المدرسيّة، وينشغلون بما يهوونه ويميلون إليه ويتّفق مع اهتماماتهم التلقائيّة...

ثم يضيف الدكتور نظمي لوقا: «فجأة وهو يناهز الرابعة عشرة من عمره اشتد ميله إلى الاطلاع، وهَجَرَ الملاعب إلى المكتبة نهائيًّا، وانكبَّ على القرّاءة بنَهَم منظَّم، وشَرَعَ يترجم انياذة فيرجيل إلى الإنجليزية نثرًا». ثم يوضح لوقا بأن هذا التحوّل الحاسم في حياة جون كيتس قد حصل بتأثير مثقّف اسمه تشارلز كلارك.. يؤكّد ذلك أن كيتس كتب إليه معترفًا بهذا التأثير: «ماذا عساي أن أصير لو لم تقع عليك عيناي». وبهذا التأثُّر الحاسم كما يقول لوقا: «كان عفريتُ الأدب قد خرج من القُمقُم وسيطر على عقل جون كيتس، فلم تتصل الأسباب بينه وبين مهنته الجديدة». هكذا هي قابليّات الإنسان إذا هي استثيرت واستجابت بفاعليّة لهذه الإثارة، فإن القدرات تلتهب وتتفجَّر وتنجلي عن إبداعات خارقة وخالدة، أما الدراسة الاضطرارية فلا تترك إلّا طلاء خارجي ينسلخ بسرعة...

وهنا لا بد من التوقف أمام التأثير الحاسم لتشارلز كلارك في تغيير اتجاه كيتس. فلقاؤه بفرد واحد مثير كان أشد تأثيرًا من دراسة امتدت ربع قرن. ومثل هذه الحالة تكرّرت مع ديكارت الذي كان مندمجًا في السائد إلى أن التقى الطبيب اسحق بكمان، فاستشاره وتغيَّر بهذه الاستشارة اتجاهه وغيَّر العالم معه. ومثل ذلك حصل لكانط، فلقد عاش وثوقيًّا حتى قرأ هيوم وروسو، فأيقظه الأول من سباته الفكري، وأيقظه الثاني من سباته الأخلاقي إن هذه النماذج العليا تؤكد أن التعليم ليس حافزًا للتغيير وإنما يأتي التغيير من الرافضين للتنميط التعليمي الثائرين على الذوبان في التيار...

يقول الدكتور نظمي لوقا: «أبرز ما يَجْبَه القارئ من شخصية كيتس وأعماله الأدبيّة ما تتميّز به من شاب أتى بالمعجزات، فهو لم يُعَمَّر أكثر من خمسة وعشرين سنة إلا قليلاً.. ومن عجب أنه انتقل انتقالًا مفاجئًا من طور المحاولات الواعدة إلى طور الإبداع الخلّاق الذي مَنَحَ العالم نخبة من الروائع». إن غليان الأعماق يختصر الأعمار بكثافة الطاقة المشعَّة، ولكن هذا الغليان ليس اختيارًا يمكن تجنُّبه، وإنما هو اشتعال تلقائيّ يستنفد الطاقة ويقصم العُمر...

ويضيف لوقا: «والحق أن روائع المرحلة الناضجة من أعمال كيتس تستولي على ألبابنا بما في لغتها من توهّج وتألّق كأنها كنوزٌ من جواهر الكلام، ولا نلمس فيها بريق الزخرف بل نورانية اللآلئ الحقيقية»،إنه فيضانُ الموهبة المكتظّة وليس تكلُّف الصنعة المتعثّرة...

ولأهميّة إبداع كيتس فقد حظي باهتمام الدارسين والنقاد، ليس فقط بدراسة المنشور من إبداعه وإنما امتدَّ الاهتمام إلى كل شيء يتعلّق به. ومن ذلك أن الناقد الإنجليزي ريدلي قام بدراسة أوراقه والمسوَّدات التي كان يكتبها والتعديلات التي كان يجريها، وظهرتْ النتيجة في كتاب نقدي عَرَض له الدكتور حسن أحمد عيسى في كتابه (الإبداع في الفن والعلم). أما الدكتور عادل الألوسي فقد أشار في كتابه (الألم والعبقرية) إلى اعتلال صحّة كيتس وكونه عاش حياةً مغموسة بالآلام الجسديّة حيث خَطَفَه المرض مبكرًا، ولم يمنعه هذا الاعتلال الجسدي من أن يكون هذا المبدع المذهل، وهو بهذا شاهدٌ مع شواهد كثيرة تؤكّد أن مقولة العقل السليم في الجسم السليم هي مقولة خاطئة. فَصِحَّةُ الجسم ليست دلالة على صحة العقل.. ومعلومٌ أن صحّة الجسد مهمّة ومرغوبة. إنها تساعد المبدع وتتيح له من الطاقة ما يجعله يتحمّل العمل ويواصل الجهد، إلا أنها ليست معيارًا لسلامة العقل ولا لاعتلاله، وإنما المعوَّل عليه هو محتوى القابليّات وطريقة التفكير وثراء البيئة وانفتاحها، وتنوّع المعارف، وقدرة الفرز والانفتاح على كل المؤثرات. فهذه المقولة فيها تضليل وخلْطٌ. إن حثَّ الناس على الاهتمام بصحّة أجسامهم هو حثٌّ مبرَّر ومطلوب وصحيح لكن لا يصح تبريره بمثل هذا الادعاء الفج. فالدنيا متخمة بذوي الأجسام السليمة والعقول الفارغة أو العليلة...

ومثلما أن كيتس أبدع في مجال اهتمامه التلقائيّ القوي المستغرق وهَجَرَ مجال تخصصه الدراسي فإنه أدرك أيضًا أن الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق هو مصدر فاعليّات الفكر والفعل، وهو الذي يحرّك الإنسان إيجابًا أو سلبًا. فمثلما أن الأفذاذ يكسرون التأطير ويبدعون ما هو مغاير للسائد وتستهويهم الأعمال البنّاءة العظيمة. فإن المتعصبين يوغلون في تقديس السائد والذوبان فيه، والاستماتة في الدعوة إليه والدفاع عنه، وتستحوذ عليهم وتستغرق اهتمامهم أحلامٌ وأوهام مؤجّجة فيقدّمون أرواحهم فداءً لهذه الأحلام والأوهام، وقد تكون أحلامًا موغلة في الشطط والوهم والتضاد مع العقل، وتتنافى مع العدل ومع المصلحة الإنسانيّة. يقول كيتس وفي ذهنه الطوائف الدينيّة البيوريتانية المسيحية: «المتعصّبون لهم أحلامهم التي ينسجون بها جنة لطائفةٍ ما». وهو بهذا يصف ما يتكرّر حدوثه في كل المذاهب، حيث تتصوّر كل طائفة أنها هي الطائفة الوحيدة التي على الحقّ وأن كل الطوائف الأخرى غارقة في الضلال...

إن كيتس أراد أن يقول بأن ما يحرّك الناس ويدفعهم إلى العمل والتعمير، أو إلى الحروب والتدمير ليس ما يدرسونه اضطرارًا، وإنما هم يندفعون بفوران داخلي انعجنت به الذوات، وتبرمجت به العقول، وتشكّلت به العواطف، سواء أكانوا مندفعين للإبداع وتنمية وسائل الحياة الكريمة، أو مندفعين للتدمير وسفك الدماء لإرغام المخالفين ليكونوا مثلهم، وكأنهم أوصياء على سكّان الأرض ووكلاء عن الخالق، فلا يكتفون بالنصح والدعوة وإنما يريدون إلزام الناس قسرًا وأطْرًا.. إنهم لا يطيقون أن يبقى حيًّا من يخالفهم، هكذا تضيق الأذهان وتختنق العواطف...

يقول إيفور إيفانس في كتابه (مجمل تاريخ الأدب الانجليزي): «.. جون كيتس له قصة تغصّ بالمعجزات». ثم يوضح أنه دَرَسَ الطبّ لكنه: «منذ بدْءِ شبابه كان قد كرَّس حياته للشعر، وقد جمع حوله عالمًا من الجمال انغمس فيه وكرَّس نفسه له.. كان عبقريًّا تمرّس بتعليم الذات، ويذهل المرء من هذا الشاعر كيف أنه قفز إلى القمة في الشعر بسرعة غريبة». ثم يذكر اعتلال صحّته وعمره القصير؛ ثم يضيف: «.. لكنه أمدَّنا في هذه الفترة القصيرة بعمل أدبي عظيم مما دعا ناقدًا فذًّا كماثيو آرنولد أن يقارنه بشكسبير». إن شكسبير الذي هو مضرب المثل في الإبداع والتفرُّد قد علَّم نفسه، فصار النموذج الأروع في التفوّق والإبداع والتفرُّد، إنه وأمثاله من المبدعين العالميين من

خارج التأطير المدرسي يقَدِّمون دليلًا ساطعًا على أن التعليم يعوِّد على الامتثال، ويكرّس التماثل ويُهمد قابليّات التفرُّد. إن أكثر الناس لا يعلمون أن العادات هي الطبيعة الحقيقية للإنسان. فتفكيره وسلوكه ما هو إلا سلسلة من العادات الذهنية والسلوكيّة التي لا تتكوَّن وتترسّخ إلا بتكرار الفعل. فالتعليم الجماعي يغرس في الدارسين عادة الانقياد والتماثل، ويكرّس فيهم عادة التصديق والامتثال، فتموت قابليّات التفرّد والإبداع. إن التعليم الجماعي تعويدٌ على التلقّي والقبول والترديد البليد...

إن إبداعات جون كيتس لا تكتفي بتقديمه كشاعر، وإنما هي تشير إلى إضاءات فلسفيّة لو طال عمره. وعن ذلك يوضح إيفانس: «ويوحي لنا مشروعه بأنه لو كان قد عاش لتطوّر إلى شاعر فيلسوف عظيم.. يبدو أنه وسَّع آفاقه ليتطوّر إلى حسٍّ اجتماعيٍّ حقيقيٍّ». ويوحي اتجاهه إلى أنه كان يَعتبر أن الجنس البشري سوف يتغلّب على تلقائيّة القصور الذاتي، فيثب وثبةً تَخرج به من خنادقه التاريخيّة، فينتقل إلى المستوى الذي يليق بكائن عاقل متبصّر، وهذه توحي: «بأن كيتس لو امتدَّ به العمر لكان مقدَّرًا أن يصبح شاعرًا ناقدًا، ليس فقط للشعر بل أيضًا ناقدًا للحياة». وبهذا فإن كيتس أحد الذين بشَّروا بالإنسان السوبرمان، حيث ينفكُّ الإنسان من أسر التاريخ وينطلق في لقاءات التآخي الإنساني، فينفصل عن قيوده ويتحرّر من أحقاده وثاراته ويتخلّص من أسباب الحروب والنزاعات والشقاء...

يَقْرن مؤرخو الأدب الانجليزي بين ثلاثة من أعلام الشعر الانجليزي باعتبارهم يتصدّرون الجيل الثاني؛ وهم: بيرون وشيلي وكيتس؛ ويصف كيتس بأنه: «شبَّ ثائرًا ومات ثائرًا»، ومات في سن مبكرة بعد أن عاش عليلًا...

إن جون كيتس يعطي أهميّة قصوى لقوة المشاعر وصدق الخيال، فيقول: «لا أوقن إلا بقدسية المشاعر القلبية وصدق الخيال، وما يفترضه الخيال كجمال لا بد أن يكون حقيقة». وقد أكد مؤلفا كتاب (الرومانسية) دنكان هيث وجودي بورهام على أن: «كيتس ترك تأثيرًا حادًّا على الحركة الجمالية.. واشتهر كيتس بالملامح الفلسفيّة لأعماله».

إن الاهتمام بجون كيتس ليس محصورًا بالدارسين والنقاد والأدباء والشعراء، وإنما نجد علماء من مختلف العلوم يهتمون به، فلا يكتفون بأن يستمتعوا بشعره، وإنما

يتوقّفون لمناقشة بعض مقولاته مثل: «الجمال هو الحقيقة.. والحقيقة هي الجمال.. هذا كل ما تحتاجون إلى معرفته». ففي الدراسة التي كتبها عنه الناقد الأميركي ليونيل ترلنغ يوضح: «إن كيتس أطلقهما في سياق تأمّل عميق في الحقائق العظام الأربع للوجود الإنساني: الحب الموت الفن والعلاقة التي تربط بينها.. حين قال كيتس بأن الجمال هو الحقيقة، وهو يقول بأن مبدأ السعادة (اللذة)، هو مصدر الوجود، ومصدر المعرفة، ومصدر الحياة الأخلاقيّة.. حين قال إن الحقيقة هي الجمال فقد وضع في كلمتين اعتقاده المعقَّد بشكل هائل بأن النفس البشريّة من الممكن أن تتطوّر، بحيث إنها في عمق الفن والتأمّل تدرك حتى أكثر الحقائق أَلَمًا بضرب من السعادة.. ومن الأمور المذهلة في ما يتعلّق بكيتس هو أنه شرح بصورة جريئة ودقيقة جدًّا تطوّر النفس البشريّة». كما توقّف عند هذه المقولة مؤلفا كتاب (الرومانسية) دونكان هيث وجودي بورهام، وفيه: «الجمال، سواء أكان واقعيًّا أم مثاليًّا، فإنه المعلِّم الوحيد المتاح للإنسان».كما يتوقّف عند هذه المقولة عالم الأعصاب انطونيو داماسيو في كتابه (دور الجسد والعاطفة في صُنع الوعي). كما يتوقّف عندها جوليان باجيني في كتابه (تربيع الدائرة). وكذلك رينيه ويليك وزميله في كتابهما (نظرية الأدب). ولكن أطولهم وقوفًا عندها هو الشاعر الناقد مكليش في كتابه (الشعر والتجربة). والناقد ليونيل ترلنغ في دراسته عن كيتس. ويعرض الدكتور نظمي لوقا مذهب كيتس في الجمال، الذي يرى أن: «الجمال هو الحقيقة القصوى، وأن المخيلة هي التي تكشف هذه الحقيقة». ولكن كيتس وهو يؤكّد هذه القيمة المحوريّة للجمال، فإنه لا ينسى أن يتألم لأن الجمال لا يمكن إلا أن يكون هشًّا ضعيفًا، قليل البقاء، سريع الذبول...

إن الإبداع في الفلسفة أو في العلم أو في الفن الروائي، أو في المسرح، أو في الشعر، أو في أي عمل إبداعي هو بالتأكيد من نصيب القلّة المبدعة. أما كيف يبزغ أفراد هذه القلّة فهذا له حديث آخر. ولكن ما يجب التأكيد عليه هنا هو الفرق النوعي بين الإبداع العلمي والبحث العلمي. فالقدرة الإبداعيّة لا يمكن تلقينها، أما البحث العلمي فمتاحٌ بالمران والتدريب لأي باحث من غير أن يكون مبدعًا...

يتوقّف الناقد المعروف ريتشاردز ليلفت النظر إلى أن الشاعر حين يتحدّث عن مألوف فإنه يصوره وكأنه شيءٌ متجدِّد مختلف عما ألفوه، فيصير مدهشًا لأنه: «يقوله

بطريقة تجعل الآخرين لا يكتفون بمجرّد فهمه لينسوه، بل إنهم في القصيدة يجب أن يشعروا به، وأن يواجهوه ويعيشوه...». إن إعادة الطرافة والحيويّة إلى ما هو معتاد ومألوف ورتيب، وجَعْله مثيرًا ومدهشًا هو الإبداع الحقيقي. وهنا يكون ضروريًا التذكير بالفرق بين التعلُّم اندفاعًا كتجربة مثيرة ومعايشة لذيذة، وبين التعلُّم اضطرارًا بتأفُّف ونفور واستثقال...

إن الكثيرين يجهلون أن العلم ليس معلومات ولا هو حقائق ولا هو حشد وقائع فقط، وإنما هذه كلها مواد لبناء العقل العلمي. فلا تتحقّق الجدوى منها إلا إذا دَخَلَتْ إلى قابليّات متهيّئة وقادرة على التساؤل والانفتاح والمراجعة، وتملك قابليّة التخلّي عن الوهم وعن الخطأ. فالعلم هو في الدرجة الأولى إطارٌ يوجِّه مسارات التفكير، إنه نظام تصورات، ومنظومة اهتمامات، وطريقة تفكير، وانفتاح عقل، وفاعليّة ذهن، واتجاه مسيرة؛ إنه رؤية جديدة مهمّتها خلخلة المسلَّمات التلقائيّة، ومَحْو التصورات الخاطئة، والتخلّي عن المعايير المعيقة. فتأثير بيكون، أو شكسبير، أو لوك، أو ديكارت، أو هيغل، أو روسو، أو مكيافيلي، أو كوبرنيكوس، أو كولمبس، أو مارتن لوثر؛ أعظم من تأثير أي عالم، بل لولا هؤلاء الرواد الخارقين وأمثالهم لما ظَهَر العلم على النحو الذي ظهر فيه.. ولولاهم لما كان للعلم قبول ولا تأثير، ولبقي محصورًا في قلة منعزلة كما هي حال ابن الهيثم وابن النفيس والرازي وجابر بن حيان والخوارزمي وغيرهم من الذين ظهروا في بيئة لا تعترف بأهميتهم، فلم تستجب لهم. ثم إن العلم هو اكتشاف ما هو موجود، وكل كشف يتجاوزه كشفٌ بعده، فالعلم في كل مرحلة لاحقة يملأ الفجوات، ويصحح أخطاء المراحل السابقة ويتجاوزها. فالمبدع العلمي مكتشف أما الباحث العلمي فمهمّته التحقّق مما هو مكتشَف، إنه بعمله يؤدي واجبًا ويمارس مهنة وليس مبدعًا. فالباحث يمكن أن يحلّ محلّه باحثٌ آخر لأنه يعمل غالبًا في مجال محدَّد الاتجاه ومعروف الأدوات والهدف، أما الإبداع الفكري والأدبي والإبداع في الفنون فإن اللاحق لا ينسخ السابق ولا يقلِّل من أهميته، فهو باق ما بقي الإنسان. إن المبدع لا يمكن استبداله ولا إحلال غيره مكانه. فما زال الناس في كل العالم يقرأون شكسبير بشغف، ويقرأون ديكارت وهيغل باهتمام شديد. إنه إبداعٌ لا ينضب معينه ولا ينتهي تأثيره. فمع كل قراءة جديدة تتجلّى منه جوانب لم تكن ملحوظة من قبل، فتتجدّد الاستفادة منه والاستمتاع به...

وهنا يحسن الاستشهاد برؤية عالم نال جائزة نوبل في علم الأحياء والطب، هو عالم الأحياء بيتر مدوَّر الذي يؤكّد أن أهميّة الأدب لا تقلُّ عن أهميّة العلم، بل قد تفوقها؛ فيقول: «قضيتي التي أريد البرهان عليها هي أنه (حين يصل الأدب ينصرف العلم). يوجَد حقولٌ في المعتقدات والمعارف الإنسانيّة يجد العلم والأدب كلاهما لديهما ما يقولانه.. هذه الحقول نجدها مثلًا في النواحي الثقافيّة والاجتماعيّة من علم الإنسان، وفي النواحي النفيسة والسلوكيّة لدى الإنسان، وحتى في علم الكون.. فهذه الموضوعات تكمن في حقل الأدب حين يعالج آمال الإنسان ومخاوفه ومعتقداته وحوافزه.. حين يمنح الأديب من نفسه وتتعمّق شروط حياته.. وحين يبحث أمور الثقافة العامة وهو اصطلاحٌ، أعني به نموذج الطريقة التي يفكّر بها الناس ويتصرّفون.. وقد دعا ألدوس هكسلي: أيها الأدباء.. أيها العلماء.. دعونا نتقدّم معًا نحو المجهول الذي يتّسع أمامنا دومًا». إن هذا العالم النوبلي قد أراد التذكير بأن تعقيدات الحياة الإنسانيّة تتطلّب جهود العلماء والأدباء معًا، فلا قيمة للكشوف ما لم تستقبلها عقول متهيئة للقبول ومستعدة للتفاعل...

العلم يوفر الحقائق النسبية والمعارف الجزئية لكن قبول الحقائق والاستعداد النفسي لاستثمارها، والاندفاع لفهمها حق الفهم، والتأثُّر بها والاستجابة لما تقتضيه من تحوّلات في الإدراك وتغييراً في التصوّرات.. إن هذه كلّها مشروطة بفاعليّات الفكر وانفتاح العقل وقابليّة التغيير...

وعلى سبيل المثال، شكسبير كان وما زال تأثيره يتجاوز كل الحدود، ويتخطّى كل الأزمنة، ليس للناطقين باللغة الانجليزية وإنما امتد تأثيره إلى كل العالم في جميع اللغات. ففي القرن الحادي والعشرين ما زال يجري الاستشهاد به تكرارًا وبكثافة لم ينلها أي عالم بمن فيهم نيوتن وآينشتاين...

إن التغييرات النوعيّة التي حصلت في العالم كانت من ثمار الفكر الخلّاق والخيال الخارق، والريادات الاستثنائية التي عملتْ على كسْر الأطُر المتحجرة، وكانت خلف إعتاق الإنسان من الاستكانة لضلالات البرمجة التلقائيّة. وهذه كلّها لم تتحقّق بواسطة الذين اجتازوا مراحل التعليم الجمعي كُرْهًا واضطرارًا، وإنما تحقّقت بتأثير التكامل بين

قادة الفكر وقادة الفعل. فالريادات الفكرية وعمالقة الفلسفة والمبدعون في مجالات الفن والأدب يقَدِّمون الرؤى الخارقة. فحين يجدون من يستجيب لهم من قادة الفعل يتحقّق التغيير الإيجابي...

كان كيتس ثائرًا ضد التعصب والانغلاق والقيود والحواجز الطبقيّة وضد الإقطاع. وكان يستهجن الحواجز التي تفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، ويدعو إلى تجاوز هذه النقائص البشريّة التلقائيّة. فأسهم في فَتْح أبواب التآخي الإنساني. فإنسانيّة الإنسان تتحقّق بمقدار قابليته للتغيُّر نحو الأفضل أخلاقيًّا...

من نصوص كيتس التي تتضمّن دلالات متنوّعة وعميقة قوله في وصف الحب: «إنه زهرةٌ يثيرك جمالها عن بُعْد، ولكن المرء لا يستطيع أن يصفها، أو أن يحدثنا عنها قبل أن يقترب منها ويلمسها بيديه، فهي ألوان.. زهرةٌ جميلةٌ لكنها بلا رائحة.. وأخرى أجمل من سابقتها، ولكنها مليئة بالأشواك.. وثالثة لا جمال فيها ولا سحر يَشَدُّك إليها، حتى إذا قطفتها ووضعتها فوق صدرك أحسست بعطرها يملأ أنفك ويستحوذ على حواسك.. وهذه الأخيرة هي أجمل أنواع الزهور، فلا شيء في الحياة يصبح حقيقةً إلا إذا ذقنا حلاوته، وليس هناك شيء يُضرب به المثل قبل أن يكون مثلًا نحسُّه ونجرّبه.. يجب ألا ندع الصورة وحدها تَشَدُّنا بجمالها وروعتها، وإنما يجب أن نبحث عن المادة التي صُنعتْ بها هذه الصورة، وعن الأصل الذي نُقلَتْ عنه، وعن الأسرار التي تختفي وراءها». ويضيف: «كانت جميلة رقيقة كالنسيم.. كانت أجمل من الحياة». ولعل القارئ يقف ويتأمّل في مقولة كيتس: «فلا شيء في الحياة يصبح حقيقة إلا إذا ذقنا حلاوته، وليس هناك شيء يُضرب به المثل قبل أن يكون مثلاً نحسُّه ونجرّبه». وهذا ينفي عنه الرومانسية الهائمة، فهو هنا واقعيٌّ بكل ما تعنيه الواقعية من تعقُّل وتحقّق، ثم إنه يؤكّد أولوية الجوهر والمضمون، لئلا ننخدع بالشكل وننسى اللب، ويجعل التجربة المباشرة هي الوسيلة الحقيقية للتعلّم، فالمعرفة الحقيقية نتاج التجربة الذاتية الزاخرة بالحيويّة، إنها ثمرة التفاعل الجياش مع الواقع...

ويَذْكُر الشاعر السوري سليمان العيسى في كتابه (أوراق من حياتي): إنه في شبابه قرأ الشعر الانجليزي، وإنه تأثّر إلى حد بعيد بمدرسته الرومانسية: بيرون شيلي

كيتس ووردزوورث. وهنا يجب التذكير بخطأ الذين حصروا كيتس ضمن المدرسة الرومانسية. فرؤيته أوسع وأعمق. إنه صاحب رؤية إنسانيّة شاملة وموقف إنساني عام، بل إنه شديد الاحتفاء بالتجربة المباشرة والتأكيد أن التحقّق هو سبيل المعرفة...

أما الدكتور طه وادي فإنه في كتابه (شعر ناجي: الموقف والأداة)، يقارن بين الطبيب الأديب إبراهيم ناجي والطبيب الأديب جون كيتس، فكلٌّ منهما خلَّده الإبداع الشعري؛ أما دراسة الطب فقد استهلكت الوقت واستنزفت الجهد وأعاقت انطلاق الطاقة الإبداعيّة التلقائيّة...

إن القابليّات المفتوحة حين تكون مصحوبة بتأجُّج عاطفي ورؤية إنسانيّة عميقة فإنها تصنع العجائب. فالأديب كيتس الذي تتحدّث عنه الدنيا قد مات مبكرًا، حتى بات يأتي في طليعة النوابغ الذين ماتوا في عمر الزهور، كما جاء في كتاب (نوابغ الشباب) لأحمد قاسم جودة. فكلُّ هذا التحول من الطب إلى الأدب وكل هذا الإبداع قد تحقّق وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من العمر، وكأن هذا الخلود المستمر جاءه تعويضًا له عن الموت المبكر. وهو بهذا الرحيل السريع يشبه شعراء ومبدعين آخرين، من أمثال الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي، والمبدع الألماني جورج بوخنر، وهو أيضًا طبيب هَجَر الطب وأبدع في الكتابة المسرحية. ومثل بيرون وشيلي.. ولفايز فرح كتاب بعنوان (عباقرة رحلوا زهورًا)، ولأحمد سويلم كتاب يتكوَّن من جزأين عن (شعراء العمر القصير)، مثل أمل دنقل وفهد العسكر وبدر شاكر السياب وعبدالحميد الديب وغيرهم...

نحن إذًا أمام اثنين من الأفراد الاستثنائيين دَرَسا الطب، ولكنهما لم يمارسا مهنة الطب، بل هَجَرَها أحدُهما إلى الأدب، فاستفرغ طاقته الذهنية والوجدانية في مجال الإبداع الشعري، يَحْدوه الشوق إلى تحرير الإنسانيّة من أغلالها التاريخية ونقائصها التلقائيّة. وقد خصَصْناه بهذا الفصل وهو كيتس. أما الثاني فقد هَجَر الطب إلى الحرب (غيفارا). لقد كان يحلم بتحرير الإنسانيّة عن طريق إشعال الثورات واللجوء إلى حرب العصابات، فشغل العالم خلال فترة من القرن العشرين كان العالم كلّه يتحدّث عنه لمقاومته والتحذير منه، أو للتشيّع له ونشر أفكاره، والترويج له، فهيّأ إليه في الفصل التالي...

هَجَرَ مهنةَ الطبِّ فهزَّ العالمَ بالحربِ

نتنقل إلى نموذج مغاير تمامًا. فإذا كان طموح الطبيب الأديب جون كيتس أن يُسهم في إصلاح العالم بواسطة الأدب والشعر، ونشْر عواطف التآخي، وتأكيد المشترَكات الإنسانيّة؛ فإن طموح الطبيب غيفارا أن يُسهم في إصلاح العالم بالعنف وإشعال الثورات، واستخدام حرب العصابات وسيلة لزعزعة الاستقرار، وإضعاف الكيانات المستهدفة تمهيدًا لإسقاطها والاستيلاء على السلطة كما حصل في كوبا. إن كيتس قد هَجَرَ مهنة الطب واستغرق في التأمل في الحياة الإنسانيّة، وأرهقه الإحساس بمأساة الإنسان في كل مكان، ففاض ذلك إبداعًا ما زالت الدنيا تصغي إليه وتطرب له وتنتشي به. وكان في ذلك مثل شيلي الذي يقول: «إن بي شغفًا لإصلاح العالم». فإن الطبيب تشي غيفارا أيضًا لم يَقبل أن يسجن نفسه في عمل مهني رتيب، وإنما تَوَهَّم أنه يستطيع خدمة الإنسانيّة وتوحيدها، ليس عن طريق الطب ولا بواسطة الشعر، وإنما عن طريق تأجيج الثورات وإشعال السُّخط وإعلان النفير وقيادة حرب العصابات والتنظير لها...

لقد أحدث غيفارا تأثيرًا هائلًا في العالم، ليس بوصفه طبيبًا بل بوصفه مثقَّفًا محاربًا، وما زال الكُتَّاب من أميركا الجنوبية وغيرها واقعين تحت تأثير سحره. وعلى سبيل المثال يقول الكاتب الروائي إدوارد غاليانو: «سيظل تشي غيفارا الإنسان الصلب والعنيد، الذي سيولد من جديد دومًا، ويغالب الموت، ويستعصي عليه، وكلُّ هذا لأنه كان كائنًا استثنائيًّا. فقد فعَل دومًا ما قال إنه سيفعله، وصرَّح دومًا بما كان يعتقده، وليس هذا بالأمر الشائع في عالمنا. فمن النادر للغاية أن تتطابق أقوال البشر مع أفعالهم». إن هذا النصَّ ما هو إلا فيضان من طوفان الإعجاب العالمي بهذا الثائر العجيب، وهو

نموذجٌ مما كتبَه ويكتبه المعجبون به، وهم بالملايين في مختلف بلدان العالم...

إن غيفارا محاربٌ فريد، إنه محاربٌ مختلف عن كل المحاربين. فهو مثقف أوَّلًا، فقناعاته الفكريّة هي التي جعلته ذلك المحارب العالمي الصميم. فهو لا يقاتل داخل وطنه، بل يؤمن برؤية إنسانيّة طوباويّة أثبتت الحوادث أنها غير قابلة للتحقّق في واقع الحياة البشريّة، وأنها تجلب من الشر أضعاف ما تجلب من الخير. فالطبيعة البشريّة المعقدة لا تسمح بمثل هذه الطموحات الطوباوية...

كان غيفارا منَظَّمًا في كل جوانب حياته، وكان يقرأ بنَهَم وفق برنامج وضَعَه لنفسه، ويجري إبراز ذلك في المعرض الذي يتم تنظيمه تحت عنوان (غيفارا قارئٌ بلا حدود)، وهو معرضٌ متنقّل يقام في بلدان مختلفة، وترعاه حكومة الإرجنتين ومركز الدراسات الأميركيّة اللاتينية بالتعاون مع مؤسسات محلية في مختلف الأقطار...

ابتداءً، رغم أنني أؤمن بأن غيفارا إنسانيٌّ مفْرطٌ في إنسانيته، وأنه شديد الإخلاص للقضية الإنسانيّة التي آمن بها ودَفَع روحه راضيًا ثمنًا لها، إلا أنني أؤكد رفْضي التام لمنهج العنف الذي يتبناه غيفارا. إنني في هذا أتفق تمامًا مع أدونيس الذي كتَبَ تحت عنوان (غاندي لاغيفارا): «أُعجَب كثيرًا بشخص غيفارا، غير أنني لا أُعجَب بالطريقة التي اتبعها في العمل التحرري.. تَحَرُّريًّا أفَضِّل غاندي.. رؤيةً ومنهجًا وممارسةً.. أرفض العنف بأشكاله جميعًا مهما كانت أهدافه.. مهما كانت مسوّغاته، سواء أكان فرديًا أم جماعيًّا». نعم العالم ما زال بدائيًّا من الناحية الفكرية والأخلاقيّة، وعاجزًا عن إدارة العلاقات الإنسانيّة بالعقل والحكمة. فالحياة البشريّة عمومًا ما زالت تقوم على العنف والإخضاع. لقد طوَّرت البشريّة وسائل الحياة إلى أقصى حدود التطوير، بما في ذلك وسائل التدمير، لكن العلاقات بين الأفراد والفئات والمجتمعات والمذاهب والطوائف والدول ما زالت محكومة بأساليب بدائيّة. لذلك، فإنني هنا أجدني أتفق مع دوستويفسكي كل الاتفاق، فهو يرى أن الواقع في كل العالم سيئٌ ولا بد من تغييره، لكنه يدرك أن التغيير بواسطة العنف ينتهي إلى الأسوأ. يقول دوستويفسكي: «إن كل الثوار فاشلون ومتخبّطون وأدعياء، لكن العالم سيئ ويجب تغييره». إذًا يتفق غيفارا وغاندي ودوستويفسكي، وغيرهم من المفكّرين، على ضرورة التغيير لتحرير الإنسانيّة

من التعسف والظلم، ومما لا يُحصى من أنواع الشرور التي تتخلّل كل شبر وكل لحظة من الحياة البشريّة، لكنهم يختلفون في الوسيلة والأسلوب. ومهما بلغ حُسْن نيات غيفارا، فإنه قد عالج الشرَّ بالشرِّ. وكما قال دوهرينغ: «العنف هو الشرّ المطلق». لكن أحلام غيفارا كانت موغلة في الطوباوية وكأنه مسؤول عن إعادة صياغة العالم؛ وكان يقول: أحلامي لا تعرف حدودًا. لكن الأحلام التي لا تعرف الحدود قد أعمته عن تلقائيّة وكثرة وكثافة النقائص في الطبيعة البشريّة، وجعلته يتوقّع من المهمَّشين أن يكونوا إنسانيين وعادلين وأنقياء ومخلصين وأمناء ومُؤْثرين لا مستأثرين بمجرد أن يصلوا إلى الحكم. ولم يدرك أن الخلل موجودٌ في الطبيعة البشريّة. فالنقائص هي الأصل، أما تجاوز بعض هذه النقائص فلا يحصل إلا بجهد استثنائي موصول. فما أن يصل أيُّ فرد أو مجموعةُ أفراد إلى السلطة المطلقة حتى يصبحوا مثل سابقيهم استئثارًا واستبدادًا وظُلْمًا وعبثًا وتمَحْوُرًا حول أنفسهم، واستغراقًا في مصلحتهم. فالاستئثار هو استجابة تلقائيّة للطبيعة البشريّة، إنه يشبه تمدُّد الغاز في الفراغ. أما الالتزام فلا يتحقّق إلا برادع، وحتى لو حَصَل أن فردًا نادرًا صار عادلًا رغم أنه يملك سلطة مطلقة غير مقيَّدة، فإنه حالة استثنائية نادرة جدًّا لا يصح القياس عليها ولا اعتبارها قاعدة، أو معيارًا. فخلال التاريخ البشري كلّه كان الاستئثار والاستبداد والظلم والانحياز المطلق هو السائد.. لذلك فإن الحلَّ الوحيد الذي توصّلت إليه الإنسانيّة بعد معاناة طويلة هو فَصْلُ السلطات، وتحديد الصلاحيات، وتحقيق التوازن بين مؤسسات الحكم، وتوفُّر الشفافية وضمان حرّية التعبير، وحقّ أي مواطن بأن يحصل على أية معلومات. فلا يحقّ للسلطة أن تحجب عن المواطنين أي معلومات، لذلك جاءت مقولة جيفرسون: «أما في مسائل السلطة فدعونا لا نسمع بعد الآن عن الثقة بالإنسان، ولكن امنعوه عن الأذى بتقييده بسلاسل الدستور». إن هذه المقولة من أصدق وأحكم وأنضج المقولات عن السلطة، إن تجارب الأمم تؤكّدها أصدق تأكيد، كما أن حوادث التاريخ تقدم ألف ألف شاهد على أنها مقولة في الصميم، فيجب أن يعيها الحاكمون والمحكومون. فليس مع السلطة المطلقة سوى الفساد المطلق...

لم يكن غيفارا يؤمن بهويّة الانتماء إلى جماعة، أو مذهب، أو وطن، وإنما كان يؤمن بالهويّة الإنسانيّة. فالأرض وطنُ الجميع. وكأنَّ أمين معلوف حين أعلن أن الهويّات

قاتلة كان يستجيب لنداء غيفارا، ولكن بمنهج غاندي لا بمنهج غيفارا. كان غيفارا يؤمن بضرورة إزالة التفاوت بين الناس، ويصرّ على أنه لا بد من القضاء على الاستئثار، وكان يؤرِّقه الظلم، وكان يؤمن بالإخاء الإنساني. فهذا الإخاء هو الرابط الوحيد الذي يهمّه، فهو لا ينتمي للوطن الذي ولد فيه (الارجنتين)، ولا للوطن الذي أسهم في تحريره من الاستبداد (كوبا)، ولكنّه يؤمن بأن كل البلدان هي وطنه، بل يؤمن بأن ساحات التحرير من الظلم والاستئثار والاستبداد والقهر هي وطنه. إنه يحمل همَّ المضطهَدين في كل مكان، ومع ذلك كان يؤمن بأن الطريق طويل، وأن النتائج ضئيلة قياسًا بالتضحيات. فالواقع السائد مدجَّج بكل وسائل الحماية، وليس هذا فحسب، بل ما يكاد يسقط طاغيةٌ مستأثرٌ حتى يخلفه انتهازيون لا يقلّون عنه استئثارًا من الثوار أنفسهم...

التقى غيفارا بالمفكّر التربوي العظيم باولو فريري، وتناقشا حول ما يجب عمله لمواجهة الفساد والفقر والاستبداد والظلم. وكان فريري يؤمن بالأسلوب الحواري في التربية وفي التغيير، لكن غيفارا قال له بحسم: «لا تثق حتى بظلّك.. لا تثق مطلقًا في الفلاحين.. لا تثق في أي شخص إلا بعد أن يتم تحرير المنطقة بأسرها». إنه منطقٌ أثبتت الحوادث أنه يُعَمِّق الانقسام بدلًا من أن يحقّق الوئام. فالعنف يولّد العنف، طبْقًا لقانون الفعل ورد الفعل. وليس الذي يحصل في أفغانستان والصومال وليبيا والسودان والعراق سوى نماذج لمنطق الحسم بالعنف...

كان غيفارا مستعدًّا للتضحية بروحه، ليس من أجل نتائج متحقّقة يعيشها بنفسه وإنما ليضيء طريق الكفاح. فهو يؤمن بضرورة التضحية واحتراق البعض من أجل إصلاح الحياة الإنسانيّة البائسة؛ وكان يقول: «الطريق مظلمٌ وحالكٌ؛ فإذا لم تَحترق أنت وأنا فمن سينير الطريق؟!». ويضيف: «ولا يهمني أين ومتى، سأموت بقدر ما يهمني أن يبقى الوطن». والوطن الذي يعنيه هو كل العالم، وليس قُطْرًا بعينه. هكذا تفعل الأحلام الطوباوية. أما من يعرف الطبيعة البشريّة فيدرك أن إصلاح الأوضاع لا يأتي باستبدال أشخاص بآخرين، وإنما يتحقّق ذلك باستبدال نظام يسمح بالشرور بنظام يضبط السلطة ولا يتيح فرصة للتسلط والعبث. وكما قال توماس جيفرسون: فإن أوضاع الأمم والشعوب لا يمكن أن تستقيم اعتمادًا على أوهام الصلاح الفردي، وإنما مع كل ما يجب أن يكون عليه السياسي من صلاح واستقامة وكفايات تتلاءم مع هذه المسؤولية العالية

الحاسمة، فإنه يجب تقييد سلطته بما لا يسمح له بالتجاوز، فهذا التجاوز حتميٌّ بقدر إطلاق السلطة. لكن تقييد السلطة لن يتحقّق بإزالة المستبدين. فحين تنهار سلطة قائمة تَعُمّ الفوضى وتظهر الانقسامات ويشتد التحزب ويتقاتل المغامرون للهيمنة،فتصاب البلاد بتدمير لم يتوقّعه أحد.. هكذا كانت الفجيعة بما كان يسمَّى الربيع العربي...

لم يكن غيفارا يهتم بقرابة النسب، فكلّ المقهورين أخوته. فقد كتبتْ إليه امرأة تحمل اسم عائلة مشابهة، عمَّ إذا كان هو من الأسرة نفسها. فردّ عليها بقوله: «إذا كنت قادرة على الرجفة عند الغضب كلما ارتُكبتْ مَظْلَمَةٌ في العالم نكون إذًا رفيقين، وهذا هو المهم». كما كتب: «أحسُّ على وجهي بألم مع كل صفعة توجَّه إلى مظلوم، فأينما وُجد الظلم ذاك هو وطني». إن حلم غيفارا وبطولاته الخارقة وإيمانه الخالص بالإنسانيّة، وأوهامه عن إمكانية توحيدها على السِّلم والعلم والمساواة.. هذه الخصال قد استهوت الكثيرين، ودفعت بعض المثقفين إلى الانضمام إليه، ويأتي في طليعتهم المثقف الفرنسي الشهير ريجيس دوبريه؛ وكما يقول الدكتور محمد برادة: «.. دوبريه.. ارتبط بتشي غيفارا واعتُقل وأمضى سنوات في السجن». وما زالت اسطورة غيفارا تجد من يحتفل بها كل عام ويقيم لها الندوات واللقاءات، بل عملوا له متحفًا متنقلًا لعرض آثاره.. إن كل ذلك حَصَل ويتكرّر حصوله عن غيفارا الثائر، وعن غيفارا المنظِّر لحب العصابات، وعن غيفارا القائد، وعن غيفارا المقاتل وليس عن غيفارا الطبيب. لا يتوقّف الحديث عن غيفارا، ففي مقالة حديثة للدكتور محمد البدري يصفه بظاهرة مثيرة، متجدّدة الإثارة لا يطويها الزمن؛ ثم يتساءل: «السؤال الذي يُلح عليَّ هو.. لماذا يضع شبابٌ في أوروبا والشرق الأوسط صورته على قمصانهم؟». ويروي البدري عن أحد الذين عايشوه بأنه «كان رمزًا لما يؤمن به، وأنه كان حَسَن الخُلُق وشديد البأس». كان عنيفًا ضد الذين يعتبرهم أعداء الإنسانيّة، لكنه كان شديد البساطة مع البسطاء والعاملين معه من الجنود والعمال والموظفين...

ورغم اندفاعه الشديد واستعداده لتقديم روحه من أجل ما يظنه الطريق إلى تحرير الإنسانيّة، فقد كان يفيق بين فترة وأخرى ليدرك ضآلة النتائج. فقد كتب لابنته: «سأبقى بعيدًا عنك زمنًا طويلًا، باذلًا كل ما باستطاعتي للكفاح.. وليس ذلك أمرًا عظيمًا، لكنني أفعل شيئًا ما». هكذا كان يدرك أن ما يفعله لن يحقّق ما كان يحلم به، لكنه لن يتراجع مهما كانت العوائق، ومهما كانت النتائج ضئيلة...

والغريب أنه يطلب من بنته أن تُعدَّ نفسها للسير في طريق الكفاح: «عليك أن تقومي بدورك في الكفاح.. عليك الاستعداد دومًا للدفاع عن القضايا العادلة». وهو يُمَنِّي بنته بأن تعيش في دنيا يعمها التآخي الإنساني مؤكدًا عن نفسه: «عشتُ في مجتمع كان فيه الإنسان عدو الإنسان». كان يتوهّم بأن هذه العداوات سوف تزول ويعُمَّ التآلف، وغابت عنه تعقيدات الطبيعة البشريّة، كما خفِيَتْ عليه أصالة وأولوية وتلقائيّة النقائص البشريّة. فتوقَّع زوال أسباب الصراع، ونسي عمق الطبيعة الأنانية وأولوية الاستئثار وحتميّة الصراع على المصلحة، وجاهزيّة التنافس على مواقع النفوذ ولم يدرك أن الظلم سيبقى موجوداً، لأن الظلم طبيعة بشرية أوَّلية. فكما قال هوبز: «الإنسان ذئب الإنسان». لقد توهَّم غيفارا أن الإنسانيّة سوف تنتهي إلى التآخي والمساواة، وإلى تجفيف منابع الظلم وإنهاء أسباب الصراع والتنافس. كان يحلم بما يستحيل تحقيقه...

إن الإيمان الأعمى بقضية، والاندفاع الأرعن لتحقيق حلم محال، يدفع الناس إلى ارتكاب حماقات غريبة. ففي العام 1956 حاولتْ مجموعةٌ من ثمانين شخصًا فقط في مقدمتهم غيفارا يقودهم كاسترو التسلّل إلى كوبا للإطاحة بسلطة دولة قائمة، تملك جيشًا وقواتٍ مسلَّحة، وأجهزة أمنيّة قويّة. لكن قوات باتيستا اكتشفت المغامرة العجيبة وهاجمت المركب البحري، فقتلت ستين من الثمانين ونجا عشرون منهم فقط، وكان غيفارا وكاسترو من الناجين، وفرَّ الناجون ثم انفصل عنهم ثمانية ولم يبق لمواصلة الكفاح سوى اثني عشر فردًا احْتَمَوا في الجبال استعدادًا لحشد المؤيدين، والقيام بحرب عصابات تستنزف إمكانات السلطة الكوبية. إن الإيمان المطلق بقضيّة قد يحقّق المعجزات. ففي أول محاولة كادت السلطة أن تقضي عليهم جميعًا. ورغم أن الناجين كانوا اثني عشر فردًا فقط فقد كانوا مصمّمين على إسقاط السلطة المستبدة. ولم يطُل انتظارهم، فبعد عامين فقط تحقّق لهم ذلك، ولكن هذه من الحوادث النادرة التي ليس لها مثيل في التاريخ. فهي تجربة فريدة لا يمكن القياس عليها، غير أنها ذات دلالة عميقة عن فاعليّة الإيمان المغلق...

في العام 1958 كان غيفارا يقود الفرقة الثانية المكوّنة من (364) فردًا فقط هاجموا قطارًا عسكريًا، فاستولوا عليه وغنموا أسحلته، وأسروا (408) ضبَّاط. وما إنْ علم الدكتاتور باتيستا حتى فرَّ هاربًا إلى خارج البلاد ونجحت الثورة. كان انتصارًا مفاجئًا

ومذهلًا للجميع، وقد دفعَت بالتطرّف الثوري إلى أقصاه؛ وقد صوَّر شيئًا من ذلك المبدع ماريو بارغاس يوسا الحائز جائزة نوبل في الأدب، فيقول في كتابه (الكاتب وواقعه): «في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كنت منتميًا إلى قضايا متطرّفة مثل العديد من الأميركيين اللاتينيين، وكانت حماستي لانتصار الثورة الكوبية قوية للغاية. كان ذلك شيئًا مهمًّا للغاية في أميركا اللاتينية. انتصار الثورة الكوبية عَنَى شيئًا عظيمًا لأناس مثلي؛ لأنه للمرة الأولى فكَّرْنا في أن الثورة هي شيءٌ ممكن في بلادنا. فحتى ذلك الوقت كانت فكرة الثورة رومانسية وبعيدة عنا، كانت شيئًا أخذناه أكثر كفكرةٍ أكاديمية لا يمكن أن تصبح أمرًا واقعًا أبدًا في بلادٍ كبلادنا. إلا أن ما حدث في كوبا غيَّر هذا الموقف، فقد بيَّن أن الثورة ممكنة». ويواصل يوسا: «وبينما كانت كوبا تمنحنا هذا المثال كانت تمنحنا أيضًا الطريقة التي يمكن بها تحويل هذا المثال إلى واقع. ومثل العديد من الأميركيين اللاتينيين، تأثّرت بعمق واستُثرت بما كان يحدث في كوبا».

ومثلما كان غيفارا الرجل الثاني في المجموعة المهاجمة، فإنه بعد انتصار الثورة بقي الرجل الثاني في السلطة، لا يتقدّمه سوى كاسترو. فشَغَلَ عددًا من المناصب المهمّة في الحكومة الكوبية، لكن فَجَعَه الرفاق بتهافتهم على المكاسب الشخصية، فاستقال وعاد إلى ساحات القتال. إذ كان يؤمن بضرورة التغيير رغم فجيعته بتهافت رفاقه، فهو يوضح: «إنني كثير الإيمان بتغيير المجتمع، غير أن الأشخاص القادرين الذين ركَّزناهم في كوبا سرعان ما نسوا حماستهم الثورية وغرقوا في امتيازاتهم.. لقد فهمتُ أن كل ما فعلناه قاد إلى الانتهازية». كانت تصرفات الرفاق دائمًا تفاجئه بما لم يكن يتوقّعه، فهو صادقٌ ومخلص للقضية التي آمن بها إلى أقصى حدود الإخلاص، ولكنّ الآخرين ليسوا كذلك، ولهذا كان كثير الشكوى. وفي إحدى فورات المرارة من النتائج الفاجعة، قال: «الثورة يُفَجِّرها حالمٌ، ويقودها مجنونٌ، ويقطف ثمارها انتهازيٌّ». إن وصْفه للثائر ينطبق عليه تمام الانطباق، فهو يهيم بحلمٍ إنسانيٍّ يستحيل تحقيقه، وقد غرق عقله في هذا الحلم حتى لم يَعُدْ يرى شيئًا سواه، وهذا نوعٌ من الهوس الجنوني. ولكن لأنه ليس انتهازيًّا فقد عزف عن السلطة، فهو حالمٌ غارقٌ بحلمه، وهذا هو الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق في أعلى ذُراه وأنصع تجلّياته...

إن غيفارا مثل كلّ الرواد الحالمين بتغيير الأوضاع البشريّة، يختلف تفكيرهم

وقيمهم واهتماماتهم عن قيم الناس العاديين. وكما يقول ولتر ليبمان في كتابه (مدخل إلى علم الأخلاق): «إن الناس حينما فكّروا بتمعُّنٍ تامٍّ في مشكلة الشر، وفي مقومات الحياة الحرّة، توصّلوا دائمًا إلى أن العامل الأساسي لأي فلسفة إنسانيّة إنما هو التضحية». ويستطرد: «إن جميع سيَر الأبطال والحكماء والمكتشفين والمخترعين والرواد والطلائع والوطنيين تنطوي على ما يشبه هذه الناحية الأساسية نفسها، ألا وهي التضحية والزهد في الدنيا. إنهم فقراء تحفُّ بهم المخاطر، وهم بالمقارنة مع غيرهم لا يتذوقون طعمًا للراحة أبدًا. إنهم يضَحُّون بالدعة والراحة والأموال والمسرّات والكبرياء والمناصب. إنهم يعيشون من أجل أهداف وغايات (غير شخصية)، وهم على استعداد للموت لو دعت الحاجة إلى ذلك من أجل تحقيق هدف لا ينعم به المضَحُّون بحياتهم. (هؤلاء) ننظر إليهم نظرة ملؤها التقدير والإعجاب». إن غيفارا ضَحَّى بحياته من أجل هدف إنساني عظيم، لكنه أخطأ في الوسيلة خطأ فادحًا، فالشرُّ لا يقاوَم بالشرِّ وبالعنف والقتل وإشعال الحرائق ونشر الخوف...

إن غيفارا ينطبق عليه ما سَمّاه إيريك هوفر (المؤمن الصادق)، إنه الغارق في حلم عظيم وبعيدٍ، وهو يُسَخِّر كل تفكيره وكلّ طاقته وكل وقتهّ وكل حياته لهذا الحلم، ويكون مستعدًّا لتقديم روحه فداءً لما يحلم به.. إن المؤمن الصادق قد يكون شيوعيًّا لا دينيًّا، أو يكون قوميًّا نازيًّا، أو قوميًّا صربيًّا، أو يهوديًّا، أو مسيحيًّا كاثوليكيًّا، أو بروتستانتيًّا، أو أرثوذكسيًّا، أو قد يكون هندوسيًّا، أو سيخيًّا، أو مسلمًا شيعيًّا، أو مسلمًا سنيًّا، أو قد يكون وطنيًّا مهووسًا بالوطنية. فالمؤمن، أيًا كان انتماؤه، له طبيعةٌ ذهنيةٌ مغلَقة، وطبيعةٌ عاطفية متأججة إمعانًا في الحب والإيثار، أو إيغالاً في الحقد والانتقام. إن المؤمن الصادق موجودٌ في كلّ المذاهب وكلّ الطوائف وكلّ الأديان وكلّ الاتجاهات، إنه نتاجُ نوع من التفكير الأُحادي المغلق الموغل في الوثوق واليقين والقطْعية، إنه لا يعرف الشكَّ بأفكاره ولا يضع أي احتمال بإمكانية خطأه، ولا يتوقع أن يكون لدى المغايرين له أي ذرة من الصواب. فهو يتوهّم أنه يملك الحقيقة المطلقة، وأن المخالفين له أعداءٌ للحقيقة ويتعمدون الإيغال في الضلال، وبسبب ذلك فهم في نظره أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإنسانيّة، إنهم في نظره أنجاس وحقيرون ويجب تطهير الأرض منهم!!! وهذا منتهى الغرور ومجافاة الروح الإنسانيّة...

إن أمثال غيفارا بنزعته الإنسانيّة الحالمة نادرون جدًّا، فهو لا يحلم بانتصار مذهب، أو حزب، أو شعب، وإنما هو يحلم بخير الإنسانيّة جمعاء. لذلك فإن ذهنه مفتوحٌ على الحقيقة، فقد كان يعلن: «يجب احترام الحقيقة». وكان يتوقّع من الناس أن يكونوا كذلك، ولكنه يكتشف دائمًا خلاف ما كان يتوقّعه. غير أن ذلك لم يمنعه من مواصلة الكفاح بمنتهى التضحية والإقدام، حتى حاصروه وأمسكوا به أثناء أحد الاشتباكات في بوليفيا، وكان نموذجًا في البطولة إلى آخر لحظة، فقد اعترف أعداؤه بأنه كان ثابتًا ثباتًا أسطوريًا، إلى درجة أنه حين لاحظ ارتباك المكلّف بقتله شجّعه قائلاً: «ما بك؟! أطلق النار». وهذا يتفق مع تعريفه للبطولة، فهو قد قال من قبل: «اللّحظة الحاسمة في حياة الإنسان هي اللّحظة التي يلزمه فيها مواجهة الموت.. إذا قرّر مواجهته فسيكون بطلًا، سواء نجح في مشروع حياته أم لم ينجح. أما إذا لم يقرر تلك المواجهة فلن يكون أكثر من سياسي». فقد كان مستعدًّا دومًا لمواجهة الموت بثبات أسطوري مطلق من أجل الحلم الطوباوي الذي آمن به...

لم يكن غيفارا مجرّد بطل جسور ومقتحم وفدائي ولا يهاب المجهول، وإنما وهو الطبيب تخصُّصًا كان مُنَظِّرًا عسكريًا استراتيجيًّا وتكتيكيًّا. فحين صدر كتابه (حرب العصابات) طلب الرئيس الأميركي جون كندي سرعة ترجمته إلى اللغة الإنجليزية. وقد صار الكتاب نصًّا يجري تدريسه في الكلّيّات العسكرية في كل العالم، كما صار مرشدًا للثوار في فيتنام وغيرها أثناء حروب التحرير. لقد تَكَوَّنت رؤيته العسكرية في حرب العصابات من تجاربه الشخصيّة الحيّة. فالتجربة التي تجيش بالاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق في أي مجال هي مَنْفَذ الفهم، وهي طريق النضج، وهي السبيل إلى الحكمة...

ومما له دلالة كبيرة على طريقة تفكير غيفارا أنه في كتابه (حرب العصابات) يطلب من القادة أن يكتفوا بتحديد المهمات والأهداف، وأن يتجنّبوا التعليمات التفصيلية المحدَّدة. فهو يرى أن يُترك للأفراد حريّة التصرّف بحسب ما يقتضيه كل موقف، وهذا يتفق مع هجره للتخصّص المهني، واندفاعه في مجال بعيد كل البعد عنه، بل إنه مضادٌّ له. إن غيفارا فرديُّ النزعة إنسانيُّ الاتجاه، فهو يكره الوصاية والتلقين والقَسْر والتقييد، ويتطلع إلى أن يتمكن كل فرد من ممارسة فرديته ومواجهة الظروف بحريّة

تضمن الفاعليّ.ة وهذا يعني أنه بطريقة غير مباشرة قد أدرك أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، وأن إرباك تلقائيّته يعطّل طاقاته...

لقد كان غيفارا يدرك أن الناس لا يكونون مستعدين للثورة والمواجهة مع السلطة إلا إذا استنفدوا كل الطرق السلمية الممكنة. فالاستعداد للخطر لا يأتي إلا بعد اليأس من إمكانية الإصلاح بالطرق السلمية، وكانت استراتيجيته في المقاومة مبنيّة على هذه الرؤية...

لكن غيفارا مثل غيره من الثوار الحالمين، أو الواهمين الذي يعتقدون بأن الكبار الفاسدين هم حالات فرديّة، وأن الأوضاع سوف تنقلب فجأة من الفساد إلى الصلاح، ومن الاستئثار إلى الإيثار، ومن الظلم إلى العدل، ومن التخلّف إلى الازدهار بمجرد إسقاط من هم في الحكم واستبدالهم بآخرين. ويغفل هؤلاء الثوار الحالمون عن أن الظلم والاستئثار والأنانية والانحياز والكبرياء والهوس بالسّلطة وكل السوءات هي طبائع بشرية أوَّليَّة تلقائيّة، وأن التغيير نحو الأفضل لا يتحقّق باستبدال أشخاص بأشخاص، وإنما يتحقّق باستبدال نظام يسمح بكل السوءات بنظام يضبط العمل السياسي، ويَفْصل بين السلطات، ويحدّد الصلاحيات، كما يحدد فَتَرات شاغلي المناصب، ويرسم الاتجاهات، ويُلزم بتحقيق البرامج والالتزامات، ويجعل حريّة التفكير والتعبير والإطّلاع والنقد حقًّا متاحًا للجميع. فالسلطة لا تكون بيد فرد قادر على الاستبداد والتسلط والعبث وإرهاب ذوي البصائر وكاشفي السوءات، وإنما هي بيد الشعب، وهو يختار أفرادًا لكل سلطة، ويفوّضهم تفويضًا محدَّد الاتجاه والصلاحيات والمدة، ويضعهم تحت رقابته الدقيقة ومحاسبته الصارمة، ولكنّ تجارب الثورات على امتداد التاريخ تؤكّد أن سقوط أي نظام ينتهي بفوضى مدمرة...

كنت أتألم وأنا أتابع انشغال الناس في مصر بالثأر من الرئيس المصري السابق حسني مبارك وأبنائه وغيرهم من رجال الحكم الفاسد بعد سقوط النظام، ليس حُبًّا لهم ولكنّي شعرت بأن الثائرين لا يختلفون عن السابقين، وقد كنت أتمنّى أن يدرك هؤلاء المندفعون للانتقام والثأر والإذلال أن الخلل في النظام، وليس محصورًا بأهل السلطة، بل إنه عام في كل الناس من دون استثناء. وكما قال آكتون: «السلطة مفسدة..

والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة». فالسلطة تؤدّي تلقائيًا إلى الفساد، أما السلطة المطلقة فهي تؤدّي حتمًا إلى فساد مطلق. وكما كتب العبقري الفرنسي مونتسكيو: «إن كل إنسان يمتلك سلطة تكون لديه نزعة إساءة استعمالها». فإذا ساد الفساد فإن الشعب الخانع هو الملوم الأول، ولا يحق له بعد ذلك تبرئة نفسه والإمعان في الانتقام وإذلال من كانوا في الحكم، لأنهم لو كانوا مكانهم لفسدوا مثلهم، فهذه طبيعة بشريّة تلقائيّة يجب أن نتعامل معها بواقعيّة. فليس من العدل أن يخنع الشعب ويُصَفِّق للفاسدين المفسدين، فإذا سقطوا راح يمعن في إيذائهم وإذلالهم، بل عليه أن يلوم نفسه، وألا يبدّد الاهتمام والطاقة في الانشغال في الثأر من الحكام السابقين، فالزمن الضائع لا يمكن استرجاعه، فهو إهدارٌ لمزيد من الزمن، وتضييع للفُرص؛ بل إن إهدار الطاقات في الثأر من السابقين هو استمرارٌ لنهجهم. إن انكسارات الأوطان لن تُجبَر بالانتقام من أشخاص مهما كان دورهم، فالانشغال بهم هو تأكيدٌ لأهميتهم كأفراد، وتجاهلٌ لحقائق الطبيعة البشريّة، وجهْلٌ بأنها كتلة من النقائص التلقائيّة، وتبرئةٌ ضمنيّة للذات. إن الشخص الفاسد الزائل مهما كان فساده لا يستحق أن تنشغل به أمةٌ بأكملها، أو شعبٌ بأجمعه. فهو أهون من ذلك، وحتى لو أمعنتْ الأمة في إذلال وسحق الحاكم المخلوع فلن يعود الزمن، أو يتحقّق استدراك ما فات. فالانشغال بالأشخاص يؤكّد أن الثوار ساذجون وغير مؤهّلين لقيادة مرحلة جديدة واعدة. فيجب حصر الجهد والطاقة والاهتمام بإصلاح النظام وتدارك الزمن وسد الثغرات التي تؤدّي إلى الفساد وحشد الطاقات للتنمية والبناء والعدل وتحقيق الازدهار...

إن من أهم أسباب فشل الثورات في كلّ العالم هو أن الثوار في الغالب غارقون بسذاجة مريعة، فيكون همُّهم الأول هو الإطاحة بالمسؤولين السابقين وإذلالهم والانتقام منهم. وكم كان نيلسون مانديلا زعيمًا حكيمًا لا يتكرّر مثله في العالم إلا في حالات نادرة. لقد أدرك أن الانشغال بإجراءات وأعمال ومحاكمات الانتقام هو عملٌ همجيٌّ غير متحضِّر. إنه يستهلك التفكير ويستنزف الطاقة، ويعطِّل عمليات التدارك والبناء، كما أنه يُعَبِّر عن جهل شديد بالطبيعة البشريّة، ويتغافل عن حقائق الواقع ومعطيات التاريخ...

لقد أدرك نيلسون مانديلا ما لم يدركه الكثيرون. لقد أدرك أن العنصرية رغم فظاعتها

ليست طارئة في الحياة البشريّة، وإنما هي السلوك البشريّ التلقائيّ خلال كل القرون. فلم يكن استئثار البيض سلوكًا شاذًا وإنما هو امتدادٌ لسلوك الأقوياء في كل الأزمنة. لقد أدرك عظمة الإفاقة التي طرأت على بعض السياسيين الذين كانوا يملكون السلطة والقوة ووسائل القهر، فآثروا الحق واستعدوا للتفاهم وأشرعوا الأبواب للمصالحة والمشاركة والتحوّل الديمقراطي...

لم ينتش نيلسون مانديلا بهذا النصر التاريخي العظيم، ولكنه أدرك أنه لولا الإفاقة الأخلاقيّة من الطرف الذي يملك القوة والسلطة لما كان الحل السلمي ممكنًا.. هكذا هم الحكماء يهتمون بالإيجابيات ويتغاضون عن السلبيات.. يحاولون نسيان الماضي البغيض ويركّزون التفكير والاهتمام والجهد في بناء الحاضر، والتخطيط للمستقبل، وتهيئة الأوطان لحياة جديدة تستبدل التنافر بالتفاهم، وتُؤْثر السلام على الخصام.. فالانتقام تعبيرٌ عن الطبيعة العنيفة البدائيّة، أما التسامح والتعايش والمصالحة والاستعداد للمشاركة فهي ارتقاءٌ أخلاقي عظيم...

إن الجهل بالطّبيعة البشريّة، والغفلة عن أن الاستئثار والاستبداد سلوكٌ تلقائيّ لأي فرد يملك سلطة مطلقة، قد أدى إلى تعقيدات فظيعة. فلو أن من هم في السلطة يدركون أنهم سوف يعامَلون برفق لو تخلَّوا عن السلطة حين تواجههم ثورة، أو انتفاضة شعبية، لما اندفعوا إلى آخر رمق في الدفاع عن أنفسهم، والتمسك بالسلطة، والإمعان في القتل والتدمير، حيث يكونون مدفوعين تلقائيًا للمواجهة. فالاستسلام يعني الانتقام منهم والإذلال، وهذا هو الخطأ الفادح المميت الذي تقع فيه كل الثورات تقريبًا...

لقد لوحظ من تجارب ما سُمِّي الربيع العربي (أو التدمير العربي)، أن الثوار والمحتجّين يمعنون في تهديد من هم في السلطة ومن يحمونهم، وهذا خطأ استراتيجي يديم الصراع ويؤدّي إلى القتل المستمر والتدمير الشامل...

لو أن المحتجّين يعلنون منذ البدء بأنهم سوف يتعاملون برفق وواقعية، وبأن تنازل أهل السلطة وحقن الدماء وسلامة منشآت الوطن تُكَفِّر عن سيئاتهم، فالتنازل يَجُبُّ ما قبله.. لو حَصَلَ ذلك لربما كانت الثورات نجحت من دون إراقة دماء ومن غير تعريض الأوطان لهذا الدمار الفظيع...

إن أهم الأولويات التي يجب أن يعرفها الناس عن أنفسهم كنتاج تلقائيّ للطبيعة البشريّة أن السلبيّات والنقائص ذات أولوية تلقائيّة مطلقة في الطبيعة البشريّة. فهي سلوك تلقائيّ لعموم الناس، فالجميع حُكْمًا ظالمون وأنانيون ومتمحورون حول أنفسهم، إن هذا هو الغالب على أكثر الناس، وعليهم أن يعرفوا أنهم عدوانيون ويشغلهم الصراع والتنافس على كل شيء، وأن أهم أسباب التنافس هو الصراع من أجل الاعتراف والأهميّة والمكانة. فلا بد من تبديد أوهام الصلاح الفردي التلقائيّ، وإدراك أن الانعتاق من هذا الخلل التلقائيّ الأساسي لا يكون إلا بنظام تتحقّق فيه ضمانات دقيقة كافية وصارمة وشفّافة وسارية. فلو أن رجال الثورة في مصر كانوا مكان حسني مبارك ورجاله بالنظام نفسه وبالصلاحيات المطلقة ذاتها، لكانوا مثلهم فسادًا واستبدادًا وعبثًا. فالصلاح لا يأتي من أفراد بل من نظام يُلزم بالصلاح ولا يسمح بالفساد. إن الصلاح السياسي لا يأتي أبدًا تفضُّلًا ومبادرة وسخاءً والتزامًا تلقائيًّا، وإنما يأتي إلزامًا وضبطًا ورقابةً وتحديدًا. إن الصلاح السياسي ليس صدقةً يجود بها غنيٌّ أو قادر، إنه مطلبٌ لا يصح تركه للصدفة والاحتمالات والنزوات. فبه تتحدّد أوضاعُ مجتمعاتٍ، ومستوياتُ شعوبٍ، ومصيرُ أممٍ. فالسياسي هو المسؤول عن قيادة مركبة المجتمع، فإما أن يرتقي بها إلى ذرى الازدهار، أو يهوي بها إلى هاوية الاندحار. فأوضاع المجتمعات مرهونة باتجاه سير المركبة. أما النشاطات الخاصّة فهي تدعم الاتجاه، سواء أكان اتجاهًا نحو التقدّم، أم كانت المركبة متّجهة نحو المزيد من التقهقر...

ولئلا ننسى موضوعنا الأساسي، فإنني أكرّر التذكير بأنني أكتب عن غيفارا بوصفه شاهدًا من شواهد عبقرية الاهتمام التلقائيّ. لقد دَرَسَ الطب مثل جون كيتس الذي تحدّثت عنه قبل هذا، فكلاهما دَرَسَ الطب، وكلاهما تخلّى عن مهنة الطب، لكنهما كانا نقيضين في تصورهما للحياة، وفي إحساسهما بالوجود، وفي رؤيتهما للتغيير. وبهذين النموذجين نكتشف أنه من أكثر الأوهام شيوعًا، وأشدها ضررًا الربط بين التعلُّم الاضطراري وتحقيق التغيير، لأن الأول مناهضٌ للثاني، فهو تأطيرٌ وتقييدٌ وحصْر، إنه يخلق عادات ذهنيّة تذيب النزعة الفرديّة، وتقضي على قابليّات استقلال التفكير. إن قادة الفكر والفعل والإبداع ورواد التقدّم وحُداة الازدهار لا يمكن التخطيط لإنتاجهم، وإنما هم نباتٌ استثنائي نادر يتعذّر استنباتهم قصدًا، لكنهم رغم ندرتهم فإنهم ينبتون

تلقائيًّا في أي أرض مهما كانت قاحلة، ويَنْمون في أي بيئة مهما بلغت من الجفاف والقحط، ويؤكّدون فاعليّتهم حتى لو لم يُستَجَبْ لهم إلا بعد قرون، فتبقى ريادتهم حيَّة حتى يأتي جيلٌ يدرك قيمة هذه الريادة.. إنهم خارج النسق، فهم نتاج أنفسهم، لذلك فإنهم ينظرون إلى النسق السائد بفكر فاحص وعقل ناقد ورؤية مغايرة. إن وجود مسافة ذهنيّة كافية بينهم وبين السائد تُمَكِّنهم من الرؤية الفاحصة المحلِّلة، فهم غير مؤطَّرين ذهنيًّا وعاطفيًّا ما يجعلهم يدركون الإعاقات الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي تكبّل مجتمعاتهم وتستبقيها مستسلمة للواقع مهما بلغ من السوء. وبهذا الاختلاف النوعي بين الرؤية الرياديّة الخارقة والرؤية المنغلقة السائدة، يتحقّق انبثاقُ الطفرات الحضارية. فالرائد الخارق ليس محكومًا بالمعايير والاهتمامات والتصوّرات والمفاهيم السائدة، فهو في الغالب ضدّها، وتحركه رؤية مضيئة مغايرة واهتمامات رياديّة مختلفة...

إن الأعمال الرياديّة تمثّل طفرات نوعية خارقة، لذلك فإنه ليس غريبًا أن يظهر العديد من أبرز قادة العصر من بين الأطباء، أو من أي مجال آخر. فالروّاد غير محكومين بأي تخصُّص، ولا محدودين بأي إطار، فهم أوعى وأقدر وأشدّ تحررًا وانطلاقًا من أن يخضعوا للتأطير، أو التنميط، أو التحديد، أو ما لا حصر له من القيود والحدود والأوهام التي تصاحب التخصُّص في المجتمعات المتخلفة،التي اعتادت على أولويّة التقييد وتقزيم المفاهيم...

إن الطبيب الصيني صن يات صن قاد ثورة الصين، وحرَّر من أغلال التاريخ أكبر تَجَمُّع سكاني على وجه الأرض، وخلَّصهم من ركام العصور، وفَتَحَ للصينيين أبواب الأمل، وهيَّأهم للانطلاق في مجالات التحديث، فأدخلهم في حضارة العصر. إن خروج الصين من عزلتها الطويلة الخانقة كانت بتأثير وقيادة صن يات صن، ثم ظَهَرَ ماوتستي تونغ بعد أن تهيأتْ له الأمّة...

كما أن الطبيب الفرنسي جورج كليمنصو قاد فرنسا إلى النصر في الحرب العالمية الأولى، وقبل ذلك وبعده كان صحافيًّا لامعًا، ومخاصمًا عنيدًا، وناقدًا حادًّا، ومثيرًا للجدل الموقظ، فقد كان أحد قادة التصحيح وحُداة التقدّم...

وإذا كان الطبيب صن يات صن قد فَتَح عقول الصينيين على أضواء العصر ودفعهم

إلى أن يَهُبُّوا لنداء الحريّة؛ وكذلك قاد الطبيب كليمنصو فرنسا إلى النصر، وأعاد الحرية والأمن للفرنسيين فإن الطبيب مهاتير محمد قد انتشل ماليزيا من قاع التخلف إلى ذروة الازدهار. وليس هؤلاء القادة الباهرون سوى نماذج من الأطباء الرواد، والقادة الذين كانوا نتاج ذواتهم. لقد انفَكُّوا من أسْر التخصُّص وتحرروا من ضيق التأطير فانطلقوا في آفاق الإنجاز والإبداع...

وفي المقابل، فإنه إذا كان يَظْهَرُ قادةٌ عظماءُ من بين الأطباء، فقد ظَهَرَ منهم أيضًا في الاتجاه المعاكس، من أمثال زعيم صرب البوسنة الطبيب رادوفان كارادييتش، الذي قاد عمليّات الإبادة ضد مسلمي البوسنة. وقبل سنوات أقْدَم طبيبٌ اسرائيلي على قتْل المصلّين في الحرم الإبراهيمي بشكل عشوائي بالغ الفظاعة والرعونة. فالناس محكومون بالدوافع العميقة المستكنَّة في نفوسهم، أما التعليم النظامي الذي ينتظمون فيه اضطرارًا فهو مكوِّنٌ سطحيٌّ. إنه في أحسن حالاته لا يتجاوز هدفه المهني كتأشيرة لدخول مجال العمل، ووسيلة من وسائل توفير لقمة العيش...

أما الطبيب الذي هزَّ العالم بالحرب وليس في الطب في الرُّبع الثالث من القرن العشرين فهو الطبيب الإرجنتيني تشي غيفارا، الذي كان في تلك الحقبة على كل لسان، وكانت صوره تُرفع في المكاتب وغرف النوم في كل العالم، وكانت أخباره تملأ الأجواء ووسائل الإعلام، وكان المواليد يحملون اسمه حتى لو كانوا من البنات مثل المراسلة التلفزيونية غيفارا البديري. وقد وصفه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر بأنه: «أكثر الرجال كمالًا في عصره». فقد كان إنسانًا حالمًا، بل كان هائمًا في أوهام وأحلام إمكانيّة توحيد الإنسانيّة كلّها للقضاء على الحواجز الحدوديّة والعنصريّة والطبقيَّة، وإنهاء المظالم والمشاحنات. لقد اندفع اندفاعًا مفْرطًا مع هذا الوهم الحالم، وكان يعتقد بأن البشريّة لن تجد سببًا للحروب والنزاعات بعد القضاء على أسبابها؛ لذلك كان يواصل إشعال التمرّد في أي مكان قابل للاشتعال، ويخوض نيران حرب العصابات لإنهاء الحروب المنظَّمة إلى الأبد، لأنه كان يحلم واهمًا بالقضاء على أسبابها ليسود العالمَ السِّلمُ الدائم. كان يقول: «لا يهمّني كيف ومتى سأموت، لكن يهمّني أن يبقى أكبر عدد من الثوار يملأ الأرض ضد الظلم والاستبداد والفقر». وهو بذلك من أشدّ الحالمين إيغالًا في الخيال والوهم. لقد سيطر عليه هذا الحلم المحال فاستغرق تفكيره، ووجَّه

سلوكه، وأجَّج نشاطه، وأوقعه في تناقضات حادَّة. ففي سلوكه ما يؤكّد شدّة ألمه من شيوع الظلم والفقر والقهر والاستبداد، واحتراقه من أجل تحقيق العدالة والمساواة الإنسانيّة المطلقة؛ لكنه في المقابل كان قاسيًا وفظيعًا، بل كان متوحِّشًا في مواقفه ممن يَعتقد أنهم السبب في شيوع الظلم والقهر والفقر، فانقسم سلوكه بين الشفقة المتناهية والقسوة المتوحّشة...

إن قراءة سيرة تشي غيفارا والتعرّف على أفكاره ومواقفه وسلوكه، تقدم شاهدًا نموذجيًّا على صدق مقولة المفكر المبدع آرثر كستلر. فهو يرى أن المؤمنين بفكرة حالمة يصابون بعمًى مطْبق، فيعتقدون بأن السلحفاة أسبق من حصان السِّباق. يقول كُستلر في كتابه (الخمور الفكرية): «إن الإيمان قوةٌ عجيبة حقًّا، إنه ليس قادرًا فقط على زحزحة الجبال، إنه يستطيع أن يجعلك تؤمن بأن سمكة الرنجة حصانُ سباقٍ». إن المؤمنين المنغلقين على فكرة مهيمنة، أو مُعْتَقَد مستغرق، يكونون غير مستعدين لأي قدر من الشك في ما آمنوا به، ولا يسمحون لأي بصيص من الضوء يخترق إيمانهم المطلق، كما هي حال الماركسيين في النصف الأول من القرن العشرين. وهو المعنى الذي جاهد لتأكيده غوستاف لوبون وغيره من المفكّرين والفلاسفة وعلماء النفس الاجتماعي؛ كما شرحه بنجاحٍ باهرٍ إيريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق: أفكارٌ حول طبيعة الحركات الجماهيريّة)، وقد تَرْجَمَهُ إلى العربيّة الفقيد العظيم غازي القصيبي...

يقول الكاتب الارجنتيني الشهير ألبرتو مانغويل في كتابه (فن القرّاءة): «كان لأخبار مقتل تشي غيفارا وقْعُ الصاعقة، ومع ذلك كانت متوقَّعة.. بالنسبة لجيلي كان غيفارا يجسِّد الكائن الاجتماعي البطولي.. بما له من جاذبيّة شديدة على جيلنا وعلى الجيل التالي.. تجسيدًا كاملًا.. كان في نظرنا شخصيّة أسطوريّة حيّة.. أيقونة غنيّة بالألوان.. تَوَلَّى غيفارا بعزم لا يلين القيام بدور البطل الرومانسي المقاتل، وصار الرمز الذي احتاجه جيلنا من أجل راحة ضمائرنا». لقد ألهم الثوار في كل مكان، وسيظل صدى اسمه يتردّد على مر التاريخ. فقد كان نموذجًا فريدًا في اندفاعه واستمراره على هذا الاندفاع رغم كلّ الخيبات...

إن مذكراته والكتب التي صدرت عنه تشغل حيزًا من المكتبات في كلّ العالم. فمن

الذين اهتموا بترجمة كتبه، أو الكتابة عنه في اللغة العربيّة الدكتور جاك عبدالله حركي وأحمد ناصف وفريد الفالوجي وحسن حمدي وحازم النجار وانطوان نعيم وهشام خضر وسعيد الجزائري وغيرهم...

إن الأفراد الحالمين المندفعين هم رواد التقدّم، أما الاندفاعات الجماعيّة فهي عنوان التحجّر الفكري والانسداد العاطفي والجهالة المستحكمة والخيال المريض، فيصيرون براكين للقتل والتدمير ونَشْر الرعب، لأنهم يحلمون بصياغة الوجود الإنساني صياغة تتّفق مع أوهامهم. إنهم يستبيحون الفظائع من أجل أحلامٍ واهمة قد تكون معادية للحياة. وكما قال المبدع جون كيتس: «المتعصّبون لهم أحلامهم التي ينسجون بها جنة لطائفتهم»، مشيرًا بذلك إلى البيوريتانية المسيحية التي تنفي الصلاح عن كل المغايرين، وتتوعدهم بنار الجحيم، وتَخَصُّ نفسها بجنات النعيم، فهي وحْدها الفئة الناجية!! ويتكرّر نمط التعصب حتى عند دعاة المذهب الماديّ الصرف، فالتعصّب أعمى سواء أكان دينيًّا أم دنيويًّا...

كان غيفارا من أكبر الرواد الحالمين. فقد آمن إيمانًا عميقًا أعمى بإمكانيّة تحقيق المساواة التامة المطلقة بين الناس، وكان يعلن أن أحلامه لا تعرف أيَّ حدود. ومع كل هذه الثقة بالمستقبل فقد كان يدرك أثقال الواقع، ويرى الموانع الصلدة الراسخة التي تحول دون تحقيق هذا الحلم الإنساني العظيم. لكنه كان يواجه هذا الواقع الراسخ بذلك النداء، الذي يبدو متناقضًا لمن لا يعرف تفكير غيفارا وأحلامه الواهمة. فقد كان يقول: «كونوا واقعيين واطلبوا المستحيل». فكأنَّ الجملة الأولى تتناقض مع الجملة الثانية. فكيف يكونون واقعيين وفي الوقت نفسه يَطْلُبون المحال؟! فالواقعية مضادَّة للمحال، لكن غيفارا أراد أن يؤكّد أن الواقعيّة تعني إدراك كل الموانع الثقيلة الراسخة. فالواقع مُدَجَّج بالحصون المنيعة، وبالحمايات النفسية والمادية القوية؛ غير أنه أراد في الوقت نفسه أن يخلق في الأذهان تصورًا جديدًا عن الواقع بأنه قابلٌ للزوال مهما كان راسخًا، ومهما بلغت قوّة القلاع التي يتحصَّن بها، ومهما بلغتْ يَقْظة الحراسات التي تحميه، وبأن المأمول مهما بدا محالًا قد يتحقّق. فالتصورات عن رسوخ الواقع والاعتقاد باستحالة تغييره هي التي توهن العزائم، وتئد المبادرات، وتوقف المحاولات. بينما حين نتأمل تاريخ الحضارة نجد أن ما كانت التصوّرات السائدة تَعتبره من المحالات،

فإنه بالتصوّرات الجديدة المغايرة وبالجهود الريادية الخارقة قد صار واقعًا شائعًا، بل بات من بداهات الحياة؛ وليست الطائرة والهاتف والتلفزيون والديمقراطيات المستقرّة سوى بعض ما كان يُعتبَر من أبعد المحالات. فإذا هي بالريادات الخارقة وبالاستجابات الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية صارت واقعًا يعيشه الناس ولا يلفت نظرهم، وكأنه من بداهات الحياة منذ الأزل ومثل ذلك يقال عن الأوضاع الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي يُنظَر إليها بأنها من الثوابت التي لا يمكن تغييرها. فرؤيتنا عن الممكن والمحال، إيجابًا أو سلبًا، هي التي تقود إلى النجاح أو الإخفاق...

إن علينا أن نتعرَّف على محتويات أعماقنا وأن ندرك أن الجهود الخارقة والمغامرات الخطيرة تنبع من دوافع عميقة متأجِّجة مخالطة للعقل والوجدان. فالإنسان لا يندفع لأنه حصل على معلومات، بل يستخدم المعلومات لتفعيل وإنجاح منظومة القيم العميقة التي تحَرِّكه، وتحقيق الأهداف والاهتمامات التي تؤرقه. وفي هذا الصدد يورد الكاتب الروسي فاسيلي أكسيونوف في كتابه (البحث عن أنشودة الفتى الحزين)، قصةً حدثت لغيفارا في وقت مبكر من حياته حوَّلته من إنسان معجب، بل مغرم بكلّ ما هو أميركي، إلى ثائر يتأجَّج كُرْهًا لأميركا ولأي شيء يمتُّ إليها بأي صلة، وهي قصة تحمل دلالة كبيرة وعميقة عن الطبيعة البشريّة، وعن الدوافع الأشد قوة والأكثر عمقاً والأدْوَم تأثيرًا. فلو كان هذا الموقف من غيفارا يمثِّل حالة فرديّة خاصّة لما كانت له أهميّة، وإنما تأتي أهميته البالغة من أنه امتدادٌ لظاهرة بشريّة عامّة. فالإنسان يسعى لكسب الاحترام ويفرُّ من العار ولا يتحمَّل الإهانة، فقد يموت دفاعًا عن كرامته، أو سمعته، أو انتقامًا ممن يتسبب في إذلاله. وكما يقول الفيلسوف الأكبر هيغل: «في البدء كان الصراع حتى الموت من أجل التميّز وحده». أما المفكّر الفرنسي الرائد مونتسكيو فَيُعَبِّر عن ذلك تعبيرًا مدهشًا، فيقول: «إن حب الذات الغريزة التي نحافظ بها على نفسنا تكتسي ألوانًا جدّ مختلفة، وتعمل وفق مبادئ جدّ متباينة. فنحن نُضَحِّي بالذات شغفًا بها، ونُعلي من قدر ذاتنا إلى حد أننا نَقْبَل أن نفْنَى.. نستجيب لغريزة غامضة نُقَدِّم بموجبها حُبَّ الذات على حب الحياة». إن كبار العقول قد أدركت هذا المحرّك العجيب للسلوك الإنساني، لكن مونتسكيو قد تمكَّن من التعبير عنه بهذه الصياغة العجيبة المذهلة...

حين ندرك أن الاهتمام المحوري لدى الإنسان هو كسب الاحترام، والسعي لنيل

المَكانة، والحرص على اعتراف الآخرين بقيمته، وقتاله من أجل الأهميّة، ورُعبه من الإهانة والاحتقار والإذلال. إننا حين ندرك ذلك بعمق، ندرك أهميّة قصّة غيفارا التي ألهبَتْ حقده على الولايات المتحدة الأميركية، فقاد ضدها حروبًا شعواء في أمكنة عدّة من العالم بعد أن كان مغرمًا بكل ما هو أميركي. فيقول فاسيلي أكسيونوف: «مازلت مندهشًا: ما الذي يجعل عددًا من الناس في أميركا اللاتينية وروسيا وأوروبا يُظهر المشاعر المعادية لأميركا بهذا القدر من العنف؟!! هناك شيءٌ غريب هستيري يكتنف هذا كلّه!!». ثم يضيف: «ذات مرّة سأل شاعرٌ سوفياتي الثائر غيفارا لماذا يكره أميركا ذلك الكره الشديد؟ فشنَّ غيفارا هجومًا عنيفًا على الامبريالية الأميركيّة واستعبادها للأمم النامية اقتصاديًّا من خلال الاحتكارات الجشعة، والتوسّع وقَمْع حركات التحرر الوطنية، وما إلى ذلك. ولكنّ الشاعر السوفياتي وجَدَ أن إجابة غيفارا السياسيّة لم تكن شافية، فاستفسر منه عما إذا كان هناك شيءٌ شخصيٌّ وراء مشاعره. وبعد بضع لحظات من الصمت شَرَعَ غيفارا يروي قصةً غريبةً، سأرويها كما سمعتها من الشاعر...

كان غيفارا يُقَدِّس الولايات المتحدة الأميركيّة عندما كان صبيًّا مراهقًا، كما كان مولعًا بأفلام رعاة البقر التي تُخرجها هوليوود وأحدث ألوان موسيقى الجاز. وبينما كان ذات يوم راكبًا دراجته مارًّا بجوار المطار إذا به يرى طائرة يجري تحميلها بمجموعة من جياد السِّباق إلى أميركا». ولئلّا يطول سرد القصّة، نكتفي بأن نشير إلى أنه خَطَر في باله أن ينتهز الفرصة فيختفي في الطائرة مع الجياد ليحقّق حلمه، فيصل إلى أميركا وهو الشيء الذي فَعَلَه.. وحين اكتشفه الأميركيون بعد وصول الطائرة إلى أميركا ضربوه وأذلوه وأعادوه إلى وطنه كسيرًا مُهانًا. وقد صَرَّح: «لن أغفر لهم أبدًا ما صنعوه بي في تلك الطائرة». وأضاف بغضب: «أكره كلَّ الأميركيين وأصواتهم الهادئة، ومشيتهم المتغطرسة، ونظرتهم الواثقة، وابتساماتهم البذيئة». هكذا هو الإنسان، لا تحركه سوى الدوافع العميقة المتأجّجة في أعماقه؛ أما المعلومات الباردة فيضطّر لحفظها، ثم يتحرّر منها بالنسيان بعد أن تؤدّي المهمّة الشكليّة. إننا نبالغ مبالغة ساذجة في تأكيد أهميّة المعلومات، ونعلّق آمالاً عريضة على التعليم الجمعي بأسلوبه القسري ومحتواه الجامد الثقيل، ونغفل عن أن الإنسان تحرّكه اهتماماته التلقائيّة، وأحلامه العميقة، ومنظومة قيمه. فالمعلومات لا تكون مهمّة وذات فاعليّة إلا بقدر توافقها مع القيم العميقة المحرِّكة، والاهتمامات التلقائيّة المثيرة...

إن الإنسان تحرّكه أحلامه وطموحاته وصراعاته ومنافساته وأحقاده وثاراته، وعواطف الحب والكُرْه، وليس معلومات يتجرَّعها مضطرًّا. وكما يقول غيفارا: «مَن يقتلك ليس هو الذي يطلق عليك رصاصة بل هو الذي يقتل أحلامك». إن الإنسان يتعلَّم بحثًا عن وسائل وأساليب يحقّق بها أحلامه وطموحاته وأهدافه، وينتصر بها على منافسيه، ويثبت بها أهميته، ويجعل الآخرين يضطرّون إلى الاعتراف له بالتفوّق، ومع أن هذه من بداهات الطبيعة البشريّة، ومن أبجديّات الحياة الواقعيّة، فإنها تغيب أمام الأوهام التي أحيط بها التعليم القسري والتعلُّم الاضطراري بكلّ ما يصاحبه من ضجيج، وما ينجلي عنه من هالات، وما يحصل بعده من انتفاش، وما يحتجب تحت ذلك كلّه من كلال وخواء وفراغ...

إن إهانة فرد واحد قد تخلق لدولة كبرى، أو لكل العالم مشكلات متنامية لا تنتهي. فالإهانة التي لحقت بغيفارا جعلت منه العدو اللدود لأميركا.. كما أن مضايقة بن لادن وفَرْض طرده من السودان قد دفعته إلى إشعال الإرهاب في العالم، ولو تركوه في السودان لربما انشغل بالمشروعات الزراعيّة والتنمويّة التي كان ينوي الانشغال بها...

في هذا العصر وما جَلَبَه من إمكانات نوعيّة لا يصحّ الاستخفاف بدور الأفراد، فقد يسبّبون لأقوى الدول معضلات كبرى. لذلك فإن جوزيف ناي يؤكّد في كتابه (القوّة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدوليّة)، وكذلك في كتابه (مفارقة القوة)، وفي كتاباته الأخرى بأن على الولايات المتّحدة الأميركيّة أن تتخلّى عن أي مظهر يبرزها كقوّة متغطرسة باطشة، وأن تلجأ إلى نعومة التعامل لامتصاص ردود الفعل الغاضبة. فالإنسان بطبيعته يكره من يتفوّق عليه، أو من يخيفه، أو من يستهين به، وقد تنامت قدرات الأفراد فأصبح الفرد قادرًا على إيذاء أعظم الدول كما هو حال غيفارا، أو بن لادن، أو غيرهما من مشعلي الثورات، ومؤجّجي الكراهيّات، ومؤسّسي التنظيمات...

لقد فطن لذلك في وقت مبكر الفيلسوف الأميركي ثورو؛ فكتب: «إنني أعتقد بأن الذي يزعج المصلح مهما كانت درجة تقواه وصلاحه هو أَلَمُه الشخصي وليس الشفقة على الآخرين، ولو حُلَّتْ مشكلته الشخصيّة لتخلّى عن الآخرين من دون كلمة اعتذار».

لذلك، فإن العالم قادرٌ على أن يتجنّب الكثير من المشكلات بتغيير أسلوب

التعامل، سواء في ما بين الدول، أو التعامل مع التنظيمات والأفراد القادرين على تأجيج الصّراعات...

إن أهم قيمة عند الإنسان هي ذاته، وقد لاحظ كثير من الفلاسفة، كما لاحظ علماء النفس بأن سعي الإنسان لكسب الاحترام ونيل المكانة الرفيعة والخوف من العار والفرار من أسباب الاحتقار من أقوى دوافع السلوك البشري. لذلك، فإن الإنسان يجتاحه الخوف من العار، ويحرّكه الرعب من فقدان الاحترام، ويتأجّج غضبًا إذا أهين، أو تعرَّض لأي لون من ألوان الإذلال، أو الاحتقار. إن هذا الدافع ذو فاعليّة حاسمة ودائمة، سواء على مستوى الأفراد، أم الجماعات، أم المجتمعات، أم الأمم. فالهوان الذي أحسَّ به الألمان بعد الحرب العالمية الأولى هو الذي دفعهم إلى الالتفاف القويّ الجارف حول هتلر، فاستجابوا له تلك الاستجابة العارمة التي زلزلتْ العالم ودمَّرتْ أوطانًا وانتهت بإزهاق حياة خمسين مليونًا من البشر...

إن في حياة تشي غيفارا دلالات كثيرة، ولها جوانب متعدّدة تستحق الإشارة، وهي تؤكّد بأن الإنسان بما يُضاف إلى قابليّاته، بغض النظر عن ضعف أو قوة جسمه، فقد وُلد قبل أوان ولادته بشهر، فنشأ عليلًا هزيلًا، وعاجَلَهُ مرضُ الربو ولازمه طول عمره، وبسبب ذلك أُعفي من الخدمة العسكرية، لكنه بتنشئته على الاستقلال والإقدام وباهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق، كابد أثناء قيادته لحرب العصابات أقسى الظروف، وعاش وسط الغابات التي تنتشر فيها حُبوب اللقاح، فيشتدّ عليه الربو، لكنّه واجه ذلك بعزيمة وصبر واندفاع، وكل هذا يؤكّد فاعليّة الدافع العميق التلقائيّ، كما يقدِّم شاهدًا إضافيًّا على خرافة مقولة أن: «العقل السليم في الجسم السليم». بينما نجد أن الواقع يخالف ذلك مخالفة تامّة. فالإنسان من الناحية الفكريّة والوجدانيّة والإقدام والإحجام والإرادة والسلوك ليس بجسده، وإنما بما يُضاف إلى قابليّاته، وبما يتبرمج به عقله وعواطفه، فهو محكومٌ بما تتلقّاه قابليّاته التي تأتي مفتوحة وفارغة وقابلة لأي صياغة ولأي محتوى...

كان غيفارا مغامرًا منذ طفولته، رغم هزال جسده، فإقدامه على التسلل إلى الطائرة الأميركيّة والاختفاء مع الجياد، والمغامرة في الذهاب إلى بلد بعيد جدًّا، ومختلف كليًّا،

ومن دون أي زاد أو مال، أو تجهيز، يحمل دلالة عميقة. وقد قام أيضًا وهو طفل بجولة في بلدان أميركا الجنوبية على دراجة هوائيّة، وشجَّعه أبوه على ذلك من أجل أن يعتاد قسوة الحياة، وكان ينام في العراء. لقد عاش حياةً كلّها حركة وانتقال وتغيير وهروبٌ من التقييد ونفورٌ من التكيُّف مع الواقع. فبعد سنة من تخرجه في كليّة الطبّ انتقل إلى المكسيك، وانضم إلى فيدل كاسترو، وتولّى تنظيم وتدريب الثوار مدة أربع سنوات، ثم انقضُّوا على كوبا، وكان هو أوَّل الداخلين في هافانا. وحين تم تشكيل حكومة الثورة لم يتم اختياره لوزارة الصحة بوصفه طبيبًا بل صار رئيسًا للمصرف الوطني المركزي الكوبي، ثم وزيراً للصناعة، ثم ترك كوبا وزار بلدانًا كثيرة، مثل مصر والجزائر والصين وغيرها. ثم عاد وانخرط مرة أخرى في حرب العصابات حتى تم اغتياله. فودَّع الحياة قبل أن يبلغ الأربعين من العمر. ولكنه بهذا العمر القصير خَلَق لنفسه أسطورة ما زالت تتردد أصداؤها في كل العالم...

الغريب في الأمر أنه بقي مصرًّا على مواصلة إشعال الثورات، وتأجيج حروب العصابات، رغم أنه كان مفجوعاً من النتائج. فقد كتب: «الثورة يصنعها الشرفاء ويرثها ويستغلها الأوغاد». وكان حريًّا بهذا الاكتشاف الفاجع أن يوقظه من الأوهام الحالمة التي سيطرت عليه، لكنه بقي إلى آخر لحظة من حياته يواجه المشاق، ويخوض المعارك مدفوعًا بإيمانٍ راسخ قد استحوذ على نفسه واستغرق تفكيره، فأفرغ فيه كل نشاطه، ورَهَنَ ذاته له حتى تم اغتياله!!! وربما أن هذا يؤكّد أن حقده على أميركا بسبب تلك الإهانة التي تلقّاها في صباه كان الدافع الأعمق لكلّ ذلك الضجيج الذي ملأ به الأرض...

ربما تكون أنسب نهاية لهذا الفصل عن تشي غيفارا ما كتبه فاروق القاضي في كتابه الرائع (آفاق التمرد)، فقد كانت سطوره قطعة أدبيّة معبِّرة أروع تعبير عن حقيقة هذا البطل الأسطوري: «للغريزة المتمرّدة أو التمرّد الغريزي.. بطلٌ أسطوري يقف على أكتاف كل أبطال النضال والقادة الثورويين: آرنستو غيفارا.. تمرَّد في كافة مراحل حياته.. تمرَّد منذ نعومة أظفاره.. تصرَّف كشاب عندما كان طفلاً.. وتصرَّف كرجل عندما أصبح شابًا.. كان لم يزل طالبًا في الثانوية عندما تمرَّد على المشاركة في تظاهرة جامعية.. يقول آلبرتو غرانادوس: إنه كان يحب تحسُّس مواطن الجمال في الريف ومآسي الشعب هناك..

تمرَّد على سنوات الدراسة فأنهى ست سنوات جامعيّة في ثلاث سنوات.. تمرَّد على تخصّصه، فقد أدرك أن الطبّ ليس حَلًّا للمشكلة، فترك الطبّ ليحترف الثورة.. ذهب إلى كل مكان اشْتَمَّ فيه رائحة تمرّد». أما غيفارا ذاته فيوضح أسباب تحوّله من مهنة الطب إلى آفاق التمرّد والثورة: «بسبب تجوالي أصبحتُ على صلة وثيقة بالفقر والجوع والمرض». لقد رأى أن عليه الإسهام في تغيير الأوضاع لإنقاذ الناس في كلّ العالم، من البؤس والقهر والفقر والجوع والمهانة، فعنده ليس مجديًا على المستوى الإنساني أن تعالج فردًا من الناس، وإنما المجدي حقًّا هو تغيير الأوضاع السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة لتحقيق الحريّة والمساواة والعدالة، وفَتْح الآفاق لكلّ الناس من أجل تحسين أحوالهم، والتعاون مع غيرهم لتحسين ظروف الحياة الإنسانيّة...

إن فاروق القاضي يُطْلق على غيفارا صفة أو اسم (المتمرّد الغريزي). فالتمرد ليس طارئًا على تفكيره وسلوكه وإنما يتفجَّر من أعماقه. لذلك، كما يقول: «كان غيفارا الأب الروحي للثوار وللغالبية العظمى من شباب الغضب وأحرار العالم». فلم يجد ذاته أن يبقى رئيسًا لدائرة الصناعة في كوبا، ومديرًا للمصرف الوطني، ووزيرًا للصناعة، وإنما رأى أن عليه أن يذهب ويقاتل في بلدان أخرى من أجل التحرر الإنساني، بحسب تصوُّره. وهكذا كان، فلقي حتفه في إحدى المعارك...

ولعل القارئ قد لاحظ أنني لا أكتب عن تشي غيفارا لشخصه، ولكنني أكتب عنه لإبراز بعض مفاتيح الطبيعة البشريّة. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ، فهو مقودٌ بقيمه العميقة، وباهتماماته الذاتية التلقائيّة، إنه يندفع لما يؤمن به وليس لما تلقَّى معلومات عنه، إنه يسعى لتأكيد ذاته والدفاع عن كرامته والانتقام ممن يحاول تحقيره أو إذلاله، أو العدوان على حقوقه، أو الاستهانة باهتماماته، أو الاستخفاف بقيمه حتى لو كانت هذه الاهتمامات وهذه القيم هي سبب بؤسه وتخلُّفه وهوانه...

القسم الخامس

مقارنة بين:

1 ـ الطبيب الفيلسوف غوستاف لوبون الذي أبدع في الفكر والتنظير

2 ـ الطبيب القائد السياسيّ مهاتير محمد، الذي أبدع في القيادة السياسيّة والتنمويّة...

- الطبيب الفرنسي غوستاف لوبون يهجر الطب ويتفرّغ لدراسة الحضارات والمجتمعات والناس، وينتهي إلى أن يصير مرجعًا لرجال العلم والفكر والسياسة...
- لقد اكتشف بالاهتمام القويّ المستغرق والتأمّل العميق والمقارنات الدقيقة والبحث الممضّ بأن المشاعر والمعتقدات هي التي تقود الناس، وهي التي يتحرّك بها التاريخ وليس العلم ولا التعليم...
- توصّل لوبون إلى أن الأمم تتناسل ثقافيًّا، وأنها مقودة بهذا التناسل الحتمي الصارم، أما التعليم والعلوم فليس لهما تأثير على مسيرة التاريخ واتجاهات الشعوب...
- أفكار لوبون تستحقّ اهتمام كلّ الناس ليتعرفوا على طبيعتهم، وليعرفوا الدوافع التي تحرّكهم..
- بينما صار الطبيب غوستاف لوبون بمحض اهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق من أبرز رجال الفكر والعلم، فإن الطبيب مهاتير محمد بات من أبرز قادة التنمية في القرن العشرين...
- لقد جمع الطبيب مهاتير محمد بين نفاذ الفكر وطاقة الفعل وقدرة القيادة...
- الطبيب مهاتير محمد هو صانع ازدهار ماليزيا الحديثة، وهو يقدِّم للعالم الإسلامي نموذجًا رائعًا لتعايش الأديان والأعراق، والاحتشاد لبناء الأوطان...
- رغم عظمة مهاتير محمد فإن موقفه من الغرب ومن الحضارة الغربية هو موقفٌ منحاز بإفراط، ويفتقر إلى الموضوعيّة، لكن ذلك لا يُقَلِّل من مكانته، فالكمال محال...
- الطبيبان لوبون ومهاتير نموذجان للريادة الفكريّة والقيادة السياسيّة...

طبيبٌ ومفكّرٌ ومؤرّخٌ وعالمُ اجتماعٍ وعالمُ نفسٍ

حين يندفع الإنسان باهتمام ذاتي تلقائيّ قويّ مستغرق للتعلُّم والتَّفَهُّم والإنجاز، يصير مذهلًا في عمق فكره، وغزارة إنتاجه، وتنوع عطائه، وتفَرُّده واختلافه عن كل المحيطين به. فالمفكّر الفرنسي غوستاف لوبون دَرَسَ الطب، لكن شَغَلَتْه قضايا إنسانيّة عامة كبرى، فهَجَرَ مهنة الطب واستغرق في التعمّق في فهْم طبيعة العقل البشري، ودراسة التنوّع الثقافي الإنساني، وكيفيّة افتراق البشريّة كل هذا الافتراق الحاسم. فكل ثقافة تمثِّل نوعًا من أنواع العقل منفصلًا عن العقول التي تشكَّلت بالثقافات الأخرى. لقد درَس الحضارات والمجتمعات والثورات وطبيعة الجماهير، واهتم بتشخيص مصدر الخلل في الحياة البشريّة والاجتماعيّة والتاريخية والثقافيّة، فتوصَّل إلى أن الأمم مرتَهَنةٌ بتاريخها وثقافاتها وعقليّاتها الموروثة. فالأجيال في تتابعٍ تلقائيّ من دون تغيير كتتابع جريان النهر منذ آلاف السنين. ومثلما أن كل جيل هو نسخة تلقائيّة للجيل الذي قبله، فإن كلّ فرد من كلّ جيل هو صياغةٌ اجتماعيّة تلقائيّة. فالمجتمعُ ذاته نتاجُ تلقائيّ للموروث الثقافي. لقد اكتشف لوبون ضآلة دور العقل المتبصّر في الحياة البشريّة، فالعقل محدودٌ بحدود الثقافة التي ينشأ عليها، أما التصرّفات البشريّة فهي نتاجُ الانسياب التلقائيّ من اللاوعي. فبينما يعظم دور اللاوعي في كل أفعالنا تتضاءل مشاركة العقل الفاحص. إن كلَّ الأجيال في كلِّ الأمم محكومة بالتدفق التلقائيّ، مثلما أن الأنهار محكومة بمجاريها منذ عصور سحيقة...

إن الأفكار والاكتشافات والنتائج التي توصّل إليها لوبون عن تباين عقليات الأمم بمقدار تباين تاريخها وثقافاتها؛ وكذلك ضآلة دور العقل وطبيعة الجماهير وغير ذلك مما يطبع الحياة البشريّة، ويتحكّم بها تلقائيًّا. إن ذلك كلّه وغيره مما توصّل إليه لوبون كان في وقته باهرًا، وبسبب جدّته والأهميّة البالغة له فقد لقيت أفكاره اهتمامًا عظيمًا من قادة الفكر والفعل؛ لكن كالعادة تبقى أمور البشر مندفعة مع المسارات العتيقة

نفسها، وتُنسى بسرعة الأفكار العظيمة الموقظة. فليست أفكار لوبون وحده هي التي لم تُحدث تأثيرًا عامًّا دائمًا، وإنما كلّ الأفكار الخارقة، وكلّ العلوم، وكلّ نتائج الحكمة لم تستطع أن تؤثر في الكيانات الثقافيّة الموروثة. لقد انحصر التأثير في مجالات تطوير الوسائل والإمكانات والنظم والمؤسّسات والقوانين؛ وكذلك بقي التأثير الفكري في نطاق القلّة المفكّرة، أما عموم الناس فيبقون مندفعين مع المسارات التليدة نفسها، وهذه هي المأساة البشريّة التي لم يوجد بعد لها أي حلّ...

ورغم أن ثقافات الأمم تحدّد تلقائيًّا للأجيال أنماط التفكير، ومنظومات القيم، وأنواع الاهتمامات، واتجاهات الحركة. إلا أن هذا لا يعني تماثل الأفراد داخل كل ثقافة، وحتى لو تلقّوا تعليمًا مهنيًّا متماثلًا، فإن ذلك لا يلغي الفروق الفرديّة، فكلّ فرد له عالمه الخاص. وكما يقول لوبون: «فالمجتمع ليس متجانسًا أبدًا من الوجهة العقليّة، بل تمثَّل فيه جميع المراحل العقليّة التي مرّت بها الإنسانيّة في عصورها التاريخية؛ وكذلك العصور السابقة على التاريخ. إن الإنسان المتحضّر يعيش في الغالب حياتين اثنتين: حياته الرسميّة التي يعرفها الناس عنه، وحياته الخاصّة الدفينة التي هي أدنى إلى حياة البدائيين». ومن الواضح أنه هنا يقصد الفرق بين تلقائيّة التفكير والسلوك انسيابًا من التبرمُج التلقائيّ وعقلانيّة العمل المهني. فالطبيب مثلًا عقلانيٌّ ضمن نطاق المهنة، لكن تصوّراته عن الإنسان والوجود والحياة والتاريخ ورؤيته للعالم تأتي انسيابًا مما تبرمج به تلقائيًّا في طفولته. فهو في رؤيته للعالم لا يختلف كثيرًا عن الأمّيين ضمن النطاق الثقافي...

مع أفكار لوبون تأسّس علم نفس المجتمع، واختلفت النّظرة للإنسان، وتغيَّر مفهوم التاريخ، وصارت الحوادث المتعلقة بالبشريّة تُفهم في ضوء جديد، ولم يَعُد الإنسانُ ذلك العقلاني المتبصّر الفريد، بل هو كائنٌ تابع تصوغه البيئة، وتحدّده الظروف، وتقولبه الثقافة. إن الفرد محكومٌ بسيكولوجية جماعيّة، فهو ليس أكثر من قطرة في نهر المجتمع المتدفّق تلقائيًّا. فالمجتمع ذاته ليس أفضل من حال الفرد، بل هو مندفعٌ تلقائيًّا مع مجراه منذ قرون. أما تغيير مجرى التاريخ فتصنعه فلتات ريادية فرديّة، استثنائية. وحين يندفع المجتمع في الاتجاه الجديد، فإن هذا الاندفاع يأتي تلقائيًّا وليس عن استيعاب وفهم. فالجماهير تياراتٌ عمياء، سواء أكان التحول نحو الأفضل، أم كان نحو الأسوأ...

إن مكانة لوبون وأمثاله من رواد الفكر كما يقول الناقد ماثيو آرنولد: «أنْ يعرف المرء أفضل ما يُعرَف وما تم التفكير فيه في العالم، ثم يقوم الناقد بدوره ليجعل هذا معروفًا ليصنع تيارًا من أفكار جديدة وصادقة». أما لوبون فيقول: «السهولة التي تنتشر فيها بعض الآراء وتصبح عامّة تعود بشكلٍ خاص إلى عجز معظم الناس عن تشكيل رأيٍ خاصٍّ مستوحى من تجاربهم الشخصية في المحاكمة والعقل». ولذلك، ينقاد الناس للانتهازيين والغوغائيين. وكما يقول لوبون: «من يعرف إيهام الجماهير يصبح سيدًا لهم، أما من يحاول إيقاظهم من الأوهام فيصبح ضحية لهم». إنها مأساة الرواد في كلّ مكان وفي أي زمان، بل هي مأساة البشريّة كلّها، حيث لا تستجيب إلا للذين يؤكّدون قيودها، ويمجدون أوهامها، وتبقي أفرادها مغمورين ومغتبطين ومخدرين بهويّاتهم القاتلة...

يُنبِّه سيرغي قرو - مورزا في كتابه (التلاعب بالوعي) إلى أن لوبون قد أدرك فاعليّة التواصل عن بُعد، ليتحوّل المتواصلون إلى حشد قبل أن تتوافر الوسائل، فيستشهد سيرغي بقول لوبون: «يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين بعضهم عن بعض أن يقعوا في لحظات معروفة، وفي وقت واحد تحت تأثير بعض الانفعالات القويّة، أو حدث وطني عظيم، فيكتسبون على هذا النحو ملامح الحشد الملهَم.. أحيانًا يصير الشعب كلُّه حشدًا تحت تأثير ظواهر معيّنة من غير أن يشكّل اجتماعًا بالمعنى الخاص لهذه الكلمة». وكما يؤكّد لوبون فإنه في الحشد: «تختفي الشّخصيّة الفرديّة الواعية». ومع ظهور الإذاعة والتلفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي صار أفراد الحشد يلتقون كلّ لحظة من كل أقطار الأرض، وكأنهم في مكان واحد. فأصبح تكوين الحشود في غاية السهولة. وبهذا صار حشد الناس للتدمير في متناول الجميع. وكما يقول سيرغي: «هؤلاء الناس يستطيعون حقًّا تدمير الأرض من غير أي نيّة سيّئة، وببساطة من غير أن يفكّروا». وهذا المعنى أضحى يتردّد عند الكثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء نفس المجتمع؛ ومن ذلك قول نيتشه: «حين يقف مائة شخص بعضهم قرب بعض يفقد كلٌّ منهم إدراكه»، ويصير ذائبًا في الحشد أو، ومع سهولة التواصل عن بُعْد صارت الأرض كلّها ساحة للتحشيد وتكوين الحشود الفاقدة للإدراك...

كل ثقافة يتشابك المنتمون إليها والمبرمَجون بها تلقائيًّا بطريقة تفكير واحدة،

فيصيرون متهيئين تلقائيًّا للاستهواء والإثارة، مهما تباعدت ديارهم وكأنهم حشد واحد بعد أنْ توفّرت وسائل التواصل. وقد رأينا كيف أن حادثًا واحدًا تافهًا في أي مكان في العالم يستفزّ المنتمين لثقافة معيّنة لتظاهرات صاخبة، واحتجاجات عنيفة في مختلف أقطار الأرض. وكما يستنتج لوبون: «لكل شعب أخلاق جامعة مشتركة بين جميع أفراده، فتلك الأخلاق تُحدث في الشعب آراءَ متشابهة في بضعة مواضيع جوهرية»، ويؤكّد أن: «الاستقرار في أخلاق الشعب هو الذي يهيمن على مصيره»، ويأخذ من أخلاق الإنكليز مثالًا، فيوضح: «فلو أخذنا الإنكليز مثلًا، لرأينا أن العوامل التي تقود تاريخهم هي من القلّة بحيث يمكن تلخيصها في بضعة أسطر».

أما هذه العوامل التي ميّزت الشعب الإنكليزي في نظر لوبون فهي كما يلي:

- «تقديس المجهود الثابت المستمرّ الذي يمنع المرء من التقهقر أمام أي مانع...
- احترام العادات وكل ما أثبته الزمان احترامًا دينيًّا...
- الحاجة إلى العمل وازدراء تأمّلات الفكر العقيمة...
- احتقار الضعف...
- حب الواجب..
- اعتبار ردع الإنسان نفسه بنفسه صفة أصيلة يجب على التربية أن تعتني بها اعتناءً خاصًّا». إن لوبون قد أدرك بوضوح أن المجتمعات تبقى مأسورة بما توارثته وتربَّت عليه، وبأنه من المحال تغيير أخلاق المجتمع، أو تبديل عواطفه. فالقابليّات يصوغها ويحتلّها ويتحكّم بها الأسبق، ومثلما أن مجتمعات تخفق بسبب كلال أخلاقها وعواطفها مهما أكثرت من المدارس والجامعات، فإن مجتمعات أخرى تنجح بأخلاقها وعواطفها، وليس بعلمها وذكائها. فالعلم والذكاء هما من جملة الوسائل، أما المعوَّل عليه سلبًا، أو إيجابًا فهو الأخلاق التلقائيّة المستقرة والعواطف العميقة المتوارثة...

لقد أدرك لوبون فظاعة الوهم الذي ربَطَ بين القدرة والتأهيل التعليمي، فجرى بذلك تقديم الفدْم وتأخير الفذ، فهو يقول: «من الخطأ الذي جرت عليه الأمم اللاتينية

خاصّة، الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والذكاء، إذ يكفي في التعلُّم أن يكون المتعلّم على جانب من القوة الحافظة، ولكنه لا يستلزم شيئًا من صفات القوة العاقلة أو القوة التصوريّة، أو الهمة الذاتية، أو قوة الاستنباط. وكم يلتقي الإنسان بمن جمع إليه من الشهادات شيئًا كثيرًا وهو ذو عقل صغير؟ وكم يلتقي بغير متعلّم يتوقّد ذكاءً؟». إنه يرى أن المتعلّمين في الأمة الراقية كغيرهم من جموع الناس، يمثّلون كتلة الأكثرية التي لا يُنتظر منها سوى الانقياد وتنفيذ ما يتقرّر. فالأكثريّة، بمن فيهم المتعلّمون، تقودهم فئةٌ قليلة من أهل الإدراك العالي والكفايات النادرة، أما قادة الفكر فهم أهل النبوغ بغض النظر عن مستواهم التعليمي، فهؤلاء في الذروة...

يتوقّف المفكر تودوروف في كتابه (نحن والآخرون) مع غوستاف لوبون، وكيف أنه يرى أن الثقافات كيانات منفصلة في ما بينها انفصالًا تامًّا. فمن الناحية المعرفيّة: «لا يقيم المنتمون إلى الثقافات المختلفة في العالم ذاته، وتختلف كل الأشياء بالنسبة إليهم. وهكذا لا يسع لوبون إلا أن يتأكّد من عمق الهوة التي تباعد فكر مختلف الشعوب». فالأمم المختلفة لا يمكن: «أن تشعر، ولا أن تفكر، ولا أن تتصرف بالطريقة نفسها؛ وبالنتيجة هي لا تستطيع أن تتفاهم مع بعضها». إن لوبون قد أدرك عمق المعضلات البشريّة، فالثقافات لا يفهم بعضها بعضًا، والأفراد داخل كل ثقافة تقوم بينهم حواجز سميكة. كما يرى أنه يوجد فروقٌ عقليّة عميقة تفصل المرأة عن الرجل. فهو يرى أن فكرة المساواة مضادّة للطبيعة وللواقع، والنتيجة أنه لولا الريادات الفرديّة الفكريّة الخارقة لما حققت الإنسانيّة أي تقدم...

في كتاب (الجمهور)، يناقش المؤلفان مايكل هارت وأنطونيو نيغري مختلف الآراء حول الجماهير، وفيه يستنتجان: «لم يرَ لوبون في التعابير العامة للجماهير الكثير من الأصوات الفردية العقلانية، وإنما وجد صوتًا لا عقلانيًا كاملًا وغير مبالٍ. فبحسب لوبون في الجمهور، يُغرِق المتجانس كلَّ متغايرٍ، والصفات اللاواعية تكون لها اليد العليا. فالجماهير وبشكل أساسي لا عقلانية ومعرَّضة للتأثير الخارجي، فهي بشكل طبيعي وضروري تتبع زعيمًا تحفظ سيطرتُه وحدتَها عبر العدوى والتكرار. والواقع هو أنه يمكن اعتبار الرعب عاطفة الجمهور الرئيسية. فآلهة اليونان (بان) يقود الجماهير ويحوِّلهم إلى مخبولين: فالغوغاء تُعدم الأبرياء من البشر من دون محاكمة، وتدمِّر

الأسواق وتُسقط العملات وتبدأ الحرب. فطبقًا لهذه الرؤية هو أن الرأي العام خطر لأنه يميل إلى أن يكون موحَّدًا وعرضة للتلاعب والمناورات».

يتوقّف فرانسوا شاتليه وزميلاه في كتابهم الضخم الحافل (معجم المؤلّفات السياسيّة) مع لوبون وكتابه (علم نفس الجماهير)، ليشيروا إلى النجاح الكبير والانتشار الواسع الذي لقيتْه كتاباته، حتى صار أكثر الكتاب الفرنسيين انتشارًا داخل فرنسا وخارجها. ويؤكّد هؤلاء المؤلفون ما أكّده غيرهم عمّا سمّاه وحدة الجماهير الذهنية: «إن الشخصية الواعية لكل فرد تتلاشى، ومشاعر وأفكار كل عضو تمتزج في أحاديّة فكرة تغذّيها الغرائز اللاعقلانيّة الصمّاء والمشؤومة، والمخبَّأة في أعماق ذواتنا؛ إن نفسًا جماعية ذات سمات جديدة تحلُّ حينئذ محل كثرة النفوس الفردية». فبواسطة هذه الكيمياء الاجتماعيّة تتحوّل الكثرة إلى كائن واحد، مزوَّد بنفسية، وبذاكرة، وبوعيٍ، وبإرادة، وبمجموعة سمات مرتبطة بتكوينها بطريقة مبهمة: النزق، التقلّب، سرعة الغضب، الاستعداد لقبول الاقتراحات، سرعة التصديق والنزوع حتمًا للعنف». وعلينا أن نتذكَّر أن تكوين الحشود على هذا النحو الخطير لم يعد يتوقّف على التجمع في ساحات أو شوارع، أو ميادين. فبعد ظهور الانترنت وتوفُّر شبكات التواصل الاجتماعي أصبح تكوين الحشد، بل الحشود في منتهى السهولة عن طريق التواصل عن بُعْد، بل إن بعض البرامج التلفزيونية والمنابر الأسبوعية تنجلي عن استجابات هي في النتيجة وعلى المدى الطويل تشبه استجابات الحشود...

لكن توقّعات لوبون عن حصول تحوّلات عالميّة جذريّة لم تتحقّق، بل الذي حصل هو العكس. فقد كتب: «إن الفترة الحالية تشكّل إحدى اللحظات الحرجة التي يشهد فيها الفكر البشري تحولًا وتبدّلًا، وهناك عاملان أساسيان يشكّلان الأساس الجذري لهذا التحوّل، هما أولًا تدمير العقائد السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة.. وأما الثاني فهو خلق الشروط الجديدة كليًّا بالنسبة إلى الوجود والفكر». ولكنَّ القرن العشرين انجلى عن العكس، فأصبح القرن الحادي والعشرون، كما تنبأ أندريه مالرو، قرن عودة الدين وهيمنة التدين...

حين تقرأ كتاب لوبون (علم نفس الجماهير)، أو كتابه (الآراء والمعتقدات)، أو

غيرهما من إنتاجه العميق والغزير والمتنوّع، فسوف تدرك أن الاهتمامات التلقائيّة هي التي تُلهب النفس، وتحرّك النشاط، وتفجّر الطاقة. فلوبون وأمثاله من قادة الفكر لم يُخلقوا ليكونوا في أعمال مهنيّة رتيبة، وإنما هم مؤهّلون باهتمامهم التلقائيّ القوي المستغرق ليكونوا روّادًا. ويزداد عجبك حين تستعرض مؤلفاته وتتابع كفاحه في سبيل الحقيقة الموضوعية والفهم المجرّد، إنه مندفعٌ باهتمامٍ تلقائيٍّ قويٍّ مستغرق، إلى تدوين ونشر أفكاره ورؤاه عن مختلف القضايا البشريّة. فله كتابٌ ضخم عن (حضارة العرب)، وآخر عن (حضارة الهند)، وآخر عن (الحضارات الأولى)، وآخر عن (الأسس النفسية للحرب)، وآخر عن (اللاتوازن العالمي)، وكتاب (روح الثورات والثورة الفرنسية)، وكتاب (الجماعات: أفكارها ومعتقداتها)، وكتاب (روح السياسة)، وكتاب (جوامع الكلم)، وكتابٌ (حياة الحقائق)، وكتاب (سرُّ تطوّر الأمم). إنه إنتاج عميق ومتنوّع وغزير، فلا يجمع بين مجالات اهتمامه سوى أنها كلّها تهتم بالإنسان. وتحاول تشخيص طبيعته ومنبع سلوكه، والبحث عن حلول لمشاكله المزمنة...

في المقدّمة التي كتبها هاشم صالح لترجمة كتاب (سيكولوجية الجماهير)، أشار إلى أن مؤلفات لوبون زادت على الخمسين كتابًا، يضاف إليها ما لا حصر له من المقالات. وقد أوضح هاشم صالح بأنه يوجد في باريس جمعية تحمل اسم (جمعية أصدقاء غوستاف لوبون). هكذا تتكوَّن جمعيّات فكريّة وعلميّة باسمه، يلتقي فيها المعجبون به والمتابعون لاتجاهه، يعملون على نشر أفكاره والترويج لكتبه والبحث عمَّ لم يُنشر من إنتاجه...

لقد وَجَدَ الطبيب غوستاف لوبون أن اهتماماته التلقائيّة القويّة الآسرة تخطفه من مجال الطب لتضعه في قلب الهموم الإنسانيّة الكبرى، يبحث ويتأمّل ويقارن ويتوصَّل إلى أفكار ورؤى تكشف عن مفاصل الوجود الإنساني، بكلّ ما فيها من تعقيدات والتباسات وتضارب في الاتجاهات. لقد جذبته اهتماماته التلقائيّة من مهنة الطب المحصورة الرتيبة، إلى المعمعة الإنسانيّة والاجتماعيّة. لقد انطلق بكل العنفوان يبحث عن مكمن الخلل، ويتلمَّس الحلول، فتحرّك في مجالات مفتوحة لا تحدّها قيود، ولا تؤطّرها رتابة. فغوستاف لوبون لم تهدأ نفسه في عمل تخصّصي رتيب. فمثله لا يستطيع أن يبقى محصورًا بعمل مهنيٍّ مؤطّرٍ، وإنما تتوقّد بداخله اهتمامات إنسانيّة وإبداعيّة مؤرقة. فقد كان مشغولَ الذهن بالقضايا الإنسانيّة الكبرى...

إن غوستاف لوبون مفكّر موسوعي، وهو باحثٌ جاد عميق، متوثب العقل، متنوّع الاهتمامات، متجدِّد التوقد، إنه مؤسس علم نفس المجتمع ومشخِّص طبيعة الجماهير، إنه مفكّر عميق ومؤلف غزير الإنتاج ومناضل لا يهدأ من أجل الحقيقة وتنوير الإنسان...

إن لوبون هو مؤسِّس علم نفس المجتمع. فهو مؤسس علم جديد ومبتكر مفاهيم، وقد نال مكانة عالميّة عالية يستحقّها بمنتهى الجدارة، ليس في مجال الطب الذي تخصّص فيه وإنما في مجال علم الاجتماع وعلم السياسة وتاريخ الحضارات، وفي تشخيص طبيعة الجماهير، وفي تحديد أسباب التقدّم وعوامل التخلف. فهذه هي المجالات التي استحوذت عليه واستغرقت اهتمامه التلقائيّ. وكما يقول عالم الاجتماع سيرج موسكوفتشي في كتابه (عصر الجماهير): «بين عشيّة وضحاها أصبح لوبون الأستاذ الفكري لمرحلة بكاملها. وقد حافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته.. راحت تتعاقب على زيارته شخصياتُ العصر، من علميّة وفكريّة وسياسيّة، كعالم الرياضيات هنري بوانكاريه، والفيلسوف هنري بيرغسون، والشاعر بول فاليري. ثم من رجال السياسة: رئيس الجمهورية الفرنسية ريمون بوانكاريه، والرئيس الأميركي تيودور روزفلت، وكانوا يتلقّون بكلّ جدّيّة نصائحه في مجال السياسة والمجتمع. ففي ذلك الوقت راح العلم الجديد (علم نفس المجتمع)، يجذب بقوّة النخبة الديمقراطية التي وَجَدَتْ فيه الآلة المفهوميّة التي تؤكّد خوفها العميق من الجماهير، ولكن التي تقدّم لها في الوقت ذاته مجموعة من القواعد التي تساعدها على التحكم بعنف الجماهير والسيطرة عليها». لقد كان لوبون سابقًا لعصره، وكان خارق الرؤية، وعميق الفكر، وحكيمًا بدرجة غير عادية. لقد أدرك غياب التبصُّر وضآلة دور الإدراك العقلي في الشؤون البشريّة، وأبصر بعمق خارق كيف تتصرّف الكتل البشريّة بتلقائيّة عمياء....

في نهاية القرن العشرين صدر مرجعُ أوكسفورد في علم النفس السياسي في مجلدين ضخمين تحت الإشراف الرسمي للجمعية الدولية لعلم النفس السياسي، وهو: «علمٌ يُعتبَر تطبيقًا لعلم النفس البشري». وقد انتهى إلى نفس النتائج التي توصل إليها لوبون. فالإنسان كائنٌ انفعالي وليس كائنًا عقلانيًّا. ففي الفصل الذي كتبه العالم جورج ماركوس يستعرض مواقف الفلاسفة والعلماء، وينتهي بآخر منجزات علم الأعصاب الذي يؤكّد التلقائيّة الانفعالية؛ فيوضح: «إذا كان البشر مخلوقات انفعاليّة فإنهم لن

يكونوا مخلوقات عقلانيّة في الوقت نفسه»، ويضيف: «ظل فهم الانفعال محورًا أساسيًا للمحاولة المستمرة لفهم الطبيعة البشريّة. وتشير الصياغة الحديثة والأكثر تأثيرًا لهذه الرؤية أن الحضارة لا يمكن أن تطمح إلى استبدال العقل بالعواطف». ومع أن أوهام وجود عقل جوهري ثابت في الإنسان، ظلّت حاضرة في أذهان كثير من الفلاسفة. إلا أن هناك منهم من أدركوا أولوية الانفعال وسيطرته على العقل. فيقول جورج ماركوس: «رأى معظم رموز التنوير الاسكتلنديون أن العقل لا يمكن أن يكون منفصلًا عن جذوره الانفعالية. فالوضع المميّز للعقل كحَكَم مسيطِرٍ ينقلب رأسًا على عقب، ويصبح الذهن عندهم ملكة يستدعيها الانفعال الذي يأخذ دور القائد». ويضيف: «تشير هذه الصياغة إلى أن العقل يأخذ قوته وحيويته من اعتماده على الانفعال، وهي صياغة تم دعمها جيدًا من خلال الأعمال الحديثة في الفلسفة وعلم الأعصاب». ويستطرد: «وكلما زادت شدّة الانفعال قلَّتْ سيطرة العقل»، ويشرح: «أدَّتْ إعادة نظر عظمى إلى صياغات جديدة أنشأتْ فئات جديدة. فقد بزغت الاهتمامات والآراء كفئات جديدة من الانفعال»، ويستنتج: «إن النتائج التي ظهرت حديثًا والمشتقّة من علم الأعصاب تتحدّى كثيرًا مما اعتقدنا أننا نعرفه عن الانفعال والعقل». ثم يوضح أن هذه الأولوية للانفعال تعتمد على أساس بيولوجي: «يوجد حاليًا اتفاق على بعض الخصائص المشتركة بين كل هذه الأنساق: أوّلًا تَصِل أنظمةُ الانفعال إلى المسار الحسّي قبل أن تستطيع الأنظمةُ المخّيّة التي تولّد الدّراية الواعية بالأفعال أن تُكمل عملها، بالإضافة إلى أن أنظمة الانفعال توفّر إدراكات تستثير بدورها الأفعال الانفعاليّة والمعرفيّة والسلوكيّة. بالإضافة إلى ذلك، فإن أنظمة الإدراك هذه تنتبه للمسار الحسّي بأكمله، بينما لا ينتبه الوعي إلا لعَيِّنَةٍ صغيرة جدًّا ومنتقاة فحسب». هكذا تتجلّى تلقائيّة الإنسان بشكل لا لبس فيه. لقد اكتشف ذلك غوستاف لوبون قبل أن تتضافر كل هذه المعطيات العلميّة التي تؤكّد أن الإنسان كائنٌ انفعالي، أي إنه كائنٌ تلقائيّ...

فالذي يرغب في تكوين صورة عامة موجزة عن غوستاف لوبون سوف يجدها في الدراسة الكثيفة التي كَتَبَها المثقف هاشم صالح عنه. فهي دراسة مركّزة مختصرة شاملة في ثلاثين صفحة جاءت كمقدمة لترجمته لكتاب (علم نفس الجماهير)، الذي ترجمه بعنوان (سيكولوجية الجماهير). إنها دراسة تستحقّ أن يعاد إليها...

يقول المفكر جورج طرابيشي: «أصدر المؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون دراسةً كان لها وقْعٌ كبير في عالَمي السياسة والعلم جَعَلَ عنوانها (علم نفس الجماهير). وقد كانت هذه الدراسة هي الأولى في نوعها إذ كان علم النفس يقتصر حتى ذلك الحين على الفرد والنفسية الفردية». وهنا لا بد من التدارك على وصفه بأنه مؤرّخ، فمؤلفاته الضخمة عن الحضارات ليست من حقل التاريخ وإنما هي دراسات فكرية تستكشف الأعماق، ولا تهتم بالحوادث إلا بقدر دلالاتها العامة، كتأصيل قاعدة، أو تأكيد عامل من عوامل التقدّم، أو التخلف يتجاوز الحالة إلى التعميم. فهذه المؤلّفات تدخُل في حقل فلسفة التاريخ، وفي حقل فلسفة الحضارة، وفي حقل الفلسفة الاجتماعيّة. إنه لم يتّجه لدراسة الحضارات كمؤرخ، وإنما استغرق في دراستها كمفكّرٍ وعالم اجتماع، وفيلسوف. إنه يبحث عن المسارات النموذجية التي تُحدّد روح كل أمّة، وتُبرز اهتمامها المحوري الذي يستغرق نشاطها وتتميّز به عن غيرها، أو المسارات المشتركة التي يمكن العثور عليها عند مختلف الأمم...

والمهم أن لوبون قد أنجز دراسات فكريّة وعلميّة تأسيسيّة في مجالات مختلفة كل الاختلاف عن تخصّصه الدراسي. وكما يقول طرابيشي عن واحد من كتبه: «وقد مثَّلَتْ دراسة لوبون فتحًا علميًّا حقيقيًّا، فقد أعيد طبعها عشرات المرات، واعتُمدت في الجامعات كمرجع للتدريس. وقد انعقد لمؤلّفها بعد ترجمتها إلى عشرات اللغات شهرة عالمية». هكذا لم تكن إنجازات غوستاف لوبون في الطبّ الذي دَرَسَه، وإنما جاءت إنجازاته في مجالات مختلفة ومتنوّعة دفعته إليها بقوة آسرة اهتماماته التلقائيّة القوية. وهو بذلك لا يمثّل حالة إبداعيّة استثنائية، وإنما كل الإبداعات تأتي خرقًا للتأطير وتجاوزًا للسائد، أو ثورة على الفكر المهيمن. فالاجترار هو الأصل على المستويين الاجتماعي والثقافي العام. أما الإبداع في كل المجالات فهو الاستثناء الفردي، أو هو الثورة الريادية الفرديّة على التحجّر والاجترار...

إن لوبون في آلاف الصفحات التي كتبها، وعشرات الكتب التي أنجزها يكرّر القول بأن: «الأوهام هي أساس أكثر حوادث الماضي العظيمة»، وبأن تنازع الأمم هو: «تنازع الأوهام». ويعيد التذكير المرَّة تلو الأخرى بأنه منذ آلاف السنين وبضعة أفراد من أمثال بوذا: «يُمْلُون من قبورهم تعاليمهم على ملايين كثيرة من البشر، وفي سبيلهم تنازعت

الشعوب بعنف». إن مئات الملايين من الناس خلال آلاف السنين اقتتلوا، وما زالوا يقتتلون، بسبب اختلاف المرجعيات وتنوّع الأوهام. وقد حان الوقت لتحرير العقل البشري من أوهام الثقافات، واستبدال هذه الأوهام بحقائق العلم عن الإنسان والكون والمجتمع، وإحلال الحب محل البغضاء، والوئام محل الخصام، والتعايش بدل التجارب...

إن الناس لا تحرّكهم معلومات قرأوها اضطرارًا، وإنما تحركهم تلقائيًّا وبقوّة تصوّراتٌ وعقائدُ تتحكَّم بعقولهم وتشتعل بها عواطفهم؛ وكما يقول لوبون: «ما أحرق أهلُ القرون الوسطى الألوفَ من الناس إلا للدفاع عن معتقد عام موجود، أو لإدخال معتقدٍ عامٍّ جديد في النفوس.. وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها، وما ماتت الملايين في ساحات الوغى إلا بسببها، وكذلك يكون في مستقبل الأيام». وإذا كان نيتشه يرى أن الإنسان الحالي ما هو إلا التمهيد الفج، الأحمق، الكليل، الأخرق، البليد للإنسان السوبرمان الذي ستنتهي إليه الإنسانيّة بعد أن تتحرّر من الانقياد التلقائيّ البليد للعقائد التي تبرمجتْ بها تلقائيًّا، فإن غوستاف لوبون يرى أن الحمق العام والاندفاع البليد للناس هو السلوك الذي ميَّز تاريخ الإنسان في ماضيه وحاضره، وأن هذا الحمق سوف يستمر ملازمًا للإنسان في مستقبله. إن لوبون يائس من قدرة الإنسان على التعقّل، فهو مؤمنٌ بأن طبيعة الإنسان التلقائيّة تستبقيه قطرةً في بحر الحمق العام المستحكم. فالمعتقدات التي تجري بين الناس جريان الدم، وتسري فيهم سريان الحياة، لا تترك أي منفذ للضوء، ولا أيَّ احتمال من احتمالات الإفاقة إلا في حالات فرديّة استثنائيّة نادرة...

يشير عالم الاقتصاد جوزيف شومبيتر في كتابه (الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية) إلى ريادة غوستاف لوبون في كشف قابليّة الجماهير للإغواء والهياج الغوغائي، حيث يندفعون من غير تعقّل. ثم يوضح أن هذا الاستحواذ المدمّر ليس محصورًا بفئة من دون أخرى، وإنما يشمل كل اجتماع، حيث ينخفض مستوى التفكير، بل إنه لا يلزم التجمُّع لحصول التأثير، بل يتمُّ التأثير بواسطة وسائل التواصل والنشر والإعلام؛ فيوضح: «إن ظواهر سيكولوجية الجمهور ليست محصورة بالغوغاء التي تقوم بأعمال شغب. فكل برلمان، وكل لجنة وكل مجلس حربي يعرض بعض

تلك السمات، التي تبرز بصورة فاقعة في حالة الغوغاء، وبخاصّة انحدار الشعور بالمسؤولية، وانخفاض مستوى القدرة على التفكير، وتعاظُم الحساسية للتأثيرات اللامنطقية. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الظواهر غير محصورة بجمهور بمعنى التكتّل الفيزيائي لكثير من البشر. فقرّاء الصحف والمستمعون للراديو وأعضاء الحزب حتى لو لم يكونوا مجتمعين معًا يسْهُل إدخالهم في الجمهور السيكولوجي (ودمجهم) في حالة الجنون الموقت تثير فيها محاولة المناقشة العقليّة الروح الحيوانيّة». فإذا كان التجمُّع في برلمان أو لجنة ينخفض به مستوى التفكير للكبار الراشدين، الذين يجتمعون كأنداد؛ فكيف تكون حالة تفكير الدارسين الذين يُمضون ثلث أعمارهم محكومين خاضعين منصتين يتعاقب عليهم الملَقِّنون؟؟

إن الناس في نظر لوبون، وكما هو الواقع فعلًا، لا يتلقّون المعتقدات بالتعليم والتعلُّم، وإنما تنغرس فيهم انغراسًا تلقائيًّا من البيئة تتشرَّبها نفوسهم، وتتقولب بها بنياتهم الذهنيّة والوجدانيّة تَقَولُبًا مغلقًا، ثم يصبح في غاية الصعوبة تحريرهم مما تطبَّعَتْ به نفوسهم، وهي صعوبةٌ تكاد تبلغ حدَّ الاستحالة. وكما يؤكّد لوبون، إنه من الصعب غرس معتقد جديد في أي مجتمع، لكن ما إن ينغرس المعتقد، ويتمكّن من النفوس حتى تستميت هذه النفوس في الدفاع عنه، وتأكيد التمسك به والتعامل معه وكأنه سرُّ الوجود وحقيقة الحقائق...

وليس هذا التماهي مع المعتقد والذوبان فيه والعمى المطلق عن سواءته محصورًا بالقطيع من الناس، بل إن المعتقدات تستولي على قيادات الفكر والفعل، وتُعمي أشد الناس ذكاءً؛ وهذا يؤكّد ضآلة دور التعليم التقليدي في تصحيح المفاهيم، وتغيير التصورات، بل كما يقول لوبون: «لم يَجُل بخاطر أعظم الرجال عقلًا وإدراكًا.. إنه يجوز النظر في حقيقة هذه الأفكار.. ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامّة وسحرها في النفوس، ولكنه يبرهن أيضًا على أن العقل محدود بحدود مخجلة». إن الواقع البشري في كل المجتمعات في الماضي والحاضر يؤكّد صحة ما انتهى إليه لوبون، لكنني أعتقد بأن الإنسانيّة سوف تفيق من هذا الكابوس الفظيع ثم تَثِبُ وثبةً عظيمة ظافرة تخرج بها من أسر التاريخ، وتنتقل إلى طور جديد من أطوار التطوّر الحضاري والتآخي الإنساني...

إن لوبون يرى أن تُرَّهات المعتقدات محميّة بالتآلف والتعوّد، ومحتجبة بالقداسة عن فطنة الذكاء. فقد دل التاريخ على أن أعظم الناس ذكاءً يبقون مغتبطين بمعتقداتهم مهما كانت خرافيّة، فيتوهّمون عن اقتناع تام بأنها تمثل العقلَ، كلَّ العقل، في صحوه وفاعليته ونقائه. إن هذا الاقتناع العميق التلقائيّ هو أخطر ما واجهته الإنسانيّة في الماضي، وأفظع ما تواجهه في الحاضر والمستقبل...

إن الناس حين يتحدّثون عن العقل يغفلون غالبًا عن حقيقة أنه لا يوجد عقلٌ بشري جوهري عام وثابت، وإنما تتعدّد أنواع العقول وتتنوّع أنماط التفكير بتعدّد وتنوّع الثقافات، بل أيضًا بتعدّد الأفراد. فلا يوجد اثنان يتشابهان تشابهًا كاملًا في تفكيرهما وقيمهما. فلا بد أن يعي كل الناس هذه الحقيقة البشريّة الكبرى، فيدركون أن لكل مجتمع عقلًا خاصًا به، ولكل فردٍ بنية ذهنيّة ووجدانيّة تختلف عن بنيات كلّ الآخرين. فليس العقل سوى المعايير السائدة، وليس عقل الفرد سوى ما تلقّته قابليّاته، وتبرمجت به. فلكل مجتمع معايير خاصّة يقاس بها العقل، ولكلّ فرد عقل يختلف به عن غيره؛ لذلك تغيب إمكانات اكتشاف الأوهام والحماقات والأخطاء الكبرى السائدة في أي مجتمع. فهي في نظر المتبرمجين بها ليست أوهامًا وأخطاء وحماقات، وإنما هي عين الحقّ، وكمال الصواب، وذروة العقل. فالمعقول في أي ثقافة يختلف عن المعقول في الثقافات المغايرة، ولا يوجد معقولات عامّة مشتركة بين كلّ الأمم، وكلّ البشر سوى المعقولات العلميّة، لكنها لا تعمل في الكيانات الثقافيّة، وإنما هي معرفة خاصّة ينحصر عملها في المختبرات، ومراكز البحث. حتى الباحث العلمي إذا خرج من المختبر، أو مركز البحث، صار واحدًا من الناس، تتحكّم به البرمجة الثقافيّة التي تشبّع بها تلقائيًّا...

لذلك فإن لوبون يؤمن بضآلة دور العقل البصير في حياة الجماعات والشعوب والأمم. فعقول الأفراد في أي مجتمع قد صاغتها معتقداته، وهي مصونة ومحتجبة عن فطنة العقل الناقد، المتشكك، الفاحص لأن المعتقدات تتلبّس العقل، وتحدِّد معاييره وطريقة تفكيره، ومنظومة اهماماته، ومناط أحكامه. فهو لا ينظر إلى الأمور إلا من خلالها. أما الإفلات من هذا الذوبان التلقائيّ فهو من الحالات الاستثنائيّة التي لا تَظهر في البشر إلا نادرًا. حتى جبابرة العقول ظلّت خلال القرون تقف خاشعة أمام الأصنام، وتتوالى العصور، ويمر أهل الذكاء الخارق من غير أن يفطنوا لما يعيشونه من أوهام وأخطاء وحماقات...

إن الناس من كل الأجيال في كلّ الأمم، بمن فيهم الأذكياء، يتوارثون تلقائيًّا أوهام الأسلاف. وبهذا التوارث التلقائيّ تتكوَّن العقول، وتتشكّل العواطف والولاءات والعقائد والاهتمامات ومعايير الاستحسان، أو الاستهجان، وأسباب القبول أو الرفض؛ وكما يقول لوبون: «إن الأمم مدفوعة بقوّة خفيّة مثل التي تجعل ثمرة البلوط شجرة كأمِّها.. إن التاريخ يتكوّن من حوادث غير معقولة نهائيًّا.. إذًا لندَع العقلَ ولا نطلبنَّ منه أن يتدخّل كثيرًا في حكم الأمم. فقد كان أصحاب العقول كثيرين في القرون الوسطى، ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجّة، وأرشده الدليل إلى ما كان في الأوهام التي استولت على قلبه من السخف والشطط». ولكنَّ هذه الحقيقة الحاسمة التي تتحكَّم تلقائيًّا بكلّ الأمم وكل الأفراد، ما زالت غير معروفة ولا مفهومة، ولم توضع موضع المناقشات العامّة بل بقيت محصورة ضمن فئة قليلة من الباحثين والدارسين. ورغم صعوبة إدراك مثل هذه المفاهيم الكلّيّة المجرّدة على عامّة الناس، فإنها لو وُضعتْ موضع النقاش العلمي الكاشف، بتكرار وشرح وإلحاح، فإنها مع طول الطَّرْق قد تؤثّر حتى في عامة الناس. إننا الآن نجد كل أمّة تستنفد وقت التعليم وطاقته في تكريس معتقداتها، بدلاً من أن تحاول تخفيف غلواء وعنف وانغلاق هذه المعتقدات. إنهم يواصلون تأكيدها وترسيخها وإشعالها مع أنها شديدة العمق والاستحواذ تلقائيًّا، وليست بحاجة إلى هذا التكريس المركّز الكثيف، فهي مهيمنة تلقائيًّا بمنتهى القوة والرسوخ والاستحواذ.. والأخطر من ذلك أنها تحتمي عن فطنة الذكاء، وتحتجب عن أضواء العقل الفاحص، ومع ذلك تواصل الأمم ترسيخ معتقداتها وشَحْن أبنائها بكل ما فيها من إعاقات ذهنية ووجدانيّة وأخلاقيّة وسلوكيّة. وقد آن أوان التوقّف الفاحص أمام هذه المعضلة البشريّة العامّة الكبرى، وإجراء مراجعة شاملة على المستوى الإنساني كلّه من أجل تحرير العقل البشري من أسر التاريخ وإطلاق طاقات التعقّل والرُّشْد والتآخي الإنساني...

إن الذين يتوهّمون أن التعليم بطرقه التقليدية ومناهجه وخليطه وأساليبه المعتادة، يؤدّي تلقائيًّا إلى التغيير والازدهار، لم يدرسوا تاريخ الحضارات ولم يتعرَّفوا على العوامل المحرِّكة للأفراد والمجتمعات. وكما يقول لوبون: «لا ريب في أن العوامل المسيِّرة للأمّة كثيرة التعقيد، ومنها العوامل الطبيعيّة والعوامل الاقتصاديّة والعوامل

التاريخية والعوامل السياسيّة... إلخ.. فهذه العوامل تُعَيِّن وجهة أفكارنا وانتماء سيرنا، أي إنها تتحوّل إلى عوامل فكريّة من حيث النتيجة»، وهو يعني بذلك أن العامل المحرِّك لا بد أن يكون تلقائيًّا. فالعامل المحرّك يتبرمج به المجتمع فيتحوّل إلى معتَقَد. ففاعليّة الأفكار والتصوّرات تأتي من تحولها إلى معتقدات جازمة، محرِّكة، مستغرقة، تلقائيّة لا شعورية...

إن التاريخ المديد والواقع المشحون بالثقافات المتباينة، كلاهما يؤكّد بأن الأمم تتناسل ثقافيًّا، وبأن لكل أمّة عقلٌ يختلف عن عقول الأمم الأخرى، وأن تبادل التصوّرات بين الثقافات المتمايزة يكاد يكون محالًا لأن كل ثقافة هي كائنٌ حيٌّ شديد التعقيد. فهي تملك جهازًا مناعيًّا طاردًا تلقائيًّا لأي فكر مغاير. فأيّ أفكار تنتقل من أمّة إلى أخرى، فإنها تتحوَّر تحوُّرًا نوعيًّا، فلا تهضمها الثقافة الناقلة إلا بعد تغييرها بما يتلاءم مع طبيعتها بطريقة تشبه الطريقة التي يهضم بها الجهاز الهضمي مختلف الأغذية.. لذلك، فإن العلم ضئيل التأثير في البنيات الذهنية المتشكِّلة. أما التعليم، فإنه إذا اعتمد تعبئة الذاكرة وترسيخ المعتقدات، فإنه قد يضرّ أكثر مما ينفع. إن التعليم يكرّس الواقع ولا يغيّره، أما حركة التاريخ فمدفوعة بالحوادث النفسية وليس بالمعارف العلميّة. إن الأمم والشعوب وكل المختلفين يحرّكهم تنازع المعتقدات وليس اختلاف المعلومات؛ هكذا يؤكّد لوبون...

لا يملّ لوبون من تأكيد أن الناس تحرّكهم عقائدهم وليست معلوماتهم؛ ويقول: «.. الاعتقاد فعَّال.. الاعتقاد يبعث على العمل، سواء بُني على الخيال أو على الحقيقة.. والإنسان الذي لا عقيدة له كالسفينة التي لا دفَّة لها، إنه آلة بلا محرك». ويضيف: «إذا رسَخَ الاعتقاد بعث إلى العمل وإن كان اعتقادًا باطلًا أو مستحيلًا.. فأعظم نزعات الشجاعة كانت لقوم لم يفكّروا إلا قليلًا». إن كل الأمم تمجِّد الشجاعة مع أنها منافية للعقل، فالذي يدفع بنفسه إلى مواطن الموت لم يفعل ذلك بصفاء عقله وإنما فَعَلَه بانفعال عواطفه وغياب التعقُّل عنه.. لذلك، يجب تحويل المسار وتمجيد شجاعة الإحياء بدلًا من تمجيد شجاعة القتل. إن الإنسان تحرّكه عواطفه وليس عقله. فيجب أن نغيِّر اتجاه العواطف ليصير اهتمامها ببناء الحياة وليس في إزهاقها، وفي قدرة التآخي وليس في قدرة التقاتُل...

إن العقل تابعٌ للوجدان ومحكومٌ بالعواطف وليس حاكمًا لها، إنه أداة بيدها، فهي تستخدمه فيطيعها تلقائيًا لكنها لا تطيعه وكما يشرح لوبون: «يسير التاريخ بعيدًا عن المعقول.. وقد يجري على نقيضه.. كلُّ جيلٍ يتناول حياته العقلية من الأجيال التي سبقته، فمعظم نسيج المستقبل من سدى الحاضر.. الأثر الغالب في التاريخ آتٍ من المشاعر والدين، وقلَّما جاء من المعقول. فمحرّك التاريخ الحقيقي هو اللامعقول». إن كل جيلٍ في أي مجتمع يتطبّع بما ورثه تلقائيًا من أفكار وتصوّرات وعقائد ومعايير عن الجيل الذي قبله. ولم يسبق أن وقَفَ جيلٌ من الأجيال في أي مجتمع ليعيد صناعة عقله ووجدانه وعقائده وقيمه واهتماماته، وإنما هو محكومٌ بتناسل ثقافي حتمي صارم. وقد لاحظ ذلك غوستاف لوبون، فتجلّت أمامه هذه الحقيقة بوضوح شديد. لكن هذا الوضوح العجيب الباهر عند لوبون ما زال بعيدًا كل البُعد عن أذهان الناس في كلّ مكان. فما زالت المؤسّسات التربوية تعمل بمعزل عن إدراك البُنى الذهنيّة والوجدانيذة المستحكمة التي يتعاملون معها. إنهم ما زالوا غافلين عن التحكُّم العقائدي بالأفراد والأمم. إن هذه المؤسّسات تتوهّم أنها بهذا التعليم القسري، وبهذا التعلُّم الاضطراري تستطيع تغيير البُنى الذهنيّة، رغم أن النتائج تؤكّد العكس حيث يبقى التحكُّم للبرمجة التأسيسيّة العقائديّة السابقة لأي تعليم مقصود...

إن لوبون لا يكتفي بتأكيد عجز التعليم عن التأثير في البُنى الذهنيّة المتشكّلة، وتكرار الجزم بضآلة دوره في التنوير، بل إنه يتجاوز ذلك إلى تأكيد ضرر التعليم. فينشر في كتابه (روح السياسة): «إن تربيةً لا تناسب احتياجات الشعب تُفسد مزاجه النفسي. ويستطرد ليؤكّد بأن التعليم يُخرِّج ذوي الهذر والثرثرة همُّهم تكرار ما قرأوه من الملخّصات التعليميّة. إنه بحسب قوله شيءٌ موجبٌ للغم والحزن، وما من شك بأن نتائج التعليم في العالم العربي تشهد لذلك بوضوح...

يؤكّد لوبون أن قوالب التنشئة التلقائيّة هي ذات الفاعليّة الحاسمة والمستمرة في تفكير الإنسان وولاءاته وسلوكه واهتماماته ومنظومة قيمه ومصيره. ويرى أن التعليم ليس تربية وإنما هو حفظٌ اضطراري لمعلومات يجري نسيانها بسرعة، وليس لها تأثير على ميول الإنسان واهتماماته التلقائيّة: «التعليم يُغني الحافظة، وأما التربية فإنها تولّد في الإنسان ميولاً نافعة، وتمكّنه من قمع الميول الفاسدة». من السهل تعليم الناس،

لكنَّ ذلك قليل النفع. لكنْ من الصعب تربيتهم، فالتربية بخلاف التعليم تعني تكوين البنية الذهنية تلقائيًّا لينساب منها السلوك تلقائيًّا؛ فيوضح: «يكفيك بضع سنين لتعليم إنسان من الهمج، ولكنّك قد تحتاج إلى قرون لتربيته». فالبنيات الذهنيّة للأمم قد تكوَّنت خلال قرون، فلا يمكن تغييرها إلا بالتقويض المتواتر خلال قرون. فتغيير ثقافة العصور الوسطى في أوروبا استغرق قرونًا، وما زالت تلك الثقافة قابلة بأن تطفو على السطح لأيّ إثارة كافية...

ويستطرد لوبون: «التعليم الذي لا يناسب حالة المتعلم يُضعف الذكاء وينحطُّ به الخُلُق والآداب»، ويضيف: «لا يستفيد من المعارف العالية إلا أهل العقول السامية»، ويكمل: «التعليم إما أن يربّي الحافظة أو مَلَكَة النظر.. ويتخرّج من الأول أهل اللسن، وعن الثاني أهل الجدّ والعمل»؛ ويتابع: «استقر التعليم بالاستظهار في الأمم اللاتينية، فصار علّة كبيرة في ضعفها لأن نتيجته تفويض الوظائف الكبرى إلى أناس هم غالبًا من ذوي الكفاءة المنحطة». وفي مناسبة أخرى يكرّر القول بأن المتخرجين من الجامعات يجيدون الهذر والثرثرة، لكنهم لا يجيدون الفعل، ولا يحسنون العمل لأن مهارات الأداء لا تُكتسب إلا بالممارسة الجياشة والتكرار الحي.. بهذا تتكوَّن عادةٌ راسخة فتنساب منها المهارة انسيابًا تلقائيًّا...

إن لوبون يكرّر التنبيه والتذكير بحقيقة بشرية عامة أساسية، وهي أن العقائد المتكوِّنه تلقائيًّا لا تؤثّر فيها حقائق العلوم الممحّصة لأنها من نوع مختلف نوعيًّا، وهي حقيقة أساسيّة يجب أن يعيها كل الناس لكي يفيقوا مما هم فيه من غيبوبة عقليّة عامّة ماحقة؛ فيقول: «.. فالعقل والبرهان اللذان يفيدان في إثبات القضايا العلميّة لا يؤثران إلا قليلاً في معتقداتنا. فالناس لا يُسَلِّمون بالآراء لصحّتها، بل يُسَلِّمون بها عندما تستولي بفعل التكرار والعدوى الفكريّة على دائرة اللاشعور التي هي علّة الحركة فينا». إن هذا الواقع البشري المخيف قد أدركه مفكّرون آخرون. فالفيلسوف العظيم جون ستيوارت ميل يؤكّد المعنى نفسه؛ فيكتب في كتابه (استعباد النساء): «فما دامت فكرةٌ متأصِّلةُ الجذور في مشاعر الناس فإن قوة الحجّة ضدها تزيدها رسوخًا بدلًا من أن تزعزعها.. ذلك لأن الناس عندما يَقبلون فكرةً ما بناء على حجج معيّنة فإن دحض هذه الحجج يهزُّ أسس الاعتقاد. أما عندما يَقبلون الفكرةَ بناءً على المشاعر وحدها، فإنه كلما قويت

الحجّة ضد هذه المشاعر زاد اقتناع أنصارها بأن مشاعرهم لا بد أن تكون أعمق غورًا من أن تصل إليها هذه الحجج. وطالما ظلّت هذه المشاعر باقية فإنها تقوم باستمرار بتعزيز دفاعاتها، وإصلاح ما انهار من حججها القديمة». إن حقائق العلم لا تؤثّر في البنيات الذهنيّة والوجدانيّة التي تكوَّنَتْ تلقائيًّا. وينبغي ألا نستغرب حين نجد طبيبًا يؤسّس منظّمة جهادية ومهندسًا يتحوّل إلى واعظ. فالناس تحرّكهم العقائد العميقة في نفوسهم. أما المعلومات فينحصر استخدامها في المجالات المهنيّة والعمليّة. فالإنسان كائنٌ عقائدي يتبرمج تلقائيًّا بقوالب البيئة. ثم يبقى مغتبطًا بهذه القوالب مهما كان نوعها واتجاهها، ومهما كانت نتائجها. فالإنسان ليس كائنًا عقلانيًّا وإنما هو كائنٌ عاطفيٌّ عقائديٌّ...

إن الدماغ البشري يعمل كما يعمل الكمبيوتر تقريبًا. فهو لا يتعامل مع أية معلومة منفصلة عن نماذجه المستقرّة، وإنما يتعامل تلقائيًّا مع أيّ معلومة طارئة وفق التبرمُج السابق. فإذا أريد تغيير الفرد فإن ذلك لا يتحقّق بإعطائه معلومات مهما كانت صحيحة وكثيفة ومتنوّعة، بل لا بد من تغيير برمجته بما يراد له أن يتّجه إليه. فالدماغ البشريّ محكومٌ بالبرمجة العامّة وليس بمعلومات مفردة. ومن هنا جاءت ضآلة نتائج التعليم التقليدي، وللسبب نفسه لا تؤثّر العلوم على العقائد المستقرّة...

وحتى المعلومات التي لا يراد بها تغيير طريقة تفكيره وقيمه، وإنما تراد من أجل التأهيل المهني لا تؤثر فيه إذا جاءته على شكل معلومات مقروءة ومجرّدة، بل إنه لا يتعلّم إلا حين تتفاعل المعلومة مع الأداء. إن لوبون ينتبه ويُنبِّه إلى نقطة أساسية في التعليم، فهو يرى بحق أن حشر الدارسين وإلزامهم بقراءة المقرّرات المدرسية بعيدًا عن معترك الحياة هو ضياع للأعمار والطاقات والأموال. وهو يؤكّد أن هذا النمط من التعليم يربي على الترديد الببغائي، ثم يضيف: «.. فالحكم الصائب والتجربة وحسُّ المبادرة والطبع القوّي تُشَكِّل شروطًا للنجاح في الحياة ولا يمكننا أن نجدها في الكتب». ويستشهد على ذلك بنصوص للعالم الأديب هيبوليت تين الذي يقول: «إن الأفكار لا تتشكَّل إلا في وسطها الطبيعي والعادي.. والشيء الذي يُنبت براعمها هو الانطباعات الحسّيّة العديدة جدًّا، والتي يتلقّاها الصبي كل يوم في المشغل، أو في المنجم، أو في المحكمة، أو في الورشة أو في مجموعة الآلات». إن المعلومات لا

تتحوّل إلى معرفة إلا بالتزاوج بين الفكر والفعل. أما المعلومات المجرّدة المعزولة عن مادتها فإنها تبقى غالبًا غير مفهومة، وإنما يتم حفظها من غير فهم إلى حين إفراغها على أوراق الامتحانات، ثم تنمحي من الذاكرة بسرعة. ولذلك، فإن عزل الدارسين عن معترك الحياة يحرمهم من الفهم الصحيح للمعارف، كما يحرمهم من النضج الطبيعي الذي لا يمكن أن يتحقّق إلا بالتعلُّم من مواجهة المشكلات مواجهة مباشرة...

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن تقييم التعليم وما يُنتجه من تخصّصات في مختلف المجالات يجب أن ينطلق من البداهات المعروفة. وهي أن كل مجتمع يستهدف من التعليم توطيد الأوضاع القائمة وليس زعزعتها. لذلك، فإن فلاسفة التاريخ وفلاسفة الاجتماع حين يستعرضون عوامل التغيير ومحرِّكات التقدّم في المجتمعات التقليدية يستبعدون فاعليّة التعليم. فهو بكلّ تخصصاته أداة من أدوات السلطة الثقافيّة والسياسيّة في أي مجتمع غير ديمقراطي، إنه أداة عامّة لترسيخ الاستقرار وتزكية السائد وليس العكس. فما من سلطة ثقافيّة، أو سياسيّة تقليدية تسعى إلى تغيير نمط التفكير من الإنغلاق إلى الانفتاح، لأنه مع تغيُّر التفكير تتغيَّر الرؤى والاهتمامات والقيم، وحتى لو سعتْ السلطة لانتزاع المجتمع من عقائده، التي ترسخت خلال قرون، فإنها لن تستطيع. فالشيوعيون في الاتحاد السوفياتي وغيره اتخذوا كل الوسائل خلال سبعين عامًا لتغيير عقائد وموروثات وطرائق تفكير الشعوب التي حكموها، ولكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا. كما أن الصين عاشت سنوات رهيبة خلال فترة الثورة الثقافيّة في عهد ماوتسي تونغ. لكنّ العقائد التي رسخت خلال القرون بقيت صامدة أمام ذلك الإرهاب الفظيع. فالأمم معجونة في تراثها ومُبَرْمَجَة في عقائدها، فالذهنيات بنيات وكيانات محصَّنة لا تنفتح إلا في حالات نادرة على مستوى فردي فقط، حيث تنفتح البنية الذهنيّة لأحد الأفراد بتأثير صدمة فكريّة مزلزلة. أما على المستوى الاجتماعي، فإن التغيير لا يمكن أن يتمَّ قصدًا خلال جيل، أو جيلين؛ وإنما يحصل ببطء شديد قد يستغرق قرونًا. ولقد بات صمود الثقافات أمام عوامل التغيير إحدى حقائق الوجود الإنساني. فكل عمل تنموي أو تعليمي، أو إعلامي، أو تربوي لا يأخذ باعتباره هذه الحقيقة البشريّة الأساسيّة فهو جُهدٌ ضائع وسوف يُمنى بالفشل...

إن لوبون في كتابه (روح السياسة)، وفي كتابه (علم نفس الجماهير)، وفي غيرهما،

يكرّر التأكيد بأن الإنسان ليس عقلانيًّا، وأن العواطف والمشاعر هي التي تحرّكه: «إن العقل والبرهان يفيدان في إثبات القضايا العلميّة»؛ لكنَّ: «الناس لا يسلّمون بالآراء لصحتها، بل يسلّمون بها عندما تستولي على دائرة اللاشعور، التي هي علةَ السَّير فينا». فالناس يتحرّكون ويتصرّفون ويندفعون وربما يُضَحُّون بحياتهم فداء لتصوّرات ومعتقدات قد تبرمجوا بها تلقائيًّا مهما كان مضمونها منافيًا للحقائق وللعلم، فهي تتدفّق من اللاشعور. وليس للتعليم ولا للحقائق ولا للعقل الناقد أيّ دور في مثل هذه الاندفاعات التلقائيّة التي تتحكَّم بحياة الأفراد والجماهير...

يكرّر لوبون القول بأن العقل الناقد هو قوام العلم والمعارف فقط، ولكن العلوم ضئيلة التأثير في نفوس الناس: «وإنما المشاعر والمعتقدات هي التي تقود الناس وتكوِّن التاريخ». إن حوادث التاريخ وحقائق الواقع ومشاهد الصراعات تؤكّد ذلك تمام التأكيد...

إن كلَّ الأمم تتوارث تلقائيًّا بنيات ذهنية مستحكمة الإغلاق، وصلدة ومصمتة. فكلّ أمة يتبرمج أفرادها تلقائيًّا في طفولتهم بتصوّرات، ومنظومة قيم، واهتمامات محوريّة عامّة، وطريقة تفكير لا يمكن تغييرها قسرًا. فالتغيير الوحيد الممكن للبنية الذهنيّة هو التغيير الذي ينبعث من داخل ذات فرديّة حين يتعرّض شخصٌ لصدمة فكريّة قويّة تزلزل بنيته الذهنيّة، كما حصل لكانط حين قرأ فكر هيوم وفكر روسو، فاستيقظ من سباته القطعي يقظةً عارمةً. فقد أوقفته هذه الصدمة المزلزلة ودفعته إلى المراجعة الشاملة، واكتشف أن العقل الفردي مهما بلغ ذكاؤه يبقى مغتبطًا بما تبرمج به، إلى أن يستيقظ من سباته الذهني والوجداني التلقائيّ. وقد انتهى كانط بعد تلك الصدمة وما تلاها من مراجعة شاملة لمحتوى ذهنه ووجدانه بأن صار أكبر فيلسوف على المستوى الإنساني. إن اليقظة المفاجئة لكانط تحمل دلالات عميقة. فلنفرض أنه لم يقرأ هيوم، ولم يقرأ روسو؟! إنه في الغالب سيبقى في سباته. وإذا كانت هذه حالة عبقري مثل كانط، فإن احتمال يقظة فرد من عامّة الناس هو احتمالٌ ضئيل غاية الضآلة؛ ثم إن هذه الحالة تؤكّد أن الذكاء، أو حتى العبقرية ليست كافيه للإفاقة من غيبوبة البرمجة التلقائيّة. إن كانط بقي وثوقيًّا أثناء المراحل الدراسيّة، واستمر وثوقيًّا بعد تخرُّجه من الجامعة حتى صُدم صدمةً فكرية قوية أيقظته من سُباته. لقد حَصَل هذا السُّبات واستمر حتى جاءت الإفاقة

بتأثير صدمة موقظة رغم أنه إنسانٌ عبقري. وهذا يؤكّد أنه لا يقظة إلا بصدمة مهما بلغ الإنسان من الذكاء. كما أن هذا أيضًا يؤكّد أن الصدمات لا تؤثّر في عامّة الناس. فتاريخ الفكر يشهد بأن الصدمات لا تؤثّر إلا في الأفراد النابهين، وبشكل نادر جدًّا. فالرواد والمبدعون الذين تنكسر عنهم أطواق النسق المهيمن هم قلّة في كل الأمم وعلى امتداد التاريخ، أما على مستوى المجتمع ككلّ، فإن التأثير لا يأتي إلا بالتشرّب التلقائيّ البطيء مهما كانت قوة المؤثرات...

ويضاف إلى ذلك أيضًا أن التعليم في كل المجتمعات هو لتوطيد وتأكيد وتعزيز وتنمية الاتجاه السائد وليس ضده. فهو يكرّس التخلّف في المجتمعات التقليدية المتخلّفة ذات الثقافات المغلقة. أما في المجتمعات المزدهرة ذات الثقافات المفتوحة، فإن التعليم ينمّي ويعزز اتجاه التقدّم. فالتعليم يواصل ترسيخ برمجة الطفولة، وتزكية الثقافة السائدة، وتعزيز التنمية في الاتجاه القائم، سواء نحو المزيد من التقدّم، أو بالعكس نحو المزيد من التقهقر. هكذا تُفضي فلسفات التاريخ وفلسفات الاجتماع وكذلك يفعل غوستاف لوبون. فمن نصوص كثيرة نستخلص بوضوح أنه يرى أن التعليم لا يصنع التغيير، وإنما يكرّس الواقع. فكلّ أمّة محكومة بنمط ذهني ووجداني ثابت وراسخ، إنه يكرّر التأكيد أن لكلّ أمّة روحًا عامة جامعة هي التي تستغرق اهتمامات أفرادها، وتتحكّم بمؤسساتها، وتصوغ طريقة تفكيرها، وتحدِّد مجال فاعليتها. إن هذه مسألة محوريّة لأن التعليم والإعلام وكل وسائل التواصل والتنشئة تكون محكومة بهذه الروح العامّة الجامعة. وبناء على ذلك فإن فاعليّة الاهتمامات التلقائيّة المحوريّة هي المهيمنة على الأفراد والمؤسسات والمجتمع، وهذا يأتي في الصميم من موضوع التخصّصات الدراسيّة وعمليات التحوّل عنها إلى الاهتمامات التلقائيّة...

يلفت النظر غوستاف لوبون إلى أن مئات الملايين في الشرق والغرب ما زالت مأسورة لبضعة أفراد ظهروا منذ آلاف السنين، والتف حولهم المريدون، ثم تزايد الأتْباع. ثم صارت أقوال هذا الفرد أو ذاك، عقيدة أمّة تضم مئات الملايين، وتتوالى الأجيال وتزداد العقيدة رسوخًا.. ويدرس الدارسون علوم العصر ويتخرّجون من الجامعات، وينال بعضهم شهادات عليا في أدق العلوم، ولكن الجميع يبقون مبرمَجين بعقائد أمّتهم التي تشرَّبوها تلقائيًّا في طفولتهم. ولا يختلف في ذلك من ينتمون إلى دين غير سماوي، كما

هي حال الهندوسية والبوذية والسيخية والكنفوشيوسية والزرادشتية، أو كانوا ينتمون إلى دين ذي أصل سماوي، كما هي حال اليهود، أو المذاهب المسيحية المختلفة، مثل الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، وعمومًا ليس المعيار للثّبات والوثوق واليقين والاستمرار، كون المعتقد يعتمد على الحقيقة، أم ينبني على الوهم. فما يتبرمج به الإنسان تبرمُجًا تلقائيًا لن يخضع للمراجعة والفحص، وإنما سيبقى محجوبًا عن العقل الناقد. فلا يرى أوهام أي نسق إلا من هم خارجه، سواء أكانوا أفرادًا انكسر عنهم إطار النسق، أو كانوا أشخاصًا ينتمون لثقافة مختلفة ويعيشون داخل نسق ثقافي مغاير، فكلّ ثقافة تكتشف أوهام الثقافات الأخرى لكنها تبقى في عمى مطبق عن أوهامها هي...

إن الأفراد عمومًا يبقون محكومين بالنسق الثقافي الذي تبرمجوا به تلقائيًا في الطفولة وما بعدها، ويبقون غارقين بهذه البرمجة، فيرونها الكمال المطلق والبهاء الآسر. أما التخصّصات الدراسية مهما علت مستوياتها، ومهما تنوّعت مجالاتها فهي للتأهيل المهني فقط، باستثناء الرّواد النادرين الذين يخترقون حواجز النسق، ويتحرّكون ضد التيار السائد. فهؤلاء تحركّهم أيضًا اهتماماتهم التلقائيّة، لكنّها اهتمامات مغايرة للنسق السائد. إنهم يفكّرون ويعملون وفق نسقهم الخاصّ، وطبقًا لمعايير وقيم واهتمامات مختلفة. فهم يسعون لتغيير السائد وليس لتعزيزه، فاهتماماتهم تختلف نوعيًا عن اهتمامات الغارقين في السائد، إنها اهتمامات مضادّة. وبهذا التضادّ المتكرّر مع السائد تحصل التطوّرات في الأفكار والعلوم والأوضاع والأساليب والاهتمامات، فتتقدّم الحضارة. فلولا الريادة والاستجابة الإيجابيّة لها لما حصل أي تقدّم...

إن تحَكُّم الاهتمامات التلقائيّة ليس محصورًا بالأفراد يحرك نشاطهم ويحدِّد مساراتهم، وإنما هو أيضًا، وبشكل أعمق وأقوى، يحدِّد اتجاه النشاط نحو التقدّم، أو نحو مقاومة التغيير في الأمم. ففي كتاب لوبون (سر تطوّر الأمم)، قد توصَّل، كآخرين من الفلاسفة والعلماء، إلى أن لكلِّ حضارة اهتمامًا محوريًّا يمتصّ طاقتها، وتتجسَّد فيه روحها، ويُقَيِّد حركتها، ويظهر فيه إبداعها، إن كان لها إبداع. فالحضارة المصريّة أبدعت في فن العمارة وصُنع التماثيل، وأنجزت في هذا أعظم الإنجازات، بينما بقيت متخلّفة في المجالات الأخرى. فبناء الصروح الضخمة، كما في الأهرامات، قد امتصَّ طاقتها واستغرق اهتمامها...

أما الحضارة الرومانية، فيرى غوستاف لوبون أنها قد أبدعت في ثلاثة مجالات؛ هي: نظام الجنديّة، ونظام القضاء، والنّظام السياسي. فأوروبا ما زالت تستمد قوانينها من القوانين الرومانية. وقد استغرقت هذه الاهتمامات طاقة الحضارة الرومانية، فتخلّفت في مجالات الفلسفة، والعلم والفن. فلكلِّ أمّة اهتمامٌ مركزي تلتف حوله كل النشاطات، وتتشابك من أجله كل الاهتمامات...

وهذه الظاهرة الإنسانيّة لم تغيِّرها التطوّرات الحضاريّة المعاصرة. فما زالت كل أمّة محكومة باهتمامها المحوري الذي يمثل لها الروح الثابتة التي ترسم مسارها، وتحدِّد اتجاهها، وتتحكّم بكلِّ النشاط داخل إطارها. إن غوستاف لوبون يؤكّد بوضوح أن الاهتمام المحوري لأيّ أمّة لا يتبدَّل بواسطة المؤسسات التعليميّة، أو السياسيّة، أو الثقافيّة، أو الاجتماعيّة. بل إن هذا الاهتمام المحوري يمتصّ كلّ المؤثّرات ليحيلها إلى عناصر لثباته وهيمنته وامتداده...

أما التطوّرات التي حصلت في أوروبا فلم تحصل دفعة واحدة وإنما امتد الصراع قرونًا بين الموروث والهزّات الفكريّة القويّة المتلاحقة. ومع ذلك، فإن العقائد الموروثة ما زالت قويّة التأثير، دائمة الحضور في الحياة الأميركيّة والأوروبية...

إن التصوّرات المتوارثة التي تتشبَّع بها الأمم بواسطة التناسل الثقافي التلقائيّ: «تضغط بكلّ ثقلها»، فتستبقي الأمة في المسار نفسه. وحتّى الثورات والهزّات القويّة يراها لوبون سطحيّة، إنها تشبه اهتزاز الماء حين ترميه بحجر تتحرّك أمواجه لحظات، ثم يعود إلى الركود.. وهو قولٌ تؤكّده حوادث التاريخ، كما تؤكده بوضوح ثورات الربيع العربي. فلم تتمخض هذه الثورات رغم مرور سنوات عن أي تغيير حقيقي في طريقة التفكير، ولا في أنواع الاهتمامات. وإنما كان الموروث هو الأكثر حضورًا وبروزًا، وهو الأقوى هيمنةً وتأثيرًا، وبه عادت الأمور كما كانت، أو أسوأ...

يشرح لوبون: «إن الشعب كائنٌ عضويٌ مخلوقٌ من قبل الماضي، وهو ككلّ الكائنات العضويّة الأخ، لا يمكنه أن يتغيَّر إلا بواسطة التراكمات الوراثيّة البطيئة. فالقادة الحقيقيّون للشعوب هم تقاليدها الموروثة». إن حقائق الواقع في كلّ العالم تكشف بوضوح شديد بأن الشعوب لا تتخذ من التعليم منطلقًا للتغيير وكسر الأطواق

الثقافيّة الموروثة، وإنما يحصل العكس. فتستخدم التعليم لتمجيد ماضيها وتعميق اهتمامها المحوري الذي يمتصّ طاقتها ويحدّد اتجاه سيرها...

وقبل النهاية، لا بد من الإشارة إلى أن لوبون يؤكّد أن لكل أُمَّة روحًا، أو عقلية خاصّة تختلف بها عن الأمم الأخرى، وأن هذه الروح لا يمكن أن تمتزج، أو تتزاوج، أو تتلاقح مع العقليات الأخرى؛ وأن أيّ عقلية لا تستفيد من الأفكار التي تستعيرها من الأمم الأخرى إلا بعد تحويرها لتتلاءم مع طبيعتها. وهو من حيث النتيجة صادق ومصيب، لكنّه يخلط بين التناسل البيولوجي والتناسل الثقافي. فالحقيقة أنه لا يوجد بين الأمم فروقٌ بيولوجية مؤثّرة، وإنما كل الفروق المؤثّرة مصدرها ثقافيٌّ محض. فالإنسان كائنٌ ثقافيٌّ، وهو بما يُضاف إليه، وبما يتبرمج به. إن نصيب الأمم من القابليّات التي يولد بها الناس.. قابليّات الذكاء والغباء وما بينهما وما يصاحبهما وما ينتج عنها من الفروق الفردية هو نصيبٌ متقارب، أو متماثل. فاختلاف الثقافات وليس اختلاف القابليّات البيولوجية هو مصدر التفاوت الشديد الملحوظ بين الأمم، وليس الاختلاف العرقي، أو السلالي، أو البيولوجي.. لقد أصاب لوبون في تشخيص العقليات المختلفة، أو الكيانات الثقافيّة المتمايزة، لكنّه أخطأ في التعليل. فسبب التفاوت، ليس عرقيًّا، وإنما هو سببٌ ثقافي محض، وحتى المساوئ السياسيّة الفظيعة هي أيضًا نتاجٌ ثقافيٌّ. فالأمم تعتاد توارُث الاستبداد، وتتآلف مع كل ما يتمخّض عنه من سوءات، فيصير من بداهات الحياة التي لا تخضع للفحص والتحليل وإعادة النظر، إلا بانبثاق وعي جديد من خارج البنية الثقافيّة السائدة...

الطبيبُ القائدُ الذي صنعَ ازدهارَ ماليزيا الحديثة

ونتقل إلى نموذج باهر آخر. فقد مثَّلَتْ ماليزيا نموذجًا رائعًا بين البلدان الإسلامية في سرعة النمو وشمول التطوّر، حتى إنها في إحدى الفترات حقّقت أعلى معدل نمو في العالم ويعرف المتابعون بأن الطبيب مهاتير محمد كان هو القائد والمحرِّك والموجِّه والمخطِّط الرئيسي لهذا الازدهار السريع الشامل، كما أنه كان السدّ المنيع الذي أوقف جرف الانهيار المرعب الذي تسبَّب به المضاربون خلال العام 1997م...

إن الأمم محكومة بثقافاتها. فكل جيلٍ يرث من الجيل الذي قبله ثقافة الأجيال السابقة. إن الأمور تجري متدفّقة تلقائيًّا كما جرت من قبل كجريان الأنهار خلال آلاف السنين. فالنهر يبقى متدفقًا مع مجراه الأول إلى أن يجري صرفه باتجاه آخر بواسطة سد. ويبقى المجرى الأول فاغرًا فاه ليستقبل التدفق متى فُتح السد، أو انهار. أما إذا بقي النهر من دون سدود فإنه يستمر تلقائيًّا مع مجراه، ولن يكون محتاجًا إلى تعزيز، أو تأكيد، فهو مندفع تلقائيًّا...

ومثل ذلك شأن السياسي. فإذا كان يريد بقاء المجتمع كما كان خلال القرون فما عليه إلا أن يستبقي كل شيء مع مجراه، ويستخدم الثقافة السائدة لتزكية الوضع وتضخيم الماضي، وتعظيم الأسلاف، واحتقار الأخلاف، وتجريم الانحراف. أما إذا أراد التغيير فإنه سوف يواجه صعوبات هائلة لتغيير اتجاه السير، وتبديل طريقة التفكير، وإعادة ترتيب منظومة القيم، وخلق اهتمامات جديدة تتلاءم مع الغايات الجديدة المستهدفة...

يعرف المهتمّون أن ماليزيا تضمّ ثقافات وأعراقًا متعدّدة؛ وبقدر ما يمثّل ذلك من عوائق فإنه بوجود قيادة تاريخيّة حاسمة يصير هذا التنوع عاملاً إيجابيًا. فخلال فترة الاستعمار كان النشاط التجاري بيد الأقلية الصينية التي تمثّل أكثر من ثلاثين في المائة، ثم تليها في النشاط الأقلية الهندية. وبعد الشغب الذي حصل بعد الاستقلال من قبل السكان الأصليين الملاويين، الذين يمثّلون نصف السكان، جرى استرضاؤهم بتفضيلات متنوّعة لكي يهدأوا ويستعدُّوا للانسجام مع الاتجاه التنموي الجديد. كما أن الصينيين والهنود تقبّلوا هذا الغبن الذي جاء انحيازًا واضحًا للملاويين ليتحاشوا الاضطرابات المخيفة، لأن أوضاعهم كانت جيّدة. وكانوا يعرفون أنهم لو تصلّبوا لفقدوا المزايا التي اكتسبوها، فاتخذوا موقفًا عقلانيًا، فقبلوا الحيف من أجل ألا يفقدوا أمنهم، ويفقدون معه كل ما أحرزوه من نجاحات...

يلفت النظر الدكتور جابر عصفور في كتابه (نحو ثقافة مغايرة) إلى الأهميّة المحوريّة القصوى للبُعد الثقافي. فالثقافات المتحجّرة هي العائق الأكبر للتغيير والتنمية، فلا جدوى من أي تعليم مهما بلغت مستوياته وكثافته ما لم يسبقه ويصاحبه تثويرٌ ثقافيٌّ جذريٌّ. وعن ذلك يستخلص: «أتصوّر أن بعض جوانب المأساة المروِّعة لتخلفنا في الكثير من المجتمعات العربيّة أن الذين يشرفون على برامج التنمية يغفلون تمامًا، أو يستهينون بتأثير الجوانب الثقافيّة الموروثة والمعاشة التي تعرقل عمليّات التنمية المختلفة». كما يشيد في تجربة ماليزيا فيستطرد: «أدرك الذين خطّطوا للنهضة الحديثة في ماليزيا أن هذه النهضة لا يمكن أن تقوم إلا على تثوير برامج التعليم وتحديثها تحديثًا جذريًا يتوافق مع رؤى ثقافة متقدمة، رؤى يتمّ توصيلها إلى الجماهير وإشاعتها بينهم عن طريق وسائط ثقافية وإعلامية تسهم إسهامًا فاعلًا في تحرير الوعي العام للمجتمع ودفعه إلى الأمام». ويتابع: «وما حدث في ماليزيا هو مثال على غيرها من عمليّات التنمية الناجحة التي حققت معدلات غير مسبوقة في سلَّم التقدّم الإنساني». وهو يكرّر تأكيد البُعد الثقافي. فلا نجاح لأي جهد تنموي ما لم يسبقه ويصاحبه تثوير الثقافة وحوادث قابليّات جديدة تهتم بالحاضر، وتستشرف المستقبل بعقل مفتوح ورؤية عصرية تتجاوز المعايير الثقافيّة الموروثة، وتنطلق في آفاق الإبداع والإنتاج والمنافسة في اندفاعٍ واعٍ رشيدٍ...

يقول مهاتير: «كان العام 1969 نقطة تحوّل في تاريخنا القصير كدولة مستقلة.. حوادث الشغب التي حدثت العام 1969 قد زلزلت القيادة السياسيّة.. كانت تلك الحوادث أكبر من مجرّد قضيّة سياسيّة. فقد كشفت صعوبة إدارة دولة متعدّدة الأعراق، وأدت إلى تعرية الشروخ العرقيّة الأخرى الأكثر فقرًا، خاصة الملايو». ويكتب مهاتير في (خطة جديدة لآسيا): «في أعقاب تلك الحوادث تم إنشاء مجلس العمليّات الوطني لدراسة أسباب عدم المساواة الاقتصاديّة، والتنمية غير المتوازنة لمختلف المجموعات العرقيّة. وبعد ذلك تمّ جمْع ممثلي كافة الأعراق في المجلس الاستشاري الوطني للمساعدة على وضع سياسة جديدة لإعادة بناء الاقتصاد من أجل تحقيق توزيع عادل للثروة». ويكمل: «إذا لم يكن لدينا ماليزيا مستقرّة عرقيًّا تسودها المساواة في أوقات الأزمات الاقتصاديّة فإن الوضع كان سيتدهور بسرعة». كما يؤكّد مهاتير: «أن التحدّي الحقيقي هو خلق مجتمع ماليزي متحرّر سيكولوجيًّا، وآمن ومتطوّر.. قوي الإيمان والثقة بنفسه، وفخور بوضعه وبما أنجزه، وضخم بما فيه الكفاية لمواجهة الصعوبات».

إن مهاتير محمد اعتمد كثيرًا على الكفايات والمهارات الصينية والهندية. فالصينيون الذين صنعوا ازدهار سنغافورة المجاورة كان لهم الإسهام الأكبر في نهضة ماليزيا. وكذلك كان لمهارات الهنود دورٌ مهمٌّ في هذه النهضة. أما الملاويون فكانوا في المراحل الأولى عبئًا أكثر مما كانوا عونًا. فمن أجل تخفيف الممانعة وإغرائهم للإسهام في العمليّات التنموية جرى استرضاؤهم على حساب الأقليتين الصينية والهندية، وقُدِّمت لهم تسهيلات وتفضيلات غير متاحة للأقليتين. وبهذا يتّضح أن التعدّد الديني والعرقي كان عاملاً إيجابيًّا في ماليزيا. فلولا وجود الصينيين والهنود لما تمكّن مهاتير من تحقيق هذه الوثبة...

أما العامل الآخر الذي اعتمد عليه مهاتير محمد في بنائه لماليزيا الحديثة المزدهرة، فهو الاستثمارات الأجنبية. وقد واتته فرصةٌ مناسبةٌ لإغراء الاستثمارات اليابانية. فقد أُرغمتْ اليابان العام 1985 على أن ترفع قيمة عملتها (الين) أمام الدولار الأميركي ثلاثة أضعاف، وكان الهدف كبح طوفان الصادرات اليابانية آنذاك. فاضطرت اليابان إلى نقل الكثير من مصانعها إلى ماليزيا وغيرها من الدول التي صارت تُعرف باسم النمور الآسيوية. وعن ذلك يوضح مهاتير محمد: «.. ما كان لماليزيا أن تكون على

ما هي عليه اليوم لولا الاستثمارات اليابانية الأولى، فهي موقعٌ للاستثمارات اليابانية الضخمة، وسوقٌ مربحة لسلعها وخدماتها». كانت تلك فرصة عظيمة سانحة، وكان مهاتير القائد الحاسم الذي لا يفوِّت الفرص...

إن أهميّة القيادة السياسة في فترات التحوّل هي أهميّة حاسمة ولقد كان مهاتير محمد رجل التاريخ الذي استطاع أن يقود المركبة الماليزية المضطرّبة بمهارة فائقة. فكلّ مجتمع يكون محمولاً بمركبة عامّة يحرّكها ويحدّد اتجاهها ومسارها، ويقودها النظام السياسي مستخدمًا الثقافة، أو الثقافات السائدة؛ لكن المجتمع لا يحسّ بذلك ولا يدركه بشكل تلقائيّ، وإنما يدركه الإنسان حين يتأمّل أوضاع الشعوب في كل مكان ويقارن بينها. ويبحث في أسباب التفاوت الهائل بين شعب وآخر، عند ذلك ينتبه لوجود هذه المركبة العامّة، ويتعرّف على طبيعتها وكيفية عملها وعوامل التحكّم التي تملكها. إن مركبة أيِّ مجتمع تسير على عجلتين: عجلة الثقافة السائدة، وعجلة النظام السياسي...

إن للقيادة السياسيّة دورًا حاسمًا حتى في المجتمعات ذات النظام الديمقراطي. فأميركا بقيادة كلنتون ليست هي أميركا بقيادة بوش الابن. وكما أوضح الدكتور صبري الشبراوي: «المجتمع يتكوَّن من إدارة الحكومة (الجهاز التنفيذي)، والجهاز التشريعي، وجميع مؤسسات الدولة الأخرى، من إعلام وبحوث، ومن يدير في المؤسسات يفتح قضيّة الاختيار.. والاختيار هو القرار الذي يؤدّي إلى تقدّم الأمم (أو تخلفها). فاختيار الرئيس بوش الابن أدّى إلى مواجهة أكبر دولة غنية أكبر كارثة مالية على مدى عمرها.. ودولٌ فقيرة أخرى باختيارها الصحيح لقياداتها أصبحت دولًا غنية». لقد ظلّت أميركا تنفق كل يوم مليار دولار أثناء احتلالها للعراق. لقد كانت مغامرة غبية دمَّرت العراق وأميركا معًا، وهذا يؤكّد الأهميّة القصوى للقيادة السياسيّة، إيجابًا أو سلبًا...

إن مغامرة بوش الابن الغبيّة والحمقاء قد جعلتْ الرئيس الأميركي أوباما الذي جاء بعده شديد التردد والارتباك في قراراته الدولية. لقد أدرك الخطأ الفادح والخسائر الكارثية التي جلبتْها على أميركا وعلى العالم مغامرات سلفه الأحمق، فأصابته بما يشبه العجز السياسي، فلم يَعُدْ قادرًا على اتخاذ قرارات فاعلة وحاسمة في الشؤون الدولية.. لقد أراد أن ينقذ أميركا من الانجرار إلى مغامرات الحرب ليحمي أميركا من الإفلاس

المالي ومن السمعة السيئة في العالم، وقرر أن يعيد أميركا إلى ما يشبه الاعتزال العملي للصراعات الدوليّة. صحيح أنه متابعٌ بعناية لأوضاع وحوادث العالم، ولا يترك أي حادث مهم من دون الحديث عنه، لكنه يبقى في حدود الرأي وإعلان المواقف بعيدًا عن الحسم أو التدخّل الفعلي...

إنه يتحدّث بمنطق الألم لما يعانيه العالم من حروب ومظالم وصراعات مدمِّرة، لكنه يعتقد بأن أميركا ليست وصيًّا على العالم، ولا هي مسؤولة أخلاقيًّا عن حمايته وتوفير الأمن له، خاصةً وأن هذه الوصاية قد أساءت إلى سمعتها في العالم وأوصلتْها إلى مديونيات باهظة تكاد تدفعها إلى الإفلاس المالي والانهيار الاقتصادي وفقدان القدرة على التوازن...

إن القيادة السياسيّة لأي مجتمع هي التي تحدِّد اتجاه المركبة، وتحدّد المسار. فليس الناس مهما تنوّعت أدوارهم سوى ركّاب في هذه المركبة العامّة. وقد جاء في كتاب (الفكر السياسي الأميركي): «إن رفاه أي بلد يعتمد على نوعيّة الرجال الذين يدخلون، أو يخرجون من المكاتب. إن الفرق بين أفضل البلدان وأسوأها يأتي بشكلٍ رئيسيٍّ من الفرق في نوعيّة رجال الدولة لديهم». إن التناسل الثقافيّ يجعل كل جيلٍ مبرمَجًا بثقافة الجيل الذي قبله. ومن السهل على السياسي أن يواصل تأكيد وتوطيد استمرار هذا التناسل. أما إذا أراد السياسي تغيير الاتجاه وإحداث نقلة نوعية في ثقافة المجتمع ونشاطه واتجاه حركته، كما فَعَل مهاتير محمد في ماليزيا، فإن مهمّته تكون في غاية الصعوبة، كما هي حال المجتمعات العربيّة. حيث أخفقتْ محاولات التنميّة، كما أخفقت محاولات التنوير. لكن وجود التنوّع الثقافي في ماليزيا أتاح لمهاتير أن يحقّق الازدهار الاقتصادي. أما الثقافة الملاوية، فما زالت تمثّل عائقًا. إن النجاح الماليزي يؤكّد الأهميّة القصوى للقيادة السياسيّة، وكما يكتب تريفليان: «إن السياسة هي مصدر التغيير الاجتماعي.. فرئيس وزراء جديد وبرلمان جديد كثيرًا ما يميزان عهدًا جديدًا في السياسة». فالدور الذي نهض به مهاتير محمد في نهضة ماليزيا هو دورٌ أساسيٌّ، حتى قيل عنه بحق إنه صانع ماليزيا المعاصرة المزدهرة...

يقول الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: «.. فمهاتير على المستويين الشخصي

والعام لم يكن إلا طبيبًا.. وهو عَبْر السياسة والحكم عالج آلام وأمراض شعب وأمّة، وأخرج أمّته ذات الأعراق المتعدّدة من معاناة الفقر والتخلّف، وأطلق طاقاتها المعطَّلة لتنعم بالعافية وسط الأمم الناهضة، وهي مأثرة رجل وأُمَّة تقدم لنا فرصة حقيقية في الأمل بأن ننهض وننجز مشروعًا تنمويًّا ينتشل واقعنا المريض من مهانة التردِّي. ومن ثم صار واجبًا تجاه أنفسنا أن نعيد تدارس هذه التجربة الماليزيّة الإسلاميّة في ضوء رؤى الرجل الذي نهض بها». لقد كان مهاتير يملك الذكاء والإخلاص والمعرفة والاهتمام القوي المستغرق، كما كان يملك مرونة الفكر التي أتاحت له التغيُّر والتحوّل والتعامل مع المشكلات بواقعيّة...

كان اهتمام مهاتير بالسياسة مبكرًا، لكنه لم يدخلها ناضجًا، وإنما نضج بمواجهة المشكلات السياسيّة ومرونة التفكير والقدرة على التغيُّر. يقول د. العسكري: «لم يكن الاهتمام بالسياسة اكتشافًا متأخرًا بالنسبة لمهاتير، فقد مارسها منذ سن مبكرة، مما يقطع بأنّ الرؤية العامّة لديه كانت حاضرة منذ البداية». نعم كانت الرؤية العامّة حاضرة منذ البداية لكنّها لم تكن ناضجة. فالنضج السياسي تكوَّن تدريجيًّا بالممارسة ومواجهة المشكلات. فقد حصلتْ له تحوّلات فكريّة حاسمة، فالممارسة والإخلاص والقابليّات القياديّة المتميّزة هي التي أتاحت له النضج السياسي والرؤية الاجتماعيّة الواقعيّة...

ويقول د. العسكري: «.. أصبح مهاتير محمد رئيسًا لوزراء ماليزيا، وظلّ يشغل هذا المنصب عَبْر انتخابات برلمانية حرّة حتّى أعلن تنحّيه الطوعي عن الحكم عام 2001، ضاربًا المثل بين حكّام العالم الثالث، ومختتمًا تجربته بمأثرة أخلاقيّة لم يُقْدم عليها إلا القليل النادر من قادة العالم الثالث».

ومهاتير الذي حقّق هذا النجاح الباهر في إخراج ماليزيا خلال سنوات قصيرة من بلد زراعي يعتمد على المطاط، إلى بلد صناعي باهر التطوّر، وانتقل به من الفقر إلى الثروة، ومن الركود إلى الحركة، ومن التخلّف إلى الازدهار، ومن الحضيض إلى القمة، ثم صمد في وجه إعصار الانهيارات المروِّعة التي اجتاحت بلدان النمور والعالم: إن هذا القائد الفعَّال والمحنك إنما هو طبيب شَغَلَه الهَمُّ العامُّ عن الهم الخاص، فرمى بأدوات الطب وراح يعالج أوجاع المجتمع...

في كتابه (صوت آسيا)، عَبَّر عن رؤيته: «.. إذًا استطاعت آسيا أن تتمكّن من المهارات الصناعيّة للغرب، وتحتفظ في الوقت نفسه بقيمها الثقافيّة، فإنها ستكون في موقع يسمح لها ببناء حضارة أعظم من أي حضارة عبر التاريخ». فلم يكن مهاتير مكابرًا فيدّعي بأننا قد سبقْنا الغرب منذ عصور الأمجاد الوهميّة التي أعاقت نموّنا، فنتوهّم الكمال، وندّعي الإكتفاء، وإنما كان مهاتير يؤمن بأن هذه التطوّرات في العلوم والتقنيّات والمهارات والمناهج والأساليب هي إنجازات غربية؛ وكان يقول ما معناه: إذا أردت الاستفتاء في شأن من أمور الدين فسوف أتجه إلى مكَّة، أي أتجه إلى الإسلام، أما إذا أردت أن أعرف شيئًا من قضايا التنمية بكل أبعادها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتعليميّة، وما تتطلّبه من سياسات وبرامج وأساليب ومناهج ومهارات، فسوف اتجه إلى طوكيو، أي إلى حضارة العصر الاستثنائية الفريدة، إن مهاتير بقي متأثرًا بمرحلة الاستعمار، فظلّ كارهًا للغرب، وهذه من هفواته العميقة وضَعْف الموضوعية في تفكيره حين يتحدّث عن الغرب وعن الحضارة الغربية، فإشادته المتكرّرة باليابان وهجومه المتكرّر على الغرب ينطوي على رؤية منحازة بعيدة عن الموضوعية. فاليابان لم تتطوّر إلا بمقدار ما أخذته من الغرب. فهي التلميذ الأول والأقدر الذي لم يكابر، وإنما بادر إلى التعلُّم من الغرب، فصار مزاحمًا له بل بات يسبقه في أمور كثيرة...

أما عن العلاقة بين ماليزيا وسنغافورة اللتين كانتا متّحدتين ثم انفصلتا، فقد عالجته مجموعةٌ من الباحثين، وصدر الكتاب بعنوان (عَبْر الجسر: دراسةٌ متعدّدة الأبعاد عن العلاقات بين ماليزيا وسنغافورة)، ومن تحرير الأكاديمي الياباني الدكتور تاكاشي شيرايشي، كما عالجه تفصيلًا لي كوان يو في مذكّراته الضافية...

يقول الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: «إن التصوّر الذي قدَّمة مهاتير يدور حول فكرة محوريّة مؤدّاها أن نقطة البدء في عمليّة التنمية ينبغي أن تكون هي الانطلاق من واقع المجتمع الماليزي مع الانفتاح على كل الأقطار والثقافات والسياسات التي يمكن أن تفيد هذا المجتمع». لقد تأثَّر مهاتير أعمق التأثُّر بالأزمة الاقتصاديّة التي أوشكت أن تُطيح بكل ما حقّقه، فصار يهاجم الغرب بشكل مطلق، وبمنطق غير عقلاني، وغير موضوعي. لكنّه يبقى الزعيم الشامخ، فالكمال محال. إن تقييم العظماء يجب أن يعتمد على مزاياهم وعلى ما حقّقوه من إنجازات. أما النقائص فهي الأصل في كل تفكير، أو سلوك بشري. فالتقييم يكون بمقدار تحرّره من النقائص الطبيعيّة التلقائيّة...

لم يكن مهاتير محمد مجرّد رئيس جرى انتخابه، وإنما هو زعيم استثنائيٌّ، إنه من صانعي التاريخ. لكنّ الكثيرين يخلطون بين القيادة التاريخيّة الحاسمة.. والاستبداد الذي يفتح أبواب الفساد. فنراهم يصفون لي كوان يو في سنغافورة، أو مهاتير محمد في ماليزيا، بأنهما مستبدّان. ويتوصَّل هؤلاء الأكثرية إلى استنتاج مقلوب، وهو أن الاستبداد ليس سببًا للتخلف ولا للفساد، ولم يعلموا أن تصوّرهم للاستبداد هو تصوّر مغلوط ومقلوب وخاطئ. إن كُلاً من لي كوان يو ومهاتير محمد قد وصل إلى الحكم بالوسائل الديمقراطية، فهو محكوم بدستور وقوانين صارمة ورقابة مفتوحة. ومع أن سنغافورة ليس فيها سوى حزب واحد، فإنها كانت تدار بمنتهى الأمانة والفاعليّة، حتى صارت أسطورة في النمو، رغم أنها بلدٌ صغير. فهي ليست أكثر من مدينة واحدة، ومن دون أية موارد طبيعية، فقد اعتمدت اعتمادًا كليًّا على تنمية الثروة البشريّة، فالقابليّات الإنسانيّة هي الثروة المتجدّدة التي لا تنضب. ففي بلد مثل سنغافورة صار كل مولود جديد طاقة إنتاجيّة، أو إبداعيّة جديدة، بينما النمو السكاني في المجتمعات غير المنتجة يصير عبئًا ثقيلًا تعجز الموارد عن إعالته...

إن القدرة على اتخاذ القرارات التاريخية المصيرية، وإن الصرامة في الالتزام بها والحسم في تنفيذها ليس استبدادًا، وإنما هو أهم مقوّمات القيادة الناجحة. لقد كان مهاتير محمد قائدًا تاريخيًّا صارمًا، ولكنه لم يكن عابثًا ولا مستأثرًا، بل إنه لم يكن قادرًا على أن يعبث. لقد كان محكومًا بدستور وقوانين وأحزاب معارضة مفتوحة الأسماع والأعين، وصحافة حرة. فلم يكن نمط الحكم يسمح بالاستبداد ولا بالفساد، وإنما كان يتطلّب القيادة الأمينة الملتزمة، الصارمة، الحازمة، الحاسمة وهو ما كانه مهاتير محمد...

إن الديمقراطية لا تتعارض مع القيادة الصارمة ولا مع القدرة على اتخاذ القرارات التاريخيّة المصيريّة. فليس أوسع من صلاحيّات الرئيس الأميركي، لكنها صلاحيّات ممنوحة من الشعب ومنصوص عليها في الدستور والقوانين، ولا تمثل تجاوزًا ولا انتهاكًا، لكنّه في المقابل لا يستطيع أن يتخذ أي قرار مهما كان ضئيلًا يكسب من ورائه مكاسب ماليّة أو معنويّة. فالحدود هنا حادَّة والرقابة صارمة والفضح متحفّز. إن ريغان وهو من أقوى الرؤساء الأميركيين لم يستطع تدبير مبلغ بسيط لبعض المهمات السرية

التي تتعلّق بدول أخرى، فاضطر أن يستعين بدول من العالم الثالث لأن الخزائن العامّة فيها مفتوحة للرجل الأول من غير قيود ولا حدود ولا رقابة ولا محاسبة...

يقول الباحث السويدي ليون برخي: «.. كم كان بودّي أن تَهُبَّ مصر وتلحق بماليزيا.. قاد مهاتير محمد نهضة ماليزيا الذي تسلَّم الحكم، وغادره بصورة دستوريّة ومؤسّساتية سلسة.. حوَّل مهاتير ماليزيا إلى قوة اقتصادية إقليمية، وأصبحت مركزًا للصناعات ذات التقنيّة العالية، وَوَضَع أركان سياسة اقتصاديّة تُعرف اليوم في عالم الاقتصاد، والمعروفة بالنموذج الماليزي. وفي عهده ارتفع مستوى المعيشة أكثر من عشرين ضعفًا. والآن أصبح الفقر في هذا البلد من ذكريات الماضي.. والمشاريع العملاقة التي نفَّذها مهاتير أكثر من أن تُحصى..».

ويواصل ليون برخي: «سألتُ عالم الاقتصاد السويدي سورن إريكسون عن مكانة ماليزيا في العالم، فقال: ماليزيا نمر اقتصادي حقيقي.. ويقول إريكسون: اقتصاد ماليزيا في أيدي مجموعة من أذكى علماء الاقتصاد في العالم، يتبعون سياسة اقتصادية متينة، أساسها الشفافية والأمانة والإخلاص مكَّنَتْ البلد من عبور الأزمة الاقتصاديّة التي حلّت بجنوب شرقي آسيا بأمان من دون الاعتماد على المؤسّسات المالية الغربية مما أذهل العالم وأصبح درسًا يُحتذى به». هكذا طبيبٌ هَجَر الطب ونَهَض بمهمة إعتاق وطن بأكمله والارتقاء به إلى مستوى المجتمعات المزدهرة فصار نموذجًا يُحتذى...

إن مهاتير محمد مثقّف متنوّع المعارف، ومفكر عميق، وصاحب رؤية نافذة. لقد استطاع أن يصهر التناقضات العرقيّة والدينيّة في ماليزيا، وأن يخلق في الماليزيين روحًا جديدة تتجاوز الانتماءات الخاصّة الضيّقة، وتجعل الانتماء لماليزيا هو محور النشاط. فأصبحت التنمية الشاملة هي القضية الأولى التي تشغل الماليزيين. وصار تقدّم ماليزيا هو الهم الأول الذي يستغرق تفكير ونشاط الأفراد والمؤسسات والدولة والمجتمع...

إن مهاتير محمد هو الذي حَشَدَ طاقة المجتمع الماليزي بكل فئاته لمشروع التنمية، وملأ قلوب الماليزيين بالثقة والحماسة والأمل وحلم الازدهار، فاندفعوا يؤازرون هذا التوجُّه الذي حقّق الرخاء السريع للجميع، والتقدّم الباهر للوطن. وكانت رؤيته ونجاحاته وصدقه وقدراته القيادية كافية لجعل رجال المال والأعمال يمتلئون بالثقة

والأمل، ويوظّفون أموالهم في هذا المشروع التنموي الباهر فتحقّق نوعٌ من التعاون الوثيق بين المصارف ورجال الصناعة. كما أن مهاتير استطاع أن يُقنع المستثمرين الأجانب من اليابان وأميركا وكوريا الجنوبية وغيرها بأهميّة الفرص الاستثمارية المتاحة في ماليزيا، وبهذه الروافد تدفَّق زاخرًا نهرُ التنمية...

كما عقد صداقات مع أشهر رجال الاختراع والفكر، ومع الكثير من رؤساء الشركات الكبرى العالمية، من أمثال المفكّر الأميركي الفين توفلر صاحب (صدمة المستقبل)، وبِل غيتس صاحب شركة مايكروسوفت، وغيرهما من المشاهير، وكوَّن منهم هيئة استشارية دوليّة. وعن طريق هذه الهيئة العالميّة التقى المال الوافر مع الفكر الخلّاق وتمخّض عن مزيد من تدفُّق نهر النمو الماليزي...

إن تحقيق مثل هذا النجاح الشامل والباهر الذي حقّقه الطبيب القائد مهاتير محمد في بلد مثل ماليزيا كان غارقًا في الفقر والتخلف، ليس بالأمر الهيِّن، ومن السذاجة أن نسأل عن التخصّص الدراسي لرجل مثل مهاتير محمد..!! ولكن حين نكون في مجتمع ينبهر الناس فيه بالمظاهر، وتستبدُّ به الألقاب يكون من المهم أن نوضح أن الرجل الذي حقَّق كل هذه الإنجازات العظيمة كان طبيباً لا علاقة بمجال دراسته الأكاديمية بمجالات نجاحاته الفكرية والسياسيّة والاجتماعيّة والتنمويّة. فالهموم العامة صرفت اهتمامه عن طب الأفراد إلى طب المجتمع، فكرَّس طاقاته العقليّة والبدنيّة والمعرفيّة لهذه المهمة الكبرى، فحقق هذا النجاح المشهود...

ومما يؤكّد هامشية التخصّص الدراسي بالنسبة للمبدعين والمتميّزين والقادة والرواد في أي مجال، أنه قبل أن يصل إلى رئاسة الحكومة لم تُسند إليه وزارة الصحة بوصفه طبيبًا، وإنما أُسندت إليه وزارة التربية بوصفه مثقَّفًا وصاحب رؤية حضاريّة في التنمية الشاملة. فقد كان يرى وهو مُحِقٌّ في ذلك، بأن التنمية البشريّة لا بد أن تسبق وتصاحب أي تنمية وطنية ناجحة. فهو يدرك أنّ الطاقة الإنسانيّة الإبداعيّة والإنتاجية هي المصدر التنموي الذي لا ينفد. فمع كل مولود جديد إما أن تتحقّق طاقة إبداعيّة وإنتاجية جديدة، وإما أن يُضاف به عبءٌ جديدٌ من أعباء التنمية.. لذلك كان اهتمامه الرئيسي بالتربية لتنشئة أجيالٍ مبدعة ومنتجة وملتزمة بالهم العام. ثم أصبح وزيرًا للخارجية، ثم صار نائبًا لرئيس

الحكومة ووزيرًا للصناعة والتجارة، ولم تُسند إليه وزارة الصحة في أية فترة من حياته السياسيّة. فلم يكن رجلاً مهنيًّا، وإنما كان صاحب فكر، ورجل مواقف، وقائد مسيرة، وزعيم أمّة. إنه يملك الرؤية الناضجة والموقف الحازم والقدرة على القيادة الظافرة...

كان مهاتير محمد من أبرز المثقّفين الماليزيين، وكان معروفاً بسعة إطلاعه، وعمق حسّه الوطني، وشدّة حماسته لبناء وطنٍ ينعم بالاستقرار والمساواة والعدل والحرية والرخاء. لقد كان صاحب رؤية تنموية حضارية حصيفة، وكان جادًّا في أن يرى هذه الرؤية واقعًا حيًّا تعيشه البلاد وينعم به الناس، سواء حينما كان وزيرًا للتربية، أو حين بات وزيرًا للخارجية، أو حين صار نائبًا لرئيس الحكومة ووزيرًا للصناعة والتجارة، ولم يخيِّب الماليزيون ظنه. فحين خاض الانتخابات عام 1982 حقَّق انتصارًا كاسحًا، حيث حصل على (140) من مقاعد البرلمان من أصل (154) مقعدًا، فكان انتخابه بمثابة إجماع، وبذلك اختار الماليـزيون الرجل الذي حقَّق لهم هذا الازدهار...

والتطوّر الفكري عند مهاتير محمد والنضج السياسي لديه يستحقان إشارة خاصة. فالمعروف أن قريبًا من نصف السكان في ماليزيا هم من غير المسلمين، ومع ذلك كان مهاتير محمد في المرحلة الأولى من نشاطه السياسي صاحب آراء شديدة الحدّة بالنسبة لغير الملاويين الأصليين. وكان يرى ضرورة الدمج القسري للطارئين. وقد عبَّر عن هذا الموقف المتشدِّد في كتابه (خيار ماليزيا)، ولكن قوبل الكتاب بنقد شديد، مما أيقظ عقله للواقع الماليزي المعقَّد، وأنضج تجربته الاجتماعيّة والسياسيّة. فتراجع عن هذه الأفكار، وأصبح مع تمسّكه الشديد بالإسلام، ومع مواقفه الصلبة من قضايا المسلمين في العالم: يتّسم بالتسامح الواعي والرؤية الناضجة والواقعية البصيرة بالأمور، وقد أكسبه هذا النضج ثقة جميع الماليزيين من مختلف الطوائف، فمكَّنه ذلك من حشد كل الطاقات لخدمة أهداف التنمية. وحين مُنح جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام عام 1417هـ - 1997م. صرّح بأن: «.. الجائزة تمثّل تقديرًا لماليزيا وأهلها المسلمين منهم وغير المسلمين، فلولا تسامحهم واحترام بعضهم بعضًا لما كان لبلادنا - بما فيها من تعدّد الديانات والأعراق - أن تبلغ ما بلغته من استقرار سياسي ورخاء..».

كان مهاتير محمد شخصيّة قياديّة تاريخيّة صلبة، أعطت ماليزيا مكانة دوليّة

مرموقة. فحينما كان مهاتير محمد وزيرًا للخارجيّة كانت له مواقف استقلالية صلبة مع الكومنولث البريطاني، ومع ذلك كان دائمًا ينال احترام حتّى خصومه. ومما قالته عنه رئيسة الحكومة البريطانية السابقة ثاتشر في مذكّراتها: «.. انسجمت مع الدكتور مهاتير، وشعرت باحترام متزايد تجاهه. لقد كان صلبًا وذكيًّا وعمليًّا، كما كانت لديه نظرة واقعيّة تجاه كل ما يتعلّق ببلاده.. كان شديد الإنتقاد للكومنولث.. غير أنني أقنعته بأن يحضر اجتماع رؤساء دول حكومات الكومنولث المقبل، ونجحت في تغيير رأيه. وبالفعل لعب هو نفسه دور المضيف في ذلك الاجتماع الذي عقد العام 1989م في كوالالمبور، وتبين أنه كان أفضل الاجتماعات التي حضرتها تنظيمًا..». وتتضح الصلابة الفولاذية لمهاتير محمد، كما تتضح صفاته القيادية الفذّة وقدرته الخارقة على مواجهة الأزمات الكبرى: في المحنة الاقتصاديّة التي تعرّضت لها ماليزيا أثناء انهيارات النمور الآسيوية العام 1997، وما أسفرت عنه من أزمات اجتماعيّة وسياسيّة خانقة، ولكنّه واجهها بمنتهى الاستقلال في القرار والوضوح في الرؤية والصلابة في الموقف. وكان النجاح الباهر هو حليفه أيضًا في هذه المواجهة العاصفة والشرسة...

وقد نشأت الأزمة عن اعتبار العملات سلعة خاضعة للعرض والطلب مما يعرّضها للاضطراب. ومن المعروف تاريخيًّا أن العملات كانت تعتمد على تغطيتها بالذهب، ثم صارت قوة الاقتصاد هي المعيار، فصارت العملات تقارَن بقيمتها بالدولار، فباتت حركة الصرف وتبادل العملات مستقرّة نسبيًّا.. تخضع لذبذبات بسيطة قابلة للتنبؤ والحساب، ثم تحوَّلت العملات إلى سلعة محكومة بالعرض والطلب، ومن هنا جاء الخطر الفظيع. فقد صارت قابلة للتلاعب، واندلعت المضاربات وصار في الإمكان حوادث اضطراب شديد عن طريق الإغراق، أو عن طريق السحب. وقد حَصَلَ ذلك في تايلاند، ثم في ماليزيا، وغيرها من النمور الآسيوية، مما هدَّد اقتصادها بالانهيار، وهو وضعٌ مرعب وغير محسوب، وغير متوقع. إنه أشبه بزلزال أرضي حيث ترتجّ الأرض فتنهار المباني. وقد قال الاقتصادي الشهير جون مينارد كينز: «فليس هناك وسائل أكثر براعة وتأكيدًا لقلب الأسس القائمة للمجتمع إلا فساد العملة». لذلك، كان الهبوط الشديد المفاجئ لقيمة العملة مدمِّرًا ومروّعًا...

إنه زلزالٌ اقتصاديٌّ مروِّع واجهه مهاتير محمد في ماليزيا بمنتهى الحسم والشجاعة.

فقد فوجئ خلال ساعاتٍ بـهبوطٍ ذريع للعملة النقديّة الماليزية بسبب المضاربات الضخمة، والسحب المفاجئ للأموال (إغراقٌ من جهة وتجفيفٌ من جهة أخرى)، فأصيب الناس بارتباك شديد وهلع عام، فهبطت فجأة قيمة كلّ الأشياء إلى أقل من النصف، وكاد الاقتصاد الماليزي أن ينهار كليًا. فأصبح مهاتير محمد أمام خيارات بالغة الصعوبة على النحو الذي يُصَوِّره رئيس وزراء كندا، حيث قال: إنني لا أفهم حتى الآن أن تكون هناك دولة قوية اقتصاديًا في الصباح وفجأة تنهار في المساء وتصبح على شفا الإفلاس..!!؟ وحين حصل هذا الزلزال الاقتصادي المدمِّر كان مهاتير يقضي إجازته خارج بلاده، فعاد مسرعًا ليتدارك البلاد ويحميها من انهيار مرعب...

يقول جوزيف ستيغليتز الحائز جائزة نوبل في الاقتصاد: «ماليزيا لم تتبنَّ السياسات التي نصح بها صندوق النقد الدولي باتباعها أثناء أزمة 1997، ونتيجة لهذا فقد مرّت ماليزيا بأقصر دورات الهبوط وأقلها تأثيرًا بين الدول التي تأثرت بتلك الأزمة المالية. وحين برزت ماليزيا من جديد لم تكن مثقلة بأعباء الديون والشركات المفلسة كما حدث مع العديد من جاراتها»؛ ويضيف: «كان العمل بنصيحة صندوق النقد الدولي وتطبيق السياسات التي اقترحها من شأنهما أن يمزّقا النسيج الاجتماعي الذي نجحت ماليزيا في تكوينه طيلة العقود الماضية. إن نجاح ماليزيا ينبغي أن يدرسه أولئك الذين يتطلّعون إلى الرخاء الاقتصادي، وأيضًا أولئك الذين يحاولون فهم الكيفية التي يمكن أن يحيوا بها في عالمنا، ليس فقط في ظل التسامح بل أيضًا في ظل الاحترام، بحيث تجمع بينهم إنسانيتهم المشتركة ويعملون معًا على تحقيق أهداف مشتركة». إن مهاتير وقَفَ موقفًا مغايرًا لما وقفته الدول الأخرى المماثلة. فحقّق فوزًا عظيمًا غَبَطه عليه الجميع، فمُنح جائزة الانجاز مدى الحياة من بيت التمويل الأميركي اعترافًا بدوره العظيم والفريد في مواجهة هذه الأزمة الخانقة المرعبة...

كما أن نجاحه في تحقيق الوئام داخل مجتمع متعدّد الأديان والأعراق والثقافات لا يقلُّ عن نجاحاته التنمويّة. حتى إن الخبير الأميركي ستيغليتز اعتبره درسًا على أميركا أن تتعلّم منه في تعاملها مع الثقافات المغايرة. إن هذا النجاح العظيم قد أخفق فيه الكثيرون. وعن ذلك يقول مهاتير: «نحن في ماليزيا بلدٌ متعدّد الأعراق والأديان والثقافات. وقعْنا في حرب أهلية ضربتْ بعمق أمن واستقرار المجتمع؛ فخلال هذه

الاضطرابات والقلاقل لم نستطع أن نضع لبنة فوق أخرى. فالتنمية في المجتمعات لا تتم إلا إذا حلَّ الأمن والسلام، فكان لزاما علينا الدخول في حوار مفتوح مع كل المكوّنات الوطنية من دون استثناء لأحد، والاتفاق على تقديم تنازلات متبادلة من قبل الجميع لكي نتمكّن من توطين الاستقرار والتنمية، وقد نجحنا في ذلك من خلال خطة 2020 لبناء ماليزيا الجديدة. وتحركنا قدمًا في تحويل ماليزيا إلى بلد صناعي كبير قادر على المنافسة في السوق العالميّة بفضل التعايش والتسامح». لقد استطاع مهاتير أن يحقّق وعد الخطة الطموحة خلال نصف المدة، وهذا غاية الإنجاز...

في مقال طويل شغل من جريدة الشرق الأوسط صفحة كاملة بعنوان (مهاتير محمد صانع ماليزيا)، كتب براكريتي غويتا: «تمكّنت ماليزيا من الحفاظ على اقتصادها بعد الأزمة المالية التي وقعت العام 1997، عندما تحدّى مهاتير صندوق النقد الدولي، وفَرَضَ ضوابط على العملة أثارت الكثير من الجدل، وتسبّبت في عزل ماليزيا عن الاقتصاد العالمي.. لم يكن بوسع ماليزيا أن تكون دولة متقدّمة مثلما هي عليه الآن إلا مع شجاعة مهاتير ورؤيته». نعم هكذا يعترف الماليزيون بزعامته الظافرة لقد كان رائدًا يسير ضد التيار. وقد قال مهاتير عن نفسه: «لقد سبحتُ ضد التيار في العديد من المناسبات، وثبت أنني كنت على صواب». لم يكن مهاتير محمد من الذين تدفعهم الحوادث، وإنما كان من صانعي الحوادث وموجّهي حركة التاريخ. فقد كان يقف ضد التيار السائد، فيظفر بالنجاح، فهو قائد حقيقي وزعيم تتدفّق مقومات الزعامة من أعماقه...

يشرح يوهان نوربيرغ في كتابه (دفاعًا عن الرأسمالية العالمية): «أصبحت العملات فريسة للمضاربين». ثم يتحدّث عن هروب الأموال، ثم يقول: «وأول الناس الذي ينقلون مدّخراتهم خارج بلد يشهد لاحقًا هجرة هائلة لرأس المال هم مواطنوه». ويقول أستاذ العلوم السياسيّة والاقتصاد السياسي ومؤلف كتاب (التحكم في السوق) روبرت ويد: «علّمت الأزمة الحكومات الآسيوية إلى أي حدٍّ هو خطر أن تفتح اقتصاداتها أمام تدفّق التمويل قصير الأجل، دخولًا وخروجًا. فقد فرضت ماليزيا قيودًا على أسعار الصرف في أول سبتمبر/ أيلول 1998 ردًّا على هجمات المضاربة على عملتها، واستنزاف احتياطاتها النقدية، واستهدفت هذه القيود أيضًا تمكين الحكومة من خفض أسعار الفائدة، وتوسيع نطاق الطلب دون أن تنخفض العملة إلى الحضيض».

ويقول الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: «كان مهاتير قد عاش الصدمة التي شهدتها ماليزيا ماليًّا واقتصاديًّا بسبب قوى العولمة الماليّة في ذروة الأزمة الماليّة والاقتصاديّة خلال الفترة من العام 1997 إلى العام 1999، وتبنّت خلالها ماليزيا سياسات جريئة وغير تقليدية لمواجهة المضاربات الماليّة في البورصة، ولإنقاذ الاقتصاد الماليزي الذي كان على شفا الانهيار.. وكانت ماليزيا الدولة الوحيدة التي واجهت أزمة ذلك الوقت بنجاح دعا المراقبين للتحدّث بإعجاب عما سمّوه البديل الماليزي، ويصح أن نسمّيه البديل المهاتيري. فقد كانت الرؤية الفكريّة التي وراء ذلك هي رؤية مهاتير محمد». إن ماليزيا الحديثة لم يكن ممكنًا أن تحقّق هذا الازدهار من دون مهاتير، وكذلك سنغافورة لم يكن ممكنًا أن تكون النموذج الأروع لولا الزغيم لي كوان يو. إن مهاتير لم يتخصّص أكاديميًا في السياسة، ولا في الاقتصاد، وإنما هو طبيب تتدفّق مقوّمات القيادة في كل كيانه. وكذلك لي كوان يو الذي تخصّص في القانون ولكنه حقّق لسنغافورة ازدهارًا أذهل العالم. فالتعويل على الألقاب دلالة الجهل بمقومات الإبداع والقيادة والريادة...

رغم أن التاريخ والواقع والعلم كلّها تؤكّد أن قلة من الأفراد هم المؤهلون للريادة والقيادة في مجالات الفكر والفعل، إلا أن بعض التعميمات قد أحدثت التباسًا شديدًا، فأوهمت الناس بأنهم متماثلون، وأدّى ذلك إلى الاستخفاف بالتميّز. فالكليلون الذين يحملون شهادات دراسيّة مماثلة لشهادات المتميّزين صاروا يعتقدون بأنهم مماثلون لهم، ولكل من يحملون الشهادة نفسها!! رغم الفروق الفردية الكبيرة المعروفة، كما أن فكرة المساواة قد جعلت الناس يخلطون بينها وبين التماثل، إضافة إلى الانتشار الواسع للفكر الماركسي الذي يعيد الفاعليّة إلى وسائل الانتاج وإلى الصراع، ويقلّل من أهميّة الأفراد أن كل هذه العوامل قد تضافرت لتنشر أوهام التماثل بين البشر، فتسود الاستهانة بالدور القيادي الحاسم لعظماء الفكر والفعل. لكننا نجد أن أوضاع الأوطان مرهونة بقدرات القيادات حتى في البلدان الديمقراطيّة يكون أثر القيادة شديد الوضوح. فأميركا ريغان ليست هي أميركا كارتر. وكذلك بريطانيا ثاتشر ليست هي بريطانيا جون ميجور. لذلك كانت نهضة ماليزيا المدهشة قد خطط لها وقادها وأنجزها مهاتير محمد، فهو صانع ماليزيا الحديثة المزدهرة...

إن من أهمّ أهداف هذا الكتاب إظهار ضرورة حوادث تغيير جذري في العمليّة

التعليميّة والتربويّة، وهي دعوة تتكرّر في الشرق والغرب على نطاق واسع، لكن الاعتياد على هذا النمط قد أكسبه رسوخًا يقترب من القدسيّة، فبقي يواصل عقمه وكلاله، ويتسبّب في ضياع الأعمار، ويوهم بأنه يخرِّج الكفايات، فتُسند إليهم الأعمال من غير إدراك لكلالهم. وكما يكتب الناقد الفرنسي فينست في كتابه (نظرية الأنواع الأدبيّة): «فالطلبة مدفوعون إلى تكرار عبارات تقليديّة جوفاء لا يفهمون لها معنى.. نحن نُخَرِّج للمجتمع أدعياء في العلم.. الذاكرة محشوّة، والذكاء عاطل...».

ونعود للأزمة الاقتصاديّة التي تعرّضت لها ماليزيا. إن الظروف التي واجهها مهاتير محمد كانت بالغة الإرباك. لذلك كان رد فعله تجاه المنشقّ عليه أنور ابراهيم بالغ القسوة، ولا يتّفق مع ما لكليهما من مكانة إسلامية وعالميّة، لكنّه الصراع السياسي الذي لا يرحم. فحين يشتدّ الصراع يتخلّى أطرافه عن الحق والعدل والمنطق. فما نُسب لأنور ابراهيم لا يمكن تصديقه، فهو شخصيّة إسلاميّة معروفة على نطاق عالمي، وله تاريخ حافل بالكفاح والإنجاز. لكنه أخطأ خطأ فادحًا في انشقاقه، وكان الردّ القاسي من مهاتير أنه بالغَ في تشويه سمعته. وربما وجد مهاتير عذرًا لنفسه، لأن التهديد لم يكن لشخصه وإنما كانت إنجازات ماليزيا العملاقة مهدَّدة بالانهيار فكان لا بدَّ من وقف كل أسباب الإرباك. وقد كانت مواقف أنور ابراهيم مربكة، وكان الخوف من تأثيره على الرأي العام يستوجب حسم الموقف بما يضمن فاعليّة ونجاح إجراءات تدارك عمليّات التقويض المروِّعة، فلا بد من وضع كل هذه الحقائق في الحسبان عند تقييم موقف مهاتير من أنور إبراهيم...

إن جوانب العظمة في شخصية مهاتير محمد هي جوانب متعدّدة. فموقفه من الصينيين والهنود يؤكّد أنه قائد فذ. فمن المعروف أن سكان ماليزيا قبل الاستعمار البريطاني كانوا كلّهم تقريبًا من الملاويين، ولكنّ البريطانيين استقدموا الصينيين والهنود للعمل في المشاريع الاستعمارية. لذلك فوجئ الملاويون بعد رحيل الاستعمار بأن الثروات الوطنية والمؤسّسات التجارية والمهارات المهنيّة معظمها في أيدي الصينيين ثم الهنود، فأوغر ذلك صدور السكان الأصليين، وشعر الملاويون بالغبن الشديد، فامتلأت النفوس بالنقمة، ونَجَمت عن ذلك حوادث دامية...

ورغم أن مهاتير من أم ملاوية، أما أبوه فكان من أصل هندي. فهو من الوافدين الهنود إلى ماليزيا أثناء الاستعمار البريطاني، إلا أن إحساسه في شبابه كان مع الملاويين لكونه مسلمًا مثلهم. لقد كان مهاتير محمد في شبابه متأثرًا بالسخط العام لدى الملاويين، وكان يرى أن الاستعمار البريطاني قد ألحق غبنًا شديدًا بأهل البلاد الأصليين، وأن من حقّهم أن يرفعوا عن أنفسهم هذا الغبن بالدمج القسري للصينيين البوذيين والهنود الهندوس، الذين استقدمهم الاستعمار، لكنّه بعد نضجه الفكري والسياسي والاجتماعي أدرك أن أجيالاً من الصينيين والهنود قد وُلدوا ونشأوا في ماليزيا، وأن من حقّهم أن يحتفظوا بثقافتهم الخاصة. وبهذا الإدراك الجديد صار لديه تَحَوُّلٌ جذريٌّ في الرؤية السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والحضارية مكّنه من قيادة الجميع. وقد قيل بحقّ: إن الأغبياء فقط هم الذين لا يتغيَّرون لذلك. كتب مهاتير: «فالطريق الصحيح للإسلام هو العيش معًا بسلام بين شعوب مختلف الديانات». وكما يقول الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: «إن مهاتير لم يهمل السمات الخاصّة داخل المجتمع الماليزي، وكان منتبهًا إلى أن أي تنمية لن يكون لها النجاح إلا بتأكيد تجانس معقول بين عناصر التركيبة المجتمعيّة جميعها، اقتصاديًا ومعرفيًا.. ومساحة أرحب من الشفافية واحترام القانون، ولقد نجح نجاحًا باهرًا»...

لقد كان مهاتير محمد يؤمن بأن الأوطان لا تُبنى بالتعصب وتبادل الكره ولا بالصراع والتناحر، وإنما تشاد بحشد كل الطاقات في اتجاه البناء وبالتسامح وتبادل الاحترام وبالتعاون والتكامل فالوطن لجميع الذين وُلدوا فيه ولكل الذين آثروا أن يهجروا أوطانهم ويصيروا من أهله. وكان يربي الشعب على هذه القيم الحضاريّة الرفيعة حين كان وزيرًا للتربية، ثم حين صار نائبًا لرئيس الحكومة، ثم بعد أصبح رئيسًا. لقد أدرك بأن الأوطان لا تسوء أحوالها بسبب كثرة الناس، وإنما يتحقّق الازدهار بالكثرة المنتجة. فكل مواطن إذا كان ملتزمًا مهنيًّا ووطنيًّا، هو طاقة إبداعيّة أو إنتاجية. إن الأرض تتّسع للجميع، ولا يعمرها سوى كثرة العاملين الجادّين وكثرة المستهلكين القادرين على الشراء. فالمنتج لشيء هو أيضًا مستهلك لأشياء أخرى من إنتاج غيره، وبهذا يتّسع الإنتاج ويعم الرخاء وتدور عجلة الحياة. إن كثرة الناس إذا كانوا منتجين تُعدُّ ثروة عظيمة ومتجدّدة. أما الذين يكونون عبئًا ثقيلًا على الوطن. فهم الذين يستهلكون ولا

يُنتجون لأنـهم يأخذون ولا يعطون. إن الذي يستهلك ولا ينتج يكون عبئًا على غيره. أما الاستهلاك المصحوب بالإنتاج فهو يحقّق الدورة اللازمة للنجاح والوفرة عن طريق تقاسم الواجبات، وتبادل المنافع. فمن دون المستهلكين لا يمكن رواج إنتاج المنتجين، فالمهم أن يكون الجميع منتجين، كلٌّ في المجال الذي يجيده ويلائمه، فيتبادلون الإنتاج والمنافع والخدمات، وبـهذا يتقاسمون العمل كما يتقاسمون الخيرات...

إن حماسة مهاتير محمد للمسلمين الملاويين لم تدفعه إلى مضايقة الصينيين والهنود الذين كانوا الأسبق إلى العمل والنجاح، وإنما كان منصفاً لهم ومعترفاً بسبقهم ومشجعاً لهم على المزيد من المشاركة والعمل، مما دفعهم إلى مضاعفة النشاط في البناء والتشييد. وقد أُعطي الملاويون بعضَ المزايا التي هدَّأت احتجاجهم فتلاحمت الجهود وانتظمت الأعمال وغابت الصراعات العرقية والإثنية والدينيّة والطائفية، واتجهتْ جهود الجميع لخير ماليـزيا ومنفعة كل الماليـزيين...

كَتَبَ الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: «إن تجربة ماليزيا في ظلّ قيادة مهاتير هي تحقّق لاجتهاد فكريٍّ مهمٍّ لرجل لم يكن مجرّد قائد سياسي ناجح، بل مُفَكِّر كبير. ومن حُسْن حظ الباحثين عن إجاباتٍ حقيقيةٍ لأسئلةٍ معضلةٍ في عالمنا المعاصر.. أن مهاتير محمد ترك العديد من المؤلّفات التي تُلقي بالكثير من الضوء على مشكلات فكريّة وليدة الاشتباكات التي نشأت في العقود الأخيرة». إن مهاتير قائدٌ وكاتبٌ ومثقّف ومفكّر وخطيب. إن المترجَم إلى اللغة العربيّة من خطبه في المؤتمرات بلغ عشرة مجلدات...

ويذكر د. العسكري كتاب مهاتير (معضلة الملاوي)، الذي عالج فيه مشاكل الغالبية المسلمة في بلده برؤية عصريّة وأصيلة في آن.. وكذلك كتاب مهاتير (التحدي) الذي حدَّد فيه استراتيجية لإعادة بناء ماليزيا.. وكذلك كتاب (صوت آسيا) الذي استكشف مهاتير عَبْرَه ملامح الأفق التنموي التكاملي في آسيا.. وكذلك كتاب (تحديات الاضطراب) الذي حلّل فيه مهاتير أسباب الأزمة المالية الآسيوية وكيفية الخروج منها...

وينهي د. العسكري: «إن تجربة ماليزيا المهاتيريّة تتلخّص في ظهور قيادة وطنيّة

عميقة الوعي في الفكر والسياسة.. نظيفة اليد.. صادقة في وطنيتها وفهمها لواقع مجتمعها والمحيط العالمي من حولها».

إن تجربة مهاتير محمد في قيادة ماليزيا إلى الازدهار لقيت اهتمامًا كبيرًا من الباحثين العرب؛ لذلك تُرجمت معظم ما كتبه، وكذلك ما كُتب عن تجربته. فمن الكتب التي صدرت عنه، كتاب (مهاتير محمد من شاب متمرّد إلى بطل إسلامي)، تأليف عادل الجوجري. إن الكتاب مليء بالحقائق عن مهاتير وعن ماليزيا، ويقع في أكثر من ثلاثمائة صفحة، وهو أشبه بقصيدة مديح للتجربة الماليزيّة وصانعها مهاتير محمد...

كما قامت أماني فهمي بترجمة (دستور ماليزيا)، وصدر ضمن سلسلة كتب دساتير العالم التي تتولّى نشرها المشروع القومي للترجمة بمصر...

وللدكتور سمير صارم كتاب (قراءة في أزمة دول النمور)؛ وقد تحدّث عن ماليزيا كغيرها من النمور الآسيوية.. وللباحثة منى أباظة كتاب مهم، هو (جدل الإسلام والمعرفة في عالم متغير - ماليزيا ومصر نموذجان)، ترجمة ملك حماد.. كما قام عمر الرفاعي بترجمة كتاب (خطابات مهاتير محمد)، وهو زاخرٌ بالآراء الجديدة بالاهتمام.. وللباحثة نوال عبدالمنعم بيومي كتاب (التجربة الماليزية وفق مبادئ التمويل والاقتصاد الإسلامي). ومن الكتب التي تناولت أزمة النمور كتاب (الأزمة المالية والنقدية في دول جنوب شرقي آسيا)، للباحثة شذا جمال خطيب. ومن الكتب المهمّة كتاب (سقوط آسيا)، ترجمة فريق «بيت الأفكار الدولية»، والكتاب مُسْتَهَلٌّ بقول مهاتير: «تجارة العملات غير ضرورية وغير منتجة وغير أخلاقيّة، ويجب أن تتوقّف، وأن تصبح غير قانونية». وللدكتور ريتشارد روبنسون دراسة بعنوان (أزمة جنوب شرقي آسيا: الأسباب والنتائج). أما روبرت غران فله كتاب (ترويض النمور). ولصندوق النقد الدولي تقرير يقع في أكثر من خمسمائة صفحة (معجزة شرق آسيا). فالكتب التي تناولت التجربة الماليزيّة خاصّة، أو تجربة النمور عامّة كثيرة، فهذه مجرّد إشارة...

إن مهاتير محمد يملك من مقوّمات الزعامة ما يندر اجتماعها في فرد واحد، فهو شخصيّةٌ كاريزميّة مؤثّرة وآسرة. وهو أيضًا مفكّرٌ حرٌّ ومسلمٌ ملتزمٌ؛ ولديه حسٌّ اجتماعي رفيع، ويملك رؤية حضاريّة ناضجة، ويتمتّع بثقافة واسعة وعميقة، ويفيض

بقدرات كتابيّة وخطابيّة متميّزة. فهو كاتبٌ قديرٌ ومؤلفٌ بارزٌ، ولـه سبعة عشر كتابًا تعالج أهم قضايا التنمية، فهو ليس عمليًّا فقط، ولا مفكّرًا فحسب، وإنما قد جمع بينهما في تآلفٍ مدهشٍ، وهو صاحب رؤية استراتيجية نافذة، ولديه القدرة على اتخاذ قرارات مصيريّة حاسمة، ويعمل بحكمة ورباطة جأش حتى في الأزمات الصاعقة. فلقد واجه بثبات وحكمة أعاصير الانـهيارات التي كادت أن تقوّض النمور الآسيوية وكان هو الرجل الأحكم والأنجح في مواجهة ذلك الإعصار المدمِّر، فأنقذ ماليـزيا من الانـهيار، وحماها من القيود التي كان يراد فرضها عن طريق صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فبقيتْ ماليـزيا حرّة طليقة، ونجت بنفسها من الأزمة من دون عون خارجي، وذلك بفضل الله، ثم بفضل صلابة مهاتير محمد وحكمته وإخلاصه. ورغم ضخامة أعبائه الوطنية فإنه لم ينشغل بـها عن هموم المسلمين في كلّ مكان، وكان واضحًا وصريحًا في نقد الغرب على تحيُّزه السافر لإسرائيل. وكان بـهذه الجرأة يعرِّض نفسه لعداوات شرسة، وانتقادات حادّة، ومضايقات مستمرّة. لكنّه لم يكن يبالي بكلّ ذلك. فهو قائدٌ وطنيٌّ متبوعٌ وزعيمٌ إسلاميٌّ محترَم، ولـه رؤية نافذة في كيفية تجميع وحشد وتنظيم طاقات الأمّة والصعود بـها نحو القمة وإنقاذها من هذه الأوضاع البائسة المذلَّة، ولكنّ المسلمين ما زالوا غير قادرين على استيعاب وتفهُّم مثل هذه الرؤى الناضجة...

إن السلطة عند مهاتير محمد ليست غاية في ذاتـها، ولا هي وسيلة إلى تحقيق مكاسب شخصيّة، وإنما كانت الأداة التي مكَّنته من انتشال مجتمعه من شرور الاضطراب وإخراجه من أوحال الجهل والفقر والتخلّف، وأتاحت لـه أن يربي الشّعب المالـيـزي على التلاحم والتسامح، وعلى القيم الحضاريّة البانية. لقد كانت ماليـزيا قَبْلَه مهيّأة للفتن والاضطراب. فالمسلمون لا يشكّلون سوى نسبة 57 في المئة من السكان، وكانت هذه الأكثرية تشعر بالمرارة وتحسُّ بالتهميش أمام الصينيين البوذيين الذين يمثلون نسبة 33 في المئة من السكان، وكانوا يستحوذون على النشاطات الاقتصاديّة والتجارية، ويشاركهم في هذا الاستحواذ الهنود الهندوس الذين يمثلون نسبة 10 في المئة من السكان. فاجتهد مهاتير محمد في العمل على تكوين اهتمام تنموي مشترك، جعل المالـيـزيين بجميع فئاتـهم العرقيّة والدينيّة يتّجهون جميعًا لبناء وطن واحد ينعم بالرخاء والحريّة والاستقرار. وبذلك أطفأ احتمالات الصراعات والاضطراب، وحوَّل

طاقة الهدم المتحفّزة إلى طاقة للبناء والتشييد. وهذا الإنجاز الثقافي والاجتماعي والتربوي الأساسي كان المقدّمة الضروريّة للإنجازات الأخرى، ولولا ذلك لبقيتْ ماليـزيا ترسف في قيود التنافر والتنازع، واستنـزفت طاقاتـها في الهدم والتقويض وفي الصراع والتناحر. وهو يرى بحقّ أن هذا من أهم إنجازاته، فيقول: «لقد عملتُ بكلّ جهدي لتبديد أي مخاوف في أوساط المواطنين، وإن التجانس القائم حاليًا بين السكان يُعَدُّ من أهم الإنجازات التي أفخر بأنني حقّقتُها». وكان حريصاً على أن يترك السلطة مبكرًا بعد أن تحقّق الازدهار، لكن اندلاع أزمة انـهيارات النمور الآسيوية اضطرّته إلى مواصلة العمل لإنقاذ بلاده من تلك الأزمة المروِّعة، وكان ينوي تسليم السلطة لنائبه السابق أنور إبراهيم، لكن هذا تعجَّل الأمر واتخذ أثناء الأزمة المربكة موقفًا انتـهازيًّا مناهضًا لإجراءات مهاتير محمد التي أنقذت ماليـزيا، مما جعل مهاتير محمد يواجهه بقسوة ويستبعده من الحزب ومن الحكومة. ومع أن قسوته عليه تجاوزت الحدَّ المقبول إلا أنه يمكن تبريرها بأن الخلاف لم يكن شخصيًّا، وإنما كان يتوقّف عليه مصير ماليـزيا، لذلك أوغل في إبعاده وتحطيمه ليحمي البلاد من الإفلاس، واختار بديلًا منه عبدالله بدوي نائبًا لرئيس الحزب، ونائبًا لرئيس الحكومة، ثم سلَّمه السلطة في نـهاية شهر اكتوبر/ تشرين الأوّل العام 2003 م. وعبد الله بدوي وأنور إبراهيم كلاهما من ذوي الاتجاه الإسلامي، ومن خريجي المدارس الإسلامية، وكلاهما ربَّاه مهاتير محمد على الممارسة السياسيّة، فهما معًا من تلامذته، ولولاه لما كان أنور إبراهيم معروفًا. فهو الذي أبرزه وجعله شهيرًا على المستوى الإقليمي والدولي. وبعد الخلاف وقف الإعلام الغربي مع أنور ابراهيم ليس حُبًّا فيه ولكن نكاية بالزعيم الفذ...

إن أبرز صفات القائد الناجح الإحساس الشّديد بمشكلات المجتمع، وإدراك جوانب الخلل في حياته وثقافته، والجرأة على مواجهة عوامل القصور، والتصوّر الواقعي لشروط التغيير والتخيُّل الخلّاق لوعود الغد الآتي وما يلـزم لـها من إجراءات، والقدرة على التأثير وإقناع المجتمع بتبنّي رؤيته للماضي والحاضر والمستقبل، وامتلاك المرونة في مراجعة الخطط وتجديد الوسائل والتهيؤ الدائم لاغتنام الفرص النافعة، والاستعداد المستمر لمواجهة التحدّيات المفاجئة. وكان لمهاتير محمد النصيب الأوفر من هذه الخصال التي لا بد منها لقادة التغيير. وقد أتاحت لـه هذه المزايا أن

يحقّق أهدافه الطموحة، ويجسّد رؤاه الإبداعيّة، ويبني مجتمعًا واعيًا ومتمسكًا بدينه، ويتمتّع بمنجزات العصر، ويشارك مشاركة فعّالة في هذه المنجزات...

كان مهاتير محمد ديناميكيًا في الحركة والفكر، وكان العمل تجسيدًا لأفكاره. وكانت أفكاره ورؤاه تتطوّر وتنضج من خلال عمليّات التجسيد، وكان يزاوج بين التنظير والتطبيق، فيراجع ويحذف ويضيف ويعدِّل ويغيِّر طبقًا لمتطلّبات الظروف المحليّة والإقليميّة والدوليّة. وكان يضفي على ذلك كله انسجامًا مدهشًا من شخصيته الآسرة وشجاعته الفذّة، وثقافته الواسعة، وصدقه الناصع، وإخلاصه المشهود، وكفاءته النادرة...

إن مهاتير محمد مثالٌ رائع للزعيم المسلم الناجح، لذلك يجب تكرار الإشادة به، والتذكير بإنجازاته، والدعوة إلى احتذائه. إن تجربة ماليـزيا في هذا العصر من التجارب الإسلاميّة العظيمة التي يجب أن تعيها أجيال المسلمين ليتخذوا منها مثالًا للفكر الخلّاق، والرؤية الناضجة، والعمل الجاد، والإنجاز الباهر. كما أن هذه الأجيال ينبغي أن تتّخذ من مهاتير محمد نموذجًا للكفاءة والإقدام، وقدوة في الإخلاص والاهتمام، والجمع بين صلابة الموقف عندما تتطلّب الأمور حسمًا صارمًا مع المرونة المضيئة حين تتطلّب الأمور الانفتاح على الاحتمالات واختبار البدائل الممكنة...

إن انشقاق أنور إبراهيم عن مهاتير محمد أثناء الأزمة الماليّة، ثم اختلاف عبدالله بدوي معه بعد ذلك، يؤكّد أن التنافس هو حافز العمل والإنجاز، كما أنه سببٌ للانشقاق والاختلاف. فالإنسان بطبعه ينتهز الفرص ويستغلّ الحوادث ويبادر للإساءة إلى من أحسن إليه.. إن الإنسان يبحث عن المكانة ويسعى إلى تأكيد الأهميّة، وفي سبيل ذلك يقتحم المخاطر حتّى لو كان فيها إزهاق روحه. وكذلك أيضًا ينسى واجبات الوفاء إذا لاحتْ له فرصة البزوغ ولو على حساب الآخرين. وقديمًا قال الناس عن تجارب متواترة: إتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه. فالإنسان أناني بطبعه، ومن أهم أولويّاته تأكيد ذاته حتى لو سَحَقَ غيره، أو أساء إلى مَن أحسن إليه، ومع ذلك سوف يجد لنفسه ألف تبرير. فالإنسان كائنٌ تبريري، فهو يستطيع تبرير أي سلوك وتسويغ أي اتجاه...

القسم السادس

مقارنة بين:

1 ـ الطبيب المبدع التّنويري يوسف إدريس

2 ـ أطبّاء ضدَّ التّنوير

في هذا القسم مقارنةٌ بين النّتائج الضئيلة للجهد التّنويري الإبداعي للطّبيب يوسف إدريس مقابل أطبّاء آخرين هجروا الطبّ من أجل محاربة التنوير

- يوسف إدريس.. نموذجٌ للفرد المبدع، المتمرّد. فقد درس الطب، لكنه وجَدَ أنه لم يُخلَق ليكون مجرّد إنسان مهنيٍّ، وإنما هو ذو رؤية إصلاحيّة وقدرة إبداعيّة، فانشغل بالتنوير ونَقْد الواقع..
- تعميم التعليم جاء لتلبية الأعمال المهنيّة التي أحدثتها الثّورة الصناعيّة. وكذلك ظهور الحاجة إلى الموظفين مع ظهور دولة الخدمات، فالمهنيون أصبحوا مطلوبين للعمل في الوظائف البيروقراطية...
- تعميم التعليم ليس لتخريج المبدعين.. بل لإعداد المهنيين الملتزمين.. وهم مختلفون عن المبدعين. فالملتزم مطيعٌ وتقليديٌّ، أما المبدع فتمرّد على المعايير المدْرسيّة وغيرها..
- التعليم يكرّس الواقع، ويزكّي الموروث؛ لذلك فإنه لا يؤثّر في البنية الذهنيّة والوجدانية للدارسين. فمن الطبيعي جدًّا أن يتحوّل الطبيب، أو المهندس، أو المحامي.. إلى واعظ، أو خطيب مسجد، أو داعية، أو مؤسِّس حركة إسلامية، أو مؤسِّس حزب إسلامي، أو منظِّر للعمل الجهادي.. فالتعليم هو للعمل المهني، أما الاهتمامات العميقة والقيم المحرِّكة فهي تنبع من التأسيس الثقافي التلقائيّ...
- المعلومات تشبه موادّ البناء. فمهما تشبَّع الدارس بالمعلومات فإنه لا يُعَدُّ متعلمًا، فالعلم ليس معلومات بل طريقة تفكير...
- يوجد فرقٌ نوعيٌّ بين المعرفة النظرية والممارسة العمليّة. فقدرات الأداء لا تكتَسب إلا بالممارسة الجيّاشة المصحوبة بالرغبة في العمل والاستمتاع فيه...
- مقابل يوسف إدريس بفكره وإبداعه التنويري نجد أطباء آخرين وقفوا بعنف ضد التنوير، وقاوموا محاولات التقدّم، ووقفوا بشراسة ضد تحديث المجتمعات العربيّة. وسوف نورد أسماء بعضهم كنماذج لمقاومة التغيير...

يوسف إدريس والتّنوير بواسطة الفنِّ القصصي والرّوائي

يعرف المهتمّون المتابعون بأن يوسف إدريس طبيبٌ وأديبٌ من طراز رفيع استخدم فنّ القصّة القصيرة، والفنّ الروائي، وفنّ المقالة من أجل الإسهام في توطين حضارة العصر. لكنه أدرك بعد أن شاب رأسه أنه يقوم (بعزف منفرد). فالانتظام التلقائيّ في السائد هو الأصل لعموم الناس في كل الثقافات. وهو يشتد ويقوى بمقدار استحكام الانغلاق الثقافي، حيث يكون انتظامًا مشحونًا تلقائيًّا بعواطف الولاء المطلق للسائد، والعداء الشديد لأي مغاير. وهنا تتأكّد استثنائية وحراجة موقف المثقف التنويري في مجتمع متخلف حيث يجد نفسه محارَبًا ومنبوذًا من الكلّ. إن التفكير خارج القوالب الثقافيّة الصلدة نادر غاية الندرة حتى بين من يحملون أرفع الشهادات الأكاديمية. لذلك، فإن المتعلّمين من مختلف التخصّصات يتصدّرون حملات المقاومة والتشويه لأي مثقّف، أو مبدع تنويري. فهذا هو السلوك العفويّ أو الرّدّ التلقائيّ الذي لا يمكن حصول غيره إلا بعد جهد جهيد ومقاومات شرسة، أو عنيفة. وربما يستمرّ الرفض وتتأكّد حصون التخلّف وتأصُّل الممانعة بتتابع القرون، كما هي حالة العالم العربي منذ عهد ابن رشد...

إن الريادة الفكريّة تعني السير عكس التيار ومحاولة تغيير الاتجاه، وهذا يعني أن الرفض القويّ هو الرد التلقائيّ. فليس من طبيعة المجتمعات أنْ تقبل ما يغاير ما تبرمجتْ به وما اعتادت عليه، وما توارثته بمنتهى التقديس منذ عصور سحيقة. فالريادة التنويريّة حالةٌ استثنائيّة، إنها خروجٌ على السائد ومحاولةٌ جادَّةٌ لتغيير اتجاهه. أما الرفض التلقائيّ العام لأيّ ريادة، فهو الاستجابة التلقائيّة الطبيعيّة. وقد ناقشتُ ذلك بتفصيل في كتاب أزمع نشره قريبًا بعنوان (الريادة والاستجابة). وتختلف أساليب التنويريين في مخاطبة الناس، فزكي نجيب محمود مثلًا ظلّ يخاطبهم بواسطة المقالات المباشرة،

أو الكتب الفكرية. وكذلك كان شأن طه حسين. والبعض يقدّم أفكاره بواسطة مشاريع فكريّة كما هي حال عبدالله العروي ومحمد عابد الجابري وعلي الوردي وعلي حرب. لكنّ آخرين من المفكّرين والمبدعين خاطبوا الناس بواسطة الفن المسرحي، أو الفن الروائي، أو القصّة القصيرة. وهذا هو الأسلوب الذي ارتضاه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم، أو يخاطبهم بواسطة الشعر، كما هي حال السياب ودنقل وأحمد مطر وغيرهم. فالرائد التنويري قد لا يخاطب الناس بأسلوب مباشر كما يفعل المفكّرون، وإنما يحاول نشر الفكر التنويري بواسطة الإبداع القصصي، أو الفن الروائي، أو بواسطة المسرح، أو الشعر أو غير ذلك من وسائل التعبير الحديثة...

إن الفنَّ القصصيَّ، والفنّ الروائيَّ، وفن المقالة كلّها فنونٌ حديثة ابتكرها الأوروبيون، ثم امتدّت منهم إلى الثقافات الأخرى، وهي كغيرها من المنجزات الحديثة يستخدمها حُداة الانفتاح والتطوّر، كما يستخدمها دعاة الانغلاق وحُرَّاس التحجُّر...

إن الفنَّ القصصيَّ فنٌّ دقيق صعب، والفنَّ الروائيَّ فنٌّ شديد التركيب والتعقيد. فالإبداع فيهما ليس متاحًا إلا لذوي المواهب العالية، والمعارف المتنوّعة، والاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق...

لذلك، فإن الفيلسوف، العالم الأكاديمي المبدع أُمبرتو إيكو حرص أن يُشير إلى صعوبة النجاح في محاولات الإبداع الروائي، فلم يتردّد في تأكيد أن أدراج كثير من الأساتذة الجامعيين في مختلف بلدان العالم مليئة بمحاولات روائيّة فاشلة، حيث أخفقوا في هذه المحاولات...

ومثل هذا التأكيد جاء أيضًا من الناقد المعروف الدكتور رشاد رشدي. فقد لَفَت النظر إلى أن الشخص قد يكون عالمًا، أو فيلسوفًا، أو أستاذًا جامعيًّا، لكن ذلك لا يمنحه القدرة على الإبداع في الشعر، أو الفنّ القصصيّ، أو الفنّ الروائيّ، أو غير ذلك من أنواع الفنّ الرفيع...

أقول ذلك لأن الكثيرين قد لا يدركون أهميّة أن يكون الشخص مبدعًا روائيًا، أو قاصًّا يستخدم فنّه الرفيع الصعب للتنوير والتحديث، كما هي حال الطبيب الأديب يوسف إدريس. فالإبداع الروائيّ شديد التركيب والتعقيد، وقلّة في العالم كلّه من

يملكون الموهبة فيه والقدرة عليه، فيجيدونه ويجتازون صعوباته وينجحون في بنائه. إنه نتاجُ موهبة نادرة، فهو امتيازٌ خاصٌ وتَفَرُّدٌ لا علاقة له بالتخصّص الدراسي، ولا يمكن أن يُسفر عنه التعلُّم اضطرارًا، أيًا كان مجال الدراسة ومستواها، وإنما هو ثمرةُ أن تعيش متوقّدًا، وأن تتعلَّم اندفاعًا وأن تعمل تدفُّقًا. إنه نتاج الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق، ولكن هذا المستوى الرفيع من الاهتمام المتوقّد لا يأتي اختيارًا، بل هو صفةٌ أساسيةٌ في تكوين الفرد المبدع، يغلي بها كيانه، ويتوقّد بها عقله، ويتأجّج بها وجدانه. إن كلّ الانفعالات وتدفُّق العواطف لا يأتي اختيارًا، ولا يستجيب لطلبٍ، وإنما هو تدفُّقٌ تلقائيٌّ، مثل الغضب والخوف والقلق. وهكذا كان يوسف إدريس كغيره من المبدعين يتوقّد باهتمام تلقائيّ قويّ مستغرق. إنه مهمومٌ بقضايا مصر وشؤون الأمة وأحلام التحديث وطموحات التنوير، فلم يستغرق بالعمل المهنيّ الرتيب، وإنما استغرق اندفاعًا في الهَمّ العام، ومحاولة التأثير بواسطة الفنّ القصصي، ثم الروائي، ثم المقالة...

لقد أدرك يوسف إدريس، كما صرَّح بذلك، أن مهنته في الطبّ يمكن أن يقوم بها غيره، أما مهمّته التنويريّة ووسيلتها الإبداعيّة فلا تأتي تلقينًا، وإنما هي عَصْفٌ داخلي لا يهدأ. فهي من نصيب ذوي الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق، وهم أقلية في كل الأزمنة والأمكنة. ومن أقواله في هذا الصدد: «وجدت نفسي مجرّد طبيب مع آلاف من الأطباء، نعالج (أفرادًا) من أمراض هي في غالبها نتيجة التخمة والإسراف. بينما هناك أكثر من عشرين مليونًا من أبناء شعبنا يعانون من أمراض حقيقيّة نتيجة الجوع والفقر.. أمراض تَشُلّ وتُجَنِّن وتَقتُل، ولا أحد يعالجهم، حتى أطباء الأرياف مشغولون بمعالجة العُمَد والمشايخ والأعيان والقادرين». لقد كَتَبَ هذا النصّ في الستينات، حين كان عدد المصريين عشرين مليونًا. وهذا يعني في نظره أن كل المصريين يعانون من الجوع والفقر والتعاسة باستثناء الارستقراطيين المترفين الذين هم أقلية في المجتمع المصري الفقير. وهكذا رأى يوسف إدريس أن شعبًا يفتقر إلى أبسط مقومات الحياة الكريمة حيث يعيش بؤسًا قاتلًا، وهوانًا مستشريًا يسلب الإنسان إنسانيّته. فلا يجد الغذاء الكافي، ولا السكن المناسب، ويشرب ماءً ملوثًا، ويعيش تعاسة شاملة. إن هذا الشعب البائس ليست حاجته الملحّة هي الحاجة إلى طبيب يعالج فردًا، وإنما تشتدّ حاجته

إلى من يوقظه من سباته ويفتح عيونه على مشاكله، ويدفعه إلى الاستنارة والانفتاح، ويساعده على الخروج من أسْر الواقع والانفكاك من أغلال التاريخ...

يؤكّد يوسف إدريس أن التعليم في مساره الحالي لا يخلق مواطنًا مؤهَّلًا للإنتاج والإبداع، وبأن على التعليم ألا يكون اهتمامه بإعطاء معلومات نظريّة، بل عليه أن يشحن الدارسين بحلم الحريّة والتنمية والازدهار لكي ينشطوا تلقائيًّا سعيًا حثيثًا لتحقيق هذا الحلم.. لا بد من تعبئة الإنسان المصري والعربي بطاقات الحلم والأمل.. كما يؤكّد أن التعليم يكون عن طريق العمل: «العمل يخلق شخصيّة الإنسان وينمّيها». إن ارتباط الفهم بالاحتكاك المباشر بمشكلات الأداء ما زال ارتباطًا غائبًا في حسّ التربويين العرب، وهذا أحد أسباب هذا الإمحال والخواء في المعرفة والكلال والإهمال في الأداء...

ويضيف يوسف إدريس: «الكاتب يتبنّى وجدان أمَّة.. ومستعدٌّ أن يُسجن ويذهب إلى المصائب دفاعًا عن موقفه.. وكل مقال أو قصة أكتبها أحمل يدي على كفي لأنها ممكن أن تُقطع». إن يوسف إدريس مبدعٌ مقاتل من أجل الوطن ومن أجل كا[illegible]...

ويرى يوسف إدريس: «أن تحقيق الذات يكون عن طريق أن تحقّق [illegible]شعب ذاته، فتتحقّق ذاتك تلقائيًّا». ويتابع: طوأنا أكتب المقال أشعر بخطورته وأتحمل مسؤوليته.. وعندما اعتُقلتُ وفُصلتُ من عملي سبع مرات لم أشعر بالتضحية.. لأنني لو لم أُعتقل أو أُفصل لكنت مضطرًّا لمجاراة الجو». إن نقد الواقع المظلم وتشريح أسباب إظلامه، والحداء لحلم المستقبل المضيء هو أبرز مهمات المثقّف الحقيقي...

إن يوسف إدريس لم يكن يتعامى عن سوءات الواقع، أو يداهن القائمين عليه والمتسببين فيه، بل يعلن بكل وضوح: «مستقبلنا يدعو للقتال.. بمعنى أننا إذا تركنا المستقبل يحدّده ما يجري الآن فهو مستقبل سيئ جدًّا. أما إذا أخذنا المستقبل بأيدينا وكافحنا لإيجاده فسيكون مستقبلًا طيّبًا». فالأوضاع لا تتّجه للصلاح تلقائيًّا، بل بالعكس، فكل وضْعٍ قائمٍ لا بد أن يقاوم التغيير تلقائيًّا. إضافة إلى أن كلّ وضعٍ إذا تُرك لحاله فإنه يتدهور تلقائيًّا بتأثير قانون الإنتروبيا وبكل ما تفرزه أنانيات البشر وجهالاتهم وأوهامهم وأيديولوجياتهم المستحكمة...

إن يوسف إدريس يناهض التفكير الخرافي وينافح عن التفكير العلمين فيوضح: «تفكيري علمي.. وما يتعارض مع العلم فهو خطأ مهما كانت الأدلة العقليّة». لذلك كان يكافح ضد التفكير الخرافي، ويُعَرِّض نفسه للأذى بسبب هذا الكفاح. فالخرافة محميّة بحراسات قويّة ويدافع عنها حُراسٌ أقوياء. لكنه يعلن أن أبرز صفاته هي: «الاستماتة في الوصول إلى الهدف الذي أؤمن به». مهما كانت التضحيّات فهو يعلن أنه لا يخشى العقاب. بل المهم أن يعلن ما يعتقد أنه الحق...

وهو يؤكّد دائمًا أن الحريّة هي العنوان الإنساني، وهي شرط الوجود الكريم والتنمية الظافرة، فيقول: «الحريّة هي عنصر الإنجاز في المجتمع.. والإنسان من دون حرية لا يمكن أن ينتج». فالتخلف العربي هو نتاج قمع الحريات، وكما يعلن، فإن: «الحريّة المتاحة في العالم العربي كلّه لكل الشعوب لا تكفي كاتبًا واحدًا ليقول نصف الحقيقة». إن يوسف إدريس من أبرز الكتّاب والمبدعين الذين جعلوا مطلب الحرية هو المطلب الأول والأساسي ولم يفتر اهتمامه بالحرية طوال عمره، وقد أدّى ذلك إلى تكرار سجنه، وتكرار إيقافه عن الكتابة، وتكرار الخصومات مع أعداء الإنسان وأعداء الحرية. فإنسانيّة الإنسان تتحقّق بمقدار ما ينال من حريّة، كما أن إنسانيّته تُنتقَص بمقدار ما تُنتقص حريّته...

لقد كان يوسف إدريس رائدًا في فكره وكفاحه وأسلوبه. لذلك يرى المبدع جمال الغيطاني أن تأثير يوسف إدريس على المبدعين من الجيل اللاحق كان تأثيرًا طاغيًا. ويفتخر الغيطاني بأنه قد نجا من هذا التأثير الطاغي لئلا يضيع في محاولة تقليده، فيفقد استقلاله. فقد أتاح له هذا الاستقلال أن تكون له تجارب خاصّة وإنجازات إبداعيّة مختلفة. إن هذا يؤكّد الأهميّة البالغة ليوسف إدريس، وتأكيد ريادته وقوة تأثيره عل المبدعين والمثقّفين. أما تأثيره على مسار الحياة العربيّة فهو كغيره من روّاد التنوير. قد تكون النتيجة عكسيّة، فنحن منذ ريادة ابن رشد ونحن نزداد انغلاقًا كلما ظهرت ريادة فكريّة خارقة. فردُّ الفعل يأتي نكوصيًّا دائمًا مما حَرَمنا من إمكانات الإفلات من قبضة التخلّف...

أما المبدع إبراهيم أصلان فيكتب: «يوسف إدريس لم يكن ذلك الحَكَّاء العظيم

فقط، ولكنّه كان حالة ثقافيّة كاملة.. كان رمزًا لزمن بكلّ أحلامه وخيبات آماله، بكلّ إنجازاته وكلّ خطاياه.. كان نوبة الصحيان التي لا تهدأ.. تدعوك لليقظة.. كان صاحب المشروع الأمثل نحو كتابة مصريّة قوميّة الطابع.. تلك حقيقة أكبر سطوعًا من أن تكون بحاجة إلى برهان، منذ ارتفع صوته الجهير الأصيل معبرًا عن كل من لا صوت لهم في هذا الوطن.. لقد فتح أفقًا واسعًا سوف يظلّ باقيًا. وكان مثالًا عبقريًا على سرد الحكايات التي أفصحت عن دلالاتها الإنسانيّة الجارحة بتلقائيّة مذهلة». وعن هذه التلقائيّة المذهلة يتحدّث يوسف إدريس في حوار أجرته معه إذاعة لندن قبل وفاته، فاستمعت إليه باهتمام. حيث يؤكّد أنه لا يستمد إبداعه من قراءة إبداع الآخرين، ولكنه يفيض إبداعًا بتأثير انفعاله الشديد. إنه ينفعل بالحياة ويعمل بحماسة. فإبداعاته هي فورة الوجدان، وغليان العاطفة، وتدفُّق الاكتظاظ الداخلي، وهذا شأنُ كلّ الرواد وكلّ المبدعين...

إن يوسف إدريس كان لافتًا منذ بزوغه المفاجئ. ففي بداية مشواره الإبداعي لَفَتَ أنظار النقاد بقوة، فأدركوا أنهم أمام موهبة إبداعيّة عظيمة. فَوَصَفَه الناقد الدكتور لويس عوض بأنه: «أديب من أدباء الطليعة، ورائدٌ من رواد المدرسة الواقعية»، وهذا الكلام قيل عنه في بداية ظهوره. وقال عنه إنه: «كاتبٌ موضوعي وليس كاتبًا ذاتيًا.. إن يوسف إدريس كاتبٌ واقعيٌّ بالمعنى السامي.. وآية ذلك هي موضوعيته». إن الدلالة المهمّة لتقييم لويس عوض آنذاك، تأتي من أنه جاء في بداية المشوار الإبداعي ليوسف إدريس. أما بعد تدفُّق إبداعاته، فقد تنامى الاهتمام به، وتنوعت الدراسات التي اعتنتْ به. فتابعه وأهتم به وكتب عنه كثيرون، يأتي في مقدّمتهم طه حسين ولويس عوض ومحمد مندور وحسين فوزي وعلي الراعي وعبدالقادر القط ورشاد رشدي وصلاح عبدالصبور وأنيس منصور ورجاء النقاش وشكري عياد ومحمود أمين العالم وغادة السمان ومحمد عودة، وغيرهم من النقاد والباحثين والدارسين...

ومثلما أن يوسف إدريس مبدعٌ في فن القصة القصيرة، وفي الفن الروائي، وغيرهما من مجالات إبداعه، فإنه أيضًا فنان في اختيار عناوين قصصه ورواياته. وكما يقول الدكتور مجدي العفيفي: «يختزل العنوان الروائي عند يوسف إدريس جوهر النص عبر الإيحاء والتكثيف والتمثيل، ليس فقط لكونه قيمة إشهارية وتعيينية، بل أيضًا

باعتباره قيمة جمالية وفكرية تحمل الكثير من جينات النصِّ، فيغدو العنوان شفرة نصّيّة وصيغة مشفرة للعمل، ومرتكزًا أساسيًّا تتماهى فيه القصْدية الواعية في الاختيار، مع الاستراتيجية النصيّة التي تتضافر فيها الناصر الأدبيّة في سياق أبنية الخطة البلاغية الشاملة». لقد جمعت عنه مادة كافية لكتاب كامل عنه، لكن الذي يعنيني هو فقط تقديمه كمثال لعبقرية الاهتمام التلقائيّ...

لقد صارت إبداعات يوسف إدريس وما زالت موضوعًا متجددًا، ليس فقط للنقاد ومؤرخي الأدب والدارسين وكُتَّاب المقالات، وإنما أيضًا لأطروحات رسائل الدكتوراه وبحوث الماجستير في الأدب وعلم النفس. ومن أهم الدراسات الأكاديمية التي صدرتْ عنه، رسالة الدكتوراه التي أنجزها الدكتور محمد فتحي التي حملت عنوان (يوسف إدريس: دراسة في تكوين المبدع وإبداع الأصالة وأصول النبوغ»، وهي دراسة علميّة تؤكد نبوغ يوسف إدريس الإبداعيّة وأصالته...

ومن آخر الدراسات الضافية التي صدرتْ عنه، أطروحة دكتوراه ضخمة ملأتْ (731) صفحة بعنوان (فن القَص عند يوسف إدريس)، وهي رسالة الدكتوراه التي أنجزها التونسي البشير الوسلاني.. وليست هذه الأطروحة الضخمة عنه، والأطروحة التي قبلها، سوى نموذجين من الدراسات المتعدّدة التي انشغلتْ بالإبداعات الأدبيّة للطبيب يوسف إدريس. فقد حصلت نوال زين العابدين على الدكتوراه عبر رسالة بعنوان (روايات يوسف إدريس: دراسة بنيوية – توليدية).

ولا يتوقّف الاهتمام بهذا المبدع وإبداعه، فقد حصلت الشاعرة نجاة علي على الماجستير من خلال رسالة بعنوان (المفارقة في قصص يوسف إدريس القصيرة). كما حَصَل أيضًا مجدي العفيفي على الماجستير ببحث يقع في (439) صفحة بعنوان (لغة الأعماق البعيدة)، وهو بحثٌ حافل عن (فن القصة القصيرة عند يوسف إدريس). وقد وصفه الدكتور أحمد الحجاجي بأنه: «عمل فريد». كما كتب الحجاجي: «لم أشعر في يوم من الأيام بقيمة كاتب قصة قصيرة مثلما شعرت بيوسف إدريس. كان بالنسبة إليَّ معلِّمًا عميقًا وقويًّا، وقادرًا على أن يعيش داخلي». ثم أشار الحجاجي إلى إحدى قصص يوسف إدريس، وأكد أنه: «استطاع فيها أن يهزّ الضمير المصري، لأنه عمد إلى

تعرية الأوضاع السياسيّة المتسلّطة، والأوضاع الثقافيّة المنغلقة، التي أدت إلى الهزيمة المذلّة أمام إسرائيل العام 1967م...

إن يوسف إدريس وإبداعاته قد قوبلت باهتمام عالمي، فتُرجمت إبداعاته إلى لغات عالمية. كما قام بعض النقاد من غير العرب بدراسة أعماله. وقد ألَّف عنه كربر شويك كتابًا باللغة الانجليزية حمل عنوان (الإبداع القصصي عند يوسف إدريس)، وقد عَرَضَتْ الكتاب وناقشته الدكتورة سعاد عبدالوهاب بمقال نقدي مفصّل في مجلة العربي. وهذا الكتاب ما هو إلا نموذج من نماذج الاهتمام العالمي بأدب يوسف إدريس...

لقد كان يوسف إدريس مبدعًا في أكثر من مجال. كما كان ناقدًا حادًّا مثيرًا لأنه يفيض صدقًا، فلا يسكت عن الخطأ حتى لو عَرَّضه ذلك للسجن والنبذ، ولكل ما يتعرَّض له الرواد الذين يسيرون عكس التيار. يقول الناقد المعروف الدكتور جابر عصفور: «إن الإنجاز الإبداعي للكاتب يوسف إدريس يضعه في مصاف أدباء العالم البارزين، وعلى الرغم من أنه لم يحصل على جائزة نوبل فإن إنجازه الأصيل يؤهّله لهذه الجائزة، بل يضعه في مصاف أعلى بكثير من بعض الذي حصلوا عليها». ويكرّر هذا الناقد المتميّز وصف يوسف إدريس بأنه مبدع استثنائي، يُحَطِّم القوالب ويعتمد الانطلاق الحر والتجريب الصعب...

ويلاحظ جابر عصفور في مقالة أخرى بأن الأبطال في قصص يوسف إدريس، وفي مسرحياته، هم من المثقفين الذين يرفضون الواقع البائس القبيح، وينادون بواقع مزدهر جميل: «البطل الإشكالي الذي لا يكفّ عن الصدام مع العالم ومع نفسه، فهو بطلٌ يخرج على القاعدة ويتمرّد على العرف، ولا يستكين إلى مذهب أو قائد، ولا يكف عن وضع كل شيء موضع المساءلة». فبينما أن التعليم والإعلام والواقع تشدُّ الناس إلى الماضي، كان دعاة التنوير، أمثال يوسف إدريس، يواجهون طوفان التراجع، ويقفون في وجه النكوص من أجل تفكير منفتح وممارسة متحضِّرة وحياة حرة كريمة. وكما يقول جابر عصفور عن يوسف إدريس: «فكتابته يناسبها أن نصفها بأنها كتابة ضد الأيديولوجيا، أي ضد الوعي الزائف والتصنيف السهل والبُعد الواحد واليقين الذي لا يخامره الشك وصَلَف الفكرة، التي تقترن بتصلّب الوعي». مسكينٌ هذا الإنسان، تحتلّ

الأوهام قابليّاته في طفولته، فيظلّ طوال عمره يعتقد بأنه يملك الحقيقة المطلقة، ويبقى مستعدًا لإزهاق روحه فداء لهذا الوعي الزائف. إن استحكام البرمجة الأيديولوجية هو المعضلة الإنسانيّة المستعصية...

لم يكن هَمُّ يوسف إدريس همًّا مهنيًّا، أو همًّا فرديًّا وإنما كان هَمَّ كل الناس. وكما تقول عنه سوسن رحمي: «يوسف إدريس ثائرٌ على الفقر.. مشفقٌ على الفقراء.. مدافعٌ عنهم، وهو يتغلغل ببساطة وعمق تحت جلودهم». هكذا هو يتعرّف على أحوالهم ويستبطن أوضاعهم ويعايش بؤسهم معايشة حيَّة جيّاشة.. معايشة الألم المثير والأمل المحرِّك...

وتحت عنوان (يوسف إدريس شاهد على العصر)، كتب عمر بطيشه: «فهو هذا المراقب الدؤوب لحركة الحياة، وتفاصيل السلوك، ونبضات الفكر الإنساني يحوّلها بقلمه إلى كل ألوان الإبداع الفكري. فتقرأه مرة على شكل قصّة، أو مسرحية، أو مقال، أو رواية». وقد خَتَم يوسف إدريس شهادته بالتعبير عن اكتشافه المُرّ الذي انتهى إليه كل الرواد، وهو أن طموحهم عظيم، وأن رسالتهم التنويرية ضرورية، ولكن الواقع أشد استعصاء، كما أن أعمار الرواد أقصر من أن تسمح لهم بأن يشهدوا لحظة الاستجابة الإيجابيّة البهيجة. فكل الروّاد تقريبًا اختطفهم الموت من دون أن يُستجاب لهم. لقد عاشوا مرارة الرفض وخيبة الأمل واستعصاء الواقع. ولكن رغم معاناة كل الروّاد الذين يجابهون السائد المتحجّر، ورغم أنهم لا ينعمون في الاستجابة الإيجابيّة في حياتهم، إلا أنهم كانوا الضياء الذي تحرّكت بهديه الحضارة، فتقدّمت وازدهرت. إن رواد الفكر يرون ما لا يراه الناس، ولكنّ الناس لا يعترفون للرواد بهذه الرؤى إلا بعد حوادث مزلزلة، تكشف الحقائق وتُعرِّي الواقع، وتجعلهم يعترفون للروّاد باختراقاتهم الاستثنائية، ولكن بعد أن يغيّبهم الموت، وبعد أن يكونوا قد غمروهم بمرارات الرفض. فالروّاد غالبًا يموتون من دون أن يذوقوا لذة الاستجابة الإيجابيّة...

إن يوسف إدريس تقرأه الأكثرية المؤدلجة، فتنفُر منه فكريًّا حتى لو استمتعتْ بفنه وقْتيًّا لحظه القرّاءة.. وتقرأه القلة المستنيرة فتنبهر به، ولكنها لا تتجاوز علاقة الاستمتاع والانبهار. فالمثقف ليس له مريدون ولا أتباع، وإنما له قراء فقط. إنهم قرَّاء أفراد،

منفصلٌ كل واحد عن الآخرين، لا تجمعهم أي روابط بعكس دعاة الأيديولوجيات الذين يستطيعون بخطبة حماسية، أو تغريدة تحريضيّة تحريك جموع الناس. فتكتظ الشوارع بالجماهير، وربما اندفعوا إلى ساحات الموت استجابة للمنادي بخلاف دعاة التنوير، الذين لا يجدون سوى الاستنكار والتشويه والرفض العنيف. فيوسف إدريس رغم كل ما أنجزه من أجل تحرير كل الناس وتحسين أوضاعهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتعليميّة وخصوصًا المقهورين البائسين. لكنّ الجماهير لا تعرفه، ولا تهتم به وبإبداعاته، وإنما ينحصر الاهتمام به من قبل الدارسين العقلانيين فقط، وهم أقليّة في كل الأزمنة والأمكنة. وبسبب هذا التدابر التلقائيّ بين التنويريين والجماهير يستمر الجهل، ويدوم التخلف، ويستحكم الانغلاق الثقافي، ويتغوَّل الاستبداد السياسي...

ومن الكتب التي صدرت عنه كتاب (يوسف إدريس والتابو) لفؤاد طلبة.. وكتاب لفاروق عبدالقادر بعنوان (البحث عن اليقين المراوغ: قراءة في قصص يوسف إدريس». أما محمود فوزي، فقد حاوره حوارات متكرّرة، واهتم بمعاركه الفكرية مع السادات ونجيب محفوظ وزكي بدر وأحمد شفيق، وغيرهم، ويستهله: «يوسف إدريس كان دائمًا على فوهة بركان. فهو يتلمّس الألغام الاجتماعيّة المحرّمة، ويتعمّد تفجيرها، ويتمتّع بحيوية الرفض لكل ما يحدُّ من حرية الإنسان.. أعصابه فوق جلده، ويحمل في عروقه تيارًا كهربائيًّا صاعقًا.. جذوره سياسيّة وأدبيّة واجتماعيّة. فهو كالإعصار إذا هدأ هدَّده الموت». هكذا هو الإنسان، كائنٌ تلقائيّ، وهكذا هو الإبداع لا يأتي إلا باهتمام تلقائيّ قوي مستغرق. فالمبدع لا يكون إلا إعصارًا يتفجَّر من داخله، وليس وعاءً يتمّ حقنه من خارجه...

لقد توصَّل عالم الأعصاب انطونيو داماسيو إلى أن الانفعالات هي مصدر طاقة الإنسان ومهماز إرادته. فالمحرِّك ليس هو العقل، أو المعرفة، فالذكاء والمعرفة لا يُنشئان الفعل، ولا يدفعان إليه، وإنما يساعدان المرء على تنفيذ ما يدفعه انفعاله إليه. وقد شرح ذلك بوضوح داماسيو في كتابه (خطأ ديكارت)؛ ثم في شكل أعمق وأوسع في كتابه (دور الجسد والعاطفة في صُنع الوعي). إن نشاط الإنسان مرهونٌ بانفعالاته، وباتجاه ونوع ودرجة اهتماماته التلقائيّة القويّة المستغرقة. وقد أعاد تأكيد هذه الحقيقة

البشريّة البارزة دانيال جولمان في كتابه (ذكاء المشاعر). ومع أن هذه الحقيقة معروفة بالبداهة وبالتجربة، وبالمشاهدات اليوميّة منذ القدم، وأكدها الرومانسيون تأكيدًا لا مزيد عليه، إلا أن دانيال جولمان قد دعمها علميًّا، وأعاد التذكير بها ودفع المجتمع العلمي إلى تركيز الاهتمام عليها. إن المشاعر والانفعالات هي الأصل في تكوين الإنسان، أما العقل والذكاء والمعرفة فليست سوى أدوات طارئة في يد الانفعالات. فالأصل في الإنسان أنه كائنٌ انفعالي، وليس كائنًا عقلانيًّا. فهو يستجيب تلقائيًّا للمؤثّرات، وهو كائنٌ تلقائيّ وليس كائنًا متحققًا إنه لا يتّجه إلى التحقّق إلا إذا دفعته الحاجة، أو اضطرته الظروف، أما في عموم حالاته فإنه كائن انفعالي تلقائيًّا...

إن المبدعين لا يكرسون طاقتهم ووقتهم وحياتهم للإبداع اختيارًا، وإنما هم مندفعون للانهماك فيه اندفاعًا تلقائيًّا ملحًّا. ففي كتاب (يوسف إدريس وعالمه) للناقد الدكتور عبدالرحمن أبو عوف، يكتب: «يوسف إدريس عندما يتوهّج يبدع إبداعًا فذًّا.. ويثير أكثر من مشكلة فنيّة وفكريّة»، ويضيف: «إن ما استحدثه وأبدعه يوسف إدريس من عشرات، بل مئات القصص القصيرة، وبعض الروايات.. وما عمَّقه وفجَّره وأضافه إلى مفهوم الدراما المصرية والعربيّة جعل من إسهاماته مرحلة متألّقة.. إنه كاتبٌ مطبوع في التهاب ونَهَم وتَوَقُّد وحدَّة ذكاء ساطع، وشهوة عارمة تتقصَّى جوانب الواقع الإنساني، وما بعد، أو وراء البُعْد الإنساني والنفسي، وتلتقط في نفاذ ديمومته وتحوّلاته في تجاوز لآنية اللحظة. وقد وصفه بأنه (الكاتب الفذ) وأنه (الفارس النبيل)». ومن المهم التأكيد على أوصاف التوهج والنهم والتوقد والتفجُّر التي يتكرّر وصْف إدريس بها، فلا إبداع إلا باندفاع تلقائيّ متأجج، فالإنسان كائنٌ تلقائيّ...

ويقول أبو عوف عن يوسف إدريس: «ملأ سماء حياتنا الادبيّة والفكرية والفنية إبداعًا سامقًا، له سموّه وشموخه في القصة القصيرة والرواية والمسرح والمقالة.. والتحم بوجدان شعبه في شكل المقال القصصي المتوقّد المتوهّج، والذي يعالج ويناقش ويثير مشكلاتنا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة في جرأة وشجاعة وتمرد». لقد كان يوسف إدريس يدرك بأن فساد النظام السياسي في أي مجتمع يؤدّي تلقائيًّا إلى اتجاه نشاط المؤسسات والقوانين والممارسات باتجاهات لا تخدم الوطن ولا تُنمي الأمة. فصلاح المجتمع هو من صلاح قيادته، فهي النموذج، وهي القدوة، وهي

التي تسمح أو تمنع، وهي التي توجِّه نشاطات الأفراد والمؤسّسات إلى حيث تريد هي لا إلى حيث يجب أن يكون.. لذلك كان يوسف إدريس مهمومًا بصلاح السلطة السياسيّة، وبسبب ذلك تكرّر سجنه وتكرّر فصله من عمله، وتكرّر إيقافه عن الكتابة، ولكنه واصل النقد الحادّ والاستنكار المزعج للسلطة. والأصعب والأخطر من ذلك أنه لم يكن يواجه السلطة السياسيّة فقط، وإنما كان يواجه حُرَّاس الظلام الذين يريدون استمرار الوصاية على الناس، وإبقاء الجماهير جاهزة للاندفاع خلفهم، والتضحية بأرواحهم وبكل شيء استجابةً لهم...

ومع أنه يتكرّر سجن يوسف إدريس ويتكرّر إيقافه عن الكتابة، لكن مصر تشعر بأن لا مناص من الاعتراف بأهميته. لذلك قرر المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة تخصيص جائزة سنوية باسم يوسف إدريس، تُمنح للشباب المبدعين في مجال القصة القصيرة، وهو المجال الذي ظَهَرَتْ فيه براعةُ يوسف إدريس الفائقة أكثر من غيره من المجالات الإبداعيّة...

كما خصَّته مجلة الهلال بعدد من أعداد العام 1991، وقد شارك في الكتابة عنه في ذلك العدد نخبةٌ من أميز النقاد، منهم مصطفى نبيل وصلاح حافظ وأحمد عباس صالح وشكري محمد عيّاد ومختار الشيخ وإبراهيم فتحي ومحمد عناني والطاهر أحمد مكي ومحمد المنسي قنديل وحسين عيد...

أما إبراهيم عبدالعزيز فيقول في كتابه (رحلة في عقول مصرية): «الكتابة عند يوسف إدريس وسيلة للتعبير عن إحساسه العارم بالشعب وقضاياه وأحلامه، بل وخرافاته». إن التوقّد عند يوسف إدريس وغيره من المبدعين ليس اختيارًا، وإنما هو اندفاعٌ تلقائيّ. إن تلقائيّة الاندفاع هي منبع الإبداع في الفن والعلم والعمل والمغامرة والكشوف، وفي كل مجال من مجالات الأداء...

إن يوسف إدريس قد استخدم فَنَّه بتجلّياته المتنوّعة في التنوير والنقد الاجتماعي، والتشريح الثقافي، والسخرية السياسيّة. لقد كان مهمومًا حتى درجة التوقّد والاستغراق بمشاكل المجتمع المصري خصوصًا والعربي عمومًا: سياسةً وثقافةً وعلمًا وتعليمًا وأخلاقًا وأوضاعًا وتنميةً، وكان مندفعًا إلى كشْف العطالة الثقافيّة، وتعرية المعوقات

الاجتماعيّة، وإعلان السخط على الاستبداد السياسي والتهكم به، والسخرية منه، والمناداة بحرارة وإلحاح إلى كسر أقفال الانغلاق الثقافي المزمن، وهدْم الأسوار النفسية الصلدة التي عزلتْ العرب عن حضارة العصر، وحَرَمتهم من فُرص الازدهار...

ومن المهم جدًّا أن ندرك بوضوح وتمييز أن الانغلاق الثقافي، وتوهُّم الكمال، واعتقاد التفرُّد ليس خاصًّا بثقافة من دون أخرى، وإنما كل الثقافات هي أصلاً تكون غارقة بهذا الوهم، حتى تنفتح بتأثير قوي من خارجها. فلا شيء يفوق ذاته، ولا شيء يتغذّى من ذاته، ولا شيء يتغيّر نحو الأفضل إلا بتغذية كافية من خارجه. غير أن الثقافات تختلف في شدة الرفض وقوة الحراسات واحتشاد المقاومة واستمرارها، فنجد أن الثقافة اليابانية مثلًا هي أسرع الثقافات انفتاحًا، وأسرعها قبولاً للفكر المغاير، لذلك تقدمت في العصر الحديث قبل كل ثقافات الشرق، بينما نجد أن الثقافة العربيّة هي الأعنف موقفًا والأدْوَم رفْضًا للفكر الوافد، فلا يتزحزح موقفها الرافض للمغاير، وهذا الفارق هو الذي مكّن اليابان من الدخول المبكر في حضارة العصر، وجَعَلَها تُزاحم وتنافس الغرب في المنجزات، وتتقدّم عليه في بعض المجالات. وفي المقابل نحن العرب نعيد إنتاج تخلّفنا إلى الدرجة التي انتهت بنا إلى تنظيمات القاعدة وطالبان وداعش وبوكو حرام وجبهة النصرة وأخواتها، التي هي من نتاج ومهازل الانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي، وتزاوُج هذا الثنائي المتحكّم بالحياة والأحياء في البيئة العربيّة. فلا بد أن يكون المولود الناتج عن تزاوجهما بهذا القُبح والبشاعة وشناعة الاتجاه وفظاعة النهاية...

كان يوسف إدريس، ككثير من الرّواد، يعتقد بأن تفهُّم الناس لمقوّمات حضارة العصر سوف يجعلهم يبادرون للقبول والتغيُّر الإيجابي. ولكنه بعد تجربته الإبداعيّة الصاخبة اكتشف ضآلة، أو استحالة تأثير الريادة الإبداعيّة في البيئة العربيّة، إنها بيئة تتوهّم الكمال تاريخيًّا، وتعتمد الاكتفاء بما ورثته، وتعتقد واهمةً بأن الحضارة العربيّة هي مصدر كل ما في الدنيا من ازدهار وتقدم، وتَرْفُض أيَّ عنصر طارئ مغاير يضاف إلى ثقافتها. فهي في نظر نفسها تعلِّم الآخرين ولا تتعلَّم من أحد، رغم اعتمادها المطلق على منجزات الأمم الأخرى، حتى في تحويل مخزون أرضها (النفط) إلى ثروة هائلة وفَّرتْ لها الرخاء الباذخ. ولكن الثقافة المغلقة عمياء لا تُبصر حقائق الواقع مهما تضافرت ومهما كانت صارخة وكثيفة ونامية ومتدفقة...

إن الثقافة العربيّة بسبب أوهام الكمال واعتماد الاكتفاء قاعدة لتفكيرها وسلوكها، قد التزمت منذ اصطدامها بالحضارة الغربيّة النامية بالرفض العنيد الصارم. فظلّت رافضةً بأن تنعتق من أسر الماضي، وممتنعة أشد الامتناع عن تفهُّم معطيات العصر وتغيراته النوعية في الفكر والفعل وأسلوب الحياة. وبذلك بقيتْ البيئة العربيّة وحدها من دون العالم كلّه منغلقة عما يجيش به العصر من أفكار خلّاقة وتفاعلات منتجة وإنجازات مدهشة، فظلت تراوح مكانها، بل تتراجع في شكل مخيف. فباكستان وأفغانستان والصومال والسودان، وبلدان عربية وإسلامية أخرى، تراجعتْ تراجعًا مرعبًا ومخزيًا، وبلغ التراجع الشنيع ذروته في ظهور تنظيم القاعدة وداعش وبوكو حرام، وأمثالها من التنظيمات النكوصيّة البربريّة البشعة...

إن الانغلاق الثقافي والتحجُّر الفكري هو الوضع التلقائيّ الطبيعي لأي ثقافة، ولأي مجتمع لم تتعرض مسلَّماته الخاطئة لهزّات مزلزلة. فليس الانغلاق ابتداءً من خصائص الثقافة العربيّة، وإنما كل الثقافات في الأصل تكون منغلقة، لكن تختلف الثقافات في قابليّة الانفتاح والنمو. فبعض الثقافات تستجيب للفكر الجيد الطارئ بعد ممانعة، ولكنّ ثقافات أخرى، كالثقافة العربيّة، لا يزيدها طَرْقُ الأفكار الخلّاقة سوى مزيد من الانغلاق والمقاومة والرفض العنيف، فالتصدي للفكر الوافد ومقاومة التغيير في البداية هو سلوكٌ تلقائيّ، وأيضًا فإن للانغلاق دعاته وحُرَّاسه الذين يدافعون عنه باندفاع شديد ويقين مطْلق بأنهم أهل الحق، وبأن غيرهم في الضلال المبين.. إن دعاة الانغلاق وحُرَّاسه والمدافعين عنه لا يجدون صعوبة في هذه الحراسة وفي هذا الدّفاع، وفي حشد وتجييش الأتباع والمؤيدين والمتعاطفين، لأن احتشاد الأتباع انسيابٌ عفويٌّ أو تدفُّقٌ تلقائيّ من السائد؛ أما التنوير فهو مختلف نوعيًّا، إنه مغاير للسائد في مضمونه واتجاهه ومساره ووسائله وأهدافه، لذلك يبقى شديد الضعف قياسًا بقوة وصلابة ومقاومة الواقع، بل يبقى منبوذًا وهامشيًّا ومدانًا ومحاربًا ومحاصرًا. ولهذا، فإن البيئة العربيّة ظلّت بيئة متحجّرة ثقافيًّا وقامعة سياسيًّا. وليس صدام حسين والقذافي وبشار الأسد سوى أمثلة وتجسيدات لهذه الثقافة التسلطيّة، فكرًا وممارسةً. وبهذا الرفض العنيف المتوحّش بقيت البيئة العربيّة تعاني من قحط شامل وهوان مذل، ومع ذلك تُبدي انتفاشًا فارغًا، وتتصرّف بنرجسيّة متضخّمة، وهي نتيجة طبيعيّة تلقائيّة لأي ثقافة منغلقة ورافضة للإثراء المعرفي الطارئ المتجدّد...

لقد كان التنويريون منذ عصر فولتير يظنون بأن الناس سوف يتقبّلون التنوير بسهولة، لأنه عظيم النفع وقابلٌ للامتحان والتحليل والتحقّق.. إن هذا الظنّ مبنيٌّ على توهّم عقلانيّة الإنسان. ولكن الواقع أثبت أن الإنسان غير عقلانيٍّ، وأن البرمجة التلقائيّة هي التي تتحكَّم به، ولذلك فوجئ التنويريون بهذه النتيجة المرعبة لأنهم لم يدركوا أنها نتيجة طبيعيّة تلقائيّة. ولكن، بهذا الاكتشاف المرعب للحقيقة المُرَّة تبدَّد الحلم العظيم الذي كان يوسف إدريس يسعى إليه، فأعلن بكل مرارة بأنْ لا مكان ولا مكانة للمبدعين في البيئة العربيّة، ولا أهميّة ولا قيمة للإبداع، فالمجتمع العربي يتوهّم الكمال والاكتفاء بتراثه، ويعتمد على هذا التراث اعتمادًا كلّيًّا ويصرُّ على الاكتفاء به، ويرفض ما عداه ولا يفطن بأنه يعتمد على منجزات الأمم الأخرى في التقنيّات والوسائل والعلوم وأدوات الرفاه وأسباب الرخاء، وكذلك في العلوم وكل ما تتطلّبه الحياة المعاصرة. ولكنّ البيئة العربيّة تبقى في عمى مطبق عن كل ذلك. فالمجتمع العربي بكل عجزه وكلاله وضحالة محتوى ذهنه وجدب وجدانه وشدّة احتياجه إلى إنجازات غيره، يبقى غير مهتمٍّ إيجابيًّا بالإبداع ولا بالفكر، ولا بالتنوير، لكنّه مهتمٌّ أشدّ الاهتمام سلبيًّا. فقد انحصر اهتمامه بالرفض والمقاومة والتشويه، إلى درجة أن يوسف إدريس يرى أنه لو اختفتْ كلّ الكتب غير التراثيّة والصحف والمجلات وكلّ مصادر الفكر الخلّاق والمعرفة المتجدّدة، ولو غاب كلّ المبدعين، واختفتْ كلّ تجليات الإبداع، ولو انقطعت كلّ الروافد الثقافيّة الآتية من الآخر، فإن أكثر الناس في المجتمع العربي لن يشعروا بأية خسارة، بل ربما لن يُحسّوا بهذا الاختفاء، ولن يدركوا هذا الغياب، ولن يشعروا بهذا الانقطاع إلا إذا كان إحساس الفرح والابتهاج بهذا الانقطاع، فالقحط الثقافي، والانغلاق الفكري، والعطالة الذهنيّة، والجدب الوجداني، وأوهام الكمال، ودعاوى الاكتفاء لا تتمخَّض إلا عن اهتمامات تكرّس التخلف، وتُعَمِّق الانفصال عن العالم الذي يمور بالتنوّع والفاعليّة والانطلاق في كل الآفاق والإبداع في جميع المجالات...

ومثل كل الرواد والمبدعين الذي يسيرون ضد التيار السائد الجارف، ظلّ يوسف إدريس شديد الإحساس بتفرُّده وعزلته وانفراده. لقد كان يشعر شعورًا حادًّا بأنه غير مسموع في هذه البيئة الصماء، وبأن نداءاته للحريّة وصيحاته للانفتاح تتبدَّد في الفضاء، وبقي هذا الإحساس ملازمًا له حتى آخر يوم من حياته. فكان كتابه (عزفٌ منفرد) من

آخر ما صَدَر من كتبه. إنها نتيجة طبيعيّة، فهو يُقدِّم أفكارًا مغايرةً للسائد، ويستخدم فنًّا حديثًا طارئًا ليس من معطيات البيئة، أو التراث وإنما جاء كدَفْق ثقافي جديد، فلا بد أن يكون نصيبه خارج دائرة المبدعين والمثقفين هو الإهمال والتجاهل، أو الرفض العنيف الصادم، أو المحاكمة المذلَّة والتشويه المتَعَمَّد...

إن الفن المسرحي والإبداع الروائي والقصصي والفن التشكيلي وفن النحت، وغيرها من فنون التعبير الحديثة لم تكن ضمن موروثنا الثقافي العربي، وإنما هي عناصر جديدة وافدة على بيئتنا، وبسبب ذلك لا يحظى المبدع خارج دائرة المبدعين والمثقفين بالمكانة التي يستحقها، ولا الاحتفاء الذي يليق به، بعكس الشاعر الذي اعتاد العرب على تمجيده والاعتراف بتفرُّده، لأن الشعر عنصرٌ أصيل وأساسي في الثقافة الموروثة. ويجب ألا ننخدع بأحاديث وكتابات المهتمّين بالشأن الإبداعي، فنظن أنه اهتمامٌ عام. فاهتمامات المبدعين والمثقّفين بعضهم ببعض هي اهتمامات فردية، محصورة ضمن دائرة شديدة الضيق، مهما بلغت من الصّخب والعمق والتنوّع داخل دائرتها الضيّقة، فهي ليست ضمن الاهتمامات العامة السائدة. إن اهتمام البيئة بالمبدعين والمفكّرين، والمثقّفين التنويريين لا يأتي إلا من أجل الرفض والشجب والتعنيف والمقاومة والتحذير، وربما التكفير ومحاولة الاستئصال فكريًّا وجسديًّ...

إن الرواد والمبدعين والمثقفين في البيئة العربيّة فئةٌ مضيئة، لكنّها صغيرة ومعزولة وسط محيط هائل، يقاوم التغيير بشراسة ووحشيّة، ويحارب التنوير باحتشاد شديد وعنف كاسح. فالمثقفون فئةٌ لا يعرفها سوى نفسها، ولا يهتم بها إلا ذاتها، وإذا جاء الاهتمام بها من خارجها فإنه يأتي بقصد إسكاتها وإيقاف نشاطها، والتخويف من تأثيرها وتشويه سمعتها، وتحذير الناس منها والتداعي إلى استئصالها.. لذلك بقي تأثير يوسف إدريس وغيره من التنويريين تأثيرًا محدودًا أو معدومًا، أو ربما عكسيًّا، لأن ظهور التنوير يثير المقاومة ويستحدث ردود فعل تنتهي إلى إقامة الكثير من حصون التخلّف، وقلاع الانغلاق، ومتاريس الرفض، وأسوار العزل، فتمتلئ العقول، وتنسدّ الأذهان، وتحتشد العواطف ضد أي فكر مغاير. فلا قيمة للإبداع والأفكار الإبداعيّة إلا بمقدار ما يستجاب لها إيجابيًّا، فتأثير الريادة مشروط بالاستجابة الإيجابيّة العامة، وهي في البيئة العربيّة استجابة التجاهل والاستخفاف، أو الرفض والمحاربة أكثر مما هي استجابة إيجابيّة مثمرة...

إن أكثر القرّاء غير المؤدلجين من غير المثقّفين، قد يستمتعون بإبداعات يوسف إدريس وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقي، وغيرهم من المبدعين، لكنّهم في الغالب يغفلون عن المضمون التنويري المكتظ، كما يغفلون عن القيمة التشخيصيّة. فكما يؤكّد يحيى حقي: «أن فنّ القصّة أهم مرجع لمن أراد أن يلم بنوازع مجتمعنا». إن الحديث يجري عنهم كمبدعين في الفن الروائي كفن إبداعي من غير إدراك لقيمته الثقافيّة، حيث يكاد يغيب الإحساس بحضورهم التنويري، ويندر من يدرك إسهامهم في الهمِّ الاجتماعي والثقافي والتنموي والسياسي. أما القرّاء المؤدلجون فقد تربوا على الحذر من أي إبداع، والرفض لأي فكر مغاير. فهم يحملون حساسيّة شديدة من أي فكرٍ أو فنٍ لم يألفوه، خصوصًا إذا كانت نبرة نقد التحجُّر الثقافي واضحة كما هي حال يوسف إدريس...

إن الإبداع عند يوسف إدريس ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو وسيلة للإيقاظ والتنوير والكشف والتعرية والحداء نحو اتجاه مختلف، ومسار جديد، وتفكير مغاير، وممارسات متقدّمة. غير أن كلَّ هذا لا يجد الاستجابة الإيجابيّة العامة، بل يجد العكس من الريبة والتوجّس، فبقي هو وغيره من التنويريين يتخاطبون في ما بينهم وكأنهم من الناحية الذهنيّة والمعرفيّة وأنواع الاهتمامات ومنظومة القيم والميول الوجدانية، يعيشون في عزلة خارج البيئة التي يوجدون فيها مكانيًّا...

إن المجتمع العربي يتحرّك في المسار والاتجاه الذي تبرمج به تاريخيًّا، وتبرمجتْ به كلُّ الأجيال العربيّة، فلم يمتلك قدرات تغيير الاتجاه، ولا تبديل المسار، إنه محكوم بحركة دائريّة في المكان نفسه، أو أنه مدفوعٌ بحركة تقهقريّة نموذجها الوحيد هو نموذج التاريخ القديم. فالأجيال تتوارث ذلك تلقائيًّا، وتظل مشدودة إليه بمنتهى القوّة والإعجاب والولاء. وبذلك فإن المجتمع العربي ليس حُرًّا في حركته، وإنما هو مكبَّل بنماذجه الثقافيّة، وما ورثه من رؤى. إنه يربط الحاضر بالماضي ليس ربط الاستفادة والفرز والاستثمار وإنما ربط الارتهان والتقديس، إنه يمجّد الماضي وأهله تمجيدًا مطلقًا ويحقِّر الحاضر وأهله تحقيرًا مُقعدًا...

حين يقرأ البعض نظرية غرامشي عن المثقف العضوي، أو حين يقرأون كتابات بعض

الأوروبيين، مثل قول الفرنسي أوليند رودريغ: «قوة الفنون هي الطريقة الأسرع والأكثر فوريّة لتحقيق إصلاحات اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة». يعتقدون بأن هذا التأثير الذي أكَّده رودريغ يحصل في كلّ الثقافات، ويغفلون عن أن استجابات الثقافات تختلف اختلافًا نوعيًّا.. إن هذا الاعتقاد هو أحد الأوهام التي يعيشها بعض المثقفين، فيغيب عنهم أن الاستجابة إيجابًا أو سلبًا، تختلف من ثقافة إلى أخرى. فعامّة الأوروبيّين في مختلف أقطارهم ولغاتهم يعتبرون الفنون عناصر أساسية في ثقافتهم، فيتأثرون بها أشد التأثُّر. أما نحن العرب، فباستثناء المثقّفين ثقافة إنسانيّة عالميّة فإننا لا نعترف بقيمة الفنون، وإنما في الغالب نحتقرها ونحاربها ونسْخر منها، ونستسخف من يهتم بها ولا نعترف بقيمتها، وربما اعتبرناها من عناصر الفساد التي يجب أن نقاومها ونستبعد المهتمّين بها ونحمي أجيالنا من تأثيرها. لقد ظهرنا نحن العرب على مسرح التاريخ دعاةَ دين ولم يكن المضمون الحضاري واردًا في تفكيرنا ولا في سلوكنا. وبقيتْ هذه القيمة المركزية تهيمن على مفاصل حياتنا حتى تبرمج بها تلقائيًّا غير المتدينين، فهي جوهر ثقافتنا ومحور اهتمامنا وأساس وجودنا التاريخي...

إن الثقافة العربيّة الموروثة تتكوَّن من عناصر قد تحدَّدتْ بصرامة وحسم، فلا تقبل الانفتاح ولا النمو، ولا التغيُّر، ولا الإضافة، ولا الحذف؛ ويتمّ التحرك فيها داخل إطار ضيّق ضاغط، وهي قائمة على التلقّي والقبول والامتثال والترديد، وليس على التحرّك الحر والإنتاج المفتوح، والانطلاق في الآفاق، وإطلاق الخيال لارتياد المجهول، وابتكار الجديد. فالعقل العربي محصورٌ بتراث تَرَبّى على اعتباره نهاية الكمال وغاية الكفاية، فهو مستغرقٌ بتذكُّر واستظهار ما هو منجَز، وليس مشغولًا بإنجاز ما هو مفقود. فهو لا يتطلّع إلى أن يبتكر ويضيف ويثري الحياة، وإنما هَمُّه أن يتذكّر ويحفظ ويردِّد. إنه يؤكّد دائمًا وبثقة ويقين، ومن دون كللٍ، بأن هوانه ناتجٌ عن ضعف تمسّكه بموروثه، ولا يحاول أبدًا أن يدرك أن العكس هو الصحيح، وأن تمحوره حول نفسه وحصر ذاته في قوالب الماضي هو الذي حَرَمه من الانطلاق والإنتاج والإبداع، وجَعَلَه عاجزًا عن الإسهام في الحضارة العالميّة المعاصرة، فهو لا يدخلها إلا لكي يستخدم منتجاتها، ويعرقل مسيرتها، ويصرف أذهان أجياله عن إدراك عظمتها...

فباستثناء فئة المثقّفين ثقافة إنسانيّة عالميّة، وهم فئةٌ قليلة، فإن الناس في البيئة العربيّة

قد تبرمجوا وتربوا ونشأوا على أن لا يهتموا إلا بما تحويه الثقافة العربيّة الموروثة من عناصر محدَّدة ضمن أُفق مؤطَّر تأطيرًا صارمًا وضاغطًا. وهذا قد جعل الثقافة العربيّة السائدة التي تتبرمج بها الأجيال من أقل الثقافات تنوّعًا وخصْبًا، ومن أشدّها مقاومة لأي عنصر طارئ. إنها ثقافة محصورة بإطار حادٍّ وقليلة العناصر، حيث يجري التركيز المفرط على التراث والاكتفاء به والخوف العميق عليه، والتوجس الشديد من الأفكار المغايرة له، والنرجسية الغارقة في عشق الذات وأوهام السبق في كلّ شيء، والإحساس الساذج بالاكتفاء والاستغناء عن أي رافد من روافد الإبداع والفكر والفنّ. إن هذه وغيرها من أوهامنا العميقة والكثيفة المزمنة قد جعلت الاهتمام بالإبداع الأدبي محصورًا بفئة المثقفين، وهم أقليّة في أي مجتمع، إنهم في الغالب خارج النسق السائد، أما الجموع الغفيرة من الناس في العالم العربي، بمن فيهم ملايين المتعلّمين، والكثير من أصحاب الشهادات العليا، فإنّهم يستخفُّون بهذا التنوّع، ولا يدركون قيمة التجلّيات الإبداعيّة، ويستهينون بكلِّ ما تزخر به هذه التجلّيات من فكرٍ وفنٍّ وتنوير ونقد، وتشريح للواقع، وأفكار للحاضر ورؤى للمستقبل، وتجارب فريدة وثرية وسخية وناضجة، وآفاق واسعة ومتعدّدة، وطموحات عظيمة وأحلام واعدة...

إن اهتمام يوسف إدريس بالقصّة القصيرة كان بهدف تشخيص نماذج فرديّة من أنواع الخلل، أو المعاناة. ولكنّه اكتشف أن معالجة المشكلات الجزئيّة، أو الفردية لا تؤدي إلى الإصلاح العام. لذلك اتجه في ما بعد إلى الفنِّ الروائي الأكثر تجسيدًا للوضع العام. كما اتّجه إلى المقالة الصحافيّة لأنها تتيح له النقد المباشر. فقد كتب: «توصَّلْتُ إلى أن الحلَّ في التفكير الاستراتيجي.. لا يمكن إصلاح عيوب المجتمع بعلاج العيوب الفرديّة.. لا بد من وقفة مع مشاكلنا». إن الإحساس العارم الذي كان يغلي في داخل يوسف إدريس هو مصدر ذلك الاهتمام القويّ المستغرق. إن هموم مصر ومشاكل المصريين وحلم الانعتاق من التخلّف والأمل في تحقيق الازدهار، كانت هذه كلّها تستحوذ عليه وتدفعه رغمًا عنه، ولا تتركه يهدأ. فقد كان مبدعًا في الفنّ القصصي، والفنّ الروائي، وفي المقال الصحافيّ. كما كان صاحب فكرٍ فاحصٍ وعقلٍ ناقدٍ وعاطفةٍ وطنيةٍ مُتَّقدة، ولم يكن قادرًا على الانغماس في عمل مهني رتيب والاكتفاء به، بينما مشكلات المجتمع تتفاقم. لذلك اندفع للعمل الإبداعي يُشَخِّص

ويصف ويجسِّد وينتقد ويُشَرِّح. إن التوقّد الإبداعي ليس من أعمال الإرادة المحضة وإنما هو غليانٌ تلقائيّ كغيره من الانفعالات التلقائيّة، مثل الغضب والخوف. إنّه يتفاعل من دون مشورة الإرادة. فتوقُّد يوسف إدريس يحرّكه بقوة تلقائيّة، فلا يتيح له الغفلة، ولا يسمح له بالراحة. إن أفكاره تقلقه حتى يقوم بإفراغها على الورق، إنه يعاني طَلْقًا كطَلْق الحامل قبل الولادة.. ولكنّ وضعه يختلف بأنه ينتقل من فكرة أنجزها إلى فكرة أخرى تتطلب الإنجاز، فهو في حالة مخاض دائم وولادات متكرّرة، إنه يحترق دائمًا ولكنه يستمتع بهذا الاحتراق...

إنّ القلّة التنويريّة المبدعة من أمثال يوسف إدريس وزكي نجيب محمود وعبدالله العروي وتوفيق الحكيم وعثمان أمين ولطفي السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وعلي عبدالرزاق ومصطفى سويف ويوسف مراد ومصطفى عبدالرزاق وأحمد الأهواني وعبدالرزاق السنهوري وخير الدين التونسي والطاهر الحداد ومحمد كرد علي وشكيب أرسلان وأحمد أمين وخليل عبدالكريم وزكريا ابراهيم وفؤاد زكريا وعبدالغفار مكاوي وعلي الوردي وعلي حرب وهشام شرابي وسلامة موسى وعبدالله العلايلي ومحمد عابد الجابري ومحمد الحبابي وعبدالعزيز العيَّادي وجورجي زيدان وقاسم أمين وهدى شعراوي وحسن حنفي ومحمد أركون وفهمي جدعان ومحمد سبيلا وعصمت سيف الدولة وعبدالسلام بنعبدالعالي ونصر حامد أبو زيد وسالم يفوت وفراس السواح ومطاع صفدي ومحمد الحداد وسليم دولة وخلدون النقيب وعبدالمجيد الشرفي والصادق النيهوم وعبدالرحمن الشرقاوي ومهدي عامل وأحمد حسين المحامي وخالد محمد خالد والطاهر لبيب ومحمد كامل حسين وسيد القمني وعبدالرحمن منيف وحسين مروة وعبدالرحمن بدوي ونجيب محفوظ وفتحي رضوان وعبدالرحمن مرحبا ومحمود أمين العالم وشاكر مصطفى وجابر عصفور وبرهان غليون ومحيي الدين اللاذقاني وحليم بركات وعلي أومليل ووجيه كوثراني ومعن زيادة والطيب تيزيني وجلال أمين وفؤاد عجمي ومسعود ضاهر ومحيي الدين صبحي وغسان سلامة وحامد عمار وشوقي جلال وهشام جعيط وأنور عبدالملك وأحمد برقاوي ومحمد شحرور وعادل العوا وناصيف نصار ومراد وهبه وإلياس مرقص وجورج طرابيشي ونبيل سليمان وإبراهيم محمود وخليل أحمد خليل وجورج

قرم وشاكر النابلسي والعفيف الأخضر ونديم البيطار وقسطنطين زريق وعبد الكبير الخطيبي ومحمد المصباحي وغازي القصيبي وسعد الدين ابراهيم وكمال عبداللطيف وعبدالإله بلقزيز ومالك بن نبي ومصطفى حجازي وعدنان حب الله ومصطفى صفوان وسامي أدهم والسيد ياسين وعمار علي حسن وعلاء الأسواني وإمام عبدالفتاح إمام وفتحي التريكي وعاطف العراقي وفريال حسن خليفة وتركي الحمد وعلي مبروك وفتحي المسكيني وسعدي يوسف وغادة السمان ونوال السعداوي وفاطمة المرنيسي وسهير القلماوي وأحلام مستغانمي ورجاء بن سلامة وعلي الدين هلال ومحمد حسن عواد وسعيد السريحي ومعجب الزهراني وفالح شبيب العجمي وأسامة عبدالرحمن وصالح زيَّاد ومحمد المحمود وخالص جلبي وفخري صالح وفيصل درّاج وقاسم حدّاد وغالب هلسا وعلي أحمد الديري ومحمد العلي وأحمد بوقري وعبدالحميد الأنصاري ومحمد جابر الأنصاري وعلي فخرو وعبدالله حمودي وأحمد الخطيب وأحمد البغدادي ومحمد الرميحي وسليمان العسكري وشفيق ناظم الغبرا وطالب المولي وأحمد الصراف، وغيرهم من التنويريّين...

إنّ هؤلاء وغيرهم من التنويريين، رغم اختلاف مستوياتهم وتباين اهتماماتهم، وتنوُّع وسائل التعبير التي يستخدمها كلُّ واحد منهم من أجل التأثير والتنوير.. قد كافحوا وما زالوا يكافحون لإخراج المجتمع العربي من قوالبه الضاغطة الصلدة، وفَتْح عيونه على معطيات العصر وإبراز عوامل التقدّم، وإطلاق سراحه من أسر التاريخ ومعوّقات الواقع.. لكنّهم لم يجدوا في الماضي، ولا يجدون في الحاضر، استجابةً إيجابيّةً. وقد عالجتُ هذه المعضلة البشريّة التلقائيّة في كتاب لم أنشره بعد بعنوان (الريادة والاستجابة)، بينما دعاة البقاء في القوالب يجدون استجابةً تلقائيّةً عارمةً وجارفةً. فكلما كان دُعاة النفير ضد المغاير أشدّ انغلاقًا وأعمق تشدّدًا، كانت الاستجابة لهم أعمّ وأقوى وأسرع. إن دعاة الرفض يُستجاب لهم بشكلٍ قويٍّ تلقائيٍّ كثيف كتدفق الطوفان، بعكس روّاد التنوير الذين يواجَهون برفضٍ قويٍّ تلقائيٍّ عاصفٍ وكاسحٍ. إن دعاة الانغلاق يحركّون تطلّعات وأحلامًا تراثيّة مضخَّمة تضخيمًا مغريًا وآسرًا، فيدغدغون عواطف الناس، ويستميلونهم بالوعود والأوهام، ويُرعبونهم بالمخاوف والمخاطر. إنّهم لا يجدون أي صعوبة في التأثير لأنهم منساقون مع التيار السائد. بينما أن التنويريين يتحرّكون

ضد التيار، فيجرفهم هذا الاندفاع التلقائيّ العارم، وتضيع أصواتهم وسط ضوضاء المقاومات الصاخبة، فيغرقون في طوفان الرفض...

إن من دلالات غياب الإدراك الصحيح لعلاقة المثقّف التنويري بالواقع، هذا اللّوم المجحف الذي يوجَّه إليه، وهذا النعي المتكرّر له، وتأكيد زوال دوره والتصريح باختفاء تأثيره، وهذا يُوهم بأنّه في السابق كان مؤثّرًا. إن هذه الأقاويل الساذجة تكشف أن بعض المثقّفين العرب لم يدركوا أن الريادة عندنا كانت، وما زالت مرفوضة دائمًا وبشكل تلقائيّ، وأن التاريخ العربي في ماضيه وحاضره يؤكّد ذلك بوضوح صارخ، وأنّه لم يتغيّر الوضع في العصر الحديث، بل ازداد سوءًا، حيث يقف المثقّف التنويري وحده ليجابه طوفانًا من التحقير والتكفير والنفي والإقصاء والإيذاء والتشويه، بينما يقف خصومه ومعهم طوفانٌ من المؤيدين والمريدين والأتْباع والمتعاطفين. كما أنّهم مدعومون بقوّة ممن يملكون السلطة، بكلّ أبعادها الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فيستخدمون الإعلام والتعليم وكل وسائل التأثير. ثم إن شبكة التواصل الاجتماعي قد أتاحت لطوفان المؤدلجين سهولة التواصل، وهذا يمكّنهم من الحشد والاحتشاد، كما يمكّنهم من خنق أي صوت تنويري. فبمقدار تطوّر وسائل الحضارة المعاصرة تتوافر لمناوئيها في المجتمعات المتخلفة أدوات أكثر وأقوى وأسرع للرفض وإعلان الحرب وحشد العواطف وتجييش الأتْباع...

والأغرب من ذلك أن المثقّفين التنويريين العرب لا يتآزرون، وإنما في الغالب يتنافسون، بل يتصارعون على أولوية المكانة. فيهاجم بعضهم بعضًا، ويسْخر بعضهم من بعض. فالمثقّف التنويري العربي لا يواجه الظلاميين فقط، بل يواجه رفاق الدرب نفسه بسبب التنافس على المكانة والصراع على الأهميّة فكما. أوضح الناقد فخري صالح حين كتب: «الكُتّاب العرب يثيرون ضد بعضهم بعضًا حربًا ضروسًا في معاركهم الثقافيّة والفكريّة، كأننا عاجزون عن التفكير الهادئ العقلاني عندما يتّصل الأمر بذواتنا، وبحقل الإنتاج الذي نعمل فيه، أو نُنتج في فضائه نصوصنا، فنقوم بتصغير حجم العالم ليتّسع لنا ولإنجازنا.. نظرةُ الكاتب العربي إلى العالم الواسع حوله لا ترى من المشهد إلا الذات، التي تحجب إنجاز الآخرين، أو تعجز عن رؤية الأعمال العظيمة التي أنجزوها في الحقل الإبداعي نفسه.. هكذا تبدو خريطة الإبداع والانجاز ضيقة معزولة

عن المحيط الواسع الممتد باتساع الجغرافيات واللغات والأقوام». إن هذه الحقيقة البائسة لصراعات المثقّفين في ما يبينهم هي حقيقة فاضحة ومخزية ومدمِّرة...

إن التنوير رؤية وموقف وأخلاق قبل أن يكون اكتشافًا ومعرفة، فإذا كان المثقّفون يعلنون احتقار بعضهم لبعض فكيف يراد من عامّة الناس أن يستجيبوا لهم؟!! ومع فظاعة هذا الواقع، ومع محاصرة المثقّف التنويري من طوفان الرعاع ومؤسّسات الثبات وحُراس الواقع، بوصفه يحاول خلخلة هذا الواقع بنقده، وتعرية سوءاته، وفضح ألاعيبه، وكشْف عقمه، إلا أن المثقّف التنويري لا يواجه هذا فقط، وإنما يواجه حربًا شرسة وغبية ولئيمة وقذرة من الذين يَعُدُّون أنفسهم تنويريين. إنها مواقف مقزِّزة من مثقّفين تجاه مثقّفين آخرين، يرى كلُّ واحد منهم أنه هو الرائد الأول والمفكر الملهم والتنويري الأوحد الفذ. إنّ هذه المواقف المقزِّزة هي امتدادٌ لحب الرئاسة والتسلط والاستبداد، إنّها ثقافة عربيّة عامّة، وليست محصورة برجال السياسة من أمثال صدام حسين والقذّافي وغيرهما...

ونعود لنؤكّد أنّ الطبيب يوسف إدريس كغيره من التنويريين لم يخطط ليكون خارج السرب، وإنما صادف ظروفًا كشفت له زيف الواقع، وفتحت له آفاقَ ثقافة العصر، وعَرَّت أمامه ركام الموروث فراح يحاول كشف هذا الزيف، وتعرية هذا الركام الذي انكشف له تلقائيًّا. إنّ انكسار تلقائيّة برمجة الطفولة قد جعلته يدرك أن الأمراض العربيّة العامّة الثقافيّة والفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والإداريّة والتنمويّة أخطر من الأمراض الفرديّة الجسديّة، فانشغل بتشخيص مواطن الخلل. فهو الذي يقول: «... بالقلم أقاتل مثلما قاتلوا بالمدفع.. على الورق أعْبُرُ وأجتاح مثلما عَبَروا الماء والرمال.. أفعل مثلما فعلوا... غير معقول أن تكون الكلمةُ أقلَّ وقْعًا من الطلقة». كما كتَبَ: «« هدفي هو تحريض الشخصيّة المصريّة على القوة.. على التغلّب على ما فيها من تناقضات وازدواجية.. هدفي هو تحريض المصري على الثورة على القيود التي فرضَتْها عليه رواسب الماضي.. وأمنيتي أن أرى الإنسان المصري قد كسر الجانب العبودي من شخصيّته، وأصبح حُرًّا في فكره وفي فهمه لمعطيات الحياة.. العيوب الشخصية للفرد تنعكس على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والفكري للمجتمع.. من أجل هذا أكتب. إن يوسف إدريس كان يحترق من أجل إنقاذ مصر من تخلّفها الفكري،

وتحجّرها الثقافي، واستبدادها السياسي، وجمودها الاجتماعيّ، وفقرها الاقتصادي؛ لكن المجتمع لا يُصغي للناصحين المستنيرين النافرين من الواقع، وإنما يستجيب لدعاة التحجُّر، وينقاد لقادة الرفض، ويندفع خلف المندفعين إلى الخلف...

تحت عنوان (الطبيب المقاتل)، كتب الدكتور خليل أحمد خليل: «يوسف إدريس.. طبيبٌ.. كاتبٌ.. قاصٌّ.. روائيٌّ.. ومسرحيٌّ.. قاتَلَ في صفوف الثورة الجزائرية وجُرح سنة 1961.. تَرَكَ مهنة الطب وتفرّغ لمهنة الأدب الملتزم المقاتل.. عمل الدكتور يوسف إدريس مستشارًا ثقافيًّا في جريدة الأهرام.. سُجن غير مرة بسبب آرائه ومواقفه.. نال وسام الجمهورية في مصر سنة 1962، كما نال وسام الحكومة الجزائرية.. له 36 عملًا؛ أوّلها (أرخص ليالي) سنة 1953، وآخرها (أنا سلطان). أما أشهر أعماله فمسرحية (الفرافير)، التي لاقت اهتمامًا جماهيريًّا ونقديًّا جَعَلَتْ صاحبها في مصاف المبدعين العرب الكبار في هذا القرن.. لم يكن معروفًا آنذاك بوجهه الثوروي العملي، فهو عربي الهوى والالتزام والممارسة، لكنّه لم يكن من نمط غيفارا الحالم بنقل الثورة، بل كان من الملتزمين العرب بالثورات الشعبيّة لتحرير أراضي المعذَّبين.. يتلازم عنده تحرير الأرض والإنسان كما يتلازم تنوير المجتمع والدولة.. سنة 1990 نال جائزة الدولة التقديريّة في الأدب». ثم يقول د. خليل أحمد خليل: «يوسف إدريس خَرَجَ مبكّرًا من نقابة أطبّاء مصر.. كان عضوًا في نقابة الصحافيّين المصرية وفي نادي القصة.. واتّحاد الكتّاب المصريين.. عاش لشعبه بقلمه، وأعطى للأمة بعض ما يلزمها من علاج فكريٍّ، جوهره أن تكشف هي سلطانها على ذاتها، وأن يعي كلُّ عربي فلسفة أنا سلطان». هكذا كان اهتمامه الشديد بالإنسان الفرد، إنه يعلن ويؤكّد أنه يجب أن تتوقف الوصاية على الناس، والكف عن التدخُّل في خصوصياتهم، وأن تنتهي عصور السلطنات، وأن يزول السلاطين، فنحن في عصر الإنسان الحر.. عصر النزعة الفرديّة. فكلُّ إنسان هو سلطان نفسه في ما يتعلّق به ذاته، وعليه أن يدافع عن فرديته، فيصير سلطانًا لنفسه، ويحافظ على استقلاله، ويكافح من أجل الحريّة والانعتاق من الأغلال الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، وأن ينفكَّ من الارتهان الأيديولوجي. إن إنسانيّة الإنسان مرهونة بحريّته، فيجري انتقاص إنسانيّته بمقدار ما تُنتقَص حريّته، ولكن الحريّة المتاحة في العالم العربي كلِّه، وفق رؤية يوسف إدريس، لا تكفي لفرد واحد. فالعرب في مجال الحريّات يعيشون مسغبة فظيعة أو مجاعة قصوى...

إنّ يوسف إدريس كان يدرك أن معضلة مصر والعالم العربي كلّه هي غياب الحريّات، فهذا الغياب قد أدى، كما قال الدكتور صبري الشبراوي، إلى: «فقر الفكر.. وفكر الفقر». فالانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي وقمع الحريات قد حوَّل المجتمعات العربيّة إلى قطيع يساق إلى هوانه. ففقر الفكر يؤدي إلى تقزيم الإنسان وتضييق خياراته، وخنق إرادته، وإجداب حياته، وإغلاق الآفاق أمامه، وحَجْب الحقائق عنه. فالحضارة لم تتطوّر إلا بكسر القوالب والخروج إلى فضاءات الفكر الخلّاق، والابتكار المنتج، والإنجاز المتجدّد الذي يصنع الرخاء ويثري الحياة، ويوسّع آفاق الوجود...

لقد كان يوسف إدريس شديد التوقّد في مقاومة هذه الثقافة المُقْعدة، التي تحجَّر بها العقل العربي. فلم يدرك عظمة التغيّرات النوعيّة التي طرأت على الحضارة الإنسانيّة. ومصداقًا لذلك يقول عنه الناقد المفكّر محمود أمين العالم: «كان يوسف إدريس قيمةً انفجارية في حياتنا الثقافيّة والاجتماعيّة على السواء.. لم يكن المجدِّد والمطوِّر والمبدع فحسب، في الأدب العربي المعاصر، سواء في أبنيته الفنيّة، أو مضامينه الاجتماعيّة والإنسانيّة، ولم يكن الكاشف والفاضح والناقد الجسور فحسب، لسلبيات حياتنا الاجتماعيّة في مقالاته الصحافيّة، وإنما كان إلى جانب هذا كلّه الداعية والمحرّض والصارخ في البريّة من أجل التغيير الاجتماعي، والتجديد عامة». إنّ يوسف إدريس نموذجٌ صاخبٌ من نماذج عبقريّة الاهتمام التلقائيّ. لقد تخرّج طبيبًا، لكنّ اهتماماته التلقائيّة لم تكن اهتماماتٍ مهنيةً، وإنما كانت اهتمامات عامّة عميقة وواسعة، فاندفع مع اهتماماته التلقائيّة بقوة وانتظام واستمرار، كما هو شأن الطبيعة البشريّة في انسيابها، أو تدفُّقها التلقائيّ في كل المواقف، فلا إبداع من غير اندفاع تلقائيّ قوي مستغرق...

تقول الشاعرة المغربية المثقفة إكرام عيدي: «ظل يوسف إدريس أبا القصّة المصريّة أو تشيخوف العرب كما يُلقَّب.. يشعر بالغبن حتى آخر مراحل حياته، وهو الذي وَهَبَ قلمه للفئات المغبونة والمسحوقة، وعَزَم على تعرية العوالم السفليّة للمجتمع المصري، والأغوار المظلمة للنفسيّة الإنسانيّة، مؤمنًا بأن التغيير لا يولد إلا من عمليّة فَضْح.. وأنّ نُدوب المجتمع لن تندمل إلا إذا تركناها عرضة للشمس». ثم تُذَكِّر الشاعرةُ بأن يوسف إدريس أبدع (350) قصة قصيرة صدرت في (12) مجموعة قصصيّة. كما أبدع عشر روايات، وتسع مسرحيات، و(13) كتابًا تحتوي على مقالات صحافيّة...

وتُواصِل الشاعرةُ: «ظلَّ يوسف إدريس يحرس مملكته الإبداعيّة بنرجسيّة وشموخ واعتلاء.. مسكونًا بقلق السؤال.. منفلتًا من شرنقة التكرار والاستنساخ، رافضًا الانسحاق تحت سطوة الأيديولوجيا وجبروتها.. هادرًا مجلجلًا بقلم حُرٍّ مقدام، يُمتعه عري وفَصْحُ علنيٌّ بلغة ضاجَّة بالكثير من الشحنات الوجدانيّة والانفعاليّة.. لغة تغوص في تراب المجتمع المصري لتعانق فضاءً إنسانيًّا أرحب.. ظل متصالحًا مع آلامه وخيباته وانكساراته، برحابة فكر وروح، منتظرًا كُوَّةَ ضوءٍ ولو في أحلك الفترات. إن هذا المصالحة مع الآلام والخيبات والانكسارات ليس اختيارًا، وإنما هو الواقع يفرض نفسه فرضاً لا فكاك منه. أما المبدع ذاته فلا محيص له عن الاندفاع التلقائيّ. فهو لا يختار الاندفاع وما يصاحبه من الآلام والمكابدة، وإنما الاندفاع يسيطر عليه ويتحكّم به، فهو مدفوعٌ قسرًا بتوقّده التلقائيّ. إنه يُشبه اهتمام الأم بطفلها، فهي مندفعة للعناية به اندفاعًا تلقائيًّا. لذلك يرى المبدع الروسي الأكبر تولستوي بأن المبدع إذا استطاع إبعاد الفكرة التي تسيطر عليه وتتحكّم به، فعليه ألا يحاول الاستمرار، لأن عمله لن يكون عملًا إبداعيًّا، بل سيكون عملاً من أعمال الرتابة. فالشرط الإبداعي هو أن تَفرض الفكرةُ نفسها فرضًا تلقائيًّا مُلحًّا، فيستمرّ القلق والتوقّد والغليان حتى يتحقّق الإنجاز...

لقد أبدع يوسف إدريس في مجال القصّة القصيرة أكثر من أي مجال آخر، وكان رائدًا شامخًا في هذا المجال.كما أبدع في مجال الرواية، وفي مجال الكتابة المسرحية، وفي المقالة الصحافيّة. وكان واسع النشاط يجسِّد حضورًا لافتًا ومثيرًا، وصاخبًا في الملتقيات الفكريّة والأدبيّة والثقافيّة، سواء على مستوى مصر، أم على المستوى العربي بأجمعه. وقد كان ثراء موهبته وسخاء عطائه واضحًا منذ البداية، فأصدر مجموعته القصصية الأولى، ثم أصدر المجموعة الثانية، ولم يتردّد الدكتور طه حسين من تقديم هذه المجموعة، وكان وقتها في قمة مجده، بينما كان يوسف إدريس ما زال في بداية ظهوره، ومما كتبه في التقديم: «هذا كتابٌ ممتع أقدّمه للقراء، سعيدًا بتقديمه أعظم السعادة وأقواها». ثم يضيف: «يقرأ الناس كتابه الأول فيرضون عنه ويستمتعون به، ويقرأه الناقدون للآثار الأدبيّة فيعجبون له ويعجبون به، ويشجّعون صاحبه على المضي في الإنتاج، فيمضي فيه ويظهر هذا الكتاب، وأقرأه، فأجد فيه من المتعة والقوّة ودقة الحس ورقّة الذوق وصدق الملاحظة وبراعة الأداء مثل ما وجدت في كتابه الأول،

على تعمّق للحياة وفقه لدقائقها، وتسجيل صادق صارم لما يحدث فيها من جلائل الحوادث وعظائمها». ويلفت طه حسين النظر إلى أن إبداع يوسف إدريس هو إبداعٌ تلقائيّ حقيقيٌّ، ينساب من موهبته انسيابًا تلقائيًا، خاليًا من التكلف وعيوب الصُّنعة، فيستطرد: «لا يظهر في ذلك تردّدٌ ولا تكلّفٌ وإنما هو إرسالُ الطبع على سجيّته، كأن الكاتب قد خُلق ليكون قاصًا، أو كأنه قد جرَّب القَصص حتى استقصى خصائصه ونفذ إلى أسراره، وعرف كيف يحاوله فيبرع فيه». إن هذا التدفّق التلقائيّ هو نتاج الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق، إنه فيضانُ الاكتظاظ الداخلي...

إنّ تميّز إبداع يوسف إدريس قد جعله موضوعًا عامًا للنقاد، مهما اختلفت توجّهاتهم. وكما يقول المفكر الناقد محمود أمين العالم: «ما من ناقد أدبي أو دارس للأدب في مصر، مهما كان منهجه النقدي، أو توجّهه الفكري إلا كان يدرك القامة الإبداعيّة الشامخة لكتابات يوسف إدريس، سواء من حيث دلالتها الاجتماعيّة الإنسانيّة المتقدمة، أو من حيث فنّيتها البنائيّة الجماليّة، التي تُعَدُّ نقلة بالأدب العربي إلى آفاق عالميّة». هكذا هي عبقرية الاهتمام التلقائيّ القوي المستغرق. فهذه النقلة بالأدب العربي إلى آفاق عالميّة لم تأت من واحد من علماء اللغة، أو من أستاذ من أساتذة الأدب والنقد، وإنما تحقّقت بواسطة طبيب لا ينشط بدافع مهني رتيب، وإنما يتوقّد باهتمام تلقائيّ قوي مستغرق...

إن يوسف إدريس قد أبدع في أكثر من مجال، وكان رائدًا في بعضها.. لذلك يؤكّد محمود أمين العالم: «إنّ المستوى الرفيع الذي يمثّله إبداع يوسف إدريس، قصّاصًا وروائيًّا وكاتبًا مسرحيًّا، وكاتبًا لمقالات اجتماعيّة وسياسيّة. فأدب يوسف إدريس قد انتقل بالأدب العربي إلى مرحلة جديدة من الواقعيّة استوعبتْ بعمق مختلف متناقضات واقعنا المصري، وغاصت في هموم وجراح وأشواق هذا الواقع، واستطاعت أن تُعبِّر عنه تعبيرًا فنيًّا مكثّفًا.. ولقد أضاء لنا هذا جوانب خافية مطموسة من واقعنا المصري». فإبداع يوسف إدريس ليس سردًا خياليًّا، وإنما هو تشريحٌ لحالات فرديّة نمطيّة، وكشفٌ لأوضاع بائسة سائدة في المجتمع يجب الارتقاء بها، ثقافةً وفكرًا واقتصادًا وشبكة علاقات. وكما يكتب البروفيسور الناقد فرانك أوكونور في كتابه (الصوت المنفرد): «إن الرواية هي صوت المجتمع، في حين أن القصّة القصيرة هي صوت الفرد»، وقد أبدع يوسف إدريس في المجالين معًا...

لقد كان يوسف إدريس يدرك أن الحرية هي جوهر الحياة الإنسانيّة، فإذا غابت أو انتُقصت فإن ذلك يمثل عدوانًا على الفرد والمجتمع ومعنى الوجود الإنساني. وكما يقول محمود أمين العالم: «كان هاجسه الأساسي المتّصل هو التحرّر.. التحرّر إلى حدِّ الانطلاق الذي لا حَدَّ له.. التحرّر من قيود التقليد والتبعيّة الفكريّة والفنيّة والمجتمعيّة والحياتيّة، من أجل أن يحقّق الفرد ذاته تحققًا كاملًا.. ولهذا راح يغوص في قلب واقعه الاجتماعي المصري في أدق تفاصيل علاقاته المتشابكة، المتنوّعة، الجامدة والمتصارعة.. الظاهرة والباطنة خلال الأوضاع العامّة، وخلال انعكاس هذه الأوضاع العامة في الأقبية الخفيّة لنفوس شخصيّاته المختلفة، ليخرج من هذا كله برؤية مصريّة، وأدبٍ مصريٍّ شديد الخصوصيّة في مصريتّه.. مصريّة الحقيقة الجوهرية الحيّة في مفارقاتها وتناقضاتها، أو معاناتها وتطلّعاتها المختلفة والمتشابهة». إن القارئ لقصص وروايات يوسف إدريس والمتأمّل في كل إبداعه المسرحي والصحافيّ، والمتابع لنشاطه ومواقفه يتعرّف على طبيعة المجتمع المصري ومشاكله، وما يجب فعله من أجل تحريره من هذه المشاكل المتراكمة...

كان يوسف إدريس مرشَّحًا لجائزة نوبل في الأدب، وحين نالها نجيب محفوظ استشاط غضبًا وصدرتْ عنه تصريحات لا تليق برائد من روّاد التنوير.. كانت تصريحاته مشحونة بالنرجسيّة. كما كانت عدوانيّة وغير لائقة بحق نجيب محفوظ. ومع ذلك فإن هذا المبدع النبيل نعى يوسف إدريس بعد وفاته بعبارات زاخرة بالنبل والصدق والنقاء. فقد قال عنه: «لفَتَ الأنظار منذ أول كلمة نشرها، ومنذ أربعين عامًا واسمه يتردّد على الألسنة كمثال حي للإبداع القيِّم والفن الجميل». ويواصل نجيب محفوظ: «كانت أسعد أيامه أيام العطاء.. وأتعس أيامه أيام الانتظار، وحتى المرض والتجارب المريرة كان على أتم الاستعداد للمصالحة معها والرضا بها إذا وهبته مادة جديدة، أو فتحتْ له نافذة مغلقة، أو خصَّتْه بحقيقة خافيّة من حقائق الوجود». إن كلمات نجيب محفوظ ليست مجرد عبارات تأبينيّة، وإنما هي مكتظة بالدلالات. فقد كان يوسف إدريس يحب التجريب، ويتعمَّد أن يُعَرِّض نفسه لمواقف غير عاديّة من أجل أن يختبر الحياة، فيتعرَّف على الطبائع، ويستخرج منها أشمل التفاصيل وأدق النماذج وأعمق الدلالات...

إن يوسف إدريس مبدعٌ حقيقي وهو من دون شك يستحقّ جائزة نوبل، لكن

الرؤية العالميّة عن العرب تحجب أحقّيّة مبدعيهم، وتوحي بأن هذه المجتمعات التي ترفض أفكار العصر لا يمكن أن تُنتج مبدعين.. وهذه رؤية خاطئة. فالأفراد الروّاد يأتون مغايرين في أفكارهم للنسق السائد ويتحرّكون ضد التيار المهيمن، ولولا هذا الاختلاف النوعي بين الأفكار السائدة وأفكار الروّاد لما تقدّمت الحضارة. فلا يصحّ الحكم على الأفراد الروّاد بما تعيشه مجتمعاتهم من تخلّف وانغلاق...

إلا أن أحقّيّة يوسف إدريس لجائزة نوبل لا تبرّر موقفه الخاطئ من نجيب محفوظ.. هنا يحقّ لنا أن نقارن هذا الموقف اللاأخلاقي بموقف المبدع الألماني هاينريش بول. فحين أبلغوه عام 1972 بفوزه بجائزة نوبل كان ردُّ فعله التلقائيّ هو أنْ قال: وماذا عن غراس؟! لقد كان الاثنان مرشحَين للجائزة، فكان يرى أن غراس أحقّ منه.. وقد حَصَل عليها غراس العام 1999. أما نحن العرب فنبقى نتقاتل من أجل المكانة، حتى على المستوى الإبداعي والتنويري!!.. وهو موقفٌ لا يليق بمن يحملون مشعل التنوير. فالريادة الفكريّة ليست قدرة معرفية فقط، وإنما هي قبل ذلك صفاء نفس، وعَظَمة أخلاق، وتجَرُّد رؤية، واهتمامٌ رفيع، وعدالة تقيم، فهي موقفٌ أخلاقي قبل كلّ شيء...

ولكن مع هذه الهفوة الجارحة يبقى يوسف إدريس قمةً من قمم الإبداع، ورائدًا من روّاد التنوير. فعظمة الإنسان لا تعني كماله، ولا خلو حياته من الأخطاء، ولا سلامة شخصيّته من النقائص. فالسلبيات في الإنسان هي الأصل، فيستحق الثناء والتمجيد بمقدار تحرّره من النقائص. يجب ألا نبخس أي إنسان لمجرد أنه ارتكب أخطاء، بل نُقَيِّمُهُ بمقدار تجاوزه لبعض النقائص البشريّة التلقائيّة، فالنقائص هي الأصل، أمَّا التحرّر منها فهو الاستثناء. ويتفاوت الروّاد في مشوار التحرّر. إن تلقائيّة وأولويّة وأصالة النقائص في الإنسان مسألة محوريّة، يجب أن تنبني على أساسها أحكامنا على الناس، وتقييمنا لأعمالهم. فالانعتاق النسبي من النقائص هو الاستثناء، وبمقدار هذا الانعتاق الاستثنائي يستحقّ الإنسان الثناء، بعكس ما هو حاصل الآن، حيث يتم إسقاط المبدع لأي هفوة، وهذا جهلٌ فظيعٌ بالطبيعة البشريّة، أو تجاهُلٌ ظالمٌ لحقائق الواقع...

وأختم المقال بتكرار تأكيد أن الهمَّ التنويري كان هو الشاغل المقلق، والدافع المحرّك ليوسف إدريس. وكما يقول سعيد الكفراوي: «ينتمي يوسف إدريس إلى

سلالة نبيلة من كتّاب كانوا في زمانهم مجبولين على الحلم بالتغيير والتبشير بقيم الاستنارة والدعوة لقيم جمالية جديدة في الأدب والفنّ. ذلك الجيل الذي تشكّل وعيه بقيم الحقبة الليبرالية». وإذا كان الطبيب الأديب المبدع يوسف إدريس يمثّل القلّة التنويرية المبدعة التي كانت تحلم بالانفتاح والازدهار، فإن عموم المتعلّمين في البيئة العربيّة يكونون في الغالب محاربين للتغيير وذائبين في السائد، سواء أكانوا من الأطباء أو غيرهم، فالرافضون للتنوير يمثّلون الأكثريّة المهيمنة على الساحتين الثقافيّة والاجتماعيّة، وسوف نتناول ذلك في الفصل التالي...

تلقائيّةُ تضخُّمِ وتأجُّجِ بَرْمَجةُ الطّفولةِ

إذا كان الطبيب الأديب يوسف إدريس يمثّل القلّة التنويرية المبدعة، التي يسير أفرادها وحدهم ضد التيار السائد من دون أتباع، ولا مريدين، ولا مؤيدين وإنما فرادى وعُزَّلًا من أجل إطلاق الطاقة الإبداعيّة في البيئة، فإن طوفان المتعلّمين من الأطباء وغيرهم يبقون ذائبين في السائد، ومستميتين في ترسيخه والدفاع عنه، فهم يتحرّكون وخلفهم طوفانٌ من المريدين والأتباع، كما هي حال الطبيب أيمن الظواهري، والطبيبة عافية صديقي، والطبيب مجدي الصفتي، وغيرهم من مقاومي التحضُّر، والسبب في ذلك هو تلقائيّة الإنسان. فلمّا كان كلُّ إنسان يولد بقابليّات فارغة، مفتوحة، مطواعة، فإن الأسبق من الثقافات إلى قابليّات الفرد هو الذي يُكَوِّن عقلَه ووجدانه، ويحدّد القيم المحوريّة لوجوده، كما يحدد معايير القبول والرفض عنده، فيتحدّد اتجاه ومسار حياته. فإن الأفراد بعد أن يكبروا يستقبلون باستبشار تلقائيّ كلَّ مزيدٍ من تزكية وتبجيل ما تبرمجوا به، فتتضخّم وتتأجّج هذه البرمجة التلقائيّة مع كل إضافة، أو تحريض. وفي المقابل فإنهم يرفضون تلقائيًا كلَّ ما يتعارض مع هذه البرمجة التلقائيّة بفاعليّة التنافر المعرفي التلقائيّ. وبسبب ذلك استمرّ التنافر الثقافيّ بين الأمم، واستمرّت العداوات التاريخية، واستمر تخلّف كثير من المجتمعات، رغم كلّ ما توافر من علوم دقيقة، وأفكار خارقة، وتجارب ناجحة، واحتياجات ملحّة. فالإنسان كائنٌ ثقافيٌّ يصوغه ويحتلّه ويتحكّم به الأسبق إلى قابليّاته...

هذا هو الأصل التلقائيّ لحياة الناس في كل مكان وزمان، على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم، لكنْ لأسباب مختلفة يظهر في كل مجتمع أفرادٌ

استثنائيون يدركون الخلل الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي يكبِّل أممهم، ويحول بينها وبين الانطلاق في آفاق الوجود. فيندفعون لإيقاظ المجتمع للخلل الذي يوقف مسيرته، ويبدّد طاقته، ويستنزف الزمن من دون تغيير إيجابي رغم كلّ المظاهر الشكليّة التي توهم بأنه يسير في الاتجاه الصحيح. وفي البداية يتوهّم هؤلاء التنويريون بأنهم سوف يؤثّرون، وبأن المجتمعات سوف تستجيب لهم دون إبطاء، ثم يفاجأون بمرارات الرفض والنبذ، وربما يفاجأون بالملاحقة والتهديد العنيف...

فإذا كان الطبيب يوسف إدريس.. قد انصرف عن الاهتمام بطب الأفراد إلى الاهتمام بأوضاع المجتمع العربي عمومًا، والمجتمع المصري خصوصًا، فإنه كان يبصر ما لا يبصرون، وكان يتوقّع الاستجابة الإيجابيّة، ثم اكتشف الحقيقة بمراراتها القاتلة. لكنه كرائد لم يكنْ يملك التحكّم في اندفاعه. فالإنسان كائنٌ تلقائيّ تتحكّم به برمجة الطفولة، فإن انكسرت عنه، كما هي حال يوسف إدريس وحال كلّ الرواد والمبدعين، فإن اندفاعه في الاتجاه المضاد أيضًا يكون تلقائيًّا. فيبقى غير قادر على كبح، أو وقف اندفاعه التلقائيّ، لأن الأفكار التنويرية كانت تشتعل وتتأجّج في داخله، فيندفع رغمًا عنه. فهو لا يستطيع التحكّم بهذه الطاقة المشتعلة، أو إطفاء هذا التأجُّج...

إن يوسف إدريس لو كان يستطيع الهدوء والكفَّ عن محاولة التغيير، فقد كان سيعيش حياة هادئة ورخيّة وآمنة وكريمة وهانئة في مهنة الطب. لكنَّ أفكار التنوير ملتهبة في أعماقه، فهو لم يكن يستطيع أن يبتعد عن مشاكل التماس مع قلاع السياسة المستبدة القامعة، أو حصون الثقافة السائدة المستحكمة، فهو بتلقائيّة الاندفاع لم يكن قادرًا على أن يهدأ، فعرَّض نفسه للسجن والملاحقة والتهديد. فقد وجَّه نقده اللاذع إلى الأوضاع السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة البائسة، وكافح من أجل تحرير الإنسان المصري من سلبياته، وإخراجه من قوالب الماضي المتحجّرة، والانتقال به من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح، وتحريره من الثقافة القامعة المغلقة، إلى ثقافة العصر النامية الحافزة المفتوحة المتحركة...

إذا كان هذا هو شأن يوسف إدريس في اندفاعه التلقائيّ لتوطين أفكاره التنويرية المغايرة للسائد، بوصفه واحدًا من القلّة المستيقظة التي خرجت من كهف البرمجة

التلقائيّة. فإننا في المقابل نجد أطباء آخرين كثيرين كغيرهم من جموع المتعلّمين وغير المتعلمين، الذائبين في التيار السائد، ناشطين في تكريس ثقافة الانغلاق، ويقاتلون من أجل استمرار هيمنة الموروث، ويواصلون شحن المجتمعات العربيّة ضد الانفتاح، ويجتهدون في تعبئة النفوس بالكُرْه والحقد والمفاصلة مع السائرين في طريق التحضّر، ويسعون جاهدين لإغلاق الطرق المؤدّية إلى منابع الحضارة المعاصرة، ويكافحون باستماتة لإسقاط الحكومات العربيّة، ليس من أجل توفير الحريّات للناس والاعتراف بإنسانيّتهم، وفتْح أبواب الحياة السعيدة لهم، وإنما من أجل فرض رؤية أحاديّة مغلقة، خانقة للحياة، وقامعة للإنسان، ورافضة لوسائل الفرح، ومعادية للحضارة...

وكما يكرّر القول في ذلك المفكّر الكبير زكي نجيب محمود، ويتساءل بمرارة تساؤل العارف بالسبب الثقافي العميق: «لماذا انقضت على مصر منذ بدأت نهضتها الحديثة حتى الآن (1982) مائة وخمسون عامًا على الأقل، ومع ذلك لا نستطيع أن ندّعي بأنها تشرَّبَتْ من ثقافة العصر الجديد ما كنا نتمنى لها أن تتشرَّبه؟ لماذا أصبح المتعلّمون في مصر يُعَدُّون بعشرات الملايين ومع ذلك فإذا أمعنا النظر في هؤلاء المتعلّمين أنفسهم، وجدنا نفورهم من رؤية الحياة بنظرة علميّة تلتزم منطق العقل، لا يقلّ عن نفور أجدادهم الذين غمرتهم موجات الظلام إبان القرون؟». لا نهاية لظواهر أضرار التعليم في العالم العربي، والسّبب في تنامي هذه الأضرار هو التحجّر الثقافي، واستمرار إعادة إنتاج الموروث. فقد كان الهمُّ الأوَّلُ للتعليم هو تكريس أوهام التميّز، وتأكيد ادعاءات الكمال، وتبرير الاكتفاء، وإحكام الانغلاق، ومواصلة الرفض لأي مغاير، وإعلان الحرب على حامليه والمنادين به...

كان قاسم أمين يرى أن أوهام الكمال وادعاءات التميّز، وتبريرات الاكتفاء بالموروث قد خدَّرت العقل العربي، وأبقته غارقًا في تصوّرات الماضي التي أعمته عن التطوّرات النوعية الهائلة التي تحقّقت للإنسانيّة، وحرَمَته من إمكانات عظيمة تتيحها الطفرة الحضاريّة الحديثة. فمن أقواله في ذلك: «لا نتردّد في أن نصرّح بأن القول بأننا أرقى.. هو من قبيل ما تُنشده الأمهات من الغناء لتنويم الأطفال».

المفكّر عزّت حلمي في كتابه الضخم الحافل (النّهر والقهر)، يستعرض العوامل

السياسيّة والثقافيّة التي عانتها مصر، فأبقتها مختنقةَ العقل، تائهةَ العواطف، خاطئةَ الاتجاه حيث غرق عقلها ووجدانها في مسارات مضادّة للحياة، ومقاومة للوعي، ومعاكسة للتبصُّر، فيقول: «أن يكون رصيدنا الحضاريّ عيوبًا وعاهاتٍ سلبيةً كالطحالب على جدران المجتمع. أن يكون حصادنا الحضاريّ مجموعة سلوكيات قبيحة تُعَبِّر عن نفسها جهارًا نهارًا، فتعيق تقدّمنا ونهضتنا وسلوكنا المنشود. أن يكون كلامنا أكبر من فعلنا، وشعاراتنا هي أكثر إنجازاتنا فهو حصاد معيب. وسواء كان تخلفنا عجزًا أو غرورًا، فذلك في الإمكان تداركه بتدارك ميزان مدفوعات التقدّم، وبتصحيح مناهجنا وممارساتنا لنبتعد عن غرور الرؤية، سواء أكانت غرور الرؤية للذات بما نلوكه من حكايات الريادة، أو رؤية الآخر.. عيبٌ أن نكون هكذا.. سندخل الألفية الثالثة بالحالة نفسها التي واجهنا بها الألفيّة الثانية، وعلينا أن نتناسى ظروف القرن العشرين، ونبدأ في إعادة بناء الإنسان المصري، فكيف تتضافر جهود المثقفين في حفز الشعب والدولة لتغيير نسق القيم المريض؟!». إن قلّةً من الأفراد النابهين، من أمثال عزّت حلمي، يدركون أن هذا الخلل الفظيع المزمن هو خلل ثقافي عميق (معرفي ووجداني)، لكن لا أحد يصغي، ولا أحد يسمع، ولا أحد يستجيب لأن طوفان الوهم الثقافي يغمر المجتمعات العربيّة غمرًا، يمنعها من أن تفيق من الوهم الثقافي ويحول بينها وبين التبصُّر...

هذا الضياع الفظيع للأمّة يستوجب أن نكرّر التأكيد أنّ مجموعةً من الحقائق لا تخصّ العرب وحدهم، وإنما هي حقائق تتعلّق بالطبيعة البشريّة، وحتميّة التناسل الثقافي، وتَبَرْمُج العقل بالأسبق إليه، واحتباس بعض الأمم في مصيدة الثقافات المتحجّرة، وبقاء الشعوب تعاني من التخلّف والشقاء والفقر والقهر، ولكنّها مصروفة بثقافاتها المنغلقة عن إدراك الأسباب الحقيقة لكل ما تعانيه من بلاء، لأن سدنة الثقافة يواصلون حجب الحقائق، وإسناد البلاء المقيم لغير أسبابه، فتبقى الأمم والشعوب تمجّد ما كان سببًا في كل ما تعانيه من جهل وهوان وفقر وقهر...

إن انعتاقَ الأممِ ذات الثقافات المتحجّرة لن يتحقّق إلا إذا أدرك الناس، أو من يملكون قيادة الفكر والفعل، وقبل الجميع إذا أدرك قادة الثقافة والسياسة الحقائقَ التالية:

- الحقيقة الأولى، هي أن الإنسان لا يولد بعقل جاهز، وإنما يولد بقابليّات فارغة، مفتوحة، مطواعة، مجهَّزة تجهيزًا كاملًا لاستقبال المعلومات وفرزها ومعالجتها...

- الحقيقة الثانية، هي أن القابليّات الفارغة يحتلها الأسبق. فهذا الأسبق هو الذي يصوغ العقل والوجدان، ويستمر مهيمنًا عليهما، ويتحكّم بهما. فهذا الأسبق يتضمّن تلقائيًا معايير الصواب والخطأ، كما يتضمّن منظومة القيم وجملة التصورات. فلا إفلات من هذا المهيمن التلقائيّ إلا في حالات استثنائية نادرة لا يصحّ القياس عليها...

- الحقيقة الثالثة، هي أن القابليّات التي يولد بها الإنسان لا تملك آلية للتفريق بين الصواب والخطأ، ولا الوهم من الحقيقة، وإنما تمتصّ القابليّات المعايير السائدة في البيئة للخطأ والصواب والجميل والقبيح والمهم والتافه، كما يتطبّع الفرد بالتصوّرات السائدة في البيئة عن كل شيء، فبهذا الأسبق التلقائيّ تتشكّل رؤية الفرد عن العالم...

- الحقيقة الرابعة، هي أن هذا التكوُّن التلقائيّ للمعارف والتصوّرات والعواطف التأسيسية تصير هي العقل ذاته والوجدان عينه، وبه يتحدّد ما يتم قبوله والاحتفاء به، وما هو مرفوض تلقائيًا، والمبادرة تلقائيًا لمحاربته. فكلّ التصورات وكلّ المعارف إما أن تكون موافقة للتأسيس التلقائيّ فيتم الاحتفاء بها تلقائيًا، أو تكون مغايرة للأسبق فهي مرفوضة تلقائيًا...

- الحقيقة الخامسة، هي أن المعارف والمعلومات والتصوّرات والعواطف التأسيسية تجتذب كلّ ما يتفق معها من معلومات وتصوّرات، وكلّ ما يؤجّج العواطف التأسيسية، وترفض ما يتعارض معها بفاعليّة مبدأ التنافر المعرفي. وبهذه الفاعليّة المزدوجة للترحيب بالموافق والرفض للمغاير تتعمّق التصوّرات الأساسيّة تعمُّقًا مستحكمًا، فتنمو وتتّسع وتتضخّم مع كل إضافة، وتلتهب وتتأجّج مع كلّ تحريض، فتقوى هيمنتها على العقل والوجدان. وبذلك تشتد الحساسية من أي مختلف، ويقوى الرفض لأي مغاير، ولهذا تكون الموادّ الدراسيّة ذات

المحتوى العقائدي في التعليم ذات تأثير قويٍّ وعميقٍ ومؤجِّجٍ ومُلْهِبٍ. بينما لا يكون للمواد العلميّة المحايدة أي تأثير يقاوم الانجراف العقائدي...

- الحقيقة السادسة، هي أن المختلفين عقائديًّا في المجتمع الواحد إذا استمرت الحياة منتظمة ورتيبة قد لا يحسون بحِدَّة الاختلافات الثقافيّة، فيعيشون في وئام، ولكنْ ما إنْ يحصل أي اضطراب، أو تحريض، أو إثارة حتى يتفجّر التنافر الثقافي...

- ومن المهم أن ندرك أن طبيعة الدماغ تجعله في الدرجة الأولى باحثًا عن منافع البقاء وليس باحثًا عن الحقيقة. لكنّ كلّ الثقافات توهم الناس بأنهم مندفعون للبحث عن الحقيقة، وأنهم يرغبون بكلّ المعاني الرفيعة، كالتحقّق والعدل، ولكنْ علينا أن نكفَّ عن هذا الوهم، فندرك أن الدماغ يركّز على مصلحتنا الحيوية، وأن كل أجزاء الدماغ تعمل في الوقت نفسه. وكما يشير عالم الأعصاب دايفيد إيغلمان في كتابه الرائع (المتخفِّي): «يمكن فهم الدماغ بأفضل وجه على أنه فريق من المتنافسين»، وأن هؤلاء المتناسين: «لديهم خطط مختلفة جدًّا.. الدماغ يحوي فرقاء متنافسين يعتقدون جميعًا أنهم يعرفون الطريق الأفضل لحل المشكلات». ويقول: «يلجأ علماء النفس والاقتصاديّون في محاولة لفهم تفصيلات السلوك البشري إلى تفسير من نمط الثنائي، فيحوي الدماغ من وجهة النظر هذه نظامين منفصلين: أحدهما سريع وآلي وتحت مستوى سطح الوعي الشعوري؛ والثاني بطيء ومدرك وشعوري. ويمكن أن يوصف الأول بأنه آلي وضمني واستكشافي وحدسي وكلّي وتفاعلي واندفاعي؛ أما النظام الثاني فإدراكي ومنتظم وعلني وتحليلي ومحكوم بقاعدة وتأملي. وهاتان العمليتان في حالة صراع دائم». أما عالم الأعصاب بول ماكلين، فيرى أن الفاعليّة التلقائيّة هي لأجزاء الدماغ الغريزي الأقدم، فهي تستجيب تلقائيًّا. أما التعقّل فيأتي لاحقًا بعد فوات الأوان، وهو يقسم الدماغ إلى ثلاثة أجزاء: الدماغ الزواحفي، وهو يستجيب تلقائيًّا لكلّ ما يتعلّق بالبقاء؛ ثم النظام الطرفي، ويتعلّق بالانفعالات، وهو أيضًا يستجيب تلقائيًّا. أما المراكز العليا في الدماغ، فهي لا تعمل إلا بيقظة الوعي وفاعليّة التفكير النقدي...

ولأن العقل والوجدان بل الذات كلّها يصوغها ويهيمن عليها ويتحكّم بها الأسبق، فإن الفاعليّة تبقى للتبرمج التلقائيّ، أي للدماغ الغريزي والدماغ الانفعالي. أما مراكز الدماغ العليا فتبقى هاجعة حتى يزلزلها الفكر النقدي. ولكن هذا لا يحصل إلا نادرًا لعدد محدود جدًّا من الناس. وكما يقول المفكّر حمودة إسماعيلي في كتابه (نقد الفكر الاجتماعي): «فالعقل الزاحف هو الغريزة. فما إن تطغى الغريزة على الوعي حتى يتَحَيْوَن الإنسان لأن غريزته الزاحفة تزحف لاجتياح الوعي. ولزيادة التوضيح، نجد تمظهر هذا العقل الزاحف في الإنسان بحسب التعريف التالي: هذا العقل المسؤول الأساسي عن بعض السلوكيات الرئيسية، مثل الكراهية والخوف، إظهار العداء لكلّ من لا ينتسب للمجموعة، غريزة البقاء، الإقليمية، احترام التراتبية الاجتماعيّة، الحاجة للعيش ضمن الجماعة، الثقة في الزعيم... إلخ».

إن هذه الحقائق تتجسّد فيها معضلات الجماعات والمجتمعات والشعوب والأمم والجنس البشري بأجمعه، وهي معضلات متجذّرة في كلّ مكان، وطافرة ومشتعلة وقابلة للمزيد من الاشتعال. فإدراكُها وتحويل هذا الإدراك إلى ثقافة إنسانيّة عامّة سوف يؤدّي إلى تغيُّرات نوعّية عظيمة في الحياة البشريّة، فلا بد من أن يتكرّر الحديث عنها والتذكير بها...

من الأساسي جدًّا أننا حين نريد تقييم إسهامات التنويريين ومحاولاتهم الجادة والملحة في خلخلة الجمود الثقافي والانسداد السياسي والإخفاقات التنمويّة في العالم العربي، أو غيره، ينبغي أن يكون واضحًا لنا أن الإنسان كائنٌ تلقائيّ، وأنه كائنٌ ثقافيٌّ، فالناس لا تحرّكهم معلومات درسوها اضطرارًا وكُرْهًا في المدارس والجامعات، وإنما تحرّكهم بنياتهم الذهنيّة والوجدانيّة المتشكّلة تلقائيًّا في الطفولة، وما بعدها من تعزيزات. إن ما يجب إدراكه بعمق وانتباه هو أن لكلِّ أمّة عقلًا ثقافيًّا يختلف نوعيًّا عن العقول الثقافيّة للأمم الأخرى. فبخلاف التصوّر السائد عن العقل، فإنه لا يوجد عقلٌ بشريٌّ عامٌّ جامعٌ، بل لكلِّ أمّةٍ عقلٌ تختلف به عن غيرها من الأمم، فتتشكّل به عقول أجيالها تلقائيًّا في تناسل ثقافي حتمي صارم. فكل جيل لأيِّ أمة يتبرمج تلقائيًّا بما ورثه من الجيل الذي قبله، فكل بيئة تصوغ عقول أبنائها تلقائيًّا بما تلقّته من أسلافها، فتبقى هذه العقول مغتبطة بما تبرمجت به تلقائيًّا، وتعتقد بأنه العقل الأوحد، فلا يخطر على

بالها أن تضعه موضع المساءلة والفحص، وهذا هو الإعضال الإنساني الذي ما زال مستعصيًا، لأن كل بيئة تثق تلقائيًّا بعقلها ثقة مطلقة، فيظلُّ محجوبًا عن أضواء العقل الناقد، ومحميًّا ومحصَّنًا من المساءلة والفحص والتصحيح. فالعقل التلقائيّ في نظر ذاته هو العقل الأوحد الصحيح الكامل. أما عقول المغايرين فمليئة بالتفاهة والحماقات والضلالات والشرور. فالثقافة هي عقل المجتمع، وكلّ ثقافة في نظر ذاتها هي الثقافة الوحيدة التي على الحق، أما الثقافات الأخرى فهي ضلالات مطلقة وأوبئة فتاكة معدية قاتلة، فيجب الابتعاد عنها ومقاومتها وتحصين كل الأجيال منها...

إذا كان الطبيب الأديب يوسف إدريس قد كافح من أجل تنوير المجتمع المصري لإخراجه من الاحتباس في التراث، الذي أدى إلى استمرار التخلّف والعجز عن الإسهام في حضارة العصر، بل مواصلة الرفض القاطع للدخول فيها فكريًّا، ووصمها بأنها حضارة دنيويّة ذات مضمون سطحيٍّ. فإن قصّة الطبيب مجدي الصفتي المؤسّس لتنظيم (الناجون من النار) على الضدِّ من ذلك تمامًا، حيث بقي محاربًا لأي تطوّر، وفيه تتجسّد فاعليّة البرمجة الثقافيّة التلقائيّة. كما أن قصة هذا الطبيب تأتي شاهدًا على أن التعليم حتى لو كان في تخصّصٍ عصريٍّ محضٍ لا يؤدي إلى إحداث تغيير في البنية الثقافيّة التلقائيّة، بل إن الخضوع للتلقين الدراسي يُخمد قابليّة يقظة العقل الفردي، ويزداد تأثيره بمقدار طول مدة الخضوع التعليمي. فتَفَتُّح العقل يتطلّب التشكُّك وكثافة التساؤلات، ولكنّ هذه المثيرات العظيمة تكون نادرة أو مقموعة في الأجواء التعليميّة، كما في البيئة المنغلقة كلّها. إن قصة مجدي الصفتي تؤكّد أن حفظ المعلومات والنجاحات المدرسية تعتمد على الحفظ، بل إن الذكاء ذاته لا يدلّ على وجود الفاعليّة النقديّة لدى من يملكه. فالمتعلّم يحفظ ويجيد التعامل مع المعلومات للنجاح، كما قد يجيد العمل المهني مهما تطلّب من المهارة والدقة، لكنّه لا يملك قدرة العقل النقديّة، التي هي أهم فاعليّات العقل، فمن دون هذه الفاعليّة الأساسيّة يبقى الفرد إمَّعة مهما تلقّى من تعليم...

إن التعليم الذي يعتمد على الحفظ قد يكون ضرره أكبر من نفعه. إضافة إلى أنه قد صار معروفًا أن الذاكرة القويّة قد يملكها متخلّفون عقليًّا. فقد ثبت أن بعض المعتوهين يملكون ذاكرة خارقة، كما في حالة كيم بيك المعروف على مستوى العالم، وقد أهدى

أستاذ الطب النفسي دارولد تريفيرت إليه كتابه (جزر العبقريّة). فقد كان كما يقول هذا البروفيسور: «يحفظ عن ظهر قلب 12000 كتاب، ويعتبر دماغه السيد إيفريست في الذاكرة غير المحدودة، التي تشمل مجالات مختلفة من المعرفة في التاريخ والجغرافيا والأدب والموسيقى والرياضة والعلوم والدين. أطلق عليه بعض الأشخاص غوغل الحي. ومع ذلك فقد نصح الأطباء والديه عندما كان صغيرًا بأن يودعاه مصحّة عقلية». وبعد تقارب العالم وتوافر وسائل التواصل بكثافة وسهولة، تبيّن وجود حالات كثيرة مماثلة. فالمعتوهون من ذوي القدرات الخارقة قد ظَهَروا في أكثر من مكان، ومنها حالة الشاب المصري أحمد مسَلَّم الذي يعاني من تخلف عقلي شديد، إلى درجة أنه لا يستطيع خدمة نفسه في أي شيء. فهو وقد تجاوز العشرين عامًا من العمر ما زال في احتياجه لغيره كالرضيع الذي لا بد أن يُخدم في كل شيء، ومع هذه الإعاقة الذهنيّة الشديدة فإنه يحفظ أي شيء يسمعه من غير أن يفهم أي شيء مما يحفظ. لقد حفظ القرآن بعدد من اللغات، وهو لا يعرف شيئا عن هذه اللغات. وهذه الظاهرة باتت معروفة عالميًّا، فبعض من يعانون التوحّد، أو يعانون من خلل في الدماغ تكون عندهم قدرات خارقة ومذهلة في الحفظ، أو في الرياضيات، أو في غيرهما. إنه تميّز مذهل في جانب، وتخلّف فظيع في جوانب أخرى. والخلاصة التي أودّ تأكيدها هي أن استمرار التعليم في الكثير من المجتمعات محكومٌ بالثقافات الموغلة في الانغلاق قد أسفر عن ظواهر بائسة كثيرة تستوجب إحداث تغييرات جذرية في العمليّة التعليميّة، أسلوبًا ومضمونًا، يكون محورها تنمية التفكير النقدي. فهذه الخاصّيّة العقليّة النادرة كانت خلف كل نشأة وتطوّرات العلوم والفنون والنظم والتقنيّات، وكلّ القيم الحضارية العظيمة...

لذلك نجد هذا الطبيب (مجدي الصفتي) يتفوّق في دراسته، لكنه يعتنق أفكارًا موغلة في الانغلاق والحمق والسذاجة. بل ويتصوّر أنه بقتل بضعة أفراد في مصر (صحافيّ ووزير) يستطيع قلب نظام الحكم في دولة كبيرة كمصر. ويتخيّل أنه بمجموعة من الأفراد المندفعين للتضحية والمغامرة يستطيع إقامة دولة إسلامية تقوم على أفكاره التكفيرية. إنه رغم تفوّقه الدراسي يبقى غارقًا في أعمق دركات الحمق والرعونة والسذاجة وسُخف التفكير. إن الناس ينخدعون بالنجاح التعليمي فيتوهّمون أن المتفوّق دراسيًّا يكون أعلم وأنضج وأحكم، ويجهلون أن التعليم يعتمد على الذاكرة

وليس على القدرات العقليّة العليا. كما أنهم يغفلون عن أن الذكاء ذاته هو من وسائل البقاء، وليس دليلًا على الحكمة، ولا على يقظة الوعي الفردي واعتاقه من الكهف الثقافي. فالذكاء للإنسان مثل الأنياب للسباع المفترسة، وسيلة بقاء وأداة صراع...

إن الطبيب مجدي الصفتي كان ذكيًّا ومؤثّرًا، حيث استطاع أن يجتذب مجموعة من الأتباع، ولكنه في الوقت نفسه كان ساذجًا بصورة مخزية في فهم تعقيدات الحياة. إنه نموذج على تجسيد مهزلة العقل البشري. لقد خصَّه (ثناء رستم) بفصل من كتابه (أئمة الخفاء)، ويوضح عنه: «المتفوّق سيتحوّل إلى زعيم لجماعة تكفيرية كان أكثرهم تفوّقًا ونبوغًا في دراسته.. لكن لم يكن الطبّ هو هاجسه، وإنما كان التنقيب في قلوب وعقول الآخرين.. واعتنق أفكار التكفير.. أطلقت الجماعة أحكامًا غايةً في الخطورة عندما استبعدت صفة أهل الكتاب عن المسيحيين، ودعت علنًا إلى استخدام العنف ضدهم.. للصفتي أيديولوجية تميّزه عن باقي جماعات التكفير.. وَضَعَ منهجًا رئيسيًّا لجماعته في أنه لا تعاوُن مع الطواغيت من الحكام والعلماء المضلّلين، وأسقط كل ما شرّعه البشر، وألقى بالمضلّين في النار. وإذا كان المجتمع المصري لا يعمل بالشهادتين، ولا تطبَّق فيه الشريعة الإسلامية، فيصبح بذلك مجتمعًا كافرًا، حاكمين ومحكومين، وترتّب على ذلك أنها (أي مصر) أصبحت دار حرب، ويصبح من الضروري إعلان الجهاد لتغيير الحكم فيها بالقوة». ويضيف ثناء رستم: «والجهاد لديهم يبدأ بمحاربة الحاكم وأعوانه، من وزراء ومسؤولين لكونهم كفارًا محاربين لله ورسوله، ولذلك يحل إهدار دمائهم وأموالهم. ولأن الدولة وحكومتها كافرة فيحل للجماعة استحلال أموال الدولة ليتم استخدام تلك الأموال في الجهاد من أجل إنشاء الدولة المسلمة، وبذلك يصبح كلُّ ما في الدولة حرامًا على المؤمنين. فالعمل في أجهزة الدولة الكافرة حرام، ورجال الشرطة والجيش والقضاء كفار، والذبائح في تلك الدولة حرام، والدواجن حرام».
ويواصل ثناء رستم: «وتبنَّى مجدي الصفتي أفكار شكري مصطفى، من أن عدم تطبيق نصٍّ من نصوص الشريعة الإسلامية يعني عدم تطبيق الشريعة جميعها، ومن لا يطبّقها فهو كافر.. والكافر يُهدَر دمه. والحل الوحيد لكي يأمن المسلم على دمه وحياته وماله أن ينضم إلى جماعة الصفتي الذي سينقذه من ضلال الكفر منذ بدء الدخول إلى جماعته. وهو ما يعني الدخول إلى دين الله. أما من يرفض الانضمام إلى جماعته عندما

يتم إبلاغه بالدعوة فهو كافر منكر للإسلام وخارجٌ عن الملّة، مرتد من الإسلام وليس له صلاة أو صيام أو حج». إن الإنسان مهما كان مستوى ونوع تعليمه قد تسيطر عليه أفكار وتصوّرات وأوهام في غاية الغرابة، وبقدر اليقين بهذه الأفكار يشتدّ الانغلاق ويُستبعَد الشك، ويغيب التفكير الناقد. فبغياب العقل النقدي تختفي فاعليّة العقل، ويصير مجرّد أداة للعواطف العمياء المجتاحة...

الطبيب مجدي الصفتي يتوهّم أنه هو وحده على الحقّ، فيحكم بكفر كل المجتمع المصري، ويقرّر أن علماء الدين، من دون استثناء، ضالّون مضلّون وكفار، وأن المال العامّ والخاصّ حلال للتنظيم ليتقوَّى به على محاربة الدولة المصرية، التي هي في نظره كافرة. فمصر كلّها صارت عنده دار حرب. ويتوهّم أنه بهذا التنظيم الذي يضم مجموعة من الأفراد سوف يتمكّن من إسقاط السلطة القائمة. لقد تخيّل أنه يستطيع إسقاط دولة بحجم جيش مصر، ومؤسساتها الأمنية الضخمة، وأن يهزم الشعب كلّه ويرغمه على الخضوع للأفكار التكفيرية. فيقيم الدولة التي تتّفق مع تصوّراته الحمقاء. لم يكن مجنونًا، بل كان يتحرّك ويعمل بذكاء، لكنه كان مهووسًا بالأفكار التكفيرية التي سيطرت على عقله وملأت وجدانه، وهو في ذلك ليس استثناءً، بل يتكرّر ظهور أمثاله، ويجدون أتباعًا. وربما تتّسع دائرة الأتباع فيصبحون خطرًا مروّعًا لأنهم مندفعون للموت، ولا يحترمون حياة الناس. وقد شاهد الناس حوادث كثيرة يُقْدم شخص على تفجير نفسه في جمْع من الناس لا يعرف منهم أحدًا، وإنما لمجرّد أنهم ينتمون لاتجاه عقائدي مغاير. إن قابليّة الاستهواء موجودة عند مئات الملايين من الناس، فمن الخطأ النظر إلى حالة الطبيب مجدي الصفتي على أنها حالة فرديّة. فهو وأمثاله يمثّلون ظواهر ثقافيّة وليسوا حالات فرديّة...

إن حالة الطبيب مجدي الصفتي ليست حالة فرديّة بين المتعلمين من الأطباء والمهندسين والمحامين والمحاسبين، وغيرهم من مختلف التخصّصات. ففي كتاب (أئمة الخفاء) لثناء رستم يتحدث أيضًا عن كثيرين، ومنهم طبيبٌ آخر غير الصفتي طَبَّع زوجته وأولاده على سلوكيّات خاصّة، تنطلق من تكفير المجتمع وعدم مؤاكلة الناس، وتحريم ذبائحهم، فالتزمت الأسرةُ: «بعدم التعامل إلا مع جزّار واحد، لأنه يطعم البهائم التي يذبحها طعامًا حلالًا». فأفكار التكفير وباءٌ امتدّ واتّسع، فاعتنقه كثير من المتعلّمين

من مختلف التخصّصات، لكنني هنا اقتصرت على فئة الأطباء كنموذج على عُمْق فاعليّة الثقافة التلقائيّة، وضآلة فاعليّة التعليم، حيث ينحصر دوره في المجال المهني ولا يؤثّر في طريقة التفكير ككلّ، ولا في الولاءات الذهنية والوجدانية التلقائيّة العميقة، ولا في منظومة القيم، ولا في معايير القبول أو الرفض، والاستحسان أو الاستهجان...

إنّ الناسَ حين يتصرّفون بيقين قاطع غير قابل للشكّ، ولا للمراجعة في قضايا وجوديّة كبرى، يصبحون خطرًا على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم، بل وعلى العالم كلّه. وليس مجدي الصفتي وجماعته سوى مثالٍ على فاعليّة الأفكار القاطعة في القضايا الوجوديّة العميقة الكبرى. وكما يشرح ثناء رستم: «كانت تلك هي الأسباب التي دعت مجدي الصفتي وجماعته إلى إعلان الجهاد، والقيام بأعمال للتخلّص من الحاكم الكافر ومعاونيه، وخلق حالة من الفوضى وزعزعة النظام». وكانت بداية التنفيذ اغتيال وزير الداخلية اللواء حسن أبو باشا، ثم محاولة اغتيال رئيس تحرير مجلة المصوّر مكرم محمد أحمد، ثم محاولة اغتيال وزير الداخلية اللواء النبوي إسماعيل. وبعد هذه المحاولة الفاشلة هرب الطبيب مجدي الصفتي وبقي ست سنوات متخفيًّا تحت اسم مغاير في حي من أحياء الصفيح العشوائية، يتدبّر أمر نفسه، ويموّه على الكلّ، فيفْتَح له ورشة كهرباء، فيصير الطبيب كهربائيًّا. ولكنه بقي يواصل الاتصال بأتباعه...

ومما له دلالة عميقة، أنه رغم أنه مطارَدٌ من السلطة، ويعيش متنكّرًا وفي وضع خطير وبائس، إلا أنه حين علم بأن أحد الأتباع قد انفصل عن الجماعة لم يتهاون مع المرتد!! فرغم أن السلطة جادّة في تعقُّبه، وأن أي عمل لافت سوف ينبّه السلطة لوجوده، لكن أفكاره المسيطرة لا تفلته مهما كانت المخاطر. فأمر بقتل الشخص الذي انفصل عن الجماعة، لأنه في نظره مرتدٌّ. وقد نفَّذ الأتباع أمره، وكانت هذه الحادثة سببًا في انكشاف مخبئه. وأثناء السنوات الست مرَّ بمواقف عسيرة غاية العسر، واضطر في إحدى المطاردات أن يقذف بنفسه في مجرى مفتوح للصرف الصحي، وبقي غاطسًا فيه ست ساعات يغمر جسده في الماء باستثناء رأسه الذي يخفيه في جزء من هيكل سيارة ملقى في المجرى. ولكن رغم كل ما عاناه فقد بقي صامدًا، فلا شيء يقنعه بالعدول عن هذا الهذيان الذي رسخ في أعماقه وتشرَّبته ذاته...

لم يكن مجدي الصفتي مدفوعًا إلى مكابدة هذه المشقّات والأخطار بالعوز، ولا بالفقر، ولا بعدم توافر العمل. فهو طبيبٌ ناجحٌ، وقد كان بإمكانه أن يعيش في مستوى من الحياة يتمنّاه الكثيرون، لكنّه يتخلّى عن كل ذلك لأنه آمن بأفكار هي عنده أهم من الطب ومن رغد الحياة، بل أهم من الحياة ذاتها، وحتى بعد أن اضطر أن يعيش متخفيًا في حي من أشد الأحياء فقرًا، وأن يتحوّل من طبيب معتبَر إلى عامل في ورشة لم يجعله ذلك يسائل نفسه ويراجع أفكاره، وإنما بقي مقتنعًا بأنه على الحق الصريح، وأن كلّ المصريين حمقى وكفار وضالّون وجاهلون ومحاربون لله ورسوله، وخارجون عن الإسلام، وأنه يجب إعلان الحرب عليهم...

هكذا هو العقل البشري، يصوغه ويحتلّه ويتحكّم به الأسبق إليه، فمعاييره تكون في داخله. إن معايير القبول أو الرفض، وعوامل الاستحسان أو الاستهجان تتكوَّن تلقائيًا ضمن برمجة العقل والوجدان. وهي معايير وعوامل تختلف من ثقافة إلى أخرى، بل من فرد إلى آخر. ففي المجتمعات متعدّدة الثقافات إذا سارت الأوضاع بانتظام تلقائيّ بقي المختلفون غير منتبهين انتباهًا جيّاشًا لاختلافاتهم، فتهيمن رتابة الحياة. ولكن بمجرّد حصول اضطرابات أو إثارة، يتغيّر كل شيء، فيتحرك المارد الهاجع ويتأجّج الإحساس بالاختلاف، ويتفجر الحقد الكامن، كما حصل في يوغسلافيا بعد انحلال الاتحاد اليوغسلافي، حيث تحوَّل الأصدقاء وزملاء الدراسة ورفاق العمل من الإثنيات المختلفة إلى وحوش يقتل بعضهم بعضًا، في سعار مرعب. إن البرمجة التلقائيّة خطيرة غاية الخطورة إذا هي أُشعلت، ولكن الناس لا يفطنون لخطورتها ما دامت هاجعة وغير مستثارة...

إن الناس لو تأمّلوا أوضاع مختلف الأمم، وأحوال ملايين الأفراد من الذين يحملون مختلف الشهادات الأكاديمية، في تخصّصات متماثلة، لكنّهم في الوقت نفسه يحملون تصوّرات ثقافية عميقة، مختلفة عن الإنسان والكون والوجود والحياة والتاريخ، لكان لهم بذلك عبرة ويقظة. وعلى سبيل المثال، فإنني بينما كنت أكتب هذا الفصل كانت أمامي جريدة الشرق الأوسط، وتحمل مقالًا بعنوان (البقرة المقدسة لاعبٌ في السّياسة الهندية)، الكاتب هندي اسمه براكتي غويتا، فهو من البيئة نفسها، وهو يشير إلى أنه باعتبار الهندوس يقدّسون البقرة فإنها تسببت في إثارة مشكلات سياسيّة ضخمة. ففي

الهند تشكّلت جمعيات ذات طابع ديني للدفاع عن الأبقار وحمايتها، إلى درجة قَتْل وسَحْل وتهديد من يتعرّضون للأبقار. وهكذا الإنسان مهما تعلّم، ومهما تقدّم يبقى مرتبطًا بما نشأ على تقديسه. فالناس خارج الهند يسخرون من تقديس البقرة، بل الناس داخل الهند من غير الهندوس يتهكّمون بهذا التقديس. وفي المقابل، فإن الهندوس الذين يقدّسون البقر يسخرون من معتقدات غيرهم، ويتهكّمون بطقوس كثيرة يمارسها غيرهم. ولكن الناس لا ينتبهون إلا لتفاهات الآخرين، أما تفاهاتهم فهي محمية عن العقل الفاحص...

ومع أن معطيات العلوم، خصوصًا علم الأعصاب، قد كشفت طبيعة الدماغ، فصار معروفًا كيف تتبرمج تلقائيًّا قابليّات الإنسان في طفولته، فإن نتائج هذه المعطيات الكاشفة ما زالت محصورة في نطاق ضيّق من الباحثين والمهتمين. لكنّ الحقيقة ومصلحة البشريّة كلها تقتضي تعميم هذه المعرفة لتصل إلى كلّ الناس ليدركوا أن مفهومهم للعقل يجب أن يتغيّر تغيرًا جذريا ونوعيًّا وكلّيًّا، فالإنسان لا يولد بعقل جاهز، وإنما يولد بقابليّات فارغة مفتوحة، تتشكّل تلقائيًّا بالبيئة التي ينشأ فيها، فيكتسب نوعًا من البنية الذهنيّة والوجدانيّة تتّفق مع ما هو سائد في البيئة التي قولَبَتْه بكل ما فيها من نماذج ومفاهيم واهتمامات وقيم وتصوّرات وأحلام وعداوات وثارات وحب وكُرْه واستحسان واستهجان. إنه بهذه البنية وبالوعي الذي ينبثق منها تلقائيًّا، وباللغة التي اكتسبها تلقائيًّا، إنه بكلّ ذلك يصير منتميًا تلقائيًّا لهويّة ثقافيّة واجتماعيّة ووطنيّة وقوميّة ودينيّة تختلف نوعيًّا عن الهويّات الأخرى السائدة في العالم. فيصير مُسَيَّرًا بنوعٍ من العقليّة العامّة المغايرة للعقليّات الثقافيّة الأخرى. إن الإعضال الأكبر والأشد استعصاء أنه ليس من طبيعة العقل المبرمَج أن يكتشف طبيعته التلقائيّة، بل يظلّ واثقًا ثقة مطلقة عمياء صماء بتصوراته ونماذجه، وبكلّ ما تحويه بنيته الذهنيّة والوجدانيّة. فَيُقَدِّم ذاته فداء لهذه البنية التي تشكَّلَتْ تلقائيًّا من غير اختيار ولا تدبُّر، حتّى لو كان من الذين يعبدون البقر أو الشيطان، وحتى لو كان يحمل دكتوراه في الفيزياء النووية، أو في علم الأعصاب. إنها المفارقة البشريّة الكبرى التي ما زالت خارج نطاق اهتمام القيادات العالمية رغم أنها مصدر معظم المشكلات والأزمات!!...

وعلى سبيل المثال، فإن ذلك الطبيب الصهيوني الذي سبق أن تحدّثنا عنه، غولدشتاين

مثلًا، الذي كان يتأجّج حقدًا على العرب، وقدَّم نفسه فداء لصهيونيته، وأقْدم على قتل جموع المصلّين في الحرم الإبراهيمي، فَقَتَلَه الناجون منهم. إنه فَعَل ذلك بدافع تلقائيّ ينساب انسيابًا تلقائيًا من بنية ذهنيّة ووجدانيّة وعقائديّة تكوَّنتْ تلقائيًا. لكنْ لو أنه في الشهر الأول من ولادته أخَذَتْه أسرةٌ عربية فلسطينية فنشأ لديها كواحد من أبنائها فإنه سيكون عربيًّا في انتمائه وفي لغته وثقافته ودينه وولاءاته واتجاهات عواطفه، وفي كلّ بنيته الذهنيّة والوجدانية، وسوف يكون عدوًّا لكل ما هو صهيوني، وربما يصير قائدًا من قادة «حماس»، أو ربما يكون فدائيًّا من فدائيي كتائب عز الدين القسَّام...

هتلر بتعصُّبه المفْرط للقومية الجرمانية، ومعاداته الشديدة لفرنسا، واندفاعه للثأر منها على الذلّ الذي عانت منه ألمانيا بهزيمتها الساحقة في الحرب العالميّة الأولى.. لو أنه بعد ولادته أخذته أسرةٌ فرنسية فنشأ فيها، فسوف يتشكَّل عقله ووجدانه بالثقافة الفرنسية، فيصير فرنسيًّا في لغته وثقافته ومنظومة قيمه وفي انتمائه وولاءاته، وربما صار قائدًا فرنسيًّا يحرص على أن يُلحق الهزيمة بألمانيا...

إن الإنسان كائنٌ تلقائيّ إن هذه التلقائيّة تجعل كلّ فرد يتقولب تلقائيًّا بقوالب الثقافة التي ينشأ عليها. كما أنها تجعل كلّ ثقافة تصوغ أفرادها تلقائيًّا بقوالب خاصّة تختلف نوعيًّا عن قوالب الثقافات الأخرى. فالعقليّة الصينية مثلًا، تختلف نوعيًّا عن العقلية الانجليزية. إن الثقافات المختلفة كيانات متمايزة لا تقبل التزاوج إلا بعد ترويض وتطويع جهازها المناعي القوي، الذي هو قبل الترويض يقاوم بنجاح مطّرد أي فكر طارئ مغاير. إن ما تتشرّبه قابليّات المولود هي التي تحدِّد هُويته واتجاهه ونمط حياته.. تَخَيَّل لو أن ستيف جوبز لم يتركه أبوه السوري في أميركا، ولم تتبنّاه أسرةٌ أميركيّة فيتبرمج بالثقافة الأميركيّة.. لو أن أباه السوري أخذه يوم ولادته وجاء به إلى سوريا فتشبَّع بالثقافة العربيّة، إنه حتمًا لن يكون ستيف جوبز الذي غيَّر العالم بمبتكراته المذهلة، وإنما سيكون شخصًا آخر كلّيًّا.. هكذا هو الإنسان، كائنٌ تلقائيّ يتشبّع بثقافة البيئة التي ينشأ فيها، إنه كائنٌ ثقافي، فالثقافة التي يتشبَّع بها هي التي تحدِّد بنيته الذهنيّة والوجدانيّة، وتحدِّد ولاءاته واهتماماته واتجاهات نشاطه ومنظومة قيمه...

إن الإنسان بما يُضاف إليه فيتشكَّل به عقله ووجدانه، وليس بما يولد به. إن كلّ

فرد يولد كالصفحة البيضاء، أو المادة الطرية، أو الكأس الفارغة. فالبيئة هي التي تملأ فراغه تلقائيًّا، وتكتب محتوى قابليّاته الفارغة، فتحدِّد بنيته الذهنيّة والوجدانيّة بكلّ ما تحويه من قيم وولاءات وعداوات وأحقاد واستحسان واستهجان ونماذج وأحلام وطموحات وتصوّرات واهتمامات واتجاهات. فما تتكوَّن به الذات تلقائيًّا لا يمكن أن تقوم الذات عينها بالتشكّك فيه، أو إخضاعه للمراجعة والفرز والتصحيح إلا في حالات فرديّة خارقة...

من أكبر الشواهد على تلقائيّة الإنسان وخفاء هذه التلقائيّة، هو عدم انتباه ملايين الناس في كل الثقافات وعلى امتداد التاريخ إلى طبيعة عقولهم، وكونها مختلفة كل هذا الاختلاف بسبب اختلاف البيئات. فالكلُّ مغتبطٌ بما تبرمج به من غير أن يخطر على باله أن يتساءل عن سبب هذا الاختلاف الثقافيّ الذي لا نهاية لها، وكيف أنه يترتب عليه نتائج وجودية عميقة. فرغم أن أوضاع الأمم والشعوب في كل مكان تؤكّد بوضوح لا مزيد عليه، بأن كل مجتمع يرث هويته وطريقة تفكيره ومنظومة قيمه وأنواع اهتماماته واتجاه سيره من أسلافه، في تناسل ثقافيٍّ حتميٍّ صارمٍ. كما تؤكّد بالمستوى نفسه من الوضوح بأن ليس للتعليم أي دور إيجابي في التغيير. فالتّعلم تابع للثقافة السائدة، ومحكومٌ بها وليس حاكمًا لها، ومع كل هذا التجذّر للبرمجة التلقائيّة وضآلة دور الحقائق الطارئة، فإن من النادر أن يتساءل الناس عن ذلك، وإنما يبقون مغتبطين في ثقافاتهم المتناقضة من دون توقّف، أو استشكال. ويبقى معنى وجودهم مرتبطًا بالهويّة الثقافيّة التي لم يكن لهم أي دور في اختيارها، بل تشرّبتها قابليّاتهم تشرُّبًا تلقائيًّا!!!...

لذلك، فإن التفوّق في التعليم ليس له أي دلالة فكرية، وإنما يبقى الفرد مشدودًا بقوة إلى برمجة الطفولة والتعزيزات التالية لها، أما المعارف والمهارات المهنيّة فيبقى تأثيرها في النطاق المهني فقط، ولا يتجاوزه إلى أعماق الذات. وعلى سبيل المثال فإن الطبيبة الباكستانية عافية صدِّيقي كانت متفوقة جدًّا في دراستها، وكان تفوّقها الدراسي لافتًا في كل المراحل الدراسية، وكان مستقبلها العلمي واعدًا جدًّا، إلا أنها فجأة تخلَّت عن كل ذلك وانضمت للقاعدة، وأصبحت من أبرز المطلوبين عالميًّا، وهي لا تمثّل حالة فريدة وإنما الواقع يعج بأمثالها من مختلف التخصّصات...

كتبتْ جريدة الشرق الأوسط: «عافية صدِّيقي تحمل شهادة دكتوراه، ومتخصّصة في علوم الأعصاب، وهو تخصّص نادر، وتخرجت في جامعة أميركيّة، وعاشت في الولايات المتحدة لمدة عقد من الزمن، ثم اختفت عن الأنظار لمدة خمس سنوات، وحينما ظهرت أُدينت بالإرهاب». لقد حوكمت وأدينت وصدر الحكم عليها بالسجن مدة (86) عامًا، وهذا كالسجن المؤبَّد، وهي الآن مسجونة في أميركا...

وأقرب دليل على أهميتها الجهادية، أنه وقبل إقدام داعش على ذبح الصحافيّ الأميركي جيمس فولي عَرَضَتْ داعش على أميركا أن تُطلق سراح الصحافيّ مقابل إطلاق سراح عافية صديقي، وهذا يؤكّد أهمّيتها الكبرى في التنظيم...

والغريب في الأمر أنها نالت الدكتوراه في علم الأعصاب عن (آثار المحاكاة على الإدراك الحسّي والذاكرة)، حيث يُفتَرض أن تكون مدركة لطبيعة القابليّات البشريّة، وأن قناعات الإنسان تتكوَّن بالتشرُّب التلقائيّ والمحاكاة، وليس عن طريق البحث والتحقّق. وأن هذه القناعات التي تكوَّنت تلقائيًّا تبقى مهيمنة هيمنة مطلقة مهما اجتاز الإنسان من مراحل التعليم، وأنه لا يمكن التحرّر من هذه الهيمنة إلا باكتشاف حقيقتها، ووضعها تحت مجهر البحث والتحليل والتحقّق. ولكن، رغم تعمّقها في هذا المجال الأساسي فإنه لم يساعدها على الإفلات من قبضة البرمجة التلقائيّة...

إن حالة الطبيبة عافية صديِّقي تؤكّد بامتياز ضآلة دور التعليم، حتى في أرفع وأعمق التخصّصات. فإذا كانت عالمة وطبيبة أعصاب لم ينقذها علمها من البرمجة التلقائيّة، فإن هذا يؤكّد الهيمنة المطلقة للأسبق إلى القابليّات. فالإنسان يبقى مرتَهنًا ارتهانًا تامًّا بما تبرمج به تلقائيًّا، أما التعليم، فمهما بلغ مستواه، ومهما كان مجاله، فإنه يبقى تعليمًا مهنيًّا، وتبقى البرمجة دومًا متحفّزة لتدفع الإنسان في الاتجاه الذي تحدَّد قبل التعليم...

إن قصة الطبيبة عافية صدِّيقي ذات دلالة عميقة عن هيمنة ما قبل التعليم، وضآلة دور التعليم مهما كان مجاله، ومهما بلغ مستواه. فهي من أسرة جمعتْ بين التديّن الشديد والتفوّق التعليمي. فوالدها طبيب، وشقيقها مهندس معماري، وشقيقتها طبيبة في مجال الأعصاب نفسه، ورغم ذلك، ومع أنها امرأة وأم لعدد من الأطفال، وطبيبة ومتفوّقة في الدراسة، وتعمل في مجال مهني رفيع مبهج، ومع ذلك تندفع إلى مجال كهذا المجال

العنيف والخطير...؟! أي قوّة داخليّة عميقة تنتزعها من كل هذه المغريات، وتدفع بها إلى مواقع الخطر ورعب المطاردة...؟!

إنها قوّة الإيمان العميق الذي لا يتزعزع، ولا يتردّد، ولا يلتفت، ولا يشكّ، ولا يفحص، ولا يتحقّق وإنما يندفع بقوة تلقائيّة فائرة متجدِّدة. إن إقدام هذه المرأة على ترك ما هي فيه من مكانة اجتماعيّة، وأهميّة مهنيّة، ونجاحات علميّة، وزواج مستقر بطبيب، والاندفاع إلى أصعب مناطق الخطر وتعريض نفسها للشقاء والمطاردة، ودفع أطفالها لمستقبل غامض.. إن تركها لمغريات الحياة المستقرة الكثيرة والمغرية نتاج طاقةً إيمانيةً هائلة في أعماقها تقتلعها بقوّة من وفرة الحياة، وتقذف بها في سراديب الاختفاء والعمل السري، والتخطيط للقتل والانتقام...!!!

قد نجد بصيصًا من إجابة حين نعلم أن لأسرتها علاقة وطيدة مع الرئيس الباكستاني الأسبق الجنرال ضياء الحق. فهذا الرجل هو الذي غَيَّر اتجاه مسيرة باكستان، من دولة تحاول توطيد الاتجاه المدني إلى اتجاه عسكري سلفي، موغل في السلفيّة. ونَتَج عن ذلك ظهور طالبان وغيرها من التنظيمات الجهادية، واتجاهات التشدُّد. إن استيلاء ضياء الحق على السلطة في باكستان كانت له نتائج مدمرة لباكستان ذاتها، كما امتد الضرر إلى كل العالم. فبسببه تدهورت أوضاع الباكستان تدهورًا يكاد يحيلها إلى دولة فاشلة، كما صارت مفرّخة لأفكار التكفير وإنتاج الاضطرابات؛ وكلّ ذلك حصل لأن ضياء الحق أصابه هوس التشدّد، وكذلك كان الوضع بالنسبة للطبيبة عافية صدِّيقي. إن الدافع العميق الفائر في أعماقها كان أقوى من حب الحياة الرخيَّة، وحب الأطفال، وحب المكانة المهنيّة الرفيعة، وحب النجاح، وحب الحياة الزوجية المستقرّة.. بل أقوى من حب الحياة ذاتها. إنها مدفوعة بقيمة تراها هي قيمة عليا أعظم عندها من كلّ الدنيا وما فيها، وأهم من جميع مباهج الحياة، وهذا ما يفعله الهوَس العقائدي...

وليست حالة هذه الطبيبة حالة استثنائية، فقد شاهدنا أطباء في عزِّ صحتهم وأعمارهم ونجاحاتهم، يفجّرون أنفسهم في عمليات انتحارية تمزّق أجساد الأحياء، وتزهق أرواح المدنيين، وتنشر اليُتْم والترمُّل...؟!!!...

إن أسامة بن لادن كان يملك من مغريات الحياة ما لا مزيد عليه.. المال الوفير،

والمكانة الاجتماعيّة العالية، والإمكانات الهائلة المتنوّعة، ولكنّه يترك كلّ ذلك ويَغرَق أوّلًا في الجهاد الأفغاني، ثم يصبح المطلوب الأول في العالم. إن الإنسان حين يؤمن بقضيّة يصير مندفعًا بقوّة لا تقاوَم. إن هذا الاندفاع التلقائيّ القوي هو الذي يبني الحضارة إذا كان عن وعي استثنائي وبصيرة ريادية خارقة؛ وفي المقابل أيضًا، فإن الاندفاع التلقائيّ الأعمى هو الذي يدمِّر الحضارة ويفسد الحياة...

إن حالة بن لادن، أو الطبيب مجدي الصفتي، أو الطبيبة عافية صدِّيقي لم تكن استثناء أو حالات فردية، وإنما ظواهر ثقافيّة شائعة تأتي ضمن اتجاه ثقافي عام، حيث نجد أن ظواهر التشدّد والحركات الإسلامية والتنظيمات الجهادية قد تكوَّنت بواسطة أطباء ومهندسين ومتخصّصين في القانون، أو المحاسبة، أو غير ذلك من المجالات التعليميّة الحديثة...

فأيمن الظواهري طبيب، وشقيقه محمد مهندس معماري ومؤسس حركة الجهاد الإسلامي فتحي الشقاقي طبيب، وشكري مصطفى خرّيج كلية الزراعة، وسيد إمام شريف طبيب، ومحمد عبدالسلام فرج مهندس، وأسامة بن لادن متخصص في إدارة الأعمال، وأبو محمد المقدسي تخصُّص علوم، ومحمود الزهَّار طبيب، وعبدالعزيز الرنتيسي طبيب، ومحمد مرسي دكتوراه هندسة، وعبدالمنعم أبو الفتوح طبيب، وعصام العريان طبيب، ومحمود عزت طبيب، ومحمد البلتاجي طبيب، وحلمي الجزار طبيب، ومحمد خيرت الشاطر مهندس، وأحمد محمود شوشة مهندس، وناجح ابراهيم طبيب، ومحمد بديع طبيب بيطري، ويوسف ندا مهندس زراعي، وسميح أبو زيدان طبيب، والهضيبي مرشد الأخوان تخصص قانون، والمرشد بعده مشهور متخصّص في الأرصاد الجوية، وخالد مشعل تخصُّص فيزياء، وتوفيق الشّريف المدير العام للمجلس الإسلامي للدعوة - مهندس، ونجم الدين أربكان مهندس ميكانيك.. والسلسلة تطول جدًّا. فأكثر مؤسّسي الأحزاب الإسلامية، أو التنظيمات الجهاديّة كانوا من الأطبّاء والمهندسين ودارسي القانون، ويحملون شهادات عليا في مختلف التخصّصات المهنيّة الحديثة...

ولم يكن هؤلاء الأطبّاء والمهندسون مجرّد ناشطين في العمل الجهادي، وإنما

كانوا مؤسّسين ومنظِّرين. إنهم يمثّلون المرجعيّة الفكريّة والدينيّة للتنظيمات الجهاديّة. فشكري مصطفى له كتاب (الخلافة)، وسيد إمام عبدالعزيز الشريف له كتاب (الجامع في طلب العلم الشريف)، وهو كتابٌ ضخم يقع في مجلدين.. وله كتاب آخر بعنوان (العمدة في إعداد العدّة). فكتابات هذا الطبيب تُعَدُّ من أهم مراجع الناشطين الجهاديين..

أما المهندس محمد عبدالسلام فرج فله كتاب (الجهاد: الفريضة الغائبة)، وهو مرجع أساسي للجهاديين...

إن إيراد هذه الأسماء ليس بقصد المدح ولا القدح، كما أنه ليس للاستقصاء، بل هم نماذج تؤكّد استحكام وهيمنة البرمجة الثقافيّة، كما تؤكّد ضآلة دور التعليم على التوجهات الفرديّة والجماعيّة، بل إن التعليم يعمّق ويكرّس ويؤجّج البنيات الذهنيّة والوجدانيّة التي تَكَوَّنت تلقائيًّا. فالدارسون يتلقّون في التعليم موادَّ كثيفة لتأكيد الموروث، فتشتعل بها عواطفهم، وتمتلئ أذهانهم، وتتفاعل بقوّة مع كل ما تعجّ به حياتهم. أما العلوم الحديثة فتُدرَس للنجاح، ولا يبقى لها أي تأثير إيجابي، بل إن قانون التنافر المعرفي النفسي كفيل باستبعاد أي تأثير يتعارض مع البنية الذهنيّة والوجدانيّة المتشكّلة تلقائيًّا. فالبنية الذهنيّة والوجدانيّة الأساسيّة تظلّ هي التي تحرّكهم باهتماماتها وقيَمها. إن الناس تحرّكهم اهتماماتهم العميقة، وقيَمهم التلقائيّة التي تشبّعوا بها من البيئة، أما التعليم فتنحصر مهمّته غالبًا في الحصول على مهنة...

إن شخصيّة الإنسان وهويته ومحاور اهتمامه ونزوعاته العميقة وتوجيه طاقاته لا تحدِّدها دراسةٌ، اتَّجه إليها مضطرًّا كوسيلة مهنية ومَصْدر أمان معيشي، وإنما تحدّدها بنيته الذهنيّة والنفسيّة والوجدانيّة التي تشكّلت تلقائيًّا في الطفولة، وتعززت بالتنشئة في مراحل حياته...

القسم السابع

مقارنة بين

1 ـ الطّبيبُ الفيلسوفُ كارل ياسبرز

2 ـ الطّبيبُ السفّاحُ رادوفان كاراديتش

في هذا القسم مقارنةٌ بين الطّبيبِ الفيلسوفِ كارل ياسبرز بفلسفته العميقة وحسِّه الإنسانيِّ الرفيعِ مقابلَ الطّبيب السفّاح رادوفان كاراديتش.

- الطبيب كارل ياسبرز يهجر الطب، فيصير بمحض اهتمامه التلقائيّ القوّي المستغرق أستاذًا للفلسفة، ويصبح من أشهر فلاسفة القرن العشرين ومن أكثرهم تأثيرًا في العالم...
- وفي المقابل نجد أطباء يهجرون مهنة الطب لا ليكونوا فلاسفة أو روادًا أو مبدعين وإنما لينغمسوا في ما تبرمجوا به في طفولتهم. فالأصل في حياة عموم الناس هو الانتظام في برمجة الطفولة والغبطة بها والاستماتة في الدفاع عنها، فليس للتعليم تأثير على البُنى الذهنيّة والوجدانيّة المتكوِّنة تلقائيًّا...

فالطبيب أيمن الظواهري - مؤسّس رئيسي لجماعة الجهاد.. ثم يصير رئيسًا للجماعة، ثم ينضم للقاعدة ويصبح زعيمًا لها بعد قَتْل بن لادن... والطبيب عبداللطيف موسى يؤسِّس جماعة (جند أنصار الإسلام)، ويتقاتل مع منظّمة حماس... والطبيب محمد بن محمد البدري ينشغل بالوعظ وكتابة المقالات والتأليف الإسلامي، فتنتشر كتبه ومقالاته وخطبه...

- أيضًا نذكر أسماء أطباء هجروا الطبّ وانشغلوا بالقضايا القومية والوطنية أو القضايا الإنسانية مثل جورج حبش ووديع حداد ومنصف المرزوقي وغيرهم...

والطبيب عبدالرحمن السميط يقضي أكثر من ثلاثين عامًا في مجاهل أفريقيا، يساعد الفقراء، وينشئ المشاريع، ويتابع الدعوة إلى الله...

- الطّبيب الصربي كاراديتش.. ينشئ حزبًا سياسيًّا، ويعمل على إبادة المسلمين في البوسنة، ويرتكب مجازر جماعية فظيعة تتجاوز أي سلوك وحشي...
- إن الإنسان يستخدم العلم في نقد نظريّات العلم، أمّا ما يتبرمج به الإنسان تلقائيًّا فليس للعلم عليه أي تأثير إلا في حالات نادرة، كالريادات الفكريّة الخارقة، كما حصل لديكارت وروسو وكانط وهيوم وغيرهم من رواد الإنسانيّة العظماء...

تخلّى عن الطبِّ فصارَ أستاذًا للفلسفةِ

يهيمن القصور الذاتي على كل البشر في كل زمان ومكان. فالانتظام في الموروث السائد هو الضابط المتحكِّم في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات والإنسانيّة أجمع، ولولا الإفلات الاستثنائي النادر العجيب من هذه العطالة العامّة المستحكمة، الذي يحصل لأفراد معدودين في مختلف الأزمنة والأمكنة، لما تطوّرت الحضارة. فقانون القصور الذاتي يُحكم قبضته بشكل تلقائيّ حيث يبقى الناس في مختلف الثقافات مغتبطين بنمط تفكيرهم ومنظومة قيمهم وأوهام تاريخهم، وكلّ ما تعنيه هويتهم. فيتوهّمون أنهم اختاروها بأنفسهم اختيارًا حرًّا، مع أنه لم يكن لأي منهم أي خيار فيها. فقد وجدوا أنفسهم متبرمجين بها تلقائيًّا، فبقوا يدافعون عنها حتى الموت. فليست الأجيال كلّها على امتداد التاريخ في أية ثقافة سوى أمواج في النهر الثقافي الذي تكوَّن تلقائيًّا...

إن هذا الاستمرار التلقائيّ طبيعي تمامًا، فكل فرد يولد بقابليّات فارغة، مفتوحة، مطواعة، قابلة للتشكّل بأي شيء يستقبلها في البيئة. فتمتصّ حواسّه من بيئته ما يَتَشَكَّل به عقله، وما ينبثق عنه وعيه. وبهذا تتكوَّن له بنية ذهنيّة ووجدانيّة وهويّة يتحدّد بها انتماؤه واتجاهه ومساره ولغته وتصوراته ونماذجه واهتماماته وأحلامه وطموحاته وقدْواته ومنظومة قيمه وولاءاته، ويبقى غالبًا مقولَبًا بهذا التكوين طوال عمره. إن هذا التشكل التلقائيّ هو عقله ووجدانه ومعاييره، فبه يحكم على كلّ ما يختلف عنه، وبسبب هذا التكوين المغلق يصبح الاستمرار تلقائيًّا، ويصير المغاير مرفوضًا تلقائيًّا...

أما ما يكتسبه الفرد ويُضاف إليه بعد ذلك، فهو مثل الأوراق والأغصان والنمو والامتداد للشجرة نفسها، لكن نوع الشجرة ونوع الثمار يكون قد تحدَّد في التشكُّل التلقائيّ. فالبرمجة التلقائيّة هي التي تحدّد الاتجاه والمسيرة والمصير، ولما إنه ثبت علميًّا أن المعلومات الأسبق تتحكَّم بالمعلومات التالية، ولأن المجتمعات تكثّف في

التعليم بمختلف مراحله المواد التراثية، فإن التعليم بسبب هذا التكثيف والشحن قد يكون أحيانًا بالغ الضرر، وفادح الخطر. ولأن القابليّات يحتلّها الأسبق، فإنها لا تحتاج إلى مواصلة التأكيد، فإذا حصل وبكثافة وتركيز فإن الخطر يتضاعف. فإذا أضفنا معضلة التنافر المعرفي فإن التعليم الجمعي يكرّس الواقع مهما كان اتجاهه ومستواه، فهو لا يؤثّر في هذه البنية المتشكّلة تلقائيًّا إلا في تكريسها وتأجيجها، فهو يضخّم المحتوى تضخيمًا غير عقلاني. إن كثافة المواد في مناهج التعليم المتعلّقة بالموروث في مختلف الثقافات، وعند مختلف الشعوب، تنتج عنها أخطر النتائج. ومن هنا يشتدّ التنافر بين الثقافات المختلفة...

إن تعميم التعليم بمراحله وتخصّصاته قد نشأ أساسًا في أوروبا، ثم امتدّ منها إلى كلّ العالم لسد احتياجات البيروقراطيّة من الكوادر والموظّفين والمنفّذين للأعمال المختلفة، بعد أن تحوّلت السلطة من دولة الجباية والأمن إلى دولة التنمية والخدمات والأمان الاجتماعي، بما في ذلك قطاع التعليم نفسه الذي لم يكن معروفًا في العصور القديمة. فأصبح قطاع التعليم يستوعب أعدادًا هائلة من المعلّمين والموظفين، وكذلك استهدف تنظيم التعليم على هذا النحو الواسع توفير القادرين على أداء مختلف الأعمال، في المصانع والمؤسسات والجيوش. أي إن فكرة التعليم الجمعي جاءت لتوفير المهنيين وليس لتكريس الثقافات التي هي بطبيعتها ذات استمرار تلقائيّ حتمي. فالاستمرار الصارم حاصلٌ قبل التعليم، ولم تكن الحتميّة الثقافيّة بحاجة إلى أي مزيد. لذلك فإن الأصل في التعليم أنه لتوفير المهنيين، فيصير الفرد طبيبًا، أو مهندسًا، أو محاميًا، أو استاذًا جامعيًّا في أي مجال. فالعمل المهني منفصلٌ عن البرمجة الثقافيّة، مهما كان التخصّص، ومهما كانت الثقافة التي تبرمج بها. فالطبيب الشغوف بمجاله سيؤدي مهنته بكفاءة، سواء أكان بوذيًّا، أم مسيحيًّا، أم هندوسيًّا. أما من الناحية الثقافية خارج الأداء المهنيّ المحض، فإنه سيبقى ذهنيًّا ووجدانيًّا محكومًا بالاتجاه الذي حدَّدته البرمجة التلقائيّة. ومن دون هذا التكثيف للمواد التراثية، ولكن المجتمعات بدوافع عاطفية محضة وغير عقلانية قد صرفت التعليم عن هدفه الأساسي، وجعلته وسيلة لتكريس ثقافاتها، وتأكيد امتيازها، وتعميق أوهام تفردها. وهكذا انقلب التعليم فتكرَّس للأهداف الأيديولوجية...

إن الناس في شكلٍ عامٍّ في مختلف الثقافات، كانوا قبل وجود التعليم يتوارثون الثقافات التي نشأوا عليها توارثًا تلقائيًّا حتميًّا. وهم أيضًا بعد التعليم يبقون متبرمجين بالثقافات التي تشرّبوها في طفولتهم مهما نالوا من تعليم. أما الفلتات الإبداعيّة، أو الريادات الفرديّة فهي حالات استثنائية نادرة، وهي تأتي مغايرة للسائد، وتتحرّك ضد التيار العام. أما ردّ الفعل التلقائيّ من الثقافة السائدة فهو الاستخفاف والتجاهل، أو الرفض والمقاومة. فما من ريادة خارقة يُستجاب لها إلا بعد تلكؤ وممانعة في أحسن الحالات، أو تواجَه برفض صارم، ومقاومة عنيفة في معظم الحالات. فالاتجاه الريادي يأتي معاكسًا للاتجاه السائد فيكون رفْضه تلقائيًّا...

إن الاتجاه السائد تحدّده البيئة الثقافيّة والسياسيّة التي تتكوَّن بها البنية الذهنيّة والوجدانيّة لكل أفراد المجتمع. أما الثقافة التي تتشرَّبُها كل الأجيال، فهي إرثٌ تاريخيّ حتميّ التتابع. فكلّ فرد محكومٌ ذهنيًا ووجدانيًا ببيئته، ففاعليّة المعرفة مرتَهنة بالاتجاه السائد، وبالعقليّة النمطيّة التي تستقبلها. إن عالم النفس المعروف جوردون ألبورت يُعَرِّف الاتجاه بأنه: «حالةٌ من الاستعداد، أو التهيؤ النفسي تنتظم خلاله خبرةُ الشّخص، وتمارس تأثيرًا توجيهيًّا وديناميًّا على استجابته لكلّ الموضوعات والمواقف المرتبطة بهذه الاستجابات». إن الذين ينتظرون التغيير من التعليم التقليدي هم واهمون أشد الوهم، فهم لم يتوقّفوا بانتباه وإحساس بالمشكلة ليقارنوا بين المبرمَجين بثقافات مختلفة، حتى يروا أن الفاعليّة الحقيقيّة هي للتناسل الثقافيّ الذي تتكوَّن به البنيات الذهنيّة والوجدانيّة بتتابع حتمي، وليست للتعليم الذي يأتي إلى بنية ذهنيّة ووجدانيّة مكتملة التكوين، وموصدة الأبواب. إنهم لم يحاولوا التعرّف على الطبيعة البشريّة، ولم يهتمّوا بفهم القابليّات التي يولد بها الإنسان، ولم يتمعنوا في كيفية تشرُّب هذه القابليّات لمؤثرات البيئة حيث تتشكّل تلقائيًّا، ثم يصبح تغييرها أشبه بإعادة البناء الذي لا بد أن يسبقه التفكيك والهدم...

إن الناس في كل المجتمعات لا تحرّكهم المعلومات وإنما تحرّكهم الولاءات.. يحرّكهم الانتماء العميق والوجدان الديني، أو الولاء القومي والتفضيلات التلقائيّة. إنهم مأسورون بالانتماء الغامر والبرمجة العميقة.. إنهم يتحرّكون بدوافع الحب والكره.. الانجذاب والنفور.. القبول والرفض.. الاستحسان والاستهجان.. الاحترام

والاحتقار.. التعاطف والعدوانيّة.. وكل هذه الدوافع تتكون تلقائيًّا من البيئة، فيأتي التعليم لتعزيزها؛ أما ما يخالفها من المقرّرات والموادّ، فإن البنية الذهنيّة تتعامل معه وفق مبدأ التنافر الإدراكي، أو التنافر المعرفي. فيضطرّ الأفراد لدراسة ما يتعارض مع مسلَّماتهم ومع بنيتهم الذهنيّة والوجدانيّة. ولكن بنيتهم الذهنيّة والوجدانيّة تَمَجُّه، أو تحيله لمصلحتها، وتجعله مادة تخدم الاتجاه السائد، وتعزز القناعات الموروثة. إن الإنسان تحرّكه المشاعر، فهي ذاتُ فاعليّة تلقائيّة. إن الاهتمام التلقائيّ المدفوع بهذه المشاعر هو مصدر الفاعليّة إيجابًا أو سلبًا، أما المعرفة والعقل والذكاء فهي مجرد أدوات في يد المشاعر...

هذا عن عموم الناس من كل الأمم، وعلى تعاقب الأجيال. إن المتعلّمين من مختلف المستويات والتخصّصات يبقون مبرمَجين مهما نالوا من تعليم. إنهم يملأون المدن والقرى، وتكتظ بهم الأرض، لكنّهم مجرّد ركاب في مركبة المجتمع. أما الروّاد الذين ينعتقون من هذا الأسر ويقفزون الفجوة التي تفصل بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، فهم على المستوى الإنساني في الماضي والحاضر عددٌ محدودٌ جدًّا. لكنّهم بانعتاقهم من التفكير الجمعي يرتادون المجهول، ويصيرون حُداةً مرشدين لمسيرة التقدّم الحضاري، ومنهم الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز..

إنه واحدٌ من أشهر فلاسفة العصر ومن أغزرهم إنتاجًا. لقد دَرَسَ الطب، لكن اهتمامه التلقائيّ القويّ المستغرق بالحقيقة بقي متوقدًا، فجذبه بقوة عن الانشغال بمهنة الطب. وكما يعلن وليم جيمس: «بمجرّد أن ينسكب الاهتمام أو الشغف على موضوع ما، فهو في الغالب يظل لاصقًا به وعالقًا به دائمًا». لقد كانت تؤرق كارل ياسبرز منذ شبابه المبكر تساؤلات عميقة حادّة. فقد كان اهتمامه المحوريّ أن يعرف أين تكون الحقيقة وسط هذه التناقضات الشديدة بين الأمم؛ وكما يقول: «التناقض هو كاشف الفكر غير الصحيح.. إنه يمحو الراحة، ولا بد أن نبحث عن حل يزيله». فالعقل الاستثنائي الفاحص مثل ياسبرز، لا يقلق اختيارًا، وإنما تشتعل نيرانُ الحيرة في داخله، فتدفعه تلقائيًّا للبحث والاستقصاء والتحقّق. لذلك فإنه يؤكّد أنه قد عاش حياته: «في البحث عن الحقيقة». وكان موقنًا أنه لن يجد الإجابات على تساؤلاته العميقة المفتوحة إلا في الفلسفة، لكنه كان يعتقد بأن الفلسفة أعظم وأعمق وأوسع وأمنع من أن تكون

مجالاً تخصُّصيًّا مهنيًّا. فكان يقرأ الفلسفة باهتمام شديد وبانتظام ملح، لكنّه مع ذلك دَرَسَ الطب متوقعًا أن يكون الطب مهنته، وأن تكون الفلسفة مجال اهتمامه التلقائيّ المتجدّد. غير أن مجال الاهتمام التلقائيّ العميق ابتلع كلَّ وقته وكلَّ طاقته، فتفرَّغ مبكرًا للفلسفة، وهَجَرَ الطب، فتعاملتْ معه الجامعات ودوائر العلم والفكر والتاريخ ليس بوصفه طبيبًا بل بوصفه فيلسوفًا. فصار استاذًا للفلسفة بجامعة هايدلبرغ، ثم في جامعة بال بسويسرا خَلَفًا للألماني الآخر نيتشه. والأهم من ذلك أنه بات معترَفًا به كفيلسوف على مستوى العالم...

إن الاندفاع للتحقّق لا يأتي اختيارًا، وإنما هو استجابة تلقائيّة لدافع داخلي شديد الإلحاح. لقد كان كارل ياسبرز يحمل عقلًا متوقدًا يدفعه بقوة وإلحاح إلى التحقّق، فلم يستطع أن يبقى قابعًا في عمل مهني رتيب، إنه مدفوع بتساؤلات كبرى عميقة وحادّة ومؤرقة. فهو الذي يقول: «أصل الفلسفة الحيرة والشك والشعور بالضياع. وفي جميع الحالات تبدأ الفلسفة بقلق يجتاح الإنسان ويولّد فيه الرغبة في تحديد هدفٍ ومعنى لحياته». وهذا يؤكّد أن فاعليّة العقل الإنسانيّ مشروطة بالاهتمام التلقائيّ العميق وبالإثارة الكافية، وربما بالحيرة المؤرقة والشعور الحاد بالمسؤولية الفردية عن الذات، وجودًا ومصيرًا، حيث يندفع الفرد للتحقّق اندفاعًا تلقائيًّا لا فكاك له منه، ولا محيص عنه، فلا راحة إلا بالعثور على إجابات مطَمْئنة...

ويرى كارل ياسبرز أن عظمة الإنسان تقوم على ركنين: عظمة الفكر وعظمة الأخلاق. فيكتب في كتابه (عظمة الفلسفة): «إن عدم مسؤولية الفكر المنفصل عن الوجود يتيح له الاستسلام لأي سلطة، وكلّ من لا يحتفظ بذاته من حيث إنه إنسان حرّ في إنتاجه الروحي. فإن هذا الإنتاج يصير وسيلة يتصرّف بها أي دافع من الدوافع. وما تردُّد الفكر المهمِل لذاته بين الخير والشر إلا انزلاق مسبق نحو الشر». ثم يضيف: «إن قوة الفكر وحدها لا تؤلّف العظمة، ولكنْ من المتعذر أن نجد عظمة من دون قوة الفكر، ولا توجد العظمة بالمعنى الصحيح إلا في فكر فلسفي يوجّهه الفصل بين الخير والشر والصواب والخطأ».

إن كارل ياسبرز يربط تحقّق إنسانيّة الفرد بتحرّره من الذوبان في العقل الجمعي.

فالفرد غير المتسائل ليس إنسانًا بالمعنى المعرفي، والمسؤولية الأخلاقيّة لأنه لم يتحقّق بنفسه مما تبرمج به. وعن ذلك يوضح كارل ياسبرز: «يجب أن تكون مثقّفًا لكي تكون إنسانًا». فتحقّق إنسانيّة الفرد مشروطة بأن يفكّر تفكيرًا مستقلاً، وأن يبني قناعاته بنفسه: بحثًا وتمحيصًا.. وهذا يتّفق مع حكمة الإمام أبي حامد الغزالي: «من لم يشكّ لم يبحث ومن لم يبحث بقي في العمى والضلال». ولكنّ الذين يحقّقون هذا الشرط الإنساني الأساسي هم عدد محدود على امتداد التاريخ وعند كل الأمم في كل زمان ومكان، فالبشر مأخوذون بما هو سائد، إن الإنسان كائن ثقافي.. والأجيال تتناسل ثقافيًا بحتميّة أشد ثباتًا من التناسل البيولوجي...

ونلاحظ أنه يوجد قاسم مشترك بين رواد الفكر وعمالقة الفلسفة. إنهم جميعًا يتلبّسهم الشكّ وتحرقهم الحيرة؛ فيكون اهتمامهم المحوري المسيطر هو البحث عن الحقيقة وسط الادعاءات المتناقضة. إنهم لا يستطيعون أن يبقوا خانعين مستسلمين لأوهام الواقع، فيندفعون رغمًا عنهم في البحث الممضّ والمقارنات الدقيقة والتأمل العميق. إنّهم لا يبحثون عن كسب مادي، ولا عن نجاح مهنيّ، ولا عن قبول اجتماعي، وإنما ينحصر اهتمامهم القويّ المستغرق بالبحث عن الحقيقة متحرّرين بذلك من برمجة الطفولة، ومن عنعنات التاريخ، ومن تيار التناسل الثقافي التلقائيّ.. نجد هذا القاسم المشترك بازغًا عند أبي حامد الغزالي وابن رشد وديكارت وإسبينوزا وباسكال وكانط ووليم جيمس وياسبرز وغيرهم من عمالقة الفكر وأئمة الفلسفة. إنهم جميعًا يكونون مندفعين تلقائيًا للتحقّق، يفعلون ذلك اندفاعًا وليس اختيارًا، فالشكّ لا يترك صاحبه يهدأ. إن الحيرة حريقٌ داخليٌّ متأجّجٌ لا يمكن إطفاؤه بالإرادة والرغبة، فالإنسان المحتار لا يهدأ حتى يجد الإجابة الشافية، فيهدأ ويطمئن، أي إنهم جميعًا مدفوعون باهتمام تلقائيّ قويّ مستغرق...

ومع أن كارل ياسبرز لم يستخدم تعبير (الاهتمام التلقائيّ)، فإنه كان يقترب منه، بل إنه استخدم تعبيرًا يؤدّي إليه، أو يتماثل معه، وهو ما يسميه: «الوجود الذاتي الحميم، أو الحقيقي الأصيل.. يشارك فيه الإنسان بوصفه وجودًا قوامه التحقّق والمعاناة والتجربة الباطنية. وهو وجودٌ يفلُتُ من البحث الموضوعي بمناهجه العقلية والتجريبيّة». إنه يركّز على: «وجود حميم.. فيه وحْدَهُ أكون أنا نفسي بحيث أحقّق حياتي». إنه: «البُعْد

الباطن الذي تحيا عليه الحرية والحكمة والأصالة». وكأنه بهذا التحديد يصف الطبيعة التلقائيّة للإنسان...

ويضيف: «الأهم عند الفيلسوف تلك الحركة الخاصّة، وذلك الجوّ الفريد، وتلك الوثبة الجوانية المفاجئة، وتلك الصيرورة التي يبلوها كل مفكر، والتصميمات التي تستضيء بنور الفكر، وتبدو شيئًا فيه مقوّمات الحياة على الأصالة». ويوضح: «ينبغي أن يظلَّ مطلبنا الأساسي أن نتبيَّن هل أضأنا في أنفسنا منائر الحرية أو أطفأناها، وهل زكَّينا في حياتنا كنوز الجوانيّه أو بدّدناها». فإنسانيّة الإنسان تتجلّى بقدر انعتاقه من الذوبان في التيار، وانفصاله ذهنيًّا ووجدانيًّا عن القطيع. إنه بذلك يصنع إنسانيّته وينقذها من الإمَّعية الغافية، ولكنه لا يفعل ذلك بتخطيط، وإنما يفعل ذلك حين ينكسر القالب التلقائيّ الذي يضمّه، فينطلق في قلقٍ ملحٍّ باحثًا عن تلقائيّة بديلة يتوافر فيها الاطمئنان...

إن كارل ياسبرز يكرّر تأكيد الأهميّة الجوهريّة للروّاد الذين ينعتقون من السائد، ويبنون ذواتهم بأنفسهم، ويسيرون ضد التيار البليد السائد، ويصبحون منارات تضيء الدرب للسائرين وهذه هي الأصالة الحقيقيّة، بعكس ما يتوهّم الكثيرون. فليست الأصالة أن يبقى الإنسان إمَّعة يردّد ما قاله الأوّلون، ويذوب في السائد. فالأصالة ليست هي الالتزام بالموروث والذوبان في القطيع وإنما: «الأصالة وثبةٌ في التاريخ، وهي معجزةُ الجديد الذي لا يمكن اشتقاقه مما سبقه، ولا من شروط الوجود التي واكبتْ ظهوره». إنه بذلك يخالف هيغل الذي يرى أن الرائد نتاج عصره، ويتّفق مع كانط في أن الرائد يسير باتجاه مضاد للتيار السائد. فكانط يرى، وهو محقٌّ في أن معضلة الإنسان هي عجزه عن الخروج من الأطواق، وفي بقائه محجوبًا عن استخدام عقله الخاص. فالإفاقة من التنويم الاجتماعي، والخروج من تيار القطيع، هما معيار إنسانيّة الإنسان؛ حيث يستطيع التفكير باستقلال ويعي فرديّته، وينقذ ذاته من الذوبان في التيار العام. لكن تاريخ الفكر وتاريخ الحضارة كلاهما يشهد بأن هذه الإفاقة الفرديّة الضروريّة هي انبثاقٌ خارقٌ ووميضٌ مُشع، وهو لا يأتي اختيارًا محضًا وبتخطيط مسبق، وإنما هو انفجارٌ من الداخل لا يحصل إلا في حالات فرديّة نادرة، كريادات منفصلة عن القطيع المبرمَج. إنهم على المستوى الإنساني يمثّلون الريادات الفكريّة التي تسمح بتطوّر الحضارة، وبتقدُّم الإنسانيّة. لكنَّ ثمار الريادة مُرتَهَنٌ بنوع ومستوى وكثافة الاستجابة العامة، سلبًا أو إيجابًا...

إن ياسبرز بهذا يؤكّد أن الروّاد سابقون لعصورهم، وأنهم ليسوا نتاج هذه العصور وإنما يمثّلون طفرات فرديّة في الفكر غير مشتقة من أفكار البيئة، بل مغايرة لما هو سائد، تتحقّق بها وثباتٌ عامّة متعاقبة في الحضارة. وهو بذلك يخالف البعض الذين يرون أن المبدع نتاج عصره، كما هي رؤية هيغل وغيره، ولكنَّ تاريخ الإبداع وتاريخ الحضارة يقفان شاهدًا بقوة لرؤية ياسبرز. ولم ينفرد ياسبرز بهذه الرؤية، وإنما هو بذلك يتّفق مع كانط وكارلايل وإيمرسون وتوينبي ووليم جيمس وغوستاف لوبون، وغيرهم. إن هذه الرؤية تؤكّد نظريتي عن (الريادة والاستجابة). فالروّاد استثنائيون ويتحرّكون ضد التيار السائد، ولولا ظهورهم المتكرّر المغاير للسائد والمضاد للتيار لما تقدّمت الحضارة...

أما المعضلة الأشد استعصاء فهي أن الاستجابة التلقائيّة تأتي دائمًا مضادّة للريادة. فالمجتمعات تقاوم التغيير وترفض الريادة، فظهور الروّاد ليس كافيًا لتحقيق التقدّم، وإنما يتحقّق التجاوز بالتكامل والتلاحم بين الريادة الفرديّة الخارقة والاستجابة الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية. ولكنْ، من النادر أن يتحقّق هذا التكامل، لذلك فإن الثقافة العربيّة في الماضي لم تستفد من روّادها العظام، فَظَهَر فيها ابن رشد والكندي والفارابي وابن الهيثم وابن النفيس وجابر بن حيان والرازي والخوارزمي، وغيرهم من الرواد العظام. لكن رياداتهم لم تمتد إلى الثقافة العربيّة في الماضي، ولم تصبح عنصرًا فاعلاً من عناصرها، فبقيت هذه الريادات خارج النسق الثقافي السائد. ومرّت القرون من دون أن تؤثّر هذه الريادات الفرديّة الخارقة في بنية الثقافة العربيّة، فالتأثير الإيجابي انتقل من هؤلاء الأفراد الروّاد إلى أوروبا، فأسهمتْ أفكارهم في استفاقة أوروبا من سباتها، فتداركتْ ذاتها، وبدأت نهضتها الظافرة التي امتدت أنوارها إلى كل العالم في هذا العصر.. وتكرّر موقف الرفض والنبذ مع المفكّرين التنويريين في العصر الحديث، من أمثال طه حسين وزكي نجيب محمود وعبدالله العروي وعلي حرب وعلي الوردي، وغيرهم من رواد التنوير الذين قوبلوا بالرفض العنيف والمحاكمات المذلّة. فالعقليّة الجمعيّة في الثقافة العربيّة لا تتيح مجالًا للإشراقات الرّيادية الفرديّة...

يتكرّر القول بأن هيغل يركِّز على المجتمع ككلّ وليس على الأفراد. فهو يرى أن عناصر التغيير تتخمَّر في البيئة بتأثير العامل السياسي في الدرجة الأولى. ففي السياسة تكمن وتتجسَّد عنده عوامل التغيير؛ فهو الذي يقول: «إننا على أبواب عصر مهم..

عصر التخمُّر عندما يتقدّم الفكر قفزةً، فإنّه يتعالى على شكله السابق، ويتّخذ شكلًا جديدًا.. إن مجمل التصوّرات والمفاهيم والروابط السابقة التي تربط عالمنا تتلاشى وتُحلُّ وكأنه لوحة حلم.. هناك مرحلة ذهنية جديدة.. فعلى الفلسفة بشكلٍ خاصٍّ أن تستقبل ظهورها وتتعرَّف إليها، بينما يتمسّك بالماضي الآخرون الذين يعارضونها». إن عقلاً جبَّارًا كعقل هيغل لا يمكن أن يخفى عليه الدور الفاعل للفلسفة، فالفلاسفة هم الذين يحرّكون العقول، وهم روّاد التنوير، وهم صانعو التغيير، فلا يمكن أن يكونوا مجرّد مستقبلين للتغيير حين ظهوره، وإنما هم كانوا سابقين له وسببًا في هذا الظهور. ولكنْ، يبدو أن ظروفًا سياسيّة واجتماعيّة ضاغطة اضطرت هيغل إلى أن يركِّز على الكلّ، وأن يجعل هذا الكلَّ ممثلًا في العامل السياسي، ويُهَمِّش الفرد الرّائد الخارق للسائد، وهذا هو الذي أدّى إلى ظهور الفكر الوجودي عند كيركجارد، ومَن بعده من المفكرين، ومنهم ياسبرز، كرد فعل على تهميش الإنسان الفرد. فالوجوديّة هي فلسفة احتجاج الفرد الحرّ ضد طغيان المجتمع. ولكنّي استبعد أن يكون هيغل غير مدرك بأنّ التطوّر الحضاري ينهض على الريادة الفرديّة الخارقة والاستجابة الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية. غير أن الأوضاع السياسيّة الضاغطة ربما اضطرّته لتغليف أفكاره ومواقفه بهذا الغموض الذي اشتهر به. كما أن تحوُّل الثورة الفرنسية إلى القمع الفظيع والإرهاب المرعب قد أحدث تراجعًا للمواقف المؤيّدة، فتحوَّل الإعجاب إلى شكٍّ في اندفاعات الغوغاء، حيث يتجسَّد العقل والنظام في السلطة السياسيّة العقلانيّة كما انتهى هيغل...

إن نصوص هيغل عن دور الأفراد الرياديين موهمة، فهو يقول: «كلّ فرد هو وليد عصره، ومن السذاجة الاعتقاد بأنه يمكن لأي فلسفة تجاوُز عالمها المعاصر.. تمامًا مثل الافتراض بأن الفرد يكون قادرًا على القفز وراء زمنه، أو الوثوب فوق...». إن هذا التوصيف ينطبق على طوفان الجماهير والأفراد من عامة الناس. أما الأفراد الرياديون الاستثنائيون، فإن التاريخ قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأنهم لا يكتفون بأنهم يتجاوزن عصورهم فقط وإنما يتحرّكون ضد السائد في زمنهم، وهم يثبون وثوبًا مدهشًا في عمق المستقبل. لذلك، فإن هذه النصّ لهيغل مخالفٌ لحقائق التاريخ...

يؤكّد ذلك أن هيغل نفسه يقرّر أن المهمة الأساسيّة للمنطق الجدلي هي «تحطيم قبضة الحسّ العام المشترك». إنه يعلن الحرب على الرأي العام، ويستهجن الاستسلام له. فهو

الذي يؤكّد: «ومن ثم فإن تكن مستقلًا عن الرأي العام هو الشرط الأول لإنجاز أي شيء عظيم، أو عقلاني، سواء في الحياة أم في العلم». هكذا يؤكّد في كتابه (فلسفة الحق)، ويُبرز ذلك ماركوز في كتابه (العقل والثورة. ومثله يقول مجاهد عبدالمنعم مجاهد في كتابه (هيغل قلعة الحرية). وأيضًا فإن هيغل يؤكّد الدور الأساسي للشخصيات القياديّة في تغيير العالم، فهو يقول: «إن دهاء العقل يستخدم الشخصيّات التاريخية العالمية كعوامل تغيير في المقام الأول، وكمبدعين». ولكنْ، من الواضح أنه يتحدّث هنا، وهو يضع في ذهنه في الدرجة الأولى قادة الحرب وزعماء السياسة وأهل الفعل، وليس أهل الفكر. لذلك يركز على أسماء الاسكندر المقدوني وقيصر ونابليون.. وكأنه يريد أن يؤكّد أن الأفكار المسبقة المهيمنة والمستقرّة تتغلَّب على أي أفكار طارئة مغايرة ما لم يتبناها قادةٌ سياسيون قادرون على فرضها وسحق من يعارضها.. وفي النهاية تقتصُّ منهم العقائد المسبقة وتغتالهم؛ ولكنْ، بعد أن يكونوا قد أحدثوا تفاعلات فكريّة تسير في طريق الاختمار والتبلور، وفي النهاية تنبثق عن فكرٍ جديدٍ وتُدَشِّن مرحلةً حضارية جديدة ويتكرّر هذا الديكالكتيك وفق جدل الفكر والفعل، وبذلك تُواصل الحضارة تقدّمها...

أعتقد بأن نظريَّتِي عن (الريادة والاستجابة) تجيب على هذا الإشكال في فلسفة هيغل. فالتقدّم لا يتحقّق بواسطة الريادة فقط، وإنما تبقى فاعليّة الريادة مرتَهنة بالاستجابة الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية. وفي الغالب تأتي الاستجابة من القادة السياسيين، كما حصل من بعض الأمراء الألمان في مناصرتهم لمارتن لوثر، ليس حبًّا فيه، أو إدراكًا لقيمة دعوته، وإنما لأنهم وجدوها فرصةً للتحرّر من هيمنة الإمبراطورية المقدّسة، ومن تحكّم الكنيسة الكاثوليكية، وبذلك عزّزوا سلطتهم، وحصلوا على الاستقلال السياسي. وهنا يأي دور ما سمّاه هيغل مكر التاريخ...

وعمومًا، فإن الذي يهمّنا هنا هو ياسبرز. فهو يرى: «أن العظمة هي جوهر التاريخ..»، لكنّها عظمة الفكر التي تنجلي في الفكر الفلسفي.. مؤكِّدًا: «أن كل فيلسوفٍ عظيمٍ ينهض خارج التاريخ»، أي إنه سابقٌ لعصره وليس نتاجًا له: «إنه فوق التاريخ، وفيه يتركّز الكلّ، فلا يصحّ أن نحبس أي عظيم في حدود عصره، ولا في شعبه، ولا في أنماطٍ فكريّة.. وكلّ عظيم يفيض عن الإطار الذي يراد تصنيفه فيه». إن الرائد العظيم لا يماثل الآخرين؛ وكما يقول ياسبرز: «الأصالة وثبةٌ في التاريخ، وهي معجزة الجديد الذي

لا يمكن اشتقاقه مما سَبَقه، ولا من شروط الوجود التي واكبت ظهوره». إنه يؤكّد أن «العظيم فريد..». لكن الاعتراف بعظمة الفلاسفة وتفرُّدهم لا يجيز الارتهان لهم، وإلّا تحوّلوا إلى أوثان، وتوقفت عندهم الحضارة، فيصبحون عامل إعاقة بدلًا من أن يبقوا حُداةً للاكتشاف والارتياد والمغامرة: «الإنسان العظيم يظل إنسانًا، وإن عظمته توقظ ما يمكن أن يماثله لدى كلّ كائنٍ بشريٍّ. إن من يرى العظمة يشعر بمطلب أن يكون هو ذاته». فتقدير العظمة لا يعني الانكسار أمامها والذوبان فيها، وإنما يعني السعي الحثيث لتجاوزها، واكتشاف ما لم يتم اكتشافه، وإبداع ما لم يتحقّق إبداعه ودفْع الإنسانيّة نحو فضاءات أرحبن وقمم أعلى، وتطلعات لا تقف عند حدٍّ...

إن ياسبرز يرى أن إعجاب الناس بالعظماء يدفعهم إلى أن يحرصوا على الأخذ بأسباب العظمة، فيحاولون ألا يكونوا مجرّد مقلّدين للعظيم، وإنما يكونون مرتادين مثله. لكنّ التاريخ والواقع كلاهما يؤكّد أن الإعجاب يدفع أكثر الناس إلى الاتّباع الأصمّ، والمحاكاة العمياء، والتقليد البليد، والتحجُّر، وترديد ما انتهى إليه الرائد، وعدم التفكير في تجاوزه، أو محاولة إدراك أسباب إشراقه، فهم يأخذون النتاج، لكنّهم لا يدركون طبيعة العقل المتوقّد، ولا المنهج النقدي الذي كان السبب في بزوغ الرائد وتميّزه، وخروجه من أسر السائد. إن التقليد هو الصّفة السائدة عند البشر، وإلا فما معنى أن تبقى الأجيال على امتداد العصور ملتزمة بتقديس أقوال فرد واحد من البشر، مثل بوذا أو كونفوشيوس، أو غيرهما...

إن كلّ رائد إذا استُجيب له تحوَّل عند أتباعه إلى رمز مبجَّل، ثم ينمو هذا التبجيل حتى يبلغ مرحلة التقديس، واستفظاع نقده واستنكار التفكير في تجاوزه، فيعود الركود والتحجُّر حتى يظهر رائد آخر ليكسر الجمود، ويفتح التحجُّر. فإذا استجاب له المجتمع ارتقى درجةً جديدةً ثم يستقرّ عليها، ويعود إليه الجمود، ويتكرّر المشهد على امتداد التاريخ. فالمجتمعات لا تعي أسباب التقدّم وإنما تتعلّق بالأفراد بدلًا من أن تتفهَّم الأفكار ذاتها، لأن الناس لا يعون حقيقة هذه الأفكار، وإنما يتمحورون حول الرّائد ذاته. وقد تتوالى القرون وهم مأسورون له ولأفكاره، التي كانت استجابة لظروف تاريخية واجتماعيّة وسياسيّة معيّنة، ولا تصلح لكلِّ العصور، لكن هكذا كان البشر، وما زالوا وسيظلّون...

لو تم حصر الرّواد الذين كانت لهم إسهامات جوهريّة في التقدّم الحضاري لما تجاوز عددهم عدد ركاب طائرة أو قطار، ابتداء من طاليس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس ودافنشي وكولومبس وكوبرنيكوس وفرانسيس بيكون وشكسبير وديكارت وغاليليو ونيوتن وجيمس وات وفاراداي وداروين ومندل وجون لوك ومونتسكيو وروسو وآينشتاين وأديسون وبنز ونوبل وفورد، وأمثالهم. إنهم عدد قليل جدًّا، وقد تطوّرت الحضارة بإشراقاتهم الباهرة وإقدامهم الفريد، أما الطوفان البشري فهو لا يستجيب لهذه الإشراقات العظيمة إلا بعد رفض طويل، لأن الرواد يأتون بما ليس مألوفًا، ويسيرون عكس التيارات السائدة، بينما أن الناس دائمًا يبقون مأسورين بالمألوف، ويندفعون تلقائيًّا مع التيار العام السائد...

إن العظماء وحدهم هم الذين يعرفون بوعي وإدراك وعمق جوانب العظمة في العظيم، كما يدركون ويتوقّعون ولا يستغربون جوانب النقص فيه. فالعظماء كغيرهم من البشر محكومون بتلقائيّة النقائص والأخطاء والأوهام، فهي الأصل في البشر. ولكنَّ العظماء اللاحقين لا تعشيهم الجوانب المضيئة، كما تفعل الأكثرية التي تتوهّم عصمة الرّائد وكماله، فالعظماء اللاحقون يتوقّعون جوانب الضعف في العظيم السابق، فلا تضعف ثقتهم فيه. فهو إذا أخطأ رغم عظمته يدركون أنه واحدٌ من البشر، فالشيء المهم فيه هو الجانب المضيء الذي لا يوجد في الآخرين، أما الضعف والنقص والخطأ والوهم فكلّها من الصفات الأساسيّة في كلّ الناس. فالعظيم يكتسب أهميته وينال مكانته ليس بتوهُّم كماله وخلوه من النقائص، وإنما يكتسبها لما تميّز به من مزايا لا توجد إلا في القلّة من الناس، فالنقص هو الأصل أما المزايا فهي الاستثناء...

لقد وَضَع ياسبرز خطة طموحه تُقَدِّم للناس إسهامات مَن أسماهم الفلاسفة العظام، وتمييز الإسهام الأكبر لكلّ فيلسوف، وقد صنَّفهم ياسبرز إلى فئات أربع، تتقدّمها في نظره فئةٌ رئيسية ذات طابع إنساني عام، تضمّ سقراط وبوذا وكونفوشيوس والمسيح. ففي كتابه (فلاسفة إنسانيون)، يقول: «لهؤلاء الأربعة الذين حقّقوا المدى الأسمى.. مدى الإنسان أثرٌ واثق وعميق لا يضاهيه أثرٌ.. وقد استطاع آخرون في دوائر ضيّقة أن يفوزوا بأهميّة كبيرة أيضًا.. ولكن البون بين هؤلاء وبين أولئك العظماء الأربعة، من حيث بَسْطة تأثيرهم في الزمان والمكان خلال آلاف السنين.. هو بونٌ جدُّ ضخم، حتّى

إنه يوجب على الضمير التاريخي الكوني أن يستنير بمعرفتهم ويُبرزهم إبراز البداهة». إن ياسبرز هنا يجعل دوام تأثير هؤلاء العظماء خلال القرون، وتزايد أتباعهم وكثرة الأتباع، معيارًا للعظمة، ولستُ اتفق معه على هذا المعيار. فظاهرة ديمومة انتظام البشر خلال القرون بأفكار وتعاليم فرد من الناس، تؤكّد سلبيّة عامة البشر وعجزهم عن الإفلات من قبضة برمجة الطفولة، بل عجزهم عن إدراك هذه البرمجة التي تلبّسوا بها تلقائيًا، فاستحوذت عليهم فكرًا وتصورًا وسلوكًا وأسلوب حياة...

إنّ كارل ياسبرز قد صاغ مفهوم (الزمن المحوري)، ليلفت النظر إلى أنّ الثقافات العالميّة الرئيسيّة قد تكوّنت خلال فترة زمنيّة محدَّدة ظَهَرَ فيها أولئك المؤسّسون الأربعة. وربما يبدو للوهلة الأولى أنه يساوي بينهم، وهذا يستوجب تأكيد الاختلاف النوعي بين فلسفتي بوذا وكونفوشيوس وفلسفة سقراط. فالفلسفة اليونانية ارتيادٌ عقلانيٌّ نقدي محض. إن حكماء الشرق جاؤوا امتدادًا واستمرارًا لثقافات كانت قائمة، فقد كان اهتمامهم اهتمامًا أخلاقيًا محضًا، لذلك كرّسوا الجماعية وتذويب الإنسان في القطيع. فقد كان همُّ بوذا التزهيد في الحياة وكَبْح الرغبات وإماتة الطموح الفردي، وكانت تعاليم كنفوشيوس تعاليم أخلاقيّة تحضّ على التقيُّد والاندماج...

أما الفكر الفلسفي اليوناني الذي بلغ ذروته مع سقراط، فكان بمثابة قطيعة كاملة مع الثقافات التي كانت سائدة. لقد كان يمثّل قطيعة معرفيّة ونقلة نوعيّة تمامًا للتفكير البشري وللمؤسسات السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. فبينما كانت حكمة بوذا وكونفوشيوس وغيرهما من فلاسفة الشرق تكرّس الامتثال والطّاعة والجماعيّة والالتزام. وبالعكس من ذلك، كانت الفلسفة اليونانيّة في المقابل تكرّس الفرديّة، وتؤجج التفكير الحرّ، وتؤسِّس لمجتمع مفتوح. لقد حَصَل تغيُّرٌ نوعي في العلاقة بين الفرد والمجتمع، وفي نمط السلطة، وفي النظر إلى الحقيقة، وفي مصادر المعرفة، وفي المعايير الأخلاقيّة، أي إنه حَصَل قطيعة مع الماضي، وتحوُّلٌ جذريٌّ في الاتجاه وفي الوسائل والأهداف. وبات العمل السياسيّ وظيفة لا بد من التأهل لها معرفةً وخطابةً وحكمةً قبل محاولة الوصول إليها. فانقشعت قداسة الأفراد والمؤسّسات، وأمست السياسة شأنًا بشريًا محضًا، وصار الإنسان منتجًا للمعرفة بدلاً من أن يتلقّاها فقط. وتم تقويض أوهام امتلاك الحقيقة المطلقة عن طريق التوارث التلقائيّ. فعلى الإنسان لكي يتعلّم أن يدرك

جهله المطلق، وأن يجتهد في تكوين معرفة ممحصة. أما ما يتوهّمه الناس معرفة فهو رواسب تلقائيّة لم تخضع لأي فحص أو تحليل، أو تحقّق. وهكذا، على الفرد أن يبدأ في تحرير نفسه من الأوهام، التي كان يعتقد بأنها معرفة صحيحة لكي يبدأ في التعلّم الحقيقي...

إنّ التغيُّرات النوعيّة التي انتهت إليها الفلسفة والممارسة اليونانية، هي التي انبثقت منها الحضارة الغربية المعاصرة بكلّ أبعادها السّياسيّة والاجتماعيّة والمعرفية والتقنيّة والجمالية بعد أن جمَّدَتها الكنيسة عشرة قرون. فقد انبنت هذه الحضارة بعد إحياء التراث اليوناني على إبراز الإنسان الفرد، والتأكيد على استقلاله فكرًا ووجدانًا، وتحريره من تلقائيّة ذوبانه في العقل الجمعيّ، وتقليص دور السلطة السياسيّة والثقافيّة، ووضْع هاتين السلطتين رهن الرقابة والمراجعة والتقييد. فالإنسان صار هو القيمة المحوريّة، أما السلطة سواء أكانت ثقافية أم اجتماعيّة أم سياسيّة، فهي تابعة له بعكس ما كان سائدًا من قبل، وبعكس ما هو سائدٌ حتى الآن في الكثير من الثقافات...

وبانتصار الفكر الفلسفي، وبزوغ النزعة الفرديّة، وتقويض التقديس التلقائيّ للماضي، ووضع الواقع تحت مجهر النقد، صار الإنسان الفرد هو محور الاهتمام، وأصبح التفكير يتحرّى الموضوعية، ويضع المناهج الضابطة من أجل قيادة العقل وتسديد خطوات البحث، وباتت البحوث في الفلسفة والعلم والفن والأدب شديدة الكثافة والدقة والعناية حول القيم الأساسية: كقيمة الحق وقيمة الخير وقيمة الجمال. ومع سقراط لم تَعُدْ الحقيقة معطًى ناجزًا تتوارثه الأجيال تلقائيًّا، وإنما صارت مطلبًا شديد الخفاء والالتباس، وبات تَوَهُّم امتلاك الحقيقة المطلقة يثير الإشفاق والاشمئزاز، فالحقيقة لا تنجلي تلقائيًّا ولا تُمتلك بالتوارث. إن الاقتراب منها يتطلّب كفاحًا لا يهدأ، وبحثًا لا ينقطع ومراجعات متكرّرة لا تتوقف. إن هذا الإدراك الطارئ عن خفاء الحقيقة، وصعوبة التحقّق منها هو من أهم التغيرات النوعيّة التي طرأت على الفكر البشري، إنه يمثّل نقلة نوعيّة حاسمة...

أما قيمة الخير، فهي تتأسّس على رؤية واقعيّة عن الطبيعة البشريّة. فالإنسان ليس خَيِّرًا بالطبع، وإنما يصير خَيِّرًا نسبيًّا بالتنشئة الواعية، وبالمجاهدة الصادقة، وبالصرامة

الأخلاقيّة الأمينة، وتبقى احتمالات النكوص والتراجع والانحطاط الأخلاقي هي الإمكان التلقائيّ، أما الارتقاء فلا يأتي تلقائيًّا أبدًا، وإنما يتطلّب وعيًا خارقًا، وجهدًا استثنائيًّا موصولاً، ونقدًا ذاتيًّا دائمًا. أما الجمال فقيمة إنسانيّة عالية، لكنّها تتطلّب إطلاق طاقات الإنسان وخياله وممارساته للتفنن والارتياد والمغامرة والإبداع في مختلف المناشط وفي كلّ المجالات...

إن قيم الحريّة والفرديّة والمجتمع المفتوح، والحقيقة الاحتماليّة، والرؤية الموضوعيّة، والمغامرة، وتعايش المختلفين هي قيمٌ غربيّة محضة. فلم تكن من القيم البشريّة المألوفة من قبل، وهي ليست قيمًا مغلقة، وإنما هي قيمٌ مفتوحةٌ متطوّرة حافزة، وليست قامعة. إن الإنسان الذي شكّلته الفلسفة اليونانية هو إنسانٌ مختلفٌ كلّيًّا في اهتماماته وولاءاته وقيمه ورؤاه وتفكيره وغاياته وإحساسه بنفسه، وتقديره لقيمة المعرفة الممحّصة. إنه إنسانٌ جديد يختلف ثقافيًّا عن إنسان ثقافات الشرق الامتثالية. لذلك، يكون جمْع ياسبرز بين بوذا وكونفوشيوس وسقراط هو جمعٌ غير صحيح إلا من ناحية التزامن، أي ملاحظة أن الثقافات الكبرى ظهرت في وقت متقارب وكأن البشريّة كانت في حالة مخاض أسفرت عن ولادة البوذية والكونفوشيوسية. وهو الوقت نفسه تقريبًا الذي أشرقت فيه الفلسفة اليونانية. وبهذه الولادة افترقت أوروبا ثقافيًّا عن بقية الأمم في الشرق وغيره، فالثقافة البوذية هي ثقافة استسلام وزهد واستخفاف باحتياجات الإنسان، ورفضٌ لرغباته، بينما كانت الثقافة الصينيّة ثقافة تراتبيّة تقوم على الطاعة والتوقير للماضي والترديد للتعاليم والالتزام بالتقاليد، وهذا مضادٌّ لمطلب أن يكون العقل فاعليّة نقدية. والغريب أن ياسبرز نفسه يؤكّد بوضوح شديد على أن العقل لا يكون عقلًا فاعلًا ما لم يكن فاعليّة نقدية...

إنّ الأوروبيين لا يتميّزون جينيًّا وعرقيًّا، وإنما كان حظهم السعيد أنهم ورثوا الفكر اليوناني والثقافة اليونانية، فتميّزوا بهذا الإرث الثقافي التلقائيّ المدهش، ولولاه لبقوا كغيرهم يجترّون التاريخ. فالتفاوت الثقافي بين الأمم هو مصدر كلّ ما يعيشه العالم من تفاوت هائل، ومن المفارقات ذات الدلالة العظيمة أن اليونانيين أنفسهم حين اعتنقوا المذهب الأرثوذكسي تحجّرت عقولهم، وانفصلوا انفصالًا تامًّا عن ذلك الإشراق الباهر الذي أضاء الوجود، وبلغ ذروته في القرن الخامس قبل الميلاد. وهذا يعيدنا إلى

حقيقة أساسيّة يجب أخذها دائمًا في الاعتبار، وهي أنه رغم العظمة الباهرة التي حقّقها اليونانيون إبان ازدهارهم، إلا أن النكوص الذي أصابهم يؤكّد حقيقة فاجعة عن عموم الناس وقابليّتهم لأي استهواء غوغائي، ينتهي بإعدام سقراط نفسه، قائد تلك الفورة العقلانيّة الباهرة...

إنّ حكم الشّعب اليونانيَّ بإعدام سقراط، ثم التدهور الثقافي الفظيع الذي أصاب اليونانيين بعد اعتناقهم المذهب الأرثوذكسي، يؤكّد بصورة قاطعة بأن مصدر كل تلك العظمة المدهشة هو ظهور ريادات فرديّة فكريّة استثنائيّة، كان في مقدّمتها سقراط نفسه الذي أعدموه. إن توفّر الحرّيات وجدل الأفكار، وتلك البيئة المفتوحة والمثيرة قد هيّأت لظهور عددٍ محدودٍ جدًّا من الأفراد الأفذاذ، الخارقين. فالحرّيات وجدل الأفكار والإثارة شروط أساسية ليقظة عقول قليلة قابلة للاستيقاظ، فيقومون بدور الرّيادة الفكريّة، والتأثير على قادة الفعل. أما عموم الناس، فسوف يبقون يقادون في أي اتجاه مهما حصل من حرّيات، ومهما اشتدّ جدل الفكر. فأولئك الأفراد الروّاد الأفذاذ كانوا خلف التميّز اليوناني الخارق، ثم كان الروّاد الخارقون خلف التميّز الأوروبي، منذ عصر النهضة أيضًا بواسطة أفراد أفذاذ روّاد متميّزين، يأتي في طليعتهم غاليليو ونيوتن وبيكون وديكارت؛ أما الجماهير فهي تابعة سواء في الصعود أو الانحدار...

ظروفٌ استثنائية في اليونان خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد تميّزت بالحريّة وصخب الفكر، أنجبت عددًا محدودًا من العقول الخارقة، ومن تلك الأفكار انبثقت علوم هذا العصر ومؤسساته السياسيّة والاجتماعيّة، واتجاه حركته، وأنماط تفكيره. فالعقل فاعليّة نقديّة، فإن لم يكتسب هذه الصّفة فهو ليس عقلًا، وإنما هو وعاء ينضح بما فيه فقط، ولا يملك قدرة التجاوز ولا أهلية التغيير. وهذا هو الاكتشاف الأعظم للفلاسفة اليونانيين بعددهم المحدود، وقد ورثته أوروبا عنهم بواسطة أفراد أفذاذ معدودين خارقين أيضًا. وهذا يؤكّد لنا هشاشة الحضارة رغم كلّ الإنجازات الباهرة، لأن عموم الناس في أوروبا لا يختلفون عن عموم الناس في أي مكان، ومن أي مجتمع. فالطوفان البشريّ ليسوا سوى ركّاب في مركبة عامّة، سواء أكانوا ركابًا في مركبة الازدهار، أو ركابًا في مركبة التخلف...

ونعود لما سمّاه ياسبرز (الزمن المحوري)، لنؤكّد أن الثقافة اليونانية ومن بعدها الثقافات الأوروبية، تختلف نوعيًّا عن الثقافات الأخرى. فالتجاهل لهذه الحقيقة البازغة يؤدّي إلى استمرار التخلّف في المجتمعات التي تصر على هذا الجهل أو التجاهل. إن التعصّب للهويات قد حَجَبَ هذه الحقيقة الأساسيّة حجبًا ألحق أفدح الضرر بالمجتمعات المتخلفة، لأنه دفعها إلى الإصرار بصلف ومكابرة على تبجيل أسباب تخلّفها ورفْض أسباب انعتاقها، وهو الموضوع الذي استوجب مني إنجاز كتاب اعتبره في غاية الأهميّة بعنوان (التغيّرات النوعيّة في الحضارة الإنسانيّة). فرغم تعميم التعليم في كل البلدان ورغم أفواج الخريجين كلّ عام في الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، فإن الحواجز الصلدة بين ثقافتنا وثقافات الغرب ما زالت قائمة وقويّة وصامدة وصلدة. بل إن التعليم والإعلام قد كرّسها وأجّجها بشكل جعلنا خارج المنظومة الإنسانيّة. لقد بقيت ثقافتنا مغلقة صماء، وهي بهذا الصمم وهذه المكابرة ستبقى غير قادرة على الدخول الإيجابي الفاعل في حضارة العصر. فلا يمكن أن نستجيب للتغيّرات النوعيّة التي كوَّنتها الحضارة الغربيّة، ونشارك العالم مشاركة إيجابيّة فاعلة إلا بفتح هذا الكيان الثقافي المصمت، وترويض جهازه المناعي، حتى يقبل الأفكار المغايرة. وحتى بعد الفتح والترويض لهذا الكيان الثقافي المغلق، المنفصل ذهنيًّا ووجدانيًّا عن الحضارة العالميّة سوف يبقى التأثير محدودًا والاستجابة ضعيفة ومتعثّرة وقابلة للانتكاس السريع...

ورغم أن ياسبرر قد اختار الأربعة المؤسّسين للثقافات الإنسانيّة، وجعلهم كلهم من الشرق باستثناء سقراط، إلّا أنه حين واصل مجالات النشاط للفئات الفلسفيّة الأخرى، جعلهم كلّهم من الغرب. فالعقول البنّاءة في تصنيفه يتقدّمها هوبز وليبنتز وفخته.. أما فئة مزعزعي الجمود الفكري، فيتقدّمهم أبيلارد وديكارت وهيوم.. وأما فئة الموقظين، فطليعتهم باسكال وليسنغ وكيركجارد ونيتشه.. وأما فئة مبدعي الصروح الفلسفيّة، فيتقدّمهم أرسطو وهيغل...

إنّ تقدُّم الحضارة يتحرّك على قدمين: قدم الرّيادة الفكريّة الفرديّة الخارقة، وقَدَم الاستجابة الاجتماعيّة الإيجابيّة الكافية. فالأصل أنّ المجتمعات تتناسل ثقافيًّا بشكل حتمي، فكل جيل يرث تلقائيًّا ثقافة الجيل الذي قبله. وبحكم قانون الإنتروبيا وقانون

القصور الذاتي التلقائيّ، فإن التقدّم لا يأتي تلقائيًّا وإنما بالعكس تمامًا. فإنّ مقاومة التغيير هي السلوك التلقائيّ، أما تحقيق التغيير فيتطلّب وثبةً رياديّة فكريّة فرديّة خارقة، واستجابة اجتماعيّة إيجابيّة كافية. ولكنْ، ليس من طبيعة المجتمعات أنْ تستجيب طوعًا لما يغاير مألوفها، وإنما الردُّ التلقائيّ، أو الاستجابة الجاهزة هي الرفض والمقاومة. حتّى في أشدّ المجتمعات تطوّرًا يبقى المألوف مسيطرًا، بل حتّى المجتمع العلمي يتلكّأ أشدّ التلكؤ في قبول النظريّات العلميّة الجديدة. فيأتي التغيُّر على شكل طفرات أو ثورات، كما أوضح ذلك توماس كون في كتابه (الثورات العلميّة). وقد تناولتُ ذلك بتفصيل في كتابي (الريادة والاستجابة)...

وما يجب تكرار تأكيده بإلحاح شديد أنّ تحقيق الوثبة لا يمكن أن يأتي بواسطة التعليم التقليدي. فالتعليم دائمًا يُقَدِّم الثابت، ويزكّي الجاهز، ويوطِّد المستقرّ. إنّه يكرّس السائد ويُرَسِّخ الانتظام في التيار، ويُنيم قابليّات التحرّر، ويخدم الواقع، ويقاوم التغيير...

إن المجتمعات تبقى منتظمة على حالها حتى تأتيها حوادث مزلزلة تدفعها إلى التحرك، وهي حين تتحرّك لا تفعل ذلك عن إدراك للغاية، أو فهم للوسائل، أو معرفة بالنتائج؛ وإنما الناس يندفعون كما يندفع الماء مع منحدر. أما إذا لم يأتهم ما يحرّكهم فإنهم يبقون منتظمين في ما اعتادوه، ومغتبطين بما تكيفوا معه مهما طال الزمن. إن المجتمع في حالة الانتظام يشبه سيارة من دون تعشيق.. سيارة من دون جهاز لنقل الحركة.. فالرواد يشبهون جهاز التحريك أو التعشيق...

ثم إن كارل ياسبرز يلفت الأنظار إلى فكرة محوريّة، وهي أن العلم حتّى في صفائه، وتحقّق أعظم تجلياته، قد يتيح اتفاق الناس على خطّة الفهم، لكنه لا يؤدّي إلى اتفاقهم على خطة الوجود. فلكلِّ مجتمع ثقافة تختلف عن الثقافات الأخرى في اتجاهها وغاياتها وفي قيمها واهتماماتها وأولوياتها في الوجود. وكذلك الأفراد، فقد يتلقى الدارسون المعلومات نفسها، لكنهم تبعًا للاختلاف في تصوّراتهم للوجود ومعنى الحياة وقيمة الإنسان قد يستخدمون المعلومات لأهداف متضادّة. فالتخصّص في حدِّ ذاته لا يمكن تقييمه بمعزل عن البرمجة السابقة له، ولا عن القوالب البيئية المهيمنة

عليه، ولا عن منظومة القيم التي ترتِّب تلقائيًّا درجات أهميّة النشاطات، وتحدّد الاتجاه والمسار، ولا بمعزل عن أنواع الاهتمامات التي تَكْمُنُ فيها الفاعليّة سلبًا أو إيجابًا...

لذلك، فإن كارل ياسبرز في كتابه (مدخل إلى الفلسفة) يشير إلى خطورة طمس التلقائيّة عند الأطفال. فالطّفل يتبرمج تلقائيًّا بما هو سائد في البيئة، فيفقد بذلك تلقائيّته كما يفقد انفتاح قابليّاته. وعن ذلك يقول ياسبرز: «الحقيقة أن الأطفال كثيرًا ما تكون لهم عبقريّة يفتقدونها عندما يصبحون راشدين، فالأمر يمضي كما لو كنّا على مرّ السنين ندخل سجن التقاليد المتواترة، والمعتقدات الجارية، والأحكام المغرضة والتكلّف؛ فنفقد في آن واحد تلقائيّة الطفل في تقبُّله لكلّ ما تجلب له الحياة التي تتجدَّد كلّ لحظة بالنسبة له. فهو يحسّ ويرى ويستجوب، وسرعان ما يفلت منه كل هذا، فيهوى إلى هُوَّة النسيان ما تَكَشَّفَ له في لحظة ما.. وسيندهش في ما بعد حين يُروى له ما قاله، وما كان يسأل عنه حين كان طفلًا». إن التنشئة مثل القولبة، فهي تقمع تلقائيّة الطفل، وقد تميتها؛ كما تُغلق قابليّاته، فهو يتبرمج في طفولته بعمليّات قسر متواصلة، ويمتد هذا القسْر التربوي المدمِّر بامتداد فترة التعليم، وما يصاحبه من إكراهات مُنَفِّرة، وتنميط معطِّل، وقوالب خانقة. فتفكير الإنسان وسلوكه ما هو إلا سلسلة من العادات الذهنيّة والسلوكيّة. فالتعليم يعوِّد على الامتثال والإمَّعية والذوبان في التيار العام. وهنا لا بد من إمعان النظر، ليس فقط في ضآلة إيجابياته، وإنما في الضرر الناتج عنه. وليس أضرّ على الإنسان من أن يفقد قابليّة الاستقلال في التفكير، وهي المزيّة الحقيقيّة للإنسان لأنه بهذا الفقدان يذوب تلقائيًّا في المعتاد، ويغرق في المألوف، ويندفع تلقائيًّا لمقاومة المغاير الذي قد يكون خلاّقًا وضروريًّا...

إنّ الفرق النوعي بين ما سمّاه ياسبرز (خطة الفهم) وما سمّاه (خطة الوجود)، هو فرقٌ مَفْصلي وقضيّة محورية شديدة الأهميّة والتعقيد. فالدارسون من مختلف الثقافات يلتقون في جامعة أميركيّة واحدة، أو جامعة بريطانية، أو جامعة فرنسية، أو جامعة ألمانيّة، ويتلقّون العلوم نفسها، ويلتزمون بالمناهج نفسها، وهم بهذا في مسار واحد في خطّة الفهم؛ لكن كلّ واحد منهم يبقى ذهنيًّا ووجدانيًّا، ومن دون أن يعي ذلك منفصلًا عن الآخرين انفصالًا شديدًا، وبشكل تلقائيّ قد لا ينتبه له أيُّ واحد منهم. ولكنّ خطّة الوجود التلقائيّة العميقة الخفيّة هي التي تتحكّم بالجميع، فيعودون إلى بلدانهم متّفقين

في المعلومات، ولكنّهم من دون وعي يبقون متنافرين وجوديًا، وهذه هي المعضلة البشريّة الكبرى التي لم توضع موضع نقاش عالمي، على أي مستوًى سياسي أو ثقافي، مع أنها أصعب قضيّة يواجهها كل شعب بمفرده، وتواجهها كلّ الشعوب مجتمعة. ولكنّ صعوبتها واستعصاءها على الحلّ جعلها قضيّة مؤجّلة، أو ربما لأن خطة الوجود تلقائيّة وعميقة وخفية، وغير معلنة، وغير معروفة حتّى عند المكبّلين بها. فهي المهيمن التلقائيّ الكلّي المطلق من دون إعلان، بل هيمنة عميقة غير محسوسة تسري في النفوس سريان الحياة. لذلك، فهي ليست خطّة واعية، ومن الصعب أن ينطبق عليها مفهوم الخطة، لكنّها الحاجة للتفريق بين مجالين منفصلين تمامًا...

وأعود للتذكير بأن موضوعنا الأساسي هو أن الطبيب كارل ياسبرز هجر الطبَّ فصار استاذًا للفلسفة، بل بات من بين أشهر الفلاسفة. لقد خرج من قوالب التنشئة، ثم خرج من أطواق التخصّص، فأصبح من قادة الفكر في العالم، فهو مفكّر استثنائي رائد، إنه يمثّل حالة من الحالات الاستثنائية النادرة، إنها حالة رياديّة. فالأصل أن الإنسان يبقى محكومًا بفاعليّات التنشئة، ثم يتخصّص بمجال لا يتعارض مع مقتضيات التنشئة كعمل مهنيٍّ محض. وتبقى برمجة الطفولة هي المهيمنة. أما كارل ياسبرز فمن القلائل الذين أفلتوا من التنميط الثقافي التلقائيّ، فانفكَّ من غبطة البرمجة التلقائيّة وعاش فردًا مغامرًا في مجال الفكر...

إن كارل ياسبرز لم يمارس مهنة الطبّ سوى فترة قصيرة، ثم تحوَّل بمحض اهتمامه إلى علم النفس، فأصدر في هذه المرحلة كتابه (علم النفس المَرَضي العام). ولكن احتياجاته الذهنيّة التلقائيّة وتساؤلاته العميقة الملحّة جذبته إلى الفلسفة، وقد كانت جاذبيّة قويّة وآسرة، فَشَدَّته إليها وانغمس فيها تفكيرًا وتأمُّلاً وبحثًا وتأليفًا وتدريسًا، فانهالت مؤلّفاته الفلسفيّة. وكان كتابه الفلسفي الأول مزيجًا من علم النفس ومن الفلسفة، فجاء بعنوان (سيكولوجية الأنظار الفلسفيّة)، أعقبه بكتابه (أحوال عصرنا الروحية)، ثم تلاه كتابه الأضخم (الفلسفة)، ثم كتاب (العقل والوجود)؛ ثم جاء كتاباه عن (نيتشه)، ثم (ديكارت والفلسفة). وإلى هنا وهو يرى أن الفلاسفة وقادة الفكر قادرون على إيقاظ الشعوب، وإرشاد الإنسانيّة وتسديد خطاها. لكنّه أدرك بعد حربين عالميتين أن عامة الناس لا يمكن أن يرتقوا إلى مستوى الوعي الفلسفي، وأنّ الحماقة

البشريّة التلقائيّة ما زالت تتحكّم في السلوك البشري، فلا بد من النهوض بتحرير العقل الإنساني من ركام التاريخ. لقد اكتشف أنّ للسياسة تأثيرًا حاسمًا في الشؤون الإنسانيّة، فأكثر الناس رغم تعميم التعليم، ورغم كلّ مظاهر التقدّم ما زالوا إمَّعات يقودهم السياسيون والأيديولوجيون إلى الدمار والهلاك. لذلك، فإنه صار يرى التركيز على إصلاح السّياسة والسّياسيّين، فأصدر كتابه (أصل التاريخ وغايته)، و(مدخل إلى الفلسفة)، و(العقل والحُمْق في هذا العصر)، و(كبار الفلاسفة)، و(مستقبل الإنسانيّة)؛ وخَتَم حياته الفكريّة بكتابه (تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية). إنه بهذا الكتاب يقترح مخطَّطًا فكريًا، ويقدِّم رؤية لإعادة كتابة تاريخ الفلسفة...

كانت لياسبرز مواقف ورؤى من حوادث العصر ومفكّريه. فكتب عن ماكس فيبر وغيره، كما وجَّه نقدًا شديدًا لكارل ماركس وفرويد، فهو يؤمن بأن الحرّية الفرديّة هي القيمة المحوريّة، فيوجّه نقده الشديد لكلّ فلسفة أو نظام، أو اتجاه يحاول أن ينتقص من الحريّات الإنسانيّة، فإنسانيّة الإنسان هي بقدر ما يتاح له من حرّيات، وتُنتقص إنسانيّته بمقدار انتقاص حرّيته...

لم يقتصر تأثير فلسفة كارل ياسبرز على أوروبا وأميركا والغرب عمومًا، وإنما امتدّ تأثير هذه الفلسفة إلى كلّ العالم. فقد امتدّ التأثير بقوة إلى اليابان. ويؤكّد يوري كوزلوفسكي في كتابه (الفلسفة اليابانية المعاصرة)، بأن لفلسفة كارل ياسبرز تأثيرًا كبيرًا وانتشارًا واسعًا في اليابان، إلى درجة أنه تم تأسيس جمعية فلسفيّة باسم (جمعية ياسبرز)، وتُصدر مجلة تعبِّر عنها: «وكان أعضاء الجمعية على اتصال مباشر مع الفيلسوف الألماني (ياسبرز) داعين إلى آرائه ومبشّرين بأفكاره».

ومثلما كان وليم جيمس عليل الجسم ومتوقّد العقل، فقد كان كارل ياسبرز كذلك أيضًا. إنها لظاهرة عجيبة لافتة تتعارض مع ما هو شائع من أن العقل السليم في الجسم السليم. إن الناس يتلقّفون أقوالًا مرتجلة، أو يخلطون بين أهميّة الصحة بشكلٍ عامٍّ، وبين كونها معيارًا لصحة العقل. إنه لشيءٌ رائع أن يملك الفيلسوف، أو المفكّر، أو العالم، أو المبدع، أو رائد التنوير صحةً جسديّةً تساعده على مواصلة العمل وسرعة الإنجاز؛ لكنّها ليست معيارًا لصحة عقله، ولا لسلامة تفكيره، ولا لنضج تدبيره.

فالإنسان يتشكّل عقله وتتحدَّد عواطفه ويُرسم اتجاهه بما تستقبله قابليّاته، إنه بما يُضاف إليه وليس بما يولد به. فالجسم السليم الذي لم ينشط فيه العقل ولم يهتم للفهم والتأمّل، والتعمُّق سيبقى فارغًا مهما كان متوقّد الصحّة الجسديّة...

ونقطة أخرى يتشابه فيها كارل ياسبرز مع وليم جيمس، فكلاهما معجبٌ أشدّ الإعجاب بالعظماء وقادة الفكر. لذلك، فإن كارل ياسبرز كتب عن عظماء كثيرين. فقد كان مولعًا بالرجال الاستثنائيين، فكتب عن (الفلاسفة العظام)، وعن كيركجارد وماكس فيبر وهيوم وإسبينوزا ولسنغ وباسكال وهوبز وليبنتز ودانتي وشكسبير وغوته ودوستويفسكي ولوك ومونتسكيو وماكيافيلي واسترندبرغ وفان غوخ وديكارت ونيتشه وسقراط وبوذا وكونفوشيوس ويسوع، وعن عظماء آخرين...

وقد سكَّ مصطلح (الزمن المحوري)، حيث يرى أنه في فترة زمنية ظهر كونفوشيوس وبوذا وهوميروس وسقراط والمسيح، وأنه في ذلك الزمن تشكّلت الثقافات الإنسانيّة الكبرى، وأن التطوّر الحضاري بقي مرهونًا بمثل تلك التحوّلات المحورية، التي تأتي بواسطة انبثاقات الفكر الخلّاق المضاد للسائد. وقد خضعتْ رؤيته لمناقشات متعدّدة. واعترض يان أسمن في كتابه (الذاكرة الحضارية) على فكرة المؤسّسين الأربعة الأوائل، وأورد حالات لا ينطبق عليها التحديد الزمني الذي حدَّده ياسبرز. لكنّ المهم أن ياسبرز صاحب فكر جوّال وعقل خلّاق واطلاع واسع ومعارف متنوّعة وإحساس عميق ورؤى فكريّة رياديّة خارقة. هكذا وثَب كارل ياسبرز خارج نطاق السائد، كما تخلّى عن تخصّصه المهني واستغرق بما هو أعظم وأروع...

إن فكرة كارل ياسبرز عن الأوقات المحورية تشير إلى أن الثقافات الإنسانيّة تتطوّر على شكل طفرات، وهي فكرة بالنسبة للثقافات تماثل ما توصَّل إليه توماس كون بالنسبة للعلوم، حيث أظْهَرَ أن تطوّر العلوم لا ينتج عن التراكم التلقائيّ، وإنما يأتي على شكل ثورات تكسر النماذج السائدة، وتستبدلها بنماذج تتّفق مع ما استجدّ من حقائق. وقد لاحظ توماس كون أن قبول النظريات العلميّة الجديدة لا يتحقّق تلقائيًا، وإنما بعد ممانعات شديدة لا تنتهي إلا بموت أقطاب الجيل الممانع، وظهور أقطاب جدد في جيل لاحق يتقبّلون الطفرة بالتدريج إلى أن تستقر، ويتكرّر المشهد بين كل طفرة وأخرى...

والشأن نفسه عند كارل ياسبرز بالنسبة للثقافات. وكما يقول هانز كوهن في كتابه (عصر القومية): «إن فكرة إنسان حرّ.. وعقل حرّ.. في مجتمع مفتوح.. وهي روح الحضارة الحديثة.. تمثّل مغامرة جريئة وظاهرة جديدة في التاريخ.. ويحدّد قبول هذه الفكرة أحد التحوّلات الحاسمة في كل الحياة الإنسانيّة التي أطلق عليها كارل ياسبرز اسم الأوقات المحوريّة». لقد تتبّعتُ في كتابي (الريادة والاستجابة) مسار التطوّر الحضاري الأوروبي، حيث ظَهَر لي من هذا التتبُّع أنّ كلّ الريادات الفردية الخارقة قوبلتْ حتى في أوروبا بممانعات شديدة ومقاومات ضارية. ولم يشهد أي رائد تقريبًا انتصار أفكاره في حياته، وإنما غالبًا ما انتصرت بعد تغيُّر الأجيال. فإذا كانت هذه هي حال أوروبا التي قادت التطوّر الإنساني، فكيف يكون وضْع الروّاد في المجتمعات المحكومة بالانغلاق الثقافي والاستبداد السياسي والتحجّر الاجتماعي...؟!!

تخرَّج طبيبًا وبقي عنصريًّا سفَّاحًا

إذا كان الفصل السابق عن الفيلسوف العظيم كارل ياسبرز الذي تخلّى عن مهنة الطب وتعمَّق في دراسة الإنسان وطبيعته وأوضاعه، وما يعانيه في مختلف الأقطار، واهتم بكيفية الارتقاء به. واتّخذ من الفلسفة سبيلًا إلى الفهم الأعمق، ومحاولة الإسهام في معالجة المعضلات البشريّة. فإنّ الشخص المضاد له هو الطبيب الصربي رادوفان كاراديتش، الذي كان يتأجّج تعصُّبًا وعنفًا، وكان على رأس حزب سياسيي بعد انحلال الاتحاد اليوغوسلافي. ولكنّه في سلوكه وهو الطبيب، كان أبعد ما يكون عن العناية بصيانة الحياة. فقد كانت أفعاله مضادّة تمامًا لما تقتضيه مهنته وتعليمه، حيث سعى ومارس هو وأتباعه بكل قسوة الإبادة الجماعية للخصوم. وهذا مثالٌ على هيمنة الثقافات التلقائيّة على الجنس البشري، وهو شاهدٌ أيضًا على ضآلة تأثير التعلُّم اضطرارًا الذي تتجه إليه كلُّ الأجيال طلبًا للتأهيل المهني، وليس بحثًا عن المعرفة. والمغزى من كلّ ذلك هو أن البنيات الذهنيّة والوجدانية للناس في كلّ الثقافات محكومة بالتبرمج التلقائيّ وليس بالعلوم ولا بالتعليم...

إن ياسبرز من الروّاد الخارقين، أي من القلّة المبدعة التي كانت خلف التطوّرات الحضارية خلال التاريخ، أما رادوفان فإنه بالعكس من ذلك تمامًا، فقد كان من عموم الجماهير المبرمَجين المحبوسين داخل القوالب الثقافيّة الصلدة، من دون أن يحسّوا بهذا السجن، بل يعيشون غبطة البرمجة الثقافيّة العمياء. إن كاراديتش لا يختلف في تفكيره ومستواه عن أتباعه، وكذلك كلّ من يقودون الجماهير والغوغاء، فلا يستجيب الناس إلا لمن يماثل تفكيرهم ويدغدغ عواطفهم. فالكلّ يعيشون الأوهام نفسها،

بخلاف قادة الفكر الذين يتحرّكون عكس التيارات السائدة، فلا يفهمهم الناس ولا يستجيبون لهم، بل يرفضونهم، ويشتدّ الرفض بمقدار اختلاف أفكارهم عن المألوف...

إنّ الإنسان حين يقرأ للرواد من الفلاسفة والمفكّرين والمبدعين وقادة الرأي وأهل الحكمة، ومنهم كارل ياسبرز يشعر بعظمة الإنسان وأهليته لتجاوز النقائص البشريّة التلقائيّة. لكنّه حين يتأمّل الأوضاع العالمية يصاب بالكمد والإحباط واليأس، حيث يوجد فارقٌ نوعيٌّ هائلٌ بين الفكر الريادي الاستثنائي الخارق مقابل الأوضاع البشريّة المضطّربة المتنافرة. إنّ البشريّة رغم كل مظاهر التحضّر والازدهار بائسة وعاجزة ومضطربة التفكير، ومتخاذلة وغارقة في التضارب والتناقض، وتبادُل سوء الفهم ليس فقط على مستوى عموم الناس، وإنما حتى على مستوى من يقودون المؤسّسات العالميّة الكبرى والمنظمات الدوليّة الأساسية...

إن من يتابع ما يجري في العالم على كلّ المستويات، وفي كافة المجالات يلاحظ أن الناس لم يدركوا الفرق النّوعي بين تفكير قادة الفكر الخارقين الاستثنائيين مقابل التفكير العام. فالرواد يسيرون عكس الاتجاه السائد، ومن الصعب أن يفهمهم الناس، أو أن يستجيبوا لهم. أما المعضلة الأخرى فهي أن الكثيرين لا يدركون الحواجز الثقافيّة الصلدة، ويغيب عنهم أن تعدّد الثقافات يعني بكل حدّة تنوّع أنماط التفكير وصعوبة تبادل الفهم. أما المعضلة الثالثة، فهي أن الكثيرين يتوهّمون أنّ التعليم يؤدي تلقائيًّا إلى تعديل وتصحيح طريقة التفكير، ويغيب عنهم أن التعليم يأتي لبنيات ذهنيّة ووجدانيّة مُكَوَّنة، وأن المعارف المهنيّة تبقى فاعليتها محصورة في المجال المهني...

إنّ ظواهر كثيرة وسلوكيّات شائعة تؤكّد أنّ العالم حتى الآن لم يحسّ بالخطورة المدمّرة للفواصل الثقافيّة العميقة، التي تفصل بين الأمم بشكلٍ حادٍّ وقاطع. بل ما زال المهتمون في رصد ومعالجة الشرور الناجمة عن التنافر الثقافي غير مدركين لحدّة التنافر التلقائيّ بين الثقافات المختلفة. كما أنهم غير منتبهين للفرق النوعي بين البنيات الذهنيّة المتشكّلة تلقائيًّا، وبين المعارف المهنيّة اللاحقة التي لا تتجاوز نطاقها. لذلك تجدهم يستغربون من النتائج الفظيعة المغايرة لهذه التصورات الخاطئة، بل ويكون استغرابهم أشد حين تأتي المفاجأة من طبيب. وهذا يؤكّد أن الكثيرين لم يدركوا أن

قابليّات الإنسان عقلًا ووجدانًا يحتلّها الأسبق، وأن التعليم يأتي لقابليّات قد تشكّلت وانغلقت وجدانيًّا. إنّ كلَّ هذه الحقائق تغيب، رغم أن أحوال الأفراد في كلّ الأمم، وأوضاع الشعوب في كل مكان تشهد بأنّ الناس محكومون بالثقافات التي تبرمجوا بها تلقائيًّا، وليس بما تعلموه اضطرارًا كمطلب مهني محض...

إن هذا اللبس موجود حتى لدى بعض كبار العلماء المهتمّين، حيث ما زالت فاعليّة الثقافة التلقائيّة غير واضحة لديهم. كما أنهم يتوقّعون أن يكون للتخصّص المهني تأثير قوي على تفكير الفرد وسلوكه. ففي كتاب (القادة وتابعوهم) لبروفيسور الطبّ النفسي جيرولد بوست، خصَّص فصلًا عن الطبيب الصربي السفاح كاراديتش بعنوان (قادة مروجون للعنف)، وفيه يقول: «منذ انهيار الإمبراطورية الشيوعية في العام 1989 كان المناخ يانعًا للقادة المروّجين للحقد»؛ وفيه أيضًا: «كيف يمكن لطبيب تعهّد تحت القسم الأبوقراطي بعدم الإيذاء، أن ينسّق حملة من التطهير العرقي؟». إنّ كاراديتش منسجمٌ مع الثقافة التي تبرمج بها. فمع أن سلوكه فظيع وشاذ ومستهجن وبشع ووحشي بالمعيار الإنساني، لكنّه يجسّد صدق الولاء والشجاعة بمعيار الثقافة الصربية التي تبرمج بها تلقائيًّا. إنها فاعليّة التبرمج التلقائيّ بالثقافة المتوارثة، فهي كيانات مغلقة متنافرة، وتختزن ركامًا هائلًا من الحقد والثارات، أما الشواهد على ذلك فهي كثيفة على المستوى التاريخي، كما أنها صارخة واقعًا في كل مكان وعلى مستوى كل الثقافات تقريبًا...

ثم تحت عنوان فرعيٍّ يكتب البروفيسور بوست: (رادوفان: شاعر الموت). وفيه يقول، وهو شخصية علميّة عالميّة، وصاحب نظريّات معتبرة في السلوك السياسي: «لمّا أصبح واضحًا أنّ المهندس الأساسي للتطهير العرقي في البوسنة طبيب نفسي، شعرت بواجب لتطوير ملف شخصي سياسي سيكولوجي لرادوفان كاراديتش، لأستفهم كيف يمكن لطبيب نفسي مكرّس لإنقاذ الحياة الإنسانيّة أن يطبق سياسة الإبادة. وبينما كنت أجمع وأحلّل المواد، اتّصل بي طبيب نفسي آخر (دينيث ديكليفا)، قرّرنا أن نتعاون في دراسة السيكولوجيا السياسيّة لكاراديتش، والذي سمَّى نفسه رئيسًا للصرب البوسنيين. كانت السنة التي اعتلى فيها قيادة الحزب الصربي الديمقراطي في بوسنيا واضعةً علامةَ النقلة من طبيب نفسي إلى قائد سياسي. وفي تلك السنة نشَر كتابه الثالث من الشعر (الأسطورة السوداء)، وهي مجموعة من القصائد الظلاميّة والعنيفة.. في العام 1993

قررتْ جمعيةُ الأطباء النفسيين الأميركيين أن أفعال الدكتور كاراديتش كقائد سياسي تُشَكِّل خيانةً كبرى للقيم الإنسانيّة العميقة للطب النفسي، مستشهدين بأفعاله الوحشيّة وغير الإنسانيّة كقائد للصرب البوسنيين». نعم إن الفظائع التي ارتكبها كارديتش تمثّل أشدّ الأعمال فظاعة ووحشيّة. لكنْ توقُّع غير ذلك لمجرّد أنه طبيب، يدلّ على أن الكثيرين، حتّى من العلماء، لم يدركوا بعد أن الإنسان محكومٌ بالبرمجة الثقافيّة التلقائيّة وليس بالمعلومات المهنيّة. لكنّ غياب ذلك، حتّى عن عالم كبير مثل بوست، هو المشكلة الكبرى. لأنّ غياب السبب الحقيقي للمعضلة، والنظر إلى الذي حصل منه كسلوكٍ فرديٍّ شاذٍّ، يفاقم المعضلة، ويؤخّر التشخيص، ويؤجّل العلاج. بينما الواجب يقتضي اعتبارها ظاهرة ثقافيّة عامّة وليست سلوكًا فرديًّا...

رادوفان كاراديتش لم يخاطب الصرب بخطاب العلم والحق، وإنما خاطبهم بمنطق الثقافة التي تشكّلت بها ذواتهم. لقد حرّضهم بالشعر والتاريخ والقومية، وأصدر ثلاثة دواوين تحريضيّة ملتهبة، ساخطة، غاضبة، تنادي بالقتل والإبادة والانفراد في الأرض. فهو ككلّ الناس، تحرّكه الثقافة التي تبرمج بها منذ طفولته، فهو مدفوع بثقافة أوهام التميّز وضرورة تصفية الآخرين وبناء الحاضر والمستقبل من دماء المغايرين ثقافيًّا، إنه لا يحلم بالتآخي وبناء الأوطان بكلّ السواعد، بل يهوى الصعود إلى ما يتوهّمه: «قمم الأحلام والمجد»، فوق أكوام من الجثث؛ وكان يعلن: «أنا مستعدٌّ لأن أضحي بهذا الجيل كاملًا إذا كان هذا يعني أن الأجيال المقبلة (من الصرب) ستعيش أفضل». إنّه يستخدم لذلك أفظع الأفعال، كما يستخدم أروع الفنون وكان يقول: «عَبْر الشعر تدافع الأمّة عن ذاتها». وكما يصرّح بركوفيتش: «لا شيء من شعره خالٍ من ثيمات الموت والسكاكين والرصاص». ويقول بوست: «تمثّل لغته الشعرية ثيمات الظلامية والموت والعنف والدمار». وكان وهو الطبيب النفسي كما يقول بوست: «تكشف قصائد كاراديتش اعتناقه للخرافة». فالقابليّات التي تكوَّنت في الطفولة على الخرافة وتشكّلت بالأوهام، تبقى كذلك مهما تلقّت من تعليم مهني سواء في مجال الطبّ النفسي، أو في مجال الفيزياء، أو الكيمياء، أو الأحياء، أو أي مجال آخر. فالقابليّات يحتلّها الأسبق. إنّ العقول والعواطف تتشكّل تلقائيًّا بالأسبق، ويبقى هذا الأسبق مهيمنًا عليها ويتحكّم بها، ويظلّ الناس مغتبطين بما تبرمجوا به تلقائيًّا...

ومما يؤكّد الأولويّة المطلقة للبرمجة الثقافيّة التلقائيّة، كما يؤكّد ضآلة تأثير التعليم المهني اللاحق. إن الحزب الصربي الذي كان على رأسه الطبيب النفسي كاراديتش، كان قد أسّسه الطبيب النفسي الصربي الآخر جوفان راسكوفيتش بنزعته القوميّة الإقصائيّة. وكما يقول بوست: «كان للطبيب النفسي جوفان راسكوفيتش تأثير مهم على كاراديتش». ولو تتبّعنا ما يجري في كل العالم لوجدنا أن الثقافات هي التي تتحكّم في الأمم. أما العلوم والتقنيّات فليست سوى وسائل تستخدمها الثقافات المختلفة لأهدافها المتضادّة...

كان كاراديتش، ككلّ القوميين والأيديولوجيين المهووسين. كما يقول بوست: «يحلم بخلق دولة صربية موحّدة». ويكتب بوست عن انقلاب الحلم: «من المجد إلى الخزي يقف كاراديتش متهمًا بجرائم حرب من ضمنها التطهير العرقي، والإبادة الجماعية، والاغتصاب الجماعي، والاعتداء الجنسي، وتدمير ثقافة المسلمين البوسنيين، يحقِّره الآن داعموه السابقون». هذا الكلام مكتوبٌ أثناء المحاكمة التي انتهت بإدانته، ولست أكتب عن كاراديتش كشخص، ولكني أكتب عنه كنموذج لكل المهووسين بدوافع ثقافية تاريخية. فلو كان يمثّل حياة شاذّة، أو نادرة لما كان يستحقّ التوقّف عند فظاعاته...

إنّ نموذج الطبيب السفاح رادوفان، واندفاعه واتّباعه للعنف والقتل والإبادة الجماعية، لا تمثّل حالة شاذّة، وإنما هي ظاهرة بشريّة عامّة تؤكّد خطورة التنافر الثقافي بين الأمم، وهذا التنافر ليس بالضرورة يتّخذ الحدّة البشعة التي ظهرت في يوغسلافيا، وإنما تتنوّع المعاناة بشكلٍ يستوجب أن تكون المعضلة الثقافيّة من أولويات القضايا العالمية. فهي السبب الأول لاستمرار التخلّف، وهي العامل الأكبر للحروب الأهلية والصراعات الطائفيّة والنزاعات المذهبيّة، ولما لا يمكن حصره من المشكلات المعقّدة. ولكنّ العالم لم يعط هذه المعضلة الكبرى ما تستحقه، بل الذي يحصل هو العكس. ففي مؤتمر عالمي نظّمته في المكسيك منظّمة الأمم المتّحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، نجد أن المؤتمر ينتهي ببيان يغري المجتمعات المتخلّفة بأنْ تحافظ على ثقافاتها كدلالة على التميّز والأصالة، فيعلن البيان: «لا بدّ لكلِّ شعبٍ من الحفاظ على تراثه الثقافي وتقديره حق قدره، وبهذا يستطيع تأكيد ذاتيّته الثقافيّة

وتدعيمها». ويضيف: «كل ثقافة هي مفهوم واحد ولا يمكن أن نستبدل به مجموعة من القيم، وذلك لأن كلّ شعب يؤكّد وجوده في العالم عن طريق تقاليده». وفيه أيضًا: «التعاون الثقافي الدولي ينبغي أن يقوم على احترام الذاتيّة الثقافيّة لكل شعب، وعلى كرامة كلّ ثقافة وقيمها، وعلى الاستقلال والسيادة القوميّة، ومبدأ عدم التدخّل في شؤون الآخرين. وبناء على هذا فإنّ علاقات التعاون بين الأمم يجب أن تتجنّب كل صور التبعيّة، أو محاولة إحلال ثقافة مكان أخرى». ويؤكّد المؤتمر أهميّة الحفاظ على السمات الثقافيّة لكلّ الجماعات والشعوب، موّضحا أنّ لكل ثقافة: «مجموعة من القيم لها مفهوم واحد لا يمكن الاستبدال به». كما شدّد المؤتمر على: «الربط بين الثقافة والسيادة». والغريب أن كلّ هذه التأكيدات الموهمة بأصالة وعظمة الموروث من دون تفريق بين الثقافات المنفتحة المزدهرة، وبين الثقافات المنغلقة المتحجّرة؛ حتّى لو كانت ثقافة لم تتجاوز مرحلة العصر الحجري، كما هي في غابات غينيا الجديدة، أو مجاهل الأمازون، أو صحارى استراليا؛ فلا بد من احترام كل الثقافات والحفاظ عليها والتشجيع على التمسّك بها مهما كانت موغلة في التحجّر والانغلاق والتخلّف. وهذا يعني المحافظة على استمرار عوامل التخلّف، وإبقاء الأمم المتخلّفة مكبّلة في أغلالها، كما أنّ هذا يعني استمرار الأحقاد المتوارثة، رغم أن دستور اليونيسكو يؤكّد في مقدّمته بأن الحروب تتولّد في عقول البشر، وبأن إحلال السلام يقتضي إحلال أفكار السِّلم في العقول بدلًا من أفكار الحرب...

نفهم أهميّة تبادل الاحترام بين الثقافات لتجنّب أسباب التوتر بين أمّة وأخرى، أو بلد وآخر. فهو سلوكٌ مبرَّر لكنه غير مقبول ولا مبرَّر من منظمة دولية مهمّتها الإسهام في تقدُّم الأمم ثقافيًّا وعلميًّا وتربويًّا، وواجبها تقديم النصح للأمم وتعرية ما تعانيه من معوِّقات ذاتيّة. ومن المعلوم أنّ التخلف الثقافي بتلقائيّة جموده وتحجُّره، وصلابة حصونه وكثرة حواجزه المعرفيّة والنفسيّة هو العقبة الكبرى المستعصية أمام التقدّم، في أي مجال من مجالات التنمية. ومن ناحية أخرى فإنه مفهومٌ ومبرَّر أن تتجنب اليونيسكو توجيه النقد لثقافة معيّنة، لكن واجبها الثقافي يقتضي أن تؤكّد دائمًا وبشكل واضح، أن العائق الثقافي عند الكل هو العقبة الكبرى التي تعوق تنمية الأوطان، كما تعوق التقارب بين الشعوب والأمم...

لقد توارثت الأمم العداوات والثارات والأحقاد، فهي تتبادل سوء الفهم، كما توارثت الجهل المركّب. فالمعروف أنّ الثقافات تكوَّنت تلقائيًّا، ولم تخضع للتحليل والفحص والمراجعة والتصحيح. إن تاريخ العلوم يشهد بما لا يدع مجالًا للشك صعوبات التحقّق من أية مسألة، أو قضيّة، بينما الأمم تتوارث ثقافاتها تلقائيًّا من غير أي تحقّق مع أنها تتضمّن أحكامًا على كل شيء. وتترتّب على ذلك نتائج فظيعة ومدمرة. وهذا يوجب على القيادات العالمية في الفكر والعلم والسياسة أن تتوقف بمنتهى التجرّد وحسّ المسؤولية أمام هذا الشتات الثقافي المتناحر، وتعلن الحقائق للعالم لكي ينتبه الناس لتلقائيّة ما هم فيه من تصوّرات متنافرة، مقارنة بما تقتضيه مناهج العلم من دقة شديدة ومراجعات موصولة وانفتاح دائم وتصحيحات متكرّرة...

الروّاد الذين كانوا خلف تأسيس الجمعيّة العلميّة الملكيّة في بريطانيا العام 1660، جعلوا شعارها: «لا تسلِّم بصحّة أي رأي إلا بعد أن تتحقّق منه». وامتدّ الصدى إلى الشعراء. فها هو بليك يعلن: «نيوتن يقول الشك إيه؟ تلك هي الطريقة لنضع كل الطبيعة خارجًا. الشك، الشك، فلا تؤمن بما لا تجرّب». ومن الواضح أن مؤسّسي الجمعية العلميّة قد أدركوا في ذلك الزمن المبكر أن معضلة البشر هي التوارث التلقائيّ للتصوّرات والاتجاهات والآراء والولاءات والمواقف، كما أدركوا سرعة تصديق الناس للترّهات. ولكن رغم التقدّم الهائل الذي تحقّق منذ ذلك الحين في مجالات العلوم والأفكار والنظم والمناهج، فإنّ البشر قد بقوا كما كانوا يتوارثون بحتميّة حادة وقاطعة الثقافات السابقة للعلوم، كما كان شأن الثقافات خلال كل العصور...

لذلك، فإن الأفراد الخارقين الذين يكتشفون الخلل العميق في الثقافات السائدة، ويجهرون بالحقائق ضد الأوهام المهيمنة في مختلف المجتمعات، يواجههم الناس بالخصومة والاستخفاف والمقاومة والنبذ. وكما يقول الفيلسوف جورج سانتيانا: «الحقيقة دائمًا تؤلم الذين تعوّدوا على الأوهام». ويضيف: «الحقيقة قاسية، وهي تجعل من يحبّونها أحرارًا». إنهم يتحرّرون من التحجّر الذي تفرضه الأوهام، ويستعيدون إنسانيتهم التي اختطفتها تلقائيًّا البرمجة الثقافيّة. وكما يكتب بيرغسون: «نجد أن العقل البشري ما كاد يتكوَّن حتى غزته الأوهام، كما نجد أن الكائن العاقل في جوهره هو: كائنٌ متوهّم بطبيعته». ويقول المبدع أورويل: «كلما ازداد ابتعاد المجتمع

عن الحقيقة ازدادت كراهيته لمن يجهرون بالحقيقة». فليس أضرّ على الفرد والمجتمع والإنسانيّة أجمع، من سطوة الأوهام المصونة عن التعرية والمحميّة من النقد. ويقول البروفيسور أوسكار لوفيل تريغز: «إنّ الحقيقة هي الكلمة المفتاحيّة في عالم العلم». ويعلن الرئيس الأميركي جيفرسون: «الاستبداد الممارَس على عقل الإنسان هو الشر الأكبر». إن التحقّق هو الطريق الذي لا بديل له للعدل والسلام والتحرر من الأوهام التلقائيّة، التي تراكمت خلال القرون، والتخفيف من العداوات والثارات والأحقاد المتوارثة. إنّ عقول مئات الملايين من البشر، بل مليارات تولد ومليارات تموت، وكلّها تتبرمج تلقائيًّا بثقافات لم تخضع لأي فحص علمي أو مراجعات، وإنما تكوَّنت تلقائيًّا قبل مئات أو آلاف السنين، ويجري التبرمُج بها تلقائيًّا. إن الحتميّة الثقافيّة تسيطر على العقل البشري سيطرة تلقائيّة كاملة، وهي مصدر معظم المعضلات التي تعانيها البشريّة. إنّ الحتميّة الثقافيّة هي الوباء العالمي الشامل المستحكم، لكنّه وباء لم يوضع موضع النقاش العلمي العلني المفتوح، بل يثور الكثيرون من مختلف الثقافات على من يعلن بعض الحقيقة عن هذا الوباء المستوطن، كما فعلوا مع هانتنغتون وكتابه (صراع الحضارات). إن تبادل المجاملات والمداهنات بين قادة الأمم سيدفع بالوباء الثقافي إلى تدمير الحضارة وإفساد الحياة الإنسانيّة...

يكتب حمودة إسماعيلي في (الأنا والآخر): «الإشكال هو أن الإنسان بحكم أنه يولد ضمن نظام اجتماعي محدّد، فإنه يولد ككائن غير حرٍّ لأنه تلقائيًّا سيبدأ في الانخراط في اللعبة الاجتماعيّة ويتلقَّن مبادئها وشروطها، لينمو كلاعب يتحدّد دوره في ما بعد بحسب خبرته ومعارفه. لذا، فالفخ الذي وقع فيه الكثير من المفكّرين والفلاسفة هو ضمان حرّيّة الإنسان داخل اللعبة، ما يعني أن كلَّ ما يقومون به هو فقط تعديل لبعض قواعد اللعبة، وبالتالي فهم لا يضمنون حريّة للإنسان، بل فقط يقومون بتغيير شروط اللعبة، فالحريّة توجد خارج اللعبة». ويقول الفيلسوف ماكس شيلر: «إنّ الجموع تحكمها بشكل مطلق القوانين نفسها التي تحكم قطعان الغنم. ولو وُضع الإنسان بين جموع في الحالة الخام لعاد مجرّد حيوان». ويكتب جورج برنارد شو: «الجميع لا يستطيعون التفكير إلا في إتباع ما ألفوه واعتادوا عليه». ويضيف عالم الفيزياء ريتشارد فاينمان: «العلم هو ما تعلَّمناه بشأن كيفية الامتناع عن خداع أنفسنا». فرغم أن عموم

الناس يبقون مغتبطين بما تبرمجوا به تلقائيًا، فلا تخطر على أذهانهم أي تساؤلات، إلا أنّ التساؤلات المقلقة قد تفرض نفسها على بعض الأفراد في كل ثقافة، فيبقون يتساءلون بينهم وبين أنفسهم حول حقيقة ما تبرمجوا به، لكنْ لصعوبة التحقّق فإنهم يخادعون أنفسهم باستبعاد التساؤلات والكف عن البحث وتأكيد اليقين المطلق...

يقول آينشتاين: «إني مقتنعٌ تمامًا أننا إذا تغلّبنا على الصعوبات النفسيّة فلن يكون حلّ المشكلات الحقيقية أمرًا عسيرًا، وأهم ما هناك مما يساعد على إشاعة الجو المناسب هو التعاون الشخصي بين الرجال متشابهي العقليّات». ويتابع: «الكفاح من أجل التوجّه الجديد للفكر والشعور كفاحٌ قاسٍ، لأنه يتعارض مع التقاليد التي توارثناها على مرِّ العصور». ويضيف: «القيام بعمل عميق الأثر في حياة الشعوب يستوجب طاقة أخلاقيّة هائلة لاقتلاع تقاليد تغلغلت جذورها في نفوسنا. إننا في حاجة إلى الذكاء والفطنة لكي نتبيّن بوضوح المصير الذي ينتظرنا، وإلى الشجاعة لكي نتولّى هذه القضيّة الكبرى بعزم وتصميم، ومساندة التعقّل والاعتدال بطريقة لا تعرف المحاباة. وما لم نقلع عن التربية العدوانيّة فلا أمل في بلوغ الغاية». ويستطرد: «هناك بصيصٌ من الأمل لا يقف في سبيل تحقيقه إلا التقاليد الوطنية التعيسة التي تنتابنا كمرض وراثي من جيل إلى جيل عن طريق الجهاز التربوي.. حبّ الوطن. لقد نال هذا الطلسم في كلّ مكان قوّة غاشمة خبيثة، وهي لا تهدّد بقاء حضارتنا فقط، بل إنّها تهدّد وجودنا نفسه». ويقول برتراند راسل: «تُصَبُّ الطبيعة البشريّة في قالب مُعْدٍ لتُجمّد على شكل مرسوم من قبل». وينادي: «باستئصال ميولهم الهدميّة»، مؤكّدًا أن «نقائصهم إنما ترجع إلى سوء التربية وحدها، وأسهل طريقة تؤدّي إلى اجتثاث القسوة العمياء هي إيجاد الاهتمام بالبناء والنماء». إن المأساة المتوارثة وهي مستحكمة تلقائيًا، ولا علاج لها سوى التفكير النقدي المتجدّد. فالعقل الذي لا يصير فاعليّة نقديّة ليس عقلًا، بل إنه مجرد وعاء، لكنّه وعاء مليء بالمواد المتفجرة...

إن كلَّ الأفراد من جميع الثقافات يجب أن يعوا طبيعة الثقافات التي يتبرمجون بها، وأن يعوا تلقائيّة تكَوُّنها وتلقائيّة استمرار توارثها، وأن هذا الاستمرار يكون من دون أي تحقّق، ولا بد أن ينتبه كلّ الناس في كل الثقافات للفرق النوعي بين طبيعة العلوم وطبيعة الثقافات. ففي العلوم يتمّ التحقّق من كلّ شيء. فالإثبات أو النفي لا يتم تلقائيًا،

وإنما بعد استقصاء شامل وتحقّق دقيق فإذا قورن ذلك بحتميّة وتلقائيّة وصرامة التوارث الثقافي، ظَهَر للناس في كلّ العالم الفرق الجوهري بين العلوم والثقافات. ومع كلٍّ هذا الاستقصاء والدقّة في العلوم، فإنها تستبقي كل الأبواب مفتوحة للمراجعة والتصحيح، مقابل تلقائيّة التوارث الثقافي وثباته، بكلّ ما يحمله من أحكام قاطعة، وتحديدات فاصلة، ونتائج مدمرة. إنّ هذا الوعي لو تحقّق فسوف تنشأ عنه أوضاع بشريّة مختلفة جوهريًّا، حيث يدرك الجميع خطورة القبول التلقائيّ، ويعون الأهميّة القصوى للتحقّق. كما يدركون بأنّ تقدّم الأمم هو نتاج العلوم، وبأن التحقّق الموضوعي واحتماليّة الأحكام، من أبرز خصائص العلم الحديث، وبأن نظريّات العلوم جاءت كومضات فكريّة تمخّضت عنها عقول فرديّة خارقة. إنّهم روادٌ أفذاذٌ استثنائيون عارضوا السائد، وتحركوا ضد التيار التلقائيّ. أما التوارث التلقائيّ للثقافات، فلا يمكن أن تتحقّق به أي إضافات نوعيّة تتغير بها الأفكار والتصوّرات والمؤسسات والأوضاع. وبهذا نرى خطورة تشجيع الثقافات على تَوَهُّم الكمال والاكتفاء. فالأصل في الثقافات أنها كيانات مغلقة تلقائيًّا، وتشتد حاجتها للتغذية من خارجها، فهي تحتاج إلى الحثّ على الانفتاح والاستفادة من تجارب كلّ الأمم، وليس إيهامها بأنّ ذاتها مرتبطة بانغلاقها ورفض المغاير...

إن المهتمّين المتابعين يدركون أن العقل لا يكون عقلًا منفتحًا وإيجابيًّا إلا إذا صار فاعليّة نقدية، وبأنْ لا شيء يعلو على ذاته، فلا بد أن يتغذّى من خارجه. فتشجيع الثقافات على التمسّك بموروثاتها مهما كانت هذه الموروثات منافية للعلم، ومضادّة لحقائق الواقع، هو حرمانٌ صارخٌ من إمكانات الانفتاح، وإغلاقٌ لفرص التقدّم. إن كلَّ الأمم تتناسل ثقافيًّا بشكلٍ حتميٍّ هو أشدّ من حتميّة التناسل البيولوجي. فلا يوجد جيلٌ ولا فردٌ من أيّ أمّة قد اختار هو ثقافته، وإنما هو يجد نفسه قد تبرمج تلقائيًّا بثقافة البيئة التي نشأ فيها. فكلّ فرد تتشكّل قابليّاته ويصاغ عقله ووجدانه بالأسبق إليه. وكذلك كل الجيل الذي ينتمي إليه الفرد، وكلّ الأجيال السابقة قد تبرمَجَتْ تلقائيًّا بالطريقة نفسها التلقائيّة. فالعقل الجمعي والعقل الفردي يحتله ويتحكم به الأسبق إليه. ومعلومٌ أنّ هذا الأسبق قد تكوّن تلقائيًّا، فماذا نتوقّع أن يتبرمج به أفرادُ قبائل غينيا الجديدة، أو سكان صحارى استراليا، بل حتّى أولاد طائفة الآمش في قلب أميركا...؟؟

الأصل في الثقافات هو الانغلاق، ورفض الجديد، ومقاومة المغاير. فالحاجة تشتدّ لتشجيعها على المرونة والتقبُّل وليس تشجيعها على الاكتفاء وتوهُّم الكمال. إنّنا حين نقرأ تاريخ الحضارة نجد أن روّاد التقدّم قد عانوا أشدّ المعاناة من الصد والرفض والاستهجان والمقاومة، فلم يتحقّق أي تقدّم حضاري إلا بعد مقاومة شرسة وممانعة ممتدّة. ومع ذلك ما زالت المنظّمات العالمية المسؤولة تشجّع الأمم والشعوب على تمجيد ثقافاتها، وتَعتبر ذلك تمسّكًا بالأصالة حتى اللباس البدائي البشع عند بعض الشعوب ما زال يجري التمسّك به في المناسبات الرسمية، وكأنّه رمز الهويّة والأصالة والعراقة مع أن دلالته تعني العكس تمامًا...

إن العالم كلَّه حتّى أشد المجتمعات ازدهارًا يعيش مقَسَّمًا بين طريقتين متضادتين كليًّا من طرق التفكير، فالناس في المدارس والمعاهد والجامعات والمختبرات والمستشفيات وفي مواقع العمل والإنتاج يفكّرون بطريقة علميّة منهجية تحدّد مسار تفكيرهم وتضبط سلوكهم، فهم في حالة وعي مهني، ولكنّهم في حياتهم العامة تتحكّم بهم الثقافات السائدة التي توارثتها الأجيال منذ أقدم العصور. والأغرب من ذلك أن الناس يعيشون هذا الوضع المتناقض الغريب من دون أن يشعروا بأي تناقض، وهكذا يتعايش وعي الغفلة ووعي اليقظة داخل كلّ مجتمع، وفي وعي ولا وعي كل فرد، وكأنهما في عالمين مختلفين ومنفصلين...

يقول نيتشه: «البشر غارقون كليًّا في أعماق سحيقة من الأوهام والأحلام. فعينهم لا تجيد إلا الانزلاق على سطح الأشياء، ولا تُبصر سوى مجرّد أشكال، أما الإحساس فلا يقود أبدًا نحو الحقيقة، بل يكتفي بتلقّي الإحساسات المثيرة، ومداعبة السطح الخارجي للأشياء». ويضيف: «فالعمل من أجل الحقيقة هو أشقّ الأعمال وأضناها». فالتحقّق هو معيار الصدق، لكن الناس في كلِّ الثقافات لا يعتريهم الشك في ما تبرمجوا به، مع أنه لم يخضع لأي فحص، أو تحقّق. وبسبب هذا الوثوق التلقائيّ العميق الواهم لا يبذلون أي جهد من أجل التحقّق مما يَعْرض لهم. فإذا كان العارض متفقًا مع ما تبرمجوا به، فإنّهم يقبلونه من دون نقاش أو تردد، أما إذا كان يتعارض مع ما تبرمجوا به فإنهم بالعكس تمامًا يرفضونه بشكلٍ تلقائيٍّ، ومن غير أن يحاولوا أن يتحقّقوا حتّى لو كان مبنيًّا على استقصاءات علميّة موثّقة...

في كتابٍ صدر حديثًا يحمل عنوان (أئمة الخفاء)، وعلى امتداد 585 صفحة، استعرض المؤلف (ثناء رستم) خضوع الناس لبعض الأفراد الذين اعتبرهم المؤلف خارقين؛ وهو يستهل كتابه: «كان دائمًا ما يشغل بالي هو قدرة شخص ما على التأثير في الآخرين إلى درجة الإيمان بأفعاله وأقواله، وهو أمرٌ يستحق التأمّل بالفعل.. تربّعوا على قمة الكلمة التي أطلقوها، وبها حكموا لمئات السنين رعاياهم وأتباعهم لتبقى الكلمة أقوى من الجيوش والأسلحة، وذهب الملوك وسطوة السلاطين». يحاول المؤلف بهذا أن يؤكّد عبقرية بعض الأفراد الذين يتكاثر حولهم الأتباع، ولكنّ الحقيقة أن هذا التوارث التلقائيّ أكبر دليل على مهزلة العقل البشري وقابليته في الطفولة للتبرمُج التلقائيّ بأي تصوّرات، ثم يبقى الفرد طوال عمره محكومًا تلقائيًا بهذا التبرمُج...

إن انتظام مئات الملايين من الأتباع خلال تتابع القرون هو دليل على تلقائيّة الإنسان، وليس دليلًا على عبقرية أولئك الأفراد الذين دان لهم الناس بكل تلقائيّة واندفاع وتضحية، كما كان يحاول إثباته المؤلف. إن الإنسان سريع التصديق إذا كان فارغ الذهن، ثم يورث أولاده ما ترسّخ في ذهنه وامتزج في وجدانه، ثم يستمرّ التوارث تلقائيًا. وهذه الظاهرة التي تنطبق على كلّ الناس في مختلف الثقافات دليلٌ ساطعٌ وقاطعٌ على تلقائيّة التبرمج بأي نمط من أنماط التفكير. ثم تبقى الأجيال تتوارث هذا التبرمُج بتلقائيّة حتميّة من دون أي توقّف للتحقّق. وعلى سبيل المثال، فإن فردًا من الناس قبل ثلاثة آلاف سنة تقريبًا هو بوذا، طرأ تغيُّر على حياته. فتزهَّد ودعا إلى التزهّد، وانضم إليه بعض الأتباع، ثم نما عددهم. ومع الزمن امتد من الهند إلى الصين واليابان وكوريا والتيبت وتايلاند وغيرها، حتى بلغوا مئات الملايين. وظلّ هؤلاء الأتباع يتوارثون تعاليمه ويدينون بها منذ ذلك التاريخ، وعلى امتداد الأجيال وحتى الآن، وهذا هو شأن الناس في كلّ الثقافات. فالإنسان كائنٌ ثقافي تلقائيّ، وأكبر دليل على ذلك هو أن ظهور العلوم الحديثة، وتطوّر الحضارة، لم يؤثّرا على تلقائيّة التوارث الثقافي بكلّ ما يعنيه من تلقائيّة عمياء. لقد تنوّعت وتطوّرت الوسائل حتى بلغت مستوًى مذهلًا، لكن الناس في الغرب والشرق والجنوب والشمال بقوا محكومين بالثقافات التي تَكَوَّنت تلقائيًا...

يحتفظ التاريخ بحوادث مأساوية مروِّعة عن المذابح، التي نجمت عن الاختلافات الثقافيّة. وما زالت المآسي تتكرّر في كلّ مكان بسبب حتميّة التوارث التلقائيّ للثقافات

المختلفة، حيث تتبرمج الأجيال بالعداوات والثارات والأحقاد التاريخيّة. ليس هذا فقط، بل من الظواهر البارزة في المجتمعات التي تتعدّد فيها الطوائف والمذاهب والأديان والقوميّات والإثنيات، أنه ليس أسرع من أن ينقلب المتعايشون بسلام ووئام إلى وحوش يفترس بعضهم بعضًا، مهما كان مستواهم التعليمي، ومهما كانت تخصّصاتهم الأكاديمية، كما حصل بعد تفكّك الاتحاد الفيديرالي اليوغوسلافي، حيث صار زملاء الدراسة ورفاق العمل والأصدقاء من الأديان والقوميات المختلفة يغدر بعضهم ببعض، ويقتل بعضهم بعضًا في مشهد مأساوي مرعب. لقد انقلبوا من مواطنين متعايشين، مسالمين، بل انقلبوا من كونهم أصدقاء دراسة ورفاق عمل إلى براكين تتفجَّر بالحقد والنكران والتوحّش والشراسة والهمجية والغباء والانتقام. فبعد انهيار النظام الفيديرالي في يوغوسلافيا الذي كان يضمّ المسيحيين والمسلمين، كما كان يضمّ قوميات وإثنيّات مختلفة، انفجرت الأحقاد وفَغَر الوحش الكامن في النفوس عن أنيابه الحادّة القاطعة، بصورة تؤكّد أن التعليم مهما كان نوعه ومستواه لا يغيِّر ما بالنفوس، ولا يعيد تكوين الذهنيّات المتبرمجة. ويكفي التذكير بأن الذي قاد عمليّات الإبادة الجماعيّة الوحشيّة طبيب تقتضي مهنته وتعليمه أن يعززا الحياة، لا أن يقودا التوحّش الهمجي لإزهاقها. فالتعليم مجرّد أداة مهنيّة، أما المحرِّك الحقيقي للتفكير والسلوك فهو البنية الذهنيّة والوجدانيّة السابقة للتعليم، لأنها مصدر الولاءات العميقة، ومنبع الاهتمامات التلقائيّة. إن الإنسان يحرّكه الشحن العاطفي وليس المعلومات. فإذا انشحن عاطفيًا فإنه يندفع تلقائيًا، ويستطيع الحصول على ما يريد من معلومات ووسائل، تساعده على فاعليّة اندفاعه، وتُمَكِّنه من تحقيق مآربه مهما بلغت من البشاعة والعدوانيّة...

إن الأفراد مهما كان نوع ومستوى تعليمهم يبقون يتحرّكون بشكل تلقائيّ بالدوافع الثقافيّة، التي تبرمجوا بها تلقائيًا. إنهم أثناء ذوبانهم في الصراعات الثقافيّة الفظيعة لا ينتبهون لوحشيتهم مهما بلغوا من الهمجيّة والتوحّش، بل يعتبرون أنهم يفعلون ما يجب عليهم فعله، ويتفاخرون أمام جماعاتهم كلّما كان سلوكهم أشدّ فظاعة وأوغل في الفتك والتدمير. إنهم لا يفطنون أنّهم مندفعون بدوافع غير عقلانية وغير منطقية، وتتنافى مع مصلحتهم هم أيضًا. فالصراعات الدامية يخسر فيها الكلّ خسائر دائمة،

لكنّهم لا يتدبّرون في ذلك إلا بعد فوات الأوان، لأنهم يتصرّفون وفق معايير مذهبية أو طائفية أو قومية أو إثنية، تكوَّنَت بها عقولهم وعواطفهم، فهي تدفعهم تلقائيًّا من دون أي تعقّل. إنّ الفرد في هذه العراكات الهمجيّة، يكون في كامل وعيه وذكائه ويقظته في استخدام أخسّ الوسائل للفتك بأفراد أو بمجموعات من الطرف الآخر، ربما لا شأن لهم ولا تأثير في كل ما يجري من نزاعات وخصومات. ولكنّ هذا الذي يفتك بآخرين من غير جماعته يندفع من دون أن يفكّر تفكيرًا عقلانيًّا. فالعقل يبقى في عنفوانه في تدبُّر وسائل الفتك وابتكار الحيل، لكنّه لا يفكّر أبدًا في معقولية ما يفعل من عدوانٍ ممعنٍ في الهمجيّة والقسوة واللاإنسانيّة. ولكنّ هذه العوامل الثقافيّة الخفيّة العميقة المدمّرة، التي تحكمت بالحياة البشريّة وأفسدتها من أقدم العصور، ما زالت في أشدّ حالات الاستحكام والهيمنة والحفز والإثارة، وإفساد حياة الكلّ بشكل تلقائيّ...

إننا نحن البشر تخدعنا مظاهر التطوّر الحضاري، فالبشريّة ما زالت ممعنة في البدائيّة من الناحية الفكريّة والأخلاقيّة. لقد طوّرت وسائلها، لكنّها لم تطوّر تفكيرها ولا أخلاقها، بل ما زالت تزداد تمسّكًا بهويّاتها المتناقضة القاتلة. وما زالت المنظّمات الدولية، مثل منظمة اليونيسكو، تحتفي بهذا التمسّك وترعاه، وهذا من أقرب الشواهد على استمرار الحمق البشري، وكلال العقل العامّ عن إدراك مصادر الخلل في الحياة البشريّة. فحتّى المنظّمات الدوليّة تتحرّك بروتين أعمى يعمّق المعضلات الإنسانيّة بدلًا من أن يسهم في اقتلاعها وإزالة أسبابها...

الذي يهمنا هنا هو ذلك الطبيب الذي قاد عمليات القتل الجماعي والاستئصال العرقي. فما زال الناس يتذكّرون محاكمة مجرم الحرب في البوسنة الطبيب رادوفان كاراديتش، الذي كان يرأس الحزب الديمقراطي الصربي، وارتكب هو وأتباعه في البوسنة مجزرة بشريّة بالغة الفظاعة والوحشيّة والدمويّة. وقد حوكم على هذا الجرم الذي يُعَدُّ نموذجًا مفزعًا في جرائم الحرب، ومثالاً مرعبًا من أمثلة الإجرام والبشاعة والقسوة. فمحاكمته جاءت بوصفه رئيسًا لحزب سياسي، وليس بوصفه طبيبًا. فهو بذلك رمزٌ سياسي قومي، إجرامي، وليس رمزًا طبيًّا. وقد دانته المحكمة الدوليّة بارتكاب جرائم حرب وإبادة جماعية وتصفية عرقيّة. فقد أعطى، بوصفه رئيسًا لحزب سياسي قومي متعصب، أوامر بإبادة المسلمين جماعيًّا. فأزهق بهذه المذبحة نحو

ثمانية آلاف مسلم في مذبحة جماعية بالغة الهول والفظاعة، وهذا عملٌ وحشيٌّ شنيع، يتناقض تناقضًا حادًّا مع مضمون وأهداف تخصّصه الدراسي...

إن حوادث وظواهر وأنماطًا سلوكيّة لا تُحصى تؤكّد أن الإنسان كائنٌ شرير. وأنوي إعداد كتاب كامل لإثبات تلقائيّة وأولوية وأصالة الشر في الإنسان. إن نقائص الإنسان وسلبياته هي فيه طبيعةٌ تلقائيّة، أما مزاياه وإيجابيّاته فهي قد تُضاف إليه فلا تأتي تلقائيًّا، وإنما تتطلّب إدراكًا استثنائيًّا، ووعيًا طارئًا، وبحثًا دقيقًا، وتحقّقًا متكرّرًا، وجهدًا موصولاً. إن هذه الطبيعة المتحفّزة للنزاع والاستئثار والانتقام والقهر، قد ضاعفتْها الثقافات المتدابرة، وما أنتجته من الأحقاد والثارات. إن النزاعات والصّراعات والحروب والمنافسات والمشاحنات قد ملأت الحياة البشريّة، وشحنت العقول والعواطف بالكراهية والأحقاد والثارات. وما زالت الإنسانيّة عاجزة عن مراجعة ذاتها، وتصحيح تصوراتها، وتهيئة المجتمعات والأمم على التلاقي والتآخي، واتخاذ السِّلم والعلم والتعايش أسلوبًا عامًا لكلّ البشر...

دوافع عرقيّة وأحقاد ثقافيّة وثارات تاريخيّة هي التي دفعت رادوفان كاراديتش، ومن معه، إلى ارتكاب أعمال الإبادة الجماعيّة الشنيعة، رغم الاندماج والتعايش الذي دام عقودًا أثناء الاتحاد اليوغوسلافي...

إن التعصّب الأعمى هو مصدر البلاء، وهو قد يكون تعصُّبًا عرقيًّا أو إثنيًّا، أو دينيًّا، أو وطنيًّا، أو مذهبيًّا، أو طائفيًّا.. فمهما تنوّعت منابع التعصّب فإنها ذات طبيعة واحدة.. إنها تتجاوز الوحشيّة، فالوحوش تفترس لتأكل، فإذا أطفأت جوعها توقَّفَتْ عن الافتراس. فالأسد يربض قرب القطيع مكتفيًا بفريسة واحدة، أما الإنسان فهو لا يشبع أبدًا من سفك الدماء، ولا يكفُّ عن إزهاق الأرواح، وليست الإبادة الجماعيّة والمقابر الجماعيّة سوى بعض تجليات هذا السُّعار البشري الفظيع...

إنّ الأحقاد البشريّة تدل على أن الإنسان، رغم كل إنجازاته، فإنه ما زال يعيش مرحلة حضاريّة شديدة التخلّف أخلاقيًّا. لقد حقّق الإنسان إنجازات مدهشة في مجال العلوم والتقنيّات والوسائل، لكنّه ما زال في الحضيض أخلاقيًّا، فهو عاجزٌ عن التآخي عجزًا لا حدود له...

إنّ الهيئات الدوليّة، وخصوصًا اليونيسكو، وكذلك الجامعات ومراكز الفكر، يجب أن يكون همها الأول هو الارتقاء بالأخلاق الإنسانيّة، وتخفيف التنافر الثقافي. فالخلل الأخلاقي، وتصادم الهويّات، وعدم الإحساس بخطورة هذا التصادم، أو إنكار وجوده، كما ظهر من ردود الفعل ضد أطروحة هانتنغتون، رغم التفجّر الفظيع الذي تؤكّد هذه الأطروحة. إن هذا الاحتقان المهدِّد دومًا بالانفجار هو المعضلة الإنسانيّة العامّة الكبرى...

تنشأ الأجيال وهي تتوهَّم أن الشر حالة شاذَّة في السلوك الإنساني، وهذه التنشئة تجعل الأفراد يندفعون مع أهوائهم، متوهّمين أنهم أخيارٌ بالفطرة، فتغيب عنهم حقائق الطّبيعة البشريّة. فالآخرون فقط هم الأشرار، أما هم فهم في نظر أنفسهم أخيار، وكلّ مجتمع يبقى غارقًا في هذا الوهم مما يستبعد التروّي والتوقّف والمراجعة.. وما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضًا على المجتمعات، ومتى غاب الإحساس بالمرض فلن يأتي العلاج...

إنّ التقدّم في العلوم والابتكارات والوسائل قد حققته قلّة من الأفراد الاستثنائيين، وهم لا يمثّلون سوى عدد محدود جدًّا من البشر. فخلال التاريخ الإنساني كلّه يمكن بسهولة إحصاء الذين أسهموا في الأفكار الخلّاقة والمبتكرات المذهلة، لكنّ نتائج ذلك صارت ملكًا لكلّ البشر. فقد باتت هذه الإمكانات متاحة لأشد الفئات همجيةً وتَخَلُّفًا، فأكثر البشر ما زالوا مأسورين بثقافات ما قبل العلم، حتّى وإن امتلأت الأقطار بخريجي الجامعات. ويكفي أن نتوقّف أمام حالة رادوفان كاراديتش ورجال حزبه، وكلّهم، أو أكثرهم ممن تلقّوا تعليمًا عصريًّا، وعاشوا منجزات الحضارة، لكنّهم بقوا بعقليّات متوحّشة، وبأخلاق موغلة في العدوانية، ومن هنا جاء الخلل الشنيع: إمكانات هائلة قادرة على السحق والإبادة والتدمير، وأخلاق عدوانيّة منحطّة وثقافات تحريضيّة متحفّزة...

يتناول آندرو هويتكروفت في كتابه (الكفار)، العداوة العميقة المتراكمة بين الصرب المسيحيين والمسلمين البوسنيين في يوغوسلافيا.. تستعرض الدّراسة العميقة التي أعدّها الأديب الحائز جائزة نوبل إيفو آندريك، الذي يؤكّد: «إن التاريخ كان قد خَلَق

فجوة عميقة لا يمكن سدُّها». كما يوضح: «في البوسنة كان هناك عالمان لا يمكن أن يكون بينهما أي اتصال حقيقي، ولا حتّى إمكانيّة الاتفاق.. عالَمان رهيبان قُدِّر لهما أن يشتبكا في حرب أبديّة بألف شكل مختلف». إن هذا الأديب النوبلي ينجلي أمامه التمايز النوعي بين الثقافات. فالثقافات كيانات متغايرة نوعيًّا، ولا يمكن التزاوج بينها. وقد اكتشف بالمعايشة أن الأمم تتوارث ثقافات مختلفة نوعيًّا، وأن هذا الاختلاف النوعي يدوم عن طريق التناسل الثقافي التلقائيّ: «إن الحياة لم تكتفِ بمحاكاة التاريخ إنما كانت هي التاريخ». فكل جيل لاحق هو نتاجُ جيل سابق في تسلسل حتمي وتتابع منتظم ودقة صارمة...

ويعلّق أندرو: «لقد صَنَع الماضي الذي لا بديل له حاضرًا لا يمكن تغييره». إنّ الأجيال اللاحقة تبقى مطابقة للأجيال السابقة، في ولاءاتها وعقائدها واهتماماتها ومنظومة قيمها وعداواتها وثاراتها، وما تعتبره مفاخرها. فمهما أَكْثرت الشعوبُ المتعصّبة من المدارس والجامعات، ومهما تتابعت أفواج الخرّيجين، فإن البنية الذهنيّة والوجدانيّة لا تتغير، بل كلما توفر لها المزيد من المعارف والوسائل والأدوات استخدمته لتحصين بنيتها الذهنيّة والوجدانية، وإقامة المزيد من المتاريس والقلاع والحواجز والخنادق لحماية الهوية وتأكيدها وتعميق تأثيرها في النفوس...

إنّ المجتمعات المشدودة بقوة إلى تاريخها لا تعيش الحاضر انفتاحًا على المستقبل، وإنما تتدبَّر الحاضر بوصفه محاولات مستمرة ومُلحة لتجسيد الماضي، وتضخيم إنجازاته، وخَلْق الأوهام حوله، واستحضار شخوصه، والالتزام بقيمه واهتماماته ونماذجه وأسلوب حياته...

إنّ التعليم في المجتمعات التقليديّة المتعصّبة يكون مشحونًا بتمجيد الماضي، وتعبئة النفوس ضدّ الحاضر؛ فالماضي هو النموذج العظيم الذي على كلّ الدارسين أن يعيشوه، حاضرًا جياشًا بخلاف ما يتمّ تدريسه من علوم عصريّة يتم تجرعُّها اضطرارًا، فتنسلخ بالنسيان لأنها كانت غير منسجمة مع الوجدان...

إنّ كلَّ تقدّمٍ يحقّقه أي مجتمع لا يكون إلا بمقدار تحرّره من الحتميّة الثقافيّة، والتخفف من رواسب وأعباء التاريخ.. نجد ذلك واضحًا في تاريخ المجتمع

البريطاني، والمجتمع الأميركي، والمجتمع الفرنسي، والمجتمع الألماني، والمجتمع الياباني، والمجتمع الصيني، كما نجده واضحًا في حياة المجتمع التركي، والمجتمع الماليزي، وفي حياة كلّ المجتمعات التي تخفّفت نسبيًّا من أسر الماضي، وانطلقت تبني الحاضر، وتخطط للمستقبل...

وفي المقابل نجد أن المجتمعات التي تكرّس حضور الماضي في حياتها، وفي تعليمها، وفي سياستها الثقافيّة، وفي نمط الحكم، بقيت غارقة في أوحال التخلّف السياسي، والتخلّف الاجتماعي، والتخلّف الاقتصادي، والتخلّف الثقافي.. إنها تتحرّك باتجاه مضادٍّ تمامًا لاتجاه النمو والازدهار...

إنّ أثقال الماضي باهظة، فالتحرّر منها يتطلب انفجارًا استثنائيًّا في الوعي يوقظ العقول لتفيق من أوهام التنشئة وأحقاد التاريخ، ولتبدأ حياة جديدة تحفظ طاقتها وتحرّر عقلها وتوجِّه جهدها نحو البناء، بدلاً من اجترار آلام الماضي وبعث أحقاده، والانجرار إلى العنف للثأر والاقتصاص...

إنّ حالة الطبيب كارادیتش وحزبه والمتعاطفين معه، وإنّ ذلك الاندفاع نحو الثأر والانتقام من أحفاد لا ذنب لهم، يؤكّد أن الإنسان مأسور بالتاريخ، وغارقٌ في الأوهام، وعاجز عن تحرير نفسه من برمجة الطفولة التلقائيّة...

لقد دَرَسَ اندرو هويتكروفت في كتابه (الكفار) هذا الارتباط العميق بالماضي؛ فتحدّث عن: «أهوال البلقان التي وقعت في تسعينات القرن العشرين، وهي بكلّ تفاصيلها تبعث على القرف والاشمئزاز، فقد كانت مشبعة بالدم». لكنّه لا ينسى التذكير بأن هذا الارتباط بأحقاد الماضي ليس محصورًا بأمّة من دون أخرى، فما من أمّة في العالم ليس لها ماضٍ أسود...

إن عظمة الإنسان ليست في نفي سوءات أسلافه، أو ممارستها والانغماس فيها بوصفها أمجادًا، بل إن عظمة الأمم في قدرتها على التحرر التدريجي من أسر الماضي وأعباء التاريخ...

إن انفجارات وعدوانية هذا الطبيب وأفراد حزبه، ليست نشازًا في السلوك البشري

العدواني. ففظائع النازية معروفة للجميع، وهي فظائع يشمئز منها الشجر، ويتفتّت بها الحجر، وقد حصلتْ من أعظم الشعوب تقدُّمًا وأشدّها ازدهارًا، لكن يبقى كل ذلك قشرة رقيقة. فالإنسان قد أحرز تقدمًا هائلًا في ابتكار الوسائل، لكن الفرق بين قدراته وأخلاقه ما زال فرقًا هائلًا يصعب تصوّر اجتيازه...

إنّ مذابح رواندا تقف شاهدًا صارخًا على أنّ الإنسان عدواني فظيع، وأنّه شرير محض. فهذه المذابح حصلت بين قبيلتين متقاربتين يتنازعان السلطة، ثم جاءت داعش فكادت أن تُنسي العالم كلّ فظائع التاريخ. فقد كان عنفها بالغ الفظاعة بصورة لا تستطيع الكلمات أن تصفها...

إن هيئة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها يجب أن تضطلع بدور إنساني رفيع يختلف عن كل ما كانت تمارسه من قبل...

إن تعميق التنافر الثقافي والتأكيد المستمر لتمايز الهويّات، والتغاضي أو تشجيع هذا التأكيد، ما هو إلا التبرير الضمني لكلّ الفظائع التي تعاني منها الإنسانيّة...

كفى ما شهدته الأرض يجب التركيز على تعريف الإنسان بطبيعته العدوانيّة، وتعرية ذاته الشريرة، وإدانة تكريس التمايز الثقافي، ومطالبة كلّ الأمم بتربية تسعى نحو التقارب والتعايش والتآخي...

القسم الثامن

خاتمة الكتاب

دعوة لتحرير العقل البشري

من هويّاته المغلقة وثقافاته المتنافرة

متى يتحرّر العقل البشري؟!

إن الوضع الإنساني البائس في كلّ بقاع الأرض يستوجب وقفةً عالميّة لمواجهة المعضلات البشريّة الثقيلة المزمنة. فرغم وفرة الأفكار الإنسانيّة العظيمة التي تمخّضت عنها عقول القلّة المبدعة، إلا أن صراعات القوّة والرغبة الرعناء في الهيمنة، وكذلك النزاعات الاقتصاديّة بين الدول على الموارد، وعلى النفوذ، وعلى الأسواق؛ قد صرفت الأمم المتقدّمة عن مواصلة الارتقاء الفكري والأخلاقي. وقد أدّى ذلك إلى انعدام التوازن بين القدرة والحكمة، وتفاقُم الخلل في الوضع الإنساني. فالتاريخ بكلّ بشاعاته وحروبه وحماقاته وأحقاده، والثقافات بكلّ ما فيها من جهالات مرَكَّبة، وأوهام مسيطرة، وتناقضات حادّة ما زالت تهيمن على العقل البشري هيمنةً كاملة. أمّا العلوم والتقنيّات فقد صارت مجرّد وسائل لتمكين الحمق وتوطيد البشاعة، وتأكيد الجهالات، وتأصيل الأوهام؛ فالأوضاع البشريّة التعيسة تؤكّد الفشل الإنساني المطلق في المجالين الفكري والأخلاقي، حيث تفتقر البشريّة إلى الحكمة افتقارًا فاضحًا. ولكنّ الناس ينبهرون بالتطوّرات الهائلة في الوسائل، فيخدعهم ذلك، ويتوهّمون أنّ الإنسانيّة قد حقّقت تقدّمًا عظيمًا، مع أنها ما زالت في الحضيض من الناحيتين الفكرية والأخلاقيّة، باستثناء مجتمعات قليلة حقّقت تقدّمًا نسبيًّا عظيمًا، قياسًا بالتخلّف المريع الذي يكبّل أكثر المجتمعات البشريّة. فعموم البشريّة ما زالت عاجزة عن حلِّ خلافاتها إلا بالقوة، مثلما هي منذ آلاف السنين. كما أننا ننخدع بكثرة المتعلّمين ونجهل أن التعليم في مجتمعات كثيرة هو أيضًا من جملة الوسائل التي تخدم استمرار الواقع. فهو يكرّس الحماقات التاريخية، ويمجّد الجهالات الثقافيّة. فليس أخطر من تعبئة الناشئين بتمجيد الذات العدوانية، وتسفيه الانفتاح الإنساني. إنه القبح المنظّم والبشاعة الممجَّدة...

إن هدفي من هذا الكتاب والكتب الأخرى التي أتت أو ستأتي ضمن مشروع (تأسيس علم الجهل لتحرير العقل)، هو توجيهُ نداءٍ حارٍّ إلى قادة الفكر والفعل في كلّ العالم للتوقّف الجادّ والمراجعة الفاحصة لأسباب ما تعانيه البشريّة من فظائع وكوارث يُلحقها البشر بالبشر. وهي غالبًا تأتي من التأجيج الثقافي، الذي رغم كلّ ما تحقّق في مجالات العلوم والأفكار ما زال يمزّق الجسم البشري. فالأفكار الرياديّة العظيمة والعلوم الممحّصة ما زالت خارج مجال التأثير الإيجابي في الشؤون البشريّة، فكرًا وأخلاقًا. فالأمم كلّها تقريبًا ما زالت محكومة بثقافاتها التي تكوَّنت تلقائيًّا. فالعلوم الحديثة الممحّصة بقيت خارج مجال التأثير، فلم تؤثّر في هذه الثقافات. كما أن الحكمة الفرديّة الخارقة النادرة، والأفكار الاستثنائية المضيئة بقيت مجرّد رصيد لزمنٍ آتٍ، ربما تقفز به البشريّة من هذا الوحل الفظيع إلى الذروة التي تطَلَّع إليها روّاد الفكر. فتبلغ الرشد وتنتقل من مستوى الوعد والأمل والحلم إلى مستوى التحقّق الباهر...

إنّ حقائق الواقع في كلّ المجتمعات، تؤكّد أنّ تدريس الفلسفة والعلوم في المدارس والجامعات لم يؤثّر في البنيات الذهنيّة والوجدانية المتشكّلة تلقائيًّا بقوالب تاريخية مختلفة. فلكلّ ثقافة رؤية للعالم مغايرة نوعيًّا لرؤى الثقافات الأخرى. إن المعلومات والحقائق والأفكار مهما بلغت من النقاء والصّدق والتحقّق، لا تؤثّر في بنية ذهنيّة ووجدانيّة تبرمجت بأنها مكتملة. أما الانتظام في مراحل التعليم، فهو انتظامٌ اضطراريٌّ لا يحرّك الوجدان، ولا يؤثّر في الأذهان. إن التعلُّم اضطرارًا مضادٌّ لطبيعة الإنسان التلقائيّة، فقابليّات الإنسان وطاقاته محكومة بما تتبرمَج به في الطفولة تلقائيًّا، من قيم وطريقة تفكير وولاء وبَراء؛ ثم هي محكومة باحتياجات الفرد وأشواقه ورغباته بجيشانها الداخلي، وتدفّقها التلقائيّ. لذلك جاءت النتائج الإيجابيّة للتعليم ضئيلة غاية الضآلة قياسًا بمراحله المتعدّدة ووقته الطويل، فهو ضئيل التأثير الإيجابي، ولكنّه في المقابل شديد التأثير السلبي، ومُلهبٌ للتمايزات الثقافيّة. فكلّ أمة تُعبئ أجيالها بتمجيد نفسها وتحقير غيرها، فكأن التعليم أسفر عن نتائج مضادّة لما يجب أن يكون. فما يتّفق مع التبرمُج الأساسي في كل بيئة، فإن التعليم يعمقه ويرسخه ويؤججه، وبهذا يكون ضرر التعليم أحيانًا أضعاف نفعه، بل ربما تكون النتيجة عكسيّة تمامًا إذا كان المجتمع محكومًا بأيديولوجيا حَدِّية إقصائيّة منغلقة...

وتعود ضآلة إيجابيات التعليم إلى طبيعة العقل البشري والكيفية التي تكوَّن بها، فكلّ إنسان يولد بقابليّات فارغة، مفتوحة، مطواعة، فتلتقط حواسّه ما تستطيع التقاطه مما هو موجودٌ في البيئة، وتنقله إلى الدماغ، فيعالجه تلقائيًّا بفرزه وتصنيفه وترميزه وتثبيته، وبذلك يتكوَّن العقل. ومن هذا التكوُّن التلقائيّ ينبلج وعيُ الفرد، ولكنّه يبقى وعيًا مقيَّدًا بالبيئة ومشروطًا بها، فهو نتاجها. فالدماغ لا يملك آليّة للتفريق بين الصواب والخطأ، ولا بين الحقيقة والوهم، بل ما يصل إليه أوَّلًا يكون هو المعيار لما يأتي بعده، سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات، أو المجتمعات أو الأمم، وبسبب ذلك دامت التمايزات الثقافيّة الحادة القاطعة، وبقيتْ بنياتها مغلقة عن تأثير الأفكار الريادية والعلوم الممحّصة. وظلت الاختلافات الثقافيّة بين الأمم حادّة وفاصلة، مثلما كانت قبل ظهور مناهج التمحيص والتحقّق. وكذلك الأفراد لا تتأثّر بنياتهم الذهنيّة والوجدانيّة بمجرد اجتياز مراحل التعليم. فالمعلومات التي يتلقّاها الدارسون تكون محكومة بالبنيات الذهنيّة والوجدانيّة، التي تشكّلت تلقائيًّا. أما النجاحات الأكاديمية والمهارات العمليّة والمهنية فليست ذات دلالة فكريّة. فالجرّاح الماهر يبقى غالبًا خرافيًّا خارج نطاق تخصّصه، فهو محكوم بما تبرمج به تلقائيًّا وليس بمعلومات تخصّصيّة اضطر إليها لتأمين المعيشة والخضوع لمقتضيات الظروف...

وبسبب هذه الكيفيّة التي يتكوَّن بها العقل الجمعي وعقول الأفراد، تتنوّع العقول والولاءات والقيم والاهتمامات بتنوّع البيئات، بل تتعدّد بتعدّد الأفراد. فكلّ الأفراد في كلّ المجتمعات تتبرمج قابليّاتهم تلقائيًّا بالأسبق إليها من الثقافات، مهما كان محتوى هذا التبرمُج، ثم يبقون مغتبطين بما تبرمجوا به، ويكون هو معيارهم لتقييم الأفكار والتصوّرات والأخلاق، من دون أي تساؤل أو شكّ عما تشربوه تلقائيًّا، مهما بلغ ذكاؤهم، ومهما بلغت براعاتهم في الحياة اليوميّة، ومهما كانت مهاراتهم في الأمور العمليّة ونجاحاتهم المهنية. أما في ما يتعلّق بطريقة التفكير والموقف من الحقيقة والانغلاق، أو الانفتاح ومنظومة القيم، والقبول أو الرفض، والاستحسان أو الاستهجان، والاتجاهات والولاءات، ورؤية العالم. فإنّ الناس في كلّ أنحاء الأرض يتحكّم بهم التبرمُج التلقائيّ المتوارث من مئات السنين، ولا ينجو من هذه الحتميّة الثقافيّة سوى قلة من الأفراد، تنحَلُّ عنهم البرمجة التلقائيّة فيصيرون في تفكيرهم

وتطلّعاتهم خارج التيّارات السائدة. وبهذا الانفصال عن القطيع يصبحون روّادًا للتقدّم الحضاري. فالتقدّم في كلّ المجالات هو نتاجُ أفكارٍ فرديّة خارقة من الروّاد الخارقين، الذين ساروا في فترات التاريخ المختلفة عكس التيارات السائدة في مختلف الأمم...

إنّ الروّاد الذين كانت أفكارهم الخارقة الملهمة خلف كلّ التطوّرات الحضارية، هم عدَدٌ محدودٌ جدًّا. إنّهم منذ بدء التاريخ يمكن إحصاؤهم بأسمائهم، بخلاف مليارات الناس التنفيذيّين الذين مرُّوا على هذه الأرض من غير أن يتركوا أثرًا خالدًا يميزهم عن غيرهم. فالمحاسب يحلّ محلّه محاسب آخر، والقاضي يحلّ محلّه قاضٍ آخر، والطبيب يحلّ محلّه طبيب آخر، والمهندس يحلّ مكانه مهندس آخر، وهكذا كلّ التخصّصات المهنيّة. أما الرائد الخارق فنادر الظهور، ولا يحلّ غيره مكانه. إنّ استخدام المتخصّصين لقواعد ومناهج ومفاهيم ونماذج ومعارف وأساليب اكتشفها، أو ابتكرها، أو حدَّد مسارها الروّاد ليس من الإبداع، بل هو عملٌ تنفيذيٌّ محض، وهذا هو عملُ كلِّ متخصِّص في المحاسبة، أو القانون، أو الكيمياء، أو الطب، أو الصيدلة، أو الهندسة، أو اللغة، أو غيرها، فكلّهم يسيرون مع مسارات ممهَّدة ومطروقة ومحدَّدة الاتجاه. إنّهم ضمن الاتّجاهات السائدة، أما الاختراق الريادي، فنوعٌ مغاير. إن الروّاد جميعًا يتحرّكون عكس التيارات السائدة، وهم منذ بداية التاريخ البشري أقلّ من عدد سكان قرية صغيرة، بل أقل من ركاب طائرة، أو قطار. ولكننا نتحدّث عن الحضارة الإنسانيّة، وكأن كلّ الناس كانوا على مستوى الأفكار الرياديّة الخارقة، التي أدّت إلى هذه التطوّرات المذهلة. فليس أبعد عن الحقيقة وأشدّ تضليلًا من العبارات المطلقة التي تتحدّث عن الإنسان عمومًا بأنه طليعة، وبأنه شديد اللهفة إلى المعرفة، وأنه دائم التساؤل، بينما العكس هو الصحيح. فهذه الصّفات هي صفات الروّاد وحدهم، وهم يتحرّكون عكس التيارات السائدة، وفي غالب الأحيان تنبذهم المجتمعات، ويعيشون في عزلة، ثم تنتبه لأهميتهم أجيالٌ لاحقة...

إنّ الكيفيّات المختلفة التي تكوَّنت بها تلقائيًّا عقول الأفراد، تجعلهم مختلفين في اهتماماتهم، وفي رُؤاهم وقدراتهم، وفي آرائهم المسبقة، حتّى وإن نشأوا ضمن ثقافة واحدة، وتماثلت تخصّصاتهم التعليميّة. فالشهادة مجرّد مؤشّر أو عامل واحد بين عوامل أخرى هي أشدّ تأثيرًا، وأقوى فاعليّة. إن وهْمَ التماثل بين الناس وتجاهُل

الفروق الفردية، وغياب إدراك الاختلاف النّوعي بين تفكير الروّاد وعموم الناس، بل وعموم المتعلّمين، وعدم إدراك الهيمنة القطعيّة للتبرمُج التلقائيّ في الطفولة، قد أسهم في استمرار غبطة المبرمَجين بما تبرمجوا به، ورسَّخ الجهل المركَّب المتوارث. إنّ الجنس البشري بأكمله بحاجة إلى صدمة مزلزلة توقظه وتنقذه من هذا الوهم العميق الشامل، الذي أبقى العلوم غير مؤثِّرة في العقليّات الجماعيّة ولا في العقول الفرديّة. إن ارتقاء الإنسانيّة إلى المستوى الرفيع الذي تتيحه القابليّات الإنسانيّة العظيمة يتوقّف على هذه اليقظة الإنسانيّة العالمية الأكثر إلحاحًا والأعظم قيمة. إنّ أكثر الأفراد في كلّ المجتمعات يولدون بقابليّات واعدة جدًّا، لكنّ تلقائيّة التبرمُج في الطفولة تختطفها. وبسبب ذلك بقيَتْ البشريّة غافيةً يتحكّم بها التاريخ، وتستحوذ عليها البرمجات الثقافيّة التلقائيّة، في حتميّات ثقافية شاملة حاسمة، فانحصرت التطوّرات المذهلة في الوسائل والقدرات العمليّة، فصارت البشريّة تملك وسائل مدهشة وخارقة، ولكنّها تدار بعقليات متحجّرة أخلاقيًّا، وعاجزة فكريًّا، ومرتكبة إراديًّا، وذات اتجاهات متضادّة وعواطف عمياء متناقضة...

إنّ طبيعة الإنسان التلقائيّة هي قَدَرُه الذي لا فكاك له منه، فهي كانت، وما زالت، تُحكِم قبضتها على كلّ الأمم. فالاستمرار الثقافي هو المهيمن، أمّا التعليم فلا يتجاوز المجالات العمليّة والمهنيّة، ومن دون أي نمو في التعقل، أو الحكمة، فكلّ الأمم خاضعة لحتميّة ثقافية عميقة وحادّة وصارمة وشاملة ومستحكمة. إننا ننخدع بعظمة العلوم وبالتقنيّات المذهلة، وبالقدرات العمليّة المدهشة ولكننا نجهل أن الحتميّة الثقافيّة قد حيَّدت العلوم وجعلتها عاجزة عن التأثير في عقليات الأمم والشعوب وكأن إنسان العقل الحجري فجأة صار يملك قدرات هائلة في الوسائل وقدرات الفعل فبات يملك إمكانات مرعبة للفتك والتهديد والإيذاء ولكن بمستوى هزيل من الحكمة. إن البراعات التخصصية لا تدل على الانعتاق من برمجة الطفولة فقد تجد فردًا مذهلا في الرياضيات، أو في أية براعة، لكنه خارج هذه البراعة ينجلي عن تفكير خرافي يشبه تفكير العجائز...

ويشتد الإعضال البشري في أن أشد المجتمعات احتياجًا إلى أن تتحرر من أغلال وأثقال ثقافاتها الموروثة هي الأشد تكريسًا لتراثها، حتى بات هذا التكريس هو المهمة

الأساسية للتعليم بدلا من أن يكون العكس. فالثورة الإنسانيّة الشاملة المرتقبة يجب أن تتوجه إلى الحصون الثقافيّة لفتحها وإشراع أبوابها والتهيئة للتحرر من قوالبها الكاتمة، ويجب أن تكون هذه قضية عالمية فقد تقاربت وتشابكت الأمم حتى باتت مشكلات أي وطن هي مشكلات عالمية...

إن التعليم المحكوم بالثقافات المتوارثة لا يمكن أن يكون وسيلة للتحرر من ركام التاريخ وأغلال الثقافات وأحقاد الماضي وأوهام الامتياز، ولا سبيلا إلى الانعتاق من قبضة التخلف، بل إنه يكرس الثقافات ويعمل على تأجيجها. ففي بعض المجتمعات كان اهتمام التعليم بترسيخ وإشعال الخصوصيات الثقافيّة هو الاهتمام الأساسي، وفي غمرة الاهتمام بالتراث غاب أن الهدف من تعميم التعليم هو تغذية مواقع العمل بالمهنيين الماهرين المخلصين من أجل التنمية وليس التركيز على ترسيخ ما هو راسخ بطبيعة تكوينه. فالأصل في مئات الملايين من المتعلمين في كل العالم أنهم تلقوا تعليمًا مهنيًّا كأطباء وكيميائيين ومهندسين وفيزيائيين ولغويين ومحامين ومحاسبين وإداريين وغير ذلك من المجالات المهنية التي لا ترتبط غالبًا بالوجدان وإنما هي مجالات مهنية محضة، لذلك تبقى خارج البنية الذهنية والوجدانية الأساسية للفرد. فأكثر المتعلمين مهنيًّا ينحصر ارتباطهم بالتخصص في الحاجة إلى عائده المادي من غير شغف وجداني، فإذا تقاعد أو استغنى عنه فإنه غالبًا ينصرف عنه انصرافًا كليًا لأنه ليس مرتبطًا به ارتباطًا وجدانيًّا، فالتخصص لا يتجاوز غالبًا وظيفته المهنية. والمتعلمون مهما تنوعت تخصصاتهم يبقون مندمجين في الثقافة السائدة كلٌّ منهم بحسب الثقافة التي نشأ عليها وتَبَرْمَجَ بها، فإذا تخلَّوا عن تخصصاتهم واستغرقوا في مجالات مختلفة مرتبطة بتكوينهم الأساسي فإنهم لا يتخلون عن تخصصاتهم المهنية كمبدعين أو كرواد فيخرجون من النسق الثقافي المغلق، وإنما تحركهم تلقائيًّا برمجة الطفولة والتعزيزات البيئية التالية التي هي في الغالب منبع الولاءات والاهتمامات التلقائيّة لعموم الناس. إنهم في هذه العودة لا يختلفون عن الأميين من أممهم، فالجميع محكومون بالتكوين التلقائيّ الذي تشبّعوا به تلقائيًّا...

حتى لو كان الشخص يملك قدراتٍ إبداعيّةً، فإنه يوجّه إبداعه لخدمة القيم التي نشأ عليها وتبرمج بها. فإذا كان أطباء استثنائيون قد تخلَّوا عن مهنة الطبّ، واتّجهوا للإبداع

من أجل التنوير، واستنهاض المجتمعات العربيّة للخروج من أغلال التخلّف والدخول في حضارة العصر، كما هي حال يوسف إدريس وعلاء الأسواني ومحمد كامل حسين ومصطفى محمود وعبدالرحمن الشهبندر وغيرهم، فإن أطباء آخرين كثيرين لم يكن يشغلهم هذا الهمُّ، حتى لو كانوا مبدعين في الأدب، وإنما بقوا على الضدّ من التنوير، يخافون على المجتمعات العربيّة والإسلامية من الذوبان في تيار الحضارة، والتخلّي عن خصوصيتهم. فوقفوا مع التيار السائد ضد التنوير، وكرّسوا إبداعاتهم في هذا الاتجاه. ويأتي في مقدّمة هؤلاء الطبيب الروائي المبدع نجيب الكيلاني، فهو من أغزر الروائيين إنتاجًا، وهو يملك مقدرة رائعة، لكنه أسهم في تعميق الانغلاق والخوف من المغاير...

إنّ التخلّي عن مجال التخصّص والقفز إلى مجالٍ رياديٍّ خارقٍ ليس من الحالات العامّة الشائعة، وإنما هي حالات فرديّة استثنائية نادرة ندرة شديدة. أمّا التخلّي عن مجال التخصّص والاستغراق في ولاءات واهتمامات الثقافة السائدة، أو الإمعان في أحد اهتماماتها، فهو شائعٌ جدًّا لأنه تلقائيّ، فهو لا يتطلّب قدرات خاصّة، وإنما هو اندفاع تلقائيّ مع دوافع البرمجة التلقائيّة التي تشرَّبتْها ذاته من البيئة تلقائيًا، كما هي حالة الطبيب أيمن الظواهري، الذي كان أبرز مؤسّسي جماعة الجهاد، ثم صار زعيمًا للجماعة بعد استقالة زعيمها الأول المهندس محمد عبدالسلام فرج، ثم صار الظواهري زعيمًا للقاعدة بعد قَتْل بن لادن. إنّه باتجاهه هذا ليس رائدًا ولا مبدعًا، وإنّما جاء عمله استجابةً تلقائيّة لتكوينه الأساسي في الطفولة وما تلاها، لكنّه أوغل فيه إيغالًا مفْرطًا.. ومن المهمّ التذكير بأن أخاه المهندس محمد الظواهري أشدّ منه إيغالًا، فهو تكفيريٌّ عنيفٌ، فقد دَرَسَ الهندسة، لكنْ أخذتْه عن الهندسة ولاءاته الأساسيّة العميقة، واهتماماته التلقائيّة القويّة التي تَشَرَبَتْها نفسه مع حليب أمه. إن نشأة الطبيب أيمن والمهندس محمد في أسرة متديّنة، جعلتهما متهيّئين تلقائيًا لمثل هذا الانجراف التلقائيّ الممعن في التشدّد، فالإنسان تحرّكه ولاءاته العميقة الأساسيّة، واهتماماته التلقائيّة القويّة...

وقد يتخلّى الطبيب عن مهنة الطبّ ليقود منظمة تدميرية إرهابية، كما هي حالة الطبيب عبداللطيف موسى منشئ وأمير جماعة (جند أنصار الإسلام)، التي دخلت

في معارك ضارية مع حركة «حماس»، وقُتل هو في هذه المعارك مع عددٌ كبير من أنصاره. فليس غريبًا في بيئتنا أن يتّجه هذا الطبيب ليكون داعيةً سلفيًا، وإمامًا لمسجد، وخطيبًا لجامع، وألا تكون مؤلّفاته في مجال دراسته في الطب، وإنما يؤلّف كتابًا بعنوان (الياقوت والمرجان في عقيدة أهل الإيمان)، وكتابًا آخر بعنوان (الطريق السويّ في اقتفاء أثر النبيّ). وحتّى عناوين كتبه مسجوعة على الطريقة السلفيّة، ومحتواها موغلٌ في التشدُّد. وكانت خطبه وعظاته وتحريضاته توزَّع عبر أشرطة كاسيت.. هكذا طبيبٌ يؤسّس جماعة سلفيّة جهاديّة. ويبلغ به التشدّد إلى درجةٍ أن يحارب منظّمةً إسلاميّة جهاديّة أخرى، وهي حركة «حماس»، ويصر على مواصلة القتال حتى تم قَتْله وقَتْل الكثيرين من مريديه وأنصاره...؟!!!

في البيئة العربيّة والإسلامية لن يكون غريبًا أن يتحوّل الطبيب الهندي ذاكر نائق إلى داعية إسلامي واسع التأثير، فيصير زعيمًا دينيًا ينقاد له الملايين، فينشئ شبكة تلفزيونية دينيّة تبث بعدد من اللغات، ليس للتوعية الصحية وإنما للشحن الديني، كما ينشئ مؤسسة ضخمة للبحوث الدينيّة وليس للبحوث الطبيّة، ويصير معروفًا على مستوى العالم ليس بوصفه طبيبا بل بوصفه زعيمًا دينيًا، ويصبح له الكثير من المريدين والأتباع، إلى درجة أن متابعيه على فيسبوك بلغوا مائةً وأربعين مليونًا، وأنّ مشاهدي شبكته التلفزيونية يعدّون بمئات الملايين. هكذا هو الإنسان تحرّكه اهتماماته التلقائيّة العميقة مهما كانت مغايرة لتخصّصه التعليمي، أو مجاله المهني...

ومثل ذلك يقال عن الطبيب الباكستاني أنوار الحق، الذي لا يُعرَف بأنّه طبيب، وإنما يُعرف على مستوى وطنه، وعلى مستوى العالم، بأنه زعيمٌ دينيٌّ يتأثّر به الملايين، ليس في مجال الطب الذي تخلّى عنه، وإنما في زعامة دينية واسعة يمتد تأثيرها خارج وطنه. وفي السّياق نفسه لن يكون غريبًا أن ينصرف أستاذ الطب في جامعة دمشق الدكتور فايز المط عن مجال تخصّصه، فيستغرق في تأليف كتب إسلاميّة، أو ينهمك في قراءة كتب الحديث، ليستخرج منها آلاف الأحاديث بعد تجريدها من الأسانيد، كما فَعَل هذا الطبيب في كتبه الدينيّة؛ ومنها (من كنوز السُّنَّة)، و(قبس من نور محمد صلى الله عليه وسلم). هكذا هو الإنسان لا تحرّكه دراسةٌ اتجه إليها مضطرًّا من أجل لقمة العيش، وإنما تحرّكه ولاءاته العميقة الأساسيّة واهتماماته التلقائيّة القويّة، التي تشبّع

بها منذ طفولته وأمثاله كثيرون؛ مثل الطبيب محمد علي البار والطبيب حسن هويدي والطبيب نبيل الطويل والطبيب محمد أبو اليسر عابدين والطبيب الداعية قنديل شاكر شبير وغيرهم...

وفي السياق نفسه، لن نستغرب في البيئة العربيّة حين نجد الطبيب محمد بن محمد البدري، لا يكتب في مجال مهنة الطب التي تخصَّص بها دراسيًّا، وإنما يواصل كتابة المقالات الدينيّة في مجلة (البيان)، ويؤلّف مجموعة من الكتب الدينيّة؛ منها (الأمّة الإسلاميّة من التبعيّة إلى الريادة)، و(لماذا نرفض العلمانية؟)، و(نحو وحدة العمل الإسلامي)، و(إلى أختي المسلمة)، وغيرها من كتبه الكثيرة. فهو مؤلِّف مُكْثِر، وكلّها كتبٌ إسلامية لا علاقة لها بالطب الذي تخصَّص فيه، وإنّما هي نتاجُ التنشئة وثمرة التبرمُج التلقائيّ في الطفولة وما بعدها، من قناعات لا علاقة لها بالتخصّص...

إنّ تعقيدات الطبيعة البشريّة، واختلاف القابليّات الفرديّة، وتنوُّع التنبيهات والمؤثرات التي تتبرمج بها هذه القابليّات، تترك فضاءً واسعًا للاختلافات. فكلّ فرد لديه تصوّرات عن العالم، وهو يعتبرها تصوّرات صحيحة كليًّا، ولا يخطر على باله أن يُخضعها للتحليل والمراجعة والتصحيح. وكلّما كان إيمانه بقضيته أعمق صارت حماسته لها أشدّ، وباتت أوهامه أكبر وأوثق. إنّ منافذ الرؤية تضيق بمقدار ثقة الفرد بأنه ملتزمٌ بالحق وأنه يفعل الصواب. فهو يكون مقتنعًا تمام الاقتناع بإخلاصه، فيعتقد بأن الإخلاصَ برهانُ الصواب، حتّى لو كان جاهلًا كل الجهل بجوانب القضيّة التي يتوهّم أنه يعرفها تمام المعرفة، إلى درجة أنه قد يُضَحِّي بحياته من أجلها. فمن أعمق خصائص الطبيعة البشريّة أنّ الإنسان لا يعلم أنه لا يعلم، أي إنه لا يعرف جهله. فالمعيار عنده هو ذاته، وهو لا يدري بأنّه يحكم على الأمور بمعيار ذاتي مغلق، وإنّما يتوهّم اكتمال دائرة التحقّق، وفي الغالب تكون الأوهام التي تبرمَج بها هي المعايير التي يحكم بها على كل شيء...

إن افتقار الدماغ البشري إلى آلية للتمييز بين الخطأ والصواب، والحقيقة والوهم، والحق والهوى يجعل الانغلاق بلا حدود، ولا يمكن وضعه تحت أي مفهوم للتعقّل الصحيح، وكنموذج على هذا العمى العقائدي المطبق إقْدام الخارجي عبدالرحمن

بن ملجم على قتل الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب متوهِّمًا أنه بهذا الفعل الشنيع يتقرّب إلى الله. إن هذه الحادثة تمثل نموذجًا صارخًا على عمى البصيرة، وعلى التضاد التامّ بين الإخلاص والصواب. ولكن الخلط بينهما قد جلب على الإنسانيّة كوارث لا نهاية لها، فكل فرد يَضَع للعالم حدودًا بحدود رؤيته هو، فتتعدَّد العوالم بتعدّد الأفراد، لكن الشرَّ الفظيع يحدث حين يتصدّى جاهلٌ أرعن لمهمة إصلاح العالم، ويجهل أنّه هو المعضلة وليس هو الحلّ، كما هي حالة بعض قادة الإرهاب وأتباعهم ببصائرهم المطموسة ووعيهم المزيف...!!!

إنّ القابليّات المفتوحة التي يولد بها كلّ إنسان، تتيح ما لا حصر له من النماذج المتنوّعة. فكلّ فرد يختلف عن كل الآخرين. وهنا أجد أنه يمكن تَجْلية التباسات كثيرة بإجراء مقارنة بين ثلاثة أطباء مسلمين تخلّوا عن مهنة الطب واستغرقوا في اهتماماتهم التلقائيّة:

الطبيب أيمن الظواهري.. والطبيب عبدالرحمن السميط.. والطبيب عدنان ابراهيم؛ يتحرّك كلٌّ منهم بدوافع إيمانيّة قويّة صادقة. فقد تَمَّتْ تنشئتهم تنشئةً إسلاميّة عميقة، أي إنهم نَهَلوا من نبع واحد، وأخلصوا باندفاع شديد لهذا النبع. إنّ الثقافة التي تشبَّعوا بها تركِّز على حياة ما بعد الموت، وليس على هذه الحياة العابرة، وكلّ التركيز الذي يبدو فيها أنه اهتمام بهذه الحياة العابرة ليس اهتمامًا بها، وإنما هو اهتمام بنتائجها على حياة ما بعد الموت...

إن هؤلاء الأطباء نشأوا في بيئة إسلاميّة، فتشبَّعوا بالتديّن، ومعروفٌ أنّ الإسلام دائم الحضور في حياتنا نحن المسلمين وشديد التأثير. فنحن نصلّي خمس مرات في اليوم والليلة كحدٍّ أدنى، ونصوم شهرًا كاملًا كل عام كحدٍّ أدنى. وتتكرّر المواسم الدينيّة بكثافة لا تعرفها الأديان الأخرى، فالإسلام يتخلّل حياتنا كل لحظة، إنه لا يغيب أبدًا. فهؤلاء الأطباء هجروا الطب وتحرّكوا في اتجاهات مختلفة. فالطبيب أيمن الظواهري تشبَّع تلقائيًّا بإيمان عميق بالإسلام، وقد دفعه إيمانه العميق المطلق، المصحوب بعقليّة عمياء مغلقة إلى التخلّي عن مهنة الطبّ، والانخراط في ما يعتبره جهادًا في سبيل الله. فاندفع إلى ساحات الموت متوهِّمًا أنه يعمل لإعلاء كلمة الله، وإعادة الخلافة

الإسلامية، فَهَجَر مهنته وهَجَرَ وطنه وعاش سنين طويلة مختفيًا في جبال أفغانستان يقود تنظيم القاعدة الجهادي، ويُصدر الأوامر إلى أتباعه في كلّ مكان لمواصلة القتل الجماعي والتدمير الشامل...

أما الطبيب عبدالرحمن السميط، فهو أيضًا قد تشبَّع تلقائيًّا منذ طفولته بإيمان عميق بالإسلام. وقد دفَعَه إيمانه العميق إلى أن يهجُر مهنته، ويترك وطنه، ويقذف بنفسه في مجاهل أفريقيا يعيش بين الفقراء، ويعاني مثلهم. ولم يكن ذلك الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق نزوةً عابرةً، وإنّما أمضى ثلاثين عامًا بين الفقراء في أفريقيا، يخدم الناس ويعيش بينهم، ويدعو إلى الله لنفس الهدف، وهو الرّغبة الصادقة الملحّة في مرضاة الله. إنه يعمل ويتحرّك بالتعاليم نفسها التي يتحرّك بها أيمن الظواهري، ولكن برؤية مختلفة كلّيًّا عن رؤية الظواهري. ولم يوقف السميط عن مواصلة عمله التطوّعي سوى المرض، فعاد إلى وطنه للعلاج لأنه لم يَعُدْ قادرًا على مواصلة كفاحه السِّلْمي. ثم انتقل إلى رحمة الله، فاحتفلت به الكويت احتفالًا يليق بعظمة نفسه ونقاء مسعاه وصادق كفاحه...

أما الطبيب عدنان إبراهيم، فهو مفكِّر جَمَع بين الثقافة الإسلامية الواسعة العميقة والثقافة العالمية بتنوّعاتها الفلسفيّة والعلميّة.. يجيد الحوار في مختلف قضايا الإسلام والعصر، ويملك أدوات الإقناع. فقد ظَهَر في حوارات عميقة في الكثير من القنوات الفضائية، وهو إمامٌ وخطيبُ جامع في النمسا. إنّه متحدّثٌ متمكِّنٌ وتلقائيٌّ.. فصيح وبليغ، وجريء في الجهر بما يعتقد بأنه الحقّ مهما كان صداه على المخالفين. وهو ضدَّ التعصّب بكلّ صيغه وأشكاله واتجاهاته، ومن أقوى دعاة التعايش بين المختلفين، سواء بين الطوائف داخل الإسلام، أو بين الأديان عمومًا. إنّه متعمّق في دراسة الإسلام وتاريخه، وفي فهم مشكلات المسلمين في ما بينهم أو مع غيرهم. كما أنّه مثقّفٌ ثقافة عصرية واسعة وعميقة مكّنته من فهم متطلّبات العصر، وإدراك الاتجاهات العالميّة، وهو متنوّع النشاط بشكل واسع في الحوارات واللقاءات والكتابة، وفي شبكات التواصل الاجتماعي، وفي الندوات، وفي النشاط المؤسّسي، فهو رئيس جمعية لقاء الحضارات...

فالثلاثة (الظواهري والسميط وعدنان) أطباء مسلمون تشبَّعوا بإيمان عميق في طفولتهم وما بعدها، يحرّكهم لخدمة الإسلام اهتمامٌ تلقائيّ قويٌّ مستغرق، يُعطي الأولويّة المطلقة للحياة الآخرة. لقد شربوا من النبع نفسه، وهي تعاليم الإسلام، وكلّهم يسعون لمرضاة الله والاستعداد للقائه، أي إنّهم اتفقوا في المنطلَق وفي الغاية، ولكنّهم اختلفوا اختلافًا نوعيًا في الوسائل. فالظواهري رأى أن أقرب طريق لإرضاء الله هو تجييش الأتباع في كل مكان لبثِّ الرعب وإرباك العالم، إلى أن تتحقّق إقامة دولة الخلافة الإسلامية، التي يَتَوَهَّم أنه قادرٌ على إقامتها!! بينما أن السميط رأى أن أعظم وسيلة لإرضاء الله هي بث الأمن في الأرض والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فراح ينشئ المشاريع الخيريّة، ويعيش وسط الفقراء في أشد البيئات فقرًا وعُسْرًا، فيعطي نموذجًا رائعًا في الإيثار والبر والتآخي والإحسان والسِّلم. أما عدنان إبراهيم فيرى أن الإسلام دين الحقِّ، وأنّه يستطيع المواجهة على المستوى الإنساني، والوصول إلى العقول والقلوب بواسطة المنطق والفكر والعلم، والدعوة إلى السِّلم، والتآخي بين كل البشر من أجل حياة إنسانيّة آمنة مستقرّة...

والطبيب أيمن الظواهري تلقّى تعليمًا حديثًا عصريًّا، وتخرَّج طبيبًا، لكن تعليمه كغيره لم يؤثّر على بنيته الذهنيّة والوجدانيّة التي تكوَّنت في الطفولة، وتوطّدت في أسرة متديّنة، ظَهَرَ منها أيضًا شقيقه المهندس المعماري محمد الظواهري الذي يعلن أن الديمقراطية كُفْرٌ. فهذا المهندس، مثل شقيقه الطبيب، يتبنّى نموذجَيْ القاعدة وطالبان في السياسة، وفي تكفير المخالفين له، وفي نمط الحكم، وفي شكل المجتمع، وفي طريقة التفكير، وفي الاهتمامات المحوريّة، وفي قيم الحياة، وحتّى في نمط اللباس. إن هذا الانحياز المطلق لهذا النموذج يجد قبولًا واسعًا عند كثيرين من حَمَلة الشهادات العليا في علوم عصرية، وأساتذة جامعات. فحالة الطبيب أيمن الظواهري والمهندس محمد الظواهري ليست استثناءً، بل هي جزءٌ من ظاهرة ثقافيّة عربيّة عامّة عارمة. فهي نتاجٌ طبيعيٌّ وليست نشازًا، إنّها لا تمثّل حالات فرديّة، وإنّما هي ظاهرة ثقافيّة عربيّة شديدة الاتساع والعمق والتجذُّر. وهي تؤكد أن قابليّات كل مولود يحتلّها تلقائيًّا الأسبق، وأن هذا الأسبق يصوغ البنية الذهنيّة والوجدانيّة، ويبقى مهيمنًا على الذات، ويتحكّم بها فكرًا وسلوكًا. فالتنشئة التلقائيّة في الطفولة هي الفاعل الحاسم، وهذا

يؤكّد أن التعليم يأتي لبُنيات ذهنيّة وعاطفيّة مُتَشَكِّلة تلقائيًّا ومغلقة بإحكام. أما التعليم فتبقى نتائجه نتائج سطحيّة غير وجدانيّة لا تتجاوز الهدف المهني الذي تدفع إليه الحاجة والاضطرار، بعكس الاهتمام التلقائيّ الذي يتدفّق فائرًا من الداخل أو ينساب من أعماق النفس وتستجيب له وتتفاعل معه كلّ خليّة في الإنسان...

ومن الواضح تمامًا أن الاهتمام التلقائيّ القويّ المستغرق الذي يستحوذ على عقل ووجدان الطبيب أيمن الظواهري ليس له أي علاقة في مجال تخصّصه الدراسي في الطب، وإنّما هو تدفُّق تلقائيٌّ من منبع مختلف كلّيًّا، بل إنه يتعارض كل التعارض مع مهنة الطب التي يراد بها تضميد جراح الإنسان وشفاء أوجاعه، بغض النظر عن جنسه، أو انتمائه؛ وهذا الهدف مضادٌّ تمامًا لما يحصل من هذا التنظيم الإرهابي المدمِّر الذي شوَّه الإسلام، وأشاع الرعب، وهدَّد المجتمعات العربيّة والإسلامية بالحروب الأهلية والتفكّك، وملأها بالاضطرابات المهولة التي أفسدت الحياة، وأرعبت الناس. إنّه تنظيمٌ يستسهل إزهاق أرواح الناس الأبرياء من أجل غاية مستحيلة، ويملأ الأرض باللاجئين والمشرّدين جماعيًّا، ويستهين بحياة وحقوق ووجود كلِّ المخالفين، ويستخف بقناعاتهم، ويستميت في فرض رؤيته المتحجّرة عليهم...

بسبب الظواهري وأمثاله من الذين أساؤوا فهم تعاليم الإسلام، فأشعلوا الفتن، وأجّجوا العنف، واستسهلوا القتل الجماعي العشوائي، واستساغوا التدمير؛ فإن العالم الإسلامي الآن في أسوأ أوضاعه وأشدّها نُكرًا. فوسائل الإعلام في كلّ العالم مملوءة بأخبارنا الفظيعة، وكلّها عن الرعب المتبادل والقتل الجماعي، في أفغانستان وباكستان والصومال والعراق وليبيا وسوريا والسودان ومالي ونيجيريا، وفي كلِّ العالم. فيكفي أن نرى ذلك لندرك أيَّ منحدر سحيق انحدرنا إليه بسبب سوء الفهم لتعاليم الإسلام، وانغلاق كل ذي فهم على فهمه، ومحاربة من يخالفونهم، حتّى من داخل الإسلام ذاته.. إنّ الناس لن يخرجهم من هذا المأزق الخانق البشع إلا بأن يتعرَّفوا على طبيعتهم الواهمة، وأن يتحرّروا من هذه الطبيعة التلقائيّة الغارقة بغبطة الجهل المركَّب، ومحجوبة بهوس اليقين الأعمى، على النحو الذي يصفه المفكّر الأميركي إيريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق). فليس أخطر من الذين يتشبّعون بأفكار خاطئة، ويريدون فرضها على العالم بالعنف والقهر، لأنّهم مؤمنون بها إيمانًا عميقًا مطلقًا يجعلهم

مستعدين للتضحية بحياتهم، وبكلّ الناس من أجلها. وكما يقول هوفر: «عندما تمتلك حقيقةً مطلقةً يمكنك أن تجعل الأبديّة نفسها شيئا أليفًا ومفهومًا. لا تواجِه من يعتنق الحقيقة المطلقة أيُّ مفاجآت، أو أشياء مجهولة: كلّ الأسئلة أجيب عنها، كلّ القرارات اتُخذَتْ، وكلّ الاحتمالات عُرفتْ. لا يعرف المؤمن الصادق الحيرة أو التردّد. إنّ العقيدة الصحيحة هي المفتاح الرئيس لكلّ مشكلات العالم، ويمكننا عن طريق هذا المفتاح أن نبعثر العالم، ونعيد تشكيله من جديد». وهو في ذلك لا يقصد عقيدةً بعينها، وإنما يصف المؤمنين الموقنين في كلّ زمان ومكان، بل إنّه يقدّم أمثلة من المتشبّعين بالفكر الماركسي في أيام فورته، وظهور حركات ثورية التي كانت تحاول فرض هذا الفكر بالعنف والاغتيالات وحرب العصابات، مع الدعاية الكثيفة الملحة...

إنّ تنظيم القاعدة يبرّر أشنع الوسائل من أجل ما يعتبره غاية عظيمة. فقتْل الآلاف الأبرياء في برجي التجارة العالمية ليس سوى مثالٍ على التفكير التبريري لهذا النوع من الحركات. فهي تستبيح قتل الأبرياء الذين لا علاقة لهم بأي صراع من أجل إهانة أميركا. فالغاية هنا تبرر أبشع وأفظع وسيلة، وهي لا تكتفي بالتعبير عن قدرتها على الوصول، والفتك بحدث واحد معبِّر، وإنما تواصل أعمال التفجير والتدمير، التي يموت بها أبرياء بشكلٍ جماعيٍّ، في أمكنة مختلفة من العالم، مع أنّ المقتولين ليس لهم أي علاقة بالصراع. إن هذا القتل الجماعي الفظيع ربما لأول مرة يتاح فعله بهذه الصّورة البشعة، باستثناء القتل الجماعي في هيروشيما وناغازاكي. إنّ الغاية مهما بلغت لا تبرّر قتل الأبرياء. لكنّ اليقين الأعمى بالصواب لا يترك مجالًا للتعقُّل والتروي والمراجعة. فليس أفظع من أن يجري كل هذا البلاء باسم الله وتحت راية الإسلام، إنها مفارقات مفزعة إلى أقصى حدود الفزع والاشمئزاز...!!!

إنّ أشد المعضلات البشريّة استعصاء هي المعضلات الثقافيّة، والحواجز النفسيّة التي تنتُج عن الاختلافات الثقافيّة، وهي معضلات وحواجز تعمّقها وتكرّسها وتؤجّجها المدارس والجامعات، بدلًا من أن تعالجها وتخفّف من سطوتها. فهذه المعضلات لا ينشغل بها سوى فلاسفة ومفكّرين محدودي العدد، تبقى أفكارهم غير متداولة بل تتحرّك في نطاق شديد الضيق، فلا تؤثّر على التفكير العام، ولا تُسهم في تبصير الناس عن المعضلات الحقيقيّة التي لا يدركونها. وعلى سبيل المثال، فإن مقولة شوبنهاور:

«كلُّ إنسان يجعل من حدود رؤيته حدودًا للعالم بأسره»، هي مقولة صادقة كلّ الصدق، ولكنّ الناس يجهلون هذه الحقيقة الأوَّلية عن أنفسهم، فيبقون غارقين في العمى والوهم. فلا ينتبهون للنتائج المدمِّرة التي تنجم عن هذا الجهل المركَّب المحصَّن باليقين الأعمى. وقد أكَّد علم النفس صدق هذه المقولة، كما أكَّد النتائج المدمِّرة الناجمة عنها. وكما يستنتج عالم النفس آرون بيك في كتابه (العلاج المعرفي): «البشر قلَّما يرتاب أحدهم في صحة أفكاره، فهو يعتبرها صورةً للعالم الخارجي، ويُلصق بها الدرجة نفسها من قيمة الصدق التي يُلصقها بمدركاته الحسيّة للعالم الخارجي». إنّ هذه الحقيقة لو وعاها الناس وأدركوا الشرور الفظيعة التي تنتج عنها لكانوا أقلّ اندفاعًا لآرائهم العمياء، ولوضعوا تصوّراتهم ومسلَّماتهم وكلَّ محتويات أذهانهم تحت مجهر التحليل والفحص والغربلة قبل الإقدام على أعمال تُلحق ضررًا فادحًا بهم وبغيرهم، ولكانت الخلافات أقلَّ حدَّة. وربما تتراجع الكثير من الشرور المتبادلة بين الأفراد والفئات والمذاهب والطوائف والثقافات والأمم، فتفهيم الناس حقائق الطبيعة البشريّة، هي من أوجب الواجبات التعليميّة والإعلامية...

إن الطبيب أيمن الظواهري لا يمثّل حالة فرديّة، وإنّما هو واحدٌ من ملايين المتعلّمين يرون رأيه. وهذا يؤكّد ضآلة تأثير التعليم قياسًا ببرمجة الطفولة التلقائيّة والتنشئة العمياء التي لا تعرف العقل النقدي ولا تعترف به. إن الطبيب الظواهري قد تخلّى عن مهنة الطب، وعن كل ما في هذه المهنة من وجاهة ورفاه. فحرَم نفسه من مباهج الحياة، وانخرط في صراع مشبع بالخطر والمشقّة، ولست أشكّ بأنه صادقٌ مع نفسه كل الصدق وبأنه مؤمنٌ بما يفعل، ومخلصٌ لما يؤمن به. لكنّه أخطأ خطأ فادحًا في الفهم وفي الممارسة، فالإخلاص ليس دليلًا على الصواب، ولكنّ الناس يخلطون بينهما، فلا يدركون أن أكثر المذهبيين اندفاعًا وغلظةً مع المخالفين هو أشدهم يقينًا بإخلاصه بسبب الثقة العمياء التي يخلقها الإحساس بالإخلاص. فالخلط بين الصواب والإخلاص قد جَلَبَ على العالم ما لا حصر له من الشرور. فأكثر الفظائع والمذابح في الماضي والحاضر قد ارتكبها مخلصون أخطأوا الفهم وضلّوا سبيل الصواب، ولكنّ إخلاصهم جعلهم يثقون ثقة عمياء بالاتجاه الذي انخرطوا فيه...

إن نموذج الظواهري والسميط وغيرهما، من النماذج المماثلة، وكذلك أوضاع

المجتمعات وارتباطها التلقائيّ العميق بما تتوارثه عن أسلافها، تُقَدِّم رؤية ساطعة ودليلاً قاطعًا بأن دوافع الإنسان وفاعليّاته ليست مرتبطة بما يدْرسه اضطرارًا كوسيلة للعيش، ومدْخلًا للعمل. وإنما تنبع الدوافع وتتدفّق الفاعليّات من أعماق الإنسان، أي من ولاءاته العميقة، واهتماماته التلقائيّة التي تبرمَج بها في طفولته وتعمّقتْ على امتداد حياته. وفي الغالب، تكون هذه الأعماق مبرمَجة بالشحن العاطفي وليس بالتأصيل العلمي...

فالطبيب الكويتي عبدالرحمن السميط دَفَعَه السعي إلى مرضاة الله سبحانه إلى أن يهجر مجال الطب والحياة الرخيَّة المرفّهة في الكويت، ويذهب لمجاهل صحارى أفريقيا، يدعو إلى الله، ويساعد الفقراء بحفر الآبار وإنشاء الملاجئ وإقامة المؤسسات الدعوية والخيرية. وقد كرَّمته الكويت ليس بوصفه طبيبًا، وإنما بوصفه داعيةً وناشطًا في الأعمال الخيرية، وهو نموذجٌ على أن المحرك الحقيقي للتفكير والسلوك ليس التخصّص الدراسي، وإنما هو الاهتمام التلقائيّ العميق الذي يخالط النفس، ويجري من الإنسان جريان الدم ويسري فيها سريان الحياة. ولكنْ إذا كانت تنشئة السميط قد جعلته رجلًا من رجال الخير والإصلاح والتسامح والبر وبَذْل النفع للأبعدين. فإن آخرين يتبرمجون بالحقد والرغبة المهووسة بالقتل والتدمير، ويتوهّمون أنهم بذلك ينفّذون شرع الله!!!...

أما الطبيب عدنان إبراهيم، فهو نموذجٌ نادرٌ مغايرٌ لما هو سائد بشكلٍ عامٍّ. إنه في ثقافته الإسلاميّة العميقة، وفي رؤيته الإنسانيّة المفتوحة مغاير لما هو شائع من صور التديّن، سواء في الاتجاه الدعوي الخيري كما هو عند السميط، أو في الاتجاه الجهادي، كما هو عند الظواهري. ولو أتيح للاتجاه الذي يمثّله عدنان أن يتّسع ويسود بالتلاحم مع الاتجاه الذي يمثّله السميط لكان لنا نحن العرب والمسلمين وضعٌ مختلفٌ عما نحن عليه...

إن التاريخ والواقع يزخران بشواهد لا حصر لها، تؤكّد أنه ليس أخطر من أن يلتفّ جموعٌ من الناس حول قيادة تؤمن بالعنف سبيلًا وحيدًا للتعامل مع المغايرين والمخالفين، حيث يسودهم اقتناعٌ مطْلق بأنهم يملكون الحقيقة المطْلقة وأنهم على

الحق المبين، وأنّ كل الذين ليسوا معهم هم أعداء الله، ويجب تطهير الأرض منهم، ولا يقتصر هذا التجريم الشامل ولا الرغبة المحمومة بالاستئصال على أهل الديانات الأخرى، وإنما يكون الحقد الفظيع على المخالفين من الدين نفسه أشد وأعنف، كما حصل بين المذاهب المسيحيّة عند نهاية العصور الوسطى، إنها مأساة الإنسانيّة كلّها فالأصل في الإنسان من كل القوميّات والأديان والمذاهب والاتجاهات، إنه يتبرمج تلقائيًّا بأنه قد خُصَّ بالحق ابتداءً، فهو يستبعد وضْع محتوى ذهنه تحت مجهر التحليل والمراجعة والتمحيص...

إنّ الناس في كلّ المجتمعات، ومن جميع الأمم، ومن كل القوميات والأديان، وكافة المذاهب والاتجاهات، وعلى امتداد العصور يتبرمجون تلقائيًّا بما هو سائد في البيئة، وينشأون وهم يرون أن ما تبرمجوا به هو الحق المطلق، وأن الآخرين المخالفين أشرارٌ وضالّون وحقيرون وأنجاس وتافهون ومجرمون، ولا يستحقّون الحياة. لذلك فإن توطين الفكر النقدي في كل المجتمعات هو مفتاح الحلّ لهذا التأزُّم الثقافي العالمي. إن التوجُّه نحو هذا الهدف الإنساني العظيم يجب أن يكون همُّ المنظمات العالميّة خصوصًا اليونيسكو...

الفهرس

إهـــداء..5

تقديم..7

القسم الأوّل :مدخلٌ عامٌّ..11

القسم الثاني..75

مقارنةٌ بين:..75

1 – الطّبيب الفيلسوف وليم جيمس..75

2 - والطبيب الإرهابي غولدشتاين..75

تشابهاً في التخصص، تضاداً في الاتجاه..76

تخرَّج طبيًا وبقيَ محكومًا ببرمجة الطّفولة.......... 108

القسم الثالث 127

مقارنة بين:..127

1- الطّبيب الفرنسي الزعيم جورج كليمنصو..127

2- وطبيبٍ عربيٍّ حاكمٍ من أجل المقارنة الثقافيّة..127

القسم الرابع..179

مقارنة بين 179

1- الطبيب الأديب الشَّاعر جون كيتس..179
2- والطبيب الثائر المحارب تشي غيفارا 179
القسم الخامس 225
مقارنة بين: 225
1 - الطبيب الفيلسوف غوستاف لوبون 225
2 - الطبيب القائد السياسيّ مهاتير محمد 225
القسم السادس 273
مقارنة بين: 273
1 - الطبيب المبدع التّنويري يوسف إدريس 273
2 - أطبّاء ضدَّ التّنوير 273
القسم السابع..325
مقارنة بين 325
1 - الطّبيبُ الفيلسوفُ كارل ياسبرز..325
2 - الطّبيبُ السفّاحُ رادوفان كاراديتش..325
القسم الثامن: خاتمة الكتاب، دعوة لتحرير العقل البشري 369

عبقريّةُ الاهتمامِ التّلقائيّ

إبـراهيم البليهي

إن هذا الكتاب هو الأوّل من كُتُب أخرى عن (عبقرية الاهتمام التلقائيّ)، وهي كلّها تأتي لتأكيد أن (الإنسان كائنٌ تلقائيٌّ)، وأن التعليمَ القسريَّ مضادٌّ لطبيعة الإنسان التلقائيّة، وأن قابليّات الإنسان لا تنفتح إلا بدوافع من داخل ذاته. فالكتابُ يقدّمُ شواهد من كل المجالات على خصوبة التعلّم، رغبةً واندفاعًا، وعُقم التعلّم كُرْهًا واضطرارًا. إنه احتجاجٌ ضد تضييع الأعمار والأموال والزمن في تعليم قسريٍّ يضطرّ إليه الدارسون، لكي يفتحوا لأنفسهم أبواب العمل، ولكي يعترف بهم المجتمع الذي فرض التعلّم كُرْهًا واضطرارًا بأسلوب إكراهيٍّ منفّرٍ وعقيم.

هذا الكتاب مرافعة فكريّة، ضدَّ التعليم القائم على الامتثال وطمس النزعة الفردية، والخلط بين المعلومات والمعرفَة، فالمعلومات موادّ لبناء المعرفة وليست معرفةً. المعرفة الحقيقيّة هي التي يجري تمثّلها بواسطة الاندفاع التلقائيّ بالشغف العميق، والممارسة الحيّة، والمعايشة الحميمة، فتمتزج في الذات وتصير جزءًا من عتادها الذاتي التلقائيّ، فتكون دائمة الجاهزيّة وتلقائيّة الاستجابة. كما أن التعليم بوضعه الحالي يوهم بأن المعرفة النظريّة هي تأهيلٌ للأداء العملي وللمهارة المهنيّة، مع أن بينهما اختلافًا نوعيًّا، وليست هذه سوى بعض نتائجه الضارّة لكل الأجيال في كلّ الأمم...

وعلى الرغم من أن التقدّم الحضاريّ في كل مجالاته هو نتاجُ ومضاتٍ فرديةٍ خارقةٍ، إلا أن هذا الكتاب ليس عن أشخاصٍ، بل يستشهد بالأشخاص كأمثلة ونماذج لإثبات الفكرة، أو الأفكار التي يقدّمها. فالأشخاص هنا هم شهود القضيّة، سواء في كونهم من الروّاد القلّة الذين يتحرّكون عكس اتجاه التيّارات السائدة، أو كونهم ذائبين في التيّارات العامّة، كما هي حال الأكثريّة من المتعلّمين مهما حملوا من شهادات. فالاندماج في القطيع هو الأصل، أما الانفكاك من ذلك فهو العمل الريادي الاستثنائي...

لوحة الغلاف: ماغريت

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة